



كلية الآداب



جامعة الإسكندرية

محكمة

علمية

مجلة كلية الآداب

العدد ٥٣
م ٢٠٠٤



اللغة

العربية

وآدابها

في أدوات التحضير

د. سعد حسن حمودة

مدرس بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية التربية - جامعة المنصورة

في أدوات التحضيض

د. سعد حسن حمودة

المحتويات

١

اللغة العربية وآدابها

● في أذوات التحضيض

د. سعد حسن حمودة ٣

● الطيف في شعر البحتري "الصور والدلالات"

د. ناهد أحمد السيد الشعراوي ٣٥

● المفارقة في أدب طه حسين "دراسة في جنة الشوك"

د. نجوى محمد حسين صابر ٧٢

● من المنظور النفسي في الإبداع "التغريب في القصيدة النثرية الحديثة معبراً"

د. نصر عباس ١١٢

١٤٧

التاريخ

● كردستان العراق : "ملاقات المشائر بالسلطة ١٩٠٨ - ١٩١٤"

د. خالد السعدون ١٤٩

● الأسس التي اعتمد عليها الأمويون لإثبات حقهم في الخلافة

د. زينب مرزوق المعاينة ١٨٢

● علاقة الكويت بالدولة العثمانية "منذ النشأة حتى عام ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م"

د. فيصل عبد الله الكندري ٢٠٢

● المساعدات الاقتصادية بين دول الشرق الأدنى

القديم وأبعادها السياسية والإقتصادية

د. وفاء أحمد السيد بدار ٢٢٢

الجغرافيا وتنظم المعلومات الجغرافية (٢٦٣)

- اللغات في العالم من منظور جغرافي
أ.د. محمد خميس الزوكة ٢٦٥
- التطور الجيومورفولوجي لمنطقة مصب رشيد خلال القرن العشرين
د. ممدوح تهاى عقل ٢٩٩

علم الاجتماع (٣٨٧)

- إرتداء الحجاب ونسق القسبط الاجتماعي في المجتمع الريفي والحضرى
دراسة سوسيو أنثروبولوجية بين الطالبات الجامعيات
د. هاتن محمد عبد الغفار شريف ٣٨٩

الأنثروبولوجيا (٣٤٥)

- الجريمة والسلوك الإتحرافي في ظل العولمة الثقافية
دراسة أنثروبولوجية لجرائم الإنترنت
د. مصطفى عمر حمادة ٤٤٧

مراجعات الكتب: (٤٩٣)

- الصناعات الغذائية في مصر، تحليل في التنظيم المكاني والتركيب والأداء
عرض أ.د. محمد إبراهيم رمضان ٤٩٣
- النظرية السياسية التسوية
عرض أ. هانى خميس أحمد عبده ٥٠٨

مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية



مستشارو التحرير

أ.د. لطفى عبد الوهاب يحيى
أ.د. عمر عبد العزيز عمر
أ.د. محمد علي الكردى
أ.د. فتحى محمد أبو عيانة
أ.د. محمد أحمد بيومى
أ.د. خليل حلمى السيد خليل
أ.د. محمد عباس إبراهيم
أ.د. أولجا مطر محمد غازى

سكرتير التحرير

الآنسة / شيرين لطفى

إشراف وإخراج فنى

عبد الفتاح محمود الحضرى

الرئيس

أ.د/ جمال محمود حجر

عميد الكلية

نائب الرئيس ورئيس التحرير

أ.د/ محمود أحمد نجلة

ومكمل الكلية للدراسات العليا والبحوث



تقدم البحوث وتوجه جميع المراسلات
باسم الأستاذ الدكتور / وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث
ورئيس تحرير مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
الشاطبي - الإسكندرية
جمهورية مصر العربية

افتتاحية العدد

بين يدي القارئ العزيز العدد الثالث والخمسون من مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية في ثوبها الجديد الذي بدأناه مع العدد الأول بعد الخمسين.

وتصانف الإعداد لإخراج هذا العدد مع تعييني عميداً للكلية، وما ترتب على ذلك من إعادة ترتيب الأمور فتحملت مسئولية رئاسة مجلس الإدارة إلى جانب رئاسة التحرير، وهو ما تسبب في تأخير صدور هذا العدد لبعض الوقت، وإذا أقدم اعتذاري عن هذا التأخير للزملاء الذين ساهموا في إثراء هذا العدد بمقالاتهم، وللقرءاء الذين كانوا ينتظرونه في موعده، فأبني أهد للجميع أن العدد التالي سيصدر في موعده تحت إشراف أ.د. محمود أحمد نحلة وكيل للكلية للدراسات العليا والبحوث ورئيس التحرير.

وتولكب مع الإعداد لهذا العدد صدور عدد من الإصدارات الخاصة التي تخضع لذات المعايير التي تخضع لها المجلة الأم في التقويم والإعداد والنشر.

وفي هذا العدد أربع عشرة مقالة، منها أربع مقالات في اللغة العربية وآدابها، وأربع مقالات في التاريخ، ومقالتين في الجغرافيا، ومقالة في علم الاجتماع وأخرى في الأنثروبولوجيا، وواحدة في اللغة الإنجليزية، وأخرى في الأدب الفرنسي.

وشارك في إثراء هذا العدد كوكبة تمثل الجامعات العربية والمصرية فضلاً عن أهل البيت من كلية الآداب جامعة الإسكندرية.

والمجلة إذ ترحب بمشاركة الزملاء من كافة الجامعات المصرية والعربية لتؤكد للجميع أنها حريصة كل الحرص على المحافظة على معايير الجودة لتخرج كعهدنا بها بالصورة المناسبة مظهراً ومخبراً.

والله الموفق

أ.د. جمال محمود حجر



المقدمة

تناول النحاة حروف الحض فى مصلفاتهم على أنها تقدم دلالات معينة فى السياق، وقد ألمحوا إلى هذه الدلالات من خلال النماذج التى قدموها، وإن كنت أرى أن إشاراتهم إلى استعمالها إشارات سريعة، لم تتوالت عند المعنى والمعنى، بحيث تجلو لنا جوانب مهمة تزيد الدرس عمقا، وتثرى ما قد يترتب على ذلك من فوائد تتصل بنتائج الدرس.

أقول هذا، لأننى رأيت من صنيع النحاة ما قد بلغت إلى ظاهر الوصف، وهم يتكلمون عن أدوات الحض، وربما عن الأدوات بشكل عام. وأسارع فأقول إن هذا ليس استدراكا على النحاة، ولا هو من قبيل المأخذ، وإنما قد يكون من قبيل الاقتراح، لو النظر، الذى يدعو إلى تأصيل بعض الدرس النحوى من خلال النصوص القرآنية، واجتهادات المفسرين فى مسائل التأويل والتفسير.

ولول ما رأيت فى حاجة إلى مثل هذا التأصيل بحثنا الذى نحن بصكده، إذ من المفسرين من وقف على ما لم يلتفت إليه النحاة، مع أنه متصل اتصالا وثيقا بمباني هذه الأدوات ومعانيها.

والحق أن الأدوات التى نقمها، ليست متصورة على معنى الحض حسب، وإنما لها معان أخرى يحددها مجئ الأفعال بعدها، صيغة وزمنا. هذه المعانى مجتمعة، لم نشأ أن ندخلها فى حساب الدرس، حتى لا يأخذ شكلا آخر غير كونه بحثا يعد للنشر. ومن ثم كان العمل متضمنا معنى الحض فقط.

وجاء هذا العمل وفق التقسيم التالى :

أولا : مخلى إلى البحث يهدف إلى بيان علاقة الحض - مصطلحا - وما يصدر عنه من أصل لغوى، ثم إشارة سريعة إلى آراء النحاة والمفسرين فى تركيب أدوات الحض، مع عرض موجز للرأين.

ثانيا : للمبحث الأول "ألا".

ثالثا : المبحث الثانى "لولا".

رابعا : المبحث الثالث : أ - "لوما".

ب - "هلا".

ثم بعد ذلك خاتمة تلخص أهم نتائج البحث فى واقعها الطبيعى. ينتهى هذا
البحث بقائمة المصادر والمراجع التى اعتمد عليها هذا العمل.
مدخل

يبدو أن مصطلح الحض يصدر عن أصل لغوى ، وذلك لالتقاء المعنى
المعجمى بما تواضع عليه النحاة فى استعمالهم للأدوات التى جعلوها لهذا
المعنى. والذى يؤكد هذا أن مادة (حض) تدل - فيما تدل عليه - على الحث
والإحماء^(١)، وهذا ما قال به النحاة ، السابق منهم واللاحق. يقول ابن الحاجب:
"حروف التحضيض: هلا ، وآلا، ولولا، ولوما ، لها صدر الكلام .."^(٢). ويقول
الاسترأبى معلقا على هذا: "... ومعناها فى المضارع الحض على الفعل
والطلب له."^(٣). ويقول ابن يعيش: "وحيث حصل فيها معنى التحضيض، وهو
الحث على إيجاد للفعل وطلبه ، جرت مجرى حروف الشرط فى اقتضائها
الأفعال."^(٤)، ولكن ابن هشام يضيف مصطلحا آخر فى معنى الحض ، يسميه
عرضا ، فيقول : "العرض والتحضيض ومعناهما : طلب الشئ ، ولكن العرض
طلب يلين ، والتحضيض طلب يحث."^(٥) ويقول ابن عقيل: "وإن قصدت بهما"^(٦)

-
- (١) القاموس المحيط مادة "حض".
 - (٢) الكافية : ٢٨٧/٢ .
 - (٣) الكافية : ٢٨٧/٢ .
 - (٤) شرح المفصل : ١٤٤/٨ .
 - (٥) المعنى : ٦٩/١ .
 - (٦) قصد لولا ولوما .

الحدث على الفعل كان مستقبلاً بمنزلة فعل الأمر. ^(٧) ثم يقول : "بقية أدوات التحضيض حكمها كذلك." ^(٨)

ويرى ابن يعيش أن هذه الأدوات "مركبة" ، تدل مفرداتها على معنى ، وبالضم والتركيب تدل على معنى آخر ، لم يكن لها قبل التركيب. ^(٩) وعلى ما ذهب إليه تكون :

"لولا" مركبة من :

لو ← التي معناها امتناع الشيء لامتناع غيره
ولا ← التفي
"لوما" مركبة من :

لو + ما
"هلا" مركبة من :

هل + لا
"ألا" مركبة من :

أن + لا ^(١٠)

خلاصة مذهب النحويين في حروف التحضيض ، أن التحضيض يكون على شيء لم يقع بعد ، من قبل أنه حدث "على إيجاد الفعل وطلبه" ^(١١) . ولذلك جرت هذه الحروف مجرى حروف الشرط "في اقتضاءها الأفعال ، فلا يقع بعدها مبتدأ ولا غيره من الأسماء" ^(١٢)

ولكن الشيخ السرازي له رأى يخالف به قول ابن يعيش في تركيب هذه

(٧) شرح ابن عقيل : ٣٩٤/٢ .

(٨) شرح ابن عقيل : ٣٩٤/٢ .

(٩) شرح المفصل ١٤٤/٨ والمقتضب : ١٦/٣ .

(١٠) انظر : شرح المفصل : ١٤٤/٨ .

(١١) شرح المفصل : ١٤٤/٨ .

(١٢) شرح المفصل : ١٤٤/٨ .

الأدوات، وما يترتب عليه من معنى. هذا الرأى قائم على أن معنى هذه الأدوات بعد التركيب موصول السبب بجزئى التركيب قبل ضمهما فى كل لداة على النحو الذى رأينا . خلاصة رأى الشيخ كما يلى :

أولاً : "هلا" كلمتان : أ - "هل" وهو استهتام وعرض ، لأنك إذا قلت للرجل هل تأكل ؟ هل تنخل ؟ فكانك عرضت عليه ذلك .
ب - "لا" وهو جحد .

وعلى ذلك تكون "هلا" مركبة من : العرض + الجحد .
"تهلا فعلت كذا ؟ كأنك قلت : هل فعلت ؟ ثم قلت معه "لا" ، أى : ما فعلته ، فنيه تنبيه على : - وجوب الفعل .

- وعلى الإخلال بهذا الواجب^(١٣) .

فمن هنا كان الحض على ما يلزم فعله ، وعلى عدم الإخلال به ، ومن هنا أيضاً كان ينقاس على هلا معنى الحض .

ثانياً : "لولا" مركبة مما أصله : لَمْ + لا . معنى التركيب التحضيض والحث .
فإذا قلت : لَمْ لا أكلت ؟
ولَمْ ما أكلت ؟

جاز الاستهتامان . ويكون المعنى حينئذ : لا علة لعدم الأكل ، ولا يمكن ذكر علة له ، كما نقول : لَمْ فعلت ؟ مويخا ، يكون معناه فعلت أمراً لا سبب له ولا يمكنك ذكر سبب له ، ثم إنهم تركوا حرف الاستهتام عن العلة^(١٤) وأتوا بحرف الاستهتام عن الحكم ، فقالوا : هلا فعلت ؟ كما يقولون فى موضع : لَمْ فعلت هذا وأنت تعلم فساده ، أنتعل هذا وأنت عاقل ؟ وفيه زيادة حيث ، لأن قول القائل :

(١٣) انظر هذا فى مفتاح الغيب : ١٨٠/١٦ .

(١٤) يقصد "لَمْ" .

لم فعلت حقيقته سؤال عن العلة ، فالعلة غير معلومة وغير ظاهرة ، فلا يجوز ظهور وجوده.

وقوله: أفعلت؟ سؤال عن حقيقته ، ومعناه أنه فى جنسه غير ممكن^(١٥) وعلى ذلك نقول :

إن القائل : لم فعلت ؟ مع العلم بما فيه دليل الإصابة فى الفعل لعلة خفية يُطلب منه .

وغير ذلك للمعنى قول من يقول : أفعلت مع العلم بما فيه ، دليل الخطأ فى أول الأمر .

ولذلك يقول الرازى : "وإذا علم ما بين : لم فعلت وأفعلت ؟ ، علم ما بين : لم تفعل وهلا تفعل ." ^(١٦)

ثم يقول الرازى عن "لولا" : "لولا تدل على الاعتصاف ، وتزيد نفى النظر والتوالى لأنه دل على نفى ما دخلت عليه ... وفيه لطيفة ، وهى أن "لولا" تدخل على فعل ماض على مستقبل .." ^(١٧)

إن هذا المعنى ربما يفسر لنا كثرة مجئ لولا فى النص الكريم بمعنى الحض .
ثالثا : يُجمل الرازى تركيب أدوات التحضيض فى قوله : "ويمكن أن يقال : أصل الكلمات لم لا ، على السؤال ، كما يقول القائل : إن كنت صادقا فلم لا يظهر صدقك؟ ثم إنمّا قلنا: الأصل : لم ، لكونه استقهما أشبه قولنا هلا ."^(١٨) ثم يذكر الرازى الحكمة فى هذا . فيقول : "وهى - أى الحكمة - أن النافى والنهائى

(١٥) مفاتيح الغيب : ١٥٣/٢٩ بتصرف .

(١٦) مفاتيح الغيب : ١٥٣/٢٩ .

(١٧) مفاتيح الغيب : ١٥٣/٢٩ .

(١٨) مفاتيح الغيب : ١٧٢/٢٩ .

لا يأمر أن يكتب المخاطب، فعرض بالنفي لنلا يحتاج إلى بيان النفي. إذ ثبت هذا فالاستفهام "يهل" لإتكار الفعل، والاستفهام بـ(لم) لإتكار سببه.^(١٩)
هكذا نرى تركيب هذه الأدوات متصلاً اتصالاً وثيقاً بمفرداتها قبل التركيب وليس كما زعم النحاة. لأن آيات الحض التي جئنا بها في الدراسة تثبت ذلك ولا يتعد عنه.

(١٩) منافع الغيب : ١٧٢/٢٩ .

المبحث الأول

"ألا"

"ألا" حرف تتعدد دلالاته وفق السياقات، بين أن يكون تنبيها، أو استفهاما، أو حضا وعرضا، لكن وجهة الدرس- إن شاء الله - ستكون مقصورة على معنى العرض والحض في هذا الحرف، وفي غيره من حروف الحض. استعمالات هذا الحرف في القرآن الكريم كثيرة. ولكن يبدو أن استعماله لمعنى الحض، فيه شئ من الندرة. هكذا بدا لي الأمر. على أية حال، هذا ما وقع عليه النظر وأنا أتابع في كثير من سور القرآن الكريم. يقول الله تعالى :

[البقرة ٢١٢٤]

(أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)

[النور ٢٢]

(أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يُعَذِّبَ اللَّهُ لَكُمْ)

[التوبة ٣٣]

(أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)

بتحليل هذه النصوص نجد استعمالات "ألا"- حرفا للتحضيض- على هذا النحو:

(ألا + جملة اسمية منسوخة بحرف)

(ألا + جملة فعلية) الجملة الفعلية ، مفعولها يؤول بمصدر

(ألا + جملة فعلية) المفعول فيها صريح

وعن قول الله عز وجل : (ألا إن نصر الله قريب) .

يقول الزمخشري: "على إرادة للقول، يعنى قتل لهم ذلك إجابة لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر."^(١) فهذا- في رأيي- حض على الثبات والتصبر، إذ لا شك في مجيئ النصر، لأنه قول رسول. وإن كان رأى الجمهور على أن "ألا" حرف استفهام في هذه الآية.

(١) الكشاف : ٢٥٧/١ .

يؤكد كلام الزمخشري - ولعله يؤكد ما ذهب إليه من كون "ألا" حضا - قول الشيخ الرازى: "تقدير الآية: هكذا كانت حالهم إلى أن اتاهم نصر الله ولم يغيرهم طول البلاء عن دينهم، ولنتم يا معشر المسلمين كونوا على ذلك وتحملوا الأذى والمشقة فى طلب الحق، فإن نصر الله قريب، لأنه أتى، وكل ما هو أت قريب" (٢) ألا يدل هذا على معنى الحضر؟ أليس من قبيل الحدث على التذرع بالصبر إدراكا للفوز بالنصر؟

قلنا فى تحليل هذه الآية الكريم بن:

"ألا" + جملة اسمية منسوخة بحرف

ولكن مذهب النحويين فى حروف الحضر، على أنها تجرى مجرى حروف الشرط فى اقتضائها الأفعال. فكيف نفسر ذلك؟ يقول سيبويه: "وتقول: لولا خيرا من ذلك، وهلا خيرا من ذلك، أى: هلا تقل خيرا من ذلك" (٣) ويقول: "ويجوز رفعه على معنى: هلا كان منك خير من ذلك .. قال جرير:

تُعَذِّونَ عَقْرَ النَّيْبِ أَفْضَلَ مِنْكُمْ بَنَى ضَوَّطَرَى لَوْلَا الْكَيْمُ الْمُقْتَعَا (٤)

ويقول ابن عقيل: "وبقية أدوات التحضيض حكمها كذلك" يقصد حكمها حكم "لولا" و"لوما"، من حيث إنهما يختصان بالفعل. ثم يقول بعد ذلك: "... قد يقع الاسم بعدها - أى بعد حروف التحضيض - ويكون معمولا لفعل مضمر، أو لفعل مؤخر عن الاسم، فالأول كتقوله:

أَلَا بَعْدَ لَجَاجَتِي تَلْحُونَنِي هَلَا التَّعْمُ وَالْقُلُوبُ صِبَاحُ

(٢) مفاتيح الغيب: ١٨٧/٦ .

(٣) الكتاب: ٣١٢/٢ .

(٤) الكتاب: ٣١٢/٢ .

فالتقدم مرفوع بفعل محذوف ، وتقديره : هلا وُجد النّقد^(٥).

ومما جاء اسما بعد "الأ" :

الأ رجلا جزاه الله خيرا يذلّ على مُحصلة ثبيت

فإن "رجلا" منصوب بفعل محذوف - وذلك في بعض تخريجاته ؛ إذ التقدير كما يرى الخليل ابن أحمد: "ألا ترونني رجلا هذه صفته" فحذف الفعل مدلولا عليه بالمعنى^(٦). يقول ابن هشام عن تقدير الخليل: "واضمار الخليل أولى إضمار غيره؛ لأنه لم يُرد أن يدعو لرجل على هذه الصفة ، وإنما قصدّه طلبه^(٧)".
مما سبق يمكن التقدير في الآية للكرم: ألا تطمعون في نصر الله القريب. إنه لا ريب أن، وإنه لقريب ، لأنه أن.

وعلى ذلك يمكن القول بأن التركيب في هذه الآية الكريمة ، يمكن تفسيره

على النحو التالي :

١ - استخدم "الأ" أداة للحض لإفادة للطلب في صورة العرض؛ لأنه طلب بلين ورفق، كما قال ابن هشام، وهو ما يناسب الموقف، إذ القول قول المؤمنين، قالوه "على سبيل الاستبطاء؛ إذ ما حصل لهم من الشدة والابتلاء والزّلال ، هو للغاية القصوى. وتناهى ذلك وتمادى بالمؤمنين إلى أن نطقوا بهذا الكلام، فتبيل ذلك لهم إجابة لهم إلى طلبهم من تعجيل النصر^(٨) فلا بد من التناهي في الرحمة واللين.

٢ - العرض بهذه الصورة اللطيفة، يناسبها التأكيد على أن نصر الله قريب مهما تأخر لتهدأ النفوس، وتقر الأعين بنصر طال عليه الانتظار، بعدما رأوا ما رأوا من صنوف الشدة والابتلاء .

(٥) شرح ابن عيّل : ٣٩٥/٢ - ٣٩٦.

(٦) المغنى : ٦٩/١ ، وشرح ابن عيّل / ٣٩٦/٢ وأوضح المسالك : ٢٣٧/٤ .

(٧) المغنى : ٧٠/١ .

(٨) البحر : ١٤٠/٢ .

٣ - دلالة العرض فى "ألا" على النحو الذى بيناه ، يناسب دلالة التوكيد فى "إن"، من قبل أن التوكيد فيه من "تقوية النسبة وتقريرها فى ذهن السامع.. ودفع الشك فيها"^(٩).

٤ - معنى "إن" - مع أخواتها - يكون فى الأخبار. والخبر فى الآية قوله : (قريب) فهذا الذى كان يستعجله المؤمنون بعد عناء الانتظار. إنه للنصر البعيد القريب.

وعن قوله تعالى: (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يُغْفَرََ اللَّهُ لَكُمْ)

يقول الرازى: "قوله : (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يُغْفَرََ اللَّهُ لَكُمْ) فإنه سبحانه ذكره بكناية الجمع على سبيل التعظيم ، وأيضاً فإنه سبحانه علق غفرانه له على إقدامه على العفو والصنع، فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه."^(١٠)

ويقول أبو حيان: "... وحين سمع أبو بكر: "أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يُغْفَرََ اللَّهُ لَكُمْ" قال: بلى، أحب أن يغفر الله لى، ورد إلى مسطح نفقته، وقال: والله لا أنزعها أبداً"^(١١) وقال الفراء: "فقال أبو بكر: بلى يا رب. فأعادهم إلى نفقته."^(١٢).

دلالة هذه النصوص، الاستجابة لما تحض عليه الآية الكريم من حث على الإسراع إلى ما كان عليه الأمر، ينضاف إلى ذلك أن الشيخ الرازى جعل الكلام على سبيل الشرط، حيث علق العقوان على الإقدام على العفو. فهذا كلام النحويين، كما رأينا، ليس من قبيل اختصاص حروف الحض بالأفعال حسب، وإنما من قبل أن المسألة متعلقة بالإقبال على الفعل ، ومن ثم كانت الأفعال شركة

(٩) الصبان "محمد بن على الصبان" : حاشية الصبان على شرح الأشموني على الفية ابن مالك : ٢٧٠/١. دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

(١٠) مفاتيح الغيب : ١٦٥/٢٢ .

(١١) البحر : ٤٤٠/٦ .

(١٢) الفراء : أبو زكريا يحيى ت ٢٠٧ هـ : "معاني القرآن : ٢٤٨/٢ ، تحقيق الأستاذ محمد على النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

بين الحظ والشرط .

قد مر أن تحليل الآية الكريمة جاء هكذا :

"ألا" + جملة فعلية

الجملة الفعلية : تحبون + أن يغفر .

وكان يمكن أن تكون : تحبون + المصدر "الغفران".

ولكن المصدر حدث، وحروف الحظ لا بد لها من زمن، قد يكون ماضيا
فى معنى المستقبل أو يكون مضارعاً مستقبلاً. ولذلك قال تعالى: (ألا تحبون
...). ولما سمع أبو بكر قال: بلى أحب أن يغفر الله لى ، تعليقا على الاستقبال،
الزمن الذى سبرى فيه نتيجة الغفران.

إن دلالة "ألا" هنا فى هذه الآية الكريمة على :

١ - الطلب المتضمن للحث؛ لأن المقام يقتضى الانتهاء عن منع الإنفاق والعطاء،
والإصرار بمبالغة الإنفاق ، وخاصة أن مستطحا من نوى قريى أبى بكر بهذا ما
يتطلب الحث على الفعل ترغيبا فى الغفران الموعود. ولذلك رأينا

"ألا" + الفعل المضارع "تحبون"

وهو فعل مرغّب فى جزاء ، تكون للنفس المؤمنة أرغب ما تكون فيه،
خاصة حينما يكون الحث عليه من لدن عزيز غفار، نفعل الخيرات من أجله.

٢- وعلى أولوية المصدر الموزول بعدها (أن + يغفر)، تأكيداً على مقارفة الفعل
لانتظاراً للوعد الموقوت.

وعن قول الله سبحانه : (ألا تقابلون قوماً نكثوا أيمانهم .)

قال الشيخ الرازى: "اعلم أنه تعالى ذكر ثلاثة أسباب كل واحد منها يوجب
مقاتلتهم لو انفرد، فكيف بها حال الاجتماع. أحدها: نكثهم العهد ... وثانيها: قوله:

(وهموا بإخراج الرسول)... وثالثها قوله: (وهم بدعوكم أول مرة) يعنى بالقتال يوم بدر. «(١٣)

وينقل الرازى عن الواحدى فيقول: "حكى الواحدى عن اهل المعانى انهم قالوا: إذا قلت: لا تفعل كذا، فإنما يستعمل ذلك فى فعل مقدر وجوده، وإذا قلت: أمنتَ تفعل، فإنما تقول ذلك فى فعل تحقق وجوده، والفرق بينهما أن "لا" يُنفى بها المستقبل، فإذا دخلت عليها الألف صار تحضيضاً على فعل ما يستقبل. «(١٤) ويرى أبو حيان أن "ألا" حرف عرض، ومعناه هنا الحض على قتالهم. وزعموا أنها مركبة من همزة الاستفهام و "لا" النافية، فصار فيها معنى التحضيض. «(١٥)

بعد عرض هذه النصوص يمكن أن نقول :

- ١ - قد يكون الحض على فعل تكرمه النفس، فلا فكاك لها منه لأنه مكتوب.
 - ٢ - هكذا كان الحض على قتال الكفار لتعدد جرائمهم، وإن كان واحد منها كافياً فى الحض على قتالهم .
 - ٣ - إن هذه الجرائم قد تحقق وجودها بقينا، فكان الحدث على مقاومتها قد أصبح واجبا لا ينفى التقریط فيه .
- بعد هذا يمكن أن نتوصل إلى النتائج الآتية :
- أولاً: الحض نوع من الطلب يدعى إليه فى الاستقبال حسب، وفيه دليل على الحدث.
- ثانياً: والعرض من قبيل الطلب أيضاً، يدعى إليه فى الاستقبال، بيد أن فيه لبنا .

(١٣) مفتاح الغيب : ١٨٨-١٨٧/١٥ .

(١٤) مفتاح الطوم : ١٨٨/١٥ .

(١٥) البحر : ١٦/٥ .

ثالثاً: إن الطلب - حضاً وعرضاً - متصل بسبب في الماضي على النحو التالي :

١ - طال صبر المؤمنين في انتظار النصر ، فجاء الحضر على التذرع بالصبر ،
لأنه أت لا ريب .

٢ - امتنع أبو بكر عن تقديم ما كان يقدم لمسطح من خير ، فلما علم ترغيب الله
في ألا يمنع ، رجع طمعاً في المغفرة بعد ذلك .

٣ - تعد جرائم الكفار في الماضي ، دعوة إلى قتالهم .

المبحث الثاني

"لولا"

للولا استعمالات كثيرة. ولولا أننا نقصر الكلام عنها - حرفا للحض والعرض - لطال الحديث عنها ليتسع بحثا مستقلا. بقول ابن هشام عن استعمالات "لولا" الثاني: أن تكون للتحضيض والعرض فتختص بالمضارع أو ما في تأويله - والفرق بينهما أن التحضيض طلب بحث وإزعاج ، والعرض طلب بلين وتأنب^(١).

وعن استعمالات لولا في القرآن الكريم، فقد جاءت بكل معانيها التي تحدث عنها النحاة تقريبا. بيد أنه كان لمعناها في الحض والعرض نصيب وافر في القرآن ، يفوق بكثير مثيلاتها التي وردت في القرآن أيضا. وقد رأيت أن أصنف الآيات التي جاءت فيها "لولا" حضا وعرضا على النحو التالي :

أولا : [لولا + فعل ماض] :

(لولا أنزلنا عليه كثر) [هود ١٢] البحر ٢٠٧/٥

البحر ١٢٣/٧

(لولا أخرتنا إلى أجل قريب) [النساء ٧٧] البحر ٢٩٨/٣

(قلولا إذا بلغت الحثوم ..) [الواقعة ٨٢] البحر ٢١٥/٨

(لولا أخرتني إلى أجل قريب ..) [المنافقون ١٠] البحر ٢٧٠/٨

٢٧٤

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ..) [التوبة ١٢٢] البحر ١١٤/٥

(وإذا لم يأتهم بأية قالوا لولا اجتبيتها) [الأعراف ٢٠٣] البحر ٤٥٠/٤

(١) المعنى : ٢٠٧٤/٧ ، وانظر معاني القرآن : ٨٥/٢ ، وأوضح المعالك : ١٣٦/٤ .

ثانياً : [لولا + فعل مضارع] :

(لَوْلَا يَكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْصِتُنَا آيَةً) [البقرة ١١٨] البحر ٣٦٦/١

(لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِمُلْكٍ بَيِّنٍ) [الكهف ١٥] البحر ١٠٦/٦

(لَوْلَا تُسْتَعْتَفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَغَلُوبٌ دُونَكُمْ) [النمل ٤٦] البحر ٨٢/٧

(فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ..) [الواقعة ٥٧] البحر ٢١١/٨

(فَلَوْلَا تُنْكِرُونَ) [الواقعة ٦٢] البحر ٢١١/٨

أولاً : [لولا + فعل ماضٍ] :

قوله تعالى : (لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ)

يقول الشيخ الرازي: " .. فكأن القوم قالوا: إن كنت صادقاً في أنك رسول الإله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء.. فهلا أنزل عليك ما تستغنى به وتغنى أحبابك من الكد.. وإن كنت صادقاً فهلا أنزل الله معك ملكاً يشهد لك على صدق قولك .."^(٣). ويقول أبو حيان: "... لولا أنزل عليه كنز، هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة، ولم ينزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه."^(٤)

جاءت "هلا" عند الرازي وأبي حيان للدلالة على الحض، مما يجعل "لولا" هنا حضاً لا تنصرف إلى غير هذا المعنى. وكان الحض متعلقاً بما اقترحه من إنزال الكنز والملائكة، "ولم ينزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه."^(٥) والفعل "أنزل" ماضٍ مبنى للمجهول، للدلالة على التعجيز، من قبل إنزال الكنز من السماء على خلاف العادة، "فإن للكنوز إنما تكون في الأرض."^(٦)

(٣) مفتاح الغيب : ١٥٥/١٧ .

(٤) البحر : ٢٠٧/٥ .

(٥) البحر : ٥ : ٢٠٧ .

(٦) البحر : ٢٠٧/٥ .

على أن الفعل "أنزل" يمكن تأويله بالمستقبل، لأنهم لما اقترحوا الإنزال من السماء، كان اقتراحهم معلقاً على الاستقبال. ومن ثم أرى أن دلالة حروف الحض على المعنى الذى سُميت به، يجب أن تكون على هذه الصورة:

أى حرف من هذه الحروف + معنى الاستقبال

دليل على معنى الحض فى الحرف

وذلك أقيس من أن نقول :

حرف + فعل مضارع

لأننا وجدنا الحرف + الفعل الماضى فيه دلالة الحض.

إذا كان الماضى محمولاً على المستقبل ، كما رأينا فى هذه الآية الكريمة.

وما لزعمه هنا أن الحض فى مثل هذه الآية للكريمة ، هو من قبيل الحث على طلب الفعل مع إظهار التعتن طلباً للتعجيز .

وقوله تعالى : (لولا أخرتنا إلى أجل قريب)

يقول الزمخشري عن هذه الآية الكريمة: "... استزادة فى مدة الكف، واستمهال إلى وقت آخر .." (٧). ويقول الرازى: "... أى هلا تركتكم حتى نموت بأجالنا !". (٨). فهلا دليل الحض. يؤكد هذا قول أبى حيان: "ولولا للتحضيض، بمعنى: هلا، وهى كثيرة فى القرآن. والأجل القريب هنا، هو موتهم على فراشهم." (٩).

فى الآية : لولا + فعل ماض

حض على الترك ليموتوا بأجالهم على فراشهم؛ إذ الماضى هنا فى معنى الاستقبال؛ لأن تركهم ليموتوا. إنما يكون فى الاستقبال .

(٧) الكشاف : ٥٣٦/١ .

(٨) مفاتيح الغيب : ١٤٩/١٠ .

(٩) البحر : ٢٩٨/٣ .

وبعد تلك يمكن أن نسجل ما يأتى :

أ - الحض هنا من قبيل العرض يلى ، وإن كان صادرا من منافقين ، ذلك أنهم يتطلعون إلى :

١ - استزادة فى مدة .

٢ - واستمهال إلى وقت .

ب - إذا كان الأمر كذلك فبقنا نقول : من أعراض الحض والعرض :

○ الاستزادة فى طلب الفعل .

○ والاستمهال فيه .

وربما أكد هذا أن الفعل الذى يطلبه "لولا" يعد متعلقا لشبه الجملة الذى جاء

بعده هكذا أخرقنا ← إلى أجل قريب

فيتطلب "لولا" الفعل "أخر" دالا على الاستقبال وهو ماض.

ويطلب الفعل "أخر" دلالة الزمن المحضوض عليه المتمثلة فى شبه الجملة :

[إلى أجل قريب]

ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة (المنافقون) : "رب لولا أخرتنى إلى

أجل قريب^(١٠) يقول عنها أبو حيان : لولا أخرتنى : أى هلا أخرت موتى إلى

زمان قليل^(١١) .

وقوله : (قلولا إذا بلغت الحلقوم)

يقول الرازى : "المراد من كلمة "لولا" معنى "هلا" من كلمات

التحضيض... أى : لم لا يقولون عند الموت وهو وقت ظهور الأمور وزمان

لتقاء الكلمات ، ولو كان ما يقولونه حقا ظاهرا كما يزعمون لكان الواجب أن

(١٠) [المنافقون ١٠] .

(١١) البحر : ٢٧٤/٨ .

يشركوا عند النزاع... إشارة إلى أن الله تعالى ذكر للكناف حالة لا يمكنهم إنكارها، وهى حالة الموت. فإنهم وإن كفروا بالحشر وهو الحياة بعد الموت، لكنهم لم ينكروا الموت، وهو أظهر من كل ما هو من مثله، فلا يشكون فى حالة النزاع، ولا يشكون فى أن فى ذلك الوقت لا يبقى لهم لسان ينطق، ولا إنكار يعمل فتوتهم قوة الاكتساب لإيمانهم ولا يمكنهم الإثبات بما يجب، فيكون ذلك حثا لهم على تجديد النظر فى طلب الحق فى تلك الحياة. (١٢)

إن عجز المفكرين بئى فى عدم قدرتهم على إرجاع الروح وقت النزاع؛ ولذلك نقل أبو حيان عن الزمخشري قوله: "ترتيب الآية: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين." (١٣) وهنا نسجل هذه الخواطر:
أولا: "لولا" + ظرف لما يستقبل من الزمان "إذا" حثا على النظر فى أمر إنكارهم، فى وقت تخرس فيه ألسنتهم عن اللجج والعناد. فكان:
[لولا + إذا]

تركيب يفيد التثيد بوقت بلوغ الحلقوم.

ثانيا: الفعل الماضى "بلغت" بعد "إذا" إشارة إلى انتفاء الشك فى مجئ هذا اليوم، فهو لى لا ريب، فكان التعبير بلفظ الماضى.
ثالثا: النتيجة فى النهاية انتفاء للفترة لدى أربابهم عن رجوع الروح، ومن ثم فهم مهوون، لا قدرة لهم. وربما قوئ هذا المعنى تعلق للظرف (إذا) بـ"ترجعونها" الذى قدره الزمخشري.

وعن قوله تعالى: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة)

يقول الشيخ الرازى: "...لولا إذا دخل على الفعل، كان بمعنى التحضيض

(١٢) مفاتيح الغيب: ١٧٢/٢٩.

(١٣) البحر: ٢١٥/٨.

مثل "هلا". وإنما جاز أن يكون "لولا" بمعنى "هلا" ، لأن "هلا" كلمتان: هل
وهو استفهام وغرض ... و"لا" وهو جحد ..^(١٤)

يفهم أن "أنفَر" هو الفعل المنسوب إليه. والمقصود للتفقه فى دين الله.
يقول أبو حيان: " .. وعلى قول ابن عباس، يكون الضمير فى "لنبتقها" عائداً على
الطائفة المقيمة مع النبى صلى الله عليه وسلم.. ولنبتقروا قومهم، أى ؛ الطائفة
النافرة إلى الغزو، يعلمونهم بما تجدد من أحكام للشرعة ، وكان ثم جملة محذوفة
دل عليها تقسيمها، أى: فهلا نفر من كل فرقة ملهم طائفة ، وقعدت أخرى
لنبتقها ... والذى يظهر أن هذه الآية إنما جاءت للحض على طلب العلم والتفقه
فى دين الله."^(١٥)

فى الآية الكريمة :

١ - [لولا + فعل ماضى (نفر)]

للفعل الماضى فى معنى الاستقبال ، لأن الأمر تنبيه على أنه إذا حدث "النفر"
فينبغى أن يكون الأمر على النحو الذى تقدم.

ب - الفعل الماضى "نفر" جاء بعده شبه الجملة يتعلق بهذا الفعل.

ج - دلالة التعلق ، اختصاص الفعل بطائفة تكفى الجماعة عن الفعل.

د - إن مجى الفعل الماضى بعد "لولا" دليل على أن الفائدة لم تكن تحصل إلا
بعد مدة. "فقال لو سافرتم لحصل لكم الفائدة فى الحال، وقد فات ذلك فإن كنتم لا
تسافرون فى الحال فتوتكم الفائدة أيضاً فى الاستقبال."^(١٦)

وقوله: (وإذا لم تأتكم بآية قالوا لولا اجتنبوها)

(١٤) مفاتيح الغيب : ١٨٠/١٦ .

(١٥) البحر : ١١٤/٥ .

(١٦) مفاتيح الغيب : ١٥٢/٢٩ - ١٥٤ .

يقول الرازى: "والمعنى لولا تقولتها واقتعلتها وجئت بها من عند نفسك ...
لو يقال: هلا اقترحتها على إلهك ومعبودك إن كنت صادقاً.." (١٧) إنه يقىس
"لولا" على "هلا" إيماءً إلى أن "لولا" حاض على مقارفة فعل ما. ويقول
أبوحيان: "روى أن الوحي كان يتأخر عن النبى صلى الله عليه وسلم أحياناً، فكان
الكفار يقولون: هلا اجتبيتها ومعنى اللفظة فى كلام العرب: تخيرتها واصطنيتها.
وقال ابن عباس ومجاهد وقتاده وابن زيد وغيرهم: المراد هلا اخترعتها
واختلقتها من قبلك ومن عند نفسك.." (١٨)

نلاحظ هنا ما يلى :

أولاً : [لولا + فعل ماض "اجتبى"].

ثانياً : للفعل الماضى فى معنى الاستقبال بدلالة كلام الكفار، "هلا اقترحتها،
فهو من قبيل العرض الذى ينطوى على سوء النية، لكى يواطنوا به إفكهم
المفترى."

ثانياً : [لولا + فعل مضارع] :

قوله تعالى : (لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ نَاتِينَا آيَةً)

يقول الشيخ الزمخشري: "هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى؟ استكباراً
منهم وعتوا" (١٩) ويقول الشيخ الرازى: "وهذا منهم طعن فى كون القرآن آية
ومعجزة لأنهم لو فكروا بكونه معجزة لاستحالوا أن يقولوا: هلا ياتينا بآية .." (٢٠)
ويقول أبو حيان: "ومعمول القول الجملة التحضيضية، وهى "لولا يكلمنا الله"،
كما يكلم الملائكة، وكما كلم موسى عليه السلام ... قالوا ذلك على طريقة

(١٧) مفاتيح الغيب : ٨٢/١٥ .

(١٨) البحر : ٤٥١/٤ .

(١٩) الكشاف : ١٨٢/١ .

(٢٠) مفاتيح الغيب : ٢٧/٤ .

الاستكبار والعتو، لو تأتينا آية ، أى: هلا يكون لحد هذين: إما التكلم، وإما إتيان آية ..»^(٢١)

كان هلا أصل الباب، ألا ترى أنها مقيس عليها فى الحض؟، فقال الزمخشري هلا يكلمنا... وقال الرازى: هلا بأتينا.. وقال أبو حيان: هلا يكون. وهكذا على أن استعمال الفعل المضارع "يكلمنا" تصوير لحقيقة التكليم عندهم، إذ هو استمرار لما قاله السابقون من الأمم المكذبة من أسلافهم وغيرهم . وإن قولهم هذا لا يخلو من أن يكون استكباراً وعتواً، واستكاراً يحدد أن يكون ما أتاهم آية. ومن الممكن أن نستنتج بعد ذلك ما يأتى :

أولاً : أن [لولا + الفعل المضارع] حض على فعل مستحيل بالنسبة لهم .
ثانياً : أن علمهم باستحالة واقع ، لأنه قول من سبقهم ، ومن ثم لا يكون طلبهم إياه إلا من قبيل الإنكار والجحود .

ثالثاً : أن الجملة التخصصية وقعت مقول القول ؛ لأن قبلها : (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ..) .

وقوله : (لولا يأتون عليهم سلطان بين)

يقول أبو حيان: "ولولا تحضيض صحبة الإنكار ، إذ يستحيل وقوع سلطان بين على ذلك فلا يمكن فيه التحضيض الصرّف ، فحضورهم على ذلك على سبيل التعجيز لهم."^(٢٢)

ويقول الرازى: "لولا يأتون - هلا يأتون .. بحجة بيّنة.. ومعنى الكلام أن عدم البيئة بعدم الدلائل على ذلك لا يدل على عدم المدلول ... إنه تعالى استدل على عدم الشركاء والأضداد بعدم الدليل عليها، فثبت أن الاستدلال بعدم الدليل

(٢١) البحر : ٣٦٦/١ .

(٢٢) البحر : ١٠٦/٦ .

على عدم المدلول طريقة قوية. "(٢٣) ويقول ابن كثير: "أى : هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً". "(٢٤)
لولا + الفعل المضارع "يأتون"

فى هذه النصوص التى قدمنا "لولا" حرف تحضيض. كما يتبين لنا ما يلى :
١ - قد يكون التحضيض على مستحيل من قبيل التعجيز ، لأن هذا النوع من الحض من لدن الخالق .

٢ - كما يكون من قبيل الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول .

٣ - إن قول لى حيان بأنه ليس تحضيضاً صرفاً ، يعنى أن التحضيض :
أ - فعل لم يحدث .

ب - وإن هذا الفعل حدوثه ممكن ، ومن ثم يكون الحض عليه .

٤ - إن "لولا" هنا + الفعل المضارع "يأتون" دليل على طلب الحجة والبينة .

٥ - ومن ثم تعلق "بسلطان" بـ "يأتون" .

٦ - وتعلق "عليهم" بمحذوف حال، أى حال كون البينة عليهم .

وقوله: (لولا تستغفرون الله ..)

يقول الرازى: "... فخطبهم صالح على حسب اعتقادهم، وقال: هلا

تستغفرون الله قبل نزول العذاب، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر." (٢٥)

ويقول أبو حيان: "ثم حضهم على ما فيه درء السيئة عنهم وهو الإيمان

واستغفار الله مما سبق من الكفر، وناط ذلك بترجى الرحمة ، ولم يجزم بأنه

يترتب على استغفارهم. وكان فى التحضيض تنبيه على الخطأ منهم فى استعجال

(٢٣) مفاتيح الغيب : ٨٤/٢١ .

(٢٤) تفسير القرآن العظيم : ٧٤/٢ .

(٢٥) مفاتيح الغيب : ١٧٣/٢٤ .

العقوبة وتجهيل لهم فى اعتقادهم." (٢٦)

المحنا قبل ذلك إلى أن الحض متصل بسبب فى الماضى.. نقول ذلك لأن
"لولا" فى هذه الآية الكريمة جاءت تعليقاً على فعل سبق، وهو استعجال قوم
صالح بالسينة قبل الحسنة، ولذلك قال لهم صالح عليه السلام (لولا تستغفرون ..).
يقول ابن كثير معلقاً على هذا: ".. أى لما تدعون بحضور العذاب ولا تطالبون
من الله رحمته." (٢٧)

من النصوص السابقة يمكن تسجيل ما عن من نظر :

- ١ - من الحض التنبية على شئ ما قد حدث .
 - ٢ - ثم يكون الحدث على استنراك ما فات مع بيان ما يمكن أن يكون .
 - ٣ - "لولا" + الفعل المضارع .
- حض مع ترجى حدوث الفعل، ومن ثم جاء بعدها "لعل" ولذلك يكون هذا
التركيب :

["لولا" + الفعل المضارع + لعل] .

دلالة على هذا المعنى ... معنى الحض المنوط بالرحمة .

وقوله تعالى: (فلولا تصدقون)

يقول ابن كثير: "... أفليس الذى قدر على البداء بقادر على الإعادة بطريق
الأولى والأخرى؟ ولهذا قال: (فلولا تصدقون)، أى فهلا تصدقون بالبعث؟" (٢٨)
ويقول الرازى: "لولا" كلمة مركبة من كلمتين معاً التحضيض والحث...
لكن "لولا" تدل على الاعتساف وتزيد نفس النظر والتوانى، فيقول: (لولا

(٢٦) البحر : ٨٢/٧ .

(٢٧) تفسير القرآن العظيم : ٣٦٧/٣ .

(٢٨) تفسير القرآن العظيم : ٢٩٥/٤ .

تصدقون)، بدل قوله : لم لا ، وهلا ، لأنه أدل على نفي ما دخلت عليه وهو عدم التصديق ..» (٢٩)

ويقول أبو حيان: "فلولا تصدقون بالإعادة وتقررون بها، كما أقررتم بالنشأة الأولى وهي خلقهم ... فهو حض على التصديق. ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون الله، أو فلولا تصدقون به، ثم حض على التصديق على وجه تقريرهم بسياق الحجج الموجبة للتصديق" (٣٠)

هذه النصوص فيها من النظر ما هو آت :

أولاً : الحض والحث على أمر لا ينبغي التواني فيه.

ثانياً : [أولاً + الفعل المضارع "تصدقون"] نفي للفعل.

ثالثاً : إن هذا التركيب الذي أماننا فيه إضافة كذلك إلى أحوال لولا مع الفعل المضارع ، فهو لا ينفك عن تقرير - كما قال أبو حيان - عن طريق سياق الحجج المؤدية للتصديق .

رابعاً : لعل هذا النظر يؤكد ما قلناه من أن الحض يكون متصلاً بسبب من الماضي، يدفع إلى قول يكون في الاستقبال على سبيل الحث المنوط بوجه من وجوه الكلام: تنبيهها، أو تقريراً / أو حثاً، أو ما شابه ذلك من هذه الأوجه.

وكذلك في قوله : (فلولا تذكرون)

فهو "حض على التذكير المؤدى إلى الإيمان، والإقرار بالنشأة الآخرة" (٣١).

فهنا وجه من وجوه الكلام المصاحب لـ"لولا"، هو التذكير والإقرار بشئ ما .

(٢٩) مفاتيح الغيب : ١٥٣/٢٩ .

(٣٠) البحر : ٢١١-٢١٠/٨ .

(٣١) البحر : ٢١١/٨ .

المبحث الثالث

١ - "لوما"

لم يرد ذكر "لوما" في النص الكريم إلا مرة واحدة. وذلك في قوله تعالى :

(لوما نأتينا بالملائكة) [الحجر ٧]

نقل الرازي عن الزجاج والفراء أن "لولا ولوما لغتان معناهما هلا.."^(١).
ونذكر الرازي أيضاً "إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يخوفهم بنزول العذاب
إن لم يؤمنوا به، فالتقوم طالبوه بنزول العذاب وقالوا له (لوما نأتينا بالملائكة)
الذين ينزلون عليك ينزلون علينا بذلك العذاب الموعود."^(٢).

ويقول أبو حيان: "وهذا الوصف بأنه الذي نزل عليه الذكر، قالوه على جهة
الاستهزاء والاستخفاف لأنهم لا يقرون بتزييل الذكر عليه، وينسبونه إلى
الجنون، إذ لو كان مؤمناً برسالة موسى وما أخبر عنه بالجنون، ثم اقترحوا عليه
أن يأتيهم بالملائكة شاهدين لصدقك وبصحة دعائك."^(٣)

لعل هذه النصوص تظهر لنا ما يلي :

أولاً: إن "لوما" لغة في "لولا"، ولذلك قال الفراء: "الميم في "لوما" بدل من اللام
في "لولا". وقال الكسائي: لولا ولوما مواء في الخبر والاستعظام."^(٤) ولكونها لغة
في "لولا"، جاز أن تكون هذه اللغة غير شائعة إلا في أهلها، ومن ثم لم نجد لها
إلا هذا الموضع من الآية الكريمة .

ثانياً: الحض في هذه الآية قد يكون على سبيل المرض والاقتراح ، استهزاء واستخفافاً .

(١) مفاتيح الغيب : ١٢٦/١٩ .

(٢) مفاتيح الغيب : ١٢٦/١٩ .

(٣) البحر : ٤٤٦/٥ . وانظر أيضاً معاني القرآن : ٨٤/٢ .

(٤) الشوكاني "محمد بن علي ت ١٢٥٠ هـ" : فتح القدير : ٩٧٧/١ ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ م ،

دار الفد الجديد ، المنصورة ، مصر

ثالثاً: إذا كان تركيب : [لوما + الفعل المضارع في "تأتينا"]

تجسيدا لصورة التنزيل التي يتخيلونها .

رابعاً: وكان بمثابة الأمر أيضا ، فكانهم قالوا : "ثابتاً" .

ب - "هلا"

كانى أرى "هلا" لثا في الباب ، على الرغم من عدم ورودها في القرآن الكريم. والذي جعلنى أقول هذا، أن المفسرين كانوا يقيسون عليها بقية حروف التحضيض في مواضع كثيرة، ذكر بعضها في البحث كما رأينا. وذاك نحو :

١ - قول ابن كثير معلقا على قوله تعالى: (فلولا تصدقون) : أى فهلا تصدقون.

٢ - ويقول الرازى: "هلا تستغفرون الله"، وهو يفسر معنى "لولا" في قوله (لولا تستغفرون الله) .

٣ - وكذلك قول الرازى: "لولا يأتون عليهم - هلا يأتون.." ويقول ابن كثير: "أى هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلا" .

هذه بعض المواضع التي جاءت في البحث ، فكيف بما وقعت عليه العين، وهي تطالع هنا وهناك في كتب التفسير ، ولم نثبتها لتشابهها مع ما ذكر . على أن كتب النحو قد قنمت بعض النصوص المتضمنة "هلا".

فذكر في شرح ابن عقيل قول من لا يُعرف قائله:

الآن بُدِّ لِحَاجَتِي تَلَحُّونَنِي هَلَا التَّقَدُّمُ وَالْقُلُوبُ صِبَاخُ

جاء بعد "هلا" اسم . والتقدير : هلا وجد التقدم .

وذكر ابن هشام أنه "قد بلى حرف التحضيض اسم معلق بفعل : إما مضمر،

نحو: "فهللا يكرأ تلاعبها وتلاعبك" أى : فهللا تزوجت يكرأ ...^(٥). وهذا .

الحديث موجود في صحيح البخارى بسند. عن جابر بن عبد الله ، قال : قفلنا مع

(٥) أوضح المسالك : ٢٣٧/٤ - ٢٣٨ .

النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة فتعجلت على بعير لى قطوف فلحقنى راكب من خلفى فتخص بعيرى بعنزة كانت معه، فانطلق بعيرى كأجود ما أنت رام من الإبل، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما يعجلك ؟ قلت كنت حديث عهد بغرس. قال "إيكرا لم ثيبا، قلت: ثيبا، قال: فهلا جحارية تلاعبها وتلاعبك؟.." (١)
خلاصة القول فى "هلا" أنها مركبة من: "هل" و"لا". "هل" للدلالة على الاستفهام والعرض، و"لا" فى معنى الجحد، فيكون معنى التركيب متضمنا للحض على ما يلزم فعله، وعلى عدم الإخلال به. كما أشرنا إلى ذلك فى مدخل البحث.

الخاتمة

لم يكن الدرس فى أدوات الحض من السهولة بحيث يُظن أننا أمام حروف لم يتوقف عندها النحاة كثيرا، ومن ثم لم تتجاوز الصحيفة الواحدة فى مصنفات بعضهم. وإنما كان الأمر مختلفا من قبل أننا تناولنا هذه الأدوات بالدرس والتحليل من خلال النصوص القرآنية للكرامة، وموقف بعض المفسرين من هذه الأدوات وهم يتناولون معناها ودلالاتها فى مواضعها المختلفة على النحو الذى رأينا، فضلا عن دراستها فى الجمل المختلفة.

على أننا يمكن أن نقدم ما قد يُعد دليلا على أهمية هذه الدراسة من خلال النتائج التى توصلت إليها، وذلك على النحو التالى:

أولاً: إن أهم ما توصلت إليه الدراسة - فيما لرى - أن بعض الدرس النحوى فى حاجة إلى تأصيل من خلال ما يفهمه المتقهاء المشتغلون بالنص الكريم. وقد تراءى ذلك - على سبيل المثال - من خلال ما ظهر لنا من بون شاسع بين ما ذهب إليه النحاة والمفسرون فى الربط بين مبائى هذه الأدوات ومعانيها - على

(٦) البخارى "أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦": صحيح البخارى: ٢٦٩/٣، دار بن خلدون - الإسكندرية.

الوجهة التى قدمناها فى مدخل الدراسة .

ثانياً: إننى أزعم أن "هلا" يمكن أن تكون أما فى باب الحض ، إذا جاز هذا القول .
وذلك إننى رأيت للنحاة والمفسرين يقيسون عليها ، إذا أرادوا أن يؤكدوا على
معنى الحض فى أداة من أدواته .

ثالثاً: ما قد يكون سبباً فى زعمنا بأن "هلا" كالأم فى الباب لكثرة استعمالها، ربما
صدر عن فهمنا لكلام الشيخ الرزى، الذى جعل هذا الحرف مبنياً من:

أ - "هل" للدلالة على الاستهتام والعرض، تنبيهها على وجوب الفعل.

ب - ومن "لا" دلالة على الجحد ، ومن ثم يكون التنبيه على الإخلال بالفعل
الواجب. من هنا كان معنى الحض على ما وجب فعله وحصل معه الإخلال فى
الأداء. وأظن أن كثيراً من هذا المعنى ينسحب على بعض ما رأينا من معانى
السياقات التى وردت فيها أدوات الحض.

رابعاً: الحض نوع من الطلب ، يدعى إليه فى الاستقبال حسب . وفيه دليل على
الحث، كما أن العرض من قبيل الطلب أيضاً ، بيد أن فيه لبناً .

خامساً: اقتراح بأن نقول : أى حرف حض + معنى الاستقبال

دليل على معنى الحض فى هذا الحرف ، وذلك لأننا وجدنا الماضى يُحمل
على معنى الاستقبال .

سادساً: مصاحبة بعض المعانى للحض، نحو: التعتت، وطلب التعجيز، واستمهال
الوقت ، وغير ذلك مما نطالع فى البحث .

سابعاً: لتصال الحض بسبب من الماضى ، يدفع إلى قول يكون فى الاستقبال
على سبيل الحث المنوط بوجه من وجوه الكلام .

ثامناً : ربما كانت "لوما" لغة فى "لولا" ، كما ذهب الفراء ، مما عصاه يفسر
ندرة استعمالها فى النص للكريم .

المصنف والمراجع

القرآن الكريم :

- البخارى (ابو عبد الله محمد بن اسماعيل ت ٢٥٦هـ) :
- صحيح البخارى ، دار ابن خلدون - الإسكندرية .
- ابن الحارث (جمال الدين أبو عمرو عثمان ت ٦٤٦هـ) :
- شرح الكافية ، الطبعة الثانية ١٩٧٩م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- أبو حيان (محمد بن يوسف ت ٧٥٤هـ) :
- البحر المحيط ، الطبعة الثانية ١٩٩٢م - دار الكتاب الإسلامى - القاهرة .
- الرازى (فخر الدين ت ٦٠٤هـ) :
- مفاتيح الغيب - الطبعة الأولى ١٩٩٠م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- الزمخشري (جلال الله محمود بن صر ت ٥٣٨هـ) :
- الكشاف - دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان .
- سيبويه (أبو بشر عمرو ت ١٨٨هـ) :
- الكتاب - الطبعة الأولى ١٣٦٦هـ - بولاق - مصر .
- الشوكاتى (محمد بن على ت ١٢٥٠هـ) :
- فتح القدير - للطبعة الأولى ٢٠٠٣م - دار الفد الجديد - المنصورة .
- الصبان (محمد بن على الصبغين) :
- حاشية الصبان على شرح الأسمونى على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .
- طاهر سليمان حمودة (المكتور) :
- دراسة المعنى عند الأصوليين - للدار الجامعية للطباعة والنشر - الإسكندرية .
- ابن عثيل (بهاء الدين عبد الله بن عثيل ت ٧٦٩هـ) :
- شرح ابن عثيل - بدون دار نشر ولسنة طبع .
- الفراء (أبو زكريا يحيى ت ٢٠٧هـ) :
- معانى القرآن - تحقيق الأستاذ محمد على النجار - الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- الفيروزى (مجد الدين محمد بن يعقوب) :
- لقاموس المحيط - الطبعة الثانية ١٩٩٢م - البابى الحلبي - مصر .
- ابن كثير (الحافظ عبد الدين ت ٧٧٤هـ) :
- تفسير القرآن العظيم - دار التراث العربى - القاهرة .
- ابن هشام (جمال الدين ت ٧٦١هـ) :
- أوضح المسالك - منشورات المكتبة العربية - صيدا - بيروت .
- المغنى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - مكتبة ومطبعة محمد طى صبيح - القاهرة .
- ابن يعش (موفق الدين ت ٦٤٢هـ) :
- شرح المفصل - مكتبة المنى - القاهرة .

في أدوات التحصيل
د. سعد حسن حمودة

اللغة

العربية

وآدابها

الطيف في شعر البحتري

" الصور والدلالات "

د. ناهد أحمد السيد الشعراوي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطيف في شعر اليعتري
د. ناهد أحمد السيد الشعراوي

استمدح القدماء تقوى البحتري في وصف الطيف، وعدّه بعضهم نابغة الشعراء في وصفه للطيف، حتى قيل "طيف البحتري"^(١). ونقل الأمدى عن شيوخه من أهل العلم بالشعر مدحهم للبحتري بأنه «أشعر الناس وألهجهم بذكر الخيال والخيال»^(٢). وإن كان الأمدى قد وقف في كتابه للموازنة عند نصوص البحتري في وصف الطيف، فقد أفرد لها الشريف المرتضى كتابًا في أوصاف طيف الخيال زوّده بمادة غزيرة من شعر البحتري، وارتكز عليها أساسًا في كتابه: طيف الخيال^(٣). كما أشاد ابن رشيق القيرواني بتقوى البحتري في وصف الطيف، قال: «والبحتري أرق الناس نسيئًا وأملحهم طريقة ... لاسيما إذا تكرر الطيف، فإنه الباب الذي شير به»^(٤). وذكر أبو حلال العسكري أن الإسلاميين والمحدثين أخذوا أكثر معانيهم في الخيال والطيف عن قيس بن الخطيم وعمر بن قمينه، وقد استخدمه في الغزل البيهقي ومسلم بن الوليد وأبو تمام ودعبل وابن الرومي، إلا أن أحدا من هؤلاء لم يحقق ما حققه البحتري من تقوى وشهرة^(٥).

وحقا فقد أكثر البحتري وأغزر من القول في الطيف، وكان مشغولا بتكرار القول فيه، لهجا بإبدانه وإعابته، كما قال عنه الشريف المرتضى^(٦).

إن الخيال الخصب للبحتري قد مكّنه من الإبداع في وصف الطيف، سواء أكان ذلك: في مفتاح القصائد أم خلال أبيات المقدمة، وإن المتأمل لديوانه ليدعش لهذا الحشد الهائل من أبيات الطيف، مما يُعدّ ظاهرة مميزة في شعره تستحق دراسة إغرائه المتكرر في معايشة طيف الخيال، كما تستحق أن يُراجع معها واقع الشاعر في حياته مقارنا بواقعه النفسي العام، وهل كانت الفجوة لديه عميقة بين الحلم والواقع! فتعدّ زيارة الطيف في عالم الأحلام تعويضًا عن يأسه من اللقاء في دنيا الواقع؟؟

وإن مقدار الكثافة الذي تميزت به أشعاره في الطيف، ليستحق أيضًا أن نتوقف عنده، لنأمل صورته الغزيرة التي يحشّدها في وصف الطيف، بملامحها،

ومميزاتها، وأجزائها، وطرانقها. وكذلك المحبوبة، التي تطلُّ عليه عبر طيفه الليلي، كيف رسمها؟ وما ملامحها؟ وهذه الزورة التي كان يرتبها في نفسه، ويكرّر ذكرها للطيف في شعره! كيف كانت؟ وكيف تبدأ؟ ومتى تبدأ؟ ومتى تنتهي؟ وكيف حاله هو بعدها؟

وقد وُلد البحتري في البادية، في بلدة منبج في شمال الشام بين حلب والفرات، أو في قرية قريبة منها اسمها زرقانة^(٧)، وقضى البحتري أيام صباه الأولى في بادية منبج بين العرب الطائيين، الذين كانوا منتشرين بها. وهذه المرحلة الأولى في حياته -التي استمرت قرابة خمسة وعشرين عامًا، إلى أن رحل الشاعر عن الشام إلى بغداد- ظل صداها في مخيلته، وفي شعره. فلا شك أن نشأته الأولى في البادية أتاحت له الاتصال القريب بلغة البدو وتقاليدهم وتراثهم الفنى والفكرى، وهى مرحلة صدر شبابه، المرحلة الشامية الأولى. ورغم اتصال البحتري بالحياة الحضارية في العراق وفي فارس بعد هذه المرحلة، إلا أن تأثيره بالحضارة لم يغيّر من أعرابيته، بل ظل الشاعر كما وصفه الأمدى : «أعرابى الشعر، مطبوعٌ، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف»^(٨).

وارتباط عاطفٍ للبحتري بعلوة الحلبية معروف^(٩)، والكثير من غزلياته أنشدها إما في وصفها وإما في وصف طيفها، الذى يرفرفُ عبر صحراء الشام ليزوره في العراق، كما يُصرّحُ باسمها في كثير من قصائده، كقوله :

تفاءت دارُ علوة بعد قرب فهل ركبٌ يبلغها السلام؟^(١٠)

وقوله :

أخيان علوة كيف زرت وعشنا

أرقُّ بشرُّد بالخيال الزائر؟^(١١)

وقوله :

طيفُ لعلوة ما ينفكُ يأتينى

يصبو إلى على بُعدٍ ويصبينى^(١٢)

وننبين من شعره أن أصداءً هواء الأول لحقاته الشامية الحلبية "علوة" في مرحلة صباه بالشام قد استمرت تتردد في نفسه رغم ترحاله في الأرجاء الشاسعة للدولة، واتصاله بالسادة والقادة والأمراء، بل اتصل أيضاً بالقصر العباسي وأخذ يمدح خلفاءه.

فطيف علوة كان يلاحقه ويلج عليه كما ذكر هو في شعره، قال^(١٣) :

خيالٌ يعترينى في المنام لسكرى اللحظة فاتنة القوام
نعلوة... إنها شجنٌ لنفسي ولببالٍ لقلبي المستهام
إذا سقرت رأيت الظرفَ بحثاً ونارَ الحُسنِ ساطعة الضرام

ولئن كانت الحياة قد باعدت بينه وبين حبيبته، فإنه يرسل لها على البعد التحايا والأشواق، ويسعد بقلها في عالم الأحلام، فهي حبه الأول في صباه بحلب ولا تزال تعلق بنفسه وقلبه، يقول فيها أيضاً^(١٤) :

قلٌ للسحاب إذا حدثه الشمالُ وسرى بليلى ركبة التحمل
عرجٌ على حليبٍ فحى محلةً مانوسةً فيها نعلوة منزل
ويذكر عهد علوة أيضاً في مقدمة إحدى مدائحه في المتوكل^(١٥) :

عهد نعلوة باللوى قد أشكلا، ما كان أحسن مُبدأةً وأجملاً
أنسى لياليها هناك وقد خلا من لهُونا في ظلها ما قد خلا
ويقول في مقدمة مِدحة أخرى من مدائحه في المتوكل^(١٦) :

شوق إليك تفيضُ منه الأنعمُ وجوى عليك تضيقُ منه الأطلعُ
وهوى تجذبه الليالي كلما قدّمت وترجعه السنون فيرجعُ

وعلى الرغم من أنه لم يذكر علوة صراحة في البيت السابق، إلا أنها تمثل هواء القديم، الذي تجذبه الليالي وترجعه السنون.

وفي مقدمة إحدى مدائحه في المعتر يذكر العنل في هواء لعلوة، ويرى أن

ذلك الحب من صميم أخلاقه، ويتمنى لو أحب اللانمون ليعنروه^(١٧) :

بودى تو يهوى العذول ويعشق
فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق
أرى خلقاً حبى لـ "علوة" دائماً
إذا لم يَدمُ بالعاشقين التخلق

وقد ردد البحتري كثيراً في شعره أن الطيف الذى يرفرف إليه مجازاً
المفاوز والهضاب حتى بطرقه كان لفتاة شامية، حين كان بالعراق، مما يرجح أن
شعره في الطيف كتبه في المرحلة العراقية، التى بدأت منذ رحيله عن الشام إلى
بغداد، واستمرت قرابة خمسين سنة، حتى غادر العراق عائداً إلى منبع عودته
الأخيرة. وقد تميزت هذه المرحلة من حياة البحتري بالعطاء الفنى الخصب، إذ
نظم فيها أكثر قصائده، وتردّد فيها على فارس وعلى الحجاز، لكنه قضى أكثر
سنواتها في العراق، من ذلك قوله^(١٨) :

زار وها من الشام فحيا
مستهماً صبا باعنى "العراق"
وقوله^(١٩) :

أما مُعينٌ على الشوق الذى غرِيتُ
به الجوانحُ، والبيّن الذى أقدّأ؟
كيف اللقاء، وقد أضحت مخيمةً
بالشام لا كُتباً مِنّا ولا صدأ

وقوله^(٢٠) :

ذكرتُنا عهد "الشام" وعيُننا
بين القناب السود والهضبات

وقوله^(٢١) :

سرى من أعالي "الشام" يجلبه الكرى

فُبوب نسيم الروض تجلبه الصبا

إن توارّد شعر الطيف بنىوان البحتري بهذا المقدار من الكثافة، وبهذا التعمق
في وصف المحبوبة خلال كثير من قصائده، يؤكد ما ذكره بعض الباحثين أن

البحترى بُعدُ من الشعراء المعروفين بوضوح نفسياتهم في شعرهم، وبالقدرة على التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم من خلال شعرهم أيضاً^(٢٢).

وإن قصيدة البحتري السينية التي نظمها في وصف إيوان كسرى، لتشي بحالة نفسه التي كانت تطفح بالمأس، واليأس، والرغبة في التأسى والسمو على الأحداث.

وهذه القصيدة قد حملها الشاعر من الإشارات والدلائل ما ينبئنا صراحة بما في أعماقه، وبصراع ذاته، وبمحنه النفسية التي بلغت به قمة الضيق، مما آل إليه حاله في معيشته آنذاك.

فأبيات القصيدة تُعدُّ ترجماناً لنفسه وترجماناً لعصره، وتدل على أن الشاعر نظمها وهو يشعر بغربة نفسية، وبعدم المقدرة على التكيف مع المجتمع من حوله. وقد ضاق به المقام، وضائق المعيشة، وساعت العلاقات، وتدهورت حالته هو، فرحل إلى مكان يلتمس فيه عزاء لنفسه، وهو إيوان كسرى.

لقد وجد البحتري في الإيوان صورة لصراعاته هو إذ عاكسها الأيام، فنكسسه من أحسن الأحوال إلى أسوأها. ولكنه رغم ذلك يتجلد ويتسامح. يقول^(٢٣):

صُنْتُ نَفْسِي غَمًّا يُدْنِي نَفْسِي وَتَرْفَعُنِي عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ

وَتَمَاسَكْتُ حِينَ رَغَزَنِي الدُّهْرُ التَّعَاسًا مِنْهُ لَتَعْسَى وَتَكْبَى

بَلِّغْ مِنْ صَبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي طَفَقَتُهَا الْأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَخْسٍ

وبعيداً ما بينَ وارِدٍ وَفِيهِ غَلَلٌ شَرْبُهُ، وَوَارِدٍ حِفْظِ

ونرى الشاعر يحمل بيته الأخير حسرتة على فراق حياة البساطة، والحرية،

والفطرة التي كان يحياها بالبادية في الشام - موطنه الأصلي - وقد تركها طامحاً

وطامعاً إلى التقرب من الخلفاء، فارتحل إلى العراق مركز الخلافة وحاضرة

الدولة.

وقد مثل لحياة الحرية التي كان يحياها بالبادية حيث الفطرة السليمة البوارد

البرق" الذى يرد الماء متى شاء، كما مثل لحياة التكلف فى المدن والتقييد بمظاهر الحضارة "بوارد الخمس"، وشتان ما بين الحالين.

ونرى البحترى فى البيت التالى بعض إصبع الندم أن غادر الشام وهى مسقط رأسه، وتطلع إلى مركز الخلافة، فاقتهى إلى صفقة خاسرة. يقول:

واشترأنى "العراق" خطّة غيبى بعد بئس "الشام" بيعة وكس
إن البحترى ينشر خلال القصيدة خواطره النفسية برفض الواقع، والتمرد عليه والحنين للماضى وللشام منشئه. كما يبدى ضيقه بحياته بالعراق، وتبرؤاً بما حوله من الأوضاع الفاسدة، ومن حوله من اللئام.

كما يبدى الشاعر قلقه وخوفه من الأيام، ويسخط على زمانه الذى يرفع اللئيم ويحط من قدر الكريم، يقول :

وكان الزمان أصبح محمواً لا قواه مع الآخر الأخرى
وتشيع فى القصيدة نزعة قوية إلى تأليم الزمان من خلال تلك الصور الموحية : "زعزعى الدهر"، "بلغ... طفتها الأيام"، "الليالى جعلت فيه مائماً بعد عرس"، "عكست حظه الليالى"، "وعليه كل كل من كلال الدهر مرسى".
إن نزعة البحترى فى السخط على الزمان لهى صدى لنفسيته التى تقلبت عليها أحداث كثيرة أمتها وأذنّها فطبتعتها بطابع السخط.

ويلمح البحترى أيضاً خلال هذه القصيدة إلى أن نفسه القلقة صارت تتعلق بالماضى وبالروى وبالأوهام. فما تجسده لصوره معركة "لطاكية" المنقوشة على جدران القصر إلا نموذجاً لتلك الخيال المسيطر على عقله، يقول:

وإذا ما رأيت صورة - أنطا
والنابا موائل، و-أنوهر-
فى اخضرار من اللباب على أض
وعراك الرجال بين يديه
من مشيح يهوى بمائل رقع،
ثصف العين أنهم جد أحيا
ثم يصرخ فى البيت التالى أنه كان يتوهم ويتشكك فى تلك الصورة :

يغتنى فيهم إرتياى حتى
وأيضا تشخيصه للإيوان المستخر، وما خلعه عليه من مشاعر، وأحزانه،
والنعالاجه، قال :

وكان الإيوان من عجب الصف
ثم يندى الشاعر حيرته وشكه وتساوله عن هذا البناء العجيب: من صنعه ؟
ومن سكنه ؟ هل هم الإنس ؟ أم هم الجان ؟؟
يقول

ليس يدرى أصنع إنس لجن
سكنوه ، أم صنع جن لإنس
وهذه النفس المرتابة التى تذهب مع الخيال كل مذهب، تتجاوز ذلك إلى أن
سيطر عليها تداخل الأزمية، وتدخل الخيال مع الحقيقة، حتى كادا يختلطان على
الشاعر. فما هو ذا يصرخ بأوهاميه وأحلامه وخيالاته، يقول :

وتوهمت أن حمزى أبروي
ر-معاطى، و-البهتد- أنسى
حلّم مطبق على الشك عيسى
أم أمان غيرن ظنى وحنسى ؟
ويصرخ هنا بالرؤى التى تتعاقب وتحتشد على مخيلته، يقول :

فَكَأَنِّي أَرَى الْمَرَاتِبَ وَالْقَوَى
مَ إِذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حَيْسَى
وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِيَةً حُسْرَى
مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزُّحَامِ وَخُسَى
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسْطَ الْمَقَاصِدِ
مَرِيرَجَّعَيْنَ بَيْنَ حَوْ وَلُغْسَى
كما يصرح بتداخل الماضي في الحاضر بذاكرته ووعيه، إذ يصف الماضي
وكانه حاضر. يقول :

وَكَمَا أَنَّ الْقَاءَ أَوَّلُ بِنِ أَمَ
سَي، وَوَشَكَ الْفِرَاقُ أَوَّلُ أَمَسَى
إن هذه الإلمامة بالقصيدة السينية للبحتري، كانت لإثبات إحساس شاعرنا
بغريبته عن نفسه، وبغريبته عن مجتمعه. لعلم مقدريه على التكيف مع أهل زمانه،
وإحساسه بالغبين وبسيطرة قوى الخسة إلى الحد الذي شهد فيه البحتري مصرع
الخليفة المتوكل بتدبير من ولده المنتصر، ومصرع الفتح بن خاقان معه - وكلاهما
كان صديقاً للشاعر، ومن أولياء نعمته وسعائته - مما كان له أثره الكبير في نفس
البحتري.

إن هذه القصيدة السينية لم تكن رحلة مكانية إلى الإيوان، ولكنها رحلة
نفسية تمثل حينئذ الشاعر إلى أيام نعيمه بقصور الخلافة العباسية، بما كانت ترفل
فيه من نعيم الحضارة الفارسية في شتى صورها، وقد عبّر فيها عن براعة الفن
الفارسي في البناء والتشيد والنقوش والرسم، كما عبّر أيضاً عن اهتمامهم بفن
الموسيقى والغناء: "وَالْبَلَهْنَدُ أُنْسَى"، فالبلهذ هو مغنى كسرى وعواده. كما
وصف جو الطرب والمرح في تصويره الجوارى الحسنات المغنيات داخل
قاعات القصر: "يُرَجَّعْنَ بَيْنَ حَوْ وَلُغْسَى".

وعلى ذلك، فنعتقد أن بروز صورة المحبوبة في الطيف كان يمثل للشاعر
بروز المعاني المثالية الجميلة، والقيم النبيلة التي لفتتها في واقعه الذي وصفه
بقصيدته لسينية كما أسلفنا. فيكون الطيف بذلك قد أتى في شعره رمزاً لمشاعره
وعواطفه التي تكمن في أعماق ذاته.

وإن تكرار تصريح البحري أن محبوبته التي تأتيه في الطيف شامية، قد يكون له دلالاته النفسية :

- فهل كان تعلق الشاعر بالطيف رحلة رمزية للماضي بلذاته، التي افتقدها الشاعر بعد أن تغرب عن الشام؟؟

- أم كان تعلقه بالطيف وهماً وعالمًا مكنوياً، يحاول الشاعر خلاله أن يمهد لنفسه طريقاً آخر، يخرج فيه من مأزقه في واقعه المرير، المليء بالصعاب والعراقيل، التي تحول بينه وبين تحقيق رغباته؟؟

- أم أن الشاعر بإصراره على تكرار ذكر الطيف الذي بطرقه، يريد أن يؤكد في نفسه حقيقة البعد، فما إن بهنا بعض الوقت بمعايشة المحبوبة طيفاً حتى تغيب عن خياله، فيدرك أنه كان يعيش في خيال كبير.

- لا نستبعد أن استفرق البحري في خيالاته مع الطيف، يشكل تجربة نفسية للشاعر، يحاول خلالها الهروب من الحاضر المتصدع الذي يلفظه ليعود إلى الماضي، الذي يتجاوب ويتفاعل معه في أصاق نفسه. «يقول برجسون: إن جوهر الإبداع هو الانفعال، ويعرف الانفعال بأنه هزة عاطفية في النفس، وأن هذا الانفعال ينشأ نتيجة لاتحاد مباشر بين العبقري وبين الموضوع الذي يشغله... وتكون مهمة الانفعال أن يثير الذاكرة فتنتثر الصور التي تملؤها، وعندئذ يأخذ من بينها»^(١).

وقد لفت تجربة الطيف عند الشاعر ملازمة لكثير من قصائده، مما يدل على أن التجربة اكتسبت عنده كثيفاً شديداً، وقد عبّر الشاعر خلالها عن راحته النفسية بلقائه هذا الطيف الذي يروي نفس العاشق في المنام، حتى صار الينين كما يقول: "ألفاً أصطفيه ويصطفيني".

إن نفس البحري المورقة المضطربة كان يُعالها ويسعدُها زورَةُ الطيف، وكانت هذه الزورة تتكرر في ليلٍ كثيرة حتى ألفتها نفسه، وصار يترقبها ويتوَّهاً

لها بالنوم، يقول :

كانه جاء منجزاً عمدة وبيت فى الراغبين أنتظره

ويقول:

أطلب النوم كى يمود غراره بخيال يحلو لدى اغتراره
إذ كان يتمنى النوم ليلقى الطيف، مما يكشف عن استعداد نفسه، وتلهف، وإصرار على لقاء الطيف فى عالم الرؤى، وهو عالم بديل من وحى الخيال، هروباً من الواقع.

كما يكشف الشاعر عن نفس مضطربة من خلال حديثه عن الهموم، والأرق، والمعاناة، فيأتى ذكره للطيف محاطاً بحديث عن إصابته بتلك المؤثرات الليلية التى لم يعد الشاعر قادراً على احتمالها، كقوله^(١٥) :

أما الخيال فإنه لم يطرق إلا بغقب تشوف وتثوق
قد زار من بعد قبره من حشا خرم، وسكن من فؤاد مقلق
وقوله :

أحيان علوة كيف زرت وعندنا أرق يشرد بالخيال الزائر؟
إن الشاعر بهذا يقف بين الطيف والواقع، بصورة تكشف عن التمزق النفسى الذى كان يعانى منه، مما يؤكد الفجوة العميقة بين الحلم والواقع، ويكرر الشاعر وصفاً مثل هذه الليالى الطويلة، التى تبدو وكأنها كانت ثقيلة عليه لشدة طولها وكثرة همومها.

وإن كان البحترى يكرر فى مقدماته ذكر صاحبه علوة الحلبيه، ويذكر اسمها فى وصف الطيف فى عدة مواضع أيضاً، فقد ذكر طروق أطياف محبوبات أخرى: كسعدى، ولبنى، وظمياء، وأسماء، وماوية، وسعاد، والمالكية، وأم مالك، ولم يكر.

فربما كان اسم المحبوبة رمزاً يسقط عليه أحلامه، ويعلق عليه مثالياته المفتقدة فى الواقع، فيؤدى لديه الحلم الدور التعويضى لتستعيد شخصيته

توازنها في مجابهة الواقع القاسي عليه. «فنطاق الرمزية متسع بعيد الاتساع، وليست الرمزية في الأحلام إلا جزء صغير منه»^(٢٦).

وقد تكون "علوئه" هذه "علوؤه متوهمة"، لأن الشاعر في عملية الإبداع قد يكون الواقع دافعا أو مثيرا له، ولكن لا يكون صورة حرفية لخيال الشاعر. كما تتحول المحبوبة لديه في عملية الإبداع إلى صورة تخيلية مثالية، تعوضُ افتقاده للمثاليات في واقعه، مما ألجأه للتماس روى الأحلام^(٢٧).

وعلى ذلك فلا يهمننا من "فتاة الطيف الشلمية" - التي رسمها البحتري في لوحات الطيف - من هي؟؟ بقدر ما يهمننا كيف هي؟؟ كيف صورها شاعرنا في نصوصه؟؟ وهذا ما نُعنى به من تحليل صورة الطيف في شعر البحتري.

كان البحتري يلجأ إلى وصف الطيف من خلال قصة، كما يورد تفاصيل القصة. فيرثذ غالبا بُعد المسافة بينه وبين محبوبته بروعرثها مؤكداً على صعوبة تخطي المكان الذي تجاوزه الطيف ساريا، كقوله^(٢٨) :

إِنْ رَيَّا - لم تنقِ رَيَّا من الوَفِّ	لِي، ولم تُدِرِ ما جوى العناقِ
بَعَثْتُ طَيْفَهَا إِلَى دُونِي	وَحَدَّ شَهْرَيْنِ لِلْمَهَارِ الْعَنَاقِ
وقوله ^(٢٩) :	
هَذَا الْحَبِيبُ، فَمَرْحَبًا بِخِيَالِهِ	أَنْتِ اهْتَدَى وَاللَّيْلُ فِي سِرْبَالِهِ؟
بَلْ كَيْفَ زَارَ وَبَوَّءَهُ مَجْهُولُهُ	مَنْ سَبَسَبَ لَقَرٍ تَمُورُ بِأَكْلِهِ؟
سَارَ تَجَاوَزَ مِنْ حَقَائِقِ "عَالِجٍ"	بُعْدَ الَّذِي مِنْ سَهْلِهِ وَجِبَالِهِ
حَتَّى تَقْطُصَهُ الْكَرَى لَتَيْمٍ	لَوْلَا الْكَرَى لَشَفَاءُ مِنْ بَلْبَالِهِ

وقد يذهب إلى بيان أثر الطيف فيما مرَّ به من البلاد، فجعله تارة ينشرُ الطيفَ والعبيرَ في الأماكن التي سرى خلالها إليه.

تطيبُ بمسراها البلادُ إذا سرت
فَيَنْعَمُ رِيَاها وَيَصْفُو نَسِيمُهَا^(٣٠)

وصورته تارة أخرى ينشرُ النور، والخير المتمثل في المطر، فجعل خيالها رسولا للشوق، ينشرُ الخير والبركة والنصرة عبر مسراها في البلاد، قال:

جاء يسرى فاشترقت أرضاً "تجدى"

لُسرّاهُ، وواصل الغيث "تجدى"

لا تخيبُ البلادُ تخطرُ فيها

رُسلُ الشوقِ من خيالات "تجدى" (٣١)

وفى صورة أخرى لأثر الطيف يظهره الشاعر قبساً من نور يتوهج، يبدد ظلمات الليل، ويضيء دروب الصحراء وشعابها، ليس للشاعر فحسب، بل للقوافل التى تضرب فى الصحراء على غير هدى، فتتهدى بضوئه الساطع الذى شبهه بضوء البدر، فلا تضل طريقها، قال:

أهلاً بذيكم الخيالِ المُقبلِ فَعَلَّ الذى نهوَاهُ أو لم يفعلِ

برقاً سرى فى بطنِ وجرةٍ فاحتدّتْ بساءُ أعناقُ الركابِ الضُّلّ (٣٢)

وقد يلجأ الشاعر إلى تصوير المتعة وملذات اللقاء، فيحاول من خلال حديثه هذا أن يلتمس لقاءً تخيلياً بديلاً عن اللقاء الحقيقى، يقول:

- إنا هى مالت للعناقِ تعطفّتْ

تعطفّتْ أمْلُودُ من البَـانِ مائِدِ

إذا وصلّنا، لم نَمِلْ عن تَعَمُّدِ،

وإن فَجَرَتْ، أبَدَتْ لنا فَجَرَ عامِدِ (٣٣)

- فبات يعطينى على غيرِ رِقْبَةٍ

مُجاجةً مَنسُولِ الرُّضايِ بِرُويِ (٣٤)

وفى الصورة التالية يتوهم لقاءً جسدياً، وعناقاً حاراً يروى غلته، يقول:

ولم أنسَ إسعافَ الكَرَى بِدُنُوها وَزَوَّرَها بَعْدَ الهُدُو وما تَدْرِى

وأخذى بعطفِها وقد مالَ رَدْفُها بليغةً العطفينِ مهضومةُ الخُصْرِ

عِناقُ يَروى غلَّتْى وهو باطلُ، ولو أنه حَقُّ شفى نُوعةُ الصَّدْرِ (٣٥)

وفى البيتين التاليين يشبه نشوته بلقاء المحبوبة طيقاً بنشوة الخمر، بل

جعلها تفوقها، وتتجاوزها حدة، ولذة، يقول:

بَرَّحَ بِي الطيفُ الَّذِي يَسْرِي وَزَادَنِي سُكْرًا إِلَى سُكْرِي
وَنَشْوَةَ الْحُبِّ إِذَا أَفْرَطْتُ بِالصَّبِّ جَاوَزْتُ نَشْوَةَ الْخَمْرِ^(٣٦)

فقد كان الطيف يحل عنده في النوم محل العيان والملاحظة في اليقظة، وهذا ما عبر عنه الشريف المرتضى بقوله في مدح الطيف: «فتكون لذة الخيال في حال تمتلها وتذيلها كلفة اللقاء الصحيح والوصال الصريح»^(٣٧).

ويذهب الشريف المرتضى إلى تبرئة هذه اللذة من كل إثم أو عيب، يقول: «وأنه تمتع وتلذذ لا يتعلق بهما تحريم، ولا يندو إليهما تأثيم، ولا عيب فيهما ولا عار»^(٣٨)، ومن الصوفية من يلحق العيب بأصحاب الطيف -دون الإثم- على حد قولهم: «إن النوم لو كان مانعا لهم لكان تخصيصهم إياه بأنه يُريهم أحبهم نقصا بيئا في موتهم، فإن الحال إذا تمكنت لم تفرق الروحان، وإن اختلف الشخصان، فالمحب للمشاهد لصاحبه على كل حال، مستغن عن الاستعانة على إحضاره بروية الخيال»^(٣٩).

وإن كان الشاعر أبدى في صورته شدة تلذذه بزورة الطيف المتكررة، وتعلقه به وترقبه له وتهيؤه للقاءه، بالنشوق للنوم وتفضيله الليل على النهار، لطروق الطيف ليلا حيث صفاء الذهن واشتعال الوجد، ثم سعادته الغامرة بقاء محبوبته طيقا، فقد أتى بصور أخرى يُعبر فيها عن معنى جديد وهو أن طيفه هو بطرق المحبوبة أيضا، بل ويتبادل الطيفان التزاور بينما الجسدان هاجدان. يقول:

ثَهَا جُرْ أُمٌّ، لَا وَضَلْ يَخْلُطُهُ إِلَّا تَزَاوُرَ طَيْفَيْهَا إِذَا هَجَدَا
وَقَدْ يُزِيرُ الْكَرَى مَنْ لَا زِيَارَتُهُ قَصْدًا، وَيُنْفِي الْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَا بَعَدَا
بَثْنَا عَلَى رَقَبَةِ الْوَاشِيَيْنِ مُكْتَنَيْنِ صَابِغَةً نَتَخَاكِي الْبَيْثَ وَالْكَفَا
إِمَّا سَأَلْتُ بِشَخْصَيْنَا هُنَاكَ فَقَدْ غَابَا، وَأَمَا خِيَالَنَا فَقَدْ شَهَدَا^(٤٠)

وقال:

أهلا بذاثرنا اللُّم لوائه
عَرَفَ الذى يَمْتَدُّ مِنْ إِنْجَاهِهِ
جذلان يَمُحُّ فى الكرى بِمَنَاقِبِهِ
وَيَضُنُّ فى غير الكرى بِسَلامِهِ
أثريك أحلامُ الدُّجى ذا لَوْعَةٍ
كَلِفَ الخُلُوعِ يَرَاكَ فى أحلامِهِ؟^(٤٠)
وقال :

ولم أر مثيلنا ولا مثل شأننا
نُعَذَّبُ أيقاظنا وننعم هجدا
وقال :

إنما ما تهاذلنا الغفاس خلقتنا
من الجد أيقاظنا ونحن نيام
فيصور كل واحدٍ منهما ينعم منفردًا مع خيال صاحبه، فجعل طيف المحبوبة
يهواه، ويتعلق به، كتعلق الشاعر به، ومن ذلك قوله متطرقًا: "اليف اصطفيه
ويصطفينى"، "أهواه وهو يُعَيِّدُ النوم يهوانى".

إن صورة فتاة الطيف قد أتت لدى البحترى تقيض إشعاعًا وكأنه أحالها إلى
طبيعة نورانية، إذ قرنها بالبرق وبالقمر، ومن ذلك يقول:

- خطرت فى النوم منها خطرة
خطرة البرق بدا ثم اضمحل
- قمر فى دجنة الليل يوفى
أم خيال من عند سُدَى يوافى؟
- أضرت بضوء البدر، والبدر طالع
وقامت مقام البدر لما تغيبا
وفى الصورة التالية نرى الشاعر وقد أشكل عليه التعرف على البدر وعلى
الطيف، إذ رآهما متطابقين، فلا يمكنه بسهولة تمييز أحدهما من الآخر، يقول :

وإن بَخِلَتْ فلا وصل ولا صِلَةٌ
إلا اعتداء خيال منك زَوَارٍ
لأشكَلُ القَمَرُ السَّارِ على فما
بَيَّنَّتْ طَلَعَتُهُ من طيفك السَّارِ
إذ ضارَعَ البدرُ فى حُسْنٍ وفى صِفَةٍ
وطاعَ البدرُ فى وَقْتٍ ومَقْدَارٍ^(٤١)
وقد تقدمت أبياته يصور فتاة طيفه، تنتشر الضياء فيما تمر به من الأماكن،

فتتير الدروب والمسالك للركبان المرتحلة، خلال مسراها إليه عبر الصحراوات.
إن وصف الشاعر لفتاة الطيف مقترنة بالقمر ليثير عدة تساؤلات!!! فهل
قرنها بالقمر، لأن كليهما يسرى ويتجلى ليلاً؟؟ أم لأنها تشبهه بياضًا وضياءً

واستدارة وجه؟؟ أم لأن القمر بما ينشره من الضوء يبحث الطمأنينة للركبان
السائرة، ومحبوته في الطيف تؤدي نفس الأثر بما تبعته من الطمأنينة في نفسه؟؟
أم لكل المعاني السابقة مجتمعة؟؟

وعلى جميع الأحوال فقد كان البحري يلقى طيفه ليلاً، في إطار نوراني
مشرق، خلال رؤياه المنامية حين يهجد جسده، ويتحقق له رهافة الحس، وصفاء
المشاعر، واشتعال العاطفة، ومعاودة الذكريات فيتجلى له طيف صاحبه في
أجمل وأرق صورها الجسدية والمعنوية، ومن ذلك يقول:

قُلْ للخيال: إذا أريدت معاود	ثُنْ المافة من هوئ مُتَبَاعِد
فلأنت في نفسي - وإن عُنِيْتَنِي	وتعشت لي الأجان- أخلى والسد
باتت بأحلام النيام تفرُنِي	رُودُ الثنَى كالقضيبي المائد
ضاهت بحلتها تلهب حدها	حتى اغتدت في أرجوان جاسد ^(١٣)

فوصفها بجدة الشباب لأن الرودة من النساء هي السريعة الشباب، ولها
ناعمة الثنى، رطوبة التعطف، لبنة الحركة، وفي البيت الأخير يصور حمرة
خديها التي يضاهيها رداءها الأحمر، فانت الاستعارة في تلهب معبرة عن اللون
الأحمر الناري المميز للهب.

وفي مطلع قصيدة أخرى يكرر وصفه لفتاة الطيف بالشباب المشرق، حتى
أنه شبهه هنا بالزهر المشرق المنتعج، كما يركز على حمرة الخدين وهي من
دلالات الشباب والصحة- ويشبهها هنا بلون الورد الأحمر أو زهر الرمان، كما
أن الاستعارة (يكاد يدمى احمراراً) تؤكد اللون الأحمر بقوة، يقول^(١٤):

أطلب النوم كي يمود غرارة	بخيال يحلو لدى اغترارة
كم تلاق أراكه من قريب	صلة الطيف طارقاً وازديارة
وجو في حلية الشباب يضاهي	جدة الروض مشرقاً نواره
منعُ حد يكاد يدمى احمراراً	وردة في الميون أو جئنارة

وفى صورة أخرى يصف فتاة كاعبا فى مقتبل الشباب، لا يتعد عمرها أربعة عشر، طرفته فى الطيف، يقول :

طَرَفْتَنَّا - وفى الخيالات تُغنى
فى بُدُو من الشباب عليها
"أُمُّ بَكْرٍ"، فاسغَتْ "أُمُّ بَكْرٍ"
وَرَقَّ من جَدِيدِهِ الْمُبَكِّرُ
كَمَلْتُ أَرْبَعَ لها بَعْدَ عَشْرِ،
وَمَدَى الْبَذْرِ أَرْبَعُ بَعْدَ عَشْرِ^(١١)
فيذكر أنه تنعم بطروقها له فى الخيال، وقد بدت عليها دلالات الشباب تاما
كاملا، إذ استكملت أحوامها الأربعة عشر، ويشبهها الشاعر متظرفا فى البيت
الآخر بالبدر، فى يومه الرابع عشر نضجا وتامًا.

ولا تخلو صورة من ملامح جسدية لفتاة الطيف، كتقوله :

- مهزوزة إن مخت لم تلف هزتها
- وليلتنا بالجزم بات ساعفا
- خيال يعترينى فى المنام
- وقوله :

تَقْبِى الصَّبَا إِلا خَيْالاً يَمُودُنِى
بِهِ ذُو دِلَالٍ أَحْوَرُ الطَّرْفِ فَاتِرَةٌ
يَجُوبُ سَوَادُ اللَّيْلِ مِنْ عِنْدِ مُرَحَقٍ
ضَعِيفِ قِوَامِ الْخَصْرِ سُوْدُ غَدَائِرَةٍ^(١٢)
فاتى هنا بصورة المحبوبة جميلة العينين، مرهفة الخصر، ذات صفائر
سوداء.

وفى الصورة التالية نرى صاحبه التى تطرقه مبتهجة، طروبًا، تعاوده فى
سعادة وشوق :

أَمْنِكَ تَأْوِبُ الطَّيْفِ الطُّرُوبُ حَبِيبُ جَاءَ يُهْدِي مِنْ حَبِيبٍ !
ومن الصور الطريقة التى شكلها البحتري فى وصف فتاة الطيف، أن
صاحبه تزوره طيفًا وهى خاتمة وحلة مدعورة :

وَزُورِ خَيْالٍ بَعْدَ وَهْنِ أُمِّ بِي وَأَحْشَاؤُهُ مِنْ فَرْطِ حَيْفَتِهِ تَهْفُو

فأجرى هنا على الطيف ما هو لصاحب الطيف^(٤٧)، (أن أحشاءه تهفو من الخيفة)، على حد قول الشريف المرتضى.

ومنها أيضًا هذه الصورة التى تُضفى على فتاة الطيف طَبَعُ البراءة:

وَزَائِرُ زَارٍ مِنْ أَعْقَبِهِ يَمِيلُ وَزْنَا بِأَنْبِهِ دُعُورُ
فَكَانَ ذَعْرُهُ لِرَجْحٍ وَأَزِيدُ مِنْ لَنْسِهِ^(٤٨).

ومن الصور الطريفة لصاحبة الطيف، صورة طيف الحبيبة وبرفته أطراف الخفيات الحريات، فتحس بالبحترى وهو يصف تلك الأطياف، كمن يشاهد رضى تمرُّ من أمامه، مما يؤكد أنه كان يلوذ إلى عالم اللحم من خلال الطيف، لينفصل عن واقعه الذى يرفضه، ولا يربطه به إلا التواجد للمكانى، يقول^(٤٩) :

مَرْحُبًا بِالْخِيَالِ مِنْكَ الطَّيْفُ فِي شُمُوسٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِكَوُفِرٍ!
وَهَبَاءٌ هَيْفَ تَجَلُّ عَنْ التَّشْيِيبِ بِهِ فِي الْحُسْنِ بِالْهَبَاءِ الْهَيْفِ
وَالْبَحْتَرَى بِشَخْصٍ فَتَاةِ الطَّيْفِ، وَكَأَنَّهَا حَقِيقَةٌ فِي صُورِهِ. ولذلك فهو يلجأ إلى تصويرها تحترق الرقباء والواشين إذا طرفته ليلًا، ومن ذلك قوله:

- "بَتْنَا عَلَى رِقْبَةِ الْوَاشِينَ مُكْتَفَيْنِ"
- "فَيَاتِ يِعَاطِينِ عَلَى رِقْبَةِ الْعَبْدِ"
- "تَخْطِي رِقْبَةَ الْوَاشِينَ وَهْنَا"
- "يُورِقُنِي إِذَا الرِّقَبَاءُ نَامُوا"
- "يَعْمُرُ عَلَى الْوَاشِينَ لَوْ يَعْلَمُونَهَا"
- "لِيَالِ لَنَا نَزْدَارُ فِيهَا وَلَنَلْتَقَى"
- "صَابَاةٍ نَتَعَاطَى الْبَيْتُ وَالْكَفَا"
- "وَيَمْزُجُ رَيْقًا مِنْ جَنَاهِ بَرِيقِ"
- "وَبَعْدَ مَسَافَةِ الْخَرْقِ الْمَجُوبِ"
- "أَنَاءُ الْخَطْوِ فَاتِنَةُ الدَّلَالِ"

إن البحترى قد جعل صورة الفتاة التى تطرفه ليلًا فى الطيف تتسع لتحتوى معانى الجمال النقى، وتجمع بعذوبتها الرقيقة وشبابها الغض فى ازدواجية موقفة بين قوة الإغراء وصلابة الإباء والبراءة.

ولما عن موعد الزورة، فقد حذده للبحترى فى صورته. إذ كرر صورة

الطيف يسرى فى سواد الليل ويطرقه قرب الفجر، ثم يزول عنه الطيف بإطلالة
الصباح، ومن هذه الصور :

- إذا نسيت حوى ليلى أشاد به
طيفُ سرى فى سوادِ الليل إذ جنحا
دنا إلى على بُعدِ فارقتى
حتى تبلى ضوءُ الصبحِ فأتىها
- طارقُ أرقى الزيارة والصب
بحِ مُطلٌ، أو قد دنا إطلالة
- ألم هى وبياضُ الصبحِ منتظرُ
قد رَقَّ عنه سوادُ الليل أو كانا
- منك طيفُ ألم والأفق ملاء
نُ من الفجرِ واعتراضِ عموية
- فلولا بياضُ الصبحِ كان تشبُّشُ
بعضفِ غزالٍ بتُ ودنا أغازلُهُ
وكم من يدٍ لليلِ عندى حميدة

وللعبيح من خطبٍ تُذمُّ غوائلهُ

ويكرر البحتري استعاراته التشخيصية لليل: (يحملون الليل حتى تمرُّوا)،
(سواد الليل إذ جنحا)، (كم من يدٍ لليلِ عندى حميدة)، (والليل فى سرباله)، (قد
رق عنه سواد الليل). مما يؤكد عنايته بالليل لأنه زمن لقاءه بطيفه الحبيب، كما
يشبه سرعة الزورة بخطر البرق، إذ يبدو وميضُ فى السماء للحظة ثم يختفى،
وكذلك طيفُ الحبيبة، يقول :

خطرتْ فى النومِ منها خطرةٌ خطرةُ البرقِ بدا ثم اضمحل
ويكرر صورة إطلالة الطيف عليه ملقياً بالسلام، مُحاطاً بهالة من الضوء

للتأصع في سرعة وعجلة. وكأنها ومضة من ومضات البرق السريعة الزوال :

يكاد وميضُ البرق عند اعتراضه يُضئُ خيالاً جاء منها مُسلماً
ويشبه سرعة زيارة الطيف في البيت التالي بارتداد البصر :

أكان الضبا إلا خيالاً مُسلماً أقام كرجع الطرف حتى تَصَرُّماً!
ومع بدايات الصباح الأولى يزول الطيف، وينتهي بانتهاء الحلم الجميل،
الذي ساق للشاعر طيف محبوبته، خلال رؤياه المنامية، فتفارق المحبوبة التي
طرقته بمفارقتها النوم :

يتراءى والكرى في مقلتي فإنا فارقهما النوم بطل
ويورد الشاعر صورة الصبح ينتظر، ويتعجل الزيارة : (وأعجلها داعي
الصباح المكنع)، (لم بي وبياضُ الصبح منتظر) (والصبحُ مَطْلٌ، أو قد ننا
(إطلالة).

كما بصور الشاعر ألم فراق الطيف من خلال صور مؤثرة، قال:
ألم ترَ للبين كيف انبَزَى وطيف البخيلة كيف احتضِرُ
فالاستعارة في (احتضر) تذكرنا بالموت، وكذلك العنف في جذب الطيف من
أحشاء الشاعر، الذي توحى به الاستعارة التالية في (يخلج) ببيت:

فولتُ كأنَّ البينَ يخلُجُ شخصَها أوَّانَ تولَّتْ من خُضاي وأُشْجى
وفي الصورة التالية مُستثار عاطفتنا نحو الشاعر الذي يعاني من تكرار التفتد:
خُلا ناظري من طيفه بَعْدَ فُتْدِه فيا عَجَبًا للدهرِ فُتْدًا على فُتْدِ!

وفي ختام قصة الشاعر مع الطيف، وبعد ذكره لتفاصيل القصة إذا به
يصطدم مرة أخرى بمرارة الواقع من خلال إدراكه لحقيقة طيف الخيال، وتأكدته
أن ما رآه كان مجرد طيف في الخيال، وإدراكه أن الواقع كان لقى من أن يبدده
هذا الطيف، وأن الشاعر لا يزال باقياً على حاله، إذ لم يبق له من معايشة الطيف
سوى الآلام والمعاناة التي خلفها له فراق الطيف، ونقلتها الأبيات، يقول (٥٠):

إذا ما الكرى أمدى إلى خياله شفى قربه التبريح أو نفع المدى
إذا انتزعته من يذى انتباهه عدت حبيباً راحى متى أو غدا
ولم أر مثلينا، ولا مثل شائنا نغذب أبقاظاً، وننعم جُدا !
فلا شك أن الاستعارة في (انتزعته انتباهه)، وتمثيل النوم بالنعيم، واليقظة بالعذاب، لإحياء قوى بالمعاناة التى خلفها فراق الطيف.

ومن ذلك أن البحترى تمّ الصبح لمفارقة طيفه، وانتهاء المتعة به، قال^(٥١) :

وليلة هؤمنا على العيس أرسلت بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تحببى يعطى غزال بت وحنأ أغارله
وكم من يد ليل عندي حميدة وللصبح من خطب تدم غوانله
فقد فضل الليل على النهار وجسم هذا المعنى باستعارة اليد المحمودة لليل، واستعارة العواقب المزمومة للنهار.

وإن كان الشاعر فى الصور السابقة قد صورَ آلامه ومعاناته إثر فراق الطيف. ففي الصورة التالية نشعر به أكثر إشراقاً وامتثالا لطيفه الذى برّد نار وجده، وهذا فزاده القلق الملتاع، يقول^(٥٢) :

أما الخيال فإنه لم يطرق إلا بعقب تشوّف وتشوّق
قد زار من بُعد قنّه من جوى ضرم، وسكن من فؤاد مقلّق
ولربما كان الكرى سبباً لنا بعد الفراق إلى اللقاء فنلتقى

إن طيف الخيال بهذا المعنى يكون تعبيراً رمزياً للهروب من الواقع لفترة ما، من خلال عالم بديل من صنع الشاعر ووحى خياله، يلعب الرمز فيه الدور الأساسى، إذ الرمز يتفق وطبيعة الأحلام، يقول سجمند فرويد: «إن معرفة صاحب الحلم بالرمزية، معرفة لاشعورية، ولأنها تنتمى إلى حياته النفسية اللاشعورية»^(٥٣).

لقد لجأ خيال البحترى إلى ابتداع كثير من معانى الطيف، وصوره

اللطيفة، التى تؤكد تفوقه فيه على كل من سبقه ومن عاصره من الشعراء. ومن ذلك أبياته^(٥٤):

أما راعك الحى الحلال بهجرهم	وهم لك غدوا بالتفرق أروع !
بلى ! وخیال من أثيلة كلما	تأوهت من وجع تعرض يطمع
إذا زودة منه تقضت مع الكرى	تنهت من فقد له أنفرع
ترى مقتبى ما لا ترى فى لقائه	وتسمع أذنى رجع ما ليس تسمع
ويكفيك من حق تخيل باطل	ترد به نفس اللهيف فترجع ^(٥٥)

فقد لُرد الشاعر من خلال هذه الصورة الجميلة، الحالمة، الممتدة عبر الأبيات، أن يعبر عن معنى سعادته بالطيف أكثر من سعادته بالواقع، فبعد أن ذكر فى البيت الأول استحالة اللقاء بالمحوبة لصعوبة تخطى المكان، وعبر عن مرارة البعد والفراق: (راعك، بالتفرق أروع) ينبت الشاعر أن طيف صاحبه يلح عليه كلما تراكمت عليه الهموم والألام والمعاناة، ويكشف الشاعر عن نفسه المضطربة بكل هذه المورقات بقوله: "كلما تأوهت من وجع"، منيذا معنى الشرط، ثم يأتى فى جواب الشرط بما ينفذ معنى استغراقه فى طيف الخيال هروبا من واقعه المرير "تعرض يطمع".

واستخدامه أسلوب الشرط يدل على أن تجربة الطيف قد اكتسبت لديه كثيفا شديدا، حتى إن الطيف اكتسب ارتباطا شرطيا لديه، كلما تراكمت عليه الهموم والألام ليلا.

ويلجأ مرة أخرى إلى الارتباط الشرطى- فى البيت الثالث- فيعبر عن انتهاء زورة الطيف الجميل الذى تلذ به حينئذ ثم صدمته مرارة الواقع مرة أخرى، ويقينه أنه كان يعيش وهما كبيرا بقوله: "إذا زودة منه تقضت... تنهت لتفرع".

وفى البيت الرابع يُفسح الشاعر مجالاً واسعاً لخيال الممتقى، إذ يذهب فى تصوير سعادته فى عالم الطيف مع الحبيبة إلى مدى رحيب متسع، لا يُحَدُّ، فيعبر إنه شاهد وسمع منها ما لم يكن بينهما أبداً فى الواقع، وذلك بتكرار الاسم الموصول "ما". وإذ يعبر البحتري عن سعادة الحواس وتلذذها بالطيف "مقتلى"، أدنى" فهو يقصد التعليل لراحته النفسية بقاء طيف حبيبته.

وفى البيت الأخير يُعبر البحتري عن نفسه التلقاة المضطربة، حتى لقد تسلوى لديه الخيال والحقيقة "ويكفيك من حق تخيل باطل"، فقد صار يلتبس لقاء تخيلياً خلال عالم الطيف الخيالى بدلاً عن اللقاء الحقيقى، الذى صار مستحيلًا فى عالم الواقع، والبحتري يُبدى بهذا المعنى يأسه الشديد من الواقع الذى لا رجاء له فيه، ويكسر الحاجز السميك بين الحلم والواقع.

وفى المظهر الثانى من البيت يؤكد لهفته وراحة نفسه وسعادته بطيف الخيال، الذى أسعده ومتعه فكانه أمسك رmqه وأعادته للحياة، من خلال جملة الصفة: "ثرد" به تقس للهيف فترجع".

وربما كان هذا التشبيه، وما سبقه من معانى لذة الخيال بأبيات البحتري السابقة، هو ما قصده الشريف المرتضى فى أوصاف الطيف مدحاً، قال: يُعللُ المشتاقُ المغرمُ، ويُمسِكُ رَمَقَ المعنى المُسقم، ويكون الاستمتاع به والانتفاع به، وهو زورٌ وباطلٌ، كالانتفاع لو كان حقاً يقيناً، وهل فرقٌ بين لذة الخيال فى حال تمثيلها وتخيلها وبين لذة اللقاء الصحيح والوصال الصريح؟ وبَعْدَ زوال الأمرين ومُفارقة الحالين ما أحدهما فى قَدْرِ مُتَعِّهِ وزوال منفعتِهِ. -إلا كصاحبه»^(٥١).

ومن صور الطيف التى ابتدعها البحتري وجاء فيها سابقاً، وامتدحها النقاد، تلك الصورة الطريفة التى قدمها الشاعر لزورة الطيف وقت الجد، خلال منامك الحج، وهو يرتدى زى الإحرام، وقد فرغ من أداء بعضها فى عرفات، وينحدر منها صوب مكة لاستكمال الشعائر. وإذا بالطيف الزائر يطرقه من خلال نشاط

نفسى لاشعورى، كائن وكامن بأعماق الشاعر. ولكن الشاعر يتأبى أن يتمادى مع الطيف أو مع اللاشعور، ويتعجب من وقت الزيارة، بل من ملاحقة خيال صاحبه وإحاحه عليه حتى وهو يؤدى مناسك الحج. ويذكر أنه يبعث فى نفسه الحنين إلى عهد الصبا بالشام حيث الطبيعة الجميلة، ولكنه صار الآن مشغولاً بحاجاته وهمومه عن اللهو والعبث. قال البحتري^(٥٧):

أُحِبُّ إِلَى طَيْفٍ "سُدى" الآتى	وطُروقٍ فى أعجب الأوقات!
أنى احتديت لحرمين تصوبوا	لسفوح مكة من ربي عرفات!
ذكرتنا عهد الشام وعيشنا	بين القنّان السود والهخبات
إذ أنت شكل مخالف وموافق	والدهر فيك ممانع وموات
لولا مكائفة الخطوب ونحشها	من جانبي لكنت من حاجاتي

وقد افاض الأمدى ثناء على هذه الأبيات حتى إنه فضلها على أبيات قيس بن الخطيم المشهورة التى مطلعها:

أنى سرت وكنت غير سروب
وتقرب الأحلام غير قريب^(٥٨)

ولا يخفى علينا براعة البحتري فى الصياغة اللغوية، فرغم تعجبه من طروق الطيف فى البيت الأول إلا أنه لا يستكره، فهذا الطيف محبوب إليه، ودل على ذلك بأسلوب المدح "أحب إلى"، وإن كان فى البيت الأول قد تعجب من وقت الزيارة، ففى البيت الثانى يتعجب من اهتداء الطيف إليه والتعرف عليه - وقد ارتدى ملابس الإحرام واتجه مع حجاج بيت الله إلى مكة منحدرين من عرفات - باستخدام اسم الاستفهام "أنى"، وفى البيت الرابع يلجأ إلى الطباق لبيان المتناقضات فى حياته بين الحلم والواقع "مخالف وموافق"، "ممانع وموات".

وفى البيت الخامس نرى صورة أحداث الدهر وهمومه تتكاثر حول الشاعر وترهقه: "مكائفة الخطوب"، بل إنه بصورها معاول هم تتحت فى جنبه لتقضى عليه، وذلك من خلال الاستعارة: "ونحشها من جانبي".

إن البحترى يتكى على التصوير، ويستخرج طاقات اللغة فى الإيحاء، فيبدع
أمثال هذه الصورة الطريفة. ومن ذلك أبياته التالية :

فلا وصل إلا أن يطيف خيالها	بنا تحت جُؤشوش من الليل أسفع
ألت بنا بعد الهدوء فامحت	بوصل متى نطلبه فى الجِدِّ تمنع
وما برحت حتى مضى الليل فانقضى	وأعجلها داعى الصبح الملمع
فولت كأن البين يخلج شخصها	أوان تولت من حشائى وأضلعى
ورب لقاء لم يؤمن، وفرقة	لأنماء لم تحذر ولم تُوقِع
أرائى لا أنفك فى كل ليلة	تعاود فيها "المالكية" مضجعى
أترُ بقرٍب من مُلم مُلم	وأشجى بين من حبيب صونع
فكائن لنا بعد الثوى من تفرق	تُزجيه أحلام الكرى، وتجمع ^(*)

تتضافر هنا الألفاظ مع الصياغة والصورة لتخرج قصة زورة للطيف، يبرز
خلالها الشاعر لحاسيسه وسعادته بالطيف الذى طريقه، والليل أسفع، ويقصد السواد
فى حمرة، وهذا يكون عند اقتراب الفجر. ثم ذكر أن خيال صاحبه ألم به بعد
الهدوء، فأفاد ارتياح الجسم بعد عناء، وصفاء الذهن من تأريق أول الليل، فانشغل
فكره ووجدانه وخياله بالطيف، الذى استمر معه حتى تباشير الصباح الأولى
"الصباح الملمع"، حين يكون بياض الصبح ممزوجاً بسواد الليل قبل انتشار
الضوء.

وفى البيت الثالث عمد إلى الإعراب عن سعادة الطيف أيضاً ورغبته فى
ملازمته، من خلال الاستعارة "وأعجلها" فصاحبة الطيف لا تريد أن تفرح
صاحبها، ولكن أعجلتها تباشير الصباح.

وفى البيت الرابع نتعاطف مع الشاعر ونشفق عليه من خلال الصورة، التى
صور فيها ألم فراق الطيف، من خلال هذا التشبيه المعبر عن عمق استغراقهما
فى العاطفة. فكان داعى الفرقة ينتزعها انتزاعاً ويجذبها من أعماقه، من وسط

أحشائه ومن بين ضلوعه. فأنث الاستعارة في "يخلج" مناسبة لمعنى التصاق
الطيف بالشاعر، إذ لا يفارقه إلا كرهاً.
كما أن الكناية في "تولت من حشائ وأضلعي" لها إيحاؤها المثير بأن الطيف
وصاحبه قد تغلغلا في أعماق الشاعر.

وكما أنه يعبر عن سعادته الغامرة بلقاء المحبوبة عبر لطيف لقاء مفاجئاً
(لم يؤمل) فهو يعبر في الشطر الثاني من البيت عن ألم الفراق، والإحساس بالفقد
بعد استغراقه في العاطفة مع فتاته في الطيف وتمكنها منه، بأن الفراق أتى أيضاً
مفاجأة غير متوقعة، إذ ينحسر الطيف مع تباشير الصباح. وفي الأبيات الثلاثة
الآخيرة يصور الشاعر بمهارة الإحساس المستمر بتنازع الأحاسيس، كلما طرقته
فتاته طيفاً :

"لا أُنْثُكَ في كل ليلة تعاود فيها المالكية مضجعي أسراً وأشجى".

فصوّر الحالة المستمرة التي تتقابه من الألم بعد السعادة كلما طرقته صاحبه
طيفاً، وعبر عن تكرار هذه الحالة من خلال (لا أُنْثُكَ) والاستعارة في (تعاود
المالكية مضجعي). كما صوّر حالته في سعادته: (أسراً بقرب من مليمٍ مسلمٍ) إذ
يسعده اقتراب صاحبه وسلامها له. كما يصوّر حالته في حزنه ومحبوبته تودعه
أن البين: (ولشجى بين من حبيبٍ مودع) وقد أفادت هذه المقابلة بين الحالين
إبراز المتناقضات في حياته النفسية: عند طروق الطيف وعند فراقه.

وفي البيت الأخير يحمل الشاعر أحلامه أسباب همومه وآلامه من خلال
الاستعارة (تَرْجِيهِ)، إذ إن أحلامه الليلية هي التي تقود إليه خيالات اللقاء
والفراق.

ولا تخفى علينا الموسيقى الواضحة في الجنس، خلال الأبيات، "ولت،
تولت"، "مضى، انقضى"، "مليم، مسلم"، "النوى، الكرى" واستخدام الشاعر
بكثرته للأضداد من خلال الطباق : "سامحت، تمتع"، "لقاء، فرقة"،

أسرى، أشجى"، "مُسْتَم، مودّع"، "قرب، بين"، "تفرّق، تجمع". والترادف الذي أتى في "يؤمل وتوَفّع" لإبراز مشاعره بين السعادة والشقاء.^١
وتستوقفنا أيضًا أبياتٌ للبحتري في مطلع قصيدة يمدح فيها الفتح ابن خاقان، وينكر منازلته الأسد، وأتى فيها بصورة رقيقة لسريان الطيف، أعجبت النقاد القدماء^(٢٠)، قال :

أجِدُّكَ مَا يَنْفُكُ يَسْرَى لـ "زَيْتَبَا"
خِيَالٌ إِذَا آبَ الظَّلَامُ تَأْوِيَا
سَرَى مِنْ أَعَالَى "النَّامِ" يَجْلُبُهُ الْكَرَى
كُبُوبٌ تَسِيمُ الرُّوضِ تَجْلُبُهُ الصَّبَا
في البيت الأول هدف البحتري تقرير استمرار سريان الطيف إليه ليلاً: ففي الشطر الأول أفادت "ما ينفك" استمرارية الحدث وهو سريان الطيف ليلاً إليه، وفي الشطر الثاني جعل الارتباط شرطياً بين طروق خيالها وقدم الليل، ليفيد من البيت الاستمرارية، فكلمة عاد الليل عاد طيفها بطرقه، ولا تخفى علينا الاستعارة الجميلة في الفعل "يسرى".

وفي البيت الثاني أبدع البحتري في تصويره سريان الطيف، إذ شبه الطيف يسرى ليلاً أتياً من شمال الشام وهو موطن المحبوبة فيسعد به الشاعر وترتوى غلته، بالنسيم الرقيق المعتدل الذي يهب فيحيى الرياض وتتفتح به. فجعل سريان الطيف كهبوب النسيم، وسعادة العاشق بالطيف كانتعاشة الروض بالنسيم. وكما أن النسائم الرقيقة تأتي الرياض خلال هبوب ريح الصبَا، فالطيف يسرى ويطرق الشاعر خلال الليل، وقد أبدع البحتري حقاً في هذا التشبيه التمثيلي.

ومن أبياته التي استوقفنا :

وانى وإن ضئت على بوّها
يعزّ على الواشين لو يعلمونها
لأرتاح منها للخيال الورق
ليال لنا نزار فيها وثلقى
بطيف متى يطرق دجى الليل يطرق
أضم عليه جفن عيني تملقا
به عند إجلاء النّاس المرق^(١١)

فقد أتى البحرى بالبيت الأخير موقفا غاية التوفيق فى تصوير تشبّهه وتعلقه وتمسكه بالطيف، عند انتهاء الليل واقترب إفاقة من النوم؛ فيزيد من ضمّ الجفنين فى نومه عامداً، طمعاً فى مزيد من الاستماع بطيفه الحبيب، فصور الشاعر نفسه مطبقاً عينيه بإصرار على حلمه الجميل، يريد أن يحتفظ به، كناية عن سعادته وتلذذه بطيفه الأليف الحبيب، إذ كان فى روياء يلذها.

وإذا كان النقاد القنماء شبهوا شعر البحرى "بالسلاسل الذهبية"^(١٢)، فلا شك أن أمثال هذه الصور الرقيقة الجميلة المعجبة، التى اخترعتها مخيلته المبدعة فى الطيف، تعدّ بمثابة القلادة من شعره.

ذكر القنماء أن أول من عبّر عن معنى طروق للطيف شعراً هو فيس^(١٣) بن الخطيم، وأنه سبق إلى معنى، كلّ الناس فيه عيالّ عليه^(١٤)، وهو قوله:

أنى سريت، وكنت غير سروب
ما تمنى يفتنى فقد توتيت
وتقرّب الأحلام غير قريب
فى النوم غير مكدر صخب
ولهُوت من لهُو امرئ مكذوب^(١٥)
كان المنى بلقائها فلقيتُها

كما يورد صاحب ديوان المعانى البيتين التاليين لعمر بن قميّة^(١٦) فى معنى طروق الطيف، ويذكر أن من تلاهما من الشعراء قد استمدوا أكثر معانيهم فى الخيال منهما.

ناتك أمانة إلا سُوالاً
خَيالى يُخَيّل لى نيلها
والا خيالاً يُوافى خيالاً
ولو قدّرت لم تُخَيّل نوالاً^(١٧)
وقد ذكر النقاد أن أول من طرّد الخيال طرفه، فقال^(١٨) :

فقل لخيال الحنظلية يتقلب
وأن جريراً أيضاً طرد الخيال فقال :
طرقتك صائدة اسفلوب، وليس ذا
وأعجب من هذا قول الراعى الذى هجا الخيال، فقال :
طاف الخيال بأصحابى، فقلت لهم:
أأم شذرة زارتنى أم الفول؟
لا مرحباً بابنة الأقيال إذ طرقت
كما عابوا على الأعشى أن دعا على الخيال، فقال :
هذا النهار بدا لها من أمرها
ما بالها بالليل زال زوالها^(٦٩)
ولن كان النقاد قد استجفوا معانى ثم الخيال، وعابوها على الشعراء السابقين
على البحترى، فإنه لم يذم الخيال وإنما وصفه بالكذب، معبراً عز معنى سعادتة
بالطيف رغم كذبه، ملوحاً إلى إدراكه أن عالم الطيف إنما هو عالم وهم وزيف
كبيرين، يقول :

- ويكفيك من حق تخيل باطل

ترد به نفس اللهيف فترجع

- أرى كذب الأحلام صدقاً، وكم صفت

إلى خبر -أذنأى- غير صدوق

- يكاذبنى وأصدقته وادأ

ومن كلف مصادقة انكذوب:

- لا ينسى يوفد الحبيب إلينا

كذب الطيف سارياً وغرور

وقد استحسن له النقاد أن أتى فى معانى الخيال بكل بارع وفصيح، كما
استحسنوا له الغزارة الملحوظة فى ذكره الضيف، بمفتتح قصائده، أو خلال
مقدماتها، ونسبوا إليه الفضل فى تنويع أوصاف الطيف واهتدائه إلى معان لم ترد
عند غيره، حتى إن إبداعه فيه واشتهاره به ذهب مثلاً فيقال: خيال البحترى^(٧٠).

ومن طرائف معانيه في الطيف ما استحسنته له الأمدى، أن شبه الزائر الذي زاره بالخيال لشدة فرحه وخوفه ألا يكون له حقيقة، قال (٧١):

وزُودُ أُنَانِي طَارِقًا فَحَبِيبُهُ خِيَالًا أَتَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ يَطْرُقُ
أَقْبَمُ فِيهِ الثَّنُّ طَوْرًا مَكْدَبًا بِهِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَطَوْرًا أَصْدَقُ
أَخَافُ، وَأَرْجُو بَطْلَ ظَنِّي وَصِدْقَهُ، فَلَهُ شَكِّي حِينَ أَرْجُو وَأَفْرَقُ
وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

حَبِيبُ سَرَى فِي خَفِيَّةٍ وَعَلَى دُعْرِ
يَجُوبُ الدُّجَى حَتَّى التَّقَيْنَا عَلَى قَدْرِ
تَشَكُّكْتُ فِيهِ مِنْ مُرُورِي، وَخِلْتُهُ

خيالاً أتى في النوم من طيفه يسرى
ولنا أن نتساءل : هل نفس البحترى المتعلقة بالطيف أذهبت بعيداً مع الخيال؟
حتى صار يشكك في زوئله كما أورد بأبياته السابقة؟؟

ربما كانت كثرة استغراق الشاعر في تجربة الطيف دلالة على نشاط نفسي لا شعوري، يُسَلِّمُهُ إلى عالم وهمي من وحي خياله، يحقق فيه الشاعر لنفسه وسيلة للخروج من مأزق المواجهة المباشرة مع الواقع للقاسي. فتبرز له المحبوبة في الطيف "تتمثل قوة هادية تتبع من داخل القلب، متجاوزة، ينطوي لها الزمان ويتراجع أمامها المكان" (٧٢).

لقد برع البحترى في تصوير طيف زائرتة الليلية، إذ هي صورة حاقظه الداخلي الذي كان يخرجُه من الأسى للبهجة، أو هي رمز إبراهيم لطموحاته في تحقيق ذاته، فأنت صورة المحبوبة في زورة طيفها الليلي، تحفها مظاهر البركة والنعمة، ناعمة منعمة، تحيطها البهجة، وتزيئها إغراءات النشوة والإشباع، حيية لكنها تبعث له الأمل والفرحة، فكانها عذراء قد تهيأت لعرس. فيحتضن الشاعر خيال صاحبتة بسعادة غامرة، وباستعداد نفسي ذكي - وقد ألقى بنفسه وبركيه

وبراحلته في أعماق هموم ومخاوف ليلية يحثها الهلاك.
لقد نجح البحتري بلغته التصويرية، وبخياله الثري المكثف في تصوير
مشاعر الدهشة والذهلة في استقبال طيفه، ونجح أيضا في تصوير استمتاعه
بمعاشة الطيف، وكأنه أدرك فردوسه المفقود، الذي رمز له بالمحبوبة.
كما نجح في التعبير عن مفاجاته بإفاقته من حلمه الجميل، ونعيمه بالروى
الأنيفة، ببزوغ ضوء النهار ... فإذا بالمحبوبة التي تجلت في روى الليل قد
تسربت بالسراب ... فيصور الشاعر مشاعر الفقد والأسى ببراعة أيضا، من
خلال رصده انتهاء زورة الطيف.

خاتمة

هذا البحث يتناول الطيف في شعر البحتري -الدلالات والصور- ويهدف إلى رصد ظاهرة الغزارة في وصف الطيف بشعر هذا الشاعر وإن المتأمل لديوانه ليدعش لهذا الحمض الهائل من أبيات الطيف، مما يعدّ ظاهرة مميزة في شعره تستحق دراسة إغرائية المتكرر في معايشة طيف الخيال.

كما أن إبداعه الفني في تشكيل صورة الطيف استحق أن نتوقف عنده لتحليل نماذج متميزة من هذه الصور الغزيرة: بلامحها، وأجزائها، وطرائقها، ودلالاتها.

فكان المنهج يعتمد على :

- رصد ظاهرة وصف الطيف في شعر البحتري من خلال استخراج الشواهد الدالة عليها من ديوانه.

- تحليل الشواهد الشعرية، وتعليلها، والكشف عن دلالاتها.

- دراسة صورة الطيف لدى الشاعر، والكشف عن قيمتها الفنية.

- إثارة بعض التساؤلات عن تعليل شيوع هذه الظاهرة لديه، ومحاولة كشف رموز الطيف في شعره.

- مع الاستعانة ببعض دراسات علماء النفس في تعليل تكرار مثل هذه الظاهرة.

كما تناول المنهج دراسة وصفه للمحبوبة التي تطل عليه عبر طيف الليل، كيف رسمها في صورته؟ وما ملامحها؟ وهذه الزرورة التي كان يرتقيها في نفسه، ويكرّر ذكرها للطيف في شعره! كيف كانت؟ وكيف تبدأ؟ ومتى تبدأ؟ ومتى تنتهي؟ وكيف حالة هو بعدها؟

نتائج البحث :

- ١- محاولة تفسير ملازمة تجربة الطيف للشاعر في كثير من قصائده، مما يكشف عن استعداد نفسي، وتلهّف، وإصرار على لقاء الطيف في عالم الرؤى، وهو عالم بديل من وحى الخيال، هروباً من الواقع.
- ٢- تفسير بروز صورة المحبوبة في الطيف أنه كان يمثل للشاعر بروز المعاني المثالية الجميلة، والقيم النبيلة التي افتقدها في واقع الذي وصفه بقصيدته السينية -التي ألمنا بدلالاتها خلال البحث- فيكون الطيف بذلك قد أتى في شعره رمزاً لمشاعره وعواطفه التي تكمن في أعماق ذاته.
- ٣- رصد الدلالات النفسية للمحبوبة الشامية التي تطرقه طيفاً :
- فربما كان تعلق الشاعر بالطيف رحلة رمزية للماضي لذاته، التي افتقدها الشاعر بعد أن تغرّب عن الشام !!
- لقد أثبت البحث براعة الشاعر في تصوير طيف زانريه الليلية، إذ هي صورة حافظه للداخلي الذي كان يخرج من الأسى للبهجة، أو هي رمز إدراكه لطموحاته في تحقيق ذاته.
- وقد أثبت البحث قدرة الشاعر على توظيف اللغة، والخيال الثري المكثف في تصوير مشاعر الدهشة والتهفة في استقبال طيفه، وتصوير استمتاعه بمعايشة الطيف ثم للتعبير عن مفاجاته بإفادته من حلمه الجميل، ونعيمه بالرؤى الأليفة، بيزوغ ضوء النهار ... فيصور الألام والمعاناة التي خلفها له فراق الطيف.

الهوامش

- (١) أبو على إسماعيل القالى البغدادي، الأمالى، مطبعة السعادة ١٩٥٣م، ج١، ص٢٢٦.
- أبو إسحاق إبراهيم الحصرى القيروانى، زهر الأداب وثمر الألباب. المطبعة الرحمانية، ج٢، ص١٢٠.
- (٢) أبو القاسم الحصن بن بشر الأمدى، الموازنة بين شعر أبى تالم والبحترى، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر ١٩٨٢م، ج٢، ص١٦٧.
- (٣) الشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى العلوى "٣٥٥- ٤٣٦هـ"، طوف الخيال تحقيق حسن كامل الصيرفى، مراجعة إبراهيم الأيلرى، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٢م.
- (٤) ابن رشيق القيروانى، العمدة فى محاسن الشعر وأدابه ونقده، حققه محمد محبى الدين عبد الحميد، دار الجيل- بيروت، ١٩٧٠م، ج٢، ص١١٩.
- (٥) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى، ديوان المعلى. نشرته مكتبة القنسى، ج١، ص٢٧٦، ص٢٧٧.
- (٦) طيف الخيال، ص٤.
- (٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان، حققه محمد محبى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، ترجمة (٧٤١)، ص٥، ص٧٤.
- للخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ج١٢، ص٤٧٦.
- بقرت الحموى، معجم الأدياء، دار إحياء التراث العربى- بيروت، ج١٩، ص٢٤٨.
- (٨) الأمدى، الموازنة، ج١، ص٤.
- (٩) ذكرها ابن خلكان غلوة بضم العين، قال : ثم كان منه ما كان فى غلوة التى شرب بها فى كثير من أشعاره، وهى بنت زريقه الحلبيه، وزريقه : أمها، ج٥، ترجمة (٧٤١)، ص٧٤.
- (١٠) ديوان البحترى، تحقيق حسن كامل الصيرفى، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ج٣، ص٢٠٠٩.
- (١١) نفسه، ج٢، ص١٠١٦.
- (١٢) نفسه، ج٢، ص٢٢٤٧.
- (١٣) ديوان البحترى، ج٣، ص١٩٣٢.
- (١٤) ديوانه، ج٣، ص١٥٩٩.
- (١٥) نفسه، ج٢، ص١٦٥١.
- (١٦) ديوان البحترى، ج٢، ص١٣١٠.
- (١٧) السابق، ج٣، ص١٥٣٤.
- (١٨) السابق، ج٣، ص١٤٦١.
- (١٩) ج٢، ص٧١٧.
- (٢٠) ج١، ص٣٦٣.
- (٢١) ج١، ص١٩٦.
- (٢٢) حسن كامل الصيرفى، مقدمة ديوان البحترى، ص٢٢.
- د. عبد الحليم حفى، مطلع القصيدة العربية ودلالاته النفسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٢٤٤.
- (٢٣) ديوان البحترى، ج٢، ص١١٥٢.
- (٢٤) مصطفى سويرف، الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة، دار المعارف ١٩٥١م، ص١٩٢، ١٩٣، ١٩٤.
- (٢٥) ديوان البحترى، ج٣، ص١٤٧٩.
- (٢٦) سيجمند فرويد، محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى، ترجمها : د. أحمد عزت راجح، راجعها : محمد فتحى، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢م، ص١٧٨.
- (٢٧) أنظر المرجع السابق، ص١٥٥.
- (٢٨) ديوان البحترى، ج٣، ص١٤٦١.

- (٢٩) السابق، ج ٣، ص ١٧٨٨.
(٣٠) السابق، ج ٢، ص ٢٠٢٣.
(٣١) الديوان، ج ١، ص ٥٦٩.
(٣٢) الديوان، ج ٢، ص ١٧٤١.
(٣٣) الديوان، ج ١، ص ٦٢٢.
(٣٤) ج ٢، ص ٧٧٨.
(٣٥) ج ٢، ص ١٠٠٥.
(٣٦) الديوان، ج ٢، ص ١٠١٠.
(٣٧) الشريف المرتضى، طيف الخيال، ص ٥.
(٣٨) السابق، ص ٦.
(٣٩) أبو بكر الأصبهاني الظاهري، كتاب الزهرة. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٣٢م، باب من فقه الوصال نعشه الخيال، ج ١ ص ٢٥٩.
(٤٠) ديوان البحترى، ج ٢، ص ٧١٧-٧١٨.
(٤١) ج ٢، ص ١٩٨٨.
(٤٢) ج ٢، ص ٨٥٧-٨٥٨.
(٤٣) ج ١، ص ٥٥٠.
(٤٤) ج ٢، ص ٩٠٦.
(٤٥) ج ٢، ص ٩٧٠.
(٤٦) ج ٢، ص ٨٧٧.
(٤٧) انظر طيف الخيال، ص ٧٤، ٧٥.
(٤٨) السابق، ص ٢٣.
(٤٩) ديوان البحترى، ج ٣، ص ١٣٦٣.
(٥٠) السابق، ج ٢، ص ٦٧٠.
(٥١) السابق، ج ٢، ص ١٦١٢.
(٥٢) وفي رواية "قد زار من بعد فريد من حشا "ورواية أخرى" فسكن من حشا"، الديوان، ج ٢، ص ١٤٢٩.
(٥٣) سيجموند فرويد، محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ص ١٧٧.
(٥٤) انت الأبيات خلال مقامة قصيدته في مدح أبي عيسى العلاء بن صاعد، الديوان، ج ٢، ص ١٢٦٨ ومطلعها:
أحاجيك هل للخبء كاذر تجفّع؟ وللحاجم الظمان كالغياض يلقّع؟
(٥٥) أورد الأمدى هذه الأبيات بكتاب الموازنة، ج ١، ص ١٣، وأثنى عليها قائلا: «ولمست أقول في هذا إلا ما كان البحترى يقوله، وحشابه أبو علي محمد بن العلاء السجستاني، إنه كان إذا شرب وأنس أنشده مثل هذه الأبيات وأشباهها من شعره، وقال: ألا تسمعون! ألا تعجبون!». وكذلك أوردتها الشريف المرتضى بكتابه طيف الخيال وأثنى عليها بأنها "قاصعة الجمال، بعيدة المثال"، طيف الخيال، ص ٢٨، ٢٩.
(٥٦) السابق، ص ٥.
(٥٧) ديوان البحترى، ج ١، ص ٣٦٣.
(٥٨) الموازنة، ج ٢، ص ١٨٦.
(٥٩) الجرشوش: الصدر، الأصنع: الأسود، يخلق: ينتزع ويجنب، كتاب التشبيهات، ص ٧٥، الأمالي للقالى البغدادي، ١/ ٢٦٦، الموازنة، ج ٢، ص ١٧٤، ديوان البحترى، ج ٢، ص ١٢٣٧.
(٦٠) ديوان البحترى، ج ١، ص ٩٦. وأورد ابن أبي عون الألباري التبيين بكتابه التشبيهات

وذكر أنهما من حسن التشبيه فى طروق الخيال، ص ٧٥، كما أوردها ابن الشجرى فى حمله، ص ١٧٩ طبعة حيدر آباد، دون تعليق عليها تحت عنوان : باب الطوف والخيال، كما سجل الأمدى إعجابه بالبيت الثانى، قال: بيت فى غاية الحسن والحلاوة، الموازنة، ج ٢، ص ١٧٦.

(٦١) الموازنة، ج ٢، ص ١٧٥، ديوان البحتري، ج ٣، ص ١٥٠٨، ١٥٠٩، المرنق : الذى يغشى العينين.

(٦٢) لورد ابن خلكان : "وكان يقال لشعر البحتري : سلاسل الذهب، وهو فى الطبقة العليا"، وفيلت الأعيان، ج ٥، ترجمة "٧٤١" ص ٧٤.

(٦٣) هو قيس بن الخطيم بن عدى بن عمرو، وهو شاعر الأوس، عاش فى الجاهلية، وأدرك الإسلام ولم يُسلم، وقتل قبل الهجرة، قتله الخزرج، ومن الناس من كان يفضل على حسان بن ثابت.

- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، القاهرة ١٩٦٢م، ص ٧، ٨.

- محمد بن سلام الجمحي، طبقت فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م، ج ١، ص ٢٢٨، ص ٢٣١.

- أبو عبيد الله المرزبانى: معجم الشعراء، تصحيح وتعليق ف- كرنكو، مكتبة القفس، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢م، ص ٣٢١.

(٦٤) أمالى المرتضى للشرىف المرتضى، دار إحياء الكتب العربية، ج ١، ص ٥٤١.

(٦٥) سريت أو سريت، غير مربوط : غير مبدعة، مصرّد أو مكرّر

ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، ص ١٥، ١٦.

أبو هلال العسكري، ديوان المعنى، نشر مكتبة القفس، ١٣٥٢هـ ج ١، ص ٢٧٦.

(٦٦) "هو عمرو بن قمينه بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، الشاعر المشهور، دخل بلد الروم مع امرئ القيس بن حجر فهلك فقيل له عمرو الضائع". أبو القاسم الأمدى، المزئلف والمختلف، بتصحيح وتعليق ف- كرنكو دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٦٨.

(٦٧) بورد ابن الشجرى البيهقي بكتابه الحماسة، ويذكر أن قيل إله أول من نطق بوصف الطيف، طبعة حيدر آباد الدكن، ص ١٧٥.

(٦٨) الأمدى، الموازنة، ج ٢، ص ١٨٨.

ابن عبد ربه، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ج ٥، ص ٣٤٦، ٣٤٧.

(٦٩) أى : أزاله كزواله.

(٧٠) أمال المرتضى، انظر ج ١، ص ٥٤٠ : ٥٤٧.

(٧١) الموازنة، ج ٢، ص ١٨١، وانظر الشرىف المرتضى، طيف الخيال، ص ٨٨.

(٧٢) د. حسنة عبد السميع، أحلام الخيال الفنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص ١٠٠.

الطيف في شعر اليعتري
د ناهد أحمد السيد الشعراوي

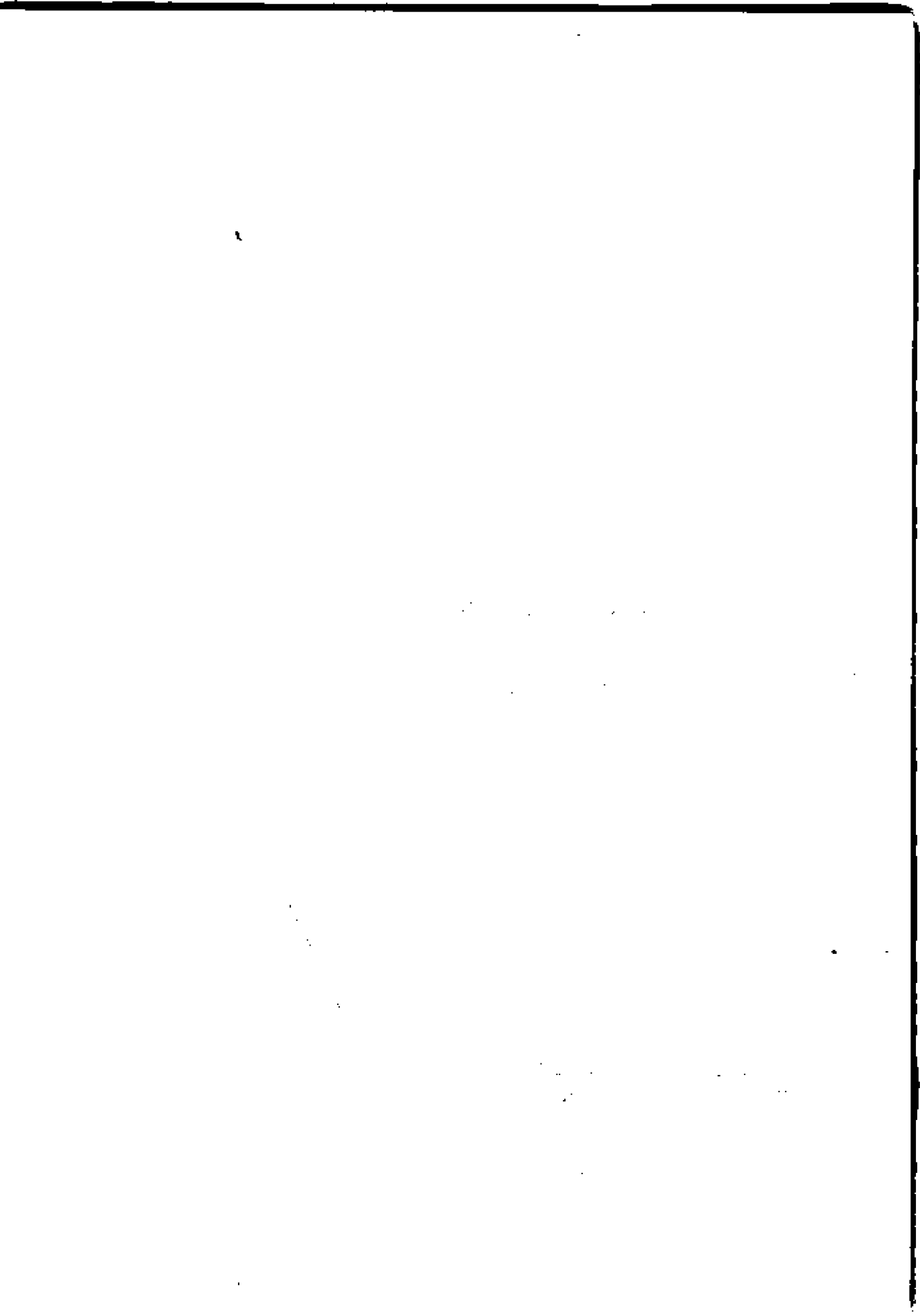
اللغة
العربية
وآدابها

المفارقة في أدب طه حسين

"دراسات في جنة الشوك"

د. نجوى محمود حسين صابر

المدرس بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



يُعد هذا الفن الأدبي الذي جاء به د. طه حسين "قلي جنة الشوك" فنًا نثرًا جديدًا يضاف إلى فنون النثر العربي، لم يعرفه العرب في نثرهم من قبل.^١ ولعل د. طه حسين قد سبق إليه لأنه كان مطلقًا على الآداب الغربية قديمها وحديثها، واستطاع أن يستعير منها هذا اللون الأدبي الجديد القديم. ولئن كان العرب القدماء لم يعرفوه نثرًا، لقد كانوا يعرفونه شعرًا، عند بشار وحماد ومطيع، وبعض أصحابهم في البصرة والكوفة.^٢

وهذا الفن هو فن "الإيجراما" وليس له ترجمة عربية شائعة*، وقد أثر طه حسين أن يذكر المصطلح بحروف عربية، دون أن يضع له مقابلًا عربيًا، وقد اشتق اليونانيون، واللاتينيون هذا الاسم وأخذوه من فن النقش على الأحجار، حيث كان القدماء ينقشون على قبور الموتى، وفي معابد الآلهة أبياتًا شعرية تعبر عن أغراض خاصة بهم، ثم بدأ هذا الفن يتطور حتى ابتعد عن الأحجار، وصار فنًا مرويًا على الشفاه، ثم لحقته الكتب. وإذا كان هذا الفن - الإيجراما - قد بدأ بالنقش على الأحجار، فقد صار بعد ذلك الفن الذي يطلق على كل شعر قصير، ثم خصص بالشعر القصير الذي يصور عواطف الحب، أو نزعات المديح أو الهجاء، ثم غلب عليه الهجاء في نهاية المطاف عند الإسكندرانيين، وشعراء روما، وإن لم يخلص تمامًا من الغزل والمدح، وكان هذا حتى العصر الحديث، حيث لم يعد الشعراء الأورييون يطلقون هذا الاسم إلا على الشعر القصير الذي يرمي إلى النقد والهجاء.^٣

ويتميز هذا الفن بأنه شعر قصير، وهو على درجة عالية من التأنق في اختيار ألفاظه، فهي ترتفع عن الألفاظ المبتذلة، ولا تسمق فتبلغ اللفظ الرصين

^١ د. طه حسين : جنة الشوك ص ١٥ دار المعارف ط ١٠ .
* وضع له د. مجدي وهبة عدة مقابلات عربية هي : العبارة المنقوشة ، والمقطوع اللاذع ، والحكمة السافرة ، والملحة للذكى ، ولكن واحدًا منها لم يعرف مصطلحًا دالًا على هذا النوع الأدبي بين الباحثين انظر : د. مجدي وهبة : معجم المصطلحات الأدبية لبنان ١٩٢٤ .
^٢ السابق ص ١١، ١٢ .

الذي يقصد إليه الشعراء الفحول في قصائدهم الكبرى، وإنما هو شئ بين هذا وذاك، غير مبتذل كي يفهمه الناس جميعًا فتزهد الخاصة فيه، ولا يرتفع حتى لا يفهمه إلا صفوة المتقنين الصفوة الذين يألفون لغة فحول الشعراء.^١

ثم تضاف إلى هاتين الصفتين اللغويتين صفة ثالثة تتصل بالمعنى في "الإيجراما"، وهي أنه يجب أن يكون المعنى ممثلًا لأثر من آثار العقل والإرادة والقلب جميعًا^٢، ولعل هذا أن يكون مخالفًا لما رأيته د. نبيلة إبراهيم من استبعاد القلب والعاطفة من المفارقة.^٣ ولعلي أجد أن ما رأيته د. طه حسين أقرب إلى الشمول حيث يكون الأثر الفني مزيجًا من القلب والإرادة والعقل، وأن يحكم كل هذا ذوق واع، فأثر العقل فيه أنه نقد لاذع، أو هجاء موجع، غير خاضع لعاطفة هوجاء أو هوى، وأثر الإرادة فيه أنه لا يأتي عفو الخاطر، وإنما يقصد إليه الشاعر قصداً، ويحتشد لأدائه وتجويده، أما أثر القلب فيه فهو أن يفيض عليه بعضاً من حيويته وحرارته، وأن يخلع عليه قوة ليقبل على الخير، أو لينفر من الشر في حالتي الرضا والسخط. ولكي يتأتى للعمل الأدبي ما يطمح إليه صاحبه، لابد أن يصح التعاون والالتحام بين كل من القلب والعقل والإرادة والذوق.^٤

ويجدر بالذكر أن المقصود بهذا البحث ليس الحديث عن فن "الإيجراما" نفسه، بل عن المفارقة فيه - كما جاءت في كتاب د. طه حسين : جنة الشوك - والمفارقة لا شك جزء منه ، بل هي ثمرته المرجوة ، فغالبًا ما تنتهي

^١ د. طه حسين : جنة الشوك ص ١٢، ١٣.

^٢ د. طه حسين : جنة الشوك ص ١٤ .

^٣ د. نبيلة إبراهيم : المفارقة مجلة لصول ص ١٢ المجلد السابع عند ٢٤، ٢٥ إبريل - سبتمبر ١٩٨٧.

^٤ د. طه حسين : جنة الشوك ص ١٤ ، وانتظر د. عز الدين إسماعيل : دعة للأسي ودعة للفرح ص ١٢.

"الإيجراما" بنوع من المفارقة irony ، والمفارقة ظاهرة لبيبة تعتمد على لعبة لغوية ماهرة بين طرفين صانعها وقارئها ، فصانع المفارقة يقدم للقارئ نصًا لا يقصد به المعنى الذي يدل عليه ظاهر لفظه ، بل معنى آخر يغلب عليه أن يكون ضدًا له ، معتمدًا على أن القارئ سوف يظن إلى المعنى المراد دون أن يخدعه الظاهر .

لئن فالمفارقة تعد لغة "اتصال سري" بين الكاتب والقارئ ، وقد تكون في جملة واحدة ، وقد تشمل النص كله.^١

وترى د. نبيلة إبراهيم "أن ليس كافيًا أن نعرف المفارقة بأنها الكلام الذي يقول شيئًا ويعني غيره - بل هي رفض للمعنى الحرفي للكلام لصالح المعنى الآخر ، أو بالأحرى المعنى الضد الذي لم يعبر عنه."^٢

ولعلها أن تكون كذلك تعبيرًا لغويًا بلاغيًا يركز على العلاقة الذهنية بين الألفاظ ، أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية ، وهي أيضًا وسيلة أسلوبية فعالة للتهكم والاستهزاء.^٣

فالمفارقة إذن صيغة من صيغ التعبير ، تقترب في المخاطب فطنة الاستماع: أي أن على المخاطب أن يدرك أن في الكلام معنى كامنًا فيه ، وأن يدرك أيضًا أن هذا الكلام المنطوق - لا يمكن فهمه على المستوى السطحي في

^١ وقد اشتقت من اليونانية (eironeia) بمعنى التظاهر بالجهل ، وفي ترجمتها للإنجليزية بعد ذلك صارت تعني هذا الأسلوب الذي يتعارض فيه المقصد الحقيقي لصانع المفارقة مع المعنى الحرفي الذي يقمه في الظاهر .

انظر: ١١/٢٧٩ Academic American Encyclopedia

^٢ انظر: د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٣٢-١٣٥ ، وانظر د. مصطفى السعدني : البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ص ٢١٣ منشأة المعارف - الإسكندرية .

^٣ انظر: د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ، مجلة فصول ص ١٢٢ .

^٤ السابق ص ١٣٢ ، وانظر: د. محمد العبد: المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ط ١ دوا الفكر العربي ١٩٧٤ ص ١٧٠ ، د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر مجلة فصول ٢ ١٩٨٢ ص ١٤٤ .

ظل هذا السياق المصاحب للنص^١.

وقد تشابكت "المفارقة" مع بعض المصطلحات المجازية البلاغية، مثل المجاز والكناية والاستعارة، ولكن هناك فرقاً جوهرياً يفصل بين المفارقة وغيرها من المصطلحات البلاغية يتمثل في: أن صانع المجاز والاستعارة والكناية يقصد إلى شئ أكثر مما تحمله كلماته، أي يقصد إلى المبالغة في المعنى، في حين أن صانع المفارقة يقصد غالباً إلى تقيض ما تحمله كلماته من معنى^٢.

والمفارقة ترتبط أيضاً بكثير من أشكال التعبير الفني، فهي خليط من فن الهجاء، وفن السخرية، وفن "الجروتيسك" أي الغريب الموهوش المضحك^٣.

وحين يدخل فن من هذه الفنون إلى المفارقة يبتعد عن استقلاليته ليؤدي مع غيره من عناصر المفارقة دوراً جديداً^٤.

ولعل أهم وظائف المفارقة السخرية والتهكم للوصول إلى نقد أخلاقي أو تهنئتي، أو لتقويم قيم اجتماعية سائدة^٥.

ويظل السؤال قائماً: لماذا يلجأ الكاتب أو الشاعر إلى المفارقة للحديث عما يريد من أفكار وموضوعات؟ والجواب: أنه قد يعتمد إلى المفارقة لأنها توفر نوعاً من التأثير بعيداً عن الرعشة الفج، والإرشاد الممجوج، وكذلك فهي تثير عقل القارئ وخياله معاً. إنها تُعد وجهة نظر إلى الحياة تفتح على تفسيرات عدة، لا يعتبر أي منها صحيحاً على إطلاقه، وهي ترى في تجاوز المتناقضات جزءاً من بنية الوجود^٦.

"كذلك فإن الدافع الفني والجمالي هو الذي يمارس الدور الأكبر من ضغوط صنع المفارقة، فكل ممنوع عند القارئ مرغوب، والأبعد هو الأجمل،

^١ راجع د. محمد العبد ص ١٥-١٧.

^٢ السابق ص ٢٩، ٣٠، وانظر د. ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث ص ٣٠ ط ١ ٢٠٠٢ بيروت.

^٣ انظر: د. نبيلة إبراهيم: المفارقة ص ١٣٢.

^٤ انظر: د. نبيلة إبراهيم: المفارقة ص ١٣٢.

^٥ د. محمد العبد: المفارقة في النص القرآني ص ١٦٦، ص ١٨.

^٦ انظر: أحمد خريس: المفارقة في مقامات بدیع الزمان ص ٢٥٨، مجلة جذور سبتمبر ٢٠٠٢ ج ١٠ م ٦، د. محمد العبد: المفارقة في النص القرآني ص ٣٥.

والغامض هو ما يسعى القارئ إلى اكتشافه ، ومن هنا يعمل القارئ معوله في جدار البنية اللغوية بحثاً عن كنز المعنى ، ولاشك في أن فرحته لا توصف حينما يعثر على المعنى المفقود^١

وقد يعتمد المبدع أيضاً إليها عندما يشتد الطغيان ، ويفرض على أصحاب الفكر إرهاباً فكرياً يراد به إسكات الألسنة ، وهنا لا يجد هؤلاء إلا طرقاً غير مباشرة أهمها المفارقة للتعبير عن آرائهم الحرة دون خشية، متخفين من أدواتهم الفنية، والعوامل الاجتماعية والسياسية والتاريخية معيذاً ينهلون منه ليوصلوا إلى الناس ما يريدون للتعبير عنه.^٢

ويتحدث د. طه حسين عن ذلك العصر الذي عاش فيه، وكتب فيه كتابه قائلاً: "ولعل عصرنا الحالي أحوج ما يكون لمثل هذا للكلام عن أي وقت خلا - فهو عصر انتقال - ، وعصور الانتقال تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأي واختلاط الأمر، وانحراف السيرة الفربية والاجتماعية عن المألوف من مبادئ الحياة. وهذا كله يدفع إلى النقد، ويحمل على العناية بإصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، والدلالة على الخير ليقصد إليه، وعلى الشر لتنتكب سبيله، وإظهار ما يحسن، وما لا يحسن في صور قوية أخادة الأثر في النفوس، شديدة الاستهواء للذوق، عظيمة الحظ من ملازمة للطبع."^٣

إنّ فالمفارقة قادرة على تحقيق هذا الأمر، بما لديها من قدرة على النقد في سرعة وخفة، وبقة وإيجاز، مع جودة في الصياغة. ومن ثم فسيجد القارئ ما يبحث عنه ممتزجاً بشعور من لذة العقل والقلب والذوق واللسان جميعاً.^٤

^١ د. ناصر شبانة : المفارقة في الشعر العربي الحديث ص ٧٣.

^٢ د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية للشعرية ط ٢٠٠١ القاهرة ص ٦٦

^٣ جنة الشوك ص ٧

^٤ جنة الشوك ص ٨

عناصر المفارقة:

تتعدد المفارقة بأربعة عناصر^١ أو خمسة كما يعدها بعض الباحثين.^٢

العنصر الأول:

لابد أن تشتمل المفارقة على مستويين للمعنى، معنى ظاهري يدل عليه ظاهر اللفظ، ومعنى آخر مستتر خلف هذا المستوى السطحي، وهو المقصود، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسياق العام للنص سواء أكان سياقًا لغويًا أم اجتماعيًا، أم تاريخيًا. بل لعل السياق أن يكون أهم ما يعول عليه في تجاوز المعنى الحرفي المباشر إلى المعنى الضمني في أسلوب المفارقة. ولا بد أن يدرك القارئ ازواجية المعنى وأنه منوط به الوصول إلى حقيقة مراد صانع المفارقة، تساعد في الوصول إليها المؤشرات المصاحبة للمفارقة، والتي من شأنها أن توجه انتباهه نحو التفسير السليم.^٣

العنصر الثاني:

خاص باداء صانع المفارقة لها، إذ عليه أن يظهر أسلوبه بريئًا، وأن يتظاهر، وهو يقدم المفارقة، بالسذاجة، ويتم له ذلك عن طريقتين:
أولهما: المراوغة، من خلال استخدامه الحيل اللغوية حتى يصبح صانع المفارقة كأنه ذات لغوية، وذلك بتحريك اللغة ليثبت بها حقيقة ثم لا يلبث أن يلغنها.^٤ واللغة في المفارقة ذات طبيعة خاصة تتميز بأنها لغة منعزلة لا تعتمد إلى الإقحام بصورة مباشرة، وتظل حائمة حول إشكاليات اجتماعية وفكرية على

^١ د. نبيلة إبراهيم: المفارقة ص ١٣٣.

^٢ د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٣٨.

^٣ د. نبيلة إبراهيم: المفارقة: ص ١٣٣، د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٣٩، ٣٨، د. محمد العبد: المفارقة في النص القرآني ص ٣٩ وانظر: د. سيزا قسم: المفارقة في النص العربي المعاصر ص ١٤٤، ١٤٣.

^٤ د. نبيلة إبراهيم: المفارقة: ص ١٣٩، د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٥٦.

مستوى المحدود واللا محدود ، ولا يحاول صانع المفارقة أن يحطها.^١
وثانيهما: "المغاظة" وهو أن يعتمد صانع المفارقة أن يضفي على شخص
مفارقته صفة الغفلة عن إدراك الحقائق.^٢

ويرى بعض الباحثين أن على صانع المفارقة عدم التحيز لفكرة ما أو
لموضوع ما، حتى يكون قادرًا على أن يناور فيحدث المفارقة.^٣
ولست أرى هذا الرأي، بل أعتقد أن المفارقة تتم بناءً على وجهة نظر في
الحياة، وأن صانعها لابد أن يكون مقتنعًا بمبدأ يدفعه إلى رفض واقع ما ابتغاء
تغييره .

على أن كاتب المفارقة لابد أن يكون فطنًا ذكيًا، مبتكرًا سريع البديهة، وأن
يكون صاحب قدرة على التعبير بأسلوب بليغ عن معان قد تبدو للوهلة الأولى
مبعثرة غير متسقة، وغير مألوفة للعقل. وتحقق المفارقة على يد فنان يجري في
دمه الإحساس العميق بالخدعة الكبرى في الحياة.^٤

وهذا الكاتب يجب أن يكون - كما ذكرت د.نبيلة إبراهيم - ذا تراسندنتالية،
وذا وعي "ترانسندنتاليا" - أي متساميًا متأملًا - Transcendental وليس
تجريبيًا، أي أن يمتلك القدرة على أن يتأمل كل شئ خارج نطاق التجربة
والخبرة، ولكن ليس خارج نطاق المعرفة البشرية، بمعنى آخر: هي الذات
القادرة على رؤية المفارقة القائمة حولها في موقف من المواقف، لو أمر من
الأمور.^٥

^١ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٨٠

^٢ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٥٧.

^٣ السابق ص ٦٦، وانظر : R.wellek: A history of Modern criticism V.٢.P.١٢-٢٤

^٤ د.سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٦٦ ، وانظر د. نبيلة إبراهيم :
المفارقة ص ١٣٥، ١٣٦

^٥ انظر : د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٦٤، ٦٣، ود. نبيلة إبراهيم :
المفارقة ١٣٤

العنصر الثالث :

لا بد من وجود "ضحية" ماثلة كي تتم المفارقة، وقد تكون الضحية مسئلة في "أنا" الذات المبدعة، أو في "أنت" أو في آخر، إنها ضحية متهمة وبرينة، ولعلها تدعي لنفسها أشياء مبالغاً فيها، ولعلها أن تكون دائماً عرضة للهجوم، ولعلها تتطوي على المضحك والمبكي معاً، ومن ثم فهي تدفع القارئ إلى بسمة خفيفة سرعان ما تتلاشى.^١

ولا بد أن تكون هناك أساليب واضحة للتأثير على الضحية لعل من أهمها السخرية والهجاء والمبالغة. وهنا يحسن بنا أن نشير إلى أن الفارق الأساسي بين هذه الفنون من القول في حالتها الصرف، وحالتها عند استخدامها في المفارقة، أنها لا تشترط في حالتها الصرف إقامة التضاد عنصراً جوهرياً، إذ يمكن أن تقوم بغيره، أما المفارقة فتشترط هذا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى "فإن بناء هذه الفنون الصرف يؤدي المعنى الحقيقي مباشرة بشكل لا يقل التردد... على حين أنه في حالة إعادة إنتاجه في المفارقة فإنه يؤدي دوره بحيث تحس بقوة للمعنى الظاهر والخفي معاً."^٢

كذلك فإن بناء هذه الفنون الصرف يكون بقصد إلى شن هجوم متعمد على شخص ما، أو أمر، بغرض سلبه كل أسلحته، وتعريضه من كل ما يتخفى فيه ويتحصن وراءه، أو لإخضاع الخصم من أجل إراحة النفس المتعبة، في حين أنه في حالة المفارقة لا يقصد إلى تعرية الشخص المهاجم من ادعائه وأسلحته... وإنما يظل صانع المفارقة شريكاً للضحية في محنتها.^٣

العنصر الرابع :

يتمثل في حتمية وجود تعارض، أو تناقض في معطيات النص، وأن ثمة

^١ د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٣٣.

^٢ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٧٨.

^٣ د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٣٧-١٣٩.

تضاداً، أو تناقضاً يُستشعر بين المستوى الظاهري والمستوى الباطني للكلام،
وأنه يجب حل هذا التعارض.^١

العنصر الخامس :

ويتمثل في القارئ المنوط به إدراك المفارقة، وضرورة وجوده كي تتم
للمفارقة أركانها، إنه يمثل روح المفارقة^٢، ونلاحظ أن بعض الباحثين لم يشترط
وجود القارئ بوصفه عنصراً رئيساً لفهم المفارقة واكتمال عناصرها، وإن نصّوا
على أهميته. ولعلني ألتق مع الرأي القائل بأن المفارقة تكتمل بعناصرها
الأربعة، وإن المفارقة تقوم، حتى تجد القارئ الواعي القادر على
اكتشافها، وهو الوجه الآخر لصانعها، فإن وُجد واستطاع أن يحل شفرة
المفارقة^٣، ويقف على معناها الحقيقي ومفزاها، فقد اكتمل لها وله النجاح من
القطار.

أنواع المفارقة:

للمفارقة أنواع كثيرة*، أهمها :

المفارقة البنائية : Structural irony

وهي تتمثل في التضاد الحاد النابع من موقفين متضادين نابعين من إطارين
اجتماعيين مختلفين.^٤

^١ السابق ص ١٢٢.

^٢ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٢٩.

^٣ د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٤٠ ، وانظر د. محمد العبد : المفارقة في النص القرآني ص ٢٢، ٢٣.

^٤ انظر : د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٤٠ وانظر : د. ميزان قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر ص ١٤٤.

*Cuddon, J.A: Dictionary of Literary Terms and Literary Theory. Penguin Books. England ١٩٩١.

Gray, M.: A Dictionary of Literary Terms. Long man ١٩٩٢

^٥ أحمد خريس : المفارقة في مقامات بديع الزمان ص ٣٦٢.

المفارقة اللفظية : Verbal irony

وهي تقوم على اللعب باللفظ فيقدم الذم بصيغة المدح مثلاً ، أو العكس . وكذلك يكثر في هذا النمط للمحسنات البيعية المعنوية واللفظية، مثل الطباق والمقابلة والجناس والتورية.^١ ولعله من الملاحظ في هذه المفارقة أن ما يؤكد المتكلم - صانع المفارقة - في ظاهر نصه يختلف عن المعنى الضمني الذي يعنيه بالفعل.^٢ بل لعل كلامه يحمل عنصراً لغوياً أو بلاغياً يؤدي إلى عكس المعنى ، ويتمثل هذا العنصر في المغايرة.^٣

المفارقة الدرامية : Dramatic irony

ويجب أن يتوفر فيها شروط ثلاثة :

- ١ - أن يتوتر فيها المرد بسبب غفلة بعض أشخاص المفارقة ، واستغفال بعضهم لبعض.
- ٢ - يجب ألا يعرف أحد الأشخاص على الأقل ما ينتظره من مصير بشكل محدد دقيق.
- ٣ - أن يكون جمهور القراء على علم بالوضع الحقيقي ، ويعجز الشخصية عن تقويم الخطأ ، وتصحيحه بشكل سليم.^٤

مفارقة الإلماع : Hint

وتقوم على ملحظ سريع أو نظرة، أو إيماءة تلميحية تجاه شخص بقصد النيل منه، أو تحقيره، والخط من شأنه. فإذا قلنا: "إنه كان ذكياً في الأيام الأخيرة" فهذا الكلام يدل على أن غيابه هو المألوف الدائم، وأن ذكائه عابر، وافترض المتكلم أن غيابه هو القاعدة أدخل الكلام في تضاد مع الافتراض العادي. ومما ساعد على تثبيت معنى المتكلم، وإزالة قناع المفارقة قوله: (فقط) أي أنه لم يكن قبل ذكياً، بل ظهرت عليه أعراض الذكاء في الآونة الأخيرة، بمعنى أنه كان غيباً أغلب الوقت.^٥

^١ أحمد خريس : المفارقة في مقامات بدیع الزمان ص ٣٦٢.

^٢ د. محمد العيد : المفارقة القرآنية ص ٧١، وانظر د. ناصر شبانة : المفارقة في الشعر العربي الحديث ص ٤٧.

^٣ د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر ص ١٤٤.

^٤ أحمد خريس : المفارقة في مقامات بدیع الزمان ص ٣٦٢.

مفارقة المفهوم أو التصور : Conception

ويقوم التضاد في هذه المفارقة على أساس التعارض بين موقف الضحية (المتصور) وسلوكها ومفهومها للأشياء، وهو سلوك خاطئ يثير الانتقاد، وبين ما يجب أن يكون عليه من صحة، وكلما ابتعد الدافع الظاهري المحرك لموقف الضحية وسلوكها عن حقيقة الأمر، اشتد التعارض وحمل وطيس المفارقة.^١

مفارقة الإيهام :

وتقوم على معنيين أحدهما قريب يوهم أنه المراد ، والآخر بعيد يراد ، تنفي به المفارقة هذا الإيهام وتثبت نقيضه.^٢

روافد المفارقة عند د. طه حسين

تتمثل روافد المفارقة عند طه حسين في ثلاثة روافد :

١ - ثقافة عربية صرفة مكنته من امتلاك ناصية اللغة العربية، وإحاطة واعية بتراثها الشعري والنثري ، فقد شب طه حسين على حب الشعر القديم، وبغض الشعر المحدث^٣ ، وقد ظهر هذا جلياً وواضحاً في قدرته القادرة على الأداء اللغوي السلس العذب الذي يحفظ على اللغة صحتها وجمالها فيما أورده من "إيجرامات" بلغت مائة وخمسين ، وقد ظهر فيها استثماره للتراث العربي القديم شعره ونثره ، في صياغة مفارقاته وإسقاطها على قضايا المجتمع المعاصر.

وقد تعددت جوانب الأداء اللغوي عند طه حسين، وقد ظهر هذا جلياً في مفارقاته فيما سنرى بعد، وقد ظهر أن اهتمامه باللغة لم يصدر عن تصور نظري

^١ د. محمد العبد : المفارقة في النص القرآني ص ٥٢

^٢ د. محمد العبد : المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ص ١٦٥

^٣ السابق ص ١١١.

^٤ محمود علي مكي: عصور الأدب العربي ص ١٢٧ مجلة "تكر" العدد ١٤ مارس ١٩٨٩
(د. طه حسين: مائة عام من النهوض العربي) (في الذكرى المئوية لمولده).

منطقي لبنية اللغوية، بل صدر عن نظرة وظيفية اجتماعية^١.

٢ - الثقافة الأوربية: ولعل من أبرز ملامح تأثيرها وقرئها على فن "الإبيجراما" اليوناني النشأة، وإدراكه تطور هذا الفن، ثم قدرته البارعة على نقله إلى اللغة العربية لجعله وسيلة من وسائل نقده الاجتماعي والسياسي للمجتمع المصري. وكان طه حسين قد درس اليونانية واللاتينية، والتاريخ اليوناني والروماني عندما أوفنته الجامعة طالبًا مبعوثًا إلى فرنسا بين سنتي ١٩١٥-١٩١٩^٢. وقد انعكست هذه الثقافة بوضوح في كثير من مفارقاته حيث أورد أسماء بعض الشعراء الفرنسيين واللاتينيين مثل مارسيل، وكليماك وجوفينال، وذكر آراءهم مستعينًا بهذا كله في مفارقاته الساخرة.

٣ - المجتمع المصري والبيئة الواقعية: لا شك أن جلّ الأفكار التي طرحها د. طه حسين والمفاهيم التي أراد انتقادها في مفارقاته لم يأت بها من بعيد، ولكنه استقاها من واقع الذي يحياه في مجتمعه المصري بشتى اتجاهاته ومناحيه. ويتحدث عن هذا الرافد فيقول: "ومن المحقق أنني لم أخترع هذا الكلام من لا شئ، ولم أشتق هذه الصور من الهواء، ولم التمسها في الصين، ولا في اليابان، ولا في بلاد الهند والسند، وإنما أنا أعيش في مصر، وأشارك المصريين في الحياة التي يحيونها، وأخذ يحظى مما في هذه الحياة مما يرضي ويسخط"^٣.

هذه الروافد الثلاثة اتصهرت إذن في فكر د. طه حسين لتكوّن هذه الخبرات الواسعة التي أمدته بمعين لا ينضب استقى منه قدرته على إحداث المفارقة وصناعتها، وقد أضيفت إليها أسفاره المتعددة وخبرته بالحياة والناس من حوله، ومن سبقوه إلى الحياة. يقول طه حسين في ذلك: "وأنا بعد ذلك أعرف أقطارًا من الأرض سافرت إليها وأقمت فيها أو قرأت عنها في الكتب والأسفار، وأنا بعد

^١ د. محمود فهمي حجازي : مقال : "فكره اللغوي مجلة "فكر" ص ٥٦ العدد ١٤.

^٢ د. محمد شكري عياد : طه حسين والثقافة اليونانية ص ١٠٢ مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٦٦.

^٣ د. طه حسين : جنة الشوك ص ١٧.

هذا وذلك أعرف أجيالا من الناس عشت بينهم، أو قرأت أخبارهم، وعرفت آثارهم فيما استطعت أن أظهر عليه من آثار الناس في الشرق والغرب... وأنا واثق كل الثقة بأن كثيرا من أبناء الزمان قد مروا في هذه الدنيا، وليس عندي من أنبانهم طرف طويل أو قصير، ولكني واثق بأنني عرفت للناس، وبلوت أخبارهم وأثارهم إلى حد ما، وتأثرت بما بلوت من ذلك، فسخطت حيناً ورضيت أحيانا، وأظهرت ما وجدت من السخط والرضا في صراحة واضحة تعفني من التلميح الغامض.^١

وبعد: قللي قبل أن أبدأ الجانب التطبيقي من البحث في مفارقات طه حسين في "جنة الشوك"، أقف لحظة عند عنوان الكتاب، لأسجل في عنوانه أول مفارقة عمد إليها الرجل، ولعلها أن تكون مفارقة لفظية يرمي فيها ظاهر اللفظ إلى غير حقيقته. فثمة تناقض شاسع بين الجنة والشوك، ولأنى يكون للشوك جنة، إنها مفارقة تبعث على السخرية والتأمل. هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد وفق طه حسين إلى اختيار هذا العنوان ليدل به على محتوى كتابه لما يحمله من أحاديث شائكة ومفرعة، بل مثيرة للألم وباعثة على التهمك والسخرية المرة وكلها مسوقة في قالب أنيق من لغة عنبة.

ولعل طه حسين كان أقرب إلى إيهام قرانه لطبيعة ما جاء به في كتابه حين قال: "المقطوعة منه أشبه شيء بالنصل المرفف ذي الطرف الضئيل الحاد، قد ركب في سهم رشيق خفيف لا يكاد ينزع عن القوس حتى يبلغ الرمية ثم ينفذ منها في خفة وسرعة ورشاقة لا تكاد تحس."^٢ وقد اختار طه حسين أن تقوم أغلب إيجراماته على حوار بين الأستاذ الشيخ وتلميذه الفتى لتتيح له حكمة الشيوخ وحماسة الشباب، وتطلعهم إلى المعرفة ألوانا من المفارقات حفلت بها هذه الإيجرامات.

^١ د. طه حسين: جنة الشوك ص ١٨، ١٧.

^٢ السابق ص ١٥.

وبنا الآن أن ننظر في مفارقات طه حسين ونتعرف أنواعها وخصائصها،
ومجالاتها، ونحاول أن نستجلي أهم دوافعها ومقاصدها.^١

أولاً: مفارقة التصور:

وقد ظهرت في موضوعات متعددة أغلبها قد غني بالمعاني الأخلاقية
والسلوكية:

ومنها ما أطلق عليه طه حسين عنوان "سيرة" يقول فيها:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما خير سيرة يسيرها الرجل الحازم في إبدائه؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: يكلّوهم بعنايته، ويشملهم برعايته، ويحوظهم
بعطفه وحنانه، ولا ينتظر منهم بعد ذلك إلا عقوباً. ذلك أجدر أن يسروه أحياناً ولا
يسوعوه أبداً.^١

المفارقة في العقوق الذي لا يتوقع حدوثه. وتملاً المفارقة السخرية والمرارة
من سلوك الأبناء تجاه الآباء الذي يكشف عن خلل اجتماعي خطير إذ كيف يكون
العقوق في مقابل الرعاية والحنان؟ وكيف ينتظر الأب المسرة لأحياناً، وكان
حرياً به أن يلقاها منهم دائماً!! لكنه على كل حال إذا توقع منهم ذلك يسروه أحياناً
ولم يسوعوه أبداً.

ويبدو تصور المعنى القائم في المفارقة واضحاً بجملة: رعاية من الأب
وعقوق من الأبناء، ويظهر كذلك التعارض بين موقف الضحية (الأبناء)
المتصور وهو (رد الجميل) وبين سلوكهم الفعلي الخاطئ الذي يثير الانتقاد
(العقوق). وكذلك تظهر في هذه المفارقة المقابلة الواضحة بين فعلين متناقضين،
فعل الأب، وفعل الأبناء، وهذا كله من صميم جوهر مفارقة التصور.

ومنها أيضاً ما ورد تحت العنوان: "ملق" ويقول فيها:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما بال قوم من العلماء يتحسون من رأي

^١ د. طه حسين: جنة الشوك ص ١٢١، ١٢٢.

الحكام في العلم، وليتخذوه لأنفسهم رأياً.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يريدون ألا يستأثر الناس من دونهم بـرضا

الحكام.^١

المفارقة هنا معقودة على أن العلماء يتلمسون رأي الحكام في العلم، أي أن أهل الاختصاص يأخذون ممن ليسوا مختصين رأياً وعلماء، وذلك بسبب النفع الزائل! وكان حرياً بالحكام أن يتلمسوا رأي العلماء، وليس العكس. ويظهر في هذه المفارقة الاستفهام التعجبي، وهو أحد الوسائل في مفارقة التصور.

ومنها ما لطلق عليه طه حسين "وقار" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أترى إلى وقار فلان حين يسعى ؟ إن الناس ليعجبون بما يصطنع من الآثاء والمهل.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو استطاع أن يسعى وهو واقف ، وأن يتحرك وهو ساكن لفعل.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ليتّه يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من

الوقار!^٢

تبدو المفارقة في قوله : "ليتّه يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من الوقار" استخدام نقطة ليتّه دلّت على ما لم يعلنه ظاهر اللفظ من أن هذا الوقار ظاهري مصطنع، وأنه لا يمس جوهر شخصيته "الضحية" فالمفارقة في كون فلان هذا مهتماً باصطناع شيء غيبه ما هو أهم، أعني اتزان النفس والأخلاق والسلوك، وهذا ما يعرى منه.

ويظهر التعارض واضحاً بين فعل الضحية "فلان" وسلوكها الظاهر، وبين موقفها النفسي المختلف تماماً عما تعلنه. ولعلك لاحظت أن طه حسين لم يجعل حكمة الشيوخ مصدر المفارقة دائماً، بل جعل للشباب حظاً منها.

^١ السابق ص ٩٤.

^٢ د. طه حسين : جنة الشوك ص ٢٩.

ومنها أيضاً ما عنوانه : "إخاء" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إن الشاعر يختارنا بين الوحدة واحتمال

الإخوان على علائهم حين يقول :

فعض واحداً أوصل لخالك فإنه

مقارفاً ذنب مرةً ومجانبه

فأي الأمرين تحب لي أن أختار؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إن الشاعر لم يخبرك، وإنما ألزمك الخصلة

الثانية، فانت لا تستطيع أن تتسل من الحياة الاجتماعية، كما لم يستطع أبو العلاء

أن ينسل منها. فاحتمل الحياة الاجتماعية كلها، واصبر لما فيها من المحن.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وترى إخاء الإخوان محنة؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أي محنة !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إذا وفي لك الإخوان امتحنت في وفائهم،

وفرضت عليك المروءة ألا تقتل ولا تبطل، ولا تستغل الوفاء فتشق عليهم بما لا

يطيقون. وإن تنكر لك الإخوان امتحنت في تكرهم، وفرضت عليك المروءة ألا

تقسو ولا تنظلم، ولا تتجنى ولا تنتظر منهم فوق ما يطيقون. وأنت ممّتحن بعد

ذلك في نفسك، تفرض عليك المروءة أن تقي لهم إذا وقوا، وتصفو لهم إذا

صفوا، وتعرفهم حين ينكرووك وتتصحهم حين يخشونك، وتبزرهم حين يغدرونك،

وتعطهم أكثر مما يعطونك، وتسير من إخوانهم على مثل الشوك. صدقني! إن

إخاء الإخوان محنة لا يثبت لها إلا ألو العزم.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإني أؤثر الوحدة.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! تلك أمنية تبتغى ولا

ظاهر أن طه حسين هنا اعتمد على الشعر العربي القديم في نسج مفارقاته،

والمفارقة تظهر في تصور موقفين متعارضين يرتكزان على التجني والتسامح. وتبدو المفارقة في: لنْ على الرجل أن يصل إخوانه وقد أنكروه، وإنْ عليه أن ينصحهم وقد غشوه، وكذلك أن يبرهم وقد غدروه، وجُماع المفارقة تتركز في لنْ من يسيرُ في درب الإخاء كمن يسيرُ على الشوك. والأصل فيه عكس ذلك.

المفارقة في أن الإخاء محنة ، وهذا ما يفجأ ذهن القارئ ، لأن الأصل في الأشياء يختلف عن هذا ولعلني أشير إلى أن صانع المفارقة قد قصد إلى تقديم المفارقة بشكل واضح سهل على القارئ فهمه والنقاطه، ولم يترك له فرصة كبيرة لإعمال عقله ليدرك من المعنى باطلاً يعمد صانع المفارقة إلى إخفائه . وفي النهاية يترك القارئ ممروراً متعجباً وساخراً.

وهذه المفارقة تمثل الإخبار عن التصور إخباراً صريحاً ، وكذلك تمثل المقابلة المباشرة بين فعلين متناقضين ، فعل الإخوان وقولهم ، وفعل الرجل الصديق وقوله.

ومنها أيضاً : "جمود" :

وتتميز هذه المفارقة بأن اعتمد فيها د. طه حسين على شعر لشاعر لاتيني، واستشهد فيها، ليدعم فكره ورأيه، بنص قرآني.

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ: إني أقرأ في شعر كاتول اللاتيني: "لا تعمل خيراً ولا تنتظر شكراً، فقد عم الجحود وأصبح الإحسان هباءً! ماذا أقول؟ بل أصبح ثقلاً ومصدراً للضغينة. لقد بلوت هذه التجربة المرة حين رأيت أشد الناس حقداً على وبفضاً لي مَنْ كان يراني منذ حين مصدر نعمته وحاميه الوحيد."

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لم تتغير أخلاق الناس منذ قال شاعرك اللاتيني هذا الشعر، ولكنه صاحباً عاجلة لم ينتظر من الأجلة شيئاً. أما نحن فقد لدينا الله أدباً آخر، وأقرأ إن شئت قوله عز وجل: "مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا"

يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"^١

يتضح من هذه المفارقة الهدف الأخلاقي التهذيبي المبني على فهم للعقيدة الإسلامية التي تعاقب من يعمل شراً ، وتنثب من يعمل خيراً.

المفارقة معقودة على أن من كان يدين له بالنعم يصبح حاقداً له مبعضاً، والمتوقع أن يكون حامداً له شاكراً.

وتتضح "مفارقة التصور" في تصورين لمعنيين مجردين، أولهما: ما عليه أخلاق الناس من شر وإساءة ونكران للجميل، والتصور الآخر لواحد من أصول الشريعة الإسلامية المبني على مكافأة الإحسان بالإحسان، وجزاء الإساءة بمثلها. وبالطبع تبني المفارقة على إظهار التعارض بين موقف للضحية – من لحسن إليه وجحد – وسلوكها الخاطي مثار الانتقاد، وما كان ينبغي أن تكون عليه.

ومنها أيضاً مفارقة تحت عنوان: "انتصار" وقد بنيت على بيت من الشعر:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما الذي يعجب الناس من قول المتنبى:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرض طلب الطعن وحده والنزلا

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يعجبهم منه يا بني أنه يعرض صورة رائعة في دقتها وصدقها وإيجازها لحقيقة إنسانية خالدة ، وهي أن شجاعة كثير من الشجعان، وانتصار كثير من المنتصرين ، وتغوق كثير من المتغوقين ليست إلا تكثراً وغروراً . فإذا جاء الخوف قل الشجاع وتدر الانتصار، وأصبح التغوق لمنية لا تقال إلا في عسر شديد . وليتك تقرأ قصة "دون كيشوت" للكاتب الإسباني "سرفنتس" أو قصة "ترتاران دي ترسكون" للكاتب الفرنسي "الفونس دوييه" لتعلم أن هذين الكاتبين العظميين لم يزيذا على أن شرحا قول المتنبى.^٢

للمفارقة معقودة على بيت "المتنبى"، وهذا نمط من أنماط المفارقة عند

د. طه حسين، حيث يعقدها على بيت من الشعر.

^١ حجة الشوك ص ٦٥.

^٢ حجة الشوك ص ٦٥.

المفارقة في أن يطلب الجبان القتال حيث يتوقع منه أن يتوارى ويبتعد عنه، وليكتمل للمفارقة جمالها يكمل الشاعر قوله بأن هذا الجبان يريد القتال، ولكن حينما يكون الميدان خاليًا، أي هو قتال زائف يخدع نفسه به، لأنه لا يحارب عدوًا، بل يحارب الهواء، ولعل أمثاله كثيرون في كل ميادين الحياة، وقد ظهر التصور للمعنى المجرد وازداد جلاء بشرح طه حسين له. ولعل هنا أتوه بالتقاء الفكر الإنساني على حقيقة واحدة، فهذا سرفنتس، والفونس دوديه لم يكن كلامهما إلا شرحًا لبني المتبني، أو كالشرح له.

وقد اهتم طه حسين أيضًا بإحداث "مفارقات التصور" في الموضوعات السياسية.

ومن هنا ما جاء تحت عنوان: "طموح" وقد ختمها بنص من القرآن الكريم. قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ: ما بال فلان يؤلب على الحكومة وهولها صديق.

قال الأستاذ للشيخ لتلميذه الفتي: من مكان الصديق وطمع في مكان الزميل. قال الطالب الفتي: وتراه يبلغ ما يريد؟ قال الأستاذ للشيخ لتلميذه الفتي: ولم لا؟ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.^١ للمفارقة في أنه يؤلب عليها وهو لها صديق، وحرى به أن يساندها ويؤيدها ولكن حين تضاربت المصالح اختلفت الموازين وانعدمت القيم لأنها غير أصيلة. وهو ينتهي شيئًا ليس من حقه، فمثله مثل سارق، والسخرية في المفارقة تصل إلى ذروتها بقوله: "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" أي أن هذه القصة قديمة مكررة فعلها قبله من هم على شاكلته، ومن الملاحظ أنه قد وظف النص القرآني لإبراز المفارقة على نحو غير مباشر.

ومنها: "توحيد"

^١ السابق ص ١٢٥.
^٢ سورة يوسف الآية ص ٧٧.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ليس مما يملأ القلوب غبطة، والنفوس
رضا أن نرى مصر تعمل على توحيد كلمة العرب؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: بلى، وأدعى من ذلك إلى الغبطة والرضا أن
توحد مصر كلمة أبنائها.^١

المفارقة فيمن يعمدون إلى توحيد غيرهم وهم عاجزون عن توحيد أنفسهم،
وهو أولى بهم.

يشيع جو من التهكم الواضح من هذا الموقف يدفع القارئ إلى ابتسامة خفيفة
تترك التهكم الذي يلوح من المفارقة وفي هذا النمط من أنماط المفارقة يظهر
رأي صانع المفارقة الحقيقي بعد ذكره للرأي الأول الظاهري، فهو لا يترك
للقارئ فرصة استنباط ما يمكن أن تحمله المفارقة من معنى كامن، بل يزيل له
القناع ويتركه ليسخر ويتهم. وتظهر المقابلة بين سلوكي الضحية "مصر" بشكل
غير مباشر. فالسلوك الأول يظهر في رغبتها في توحيد شمل العرب، والسلوك
الأخر غير المباشر هو المستتج وهو عجزها عن توحيد ذاتها وأبنائها.
ومنها ما وضع له عنوان "رعية":

وقد استثمر فيها حكاية من التراث، وعززها بآية قرآنية:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: قرأت في بعض الكتب أن المنصور قال
لبعض قواده: صدق الذي قال "أجمع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك". فقال له أبو
العباس الطوسي: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن أجعته أن يلوح له غيرك
برغيف فيتبعه ويدعك؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: عفا الله عن المنصور وجليسه! فقد شبها
الناس بالكلاب، والله عز وجل يقول*: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر
والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً".^١

^١ جنة الشوك ص ٩٣.

تتمثل المفارقة في تشبيه المنصور الرعية بالكلاب ، وقد كرمهم الله وفضلهم على سائر مخلوقاته. هما تصوران متضادان، تصور المنصور والذي يتضاد مع التصور

الثاني وهو حقيقة الإنسان كما كرمه الله. وتظهر مفارقة التصور بوضوح من خلال المقابلة بين هذين السلوكين أو التصورين.

وقد أورد طه حسين العديد من مفارقات التصور في الموضوعات الموصولة بالقيم الاجتماعية، ومنها ما ورد تحت عنوان: "عقوق" وفيها يستخدم د. طه حسين معرفته وثقافته التاريخية ليستقي منها مفارقاته.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألا تحدثني عن سمنار هذا الذي كثر الحديث عنه في هذه الأيام: من هو؟ وما شأنه؟ وفيم يكثر الناس عنه الحديث؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: "زعموا يا بني أنه رجل رومي، بنى للنعمان بن المنذر قصرًا أو قصرين لا لدري، فلما أتم عمله على أحسن وجه وأكمله، رضي للنعمان عنه، ولكنه أشفق أن يبني لغيره من الملوك مثل ما بنى له، فأمر به فألقي من أعلى القصر فاندقت عنقه فمات. والناس يضربونه مثلاً لمن يقدم إلى الناس خيراً وإحساناً فيجزونه بالشر والمساءة. ولكن في الدنيا أفراداً كثيرين يمكن أن يسمى كل واحد منهم سمنار، ولكنه يلقي من حائق فلا تتدق عنقه، تستطيع أن تسميه سمنار الخالد، لأنه لا يبني لأصحاب السطوة والبأس، وإنما يبني للشعوب، ولأنه لا يبني للشعوب دوراً ولا قصوراً ولا شيناً من هذه الآثار التي يبلغها البلى ويدركها الفناء، وإنما يبني لها فناً وأدباً وفلسفة وعلمًا وإصلاحًا. ألا تذكر مصارع النابغين من الأدياء والعلماء والفلاسفة ألا ترى أنك لا تزال تستمتع بآثارهم؟"

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وسيستمتع الناس بعدنا بآثارهم حتى يرث

الله الأرض ومن عليها.^١

في هذا النص ألمح مفارقة كبرى ومفارقات صغرى متعددة فالمفارقة الكبرى معقودة بين ستمارين إن جاز التعبير، كلاهما بنى مجداً، ولكنهما لم ينالا مصيراً واحداً، لاختلاف نوع المجد، وفي النهاية تتحسم المفارقة لتعزز مجد ستمار الثاني الذي بنى للشعوب فناً وعلماً وأدباً، فلم يقرر عليه أحد لأن عطائه لا يمكن حجبته عن الناس.

وفي ثانياً للمفارقة الكبرى مفارقات عديدة جزئية، مثل أن يلقى من حالق ولا تتدق عنقه، وأن يُساق إليه الشر فلا يؤذيه، ويكاد له الكيد فلا يبلغ منه شيئاً، والمتوقع أن يؤذى ويكاد له ثم مفارقة معقودة في قوله: ستمار الخالد وأنى يخلد إنسان؟ بل تخذ آثاره إن استحققت الخلود، وهنا يريد صاحب المفارقة أن يُعلي من شأن الفنون والآداب والعلوم.

ومنها ما ورد بعنوان "تصوير": يقدم فيها طه حسين ثقافة وتراثاً لاثنيناً ممثلاً فيما جاء به الشاعر جوفينال:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لا أعرف شيئاً أبرع، ولا أبلغ، ولا أدق في تصوير بؤس البائسين، وثراء المثرين، والتفاوت المخزي بين الطبقات من هجاء "جوفينال".

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ألا أدلك على شيء هو أبرع، وأبلغ، وأدق تصويراً لذلك من هجاء "جوفينال"؟ انظر إلى حياة المصريين.^٢

المفارقة في أن واقع حياة المصريين أشد قسوة وبؤساً من خيال الشاعر الذي يعتمد إلى الإغراق في المبالغة لتصوير ما هو فوق الحقيقة والخيال من نتهى الفقر ونتهى الغنى في آن واحد. وهو ما يدعو إلى السخرية المرة.

^١ جنة الشوك ص ٤٠، ٣٩.

^٢ جنة الشوك ص ٥٦.

ثانياً : المفارقة اللفظية :

في الأخلاق والسلوك

ومنها ما ورد تحت عنوان "تجن" اعتمد فيها طه حسين على التراث بذكره مقولة للإمام الشافعي، ومقولة في العقيدة الإسلامية تقول "الضرورات تبيح المحظورات" وإن كان قد وظفها بشكل مختلف قال: "تلقاهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئاً، فتعهدهم حتى أحسنوا أشياء كثيرة، وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون في الحياة الجامعية من درجات والقباب." ثم تعهدهم حتى اطمأنوا في الحياة إلى ما يحبون.

وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين، وكانوا من هذا كله متزيحين، حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد. ثم أزور عنه السلطان فازوروا عنه، وقالوا: جفوتنا حين كان يحسن أن تصلنا.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ما أعرف أنهم لقوا منك جفاءً أو إعراضاً.
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: "ليس المهم أن تعرف أو لا تعرف، وإنما المهم أن تعلم أن كلمات التجني والتعلل والتكلف لم توضع في اللغة عبثاً، وإنما وُضعت لتدل على معانٍ والمعاني لا تقوم بأنفسها ، وإنما تقوم بأنفس الناس"

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ليس قد علمنا المعلمون في الكتاتيب أن الإمام الشافعي كان يقول: من علمني حرفاً صرت له عبداً^١

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: "بلى ولكن الحياة قد علمتنا أن الضرورات تبيح المحظورات. ومن المحظورات أن تجفو من جفاء السلطان ، فقد تصدك صلته عن بعض ما تحب، وتصرف عنك بعض ما تتمنى"^٢

المفارقة تتعد في جوابه عن السؤال في الفقرة الأخيرة من النص: "بلى ولكن الحياة قد علمتنا أن الضرورات"

^١ جنة الشوك ص ٤٢، ٤٣.

فمقولة صانع المفارقة هذه لا يقصد بها ما يدل عليه ظاهر لفظها، بل العكس. وهذا من صميم المفارقة اللفظية.

وصانع المفارقة يقدم معنى لا يختلف حوله لأنه قاعدة قهوية، أعني قوله "الضرورات تبيح المحظورات" ولكن أية ضرورات؟ وأية محظورات؟ هل جفاء من جفاء السلطان يُعد في المحظورات التي تبيحها الضرورات؟ ونشك وطأة المفارقة بإدعاء "الضحية" ما ليس صحيحًا في الحقيقة حين تقول: "وقالوا جنوتنا حين كان يحسن أن تصلنا"، وكذلك بما أورده التلميذ من قول الإمام الشافعي، ليعشق الهوة بين ما هم عليه، وما كان ينبغي أن يكونوا عليه.

ومنها المفارقة التي وردت تحت عنوان مثل :

ويقدم فيها طه حسين مثلًا عربيًا في بيت شعر فيقول :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فسر لي هذا المثل العربي القديم :

البس لكل حالة ثوبها إما نعيمها وإما بوسها

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تريد تفسير الجدل أم تفسير الهزل ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أريد تفسير الجدل.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فكن حرًا كريمًا إن أذنت لك نظم الحكم أن

تكون حرًا كريمًا، وكن عبدًا ذليلاً إن اقتضتكم نظم الحياة أن تكون ذليلاً، واتخذ

لنفسك ثوبين: ثوب النعيم تلبسه حين يؤذن في الناس بالحرية، وثوب اليأس

تلبسه حين يؤذن في الناس بالرق. وأي الثوبين ليست، فكن عنه راضيًا وبه

محبورًا.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: فإن أردت تفسير الهزل؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: فكن رجلًا حرًا كريمًا لا تبطره النعمة، ولا

تغض منه النعمة. وإليك لتعلم أن الذين يحسنون الهزل قليلون.^١
قامت هذه المفارقة على ذكر ما لا يقصده صانعها من ظاهر لفظه وهذا من لب
المفارقة اللفظية، وقد بدل في موقعي الكلام، فما جاء به على أنه الجد هو الهزل
بعينهم كما براه ويقر في ضميمته، وقد تركه لفطنة القارئ واستباطه له من
خلال السياق ومعرفته بمنطق الأشياء والحياة - وما جاء به على أنه الهزل هو
الجد بلا شك.

والتهكم والسخرية يظهران بوضوح للقارئ، وتظهر المفارقة هذا الوضع
المتردى لملوك كثير من الناس إما رغبة وإما رهبة وإما تملقا.
ومنها ما جاء تحت عنوان "رقى":

"ويقدم فيها طه حسين قولاً ماثوراً" يجعله مدار الحديث

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم تكن نلتن في نضرة الصبا أن من طلب
للعلا سهر الليالي؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ذلك حين تكون العلا غالية بعيدة المنال،
فأما حين ترخص فإنها تنال بأيسر من سهر الليالي.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وما ذاك؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إسداء الثناء إلى غير الأكفاء، وإهداء الهجاء
إلى ذوي الغناء، وقذف المحصنات في الخوض في الأعراض بغير الحق، وجفوة
الصدق، وخيانة الخليل.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وترى ذلك ثمنا يسيرا؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أيسر من الرمل على ساحل البحر، ومن
الماء على شاطئ النيل.^٢

في هذه المفارقة يظهر بوضوح أن صانع المفارقة يسوق معنى ما في حين

^١ جلة الشوك ص ٩٥، ٩٦.

^٢ جلة الشوك ص ٥٨، ٥٩.

يقصد منه معنى آخر، يخالف المعنى الظاهري السطحي، فهو يهزأ أو يسخر من هؤلاء الذين يعتبرون المعالي تنال بأيسر سبيل إذا اتخذوا لها أحقر الوسائل بإسداء الشكر إلى من لا يستحقه. وبهزاء من لا يجب هجاؤهم لأنهم من الأخيار، ويقذف المحصنات زوراً، ويجفوة الصديق، وبخيانة الذليل، ثم يأتي في النهاية يتألف الأتافي إذ يذكر سهولة هذا الأمر بالنسبة لهم، فهو أيسر من الرمل على ساحل البحر، وأيسر من الماء على شاطئ النيل، وفي هذا "إلماع" إلى مدى تقبلي الفساد وخراب الذمم، وانعدام القيم والأخلاق حين يكون هذا سهلاً وكثيراً إلى هذا الحد.

ومنها : "نزاهة":

"وقد جعل مدار الحديث فيها صورة شعرية للشاعر اللاتيني جوفينيال"
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما أجمل هذه الصورة التي أراها عند الشاعر اللاتيني "جوفينيال" حيث يقول:

"ما أكثر ما تمدح النزاهة، ولكنها على ذلك ترتعد من البرد"

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: وقد مدحت النزاهة أثناء القرون منذ شاعرك اللاتيني، ولم تمدح قط في عصر من العصور كما تمدح في هذه الأيام، ولكنها مع ذلك مقرورة ترتعد من البرد.^١

حمل طه حسين كلامه الاستعارة في قوله "مقرورة ترتعد فدفع بالمعنى من اتجاه إلى اتجاه آخر معاكس تماماً.

المفارقة في كون النزاهة مدوحة، لكنها لا تجد لها حامياً يمنحها الدفاء. وجمال المفارقة جاء من التصوير البياني باستخدام الاستعارة المكنية.

وقد أتى طه حسين بالمفارقة اللفظية في الموضوعات التي تتصل بالسياسة،

ومنها ما وضع له العنوان: "رقق"

^١ جنة للشوك ص ٦٩.

وكان يشير فيها إلى شيء من معرفته بأبي العلاء المعري، وما تعلمه من اتجاهه ورفقه بالحيوان، وله في هذا فلسفة.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم أعلم أن الحكومة قد أصبحت أراف بالحيوان من أبي العلاء؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ماذا تقول؟ أترأها حرمت نبحه وأكله وحفظت اللبن على البقر والشاء، والبيض على الدجاج، والعسل على النحل؟! قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لا! ولكنها أذنت فأقيمت ليلة موسيقية ساهرة لمعونة الذين يرفقون بالحيوان.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو خير الحيوان لاختار الحياة والعافية على الموسيقى والرقص.^١

المفارقة تبدو في اختيار الحكومة حفلاً موسيقياً من أجل الرفق بالحيوان، وقد كان الأولى بها أن تحفظ عليه الحياة. أقيمت حفلة لمن يرفقون بالحيوان لا بمن يستحق الرفق، "أي الحيوان" لأنه لا يعود على الحيوان من هذا الاحتفال نفع ينكر، فالحكومة تهدر أموال الشعب فيما لا طائل من ورائه.

ويلاحظ بالطبع في هذه المفارقة أن صانعها يؤكد في ظاهر نصه ما يختلف تماماً عما يحمله في عقله من معنى، وفي العبارة الأخيرة يكشف طه حسين القناع عن المفارقة، فيظهر رفضه لظاهر الكلام، ولعل في كلامه ما يلفت إلى أن الرفق بالإنسان أوجب.

ومن هذه المفارقات أيضاً ما ورد تحت عنوان: "تهضة": يقول فيها: قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما تقول في شعب يجري أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة، وعلى ضعف الشيوخ وحمقهم من جهة أخرى؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أقول إنه شعب ناهض يسعى إلى المجد
بخطو سريع!^١

تظهر المفارقة على نحو غير مباشر، يفهمها القارئ مستعينًا بالسياق وبفهمه
لروح الحياة ومنطقها. يقصد د. طه حسين: إنه شعب متخلف يسعى إلى الهلاك
بأقصى سرعة. وقد أكد صانع المفارقة في ظاهر نصه عكس ما يرمى إليه من
قصد ومضمون.

ومما جاء به من مفارقات تمس القيم الاجتماعية :

ما ورد تحت عنوان : "أقول" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى ذلك النجم لم يكد يشرق حتى
أفل.

قال الأستاذ للشيخ لتلميذه الفتى : كان يستمد النور من غيره ، فلما للتوى
عنه مصدر النور عاد إلى إظلامه القديم.^٢

المفارقة في سرعة أفول ذلك النجم، وهي مبنية على عنصر بلاغي يتمثل
في الاستعارة التصريحية، فتقصد صاحب المفارقة ليس ظاهرًا على المستوى
السطحي للكلام، ولعله يقصد شخصًا ما كان موجودًا في المجتمع آنذاك، وكان
متسلقًا ومحتفيًا بأخر المعنى يستمد منه ما يشيعه عن نفسه من بطولات، فلما
ابتعد عنه ظهرت حقيقته البانسة، وعاد سيرته الأولى.

ثالثًا : مفارقة الإلماع :

وقد ظهرت في حديثه عن السلوك والأخلاق فيما جعل عنوانه : "نزاهة" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد ضرب فلان أبرع المثل في الذود عن
نزاهة الحكم والتعفف عن فتاته ومنافعه العاجلة ، والحرص على الاستقامة في
القول والعمل ، وعلى نقاء اليد والقلب والضمير.

^١ السابق ص ٨١.

^٢ السابق ص ١٢٨.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وعلى ثغره ابتسامة مرة حائرة لا تريد أن تستقر: نعم ، بعد أن ملأ يديه بالمغانم والأسلاب.^١
هذه العبارة الأخيرة هي الومضة الخاطفة التي تمثلت فيها المفارقة. وصوت الأستاذ يظهرها ساخرًا وقد أزال الغشاوة التي حجبت الحقيقة. مدعي الفضيلة والنزاهة يصطفعهما بعد أن ملأ يديه من الأسلاب!! إذن فصوت الأستاذ بهذه العبارة ينفي جميع الصفات والأفعال التي ذكرت من قبل ، ويظهر الشخصية وسلوكها الحقيقي.

وعن القيم الاجتماعية يتحدث طه حسين بما جاء به تحت عنوان "حرية":
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم تر إلى فلان ولد حرًا وشب حرًا وشاخ حرًا، فلما دنا من الهرم لثر للرق فيما بقي من الأيام على الحرية التي صاحبها في أكثر العمر؟!^٢

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أضعفته السن فلم يستطع أن يحتمل الشيخوخة والحرية معًا، وأنت تعلم أن الحرية تحمل الأحرار أعباء ثقلاً.^٣
المفارقة تبدو بوضوح في "لم يستطع أن يحتمل الشيخوخة والحرية معًا"، بعد أن نصبح وكان المتوقع منه أن يظل متمسكًا بإيمانه بالحرية وتبعاتها إلى النهاية، تبدل في شيخوخته. وهنا الإلماع الساخر إلى المفارقة إذ لا تعارض في الحقيقة بين الحرية والشيخوخة، فالشيوخ قانرون على تحمل الحرية مثلما يحتملها الشباب، لكن صانع المفارقة أراد أن يسوق تعليلاً ساخرًا للتدخل حال الرجل، فعلى ذلك بعدم قدرته على احتمال الشيخوخة والحرية معًا.
وفيما يتصل بالحديث عن الشؤون السياسية كتب يقول تحت مسمى "معارضة":

^١ جنة الشوك ص ١١٤.

^٢ السابق ص ٢٣.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم تر إلى فلان يطالب بالجلاء السريع -
متى وضعت الحرب أوزارها- إلى أوروبا.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إلى أن يلي الحكم أو يشارك فيه.^١
فلان هذا غير مخلص في طلبه للجلاء، أظهر هذا قول صانع المفارقة: "إلى
أن يلي الحكم أو يشارك فيه" حينئذٍ ستتغير اتجاهاته، وأراؤه. فهو ليس منتمياً إلا
إلى مصلحته الشخصية، وهو مستعد لتغيير مواقفه إذا لاح له أي نفع.

رابعاً: المفارقة اللبنانية:

وقد تناول د. طه حسين القيم السلوكية والأخلاقية والأوضاع الاجتماعية
فيما كتبه من مفارقة حملت عنوان "ضمانر":

وقد اعتمد فيها على أحد النصوص القرآنية التي أسهمت إسهاماً فعالاً في
تجسيد المفارقة وإظهار مغزاها.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألا تحدثني عن هذه الضمانر التي تفعل ما
تشاء، ثم تستتر وراء أفعالها، وجوباً مرة، وجوازاً مرة أخرى، فهي دائية دائية،
وبادية خافية، وهي ملحوظة غير ملفوظة، ومعقولة غير مقولة، وهي على ذلك
تكلف الأساتذة والتلاميذ همّاً ثقيلاً، وعناء طويلاً.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ما أنت وهذه الضمانر البرينة النقية إنما هي
بنات الوهم، قد فرضها العلماء رياضة لعقول الطلاب، على التحليل والإعراب،
وهي لا تؤذي أحداً من قريب أو بعيد، فإذا علمت علمها، وذلك يسير، فدعها
وشأنها، وتحدث عن ضمانر أخرى أشد في حياة الناس خطراً، وأبعد في
أعمالهم أثراً، تستخفي في أعماق النفوس عابسة تشيع الابتسام المريب، ومظلمة
تنشر الضوء المخيف.

^١ جنة الشوك ص ٢٨.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لقد عدت إلى ما دليت عليه من الإلغاز،
فوضح لي بعض ما تقول!

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ما تقول في ضمائر الأطباء حين يعونون
المرضى، وفي ضمائر المرعوسين حين يتلقون أمر الرؤساء، وفي ضمائر
الطلاب حين يسمعون دروس الأساتذة، وفي ضمائر بعض الأصدقاء حين
يبتسمون للأصدقاء؟

وكنت حاضر هذا الحديث، فتلوت قول الله عز وجل: "وتحسبهم أيقاظاً وهم
رقاد، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلهم يأبسون بالوصيد، لو
أطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً"^١

يظهر في النص طالب يتحدث عما يستشعره من مشكلة في الضمائر
النحوية فيلغته صانع المفارقة إلى مشكلة أبشع لضمائر أخرى.

ضمائر بعض الأطباء، والمرعوسين، والطلاب، وبعض الأصدقاء التي
تطوي على تناقض بشع تظهر به خلاف ما تبطن، وقد جسد ذلك طه حسين
بقوله "مظلمة تنشر الضوء المخيف" وهي تفرع من يطلع عليها كما يفرع من
يطلع على أهل الكهف.

ما أراده طه حسين بالآية أنه ربط بين الاطلاع على أهل الكهف الذي
يصيب الإنسان بالرعب، والاطلاع على هذه الضمائر الخربة الذي يصيبه
بالرعب أيضاً، لكنه اكتفى بالإشارة بالآية دون أن يفصح عما يريد تاركاً هذا
لفطنة القارئ.

ومن المفارقات التي استثمر فيها التاريخ الإسلامي ما أورده تحت عنوان
"معارضة":

* سورة الكهف آية ١٨.
١ جنة الشوك ص ٢٥، ٢٦.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إني أقرأ في عيون الأخبار لابن قتيبة أن عمرو بن عبيد مر بجماعة عكوف، فقال: ما هذا؟ قالوا: سارق يقطع! فقال: لا إله إلا الله، سارق السر يقطعه سارق العلانية فهل تتبنتي إلام أريد؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: كان عمرو بن عبيد زعيماً من زعماء المعتزلة، وكان زاهداً في الدنيا مخلصاً للدين، وكان شجاعاً لا يخشى في الحق لومة لائم، وما أراد بقوله هذا إلا أن يصف عامل البصرة، بأنه كان سارقاً لأموال المسلمين، يسرقها جهرة لأنه لا يخاف أحدًا، متافقاً في إمضاء حكم الله، يعاقب على إثم يسير يستخفي به صاحبه، وهو يقارف أعظم الآثام وأضخمها. فإن اجتمع لك زهد عمرو بن عبيد في الدنيا وحرصه على الدين وشجاعته على مواجهة الحكام بما لا يحبون فانهض بتبعات السياسة، وإن لم تجتمع لك هذه الخصال فالتمس لنشاطك سبيلاً أخرى.^١

تظهر المفارقة في أن هناك سارقين أحدهما متخف، والآخر متبجح يسرق جهرة، وتصل المفارقة إلى ذروتها حين نرى أن سارق العلن هذا، هو الذي يقيم حد السرقة على سارق السر، وكان الأولى أن يقام الحد عليه، لكنه محتم بالسلطة!

وقد أورد طه حسين "معارضة" أخرى استخدم فيها شيئاً من ثقافته العربية منقولاً أيضاً من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.

قال للطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إني أقرأ في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة أن طارقاً صاحب شرطة خالد القسري مر بابن شبرمة، وطارق في موكبه، فقال ابن شبرمة:

أراها وإن كانت تُحبُّ كأنها سحابة صيف عن قريب تتشعق

اللهم لي ديني ولهم دنياهم. فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال

^١ جنة الشوك ص ٣٦.

له ابنه: أتذكر يوم مريك طارق في موكبه وقلت ما قلت؟ فقال: يا بني، إنهم يجدون مثل أليك، ولا يجد مثلهم أبوك. إن أباك أكل من حلوائهم وحط في أهوائهم. فهل تتبنتني بمغزى هذا الحديث؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: مغزاه يسير كل اليسر، فقد كان ابن شبرمة كغيره من أخيار الناس الذين لا تطيب أنفسهم عن متاع الدنيا، فعارض السلطان لأنه كان طامعاً في بعض ما عنده. فلما ولى القضاء رضي على السلطان وسخط على نفسه: رضي على السلطان لأنه ولاء، وسخط على نفسه لأنه لم يستطع أن يصبر على الحرمان.

ورحم الله ابن شبرمة! فقد كان له من الشجاعة حظ حسن حين اعترف لابنه بأنه أكل من حلوائهم وحط في أهوائهم، لأنه إن لم يستجب لهم حين دعوه وجدوا غيره ممن يلي القضاء مكانه، لما هو فلان يجد غير السلطان قوة توليه القضاء. فوازن يا بني بين شجاعة عمرو بن عبيد الذي ألبس نفسه من السلطان فانتهى بمعارضته إلى غايتها وشجاعة ابن شبرمة الذي أطمع نفسه فيما عند السلطان، فانتهى بشجاعته إلى أن تمثل بيتاً من الشعر.^١

المفارقة بين رضا ابن شبرمة عن نفسه حينما سخط السلطان، وسخطه عليها حين رضي عن السلطان، لأن مخالفة السلطان كانت مبنية على اقتناع بموقفه المبني على الاعتصام بالدين والزهد في الدنيا، وهذا ما يوضحه بيت الشعر الذي تمثل به، ثم ظهرت المفارقة في تخليه عن هذا الموقف إلى تقيض ما كان يتمسك به حين أتبع له شئ من متاع الدنيا الذي كانت نفسه تصبر إليه في الحقيقة.

^١ جنة الشوك ص ٣٨، ٣٧.

وثمة مفارقة أخرى تتمثل في التضاد الحاد بين شخصيتي ابن شبرمة، ومدى شجاعته، وشخصية عمرو بن عبيد وشجاعته، قد أنتجت كل منهما موقفين متضادين تابعين من إطارين اجتماعيين ونفسيين مختلفين.

خامسا : مفارقة الإيهام :

لم أجد ، من هذا النوع من أنواع المفارقة، في جنة الشوك إلا هذه التي وضع لها طه حسين عنوانا هو: "مجون"، واعتمد فيها على شطر بيت من الشعر، يقول فيها :

ما زالت لمرأته تظهر له الغيرة حتى أغرته بالإثم فتورط فيه، وما زال هو يلوم ابنه على العبث حتى دفعه إليه، وما زال ابنه ينهى صاحبه عن عشرة خليله السوء حتى اتخذها له زوجا. أليس من الخير أن يتدبر الناس مجون أبي نواس حين قال:

"دع عنك لومي فإن اللوم إغراء"

فرب مجون أدنى إلى الموعظة من الحكمة البالغة^١.

في هذا النص يظهر صانع المفارقة إيهام "الضحية" لنفسها بأن اللوم يمنع ارتكاب المنكر من الأفعال، ثم الاختلاف الحادث بين هذا الإيهام، وبين واقع الأمر وحقيقته.

والمفارقة في أن المرأة توهم نفسها أن غيرتها الزائدة على زوجها تمنعه عن غيرها، فإذا بها تدفعه إليها، وظن الأب أن مبالغته في لوم ابنه وهذا صحيح من وجهة نظره - تحميه من العبث، فإذا هو يقع فيه، ومثله نهى الابن صديقه عن خليله السوء فإذا به يتخذها زوجا. ثم تبلغ المفارقة ذروتها بأن الحكمة تؤخذ عن أصحاب المجون كأبي نواس الذي لخص هذه التجربة الإنسانية بقوله: "إن اللوم إغراء"، فرب حكمة تأخذ من لغواء ماجنين .

^١ جنة الشوك ص ٥٢.

سادسًا : المفارقة الدرامية :

ولم أجد مثالا في مفارقات طه حسين غير واحدة يتحدث فيها عن السلوك الاجتماعي ، وقد أوردتها تحت عنوان "حُلة" :

هم أمير الموصل أن يهدي إلى لحد ندمائه خلعة نفيسة، ثم غضب عليه لبعض الأمر قبل أن تبلغه الهدية. وكان النديم طويلا في السماء عريضا في الفضاء. وقد أراد الأمير أن يفيضة ن فأهدى خلعته إلى نديم آخر كان قصيرا لا يكاد يرتفع عن الأرض، وضيقا لا يكاد يشغل من الفضاء إلا حيزا ضئيلا. وتلقى النديم هدية الأمير جذلان راضيا. فلما دخل فيها ضاع بين ثناياها، لأنها لم تقصّل على قده. فاما الأمير وحاشيته فضحكوا وأغرقوا في الضحك. ولما النديم فلم يشك في أن الخلعة قد خلقت له . وأما الناس فقد جعلوا كلما رأوه يشيرون إليه ، ويقول بعضهم لبعض : انظروا إليه ! إنه يرقل في حلة فلان.^١

تتمثل المفارقة في أن تعطي خلعة النديم الطويل إلى القصير. والمفارقة أن يسعد بها النديم الضئيل ولا يدرك بشاعة منظره، وهو مرتد ثوبا لا يلائمه. أو لعله خدع نفسه بهذا لأن الحلة هدية من أمير.

وللقارئ يدرك المفارقة منذ الوهلة الأولى، ويسود شيء من التوتر في سرد المفارقة بسبب حالة من الترقب والتشوف لرد الفعل المتوقع من النديمين، من حُرْم حلته، ومن غاص فيما لا يناسبه. والنتيجة قدر من السخرية والتهكم، من الأمير وحاشيته والقراء جميعا.

وبعد : فلعلني أشير إلى عدة نقاط لاحظتها ، ولنا بصدد تحليلي لمفارقات د. طه حسين في "جنة الشوك" :

١ - حاولت أن أقتم في كل مفارقة نمطا مختلفا عن غيره من حيث استعمال طه حسين للشعر، أو لقصص التراث، أو أي القرآن، أو الثقافة الغربية،

^١ جنة للشوك ص ٢٩.

وكان هذا معياراً لاختيار المفارقات بحيث يمثل كل منها نمطاً قائماً بقني عن
نظائره.

٢ - معظم المفارقات اتعمدت على نوعين من أنواع المفارقة، أولهما مفارقة
المفهوم أو التصور، وثانيهما المفارقة اللفظية.

٣ - دارت موضوعات المفارقة حول القيم والأخلاق والسلوك، وكذلك
مسئ بعض المعاني السياسية الجوانب، وقضايا المجتمع المصري وبعض
مفاهيمه وقيمه وأعرافه، وفي هذا ما يشير إلى قدرة طه حسين على النقد
الاجتماعي اللاذع.

٤ - ظهرت ثقافة طه حسين بوضوح جلي حيث استشهد في معظم مفارقاته
بحكايات من التراث العربي والألب، واستحضر نماذج دالة من الشعر العربي،
بل نراه قد عقد في بعض الأحيان المفارقة على بيت من الشعر. وظهرت كذلك
ثقافته الدينية، كما ظهرت معرفته بمعاني القرآن، وحفظه لآياته، فقد تمثلها
كثيراً، كما تمثل أيضاً الثقافتين اللاتينية والفرنسية.

٥ - جاءت مفارقات طه حسين نمطاً مختلفاً بعض الشيء عن المفارقة عند
غيره، إذ رأيناه يعمد كثيراً إلى إزالة قناع المفارقة، ليساعد القارئ على إدراك
مقصوده، ولعل مما دفعه إلى ذلك أنه كان يقدم هذه "الإيجرامات" للنشر في
الصحف السيارة قبل أن تجمع في كتاب، وإن كانت لا تخلو من مواضع يورد
الكلام فيها على ظاهر لفظه ويترك لفظنة القارئ الوصول إلى ما وراء اللفظ من
معنى مقصود إليه يتم به المفارقة.

قائمة بأهم المراجع

- أحمد خريس: المفارقة في مقامات بنيع الزمان الهزلي - مجلة جذور سبتمبر ٢٠٠٢ ج ١٠ م ١٠.
- أمل نصير: المفارقة في كافوريات المتنبي . قراءة في نصوص مختارة . أبحاث البرموك م ٢٤١٥ سنة ١٩٩٧.
- د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ط ١ ٢٠٠١ للقاهرة.
- د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر - مجلة فصول م ٢ ١٩٨٢.
- د. طه حسين : جلة الشوك دار المعارف ط ١٠.
- د. عز الدين إسماعيل: نعمة للأسي ٠٠ نعمة للحزن ط ١ يناير ٢٠٠٠ القاهرة.
- د. مجدي وهبة : معجم مصطلحات الأدب . لبنان ١٩٧٤.
- د. محمد شكري عواد: طه حسين والثقافة اليونانية مجلة الهلال فبراير ١٩٦٦.
- د. محمد العبد : للمفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ط ١ دار الفكر العربي ١٩٩٤.
- د. محمود علي مكي : عصور الأدب العربي ، مجلة فكر عدد ١٤ مارس ١٩٨٩.
- د. محمود فهمي حجازي : طه حسين : فكره اللغوي مجلة فكر عدد ١٤ مارس ١٩٨٩.
- د. مصطفى السخني: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث منشأة المعارف - الإسكندرية.
- د. ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث ط ١ ٢٠٠٢ بيروت.
- د. نبيلة إبراهيم : المفارقة : مجلة فصول م ٧ عدد ٤٣ إبريل - سبتمبر ١٩٨٧.

- Academic American Encyclopedia
- Cuddon, J.A: Dictionary of Literary Terms and Literary theory.
Penguin Books, England ١٩٩١.
- Gray, M.: A Dictionary of Literary Terms. Longman ١٩٩٢.
- R.wellek: A history of Modern. Criticism v. ٢. p. ١٢-٢٤.

المفارقة في أدب طه حسين
د. نجوى محمود حسين صابر

الأخوة

العربية

وآدابها

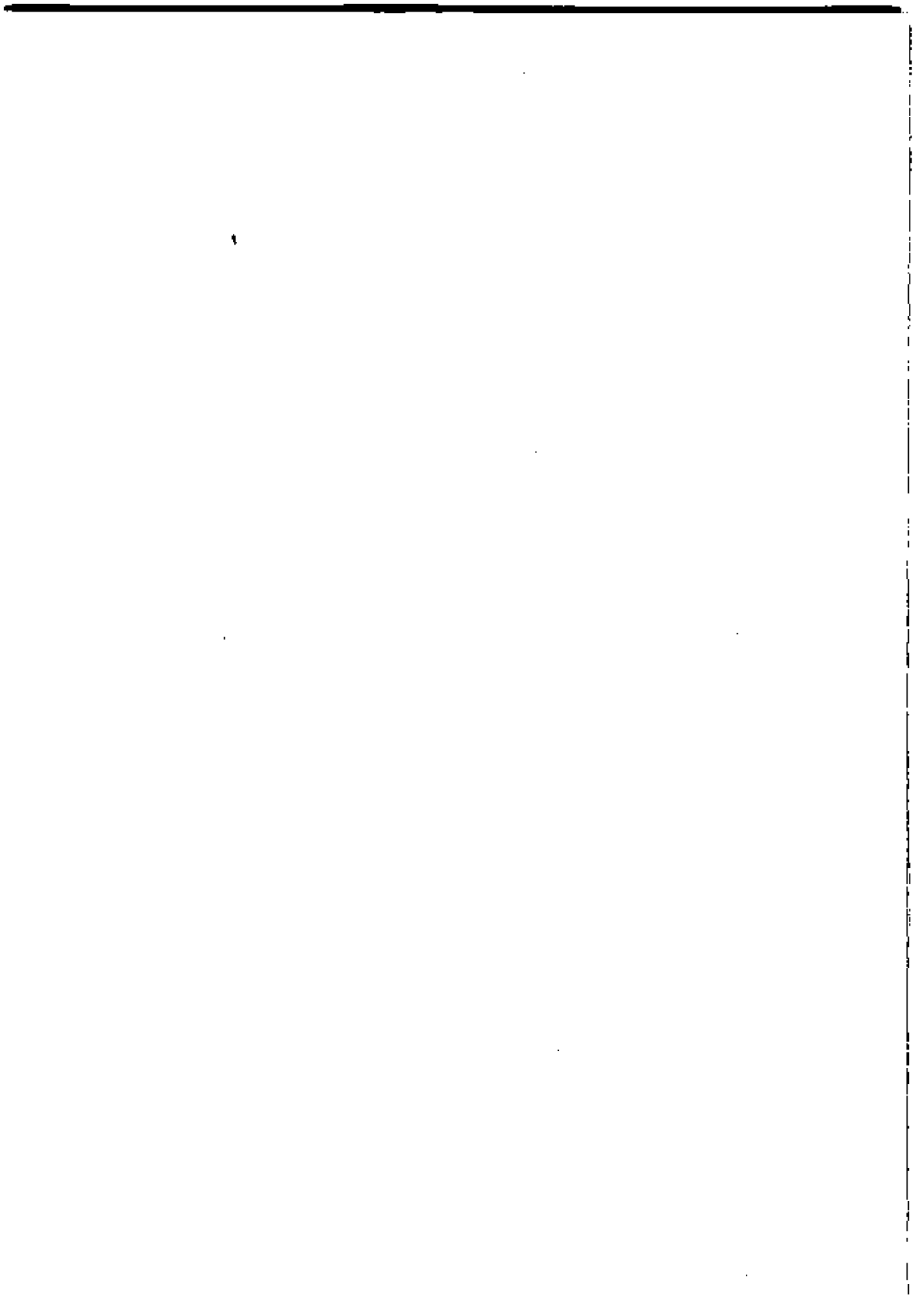
من المنظور النفسى فى الإبداع

" التغريب فى القصيدة الشعرية الحديثة محورا "

د. نصر عباس

أستاذ مساعد بكلية الآداب

جامعة الأزهر - غزة



مخل

إن كلمة إبداع، من غير شك، هي كلمة جميلة أخاذة رائعة، ونحن حين نطلقها إنما نعني بها دائرة عريقة وقضاء متسعاً من التعبير عن إحساسات ومواقف ورؤى للإنسان الخلاق، وتجسيد ما هو غير مألوف للآخرين، بشكل يعني في لوجه منه التجديد والمعاهدة، كما قد يعني إعادة صياغة شيء ما أو أشياء متعددة مما نعيشه أو نتعامل معه في حياتنا اليومية، أو ما قد نطمح للعيش معه مستقبلاً، كما أن هذا في نهاية المطاف قد يعني الارتقاء والسمو بفكر شخص ما، ذلك الذي نطلق عليه كلمة مبدع .

وبرغم عمومية الكلمة وإطلاقها سابق الفكر، إلا أن الكلمة أخذت في اكتساح عوالم الخلق الأدبي والفني والنشاطات الإنسانية الفكرية بالمقام الأول ، لهذا فإن أكثر ما يمكن تلمسه من ملامح لفظة الإبداع ودلالاتها إنما قد نجده في عوالم الفنون التعبيرية تحديداً، وأعني فنون الشعر والقصة على أنواعها والمسرحية والمقالة والمقامة وغيرها، كما أن اللفظة أخذت مدلولات جديدة تساير هذا المنظور المحدد للكلمة، وكانت تلك الدلالات اللفظية العامة أن تنقد وتحتسّر مع بروز دلالاتها ذات الصلة بإبداع عمل أدبي تحديداً، حتى إن المتخصصين قد بدأوا يشيرّون إلى أن الأعمال الأدبية تنقسم إلى دراسات في الأدب وتاريخه ونقده من جانب، ومادة إبداعية يجرى الدرس والتحليل والتمحيص لمضامينها ولكتابها من جانب آخر .

إن المبدع، من غير شك، هو شخصية تتقدم خلقاً جديداً في لحظة تتفاعل شاملة، بعيد فيها صياغة رؤى إنسانية جديدة تختمر في داخله، وتسيطر على ذاته، ولعل تلك اللحظة، عبر التعامل مع النص المبدع، أن تثير عدداً من التساؤلات حول المنظور النفسي وقواعده وأساسه وخطواته، الذي نتعامل من خلاله مع النص الأدبي ومبدعه في أن معاً .

لقد ظهرت في عقود قليلة مضت دراسات عديدة حول هذا الجانب في

الدرس الأدبي النقدي، وإن كانت إرهابيات هذه الدراسات قد ظهرت قبل هذا بكثير، وقد حاول كثير من الباحثين بهذا الصدد عقد دراسات تحليلية تحاول أن تبين مدى العلاقة الوطيدة بين حالات الإبداع عند نخبة من كتاب العالم وشعرائه وبين المادة الأدبية المبدعة، ثم التتويه ببعض خصائص لحظة الإبداع ذاتها، وملامحها ومسماتها، وهل هي ذات صلة بجوانب وحالات مرضية مشابهة، تسيطر فيها على المبدع في لحظة إبداعه، فتقده إرادته وإحساسه بالتوازن الحياتي، ولو للحظات فحسب، لم أن تلك الحالة تنسم بخصوصية تجعل منها حالة فريدة لا يعيشها أو يحسها سوى المبدعين فقط .

المنظور النفسي في الإبداع

لقد حاولت دراسات عديدة تناول موضوع الإبداع الأدبي تحديداً من منظور نفسي، وقد نجح كتاب كثيرون في ربط بنية المبدع مع واقعه ومجتمعه والظروف المولدة لهذا الإبداع أو ذاك، وقد كانت بعض تلك النقائلات الأدبية والنقدية قد استنطقت بعضاً من نتائج أدبنا العربي القديم، شعره ونثره، وبدأت في تحليل البنى الاجتماعية والنفسية التي ولدته أو التي أفرزت أشكالاً معينة ومضامين محددة فيه.

وبرغم تعدد الآراء وتباينها عند كثير من الكتاب الذين اهتموا بهذا الحقل المهم في الدراسات الأدبية والنقدية، إلا أننا لما نزل أمام معضلات كثيرة في هذا الشأن، ومرد ذلك هو أن الإبداع بشكل عام هو مجال يتسم بالشمول والمرونة والاتساع، كما أن الإبداع في حقيقته هو "وحدة متكاملة لمجموعة من العوامل الذاتية والموضوعية، التي تقود إلى تحقيق إنتاج جديد وأصيل، وذو قيمة من قبل الفرد أو الجماعة"^(١)، كما يقول أحد الباحثين .

وفي إطار تجديد مفهوم خاص للإبداع يذهب باحث بالقول: "إن الإبداع يتسم بمظهرين رئيسين هما: المشكل والتفكير الإنتاجي"^(٢)، في حين تتعدد التعريفات لهذا المصطلح عند كثير من المهتمين، لكنني أرى أن ثمة تعريفاً قد يكون جامعاً

لبعض مما يتسم به المصطلح في دنيا الأدب، وما يمكن أن يكون قاعدة لدراسة هذه، وهو القول بأن الإبداع هو "تحقيق نتاج جديد وذو قيمة لمن أجل المجتمع"^(٣).

لكننا نتساءل، هل يركز الإبداع بهذه المفاهيم على عنصر التنظيم وإعادة الصياغة للعناصر المترابطة، وإظهارها في تركيب جديدة متطابقة والمتنضيات للخاصة، أو لتحقيق منفعة ما على أي مستوى، كما يقول (ميدنيك)، وهذا جانب أول، فحسب، أم أن الإبداع يركز أيضا على الحدس الذي هو وجه أساس من وجوه العملية الإبداعية، لأنه الإشارة التي تسبق الحل الذي يكون، أو قد يكون، متسما بالغموض أو اللغزية، وهذا جانب ثان، لم أن الإبداع فوق هذا وذلك يكون متحركا في مسار نفسي بحث من حيث طبيعة السلوك المبدع الذي يحث نتيجة تكوين العلاقة بين المثبرات والاستجابات، وهذا جانب ثالث.

لحسب أن الإبداع في حقيقته يحقق الأمور الثلاثة، بل يتحرك في إطارها، ومن حولها، ويتخذ منها أهدافا محددة، قد نلمسها بشكل جيد في إطار دراسة للأعمال الإبداعية الأدبية بشكل محدد، وقد فُلمس ذلك في تحليلنا لبعض من نماذج شعرنا الحديث فيما بعد.

في عام ١٩٦٢ م جاء تعريف (ياما موتو) للإبداع، 'والمبدع مثيرا لهذه القضية التي نحن بصددنا، فقد ذهب إلى القول بأن المبدع "لا بد أن يكون حساسا للبيئة الداخلية، بحيث يمكنه التعرف على المشكلات والبدء في التفكير، كما يجب أن يكون غنيا بالآفكار طلقا، وأن يستطيع التقاط الأفكار والربط بينها، كما يجب أن يكون مرنا في أفكاره حتى يستطيع أن يغطي مناطق احتمالات متعددة دون أن يتجمد في نمط واحد.

ثم يردف (ياما موتو) بقوله :

"ويجب أن يكون المبدع قادراً على إعادة التحديد والتعريف والتسيق لأفكاره، بحيث تظهر في شكل حلول نهائية للمشكلة التي يعالجها"^(٤).

ولعل تعريف (ياما موتو) أن يكون قريبا من تعريف عالم النفس (جيلفورد) الذي قدمه في عام ١٩٥٠ م تحديدا، الذي ربط بين الإبداع والابتكار، وهو شكل من أشكال الإنتاج، كما يرى ، وهو يقول ذلك :

"إن الإبداع يعني، بمعناه الضيق، القدرات على إظهار سلوك مبدع إلى درجة ملحوظة، وذلك من خلال ما ينتج الفرد ذو القدرات المطلوبة، من أعمال ذات طبيعة مبدعة قائمة في أساس سماته المزاجية الدافعية".

ولتوضيح رأيه فإن (جيلفورد) يقف عند القدرات الإبداعية للفرد، ليشير إلى إمكانية تحقيقها عامليا، لكونها تتدرج تحت فئة التفكير التغييري، وهو- كما يقول- الطراز من التفكير الذي يتميز الإنتاج فيه بخاصية فريدة، وهي تنوع الإجابات المنتجة، التي لا تحددها المعلومات المعطاة فحسب .

إن من المسلمات، بهذا الصدد، ومن خلال ما نوه به بعضهم من تعريفات سابقة، أن هناك ثمة علاقة وطيدة بين المبدع وتركيبته الاجتماعية، والواقع البيئي والحياتي الكامل من حوله، على المستويين الخاص والعام، وأن هناك علاقة أخرى وأساسية تربط المبدع بمضامين إبداعه، وبخاصة شخصياته وأحداثه في الأعمال الإبداعية كالقصة والرواية والمسرحية، أو بين ما يصوغه الشاعر من أفكار، وما تولده القصيدة لديه من دلالات ورموز، على سبيل التحديد. لكن ثمة رؤية خاصة لبعض متناولي الإبداع وعملية التفكير التي يحياها الكاتب أو الشاعر للحظات، هي لحظات الكتابة أو التعبير برموز الحالة التي يحياها على الورق، من أولئك (برجلر) الذي يقول :

"إن الإنسان المبدع هو الإنسان المعاني، وإن إبداعه لا يأتي على صورته إلا من خلال تلك المعاناة" (٥)

ولهذا فإن (برجلر) يرى أن الإنسان العادي قد لا يشعر بالحاجة القهرية للكتابة كما الحال عند المبدع، ولعله في هذا أن يكون متوافقا إلي حد ما مع (فرويد) الذي نوه من قبل بأن ثمة علاقة وطيدة بين كل من المبدع واللاشعور

لديه، وقد أشار إلى أن الشعراء هم للذين سبقوه في اكتشاف منطقة اللا شعور
الإنساني.

من الآراء الجديدة بالتبويه هنا رأي (فرويد) بهذا الصدد، فقد قدم في هذا
الإطار مصطلحاً جديداً هو مصطلح (الإعلاء)، في معرض حديثه عن الفنان
المبدع (دافنشي) وقد عنى به الفترة على استبدال الهدف الجنسي الأساسي عند
الفنان بهدف غير جنسي، والذي يجعل الإبداع، حسبما يرى، هروباً من الواقع،
الذي لا يستطيع الفرد فيه مواجهة مطالب الإشباع الجنسي الغريزي، إلى عالم
آخر خيالي، يطلق فيه الفنان العنان لرغباته الجنسية ولطموحه الذاتي، ولكي
ينجح المبدع في تحقيق ذلك فإنه يحول أхийلته إلى واقع جديد، حيث يكون الإنتاج
هنا إبداعاً في مجالات متعددة من الفنون كالموسيقى والآداب، وكذلك العلوم
المختلفة.

ويذهب ببعض المهتمين والمتخصصين في هذا الإطار إلى أن الإبداع في
بعض جوانبه إنما هو ذات صلة بحالات عصابية خاصة بالمبدع، ذلك أن انطلاق
بعض المبدعين التعبيري إنما هو لفتقاء لا شعوري لمظاهر ومواقف حياتية، قد
يكون المبدع نفسه في أمس الحاجة إليها، ليس لإثبات قدراته على التكيف مع
واقعه، بل من أجل إثبات قدراته الدفاعية تجاه نظم الحياة بأكملها من حوله، أي
لإحداث شكل من أشكال التفريغ النفسي في جانب، وإحداث نمط من أنماط التمرد
والثورة على الواقع في جانب آخر، وقد تأثر كثير من المهتمين بمثل هذه الآراء،
التي تحدد صلة الإبداع بحالات العصاب تحديداً، سواء لكان في البيئة العربية أم
البيئة الأوروبية، ووضعت دراسات متعددة حول أبناء متعددين، ونتائجهم
الإبداعية وأثبتت أن ثمة صلة مباشرة بين الاثنين، الإبداع والعصاب.

إن فإن من القواعد التي تتبنى عليها دراستنا هذه أن ثمة علاقة أساسية بين
مكونات شخصية المبدع النفسية والفكرية الثقافية والروائية، ما تحمله أعماقه من
تطلعات وأحلام ورؤى، وبين الواقع الاجتماعي بل الحياتي الذي يحياه، ويبقى

معيار تحرك المبدع انطلاقاً من حالة الشعور أو اللاشعور رهنا بالحالة النفسية التي يعبر فيها عن موقف أو قضية ما.

في هذا الصدد يؤكد (كيوي) على أن المبدع قد يفقد في لحظة إبداعه، قدرته على التحكم في الإرادة ومعايير التوازن، ومن ثم فإنه يعتمد في حالات ما إلى لغة تعبيرية أقرب إلى الترميز أو الغموض، ولهذا، فإن (كيوي) يشير إلى العلاقة التي أشرنا إليها من قبل وهي الرابط بين الإبداع وحالات العصاب أو الهذيان، في حين ذهب كل من (ميدنيك)، و(ريبيوت) إلى أن المبدع في مثل هذه الحالة إنما يعد تكوين التدايعات التي تمر على ذاكرته، وعبر إطار فكره الخاص، وعليه فإن الإبداع في رأيهما يبقى تشكيلاً للعناصر المتداعية في تكوينات جديدة.

المنظور النفسي والشعر

مما لا شك فيه أن الشعر، كبقية الإبداعات الأدبية الأولى، وبشكل خاص في بينتا العربية، قد جاء في العقود الأخيرة، مصاحباً لظواهر حياتية متعددة، بدت متسارعة، صاخبة ولاهثة، وقد صاحب ذلك ظهور أشكال من التعبير الأدبي متوافقة ومنسجمة مع هذا الالهة، وذلك الصخب، فظهرت قصة اللاتكنيك، كما ظهرت أشكال من الشعر الحديث، بتوجهات وروى وطرائق فنية تعبيرية متعددة، وبدلاً نلمس شيئاً من هذا الصخب في بعض القصائد الشعرية، فكل قصيدة منها تشكل عالماً نفسياً قائماً بذاته، ينم عن مفاهيم وأفكار ودلالات قد تتباين عند الدارسين والنقاد بشكل ملفت للنظر، بسبب ما تولده هذه القصيدة أو تلك من إحساسات متباينة، وروى مغايرة لما قد يكون بنيت على أساسه القصيدة عند الشاعر نفسه .

إن بعض نماذج شعرية في العقود الأخيرة بدت وكاتها خارج حدود خضوعها لضوابط التسلسل أو التتابع الملطقي داخل بنية القصيدة، فبدت فاقدة- في بعض الأحيان- القدرة على بلورة الفكرة أو إظهار دلالات اللغة، أو إحياءات الصورة أو غير ذلك، وجاءت تلك الأعمال مؤكدة على أن شخصية المبدع تبقى

متحركة في قالب من التوتر والقلق النفسي، الذي ينعكس من غير شك على لغة المبدع وطرائق صياغته وتعبيره .

لقد ركز بعض الدارسين في هذا الصدد، على منطلقات اللاشعور عند بعض من هؤلاء الشعراء أو المبدعين، وأشاروا إلى أن ظهور مثل هذه النماذج الشعرية إنما هي في حقيقتها نتاج ما يختزن في لاشعور الفرد المبدع، من الأفكار البدائية، التي تنتجر في لحظة الإبداع ليعاد إنتاجها من جديد، وهذا ما ربطوا بينه وبين حالات الفصام، ولهذا، كما يرون، فإنها، أي تلك الأفكار البدائية، إنما تأتي على شاكلة تهويمات لا رابط فيها، أو بينها، ومن ثم تبدو فاقدة منطقيتها، معنى وهنفاً، ويحيى الاضطراب العقلي أو الموظف لحالات التعبير الفكرية، أساساً نفسياً، لفقدان التوحد الداخلي للنشاط الفكري النامي، الذي يربط بين مشاعر الفرد، مبدعاً أو غير مبدع، وبين إرادته، وهذا تحديداً ما ذهب إليه عالما النفس (بلويلر) و(سترانسكي)^(١) بشكل واضح .

إن منطقة اللاشعور، أو ما قبل الشعور كما أطلق عليها بعض المهتمين، هي التي يمكنها أن تعرض أو تحت ما يختزن في باطن المبدع، وهي التي تكثف التجارب الذاتية للمبدع، لتكون أكثر مرونة، وتبدو في طرحها الإبداعي متعاقبة بسرعة أكبر مما هي عليه في الوعي، وهذا، حسبما أرى، هو الصورة الحقيقية لحالة الإبداع ذات الخصوصية التي أشرت إليها آنفاً .

إن التجربة الإبداعية لأي مبدع هي ذاتية بالمقام الأول، لكنها تقسم بالموضوعية في الآن نفسه، وهذا يعني أن التجربة هي محور تباين الآراء، والدافع لتحديد نظرية الإبداع وفحواها، التي تستهدف التحرك في ظلها هنا، بعيداً عن نماذج الشعر التي تبدو أقرب إلى سمة التهويم واللاترابط، وضبابية المعالجة، وتذكك اللغة وتعقيدها، والتي تبدو متحركة في إطار من حالات الفصام التي نوهنا بها من قبل، والتي ضمنتها باحثة في رأي لها قد يحدد بعضاً من ملامح القضية التي نود التحرك في إطارها، نقول الباحثة :

"ويتزايد اهتمامنا السيكلولوجي بالفصام، متى كان المجال هو بحوث الإبداع، فالإغراب أو البيزارنيس الذي يعد أحد الأغراض المرضية الهامة في الفصام، والذي نقصد به ذلك العرض الذي يجعل المريض يقدم أفكاراً غريبة، لا تعتمد على الواقع أو على المعطيات للمادية أو العقلية المعروفة، يعد هنا حلقة الصلة بين ظاهرة الفصام والإبداع".

ثم تردف الباحثة بالقول :

"فإذا كان الشخص المبدع في نظرنا هو الذي يقدم أفكاراً أصيلة وجديدة مبنية على الواقع أو منطلقة من معطيات واقعية، فإنه يترتب على ذلك أن يكون العلماء والمكتشفون أكثر الناس إبداعاً أو إغراباً"^(٧).

ولعلنا أن نقف بشئ من التفصيل عند هذه النقطة تحديداً فيما بعد، باعتبارها المحور الرئيس الذي تنور حوله هذه الورقة، وأعني موضوع التغريب أو الإغراب في الإبداع الشعري الحديث، وهو بعد أكد على صلته بجانبَي الإبداع من جهة وحالات نفسية مرضية كالفصام من جهة أخرى كثير من الباحثين والمتخصصين، فقد ذهب (سيدل) في هذا الصدد إلى أن ثمة تشابهاً في العمليات الأساسية للإبداع قد تبدو واضحة عند الفصامين كحالات مرضية، وعند بعض المبدعين في لحظات إبداعهم"^(٨).

التغريب في القصيدة الشعرية الحديثة

لنقف عند بعض قضايا أو محاور تبدو إطاراً أساسياً يتحرك حولها، ومن خلالها شعرا كثيرون في بينتنا العربية في العصر الحديث، وتبدو عند بعض من هؤلاء الشعراء مجالات يمكننا تلمس ملامح ما ذهبنا إليه منذ قليل حول الصلة المباشرة نوه بها كثير من الباحثين بين حالات من الإبداع، والشعر بخاصة، وبين حالات مرضية عصابية بشكل محدد، حتى ولو للحظات محدودة، وهي لحظات إبداع القصيدة الشعرية وأعني اللحظات غير الزمنية، تلك التي قد تمتد أو تقصر بفعل فاعلية تقجر القصيدة لغة على الورق، ضمن إطار الحالة النفسية للمبدع،

ونقف في الجزء التالي من هذه الدراسة على هذه النماذج الشعرية التي تتحرك فحسب داخل دائرة التغريب المشار إليها، والتي تتخذ بعضها من محاور التفكير والتعبير الأدبي مجالا فنيا وإنسانيا لها، وأحصرها في بعض منها، تلك التي تشكل فضاءات القصيدة الشعرية الحديثة عند فئة من شعراء العصر الحديث في بلداننا العربية، محاولين الوقوف على نماذج للاستشهاد فحسب، بما يمكن أن يندرج للحكم من خلاله على نماذج عديدة متشابهة على امتداد البيئة الأدبية العربية، في مجال الشعر تحديداً .

والتغريب أو الاغتراب هو مصطلح استخدم للمرة الأولى عند (هيجل) كما تقول بعض الدراسات المتخصصة، بل إنه هو أول من استخدمها بصورة علمية ومذهبية حيث ضمه كتابه (فينومينولوجيا الروح)^(٩) الصادر في عام ١٨٠٧ م، وكان استخدامه مركزا على مصطلح التغريب، الذي لحسه أكثر مناسبة لبحثنا وتحليلنا لنماذج من الشعر العربي الحديث في إطاره .

في معرض تناوله لهذا المصطلح قسمه (هيجل) إلى قسمين اثنين، الأول منهما حسبما يرى هو إيجابي مقبول، وقد أطلق عليه مفهوم (التخارج)، الذي يعني عنده تمام المعرفة بذاتها، ذلك لأن المعرفة المطلقة تضمن الاغتراب بقدر ما تحتوي في الآن نفسه على حركة نحو التخطي، والإنسان في نظر (هيجل) إذا ما تموضع أو تخارج في الحضارة والثقافة والإنتاج الفكري بعامة، كما يقول أحد الباحثين، فإنه تبعا لهيجل يغترب، ويصبح في غيرة بمتع تخطيها إلا بالمجاهدة^(١٠).

وحول هذا التعريف (لهيجلي)، وبشكل خلاص الجانب الإيجابي منه، للاغتراب أو التغريب وتوضيحا له، يعقب باحث بالقول :

"تنشأة الوعي لا تأتي من فراغ بل تأتي من العلاقة بالآخر، وبعبارة أخرى، إن الوعي لا يعرف ذاته إلا بوصفه حقيقة تمتلك أبعاد الكلية الشاملة (العالم)، ويستحيل أن يصبح الوعي وعيا فرديا إلا باستمماج الوعي بالعالم"^(١١).

لما القسم الثاني للتغريب عند (هيجل)، فهو سلبي مرحلي، يتصل بمرحلة معينة من التاريخ، (أو بحالة من الحالات الطارئة، كحالة الإبداع)، تلك من حيث معناه العام، حيث يفقد الإنسان في تلك المرحلة حريته وقدرته على الاختيار، كما يفقد الوحدة في دنياه، حسبما يرى (هيجل). ولعل الاغتراب أو التغريب في مجمل معناه عند علماء النفس قد أخذ مفهوما محددا فيما بعد، له صلة مباشرة بتركيبية الإنسان بعامة والمبدع بشكل خاص حيث يعني عندهم العالم الموضوعي الذي يحياه الفرد بالنقيضين السابقين الإيجابي والسلبي عند (هيجل)، فإذا ما سيطر الجانب السلبي على الفرد فقد وجب قهر الاغتراب، وإن لم يتسن ذلك للفرد إلا عن طريق المعرفة الحقة والوعي الكامل، ومن هنا يشير علماء النفس إلى أن أخطر حالات التغريب هي تلك التي يشعر فيها الفرد، وفي حالات الإبداع تبدو أكثر حدة وعمقا، بالغربة عن مجتمعه الذي يعيش فيه، حيث تزداد الهوية بينه وبين عالمه كله اتساعا وعمقا كذلك، أو كما يقول علماء النفس، إنه التوافق العصابي بعامة، حيث تزداد الهوية بين الفرد وعالمه .

ضمن هذا الإطار الاغترابي الحاد يقول شاعر :

" تلك الأعصار

يأتي كل عمر مرة أو مرتين

مثل زلزال رهيب

في بقاع النفس يفني قارة أو قارتين

إن أتاك الآن فاعلم أنه وهم وزيف

قاوم الهزات واصمد ممسكا بالجمرتين

واخفق الأصداء

وانظر في المرايا لظرتين" (١٦).

وتزداد حدة إسهار الذات صخباً وتوتراً عند شاعرة ، فنسمعها تقول :

" أهيم

لا يقين يخاصرني
ولا شك يضرع الأفق
وحدي انتقيت مغاور الأنهار
وتسربت زمنا ... زمنا
إلى العتارات
ترجرج خطواتي". (١٢)

التساؤل الذي يطرح نفسه بهذا الخصوص، هل إن إحساسات الشاعر بالاغتراب، تدفعه للإحساس بالانفصال التام عن الواقع المعيش، لرفضه له، أو بفعل الهوية السحيقة التي يحسها بين طموحاته ورؤاه، وبين ما يعرضه الواقع، وهل يبدو هذا صراعا حادا، يدفع بالمبدع إلى التعبير الرمزي المختزل لكم كبير من المشاعر والإحساسات، ليعطي في لغته الشعرية ومضاد هي اقرب إلى الومضات النفسية والشعورية التي قد تجنح للغموض، أكثر من كونها ومضات لغوية، ذلك بفعل ما يحسه شاعر بفجعة اللحظة، مما يدفعه أو يخشاه معه، شعور بالاغتراب الحاد، عن كل شيء، بل ربما عن النفس ذاتها، وهو شعور يضفي في الأغلب على رؤية الشاعر الحياتية كثيرا من المرارة والأسى وتحول اللغة إلى بركان من الدلالات لكنها تبقى في مثل هذه الحالات غامضة، ومختزلة بشكل قصري، مكثفة إلى حد بعيد، رامية قلقة، فاقدة قدرتها على النبض المطلوب والمتنظر من قبل المتلقي الساعي إلى التوحد معها والاندفاع بها .

إن اللغة، في ظل هذه الحالات التغريبية تفرق في التكتيف والغموض، مما قد يضعف من قدرة المتلقي في الوصول إلى كنه الفكرة المطروحة ودلالاتها.

لورنس في مقطع شعري له يقول :

" لمحيط الهجس بوجه آخر

للإنسان، بوجه آخر

للتكوين " . (١٣)

وباحث يعلق على النموذج نفسه فيقول :

"ومن ثم تصبح الدعوة إلى الاستيقاظ من الغموض والتشويخ، دعوة صريحة إلى تجديد الوجود، والشعر ارتياذاً" (١٥)

ومن خلال النموذج وما تبعه من رأي ندرك أن ثمة رؤية ضبابية على صعد العملية الإبداعية في أحيان ما، من ذلك ما يصيب اللغة الشعرية من توتر وصخب، قد يفقدها رونقها وألقها، حسبما أرى، ومنه أيضاً ما قد يصيب المتلقي من اضطراب ومعاقة في الكشف عن مكنون اللغة وخفاياها الدلالية، وضمن هذا الإطار التقريبي، تطالعنا نماذج شعرية حديثة متعددة حيث نلمس كما هائلاً من الإحساس بغربة الذات وفقدانها القدرة على التواصل مع واقعها، في هذا الصدد نقرأ نموذجاً لشاعرة تقول:

"سماء لنخلتي

وليس لي المد

ولا الأرض التي نشاطها

غصني

قلبي طير ينقر

يفرد أجنحة المجهول

وأنا منثورة في الريح

الطيور لا تغرد لي

يا طير قلبي لا تعد " (١٦)

في حين يقول آخر :

" الليل جرح صامت ، أو آهة تبوح

أو أنفاس من حزنها تنوح

تسأل عمن في العذاب ساقها

وتسأل الومضة في النهار ...

إن يولد النهار

وما درت،

بأنما للنهار منذ ألف عام مات" . (١٧)

في حين تتسع دائرة الاغتراب عند شاعر آخر ، فيقول :

" الأرض تولد بركانا

يتجر تحت العدوان

من بحري غابات لُود

قد ملأت لُرض الميدان

هبت ثارا

تأكل نارا

تشرب دما

تحمل معها كفن الموت

تقسم أن تمضي شهداء

لو ترجع شمس الإنسان

لا تعجب فدموع النكلى

لنهار" . (١٨)

لكن الدائرة تضيق أكثر عند شاعر آخر، فتقسمو عليه إحساسات غربته،

فيصرخ فاكدا انتماءه لكل شيء :

" الليل والآلام والدنيا المبعثرة الغبية

والبؤس يجثم فوق صدري مثل أطواد خفية

ولكم تمنيت الخلاص ... ولو على أيدي الملية

لم يبق لي في وحشة الرمضاء واحات ندية" . (١٩)

في حين بضمن شاعر آخر لفقه الشعرية رموزا متعددة، هي في حقيقتها

إفرازات حالة الغربة عنده، يقول :

" لا تلعنيني أنا
فأنت ... أنت أنا
ليأمننا التصقت
فوق الرصيف معا
وجوهنا التصقت
دما ولحما ... شرايينا ... وأغصانا
فكيف يعرف منفي حكاياتنا
وكيف يبصر أعصى أننا الآن
نقول للموت شيئا ظل مستترا
فلتعرفني أنت
أني أخذت موثيقا من الموت
أن لا أموت غدا
وإنما أبدا " . (٢٠)

ولعل قارئ الشعر العربي الحديث أن يقف على نماذج عديدة لدرس هذه الملامح التغريبية، التي تتباين نسبيا في طرائق طرحها ولغتها وتبيان دلالاتها، ومهما يكن من أمر فإن عنصر التقريب عند كثير من الشعراء قد تمحور ضمن محاور رئيسة، شكلت، كما نوهت من قبل، دوائر لقصائد عديدة عند شعراء كثر في الأدب العربي الحديث، من تلك المحاور فكرة العذاب الذاتي، وحالة الترقب المطلقة، وفكرة الموت رمزا ودلالة .

فكرة العذاب الذاتي

تشكل هذه الفكرة محورا رئيسا عند بعض الشعراء، فهم يعيشون في حالة من عذاب الذات، وصخبها وتوترها، وهو عذاب يتوالد من دخل المبدع، لإحساساته بالغربة عن الكون والواقع الذي يحياه، ومن ثم هو عذاب تشدد وطاته على النفس كلما كبر حجم الإحساس بمأساوية الواقع من جهة، وبختمية التغيير

التي يعجز المبدع، فردا فحسب، عن إحداثه، مما يوسع من دائرة هذا العذاب
وشدته وتأثيره، وتختلط هذه الفكرة ببعد وجودي، إذ تتسع دائرة إحساس المبدع
بفنائه، وبعدمية الحياة التي يعيشها، فتنبو لغته الشعرية معبرة عن هذا البعد
بشكل مباشر وحاد. أحد الشعراء يقول في هذا الإطار:

"سأناى عن القبر ،

فليصفح الموت عني

سامح هذا الجبين اللعين

عن التربة البالية

سأناى عن القبر

وهو سيناى معي في ...

في الجذوة الدهر

إن الحقائق قد شرشت في دمي ،

واصطففتي

وها هي تستنفر الخيل في جسدي ". (٢١)

ولعلنا نلمس ملامح هذا العذاب عند الشاعر، مما دفعه لأن يقدم لغة مفككة،
لا رابط منطقيا بين جزئياتها، وبدت الحالة النفسية ذاتها لدى الشاعر أقرب إلى
عالم من التفرغ، وعدم الاتزان، فضاقت دائرة الدلالة، وافترقنا مع لغة الشاعر
حتى إدراك الفكرة التي أرادها، اللهم إحساسنا بفجعة ما، أو بعذاب ما يكتنفه
الغموض والإبهام .

إن مثل هذه التجارب الشعرية في أدبنا العربية الحديث كثيرة، وهي تطالعنا
لتعكس خبرات حياتية وفكرية وفنية شائكة، فجاءت مزيجا مركبا ومعتدا، ليعكس
الشكل الحياتي المركب والمعتقد ذاته.

إن فكرة العذاب الذاتي والحيرة الإنسانية، والتأمل الخاص للمبدع في ذاته
والحياة من حوله، قد ساعد على اختصار التجربة، وتشكل مع هذا كله وجدانان،

الأول منهما هو وجدان ذاتي خاص، والثاني منهما هو وجدان جماعي أو جمعي، وكان ذلك دافعا عند كثيرين لأن يشاروا إلى أن مثل هذه التجربة ذاتية روحية صوفية، وبدأوا ينقبون عن ملامح هذه التجربة أو الرحلة الخاصة للمبدع^(٢٢). وقد نجح بعض هؤلاء الشعراء، إلى حد ما، في الخروج من دائرة الصراع الذاتي والعذاب النفسي الخاص، فبدت لغة هؤلاء أقرب من مباشرة التعبير، وإن بقيت دلالات أقرب إلى تهويمات قد تفقد المتلقي إحساسه بالمستهدف. أحد الشعراء يقول في هذا الإطار:

"يا عزيزي

علينا

أن نحفر الخنادق في وجه الصدفة

نحارب مقولنا بالمطر

نتعاسك كالهواء في أنف النافذة

ونترجم موتنا لشمس راقصة

يقلقني أن يتجر الليل خجلا من الكحل

أن يزرع كشميه في عيوننا

كم من معاص ارتكبتها بحق الطرق

وكان القمر يعدو وراعا

بعباءة الطيور". (٢٣)

في حين نقرأ نمونجا آخر، يبدو الشاعر أقرب إلى تبسيط اللغة، والتعبير، فتبدو الفكرة، برغم بساطة عرضها، أقرب إلى الشحوب والضبابية. يقول :

"نام الجميع على المدى

وسرى الندى

يغتال بارقة السحاب

إلا أنا وحدي

أتمم في قضاءات

العذاب

أجتو وأنهض

في مآقي دمعتي الحرى

وأبحث عن جواب

وطن بلا وطن ولا قلب

ولا رأس

ولا صوت

ولا أعلاه باب " (٢٤)

في إطار ما نحن بصدد عرضه يقول باحث :

"يمكننا أن نقرر أن ليس كل من يكتب الشعر يعاني من أزمة نفسية، وإن كان الشعر في كل حالاته لحظة معاناة فكرية تتجاوز الفعل وردة الفعل اللاشعوري، إلى قراءات في المستقبل، تحمل افتراضاته قدرا كبيرا من الشعور".

ثم يردف بالقول ، توضيحا وتبيانا لحالة الإبداع والمبدع على حد سواء :

"قد لا يفهم الشخص المبدع الدوافع الحقيقية الكامنة وراء نشاطه العقلي، وقد لا يفهمه المحيطون به بنفس الدرجة، وهذا الجانب اللاشعوري فيه، ولكن قدرة المحيطين به من نقاد على تفسير السلوك، والتنبؤ بحدوثه ومستقبله قد يخلق دوافع ثانوية توجه سلوك المبدع وجهة معينة، تمنعه من الانحراف والاضطراب، وتدفعه نحو الإجابة بصورة تجعل صورة الإبداع مقبولة اجتماعية، لا تخرج عن القوالب والقيم، وهذا هو الفارق بين الإبداع السوي وغير السوي". (٢٥)

لكنه يستترك بالحديث عن طبيعة الإبداع المشكلة لحالات خاصة لدى المبدع، أو ما يجب أن يكون عليه الأمر، في رأيي، مما أحسبه قد مس جوهر القضية التي نحن بصندھا، إذ يقول :

"إن الإبداع قدرة نوعية خاصة، محاولة خروج عن المألوف دون تشويه

الإطار العام للقيم الاجتماعية والجمالية، إنه نظرة جديدة من زاوية مختلفة لمشكلة قائمة تنتظر الحل، إنه قراءة جادة في كتاب قديم واستقراء للمعاني الخفية بين السطور، إنه تخليق بأجنحة فولاذية لاختراق جدار الصمت والجمود، إنه دوران خارج نطاق الجاذبية التي تشد الأشياء إلى أسفل، ومحاولة للصعود إلى الأعلى".^(٢٦)

إننا إذن أمام نظرية محددة أو ما يشبه النظرية الخاصة بالإبداع، تلك التي تذهب إلى أن الإبداع هو حالة تنسم بالخصوصية والتفرد، من حيث كونها تلتزم في لحظة إبداع المبدع لأثره الأدبي، وبخاصة في الشعر، بالطلاقة والمرونة والأصالة والحساسية تجاه المشكلات، وإعادة صياغتها وبنائها، وهي حالة أقرب إلى ما ذهب إليه (جيلفورد) في رأيه الذي أورثناه مسبقاً، وقد أكد على ذلك أصحاب الاتجاه الإنساني في الإبداع، من خلال تحليلهم لحالة الإبداع، حيث بدا الإبداع في رأيهم منطلقاً من وحي الاستقرار والرخاء النفسي، ومن الصحة النفسية والجوهرية للإنسان، بل إن فعل الإبداع يعني في نظر أحدهم، وهو (ماسلو)، الصحة نفسها^(٢٧)، في حين يذهب لآخر من مفكري الاتجاه ذاته إلى أن المبدع إنما "يشعر بالسعادة الحقيقية حين يبدع شيئاً ما، بشكل عفوي، وعندما يتحد مع العالم ومع نفسه، حيث إن عقله وعاطفته يكونان في انسجام كامل". ثم يعلق الباحث نفسه على ذلك بالقول :

"لن الإبداع بالنسبة لهؤلاء هو عملية من العلاقة بين الفرد السليم، والوسط المشجع والمناسب".^(٢٨)

إن تلك العلاقة في اعتقادي هي جوهر المسألة التي نعرض لها هنا، "لأنها جوهر الإشكالية على حقيقتها، وزمام هذه العلاقة يبقى بيد المبدع، وشعوره بالسعادة لا يفتأ أن يضغط على ذات المبدع كلما شعر بتجسد هذه العلاقة على الشاكلة التي تنجر لديه المشكلات، أو تعيد صياغتها، أو إثارتها بعد تشكيل جديد، لأن هدفاً ما يكون كامناً في ثناياه، حسبما أرى".^(٢٩)

حالة الترقب المطلقة

يشكل الترقب والانتظار المطلق، وكذلك الأمل المنبعث من الحلم الذاتي، محاور أساسية عند كثير من المبدعين، وقد قرأنا ذلك في ثنايا أعمال شعرية وقصصية وروائية ومسرحية على امتداد مساحة البيئتين العربية والأوروبية، وإن بدت تلك المحاور أكثر دورانا في مجال الشعر العربي الحديث، حيث بدت منطلقات لشعراء اتخذوا منها سبيلا للتعبير عن مكنون نفوسهم، والكشف عن حالات التوتر والحزن والصخب النفسي والعذاب الذاتي التي يحيونها، وكان ذلك كله مبعثه الانتظار لشيء غير واضح المعالم، غامم الرؤية، ضبابي الملامح، لهذا بدا أن جوهر المشكلة ليس في انتظار شيء ما، بقدر ما أصبح فلسفة للانتظار المطلق نفسه ولعل هذا أن يكون منطلقا لعدد كبير من الأدباء على مستوى العالم بفعل ضغوطات الحياة، وشدة مأسيتها، وتوتر العلاقات الإنسانية فيها، إضافة إلى ما حاق بإنسان العصر من مشكلات وآلام وحروب وقلق وغير ذلك مما قلص من حجم الآمال المستقبلية لديه، وشعوره بتأزم الآن، وحدة وقعه عليه .

لقد قرأنا هذا بشكل جلي عند مسرحيين وقاصيين وشعراء عالميين، ولعل لوحة الانتظار الفلسفية التي جسدها (صامويل بيكيت) في مسرحيته العبيثة (في انتظار جودو) لخير دليل على ما نؤكد عليه هنا، حيث تجسد الانتظار المطلق بوصفه فلسفة الوجود الإنساني، ومحور ارتكاز إحساسات الإنسان للمعاصر ورواء بصورة حادة، قاعدة لتحركه وسلوكه وفكره ولغته وإحساسه في الآن نفسه.

في مجال الشعر العربي الحديث نقرأ نماذج كثيرة تنور حول هذه الفكرة، وإن اختلفت طرائق الشعراء، وأفكارهم، وأساليبهم، ومناحيهم الفكرية في معالجتها وطرحها. أحد هؤلاء هو الشاعر فاروق شوشة حيث نسمعه في قصيدته (عصفورة) يعبر عن مفهوم الترقب والانتظار والأمل المنبعث من وحي الحلم،

والحيرة الذاتية، والعذاب الخاص، لتتشكل من خلال هذا كله خصوصية التجربة،
إذ يقول :

" غيبي أو عودي

هذا عطش القلب يزول

وهذا وجه الزمان يحول

وهذي لغة العشق تقول

فتقبل دنيا مسحورة

قلبي مشدود ليغني

واللحن سجين

غيبي أو عودي

العمر قصير وشحيح

والعش حزين

فمتى تأتيني ... متى تأتيني " (٣٠)

لكن تجربة الشاعر في ظل هذا المحور تعاود التحرك في واقع تبدو دلالاته
غامضة، غير واضحة المعالم، تفقد معها الفكرة قدرتها على التجسد وتبيان الدلالة.
يقول معبرا عن الجانب ذاته :

" شاخص كالدمى ، عالق بالجدار

ظله المرتدي غبطة زائفة

والحبين الذي تطلع العاصفة

من ثنايا تجاعيده الزلحفة

ناحل في اصفرار

مدمت فوقه لحظة كاشفة

فهوى قلبه قشة واجفة

واستدار النهار

لأنذا بالفرار ! " (٣١)

وعند (سميح القاسم) نتعمق لحظة الانتظار والترقب المطلق ذاتها، وتبدو فلسفة خاصة بالشاعر، وتأخذ سميتها الوجودية لديه، ويربط الشاعر في تصويرها بين حالة الانبعاث النفسية للتصيدة وبين عالم الانتظار الخارجي، يقول في قصيدته (قرآن الموت والياسمين) :

" أنتم أيها الرجال

وانتنن أيتها النساء

أنتم أيها الشيوخ والحاخاميون والكرادلة

وانتنن أيتها الممرضات وعاملات النسيج

لقد تنتظرتن طويلا

ولم يقرع ساعة البريد أبوابكم

حاملين للرسائل التي تشتهون

عبر الأسيجة الباسية

أنتم أيها الرجال

وانتنن أيتها النساء

لا تنتظروا بعد ... لا تنتظروا

اخلعوا ثياب نومكم

واكتبوا إلى أنفسكم

رسائلكم التي تشتهون " (٣٢)

كما أن بعض الشعراء يتخفون من المناجاة الذاتية، والتركيز على منابع الحيرة الخاصة، لتكون هذه في مجملها وسائل لتوظيف فكرة العذاب الذاتي، والانتظار المطلق، وإن جنح هؤلاء- بعضهم- إلى رمزية الفكرة من خلال رمزية الواقع المعيش من حول المبدع. أحد هؤلاء الشعراء يقول في إحدى قصائده حول المحور ذاته :

" هذا خيالك مجذب ، ماذا تريد من الخيال ؟

هذي ربوعك بلقع ، خلف السراب تخالها روضا نصير^{٣١}

يا صاحبي ماذا تريد ؟

أهو السراب

حسبته يما عياب ؟

فذهبت تضرب في القفار بلا هدى " . (٣٢)

وفي الإطار نفسه تعبر شاعرة أخرى عن تجربتها، ومرارتها، وعذابها،

وترقبها المطلق أيضا فتقول :

" سماء لنخلتي

وليس لي المد

ولا الأرض التي أشاطرها

غصتي

قلبي طير ينقر

بفرد أجنحة المجهول

ولنا منثورة في الريح

الطيور لا تغرد لي

يا طير قلبي لا تعد " . (٣٣)

وفي لوحة أخرى تتسع دائرة العذاب، ويأخذ هوية أخرى، هوية الوطن

المعذب، ويبدو الحزن محتضنا كلا من الشاعر ووطنه الخاص والعام، وتتعمق

التجربة لدى الشاعر بخصوصيتها، لكن الرؤية الضبابية، والانتظار المطلق

لشيء ما، يبدوان صاحبين متوترين أيضا، إذ يقول شاعر ضمن هذا الإطار :

" لرايت أن تقاديني

ولما لم تجد فمها

تشظي جسمها المائي

بين النار والطين

أرادت أن تعانقتني

ولما لم تجد يدها

تجبر صوتها حمما

وغطاتي

وغطى جنّة الوطن

وشاعت أن تمس يدي

ولما كنت مخلوقا خرافيا

بلا جسد

بلا أهل

ولا بلد

تعذر أن تشاهدني وتعرفني

ولم تبصر سوى ظلي

ولم تلمس سوى كفني " . (٣٥)

ولعل فجيعة الرؤية عند بعض الشعراء من الذين عالجوا هذه الفكرة قد تجسدت بشكل جلي في إحساس هؤلاء بفراغ لحظة الانتظار والترقب وخواتمها، من جانب، واستمرارية مأساوية هذا الترقب وديومته، من جانب آخر. أحد الشعراء حول هذا الجانب يقول :

" غير أنا عندما نأوي إلى أفكارنا

نتلظى

نلمح الإنسان فظا

أه من هذا الذي الإنسان يدعى

أه من هذا الذي مازال يرعى

رغم أن الليل موصول الأئين

رغم أن الليل قاس لا يلين

وهو لما يزل يرعى

أوحقا ما يقول الحكماء ؟!

أوحقا أننا نجري على درب خواء ؟! " (٣٦)

وفي مقطع شعري آخر تتبلور الفكرة بدلالاتها الواضحة عند شاعر آخر إذ يقول:

" بلغ السيل حدود شراييني

فتناعبت

مرت مدن الحلم علي،

فأسلمت قلوعي للريح، شظايا خيلاني

وتأخيت مع الخوف المبنور

حقولا هائلة في " (٣٧)

الموت رمزا ودلالة

يبدو الموت عند كثير من شعراء العصر الحديث رمزا ودلالة لمعان ودلالات محددة تصوغها رؤى الشعراء وأفكارهم وقناعاتهم، بل ونظرتهم الخاصة للواقع، وتصوراتهم أيضا للمستقبل، ولعل الموت عند كثير منهم يأتي معبرا عن مجموعة من الدلالات، يمكن الإشارة إلى بعضها.

من ذلك أن الموت يبدو عند أصحاب الرؤى الاستراكية، وممن يكتبون القصيدة في أطر الاتجاه الواقعي الاستراكي (الواقعية الجديدة)، باعتباره جسرا لحياة أكثر لقا وسعادة للإنسان وإشراقا مستقبليا له، وهذا ما اتخذهُ الواقعيون الجدد في الرواية والقصة والمسرحية والشعر على حد سواء، ويبدو الموت عندهم رمزا لما يتحتم على الإنسان أن يقمه في مسار نضاله وثورته من أجل حريته واستقلاله، وحرية الآخرين أيضا

إن الموت عند هؤلاء لا يعني الفناء الجسدي، أو الموت الفسيولوجي بالمقام الأول، إذ إن الضياع والتشتت والسقوط والتردي، وحالات التمزق النفسي

والتفسخ، التي قد يحياها إنسان العصر، إنما تعطي في مجموعها دلالات الموت المقصود رمزا ومعنى عندهم .

والموت يولد فكرة رمزية مطلقة أيضا عند بعض هؤلاء الشعراء، أي أن حالة الموات التي يعبر عنها، والتي يعيشها الشاعر تبدو للمتلقي بلا هدف أو فكرة تتبنى عليها بنية التصيدة الشعرية، كما يبدو للتعبير عن حالة الموات نفسها أقرب إلى تهويمات نفسية، لا يحكمها ضابط، أو منطق في الصياغة أو للتعبير.

ولكن حين نعرض لهذا الجانب إنما نتخير نماذج مما تنطبق عليها هذه السمات والملامح، والتي تبدو عزفا خارج سرب الإبداع الشعري الذي يتسم بقرآن الرزية، وتماسك الصياغة ومنطقية المعالجة ووضوح اللغة مع ما تتضمنه من دلالات ورموز تبلور في حقيقتها ملامح الفكرة الأساسية التي ينطلق من خلالها الشاعر المبدع .

من النماذج التي تدور حول فكرة الموت المطلق رمزا ودلالة قول أحد الشعراء:

" سقطت كل النيازك ... فإذا الأرض خرابا وبيا

وإذا العقبان حامت

وغراب البين ما زال مقيما

يقلق البيداء... يشقيها

بأصوات النعيب '

وهدير الماء في سبل العواصف

اعتلى تلك الصهاوي و الهضاب

قلع الأشجار من قاع التراب " . (٢٨)

إن دائرة الضياع والتشتت التي يحياها الشاعر، والتي تنبثق منها إحساساته ورؤاه، هي في حقيقة الأمر حالة من الموات الرمزي عند الشاعر، وهي رؤية نراها تتسع قليلا عند شاعر آخر ليعبر من خلالها عن حالة مماثلة يكتنفها التمزق والتفسخ النفسي، إذ يقول :

" في وطني

عبر دوائر ترحالي والتبض المسفوق
المتهادي في أغنية الدم ... وأمواج الليل الجائع
الأمح ومضات حاملة تتجمع في ملكي
تتدلى

توقظ أجراسا

يهمس طيفك أن أجمع أنفاسي المنثورة
فوق شتات الشفق الغارب" . (٢٩)

ثم تتبلور الحالة القاسية التي تسيطر على شاعر آخر، فتغمره بشعور
الضياع والتشتت والفناء، فيقول:

" مازق

من الجمع أخرج ملتصقا بالجدار

ألملم جنبي حولي

و أبطن في الصمت

أخفي اختلاقي حتى كآني

سأبصق قلبي

ستقفز عيناوي

مما أهدق في الأفق دون انتظار" . (٣٠)

وفي الإطار ذاته يتجسد الموت رمزا للضياع وتمزق الحالة النفسية للإنسان
للواقع، ويبدو هذا للواقع ذاته عنصر ضغط وقساوة ومساوية. يقول شاعر ضمن
هذه الدائرة :

" يا أيها القمر المسافر في دهاليز الرهان

سقط الحصان

وتمددت فوق الرصيف صبية

تجتر ما قام الزمان". (١١)

إن الشعر ضمن هذا الإطار يصبح عند بعض الشعراء مادة طيبة، لغة وفكرة ودلالة للتعبير عن مكنون النفس، والحالة التي يتعامل من خلالها المبدع مع واقعه المعيش. أحد الباحثين يقول بهذا الصدد:

" ولكي يوصل الأديب فكرته وشعوره يستخدم اللغة المتداولة التي يتعامل بها للناس، ويضيف على المادة اللغوية الخام صوراً فنية شخصية وذاتية، فهو في صراع مع اللغة التي تتجدد مثل الكائن الحي، وفي صراع مع الناس، ويتحرر بشكل معقول من قيود اللغة، إلى جانب التفاعل بين اللغة القوية ولغات البيئة المحيطة وما حدث من تقارب". (١٢)

في حين يذهب باحث آخر بالقول تبياناً للبعد نفسه المتعلق بطريقة التعامل مع الواقع لغة ودلالة، وإعادة صياغة:

" إن جلال الفن الحق، إنما يكمن في إعادة اكتشاف الواقع والسيطرة عليه مرة أخرى، ووضعه أمام أعيننا، هذا الواقع الذي نعيش بعيداً عنه، والذي تزداد عزلة عنه كلما زادت المعرفة الشكلية التي نجعلها بدلاً له كثافة وصلابة، ذلك الواقع الذي يمكن أن نموت دون إدراكه أبداً". (١٣)

ولكن لنعد إلى محور اهتمامنا في هذه الدراسة، وهو التركيز على بعض من نماذج شعرية حديثة، تبدو أقرب إلى الخروج بعيداً عن دائرة المعقول والمنطقي، لغة وتصويراً ودلالة، ولعلنا أن نلمس هذا في طرح بعض الشعراء فكرة الدلالة الرمزية في معالجة موضوع الموت في القصيدة، وهو الموت الذي أشرنا إلى اتساع دائرة رمزيته من قبل ويبدو هذا الخروج أو الانفصال عن منطقية الطرح ولغته ناجماً في حقيقة الأمر عن عجز الشاعر - أي شاعر - في تحقيق التوازن المنشود بين عالمه الخاص، بكل ما يعتم داخله، وما يعانيه على الصعيد الفردي، وبين الواقع الذي يحياه ومن ثم فقدان هذا الشاعر قدرته على التكيف وإحداث الاستقرار النفسي المنشود، ولعل مقولة أحد الباحثين في هذا الصدد أن

تبين عن بعض جوانب القضية. يقول الباحث :

"لا يوجد وضع مستمر ودائم في مجال الشعر، بل هناك تبادل للوضوح والغموض ، ولهذا التبادل دلالة الدينامية في الإبداع، وتعد القصيدة التي يبدعها الشاعر امتدادا لتجربة خصبه في تاريخه، تجربة خلقت فيه مؤثرات توفر لنا أساسا نحو استقرار جديد". (٤٤)

ولعل فئة عريضة من الشعراء في الأدب العربي الحديث قد نجحوا، لغة وتصويرا وفكرا ودلالة، في تجسيد هذا الجانب بشكل واضح ومباشر، في حين أخفق كثيرون في تحقيق المستهدف، ولناخذ نموذجا لشاعر في الإطار الأول إذ يقول :

" أخبرنا الرعاة في جبالنا

عن جزر يغمرها المطر

يغمرها الفمام... والخزلم... والمطر

عن جزر يسكنها الحضر

بها، بمنل لونها، الغريب يحلم

الكبار في الصغر " . (٤٥)

وشاعر آخر يقول :

ء تـلفنا سحب الضباب

ن على المدى مثل الكلاب

لا أهل فيها لأصحاب

وجها سوى وجه الغراب" (٤٦)

" إني ولنت _ أبا الحيا

ونحن أنا ضائعو

هذي الوجوه هجينة

ما عدت أعرف بينهم

بينما نقرأ في الإطار الثاني، وضمن ما نتناوله هذه الورقة، نماذج شعرية متعددة بدت لغتها مغلقة على الذات، لا تنفك من إسارها وذاتيتها وتجربتها الخاصة بكل ما يكتنفها من غموض وإيهام، فبقيت هذه اللغة، وتلك التجربة بعامة متحركة في قوالب جامدة محصورة في أطر يصعب فك رموزها. يقول أحد الشعراء :

" أراهم يطبخون الإسفلت، يفلشونه

فوق حفرة من خصل الشعر، وأرواح الأصدقاء

إنهم يقطبون شرايين الكهرباء

ويضمنون القساطل

ينظفون الحدائق من الرصاص الفارغ

ينلون رؤوس البنايات المنقوية من الخلف". (١٧)

في حين يقول آخر :

" إنه الشبح ... !!

يرتمي ...

بلوث أرجله بفضاء التاريخ الشارد

بيكي العنب الناضج في شتاء الأقبية زورا ... !!

يعلنه فينا زائد...!

يعانق مستنقعات الهيبة

ويترك شراعه بين جماعة الحجارة لللاهثة،

وشما... مثلاً... علاقة

هلعاً... شبحاً... ندامة". (١٨)

وإذا كانت الحالة النفسية الصاخبة الضاغطة هي التي تدفع للتعبير بمثل هذه اللغة، فتبدو أقرب إلى تفكيك العلاقات المنطقية أو الأقرب إلى المنطق في صياغتها، ودلالاتها، وصورها، وفكرها، فإن مثل هذه الحالة لا يمكن أن تكون مبرراً للتوقع داخل إيسار الذات عند الشاعر، ومن ثم دعوة المتلقي للتحرك ضمن هذا الإيسار فحسب، فالأثر الأدبي هو فضاء متسع للتقريب في العلاقة، بل للتوحد، بين المبدع والمتلقي، وفتح قنوات التأثير الوجداني، ومن ثم التأثير بينهما بشكل مباشر مما يقتضي فيها المتلقي بإعمال فكره عن مكنون القصيدة الشعرية وبالتالي تلمس دلالات لغتها، ورموز صورها ومعانيها المستهدفة .

هوامش البحث

- ١- الإبداع العام والخاص. ألكسندر روشكا. ترجمة د. محسان عبد الحي أبو فخر. عالم المعرفة. الكويت. ط١ ١٩٨٩ م. ص ٣٢
- ٢- تعريف جيلفورد. (الإبداع العام والخاص. ألكسندر روشكا. المرجع السابق) ص ٣٣
- ٣- المرجع السابق. ص ٣٣
- ٤- المرجع السابق. ص ٤٥
- ٥- المرجع السابق. ص ٥٢
- ٦- المرجع السابق. ص ٧٨
- ٧- الإبداع والتوتر النفسي. د. ملوى سامي الملايدار المعروف. القاهرة. ط١ ١٩٧٢ م. ص ٢٢
- ٨- الإبداع العلم والخاص. ألكسندر روشكا. مرجع سابق. ص ٨١
- ٩- ترجم الجزء الأول من هذا الكتاب مصطفى صفوان بعنوان (علم ظهور العقل). بيروت. دار الطليعة. ط١ ١٩٨١ م.
- ١٠- معجم علم النفس والتحليل النفسي. د. حسين عبد القادر وآخرون. دار النهضة العربية. بيروت. ط١ ب. ت. ص ٥٩
- ١١- المرجع السابق. ص ٥٩
- ١٢- قيثارة الأحلام. هشام عبد الحميد مصطفى. دار الثقافة. الدوحة. ط١ ١٩٩٢ م. ص ١٢٨
- ١٣- أصدقاء حمدة خميس. الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب. عمان. الأردن. ط١ ١٩٩٤ م. ص ٣٠
- ١٤- كتاب الحصار. أنونيس. دار الآداب. بيروت. ط١ ١٩٨٥ م. ص ٣٣
- ١٥- لحظة المكاشفة الشعرية. محمد لطفي اليوسفي. بيروت. ط١ ب. ت. ص ٢٤٧
- ١٦- الريبقان. ميسون صقر. لندن. ط١ ١٩٩٢ م. ص ١٢
- ١٧- حقول الصمت. سالم الخياط. دار العودة. بيروت. ط١ ١٩٧٢ م. ص ٤٤
- ١٨- الأرض يحرق ثوبه. راتب حمود نصر الله. دمشق. ط١ ١٩٨٦ م. ص ٩٤
- ١٩- بصمات على الرمال. د. شهاب شاتم. دبي. ط١ ب. ت. ص ٧٧
- ٢٠- قراءة في وجه حبيبي. يوسف رحال. جدة. ط١ ١٣٩٩ هـ. ص ٦١
- ٢١- قصائد من الإمارات. حبيب الصليخ. دبي. ط١ ١٩٨٦ م. ص ٣٥
- ٢٢- الإبداع الشعري من المنظور النفسي. د. نصر عباس. دبي. ط١ ١٩٩٨ م. ص ٢٣
- ٢٣- قصائد من الإمارات. ثاني السويدي. دبي. ط١ ١٩٨٦ م. ص ٢٨
- ٢٤- المرجع السابق. ص ١٠٧
- ٢٥- مقالات في الطب والأدب. د. الزين عمارة. أبوظبي. ط١ ١٩٨٩ م. ص ٦٢
- ٢٦- المرجع السابق. ص ٦٣
- ٢٧- الإبداع العام والخاص. ألكسندر روشكا. مرجع سابق ص ٨٦
- ٢٨- المرجع السابق. ص ٨٦
- ٢٩- الإبداع الشعري من المنظور النفسي. د. نصر عباس. مرجع سابق ص ٢٦
- ٣٠- هنت لك. فاروق شوشة. مكتبة غريب. القاهرة. ط١ ١٩٩٢ م. ص ٦٠
- ٣١- المرجع السابق. ص ٦٤
- ٣٢- قرآن الموت والياسمين. سميح القاسم. بيروت. ط١ ١٩٧٢ م. ص ١٦
- ٣٣- قصائد من الإمارات. شعر محمد بن حاصر. مرجع سابق ص ٥٩
- ٣٤- الريبقان. ميسون صقر. لندن. ط١ ١٩٩٢ م. ص ١٢
- ٣٥- كولاج. سميح القاسم. دار الحولاء. دمشق. ط١ ١٩٨٤ م. ص ١٤، ص ١٥
- ٣٦- أغاني البحار الأربعة. عبد الرحمن رفيع. البحرين. ط١ ١٩٩٤ م. ص ٢

- ٣٧ - قصائد من الإمارات . شعر حبيب الصايغ . مرجع سابق ص ٢٥
٣٨ - المرجع السابق . شعر ناصر النعيمي . ص ٦٧
٣٩ - المرجع السابق . شعر جمعة الفيروز . ص ٩٢
٤٠ - صحيفة البيان . شعر مؤيد الشيباني . دبي . ١٩٨٩ م
٤١ - يقول الدم العربي . فاروق شوشة . مكتبة غريب . القاهرة . ط ٢ ١٩٩٢ م ص ٢٩
٤٢ - رؤية النص الإبداعي بين الداخل والخارج . د. يوسف نوفل . دار النهضة العربية . القاهرة . ط ١ ١٩٨٤ م ص ٣١
٤٣ - الرؤية الإبداعية . بيروت . سلسلة الألف كتاب . القاهرة . ط ١ ١٩٦٦ م ص ١٠٤ - ١٠٥
٤٤ - الإبداع والمرض العقلي . د. صفوت فرج . دار المعارف . القاهرة . ط ١ ١٩٨٣ م ص ٥٠
٤٥ - في خيمة شاعر (٢) . د. غازي القصيبي . دار الريس . لندن . ط ١ ١٩٩٢ م ص ٧٠
٤٦ - فارس الأحلام القديمة . د. ولود قصاص . دار الثقافة . الدوحة . ط ١ ١٩٩٠ م ص ٥٨
٤٧ - خذ الكتاب بقوة . يحيى جابر . دار رياض الريس . لندن . ط ١ ١٩٩٤ م ص ٦٤
٤٨ - إيقاع الجثث . نزار سلوم . دار رياض الريس . لندن . ط ١ ب . ت ص ٢٧

--

من المنظور النفسي في الإبداع

د. نصر عباس

التاريخ
والآثار
المصرية
والإسلامية

کردستان العراق :

"علاقات العشائر بالسلطة ١٩٠٨ - ١٩١٤"

د. خالد السعدون

كلية الآداب والعلوم - جامعة الشارقة

جمهورية العراق
الجمهورية العراقية
الجمهورية العراقية

استقطبت القضية الكردية في السنتين الأخيرة اهتماما كبيرا على المستويين الإقليمي والعالمي. فصدرت عنها كتابات عديدة ركزت على تطوراتها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى بعد انحسار ظل الدولة العثمانية عن المنطقة. ولكن الحقبة السابقة لنشوب تلك الحرب لم تحظ باهتمام مماثل على الرغم من كونها شهدت ظهور بدايات الشعور القومي بين شعوب المنطقة من ترك وعرب وآرمن. لذا غدا من اللازم تفحص المآل من أخبار الكرد خلال تلك الحقبة للبحث عن مدى مماثلتهم لجيرانهم في هذا الصدد. ولقد كان قيام انقلاب تموز- يوليو ١٩٠٨ في إسطنبول هو الفاصل بين عهدين في تاريخ المنطقة كلها ومن ضمنها كردستان العراق، حيث تدافعت بعده أحداثها وسلكت مسارات متعددة. فيصح لذلك اتخاذ نقطة بدء للبحث والتتبع حتى قيام العرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ التي شغلت أحداثها أبناء المنطقة وصرفتهم عن كثير من اهتماماتهم الأخرى .

ترددت بعد قيام ذلك الانقلاب روايات خارج العراق عن حدوث عمليات حربية في كردستان العراق. وبلغت تلك الروايات مسمع القنصل الأمريكي العام في بيروت فكتب إلى القنصل الأمريكي في بغداد في تشرين الأول - أكتوبر ١٩٠٨ طالبا موافاته بما لديه من أخبار عن تلك العمليات.^(١) كما أرسل الطلب نفسه إلى القنصل الأمريكي في حلب الذي رد بالقول أن ما تردد من أخبار ثورة الأكراد لا أساس له من الصحة إلى حد كبير. ونقل القنصل العام فحوى ذلك الرد إلى السفير الأمريكي في إسطنبول مرجحا أن تكون الأخبار المتداولة من تلفيق "الرجعيين الترك" ومشايخهم العاملين في الصحافة العثمانية والأوربية بهدف الكيد للنظام الجديد. ومضى القنصل العام في تعليقه قائلا: "من الطبيعي أن يبدل الرجعيون دون ريب كل ما في وسعهم لإضعاف الثقة بالنظام الجديد. وهم في وضع يمكنهم من تعريض الحكومة لإزعاج وإرباك كبيرين ، خاصة في المقاطعات النائية التي يتعذر الوصول إليها. ومع ذلك فإن الأغلبية الساحقة من

عامة الناس، مثلها مثل الجيش، راسخة في تأييدها للنظام الجديد وما لم تستنزف تعقيدات جديدة مع الدول الأجنبية طاقات الحكومة فإن مكائد الرجعيين الترك ستذهب أدراج الرياح" وأعرب القنصل العام في الختام عن يقينه بأن الأكراد، كالعرب، سوف يواصلون حروبهم وغزواتهم فيما بينهم لعدة سنوات قائمة ضاربين صفحا عن "النعم" الدستورية التي ليس لديهم إدراك سليم لمعناها وآثارها. ولكن القنصل العام لم يستبعد مع ذلك نشوء محاولات بين الأكراد للمطالبة بحكم ذاتي في كردستان.^(٦) ويتضح من هذا النص أن كردستان أخذت تستلقت أنظار الدول الأجنبية منذئذ.

ولم يخب توقع القنصل العام ذلك حيث بدأ بعض متتوري الكرد المقيمين في إسطنبول القيام ببعض الأنشطة السياسية مستفيدين من جو الحرية النسبية الذي ساد بعد قيام الانقلاب. فأسسوا أول جمعية كردية هناك هي جمعية "تعالی و ترقی الكرد".^(٧) وكانت صحيفة "هه تاوی کورد" [أي شمس الكرد] لسان حال تلك الجمعية.^(٨) كما أسس الكرد جمعية أخرى هي جمعية "التشكيلات الاجتماعية الكردستانية" وجمعية أدبية تربوية باسم "جمعية نشر المعارف الكردية". وأنشأت إلى جوار تلك الجمعيات العلنية جمعية سرية إسمها "جمعية تعالی كردستان"، وهدفها السعي من أجل إقامة دولة كردية مستقلة.^(٩) وقد أغلقت السلطات الاتحادية سنة ١٩٠٩ كل تلك الجمعيات الكردية العاملة في إسطنبول.^(١٠) ولكن مجموعة من الناشطين الكرد في إسطنبول أسست في سنة ١٩١٠ جمعية أخرى هي جمعية "هيفي" التي عُدت أكثر الجمعيات الكردية نشاطا في تلك الحقبة.^(١١) وقد أصدرت هذه الجمعية صحيفة ناطقة باسمها هي "روزا کورد" [أي يوم الكرد].^(١٢)

وتتسم المعلومات التي توردها المراجع الكردية عن تلك الجمعيات بقدر كبير من التعميم وعدم الدقة، فلا تذكر شيئا محددا عن برامجها وأنشطتها، ولا

يستدل منها ما يفيد بامتداد فعاليتها الى ساحة كردستان العراق. ويلقي ذلك ظلالا من الشك على ما رواه أحد الباحثين عن إنتشار فكرة الإصلاح السياسي بين معظم أكراد العراق حينئذ.^(٩) ويعزز ذلك الشك أن الوثائق القنصلية الأجنبية المعاصرة التي كانت ترصد مسارات الأحداث في المنطقة لم تسجل أي تحرك ذي طابع سياسي بين أكراد العراق خلال السنوات القليلة التي أعقبت قيام إنقلاب سنة ١٩٠٨. فأول إشارة وردت فيها لشي من هذا القبيل جاءت في الخلاصة التي أعدها القنصل العام البريطاني في بغداد لأهم الأحداث التي جرت خلال شهر نيسان- أبريل ١٩١٢. فقد ذكر أن حركة تسعى من أجل الحصول على إستقلال ذاتي كردي تأسست على يدي حسين باشا آل بدرخان وهو من منطقة الجزيرة [عله بقصد جزيرة ابن عمر شمال الموصل] يعاونه سيد طاهر وعبدالرزاق بك.^(١٠) وأضاف القنصل العام القول أن نقل مكتوبجي [مدير تحرير] ولاية الموصل، وهو أخو حسين باشا، إلى متصرفية تعز في اليمن يحتمل أن يكون ذا علاقة بذلك التطور. ولكنه نقل عن نائب القنصل البريطاني في الموصل توقعه عدم حدوث أي تطور كبير في الحركة السياسية الكردية. وأيد القنصل العام ذلك التوقع على ضوء معرفته ببعض زعماء العشائر الكردية وما لمسهم لديهم من أفكار سياسية.^(١١)

وعادت الوثائق القنصلية المتاحة بعدها للمكوث عن أمر تلك الحركة والمال الذي إنتهت إليه. ولكن خلاصة أخرى أعدها القنصل العام البريطاني في بغداد عن أحداث الشهرين الأخيرين من تلك السنة والشهر الأول من سنة ١٩١٤ أشارت إلى خبر قد يكون ذا علاقة بتلك الحركة. ويفيد ذلك الخبر بأن والي الموصل أمر باعتقال النقيب المتقاعد عبدالله أفندي جيناباز Jinabaz بعد أن أسفر تفتيش منزله عن العثور على أوراق تدل على "الخيانة" وقد حوكم المتهم بعدها وحكم عليه بالإعدام ثم سبق تحت الحراسة إلى إسطنبول. ومضى القنصل

العام للقول أن عبدالله أفندي صديق للمقدم صفوت بك الذي رتب التسوية بين والي بغداد حسين ناظم باشا وشيخ عشيرة بارزان الكردية سنة ١٩١١. وحين أصبح ناظم باشا وزيراً للحربية فيما بعد عين صفوت بك قائداً لإحدى الوحدات العسكرية في إسطنبول. وقد حكم على صفوت بك بالإعدام بعد اغتيال محمود شوكت باشا الصدر الأعظم في حزيران- يونيو سنة ١٩١٢، ولكنه تمكن من الهرب إلى كردستان حيث إختبأ في ولاية الموصل أو في جوارها. وقد أصدرت الحكومة المركزية أمراً إلى والي الموصل يقضي بضرورة إعتقاله. وخصص الوالي مكافأة مقدارها مائتا ليرة لمن يدلي بمعلومات تؤدي للقبض عليه.^(١٢)

ويدل عدم ورود أخبار أخرى ذات طبيعة سياسية في الوثائق المتاحة على ضيق نطاق الحركة السياسية الكردية واقتصارها على نفر من المتتورين من سكان الحواضر. ولا ريب أن ذلك عائد إلى تدني الوعي السياسي لدى لأكثرية الأكراد حينئذ وغلبة المشاعر الدينية لا القومية على نفوسهم، فضلاً عن سيادة الطابع العشائري على المجتمع الكردي. وقد لاحظ أحد الباحثين بحق أن التعاون بين رؤساء العشائر الكردية كان ضعيفاً أو منعماً بصورة عامة لأن أغلبهم كان يتمسك بمصالحه الشخصية ويسير في طريقه الخاص غير معني بدعوات الزعماء الوطنيين. وذلك ذلك الباحث على سلامة رأيه بالقول إن أغلب تحركات الأكراد المعارضة للسلطة أخدمت بمعاونة رؤساء أكراد آخرين إلترموا جانب الحكومة العثمانية. وأضاف أن الرؤساء الأكراد الذين كانت تحركهم دوافع وطنية يعدون قلة إذا قورنوا بأولئك الذين كانت دوافعهم المصلحية هي التي تجعلهم يناهضون السلطة الحكومية تجنبا لدفع الضرائب أو تهربا من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية.^(١٣)

ولم تخل الأيام الأخيرة من المدة قيد البحث من ظهور دلائل على تبلور توجه نحو العمل الجماعي ذي الطابع السياسي بين العشائر الكردية. ولكن الذين

تصدوا لقيادة ذلك التوجه لم يكونوا الشيوخ التقليديين بل بعض المتعلمين من أبناء تلك العشائر. فقد روى القنصل العام البريطاني في بغداد في خلاصته لأحداث شهر نيسان - أبريل ١٩١٤ أن عشيرة الهماوند بقيادة ضابطي درك سابقين من أبنائها هما محمد خضر وتوفيق بك ضمت صفوفها إلى عشيرة الجاف وعشيرة دزدی [Duzdi] الأرجح أنه يقصد عشيرة دزه في المعروفة] وأخذت تطالب السلطات الحكومية بإجراء إصلاحات فعالة خلال وقت سريع وبعبء فاتها استدعو الروس للتقدم إلى ديارها للقيام بتلك الإصلاحات. وأضاف القنصل العام معلومة أخرى تفيد بأن الضباط الأكراد العاملين في فيلق الجيش العثماني الثاني عشر [فيلق ولاية الموصل] كانوا ساخطين نتيجة مقتل أبناء عشائهم على أيدي القوات الحكومية. ونقل عن بعض الضباط إعتقادهم بأن صفوت بك، الضابط الهارب، كان يحرض العشائر الكردية ضد السلطة.^(١٤) ويلاحظ على ما مر ذكره من تهديد العشائر الكردية باللجوء إلى الروس إدراكها منذ ذلك الوقت المبكر لتناقضات مصالح الدول الأجنبية وإمكانية توظيف تلك التناقضات لخدمة مطالبها المحلية. وهي لعبة مورست كثيرا فيما بعد.

وإذا كانت منطقة كردستان العراق قد خلت في غضون ذلك الوقت من حركة سياسية ذات طابع قومي عام، فإنها عجت بصدامات دموية كثيرة متعددة الأسباب والأشكال. جرى بعضها بين العشائر والقوات الحكومية وجرى البعض الآخر بين العشائر ذاتها. ويتطلب الأمر استعراض أهم تلك الأحداث لتشكيل صورة لملامح كردستان العراق حينئذ.

حائثة مقتل الشيخ سعيد البرزنجي

تمتع الشيخ سعيد البرزنجي بمكانة كبيرة بين أبناء العشائر الكردية باعتباره "وليا" ذا قدرة على شفاء المرضى. فأخذوا يقدون عليه للنفور والهدايا حتى تكسبت لديه ثروة طائلة.^(١٥) كما اكتسبته مكانته الدينية تلك نفوذا سياسيا كبيرا

جعلته على صلة مباشرة بالسلطان عبدالحميد الثاني. واستغل نفوذه ذلك لفرض الأتوات والاستحواذ على ما يطيب له من الأراضي. فكثر لذلك حساده وأعداؤه. وحين قام انقلاب ١٩٠٨ أوفتحت فروع لحزب جمعية الاتحاد والترقي في مدن الولايات العثمانية ناصب قيادير فرع السليمانية الشيخ سعيد العداة وأكثروا من الشغب عليه.^(١٦) ويبدو أنه قابل عداءهم بموقف متحدي، إذ روى القنصل الأمريكي في بغداد أن جمعية الاتحاد والترقي ضاقت ذرعا بـ "مكائد" الشيخ، فقامت بنفيه إلى مدينة الموصل.^(١٧) ولم يوضح القنصل طبيعة تلك المكائد. ولكن أحد الباحثين أشار إلى احتمال وجود رغبة مشتركة بين الشيخ والسلطان عبد الحميد الثاني قبل عزله للعمل معا ضد الجمعية. وفسر وجود الشيخ في الموصل باعتباره مرورا في الطريق إلى إسطنبول لتلبية دعوة تلقاها من السلطان.^(١٨) ولا تستبعد إمكانية ميل السلطان للاستفادة من نفوذ الشيخ في محاربة خصومه من الإتحاديين، ولكن سياق الأحداث يؤكد أن حلول الشيخ بمدينة الموصل كان بهدف الاستقرار لا المرور.

وما كاد الشيخ يستقر في الموصل حتى أخذ كثير من أبناء المنطقة الريفية المجاورة يتقاطرون عليه لنيل بركته، وحدث أن جاء لزيارته حشد كبير من أكراد القرى المجاورة في اليوم الثاني من أيام عيد الأضحى لسنة ١٣٢٦ هجرية [١٤ كانون الثاني-يناير ١٩٠٩].^(١٩) وكان عدد كبير من أهالي مدينة الموصل خلال ذلك يحتفلون بالعيد خارج أسوار مدينتهم. فحصل إحتكاك بينهم وبين أولئك الأكراد الزائرين.^(٢٠) وتطور ذلك الإحتكاك إلى صدام دموي راح ضحيته عدد من القتلى والجرحى في صفوف الجانبين. واضطرت سلطات الولاية لإرسال عدد من الجند إلى ساحة الصدام للسيطرة على الوضع. ولكن وصولهم هناك زاد الطين بلة حيث إنضم الجند الأكراد إلى بني قومهم وكذلك فعل الجند العرب، بينما وقف ضباطهم على الحياد. وأعتب ذلك نشوب معركة بين الجانبين أسفرت

عن ما بين ستين وسبعين قتيلًا. ونهب أثناء الصدامات كثير من بيوت المدينة ثم أحرقت. وكان من جملة ضحايا الصدامات الشيخ سعيد نفسه^(٢١) وجاء مقتل الشيخ حين استدعاه اللواء إلى التكنة العسكرية، ولكن الجند الموجودين داخلها أغلقوا الباب بوجهه عند وصوله. وأتاح ذلك الفرصة للناس المتجمهرين خارج التكنة للفتك به. وقتل الأهالي الهانجون بعد ذلك بعض أهله وأنصاره كما إقتحموا داره ونهبوها^(٢٢).

وعندما وصلت أخبار تلك المذبحة إلى السلطات العليا في إسطنبول أمرت قائد فيلق الجيش السادس محمد فاضل باشا الداغستاني، وكان وكيلًا لوالي بغداد حينئذ، بالتوجه إلى مدينة الموصل للسيطرة على الوضع وتوفير الأمن. فطلب الداغستاني إستعارة سيارة نائب القنصل الأمريكي في بغداد كي نقله إلى الموصل. وعلى الرغم من إستجابة نائب القنصل للطلب، إلا أن السفارة لم تتم بسبب مرض سائق السيارة، مما اضطر الداغستاني للبقاء في بغداد. وفي غضون ذلك كانت قوات حكومية قد أرسلت من مدينتي السليمانية وعانة وتمركزت في نقاط قريبة يسهل منها الوصول إلى مدينة الموصل^(٢٣). ولا يبدو المبرر الذي أورده تقرير القنصلية الأمريكية بعدم سفر الداغستاني مقنعًا، إذ كان بإمكانه السفر بوسيلة أخرى حين تعذر عليه السفر بالسيارة الوحيدة التي كانت متاحة في بغداد حينئذ. ولعل الرجل اتخذ ذلك الأمر ذريعة لتجنب الخوض شخصيًا في تلك القضية وهو المعروف بعلاقاته القوية بالوجهاء العرب والاكرد معا.

ومهما كان سبب تلكو الداغستاني في تنفيذ أمر الحكومة المركزية بالتوجه إلى مدينة الموصل فإن سلطات الولاية هناك نجحت في إحتواء الموقف المتأزم. وحاولت إمتصاص النقرة في نفوس الاكرد، فالتقت القبض على الشخص المتهم بقتل الشيخ سعيد وأحالته إلى المحاكمة. ولكنها تماهلت في إتمام إجراءات المحاكمة. فقد روى نائب القنصل البريطاني في الموصل في أوائل شهر

حزيران- يونيو ١٩١٠ أن تلك المحاكمة كانت مستمرة.^(٢٤) ولم تنته قضية مقتل الشيخ سعيد عند هذا الحد، بل تركت وراءها أثرا عميقة في منطقة كردستان. فقد حقد الشيخ محمود ابن الشيخ القليل على السلطات العثمانية، وأخذ يحرض العشائر الكردية على التمرد ضدها. كما إستشرت روح العداة بين سكان لواء الموصل والسليمانية حتى تعذر السفر بينهما، وانقطعت الصلات التجارية لفترة طويلة لخوف التجار والمسافرين من التعرض للأعمال الانتقامية.^(٢٥)

مشكلة عشيرة الهملوند

كان أحد أسباب هذه المشكلة متصلا بنبول حادث مقتل الشيخ سعيد المار الذكر. إذ إن ابنه الأكبر محمود غادر مدينة الموصل بعد الحادث وحط رحاله بين ظهرائي عشيرة الهماوند التي رحبت به والتقت من حوله وأصغت لتعريضاته ضد السلطات الحكومية.^(٢٦) فرفعت تلك العشيرة راية الحرب مطالبة بالثأر من قتلة الشيخ سعيد.^(٢٧) أوجرها ذلك لصدامات مع القوات الحكومية إلى أن تم الوصول إلى تسوية بينها وبين السلطات الحكومية في الشهور الأولى من سنة ١٩١٠. ولا تورد المراجع المتاحة شيئا عن مضمون تلك التسوية، ولكنها تذكر إنها أدت إلى سخط سكان الموصل. إذ رفعوا شكاواهم إلى سلطات الولاية وإلى الحكومة المركزية في إسطنبول ضد ما اعتبروه تساهلا من الحكومة مع تلك العشيرة. ويبدو أن تلك الشكاوى وجدت أذنا صاغية لدى السلطات دفعتها لإنتهاج أسلوب متشدد ضد الهماوند. فقد قامت سلطات ولاية الموصل في الثاني عشر من نيسان - أبريل ١٩١٠ بإعتقال ثلاثين من الهماوند وصلوا للمدينة بهدف إعلان خضوعهم للدولة، ووضعهم رهن التوقيف. وسبق المعتقلون بعد أسبوع تحت الحراسة إلى مدينة السليمانية لإجراء محاكمتهم هناك بتهمة الاشتراك في الإضطرابات التي كانت عشيرتهم تقوم بها. وقد إستقر ذلك الإجراء عشيرة الهماوند لاسيما أن الاعتقال شمل عوائل المعتقلين من النساء والأطفال، فسعت

للإنتقام من السلطات الحكومية. وجاء إنتقامها على شكل غارات على الطرق الممتدة بين حواضر كردستان، تتم على أيدي زمر من أبناء العشيرة التي كانت تحتمي داخل الأراضي الفارسية. واضفى ذلك الاحتماء على المشكلة بعدا دوليا. وزاد من تعقيدها أن العشائر الأخرى القاطنة حول مدينتي كركوك والسليمانية اهتبلت للفرصة وأخذت تنسف غارات على الطرق العامة مطمئنة إلى أن أي جريمة ترتكب هناك سوف تلقى مسؤوليتها على عشيرة الهماوند المتمردة.^(٢٨)

وقد ازدادت غارات الهماوند حدة بمرور الوقت ، حيث عبرت الحدود في غضون شهر نيسان- ابريل ١٩١٠ زمرتان منهم ولخذا تقومان بأعمال السلب والنهب. ووصلت أخبار تلك الغارات إلى كركوك في الرابع والعشرين من الشهر المذكور وهي تفيد بنهب بعض الماشية على الطريق بين كركوك والسليمانية. كما أفادت عن هجوم تعرضت له قافلة ضخمة في دربند على الطريق نفسه، حيث نجح المغيرون في الإستيلاء عليها مع أنها كانت تحت الحماية الحكومية. وحركت تلك الأخبار السلطات الحكومية فأرسلت على الفور قوة إلى موقع الحادثة. ولكن تلك القوة وقعت في كمين نصبه لها الهماوند، فتمكنوا من قتل أربعة من أفرادها وأسروا عشرين آخرين، كما قتلوا أربعة من المسافرين المدنيين الذين كانوا يسيرون بمعية تلك القوة طلبا للأمان. وفي الثلاثين من الشهر نفسه هوجمت قافلة كبيرة متجهة من بغداد إلى الأراضي الفارسية، ونهبت الأموال التي كانت تحملها بين قريتي قزلباط وخانقين، ونسب ذلك الهجوم إلى الهماوند. وترتب على ذلك كله أن السلطات غدت مضطرة لإرسال حماية كبيرة من الفرسان مع البريد الأسبوعي بين بغداد والموصل وبالعكس لمرافقته أثناء مروره في المنطقة الواقعة بين الصلاحية [كفري] وكركوك.^(٢٩)

وواصل الهماوند بعدها غاراتهم ، فشنوا في منتصف مايس- مايو ١٩١٠

هجوماً على قافلة في طريق كركوك-السليمانية، فاستولوا عليها بعد قتل أربعة من الدرك المراقبين لها. وأسروا أثناء تلك الغارة السيد عبد الله مستطوق^(٢٠) السليمانية السابق الذي كان مسافراً مع تلك القافلة. ولجأ متصرف لواء كركوك من أجل مواجهة الموقف إلى وسيلة مألوفة لدى الإدارة العثمانية وهي استعلاء العشائر على بعضها البعض. فجمع ثلاثمائة رجل من العشائر الموالية للحكومة وسلاحهم وألبسهم ملابس الدرك، ووضعهم تحت قيادة شيوخ عشائريهم بعد منحهم رتباً عسكرية. ومن جانب آخر أمر والي بغداد حسين ناظم باشا قائد القوات في الموصل بإرسال أكبر عدد ممكن من القوات إلى كركوك للإيقاء على طرق المواصلات مفتوحة. فغادر الموصل في وقت مبكر من حزيران- يونيو مائتان وثمانون جندياً من الخيالة متوجهين إلى كركوك. وتوجه أيضاً أربعون من الدرك إلى قرية بازيان لمطاردة قاطعي الطرق من الهماوند. كما أن السلطات أعلنت الأحكام العرفية في السليمانية حتى تحكم قبضتها على الوضع. ولم تثبط كل تلك الخطوات من عزيمته الهماوند، فشنوا خلال ذلك الشهر غارات على بعض القرى فدمروها وأحرقوا محاصيلها الزراعية. ووصلت بعدها أنباء إلى الموصل تنيد بأنهم يحاصرون بلدة جمجمال. لذا فإن تجار السليمانية طلبوا من وكلائهم في بغداد عدم إرسال أية شحنات من البضائع لهم، على الرغم من أن والي بغداد أعلن أن الإجراءات الحكومية التي اتخذت كانت كافية لتأمين سلامة الطرق. وفي غضون ذلك أخذ المجلس العرفي في السليمانية يقوم بمهامه موقعا العقوبات الشديدة ببعض المتمردين.^(٢١)

ولم يفت حشد القوات ولا تنفيذ الأحكام العرفية في عضم الهماوند، بل زادهم جراً في غاراتهم حتى أنهم اقتحموا مدينة السليمانية ذاتها وعاثوا فساداً في أحيائها وخاصة الحي اليهودي. ويبدو أن ذلك التطور الخطير أقتنع للسلطات الحكومية بعدم جدوى الركون إلى الإجراءات العقابية، فالت إلى التفاوض مع

الهماوند. إذ اقترح الضابط الكردي صفوت بك على حسين ناظم باشا والي بغداد، وكان مقرباً منه كما مر، بنود تسوية سلمية مع الهماوند، فقبل الوالي بها شريطة حضور شيوخهم إلى بغداد وإعلان ولائهم للحكومة. وكان الوالي قبيل هذا يعتزم التوجه إلى الموصل لعلاج مشكلة الهماوند شخصياً، ولكن التقارير التي أرسلها له صفوت بك من كردستان حيث أوفد إليها جعلته يتراجع عن عزمه على أمل حضور شيوخ الهماوند إلى بغداد.^(٣٢) ويدل ذلك الخبر على مدى اهتمام السلطات العثمانية بمشكلة الهماوند لتأثيرها المباشر على سلامة طرق المواصلات الحيوية التي تربط بغداد بكرمستان وبدولة فارس. وقد نجحت تلك السلطات في عقد تسوية مع الهماوند وأمنت بذلك سلامة تلك الطرق.^(٣٣) ولم تذكر المراجع المتاحة شيئاً عن مضامين تلك التسوية.

ومهما تكن طبيعة تلك المضامين، فإنها أدت إلى تحسن مطرد في العلاقة بين السلطات الحكومية وعشيرة الهماوند وصل إلى حد التعاون الميداني. فقد ذكر نائب القنصل البريطاني في الموصل في أواسط أيار - مايو ١٩١٢ أن حوالي ألفي كردي من عشائر الهماوند والجاف ودرزي انضموا إلى سرايا الحدود العثمانية.^(٣٤) ولكن ذلك لا يعني أن تلك العشيرة قد تخلت نهائياً عن ميلها للقيام بأعمال السلب والنهب. فقد إعترضت خلال شهر تشرين الأول - أكتوبر ١٩١٢ سبيل قافلتين أو ثلاثة قادمة من بغداد إلى السليمانية بهدف نهب حمولاتها.^(٣٥) ولم يرد بعدها خبر عن نشاطات تلك العشيرة، إما لركولها إلى الهوء وهو مستبعد، أو لعدم وجود من يحفل بتسجيل تلك الأنشطة.

عصيان شيخ بارزان

كان شيخ بارزان يجمع في شخصه صفتين: دينية ودنيوية. فهو الزعيم الروحي لأتباع كثيرين منتشرين في ريف الزبير، وهو "بك الديرة" في الوقت ذاته. ولكن مكانته تلك لم تحل بينه وبين مناوأة بعض جيرانه له. فقد كانت

عشيرة الهركية تتأصبه العداء، مما يؤدي الى صدامات دموية متكررة بين الجانبين. وقدالت مشيخة بارزان سنة ١٩٠٨ الى عبدالسلام خلفا لابييه أحمد. (٣١) ووصف القتل البريطاني العام في بغداد شخصية الشيخ الجديد بقوله انه مجرد فتى امي. وأضاف انه أعلن العصيان على الحكومة في نيسان_أبريل ١٩٠٩ دون أن يحدد سببا لذلك مكتفيا بالقول إن ذلك حدث بنصح تلقاه الشيخ من وزيره [هكذا وردت في الأصل والأصح القول كاتبه] الذي قتل فيما بعد خلال صدام مع القوات الحكومية. وكانت الخطوة الأولى في ذلك العصيان هجوما شنه أتباع الشيخ على بلدة عقره التي لم يكن فيها من القوات الحكومية حينئذ غير الشرطة. وقامت السلطات الحكومية إثر ذلك بسوق قواتها نحوه فانتزعت بعض الممرات الجبلية والعواقع المهمة من أيدي قواته حتى وصلت إلى قرية بارزان نفسها واحتلتها. أما الشيخ فقد انسحب أمام القوات الحكومية التي ظلت تطارده حتى جبال شيرين الواقعة إلى الشمال من قريته. وهناك تصدى لها أتباعه وجرت بين الجانبين معركة عنيفة تكبدت فيها القوات الحكومية خسائر فادحة. وترتب على ذلك قيام هدنة واقعية طويلة بين الجانبين، بقي خلالها الشيخ متحصلا خلف تلك الجبال، بينما تمركزت كتائب القوات الحكومية في العواقع المهمة في الإقليم. (٣٢)

وقد لاحظ للتوصل العام البريطاني الذي كان يزور ولاية الموصل في ربيع سنة ١٩١٠ عدم احتمال تمكن القوات الحكومية من إلقاء القبض على الشيخ في حين لا يجرؤ الشيخ من جانبه على مهاجمة تلك القوات في المواقع التي تتمركز فيها. وشبه الوضع بما كان يحدث في الحدود الهندية- الأفغانية حيث تنجح القوات الحكومية في حصر القبائل نحو الجبال العالية التي لا يجدر بتلك القوات التوغل فيها، فتبقى منتظرة الوقت الذي يتحب فيه الهاربون من العيش في منغافهم القصي. ولكن ذلك الإنتظار يكلف القوات العثمانية إحجاز أربع كتائب من الجند تمس الحاجة لوجودهم في أماكن أخرى. وفي غضون ذلك يبدوان القيادة

العثمانية لم تكن راضية عن أداء قائد القوات التي هاجمت بارزان محيي الدين باشا فأصدرت أمرا يقضي بكف يده. وكانت الأقوال المتداولة في مدينة الموصل تقيد بأنه سرف يحال إلى محكمة عرقية بتهمة تلقي "هدايا" من الشيخ أثناء سير العمليات الحربية.^(٣٨) وتتناقض هذه المعلومة الأخيرة التي رواها القنصل العام مع معلومة أخرى أوردها هو نفسه بعد ذلك بشهر وتقيد بعودة محيي الدين باشا من لواء المنتفق لتولي مهام القيادة في السليمانية كما كان سابقا.^(٣٩) إذ ليس من المعقول أن تسند لقائد متهم بتهمة خطيرة مسؤولية قيادة العمليات الحربية في لواء المنتفق ويعاد بعدها إلى مقر قيادته السابق الذي وجهت له التهمة أثناء توليه. فيتضح من هذا أن الخبر الذي أورده القنصل العام لا يبدو متسما بالدقة.

استغل الشيخ عبدالسلام فرصة الهدنة الواقعية بينه وبين القوات الحكومية لتصفية حساباته مع بعض منافقيه من الأكراد. فشن أتباعه في بداية أيار - مايو ١٩١٠ هجوما على إحدى القرى فجتاحوها وأحرقوها وقتلوا كبيرها وبعض أفراد أسرته. أما على الجانب الحكومي فقد حصلت تطورات إدارية في بغداد سهلت الوصول إلى حل سلمي مع الشيخ. فقد وصل إلى بغداد في ذلك الشهر حسين ناظم باشا واليا عليها وهو يحمل في ذهنه خطة لتهدئة جبهة الصدام مع العشائر بملاينة شيوخها حتى يتمكن من سحب القوات الحكومية من الديار العشائرية وجمعها في بغداد من أجل إعادة تنظيمها وتدريبها وتسليحها. ومن جملة تحركاته في هذا الاتجاه إفاده المتقدم صفوت بك إلى شيخ بارزان في أواخر ذلك الشهر نفسه. وحققت المباحثات بين المبعوث والشيخ نتيجة إيجابية على ما يبدو حيث تكدولت شائعات في الموصل تقيد بأن الحكومة بصدد إصدار عفو عن الشيخ، بل إنها أكثر من ذلك ستتيط به مهمة رسمية. وعزز من تلك الشائعات الإجراءات التي بدأتها السلطات العسكرية لسحب الحاميات من المواقع التي كانت متمركزة فيها.^(٤٠) وتجدد الإشادة هنا بحسن اختيار ناظم باشا لمبعوثه

إلى شيخ بارزان، فصفوت بك ضابط كردي من أبناء المنطقة مما يسر تقاضيه مع الشيخ.

ولكن تلك الدلائل المشجعة لم تسفر عن إبرام تسوية فورية بين الجانبين. إذ يتضح من رواية للقنصل الأمريكي في بغداد في شهر تموز - يوليو ١٩١٠ أن التسوية المقترحة ظلت معلقة لإشتراط الوالي حسين ناظم باشا حضور شيخ بارزان شخصياً إلى بغداد لإعلان خضوعه للحكومة.^(١١) ولم يرد بعد ذلك ما يشير إلى إبرام تلك التسوية فعلاً، ولكن ورد خبر عن إعتراض بعض الزعماء الأكراد المناوئين للشيخ على فكرة منح الحكومة عفواً له عن عصيانه السابق.^(١٢) ولا يبدو أن تلك الاعتراضات كانت ذات أثر كبير على السلطات الحكومية التي أتمت التسوية المقترحة مع الشيخ على الأرجح. ويعزز هذا للترجيح أن البعض أشار إلى عودة الشيخ عبدالسلام إلى العسيان في كانون الأول - ديسمبر ١٩١٠، وهو عصيان ظل قائماً خلال السنتين التاليتين.^(١٣) ولا تقدم المراجع المتاحة أية أخبار عن الشيخ خلال تلك السنتين مما يدل على أن العسيان كان سلبياً فلم تتخلله أحداث مهمة تستحق الذكر. فكل ما ورد في وثائق القنصلية البريطانية هو الخبر الذي نقله القنصل العام البريطاني في بغداد عن المبعشرين البريطانيين العاملين في كردستان والذي يفيد بأن الشيخ كان منشغلاً حينئذ في تعزيز هيمنته على أغوات القرى الكردية وهو ما كان يستدعي إعتراض السلطات العثمانية.^(١٤)

واستأنفت تلك الوثائق إيراد أخبار تتعلق بالشيخ ابتداءً من تموز - يوليو ١٩١٣. فقد ذكر القنصل العام البريطاني في بغداد في خلاصته لأحداث ذلك الشهر أن متصرف كركوك ذهب إلى بلدة راوندوز، وأرسل من هناك مفرزة من الدرك إلى بارزان لجباية الضرائب الحكومية المستحقة وإلقاء القبض على بعض اللصوص الفارين. ولكن المفرزة جوبهت بمقاومة مسلحة أسفرت عن مقتل

ضابط وثلاثة عشر جنديا وجرح اثني عشر آخرين من أفرادها وخسارة كمية من أسلحتها. فأبرق المتصرف على إثر ذلك إلى والي الموصل طالبا تعزيزات، بيد أن قائد الفيلق أسعد باشا حاول المماطلة لحساسية كانت بينه وبين السلطة المدنية في الولاية. ولكنه أرسل في النهاية ست كتائب من الجند تمركزت في المواقع المهمة المحيطة بالمنطقة.^(٤٥) ولم تعمل تلك القوات بعد تجميعها هناك شيئا لتضارب وجهات النظر بين المسؤولين الحكوميين. فقد كان المتصرف يصر على معاقبة العصاة، بينما كان والي الموصل لا يحبذ ذلك وينتقد المتصرف لإثارته مشكلة صعبة في الجبال في وقت غير ملائم. ونجح الوالي بإقناع الحكومة المركزية بوجهة نظره، حيث تلقى المتصرف بريقة من إسطنبول تقضي بعزله من منصبه. وقبل ذلك القرار بأسف عام من سكان اللواء لأن للمتصرف المعزول كان من خيرة الإداريين وأكثرهم نجاحا في عمله. ولم يؤد عزله إلى تغير في الوضع. إذ بقيت القوات الحكومية ساكنة في مواقعها بينما كان شيخ بارزان يعزز من مواقعه. فقد هاجم عشيرة الهركية المناوأة له فهزمها وقتل شيخها أحمد آغا. وكانت الذريعة التي برر بها هجومه هي قيام الهركية بالإغارة على عشيرة تابعة له. بينما كان السبب الحقيقي هو وقوف الهركية إلى جانب القوات الحكومية ضده سنة ١٩٠٩.^(٤٦)

ولم يلبث والي الموصل طويلا حتى تجرع الكأس نفسها التي سقاها لمتصرف كركوك، فطرد من منصبه. وأعرب القنصل العام البريطاني في بغداد عن اعتقاده بأن الطرد يؤشر عدم رضا الحكومة المركزية عن تعامل الوالي مع مشكلة بارزان. وقد أنيطت مسؤولية الولاية بعده وكالة بقائد الفيلق أسعد باشا. فمال إلى انتهاج أسلوب التقاهم السلمي مع شيخ بارزان، وأوفد أحد معارفيه الي بلدة راوندوز لتقويم الموقف على الطبيعة. ويبدو أنه أجرى اتصالات هناك مع شيخ بارزان، إذ أبرق للوالي مفيدا بأن الشيخ أعاد بعض المنهوبات التي كان

اتباعه قد نهبها من مفزعة الدرك عند بداية الأحداث. واعتبر وكيل الوالي ذلك كافيا لإنهاء القضية فبدأت القوات الحكومية بالانسحاب من مواقع تحشدتها في راوندوز. وعلق القنصل البريطاني العام على ذلك التطور بقوله إن الموقف في تلك المنطقة لم يصبح أسوأ مما كان، ولكن القضية أو القضايا التي أرسلت من أجلها المفزعة الأولى ضد أتباع الشيخ باقية كما هي دون حسم.^(٤٧)

ولم يكن ذلك الاتجاه الإسترشائي نحو شيخ بارزان قاصرا على وكيل الوالي فقط، بل تبنته الحكومة المركزية في إسطنبول. فقد قررت منح الشيخ المذكور وسام العثمانية [وقيل وسام المجيدية] وحين وصل ذلك الوسام إلى ولاية الموصل لتقديمه إلى صاحبه، كان سليمان نظيف بك قد استلم مهام منصب الوالي في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٣ فاعترض على ذلك الإجراء. ورد الوسام إلى إسطنبول قائلا إن الشيخ مجرد قاطع طريق وقاتل يستحق أن يتلقى طلقة مميتة لا وساما تكريما. وتسرب رأي الوالي ذاك إلى الشيخ فأغضبه غضبا شديدا. عن غضبه بالوسيلة المعهودة وهي شن الغارات في المنطقة المجاورة لبلدة عقره.^(٤٨) ووجد الوالي ذلك مبررا كافيا لإظهار الحزم مع الشيخ فأرسل قواته إلى بلدتي عقره والعمادية، ودعا شيخ العشائر الكردية الموالية للانضمام إلى الحملة التي تهدف إلى إلقاء القبض على الشيخ عبدالسلام.^(٤٩) ولا يتضح من المعلومات المتاحة ما إذا كان تصميم سليمان نظيف بك على إلتهاج الحزم مع الشيخ ولید قناعتة الشخصية أو إنسجاما مع توجهات جمعية الاتحاد والترقي الذي كان من أعضائها البارزين. وإذا كان الاحتمال الأخير هو المرجح فإنه يمثل نوعا من الاعتراف الضمني بالطبيعة السياسية لتحركات الشيخ.

وقد مضى الوالي قدما في تنفيذ خطته، فجرى الصدام بين القوات الحكومية ومن يؤيدها من العشائر الكردية من جانب وقوات الشيخ عبد السلام من جانب آخر في نيمان - أبريل ١٩١٤. وكانت نتيجة الصدام حسب الرواية الرسمية التي

نشرتھا صحف بغداد في حينه نصرا كبيرا لقوات الحكومة التي لم تخسر سوى قتيلين وثمانية جرحى إصاباتهم طفيفة. وخسر الطرف الآخر بالمقابل عددا كبيرا من القتلى بينهم ثمانية من الرؤساء. وتمكنت القوات الحكومية بعد فرار الشيخ وبقية أتباعه من احتلال قرية بارزان واتخاذها مركزا لناحية إدارية. ولم تمر تلك الرواية الرسمية دون تصويب من قبل القنصل العام البريطاني في بغداد. فقد أظهرت المعلومات التي تلقاها القنصل العام أن الوالي زحف وبمعيته قوات عشيرتي الهركية والسورانية^(٥٠) وعند وصولهم نهر الزاب حاولوا العبور في "أكلاك"^(٥١) قبل إسكات نيران المدافعين المنصبة عليهم من الضفة المقابلة فأخذت المحاولة ولحقت بالقوات المهاجمة خسائر كبيرة. وأعيدت الكرة بعد اتخاذ احتياطات كافية، واستطاع المهاجمون العبور بعد تكبيد قوات الشيخ إصابات كثيرة. أما الشيخ نفسه فقد فر من قريته إلى جبل شیرين تاغي S Shirin Taghi داخل الأراضي الفارسية المجاورة. وذكرت معلومات القنصل العام أيضا أن الرواية الرسمية أغفلت أيضا الإشارة إلى كمين وقعت فيه قوات حكومية أخرى كانت تزحف من بلدة راوندوز لدعم قوات الوالي، حيث ألحق بها انصار الشيخ خسائر فادحة. وأضاف للقنصل العام القول أن الوالي سليمان نظيف بك حرص على كتمان أخبار خسائر القوات الحكومية، بينما حرص قائد الفيلق أسعد باشا على إذاعتها كيدا له. فرفع الوالي تقريرا إلى اسطنبول يتهم القائد بالترسل مع للشيخ المتمرد لمساعدته في التصدي للقوات الحكومية ثم لتمكينه من الهرب منها.^(٥٢)

وبعد أن أمضى الشيخ بعض الوقت في مخبأه في شیرين تاغي انتقل إلى مدينة لرومية الفارسية الخاضعة للسيطرة الروسية حينئذ، فلقى ترحيبا من المسؤولين الروس هناك. وقد علق نائب القنصل البريطاني في الموصل على ذلك التطور بالتعبير عن أسفه لرؤية الترك يهاجمون الشيخ مرة أخرى لأن ذلك لا

يعني سوى انهم يدفعون إلى ذراعي روسيا واحدا من رؤساء اكراد قليلين رفضوا سابقا أن تكون لهم أية صلة بالروس.^(٥٦) ولم يكن مرد أسف نائب التنصل بالطبع ألمه على خسارة السلطات العثمانية لـ "ولاء" مواطن مخلص، ولكن لكسب روسيا ولاء قوة مهمة في منطقة كانت المصالح البريطانية تنظر إليها بطمع. ولم يكتف الشيخ عبد السلام بالحصول على الملاذ الآمن تحت ظل الروس، بل أخذ يشن الغارات من هناك على الأراضي العثمانية المجاورة.^(٥٧) وكان والي الموصل من جانبه يلاحق من بقي من أتباع الشيخ، فيأتي القبض عليهم ويوقع بهم العقوبات المختلفة. وهو في غضون ذلك يصرح بين أونة وأخرى بأن السلطات الفارسية سوف تعتقل الشيخ نفسه وتسلمه للسلطات العثمانية.^(٥٨) ولكن الشيخ لم يصل إلى أيدي السلطات العثمانية عن ذلك الطريق بل عن طريق خيالة شيخ عشيرة الشكاك الكردية. إذ قام بإلقاء القبض على الشيخ حينما كان ضيفا عليه، ثم سلمه للسلطات الحكومية. وقد أحالته تلك السلطات إلى محكمة عسكرية قضت بإعدامه مع ثلاثة من أعوانه.^(٥٩) وتم تنفيذ الحكم بالفعل في الأول من كانون الأول- ديسمبر ١٩١٤.^(٦٠) ولا ريب أن إعدامه بذلك الشكّل كان من العوامل التي رسخت حاجز عدم الثقة بين البارزانيين والسلطات الحكومية. فقد ظلوا دائمي المناوأة لكل الأنظمة التي تتابعت على الحكم حتى بعد سقوط الدولة العثمانية.

علاقة عشيرة الجاف بالسلطات الحكومية

الجاف عشيرة كردية كبيرة تقع ديارها على جانبي الحدود العثمانية- الفارسية على طول القطاع الممتد بين مدينتي السليمانية و خانقين. فاقسمت بذلك العشيرة قسمين يقطن أحدهما الأراضي العثمانية ويقطن الآخر الأراضي الفارسية. ولكن القسمين كانا يتنقلان معا عبر الحدود حسب متطلبات رعي لنعاهما. كما أنهما كانا يخضعان معا لمشيخة عشائرية واحدة تقيم في بلدة حلبجة

دخل الحدود العثمانية. وعلى الرغم من أن تلك العشيرة كانت أقل ميلا من مثيلاتها لمتناوأة السلطات الحكومية، إلا أنها لم تكن سلسلة القيادة.^(٥٨) وكانت تتشعب بين الطرفين خلافاً تتطور إلى صدامات مسلحة. فقد قاد والي الموصل محمد فاضل باشا في أوائل سنة ١٩١٠ قوة من الجند ضد تلك العشيرة لمعاقبتها على قيامها بشن بعض الغارات [على الطرق العامة على ما يبدو].^(٥٩) وضمت القوة المهاجمة كالعادة مقاتلين من عشيرتين مواليين للسلطة.^(٦٠) ولكن ذلك الحادث لم يؤد إلى قطيعة بين قيادة تلك العشيرة والسلطة. إذ أقام شيخ العشيرة محمود باشا في مدينة الموصل عدة شهور ذلك العام نفسه من أجل الإتفاق مع سلطات الولاية على كيفية جباية الأموال الحكومية المستحقة على عشيرته. وانتقل بعدها إلى بغداد لزيارة واليها الجديد حسين ناظم باشا.^(٦١)

ويظهر من هذا الخبر ومما أن الجاف لم يكونوا يمتنعون كثيرهم في دفع الضرائب الحكومية المستحقة. فقد دفعوا خلال سنة ١٩١٢ مبلغ ثمانية آلاف ليرة عثمانية. ولكن ذلك لم يكن كافياً بنظر السلطات العثمانية التي كانت تريد من تلك العشيرة بأكملها الاستقرار الدائم داخل الأراضي العثمانية. فاستدعت ولاية الموصل محمود باشا للتحادث حول ذلك الموضوع حيث غادر بعدها الموصل إلى ديار عشيرته ثم عاد إلى الموصل مرة أخرى في كانون الثاني - يناير ١٩١٢.^(٦٢) ويبدو أنه لم يكن ميالاً لتقبل الطلب الحكومي ذلك أو إنه لم يكن قادراً على إقناع عشيرته به، لذلك حاولت السلطات إغراهه باعتبار عشيرته منطقة انتخابية يمثلها في البرلمان العثماني "المبعوثان" عضو أو لثان تخارهما.^(٦٣) ولكن ذلك الإغراء لم يكن كافياً، فقد فشلت مباحثات محمود باشا في الموصل، وغادر إلى بغداد في آذار - مارس ١٩١٢. وكان يظن أنه سوف يحتجز هناك، غير أنه سمح له بالعودة إلى ديار عشيرته بعد حين.^(٦٤) ولعل ذلك عائد لحاجة السلطات الحكومية له حينئذ في مهمة أخرى. إذ اشتركت قوات عشيرته في

توغل القوات العثمانية في غرب فارس تلك السنة، وقامت إلى جانبها في مناطق غرب كرمنشاه^(٦٥) وترتب على ذلك قيام علاقة مستقرة بين السلطات الحكومية وتلك العشيرة^(٦٦).

واستمرت خلال ذلك صلات محمود باشا بكبار المسؤولين العثمانيين العاملين في العراق. فقد قام والي بغداد أحمد جمال بك برحلة إلى بلدة بعقوبة في أيار - مايو ١٩١٢ التقى خلالها بمحمود باشا. وطلب والي منه التوجه إلى بغداد لأن لديه أموراً يريد مناقشتها معه هناك. وأثناء وجود محمود باشا في بغداد تهيأت له فرصة اللقاء صدفة بالتقنصل البريطاني العام في بغداد. وقد أظهر لأول وهلة لهفته على كسب صداقة التقنصل البريطاني العام، ولكن حضور ضابط تركي فجأة جعله يتحفظ ويصر على الحديث باللغة التركية على الرغم من مخاطبة التقنصل العام له بالفارسية. ولم تكن تلك اللفتة عنوية، بل كانت منبعثة من موقف سابق حين فاتح أخوه محمد علي بك التقنصلية البريطانية العامة في بغداد خلال شهر كانون الثاني - يناير ١٩١١ طالباً وضع عشيرة الجاف تحت الحماية البريطانية^(٦٧) ويحسن القول هنا أن فكرة الاحتواء بالبريطانيين لم تراود أذهان بعض زعماء الجاف قط، بل راودت أذهان آخرين من عشائر أخرى. فقد اتصل على سبيل المثال أحد الوجهاء الأكراد بالتقنصل البريطاني في كرمنشاه في أواخر أيار - مايو ١٩١٠ مستمراً عن إمكانية تقديم الحماية البريطانية للشيخ محمود بن الشيخ عبد السلام البرزنجي الذي تتعرض حياته للخطر في السليمانية. فأحال التقنصل الأمر إلى التقنصل العام في بغداد طالباً موافاته بتقرير عن الشيخ المذكور. وجاءه ذلك التقرير بالفعل مع رأي التقنصل العام في الشيخ وخلاصته أنه فتي غر يتصف عموماً بصفات سيئة^(٦٨).

ولا تورد الوثائق والمراجع المتاحة أية معلومات عن عشيرة الجاف خلال سنة ١٩١٢ ومطلع ١٩١٤ مما يدل على عدم حدوث شيء ذي بال يتطلب

الاهتمام. ثم عادت الوثائق القنصلية البريطانية للقول إن محمود باشا ولخاه محمد علي بك وصلا مدينة الموصل في العشرين من شهر أيار - مايو ١٩١٤ لمناقشة بعض القضايا مع والي الموصل.^(٧١) ولا تتضح من ذلك الخبر المقتضب طبيعة القضايا التي كانت محورا للنقاش.

عشيرة الباجلان والسلطات الحكومية العثمانية

تقطن هذه العشيرة المنطقة الحدودية العثمانية - الفارسية حول بلدة خاتقين. وقد أعطاها سكنها على جانبي الحدود مكانة مميزة لدى السلطات العثمانية التي حاولت الاستفادة من ذلك الواقع. فحرص كبار المسؤولين في ولاية بغداد على توثيق صلاتهم بزعماء تلك العشيرة. إذ قابلهم الوالي حسين ناظم باشا في حزيران - يونيو ١٩١٠، فأكد لهم ضرورة خضوع العشائر لسلطة الحكومة. وطلب أن يبادر الشيوخ إلى دفع ما يستحق على عشائرتهم من ضرائب حكومية دون حاجة لسوق القوات الحكومية لإكراههم على ذلك.^(٧٢) كما أن والي بغداد جمال بك قام في شهر أيار - مايو ١٩١٢ بجولة على قطاع الحدود العثمانية - الفارسية الواقع شرق بغداد، وأراد خلالها تكليف زعيم الباجلان مصطفى باشا بمهمة دخل الأراضي الفارسية. وتضاربت المعلومات حول طبيعة تلك المهمة حيث تقول رواية إنها إجراء مباحثات مع والي بشتكوه الفارسي حول قضية أو قضايا لم تحدد. ولعلها متعلقة باسترداد شخص كردي من مستخدم للحكومة العثمانية هرب إلى الأراضي الفارسية وبمعيته أربعون سواريا^(٧٣) وبذمته حوالي ثلاثمائة وخمسون ليرة عثمانية من أموال الخزينة الحكومية. وتفيد رواية أخرى عن كلام كثير متداول عن تعيين مصطفى باشا قائما لمنطقة زهاب الفارسية التي كانت القوات العثمانية قد احتلتها.^(٧٤)

وسواء أكان السبب هو هذا أو ذلك فقد كان من المقرر أن يلتقي مصطفى باشا بالوالي في بلدة منطلي ويسير بمعيته حتى بلدة بدره حيث يفترقان ويذهب

مصطفى باشا إلى هدفه عبر الحدود. ولكن الأمر لم يسر كما خطط له، فبعد لقاء الرجلين في مندلي حدث بينهما شجار عنيف بسبب توبيخ الوالي لمصطفى باشا على علاقته الودية بنائب القنصل البريطاني في قصر شيرين. وقيل أيضا إن الوالي كان يشك بتأمر الباشا مع سلاسل الدولة.^(٧٣) ولكن القنصل البريطاني العام في بغداد استبعد السبب الأخير إذ لا يعقل أن يختار الوالي لمهمة عبر الحدود رجلا تحوم الشكوك حول ارتباطاته بسلاسل الدولة. وأورد القنصل العام احتمال أن يكون سبب الشجار اختلاف الرجلين حول المهمة للمزمنة في فارس، أو لتنمر الباشا من مشاركة رعايا عثمانيين في غارة شنت على الشطر الفارسي من عشيرة الباجلان. ومهما كان سبب بدء الشجار فقد تصاعد حين رد الباشا وهو حاد المزاج بطبعه على توبيخ الوالي له بشتمه على رؤوس الأشهاد.^(٧٤)

وترتب على غضب الباشا اتجاهه إلى طلب الحماية البريطانية. فقد التمس نائب القنصل البريطاني في قصر شيرين أن ينتدب من يثق به لملاكماته في خانتين كي يحمله رسالة سرية شفوية إليه. وحين أجيب التماسه حصل المندوب طلبا ينقل رغبته واتباعه في من يصبحوا رعايا بريطانيين إلى القنصل البريطاني العام في بغداد. وكان رد فعل نائب القنصل سريعا على ذلك الطلب فقد قصد خانتين بنفسه في اليوم التالي واجتمع مع مصطفى باشا وأخبره بعدم وجود حاجة لنقل رغبته إلى القنصل العام لأنه يستطيع الرد عليها فوراً بالقول إن بريطانيا لا يسعها حتى مجرد النظر في طلب كهذا. ولم يرض هذا الرد الباشا الذي لم يقتنع بأنه يمثل فعلا رأي الحكومة البريطانية، وتوسل إلى نائب القنصل أن ينقل طلبه إلى القنصل العام مشفوعا بتوصية تحبذ قبوله. ولكن توسلاته ذهبت أدراج الرياح ووبرر نائب القنصل - وهو ينقل ما حدث لمرجعه - موقفه الحازم من طلب الباشا بشكه في أن يكون الباشا مدسوسا من قبل الوالي للتعرف على نوايا البريطانيين. وأضاف أن شكه تبدد فيما بعد حين تأكد له أن شجار الباشا مع

الوالي كان عاصفا بالفعل ولم يكن منتعلا. وقد علق القنصل العام البريطاني في بغداد على كل ذلك بقوله إن طلبات الحصول على الحماية البريطانية كثيرة جدا في بغداد، ولكنها غير مخلصة بما لا يجعلها جديرة بالذكر.^(٧٥) ولكن القنصل العام عاد فيما بعد لتغليب الشك في دافع الباشا للتقدم بذلك الطلب، ظانا انه موحى به من قبل السلطات العثمانية لاستكشاف ما إذا كان البريطانيون يضمرون نوايا شريرة للسيطرة على بلاد ما بين النهرين.^(٧٦)

ومن جانب آخر كان من نتائج الشجار سالف الذكر أن أمر والي بغداد باحتجاز مصطفى باشا في مدينة بغداد بتهمة الاشتباه بنواياه السياسية. وتنفذ ذلك الأمر بالفعل، فقد كان الباشا محتجزا في بغداد خلال شهر تموز - يوليو ١٩١٢، مما دفع لقاربه للإعراب لنائب القنصل البريطاني في قصر شيرين عن قلقهم من المعاملة السيئة التي يحتمل أن يلقاها خلال احتجازه، مشيرين إلى أن سبب الاحتجاز هو سخط الوالي على علاقة الباشا الودية بفائب للقنصل.^(٧٧) ولم يكن لذلك القلق ما يبرره، إذ حظي الباشا المحتجز بمعاملة جيدة حيث تركت له حرية التنقل في أنحاء المدينة كما يشاء باعتباره ضيف القائد محمد فاضل باشا الداغستاني. وجاءت في هذه الأثناء استقالة الوالي جمال بك ومغادرته بغداد في آب - أغسطس ١٩١٢ مؤذنة بنهاية محنة مصطفى باشا على حد قول القنصل العام البريطاني في بغداد.^(٧٨) وبلاحظ هنا الدور الكبير الذي كان الداغستاني يؤديه في تلطيف العلاقة بين السلطات الحكومية والزعماء الأكراد. فقد كان يتمتع بتقدير اجتماعي كبير لدى معاصريه العراقيين فضلا عما كان له من وزن كبير لدى السلطات الحكومية مستمد من المناصب الحربية والمدنية التي اشغلها.

غارات العشائر الكردية على الطرق العامة

يؤشر حدوث تلك الغارات بشكل متكرر ارتقاء قبضة السلطات الحكومية على المناطق الريفية. ولم تكن تلك الغارات قاصرة على كردستان بل كانت

تشمل كل أنحاء العراق. وكان دافع تلك الغارات رغبة العشائر في الحصول على كسب سهل عن طريق نهب المسافرين أو ابتزازهم. كما كانت تتخذ وسيلة ضغط على السلطات الحاكمة لإجبارها على تلبية مطلب ما للعشيرة المعنية. ومن أكثر العشائر الكردية التي كانت تقوم بتلك الغارات حينئذ عشيرة زنكنه. إذ كانت تلك العشيرة تقرر من القوات الحكومية التي ترسل لمعاقبته وتعتبر خط الحدود مع فارس ثم تقوم من ملجنها الأمن بشن الغارات على طرق المواصلات في الأراضي العثمانية فتسلب وتنهب ثم تعود من حيث أتت دون أن يتمكن فرسان الدرك من تعقبها عبر الحدود. ومن تلك الغارات ما حدث على الطريق العام الواصل بين السليمانية والصلاحية حيث تصدت لهم القوات الحكومية واشتبكت معهم.^(٧٩) وقد تلقى المغيرون في أثناء ذلك عون عشيرة الباجلان. واضطرت السلطات الحكومية إزاء ذلك إلى إرسال قوة من الفرسان لمطاردة المغيرين داخل الأراضي الفارسية حيث تمكنت من قتل بعضهم وأسر البعض الآخر في أيلول-سبتمبر ١٩١٢.^(٨٠)

ولم تكن تلك الغارات تتم في الأراضي المحاذية لخط الحدود فقط. إذ لاحظ نائب القنصل البريطاني في الموصل في حزيران - يونيو ١٩١٣ أن الأمن منعهم في الإقليم الواقع بين ديار بكر والجزيرة بحيث إن كل الأكلاك المنحدرة في نهر دجلة تتعرض للنهب. وقد حال الخلاف بين السلطات المدنية والعسكرية في ولاية الموصل دون إرسال القوات اللازمة لاستعادة الأمن والنظام هناك.^(٨١) وتفاقم سوء الحال خلال الشهر التالي حتى تجرأ المغيرون على مهاجمة قوافل عديدة بجوار مدينة الموصل ذاتها. وكان أفراد عشيرة ذرني يغيرون على الطريق الجبلي في حين قطعت غارات عشيرة علي أغا طريق دجلة شمال الجزيرة. وكانت عشيرة الهركية تقطع طريق الموصل مع عقراء والعمانية. وكان سبب غاراتها هو الاحتجاج على مهاجمة شيخ بارزان لها وممارسة الضغط على

السلطات الحكومية لدفعها لاتخاذ موقف أكثر حزمًا ضد ذلك الشيخ^(٨٦) وأزادت غارات الهركية عنفاً بمضي الوقت، ففي حوالي منتصف تشرين الأول - أكتوبر ١٩١٣ نهبت ثلاث قرى بجوار العمادية وأحرقتها، ودمرت قرى أخرى قرب عقرة. كما فرضت أتوات على بعض القرى مقابل تجنيبها مصيراً مماثلاً. وقامت بعد ذلك بشن هجوم على عشائر السبعة القاطنة بين الموصل وعقرة. ولم تجد السلطات الحكومية ما تفعله لكبح جماح العشيرة الهانجة سوى نشر مفارز صغيرة من الدرك في مواقع مختلفة من المنطقة على أمل أن يؤدي وجودها إلى تقليل أثر تلك الغارات.^(٨٧)

واضطرب حبلى الأمن خلال شهر آب - أغسطس ١٩١٣ في المنطقة الواقعة حول بلدة راوندوز بسبب قتال نشب بين عشيرتي السورجية والبيكات من جانب واتباع الزعيم الكردي سيد طه الذي لشيع وجود بعض الروس إلى جانبه.^(٨٨) وسيد طه هو ابن الشيخ صديق الذي كان ذا مكانة دينية بين أكراد منطقة هكاري. وقد اختلف سيد طه مع بعض أبناء عمومته حول حق إدارة إحدى التكايا فغادر منطقته غاضباً إلى الأراضي الفارسية حيث لقي ترحيب الروس الذين يطلونها. وقام من ملجئه بشن هجوم على عشيرة للبيكات داخل الأراضي العثمانية فاستجذبت تلك العشيرة بحلفائها من الهركية والسورجية. ولجحت تلك العشائر في هزيمة قوات سيد طه على الرغم مما قيل من اشتراك الروس بالقتال إلى جانبه.^(٨٩) وقد ألقت السلطات العثمانية بنقلها إلى جانب خصوم سيد طه بسبب ارتباطه في أحضان الروس دون ريب. إذ وجهت قوة هدمت قلعته الواقعة على الحدود العثمانية - الفارسية مباشرة، بعد أن تمكنت من قتل أحد عشر رجلاً من أتباعه.^(٩٠)

واستمرت في غضون ذلك الوقت عشيرة الهركية في تمرداتها ضد السلطة التي اضطرت لسوق القوات الحكومية لحوها في أواخر سنة ١٩١٣

معركة بين الجانبين قرب بلدة عقرة أسفرت عن انتصار العشيرة المتمردة ولكن ذلك لم يحل دون ميل الجانبين إلى التصافي. فقد حضر شيخ عشيرة الهركية إلى مدينة الموصل وقدم خضوعه إلى الوالي. وزاد على ذلك إعلانه عن عزمه الانضمام إلى الحملة الحربية التي كان الوالي يزمع توجيهها ضد شيخ بارزان.^(٨٧) وليس ذلك التحول في موقف العشيرة المتمردة مستغربا بالنظر إلى أن سبب تمردها هو الضغط على السلطات من أجل اتخاذ موقف أكثر تشددا تجاه شيخ بارزان. وبما أن والي الموصل تمسك بالحزم مع ذلك الشيخ كان من الطبيعي أن يتعاون الجانبان ضد الخصم المشترك.

الخلاصة

يظهر من الاستعراض السابق أن كردستان العراق عاشت خلال فترة البحث حالة من القلق العميق. وقد كانت مظاهر ذلك القلق متعددة الأشكال، فهي صدامات بين العشائر والقوات الحكومية تارة، وغارات متبادلة بين العشائر ذاتها تارة ثانية، وأعمال سلب ونهب على الطرق العامة الريفية تارة ثالثة. ويكمن سبب ذلك القلق في التطورات التي أثرت على طبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة في المنطقة أكثر من كونه وليد شعور سياسي ذي محتوى واضح. فبؤادر الحركة القومية الكردية اقتضرت على بعض متعلمي الحواضر ولم تستقطب شيوخ العشائر وأبناءها فضلا عن غالبية أبناء الحواضر. وبدأت خلال فترة البحث بعض الدول الكبرى تتدخل في مسار الأحداث في كردستان العراق مما أسهم في تأجيج نار ذلك القلق.

الهوامش

(1) NARA, RG 84 ,B.C.P., Misc.No.1162 ,Am. Con.-Gen. , Beirut ,to Am. Con. , , Bagh., dated 28/10/1908 .

(2)NARA, RG 84,B.C.P.,No.199,Am. Con.-Gen. ,Beirut ,to Am. Amb., Const.,dated13/11/1908 .

(٣) زكي ، محمد أمين بخلصة تاريخ الكرد وكردستان ، ترجمة محمد علي عوني ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص ص ٢٢١-٢٠

(٤) نيكيتين ، باسيلي ، الكرد: دراسة سوسيولوجية وتاريخية ، ترجمة نوري طالباني ، لندن ، ٢٠٠١ ، ص ٣٠٥ .

(٥) شريف ، عبدالستار طاهر ، الجمعيات والمنظمات والأحزاب الكردية في نصف قرن ١٩٠٨-١٩٥٨ ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص ٢٠ و ٢٥ و ٢٨ .

(٦) نيكيتين ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٥

(٧) الأرحيم ، فيصل ، تطور العراق تحت حكم الاتحائيين ١٩٠٨-١٩١٤ ، الموصل ، ١٩٧٥ ، ص ٩١ .

(٨) نيكيتين ، المرجع نفسه ، ص ٣٠٦

(٩) الأرحيم ، المرجع نفسه ، ص ٩١

(١٠) لم تذكر الوثيقة اسمي عائلتيهما أو موطنهما .

(11) IOR,L/P&S/10/212 ,Summary of events in Turkish Iraq during April 1913 (hereafter Sum... Apr. 1913).

(12) IOR,L/P&S/10/212, Sum... Nov. &Dece.1913 and Jan. 1914 .

(١٣) خصبك ، شكر ، الكرد والمسألة الكردية ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٩ ، ص ٣٧ .

(14) IOR,L/P&S/10/212 ,Sum ... April 1914 .

(15) NARA, RG 84 ,B.C.P. , No.32 , Am. Con. ,Bagh.,to Am. Amb., Const., dated 9/1/1909 .

ويقول هذا القنصل إن موطن الشيخ الدائم كان في كركوك. بينما تقول رواية أخرى إن موطنه هو السليمانية. راجع: لونغريك ، ص . العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ ، ترجمة سليم التكريتي، بغداد ، ١٩٨٨ ، ج ١ ، ص ٩٦

(١٦) الأرحيم ، المرجع نفسه ، ص ٩٣

(17) NARA ,RG 84 ,B.C.P.,No.32 .

(١٨) الأرحيم ، المرجع نفسه ، ص ٩٤

(١٩) ذكرت رواية أخرى أنه بصادف اليوم الأول من كانون الثاني - يناير راجع: لونغريك ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٩٦ .

(٢٠) هناك روايتان عن الشخص الذي تسبب في وقوع الاحتكاك تقول أولاهما ان جلدنيا حكوميا من الأكراد كان سكرانا فاعتدى علي إحدى النساء الخارججات للنزعة، واستجذبت المرأة بمن حولها فبدأ الصدام بين الجنود والأهالي راجع: الأرحيم، المرجع نفسه، ص ٩٤ . وتقول الرواية الأخرى التي أوردتها القنصل العام البريطاني في بغداد أن مرتكب الاعتداء على المرأة هو أحد معاوني الشيخ محمود بن الشيخ سعيد. راجع :

IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... July 1910 .

(21) NARA ,RG 84 ,B.C.P.,No.32 ...

(٢٢) الأرحيم ، المرجع نفسه ، ص ٩٤

(23) NARA ,RG 84 ,B.C. P. ,No.32 ...

(24) IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... June 1910 .

وقد صدرت أحكام في تلك القضية آخر الأمر ولكنها لم تطل رئيس أركان الجيش المربط في الموصل على سعيد بك وهو من غلاة الاتحاديين وقيل إن له اليد الطولى في الحادث. راجع: الأرحيم، المرجع نفسه، ص ٩٤ .

(٢٥) الأرحيم، المرجع نفسه، ص ٩٣ .

(26) IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... July 1910 .

(٢٦) الأرحيم، المرجع نفسه، ص ٩٤ .

(28) IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... April & May 1910 .

(29) Ibid .

(٣٠) المستطوق هو المحقق أو قاضي التحقيق .

(31) IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... June 1910 .

(32) IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... July 1910 .

(33) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... July 1913 .

(34) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... May 1912 .

(35) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... October 1912 .

(٣٦) لونغريك، المرجع نفسه، ص ١٠٥ .

(37) IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... April & May 1910 .

(38) Ibid .

(39) IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... June 1910 .

(40) Ibid .

(41) IOR ,L/P&S/10/188 ,Sum ... July 1910 .

(42) Ibid .

(٤٣) الأرحيم، المرجع نفسه، ص ٩٥ . وانظر كذلك: لونغريك، المرجع نفسه، ج ١، ص ١٠٥ .

(44) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... March & April 1912 .

(45) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... July 1913 .

(46) Ibid .

(47) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... August 1913 .

(48) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... Nov . & Dec. 1913 & Jan. 1914 .

(49) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... Feb. & March 1914 .

(٥٠) ورد اسم الضيرة في الوثيقة الانكليزية Surahiyah وهو خطأ مطبعي واضح .

(٥١) جمع 'كلك' وهو شبه قارب محلي بطفر على قرب منفوخة تفرش عليها قاعدة من أغصان الشجر .

(52) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... April 1914 .

(53) Ibid .

(٥٤) لونغريك، المرجع نفسه، ج ١، ص ١٠٥ .

(55) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... May 1914 .

(٥٦) العباسي، خضر، والي بغداد ناظم باشا، مخطوط بحوزة الباحث عمر سليم الراوي، بغداد، ص ص ٣٢ - ٣٣ .

(٥٧) الأرحيم، المرجع نفسه، ص ٩٦ .

(٥٨) لونغريك، المرجع نفسه، ج ١، ص ٥٤ و ص ١٠٤ .

(59) NARA ,RG 84 ,B.C.P. ,No. 15 , Am. Con. ,Bagh. ,to Am . Amb.,Const ., dated 14/3/1910 .

وينكر القتل خطأ إن الجاني من العشائر العربية .

(60) NARA ,RG 84 ,B.C.P. ,No. 18 , Am. Con. ,Bagh. ,to Am. Amb. , Const ., dated 24/3/1910 .

(٦١) لونغريك ، المرجع نفسه ، ج ١ ص ١٠٤ .

(62) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... Jan .1912 .

(63) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... Feb. 1912 .

(64) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ...March & April 1912 .

(٦٥) لونغريك، المرجع نفسه، ج ١، ص ١٠٤ .

(٦٦) العزوي، عباس، شغل العراق، بغداد ١٩٤٧، ج ٢، ص ص ٣٩ - ٤٠ .

(67) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... May 1912 .

(68) IOR ,L/P&S/ 10/188 , Sum ... July 1910 .

(69) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... May 1914

(70) IOR ,L/P&S/10/188 , Sum ... June 1910 .

(٧١) السوروي هو التركي الخيال .

(72) IOR ,L/P&S/ 10 /212 , Sum ... May 1912 .

(٧٢) سلا الدولة لمير من أسرة آل قنجر التي كانت حاكمة في فارس. وقد قاد تمردا على الحكومة الدستورية في طهران ، واتخذ أراضي فارس الغربية معقلا له.

(74) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... May 1912 .

(75) Ibid .

(76) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... June 1912 .

(77) IOR ,L/P&S/10/212 , Sum ...July 1912 .

(78) IOR ,L/P&S /10/212 , Sum ... Aug. 1912 .

(٧٩) لغة العرب، العدد التاسع، آذار ١٩١٣، ص ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(80) IOR ,L/P&S/10 /212 ,Sum ... Sept. 1912 .

(81) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... June 1913 .

(82) IOR ,L/P&S/ 10/ 212 , Sum .. July 1913.

(83) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... Oct. 1913 .

(84) IOR ,L/P&S/10/212 ,Sum ... Aug. 1913 .

(85) IOR ,L/P&S /10/212 , Sum ... Sept. 1913 .

(86) IOR ,L/P&S/10/212 , Sum ... Nov. &Dec. 1913 & Jan. 1914 .

(87) Ibid .

المصادر والمراجع

وثائق غير منشورة :-

NARA ,RG 84 , B. C. P. ,
Misc. No. 1162 ...28/10/190
No.199 ...13/11/1908
No. 32 ... 9/1/1909
No. 15 ...14/3/1910
No. 18 ...24/3/1910
IOR,L/P&S/10/188,
Sum Apr. & May 1910
Sum.June 1910
Sum. ... July 1910
IOR , L/P & S / 10/212 ,
Sum. ... Jan. 1912
Sum Feb. 1912
Sum Mar. & Apr. 1912
Sum May 1912
Sum June 1912
Sum July 1912
Sum Aug . 1912
Sum Sept. 1912
SumOct. 1912
Sum Apr. 1913
Sum June 1913
SumJuly 1913
Sum Aug. 1913
Sum Sept . 1913
Sum Oct . 1913
Sum Nov. & Dec. 1913 and Jan. ..1914
Sum Feb. & March 1914
SumApr . 1914
Sum May 1914

مخطوطات :

العيسى، خضر ، والي بغداد ناظم باشا ، مخطوط بحوزة الباحث صر سليم أحمد الراوي،
بغداد .

مراجع عربية ومعربة :

- الارحيم، فيصل ، تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ١٩٠٨ - ١٩١٤ ، الموصل ، ١٩٧٥ .
- خصباك، شاكور ، الكرد والمسألة الكردية، ط ٢ ، بيروت، ١٩٨٩ .

- زكي، محمد أمين ، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ترجمة محمد علي عولي، ط ٢ ، بغداد، ١٩٦١ .
 - شريف، عبد الستار طاهر ، الجمعيات والمنظمات والأحزاب الكردية في نصف قرن ١٩٠٨ - ١٩٥٨، بغداد، ١٩٨٩ .
 - العزاوي ، عباس ، عشائر العراق ، ج ٢ ، بغداد ، ١٩٤٧ .
 - لونغريك، ستيفن همسلي، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠، ترجمة سليم طه التكريتي، ج ١، بغداد ، ١٩٨٨ .
 - نيكيتين ، باسيل ، الكرد : دراسة سوسولوجية وتاريخية ، ترجمة نوري طه البائي ، لندن ، ٢٠٠١ .
- الدوريات :

لغة العرب ، للعدد التاسع ، آذار ١٩٦٣ .

التاريخ
والآثار
المصرية
والإسلامية

الأسس التي اعتمد عليها الأمويون لإثبات حقهم في الخلافة

د. زريفا مرزوق المعاينة

أستاذ مشارك بقسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة مؤتة

الأسس التي اعتمد عليها الأمويون لإثبات حقهم في الخلافة

لقد اجتهد الخلفاء الأمويون خلال فترة حكمهم في وضع مبادئ وأسس يستندون إليها في خلافتهم ويحاولون من خلالها إقناع الناس بأحقيتهم بالخلافة، وساهم الخلفاء الأمويون جميعاً في هذا المجال، وكان رائدهم في ذلك معاوية بن أبي سفيان؛ الذي استطاع بحكمته ودهائه وحلمه، أن يثبت أنه رجل دولة متميز، وأن يوطد أركان الخلافة الأموية، وذلك بالحفاظ على جوهر سياسته القائمة على دعمتين رئيسيتين هما:

أولاً: التمسك بالخلافة على أساس أنها ملك لبني أمية. وقد عبّر عن ذلك بشكل واضح في قوله: "إني لا أحول بين الناس والسنتهم، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا"^(١). والواقع أن بولدر تطلع الأمويين إلى التمسك بالخلافة تعود إلى أواخر خلافة عثمان بن عفان. إذ يروي الواقدي أن مروان بن الحكم الأموي كاتب عثمان خاطب محاصريه قائلًا: "ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب؟ شأنت الوجوه، جنتم تريدون أن تزرعوا ملكنا من أيدينا، أخرجوا عنا. أما والله لنن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم". الأمر الذي أغضب المحاصرين، فشدوا الحصار على عثمان حتى قتلوه"^(٢). كما بانر معاوية في أواخر خلافته إلى العهد بالخلافة إلى ابنه يزيد من بعده، لترسيخ وراثته الخلافة في بني أمية.

ثانياً: التأكيد على سيادة قریش على القبائل العربية، وعلى أن بني أمية هم خير من يمثل هذه السيادة. وقال معاوية في ذلك: "إن الله رعى قریشاً قبل الإسلام حين جعلهم أهل الحرم، وصد عنهم كل كيد أرادهم به الناس، وخص قریشاً بالإيلاف، وذلك كله تمهيداً لبعثه خير خلقه. ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم من قریش، ثم في هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، فلا يصح ذلك إلا عليهم"^(٣). وكان يقول: "أنا ابن هند أعلم بقریش من قریش"^(٤).

وذكر المدائني أن قرشياً أغلظ لمعاوية، ودعا الله أن يريح الناس منه. فقال له معاوية: "ويحك إلى من؟! إلى بني زهرة؟ فما عندهم نصر ولا فضل، أم إلى

بنى مخزوم؟ فوالله لو نالوا من الأمر شيئاً ما كلموكم كبيراً، لم إلى بنى هاشم؟
فوالله لو نالوها لاستأثروا عليكم. وإنا على ما فينا لنعطي المسائل ونجود بالنائل،
ولا تزال العرب غلب الرقاب ما رأونا على المنابر" (٥).

ومنذ تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة أصبح مبدأ الجبر فلسفة الأمويين،
يحاولون من خلاله تبرير خلافتهم. فاعلنوا للناس أن الله سبحانه وتعالى اختارهم
للخلافة، فورد عن معاوية قوله: "لو لم يرني ربي أهلاً لهذا الأمر ما تركني
وإيَّاه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيره" (٦).

وحدث الأحنف بن قيس التميمي معاوية بن أبي سفيان على التريث في بيعة
ابنه يزيد، فردّ عليه معاوية قائلاً: "يا أبا بحر فإن خيرة الله تجدي، وقضاء الله
يجري، وأحكام الله تتفدّ، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، وإن يزيد قد بلوناه،
ولم نجد في قریش فتى هو أجدر بأن يجتمع عليه منه" (٧).

وبعد اختيار مروان بن الحكم خليفة في مؤتمر الجابية عام ٦٥ هـ، خاطبه
حسان ابن مالك بن بحدل قائلاً: "يا مروان والله ما كلهم يرضى بك"، فأجابه
مروان: "إن يرد الله أن يعطينها، لا يمنعي إيَّاه أحد من خلقه، فقال له حسان
صدقت" (٨).

وعندما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق، أمر عبد الملك
برأس عمرو بن سعيد أن يطرح من أعلى القصر، فطرح إلى لثباعه وطرحته
معه الدراهم والدينارين، ثم أعلن فيهم قائلاً: "إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما
كان من القضاء السابق والأمر النافذ" (٩).

وعندما أراد هشام بن عبد الملك خلع الوليد بن يزيد عن ولاية العهد، كتب
إليه الوليد: "فقد كتب إليّ من العهد، وكتب إليّ من العمر وسبب لي من الرزق،
ما لا يتدر أحد دونه تبارك وتعالى على قطعه عني دون موته ولا صرفه عن
مواقفه المحتومة، فقدر الله يجري على ما قدره، بما أحبه الناس وكرهوا، لا
تعجيل لعاجله، والناس بعد ذلك يحسبون الأوزار، ويعتزمون الآثام على أنفسهم

من الله بما يستوجبون العقوبة عليهم، فردّ عليه هشام قائلا: "ولمّا ما ذكرت ممّا سبّيه الله لك، فإنّ الله قد ابتدأ أمير المؤمنين بذلك واصطفاه له، والله بالبحر أمره، ولقد أصبح أمير المؤمنين وهو على يقين من رأيه، إلا أنّه لا يملك لنفسه ممّا أعطاه الله من كرامته ضرراً ولا نفعاً، وأنّ الله أرفأ عباده وأرحم من يولي أمرهم غير من يرتضيه لهم، وأنّ أمير المؤمنين مع حسن ظنه بربه لعلى لحسن الرجاء لأن يوليه بسبب ذلك لمن هو أهله في الرضا به له به ولهم" (١٠).

ووردت أيضاً روايات تفيد أنّ مبدأ الجبر قد ظهر في العصر الراشدي، فعندما طلب الثائرون في المدينة من عثمان أن يعتزل الخلافة ردّ عليهم قائلا: "ما كنت لأنزع قميصاً قمصنيه الله" (١١)، وعن يزيد بن الأسود بن قيس بن مالك النخعي، قال: "قلت لعائشة: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله (ص) في الخلافة؟ فقالت: وما تعجب من ذلك؟ وهو سلطان الله يؤتيه البرّ والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمئة سنة" (١٢).

وقد اعتمد أهل مبدأ الجبر على بعض الآيات القرآنية التي تؤيد آراءهم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا، يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْزِلَتْهُمْ أَمْ لَمْ تُنْزِلْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤).

ووردت أيضاً أحاديث نبويّة تؤكد مبدأ الجبر الذي نادى به الخلفاء الأمويون، قال رسول الله (ص): "إنّ الله عزّ وجلّ لو عتب أهل سماواته وأهل أرضه لعنتهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحد ذهباً لفقته في سبيل الله ما قبله الله منك، حتّى تؤمن بالقدر وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وإنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإنّ من على غير هذا دخلت النار" (١٥).

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: "التقى موسى وأحم عليهما السلام، فقال موسى لأحم: "أنت أبو الناس الذي أغويتهم وأخرجتهم من الجنة، فقال أحم: أولتومتي على عمل قد كتبه الله عليّ أن أعمله، وقبل أن أخلق فحج أحم وموسى" (١٦). وقال رسول الله (ص): "يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة أو خمسين ليلة، فيقول: أي رب ذكر أم أنثى، فيقول الله ويكتب الملك، فيقول: أي رب شقي أم سعيد، قال: فيقول الله، ويكتب الملك رزقه وعمله وأجله ثم يطوي الصحيفة، فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص" (١٧). وهكذا فإن الأميين لم يستخدموا فكراً غريباً عن المسلمين بل فكراً معروفاً عندهم، بل أن الإيمان بالقدر خيره وشره، هو أحد عناصر الإيمان عند المسلمين (١٨).

واستخدم الأمويون الشعراء وسيلة إعلامية لإعلان ونشر نظريتهم في الجبر، بهدف إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بالجبر، فأشاع الشعراء بين الناس أن الله سبحانه وتعالى هو الذي اختار بني أمية للخلافة، ولا مجال لتغيير إرادة الله (١٩).

لذا ظهر مذهب الجبر في الخلافة في الشعر الأموي، وتمثل الشعراء الموالون للأمويين نظريتهم في الخلافة، واتخذوه أساساً لتصويب حقهم في الملك والاحتجاج له والدفاع عنه. والشواهد على ذلك كثيرة وبعضها يكرر بعضها، فهم دائماً يُبدنون ويُعيدون في معنى واحد، وهو أن الله قلّد الأميين الخلافة، وأنهم ظلّ الله في الأرض وسنطانه على الناس، فمنها قول عبد الله بن همام السلولي ليزيد بن معاوية مقررًا أن الله اختاره لولاية أمر المسلمين (٢٠):

أصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة واشكر عطاء الذي بالملك أصفاك
وقول جرير لعبد الملك مؤكداً أن الله حباه الخلافة لأنه أحقّ بها وأقوى عليها (٢١):

وقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبد الملك^(٢١):

أشاروا بها في الأمر غيرك منهم وولاكها ذو العرش نحلا من النحل

ومنها قول جرير لعمر بن عبد العزيز منوها بأن الله فوض إليه الخلافة^(٢٢):

إن الذي بعث النبي محمدا جعل الخلافة في الإمام العادل

وقوله له مرتدا أن الله خوله للخلافة^(٢٣):

نال الخلافة إذ كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قسدر

ومنها قول جرير ليزيد بن عبد الملك مصرحا بأن الله وهبه الخلافة وأثره

بها، لورعه وتقواه، وبُعد همته وحسن تدبيره^(٢٤):

أما يزيد فإن الله فهمه حكما وأعطاه ملكا واضحا التور

يكفي الخليفة أن الله فضله عزم وثيق وعقد غير تغير

والآيات السابقة أمثلة حية صانعة لها قيمة فائقة؛ لأنها تصور نظرية

الأمويين في الخلافة، وتاريخ نشرهم لها، ومبلغ الحاحهم عليها، ومقدار اعتقاد

أنصارهم بها، الأمر الذي يوفق الأخبار التي رويت في ذلك ويؤيدها تأييدا

شديدا، ومما يزيد عليها زيادة كبيرة، تستدرك ما لُخت به، وتوضحه توضيحا

دقيقا.

فهي تدل على أن الأمويين انظروا نظرية الجبر في الخلافة في عهد معاوية

ابن أبي سفيان، وأن المروانيين منهم تمسكوا بها، واعتمدوا عليها لإثبات حقهم

في الملك، وتفسير استنثارهم به، فقد كانوا يزعمون أن الله اختارهم للخلافة،

وخصتهم بها؛ لأنهم أحسن المسلمين صلاحا وفضلا، وأكثرهم ثقى وورعا وأنقهم

علما وحكما وأصدقهم جهادا ونضالا، وأشهرهم إنصافا وعدلا.

وعلى أساس القول بأن الله سبحانه وتعالى اختار الأمويين للخلافة، فإنهم

حاولوا عن طريق شعرائهم إكساب أنفسهم صفات دينية، وذلك بتعظيم مكانة

ال خلفاء وتشبيههم بالأنبياء في صفاتهم وأخلاقهم، ولذلك فمكانهم الجنة بالقرب من

الأنبياء^(٢٥).

وقال الفرزدق يمدح هشام بن عبد الملك بمثل ذلك محاولاً إكسابه صفات الأنبياء والرسل (٢٧):

يقول ذوو العلم الذين تكلموا به عن رسول الله من كل عالم
ولو أرسل الروح الأمين إلى امرئ سوى الأنبياء المصطفين الأكارم
إذا لانت كفي هشام رسالته من الله فيها منزلات العواصم
ومن أجل إكساب هذه الصفات الدينية الصدوق، حاول الشعراء إظهار
الأمويين بأنهم شديرو الورع والتقوى، فقال نايغة بني شيبان يمدح يزيد بن عبد
الملك (٢٨):

بقطع الليل آهة ولتخابها ولبتها لا لله أي ابتها لا
تارة راكعاً وطوراً سجوداً ذا نموع تهل أي انهلال
عادل مقسط وميزان حق لم يحف في قضائه للوالي
ولذعى الأمويون لن بقاء الخلافة يعني بقاء الإسلام، والاستمرار في تأدية
الشعائر الإسلامية فلولا الخلفاء لم تقم شرائع الدين ولم تنفذ أحكامه، فوجود
الخلافة ضروري لوجود الدين واستمراره، فيقول الوليد بن يزيد في كتاب العهد
لأبيه الحكم وعثمان: "تم استخلف خلفاءه على منهاج نبوته، حين قبض نبيه
(ص) وختم به وحيه لإنفاذ حكمه، وإقامة سنته وحدوده، والأخذ بقرائنه
وحقوقه، تأييداً بهم للإسلام، ونفعا بهم عن حريمه وعدلاً بهم بين عباده وإصلاحاً
بهم لبلاده" (٢٩)، فإنه تبارك وتعالى يقول: "ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض
لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين" (٣٠). وقال جرير يمدح عبد
الملك بن مروان (٣١):

لولا الخلافة والقرآن يقرأه ما قام للناس لحكام ولا جمع
ونتيجة لهذه المكانة التي إذعاهها الأمويون لأنفسهم، فقد أعلنوا لن كل خروج
أو ثورة عليهم هو خروج على طاعة الله وعلى الإسلام، وبالتالي فإن هذا
للخروج يعدّ كفراً بالإسلام، فعندما اجتمع حسان بن مالك بن بحدل بالنصار بني

أمية في الأردن خاطبهم قائلا: "يا أهل الأردن ما شهادتكم على ابن الزبير، وعلى قتل أهل الحرّة؟ قالوا: نشهد أن ابن الزبير منافق وأن قتل أهل الحرّة في النار، قال: شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلكم بالحرّة؟ قالوا: نشهد أن يزيد على الحق، وأن قتلنا بالجنة" (٣٢).

وعندما خرج عمرو بن سعيد الأشدق على عبد الملك بن مروان، خطب في أهل دمشق فقال: "أيها الناس أنه لم يبق أحد من قریش قبلي على هذا إلا زعم أن له جنة ونارا يدخل الجنة من أطاعه والنار لمن عصاه، وإني أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس من ذي شيء، غير أن لكم عليّ حسن المواساة والعطية" (٣٣).

ولما حاول الخلفاء الأمويون إعطاء أنفسهم مكانة دينية رفيعة ومنزلة مرموقة في نظر الناس من خلال القول بأن الله سبحانه وتعالى اختارهم للخلافة، فقد تلقبوا بالألقاب الجديدة تدلّ على هذه المكانة، وأول هذه الألقاب هو لقب خليفة الله، فروى عن معاوية قوله: "الأرض لله وأنا خليفة الله" (٣٤).

واعتمد الأمويون لتبرير استخدامهم لهذا اللقب على بعض الآيات القرآنية التي تدعم رأيهم ظاهرياً (٣٥)، ومنها قوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾ (٣٦).

وقد أطلق الشعراء على الخلفاء الأمويين، ألقاباً مختلفة، لقب أمين الله، فقال الفرزدق يمدح الخليفة هشام بن عبد الملك (٣٧):

هشام أمين الله في الأرض والذي به تمنع الأيام ذات المحارم

ومن الألقاب الأخرى، لقب الإمام، فقال جرير يمدح الوليد بن عبد

الملك (٣٨):

إن الوليد هو الإمام المصطفى بالتصير هزّ لواؤه والمغمم

ومن الألقاب الأخرى لقب خليل الله، فقال الفرزدق يمدح هشام بن عبد

الملك (٣٩):

ونحن قيام حيث كانت وطاعة لرجل خليل الله من غير محتد
ومن هذه الألقاب لقب راعي، فقال الفرزدق يمدح الوليد بن عبد الملك^(٤٠):
وإلك راعي الله في الأرض تنتهي إليك نواصي كل أمر وآخره
ولقب الخلفاء الأمويون بلقب آخر هو المهدي، وقد أطلق الشعراء هذا اللقب
على الخلفاء الأمويين المتأخرين منهم خاصة. فقال الفرزدق يمدح سليمان بن
عبد الملك^(٤١):

كم كان من قس يخبرنا بخلافة المهدي أو جبر
وتسمى الخلفاء الأمويون بلقب المهدي ردًا على الفرق الشيعية التي تبنت
فكرة المهدي ودعت إليها، وكان الإيمان بهذه الفكرة يعني عدم الرضا بالخلافة
الأموية وانتظار خروج المهدي للاشتراك معه في الثورة على الأمويين والقضاء
على دولتهم بإقامة دولة الحق والعدل، كما أن الإيمان بهذه الفكرة يعطي معتقبيها
الأمل بتغيير الحكم الأموي، فحارب الأمويون هذه الفكرة بالإدعاء بأن الخليفة
القائم هو المهدي، وأنه لا مهدي غيره، وهم بذلك يدفعون المؤمنين بهذه الفكرة
إلى اليأس والقنوط؛ لأنه لا أمل لهم في ظهور المهدي، فتقتر قوتهم ويضعف
حماسهم ويمتنعون عن معارضة الأمويين.

وتوصل بعض الباحثين إلى أن إطلاق لقب المهدي على الخلفاء الراشدين
والأمويين كان بمعنى الخلفاء الذين يهدون إلى الخير والرشد^(٤٢).

وتبني الأمويون الجبر لدفع الناس لطاعتهم، والاستسلام لحكمهم، ومنعهم
من التفكير بالثورة عليهم، ومحاولة تغيير حكمهم؛ لأن أي ثورة يقومون بها
محكوم عليها بالفشل؛ لأنها تتعارض مع إرادة الله التي قررت اختيارهم للخلافة،
فيقول جرير مادحا عبد الملك بن مروان^(٤٣):

الله طورك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل.
وقد عبر الوليد بن يزيد عن هدف الأمويين من القول بالجبر، فقال: "فتتابع
خلفاء الله على ما أورثهم الله عليه من أمر أنبيائه واستخلفهم عليه منه، لا

يتعرض لحقهم أحد إلا صرعه الله ولا يفارق جماعتهم أحد إلا أهلكه الله ولا يستخف بولايتهم ويتهم قضاء الله فيهم أحد إلا لمكنهم الله منه وسلطهم عليه، وجعله نكالا وموعظة لغيره، وكذلك صنع الله بمن فارق الطاعة التي أمر بنزومها والأخذ بها والأثرة لها، والتي قامت السماوات والأرض بها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَمَّا اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتُمَا طُوعَا أَوْ كُرْهُمَا قَالَتَا لَتَيْنَا طَانِعِينَ﴾^(٤٤)، فبالخلافة أبقى الله من أبقى في الأرض من عبادة وصيره وبطاعة من ولاة إياها سعد من ألهما ونصرها... والطاعة رأس هذا الأمر وذروة وسنامه وملاكه وزمامه... فالزموا طاعة الله فيما عراكم ونالكم ولم يكمن من الأمور...^(٤٥).

ولنفع الرعية لمزيد من اليأس والقنوط وجعلهم يفقدون الأمل في تغير الحكم الأموي، إدعى الأمويون أن الخلافة باقية فيهم إلى يوم القيامة، فقال الفرزدق^(٤٦):
فلن تزال لكم والله أثبتها
فيكم إلى نفخة الرحمن في الصور

ومن الأسس الأخرى التي اعتمد عليها الأمويون في إدعائهم أحقيتهم بالخلافة، القول بأنهم ورثة الخليفة عثمان، وأنهم جاءوا للانتقام من قتلته، فمعاوية بن أبي سفيان رفض بيعته الخليفة علي وحاربه في صفين محتدماً على أنه قريب الخليفة عثمان ويحق له المطالبة بالثأر له من قتلته، واستطاع معاوية إقناع أهل الشام بجديّة مطالبه هذا، ولكن معاوية استغلّ هذا الطلب للوصول للخلافة، فبعد أن أصبح خليفة لم يتبع أحداً من المتهمين بقتل عثمان، وقال بعد أن بويع بالخلافة عام ٤١ هـ: "ألا وأني قد طلبت بدم عثمان قتل الله قاتليه ورد الأمر إلى أهله، على رغم معاطس أقوام"^(٤٧).

ولم يتبع المروانيون سياسة معاوية المتصامحة مع المتهمين بقتل عثمان، بل قاموا بقتل بعضهم، فعندما وصل الحجاج بن يوسف إلى الكوفة واليا عليها قتل كميل بن زياد النخعي، وعمير بن ضبابي البرجمي، وهما ممن اتهم بقتل الخليفة عثمان^(٤٨).

وقتل مروان بن الحكم، الأكرد بن همام بن عامر بن صععب، سيد قبيلة لخم في مصر، وكان ممن سار إلى الخليفة عثمان^(٤٩).

وعمل الشعراء على نشر هذا الإدعاء الأموي بين الناس، فقال الفرزدق بمدح عبد الملك بن مروان وواليه الحجاج بن يوسف^(٥٠):

هو المتيف الذي نصر ابن أروى به مروان عثمان المصابيا
إذا ذكرت عيونهم لبس لروى ويوم الدار أسهلت انسكابيا

ولادعي الأمويون أنهم أحق بالخلافة لأنهم ورثة الرسول (ص) محتجين بقرابتهم من الرسول (ص)، فروى عن معاوية في إنشاء البيعة ليزيد، مخاطباً المعارضين لبيعة يزيد من أهل المدينة: "وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنهم أهل رسول الله (ص)، فلما مضى رسول الله (ص) ولي الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة غير أنهما سارا بسيرة جميلة ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة"^(٥١). وعندما تولى العباسيون الحكم دخل على أبي العباس مشيخة من أهل الشام فقالوا: "والله ما علمنا أن لرسول الله (ص) قرابة يرثونه إلا بني أمية حتى وليتم"^(٥٢).

يزيد هذا الإدعاء الأموي ما ورد في أشعار الشعراء، فيقول الفرزدق ليزيد بن عبد الملك^(٥٣):

ورثتم خليل الله كل خزائنه وكل كتاب بالنبوة قائم
ويقول الفرزدق أيضاً لمعاوية بن هشام بن عبد الملك^(٥٤):

ورثوا تراث محمد كاتوا به أولى وكان لهم من الأقسام

ولما ادعى الأمويون أن الخلافة لا تصلح إلا لهم، أوجدوا نظرية معدن الملك والخلافة، وهدفوا من ذلك إلى تدعيم سيطرتهم وخلافتهم، وأول ما تظهر هذه النظرية عند معاوية^(٥٥):

وفي مؤتمر الجابية عام ٦٥هـ، دار نقاش بين عبد الله بن عضاء الأشعري وحستان ابن مالك بن بحدل، فقال ابن عضاء: "أراك تريد هذا الأمر لخالد بن زيد وهو حدث السن، فقال له حستان: "إنه معدن الخلافة ومقرّ الرئاسة والسياسة" (٥٦). ولادعى الأمويون أنهم يستحقون الخلافة لما يتمتعون به من صفات تؤهلهم لتولي الخلافة، وهي صفات كان من الضروري توافرها فيمن يتولى الزعامة عند العرب قبل الإسلام، ومن هذه الصفات، الكرم والحلم والشجاعة والسن المناسبة والعدل والحكمة والمكانة الرفيعة في القبيلة. فبني لميّة هم أصل قریش وسانتها قبل الإسلام وبعده، وهم سادة العرب جميعاً (٥٧).

وهكذا فإنّ الأمويين نظروا إلى أنّ الخلافة جاعتهم من الله سبحانه وتعالى، ولم تصل إليهم عن طريق بيعة الناس لهم، وهذه النظرة تشبه ما يُعرف بنظرية الحقّ الأكهي المقدّس في الحكم، والتي سادت عند بعض الشعوب القديمة مثل الفراعنة والبيزنطيين والفرس وحتى عند دول اليمن في جنوب الجزيرة العربية (٥٨).

وهذا يعني أنّ سلطة الخليفة مستمدة من الله، لذلك يجب على الرعيّة طاعته والانتقاد له؛ لأنّ أوامره ونواهيه هي بمثابة قانون سماوي، ومن هذا المنطلق لقب الخلفاء الأمويون بألقاب تدلّ على هذه المكانة العظيمة التي تمتعوا بها مثل خليفة الله، راعي الله، ظلّ الله، خليل الله، وهذا يعني أيضاً أنّه ليس من حقّ الرعيّة محاسبة الخليفة على أفعاله وأفعاله؛ لأنّ الخليفة لم يصل إلى الحكم ببيعة الناس له، وإنّ الله سبحانه وتعالى قرّر هذه الأعمال. وهدف الأمويين من ذلك إقناع الرعيّة بالانصياع للحكم الأموي، وإقناعهم بعدم اللجوء للثورة لتغيير خلافتهم؛ لأنّه لا جدوى من وراء هذه الثورات؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو القادر على إبعاد الأمويين عن الخلافة وليست الأمة.

وهذا يناقض ما كان معروفاً عند الخلفاء الراشدين، الذين كانوا يرون أنّ الأمة هي التي تملك الحقّ في تعيين الخلفاء وعزلهم وقتما شاعت إذا خالف

الخلفاء التعاليم الإسلامية، فأبو بكر يطلب من الرعية في أول خطبة مراقبة أعماله، وتصحيحها إذا أخطأ^(٥٩).

وفي سبيل إقناع الناس بصحة الإدعاء الأموي، بأحقيتهم بالخلافة، فقد نسب الأمويون إلى أنفسهم صفات كانت مرموقة في نظر العرب، منها أنهم سادة العرب عامة وقرش خاصة، وأنهم أكرم الناس وأكثرهم عطاء وأكثرهم قدرة على قتال الأعداء، ونتيجة لذلك فإن الخلافة لا تصلح إلا للأمويين، فهم معدن الملك والرياسة، وأن أي شخص يحاول الوصول إلى الخلافة سوف تبوء محاولته بالفشل؛ لأن الخلافة باقية فيهم إلى يوم القيامة فيقول مسلمة بن عبد الملك بعد ثورة يزيد بن المهلب: "أترى هؤلاء القوم قد خرجوا علينا كانوا يظنون أن الخلافة فيهم لنن كانوا ظنوا ذلك فقد ظنوا إفكاً وزوراً"^(٦٠).

وقد استخدم الأمويون وسائل مختلفة لتحقيق جوهر هذه السياسة وإقناع الناس بقبول خلافتهم منها، حسن اختيار الرجال والأعوان الموثوق بولائهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم^(٦١)، وكان المال هو أهم هذه الوسائل، إذ استخدم المال في تأكيد ولاء الأعوان، وتأييد قلوب منافسي بني أمية على الخلافة، من القرشيين، وبخاصة بنو هاشم، وغيرهم من رجال القبائل. وقد اعتبر معاوية لذلك من أجواد العرب؛ لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء، وجاد بالمال على المدراة، وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال. فرضي عنه معظم الناس، وفي مقمتهم بنو هاشم والزييريون وغيرهم. وقضت الأموال من قبل الأمويين لإقناع المعارضين بالبيعة لهم^(٦٢).

وأعطى بعض خلفاء بني أمية الأموال لبعض الفقهاء لإقناعهم بتأييد الأمويين^(٦٣)، واستخدم الأمويون الشعراء وسيلة إعلامية للإشادة بهم وبخلافتهم، وجعل الناس يميلون إليهم، فأمسكوا بفحول الشعراء في عصرهم فلقتوهم ما يجب عليهم قوله من الشعر السياسي، فانطلق هؤلاء الشعراء يدافعون عن الأمويين

وأحققتهم بالخلافة، مظهرين الصفات التي تؤهل الأمويين للخلافة دون غيرهم، ولذلك كان الشعر هو المرآة التي انعكست عليها نظرة الأمويين للخلافة^(١٤).
عمل الأمويون على تفسير الأحاديث النبوية لتخدم أغراضهم السياسية، في نفس الوقت وضع أتباعهم الأحاديث التي تدافع عن أحقيتهم بالخلافة، فظهرت الأحاديث التي تدافع عن الخليفة عثمان، وتظهر أن الأمويين كانوا محقين في قتل قتلته، ولا شك أيضاً أن الأمويين استفادوا من الأحاديث التي تدعم رأيهم في الجبر، واستفادوا من الأحاديث التي تدعو المسلمين لطاعة أولي الأمر وعدم الخروج عليهم^(١٥).

وعمل الأمويون على التقرب من القبائل وخاصة القبائل الشامية، بإعراء زعمائها بالأموال وزيادة عطائهم واستشارتهم في الأمور المختلفة التي تهتم الدولة، وعملوا على الأصهار إلى الأسر القوية في هذه القبائل العربية، من أجل إقناع هذه القبائل بالوقوف إلى جانبهم ودعم دولتهم^(١٦).

ويظهر لنا من كل ما تقدم من الأخبار والأشعار أن الأمويين تفرعوا بمقتل عثمان إلى طلب الخلافة والظفر بها، فأظهروا أنه قتل بغير حق، وأنهم ثائرون به، منكرون لقتله، مصرّون على الأخذ بشاره؛ لأنهم لقراباه وأولياء دمه. وقاد معاوية صفونهم، ونازع علياً في الخلافة، وغالبه عليها، فلما اغتيل علي حصل معاوية على الخلافة واستبد بها.

وأشاع الأمويون بعد ذلك أنهم أصحاب الخلافة وأربابها، ولولي الناس بها وأن لهم حظاً مشروعاً فيها، فبثها جامت عثمان عن مشورة وبيعة، وهم أحق بوراثته؛ لأنهم عصيته وأهل بيته، ولم يزالوا يرتنون ذلك ويحتجون به لحقهم في الخلافة إلى وقت متأخر من دولتهم.

ولكنهم تبيّنوا في زمن مبكر، بل في الشطر الأول من عهد معاوية أن حجتهم في الطلب بدم عثمان إنما تخول لهم الاقتصاص من قتلته، ولا تنقل إليهم الخلافة عنه، ووجدوا أن ما ذكروه في أنهم ورثوا الخلافة عنه لا يكون لهم لحقة

واضح في الخلافة تقوم على أسس تلقى بعض القبول وتقوى على الصمود أمام نظريات الفرق الأخرى في الخلافة، فجنحوا إلى مذهب الجبر في الخلافة واعتمدوا عليه لإثبات حقهم فيها، واستندوا إليه لتسوية سيطرتهم عليها، فأذاعوا أن الله قلدهم الخلافة وأعطاهم الملك وأنهم يسوسون بقضائه وقدره ويعملون بإمره وأمره، وأضفوا على خلافتهم ممحة من الجلالة، وخلصوا على شخصياتهم ألواناً من الألقاب الدينية.

وقد أعلنوا أن الله حباهم الخلافة لأنهم نخبة العرب نسبا وخلقاء وصفوة المسلمين ورعا وتقى.

الهوامش:

- (١) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، الجزء الرابع، القسم الأول، تحقيق إحسان عباس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٩، ج ٤، ق ١، ص ٤١٧ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ج ٥، ص ٣٣٦.
- (٢) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٣٦٢.
- (٣) ابن عسكرك، طي بن الحصن بن هبة الله، تاريخ دمشق، دار البشير، عمان، ١٩٨٢، ج ٨، ص ٣١٢.
- (٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج ٤، ص ٤١.
- (٥) البلاذري، أنساب، ج ٤، ق ١، ص ١٧-١٨.
- (٦) القاضي عبد الجبار، عبد الجبار بن محمد بن عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٤، ص ١٤٣-١٤٤.
- (٧) الإمامة والسياسة، المستوب لابن قتيبة، تحقيق محمد طه الزلي، دار صابر، بيروت، (د.ت)، ج ٤، ص ١٦١-١٦٢، الحصري القيرواني، أبي إسحاق إبراهيم بن طي، زهر الأدب وثمر الأغلب، تحقيق علي محمد الجبوري، ط ١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ج ٢، ص ٦٤٥.
- (٨) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٣٦-٥٣٧.
- (٩) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ٢، ص ٢١-٢٢.
- (١٠) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢١٢-٢١٤.
- (١١) البلاذري، أحمد بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق جوتين، الجامعة العبرية، القدس، ١٩٣٦، ج ٥، ص ٦٦-٦٧، الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٣٧١.
- (١٢) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، مكتبة الرسالة، بيروت، ١٩٦٤، ج ٨، ص ١٣٦.
- (١٣) سورة الإسراء، آية ٣، انظر تفسير هذه الآية في ابن كثير، تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ٤٥٧-٤٥٨.
- (١٤) سورة البقرة، آية ٦، ٧، انظر تفسير هذه الآية: ابن كثير، تفسير، ج ١، ص ٤٥-٤٦.
- (١٥) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج ٤، ص ٢٢٥.
- (١٦) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، المطبعة البهية، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٨٤ مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨، ج ٤، ص ٢٠٤٢.
- (١٧) البخاري، صحيح، ج ٢٢، ص ١٧٢ أبي داود، سنن، ج ٤، ص ٢٢٨ مسلم، صحيح، ج ٤، ص ٢٠٣٨.
- (١٨) أبو داود، سنن، ج ٤، ص ١٢٢٤ مسلم، صحيح، ج ١، ص ٢١٥٧ ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥، ج ١، ص ٣٢-٣٥.
- (١٩) لنظر: جرير، ديوان جرير، ص ٣٤-٣٦، ٢٥٧، ٤١٥، ٤٢٤، الغزلق، ديوان، ج ٢، ص ١٤٥-١٤٧ الأصفهاني، الأغاني، ج ١٢، ص ٤٠٨٩-٤٠٩٣.
- (٢٠) البلاذري، أنساب، ج ٤، ق ٢/٥.

- (٢١) جرير، ابن عطية الخطفي، شرح ديوان جرير، جمع وشرح محمد إسماعيل الصلوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٧٢، ص ٧٤.
- (٢٢) الفرزدق، هاتم بن غالب، ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩، ج ٣، ص ١٤٥-١٤٨.
- (٢٣) جرير، الديوان، ص ٤١٥؛ ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي، سيرة صر بن عبد العزيز، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٠٠.
- (٢٤) جرير، الديوان، ص ٤١٥؛ ابن الجوزي، سيرة صر بن عبد العزيز، ص ٢٠٠؛ الحريري، أبو الفرج معاني بن زكريا، المجلس الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق محمد الخولي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨١، ج ١، ص ٢٥٦.
- (٢٥) جرير، الديوان، ص ٢٥٢-٢٥٧.
- (٢٦) الفرزدق، الديوان، ج ٢، ص ٢١٣-٢١٦.
- (٢٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٠١-٣٠٢.
- (٢٨) النابغة الشيباني، عبد الله بن مخلوق، ديوان نابغة بني شيبان، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص ٦٨-٦٩.
- (٢٩) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢١٩-٢٢٠.
- (٣٠) سورة البقرة، آية ٢٥١.
- (٣١) جرير، الديوان، ص ٣٥٤.
- (٣٢) الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٢١-٥٢٢؛ البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١١٢؛ ابن كثير، البداية، ج ٨، ص ٢٤٠.
- (٣٣) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ١٤٠-١٤١؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، وضع فهرسه أسعد داغر، دار الأكتاف للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥، ج ٣، ص ٦٥-٦٦.
- (٣٤) البلاذري، أنساب، ج ١، ق ٤، ص ١١٦؛ المسعودي، مروج، ج ٣، ص ٤٣.
- (٣٥) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢١٧.
- (٣٦) سورة ص، آية ٢٦، انظر تفسير الآية في ابن كثير، التفسير، ج ١، ص ٣٢.
- (٣٧) الفرزدق، الديوان، ج ٢، ص ٣٠١-٣٠٢.
- (٣٨) جرير، الديوان، ص ٤٩٢.
- (٣٩) الفرزدق، الديوان، ج ١، ص ١٤٠-١٤١.
- (٤٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٤٨-٢٥١.
- (٤١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٢ و ٢٦٤؛ جرير، الديوان، ص ١٤٦-١٥١.
- (٤٢) الدوري، عبد العزيز، الفكرة المهدية بين الدعوة العباسية والعصر العباسي الأول، طبع الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٨١، ص ١٢٤-١٢٥؛ وانظر القاضي، وداد، الكيسانية في الألب والتاريخ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٢٢؛ وعطوان، حسين، الأمويون والخلافة، دار الجيل، عمان، ١٩٨٦، ص ٢١-٢٢.
- (٤٣) جرير، ديوان، ص ٤٩٢.
- (٤٤) سورة فصلت، آية ١١.
- (٤٥) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢١٩.
- (٤٦) الفرزدق، الديوان، ج ١، ص ٢١٤.
- (٤٧) البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد باقر المحمودي، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٤، ج ٣، ص ٤٦-٤٧.

- (٤٨) البلاذري، أحمد، أنساب الأشراف (مخطوط)، نسخة استنبول، المكتبة السلطانية رقم ٥٩٨، ق ٢، ص ٤؛ والنظر الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ١٢٠٧؛ ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، دار بيروت ودار صادر، بيروت، ١٩٧٥، ج ٦، ص ١٧٩.
- (٤٩) للكندي، محمد بن يوسف، ولاية مصر، تحقيق حسين نصار، دار صادر، بيروت، ١٩٥٩، ص ٦٧.
- (٥٠) الفرزدق، النديان، ج ١، ص ٢٢-٢٦.
- (٥١) ابن قتيبة، الإمامة، ج ١، ص ١٥٠.
- (٥٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٣، ص ١٥٩؛ والمسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٣.
- (٥٣) الفرزدق، النديان، ج ٢، ص ٢٨٢.
- (٥٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٣.
- (٥٥) ابن قتيبة، الإمامة والسلطة، ج ١، ص ١٥٠.
- (٥٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٢٧-١٢٩.
- (٥٧) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٤٩٤.
- (٥٨) النوري، عبد العزيز، النظم الإسلامية، مطبعة بغداد، ١٩٥٠، ص ١١-١٣.
- (٥٩) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٢٢٣، ٢٢٤؛ والنظر الزبير بن بكار، ١٩٧٢، الأخبار الموقوتات، تحقيق سامي مكي العلي، مطبعة العلي، بغداد، ١٩٧٢، ص ٥٧٩.
- (٦٠) ابن أعمش الكوفي، أبي محمد، الفتوح، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس المعارف العشاقية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٦٨، ج ٨، ص ٢١.
- (٦١) أنظر: البلاذري، أنساب، ج ٤، ق ١، ص ٩١-١١٠ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٧.
- (٦٢) أنظر: البلاذري، أنساب، ج ٤، ق ١، ص ٤٣-٤٦؛ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، (د.ت.)، ج ٢، ص ٢٣٩؛ للمسعودي مروج، ج ٣، ص ٤٥.
- (٦٣) أنظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ٧٣؛ البسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان، كتب المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٤، ج ١، ص ٣٨٤؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق (الزهري)، ص ١٦٤ تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٣١٧.
- (٦٤) أنظر: البلاذري، أنساب، ج ٤، ق ١، ص ٤٤؛ الطبري، ج ٥، ص ٣٣٦؛ ثوفي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٠٤-١٠٥؛ صلاح الدين الهادي، اتجاهات الشعر في العصر الأموي، مكتبة الخالجي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٢٩-١٣٠.
- (٦٥) ابن أبي الحديد، شرح، ج ٤، ص ٦٤، ج ١١، ص ٤٤؛ ابن كثير، ج ١١، ص ١٨٣؛ سعيد الأفطحي، معاوية في الأساطير، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، للدار المتحدة للنشر، عمان، ١٩٧٤، ص ٤٥.
- (٦٦) البلاذري، أنساب، ج ٤، ق ١، ص ٤٣، ٦٩، ١٤٩؛ اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٨؛ للمسعودي، مروج، ج ٣، ص ٤٥؛ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٣٢٩.

التاريخ
والأثار
المصرية
والإسلامية

علاقة الكويت بالدولة العثمانية

"منذ النشأة حتى عام ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م"

د. فيصل عبد الله الكندري

قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة الكويت

المقدمة

تكمّن أهمية الوثائق العثمانية في توضيح علاقة الدولة العثمانية بالمناطق والشعوب التي وقعت تحت سيطرتها، وهذه العلاقة لا تستطيع أن توضحها دور الأرشيفات الغربية لأنها لا تعطي الصورة الصحيحة لما كانت عليه حقيقة الأوضاع.

ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتتناول طبيعة علاقة الكويت بالدولة العثمانية منذ ظهور الإمارة وحتى عام ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م وهي السنة التي انتهت فيها فترة ولاية مدحت باشا على العراق، واعتمدنا في هذه الدراسة على بعض الوثائق المتعلقة بالكويت والموجودة في أرشيف رئاسة الوزراء باستنبول.

Basbakanlik Devlet Arsivleri, Genel Müdürlüğü (BDA)- Istanbul

ضمن تصنيف خاص يعرف باسم دفاتر العينية Ayniyat، وهي عبارة عن سجلات قيدت فيها السلطات العثمانية صورة طبق الأصل من جميع المكاتبات والأمور التي تم تحريرها في دائرة الصدارة العظمى إلى مختلف النظارات (الوزارات) والدوائر والولايات وغيرها من المواقع الرسمية، ويوجد في سجلات العينية مسودات لأغلب الوثائق الموجودة في سجلات أرشيف غرفة أوراق الباب العالي BAO، ويبلغ إجمالي عدد السجلات ١٧١٧ سجلاً أو دفترًا، وهي مقسمة في مجملها على حسب المناطق. وهناك خمسة سجلات خاصة بولايتي بغداد والبصرة^١، والسجل الذي يعيننا هنا هو السجل رقم ٨٥١ الذي يتعلق بالأوامر الصادرة من تاريخ ١٧ ربيع الأول ١٢٨٣ - ١٥ صفر ١٢٩٥هـ / ٩ أغسطس ١٨٦٥ - ٢٣ مارس ١٨٧٥م.

ونظراً لما تحويه تلك الوثائق من معلومات جديدة حول طبيعة علاقة الكويت بالدولة العثمانية ولأسيما خلال فترة ولاية مدحت باشا على بغداد (١٢٨٦ - ١٢٨٩هـ / ١٨٦٩ - ١٨٧٢م) رأينا أن نخصص هذه الدراسة لمعالجة هذه المسألة

^١ BDA , Basbakanlik Osmanli Arsivi Rehberi, 2baski, Istanbul, 2000, s 2002-209

مقارنة بوثائق الحملة العثمانية على الأحساء لعام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م الموجودة في أماكن أخرى من الأرشيف العثماني ولاسيما مجموعة الإيرادات الداخلية. وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام يتعلق القسم الأول بعلاقة الكويت بالدولة العثمانية منذ قدوم العتوب إلى الكويت وحتى عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م، وهو العام الذي تولى فيه مدحت باشا ولاية بغداد وحاول بعدها أن يغير علاقة الكويت بالدولة العثمانية. موضحين فيه أهم العوامل التي دفعت العتوب إقامة علاقات حسنة مع الدولة العثمانية على إمارتهم الناشئة مع ذكر أهم العوامل التي دلت على استقلالهم الفعلي عن سيادتها.

لم القسم الثاني فيتناول علاقة الكويت بالدولة العثمانية خلال الفترة الممتدة من عامي ١٢٨٣-١٢٨٩هـ / ١٨٦٦-١٨٧٢م موضحين فيه جهود نامق باشا لخلق إدارة قوية وفاعلة في الكويت. ومبينين دور الكويت في الحملة العثمانية على الأحساء لعام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م، وشيرين إلى المشاركات الكويتية في تلك الحملة، وأهمية تلك المساهمات في إنجاح الحملة.

أما القسم الأخير فيوضح أهم التغييرات والمكاسب التي حققتها الكويت من خلال تلك المشاركة.

علاقة الكويت بالدولة العثمانية منذ النشأة وحتى عام ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م عند قدوم العتوب^١ إلى الكويت في بدايات القرن السابع عشر الميلادي^٢ سعوا إلى تأمين مركزهم بإقامة علاقات طيبة مع الدولة العثمانية، فأوفدوا زعيمهم صباح بن جابر إلى الوالي العثماني في بغداد للحصول على دعم وتأييد

٢ العتوب: هم اتحاد عشائري ضم آل الصباح والجاهمة وآل الخليفة، هاجروا من موطنهم الأصلي في إقليم الهدار بنجد إلى منطقة الخليج، وانتهى بهم المقام في الكويت، وعرفوا بالعتوب نسبة إلى فعل عتب بسبب كثرة التقل والترحال.

٣ هناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول بدايات تأسيس العتوب وهجرة العتوب إلى الكويت، وقد ناقش الدكتور يعقوب يوسف الغنيم هذه المسألة بالتفصيل وللوقوف على رأيه انظر: يعقوب الغنيم، الكويت تواجه الأطماع، الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٨، ص ١٣-٦٠.

الدولة، وتعهدوا بحفظ الأمن والسلام في المنطقة. ووافق العثمانيون على ذلك شريطة عدم القيام بغارات على القوافل المارة في طريقهم^٤. ونلاحظ هنا أن العتوب أرادوا العيش بسلام في منطقتهم الجديدة، وهذا راجع لعدة أسباب:

١. تحقيق نوع من التوازن بين القوتين المحيطتين بهما وهما: بنو خالد^٥ الذين كانوا يسيطرون على الأحساء والقطيف، خاصة وأن الكويت كانت تدخل في دائرة نفوذهم. والدولة العثمانية التي كانت تسيطر على البصرة وبغداد، وقصد العتوب من ذلك أن يتحاشوا الوقوع تحت سيطرة أي من القوتين.

٢. حرص حكام الكويت على إضفاء الشرعية على حكمهم، وعلى كيانهم السياسي المولود حديثاً بكسب تأييد الدولة العثمانية ومساندتها كونها الدولة الإسلامية الكبرى.

٣. عدم تخوف شيوخ الكويت من تطور هذه العلاقة لصالح الدولة العثمانية بسبب حالة الفوضى والاضطراب التي كان يعاني منها العراق العثماني^٦، هذا بالإضافة إلى حصار بلاد فارس للبصرة ولاحتلالها خلال الأعوام ١٧٧٦-١٧٧٩م مما أضعف الوجود العثماني^٧.

كما لكت الكويت استقلالها عن الدولة العثمانية، فقامت بتقديم الدعم العسكري إليها في صراعها مع بعض القوى الأخرى كفارس والمشيخات

٤ د. ميمونة خليفة الصباح، الكويت تاريخ وحضارة ١٦١٣-١٨٠٠م، ج١، ط٣، د.م، ٢٠٠٠ ص ٩١.

٥ بنو خالد: كان لهم السيادة في شرق الجزيرة العربية في المنطقة الواقعة ما بين الكويت وحتى عمان، وانتهى حكمهم على يد الدولة السعودية الأولى عندما وجهوا لهم عدة ضربات خلال الفترة ما بين ١٧٩٣-١٧٩٥م، وسيطر بعدها السعوديون على الأحساء.

٦ د. ميمونة خليفة الصباح، المرجع السابق، ص ١٩٥.

٧ أحمد الرشيد وآخرون، الكويت من الإمارة إلى الدولة، ط٢، الكويت: دار سعد الصباح، ١٩٩٣، ص ١٠٢-١٠٣ ج ج لوريير، دليل الخليج العربي: القسم التاريخي، ج٣، قطر، دت، ص ١٥٠٣.

العربية في منطقة الخليج العربي كالثوهابية وعرب بني كعب^٨.

وثمة حواشي وقعت تكل على استقلال الكويت عن الدولة العثمانية وهي:

١- اعتماد أهالي الكويت على أنفسهم في الدفاع عن مشيختهم ضد الهجمات التي تعرضوا لها من قبل قبائل بني كعب والمنتفك في جنوب العراق، ولم ترسل الدولة العثمانية جندياً واحداً لمساعد أهالي الكويت في ذلك، وإنما كانوا يعتمدون على قوتهم الذاتية.

٢- كانت الكويت ملجأ الفارين من وجه السلطات العثمانية في كل من بغداد والبصرة، ومن ذلك لجوء مصطفى آغا متسلم البصرة وأخوه معروف آغا، وكذلك لجوء الشيخ ثويني شيخ قبيلة المنتفك^٩ إلى الكويت عام ١٧٨٧م، وطلب الأخوان منه الحماية، بعد أن فشلوا في تمردهما ضد الدولة العثمانية حين قام الأول بمحاولة لفصل البصرة عن بغداد^{١٠}، فقام والي بغداد بصد المحاولة، وطالب والي بغداد بتسليمهما، ولكن شيخ الكويت رفض ذلك^{١١}.

٣- قرار بريطانيا بنقل الوكالة التجارية لشركة الهند الشرقية من البصرة إلى الكويت خلال عامي ١٧٩٣-١٧٩٥م بعد ظهور الخلافات بين الشركة والسلطات العثمانية^{١٢}، وهذا دل على أن هذا الاستقلال الذي كان يتمتع به حاكم الكويت هو الذي شجع البريطانيين على نقل الوكالة إلى الكويت لمدة

٨ بنو كعب: وهم عرب يرجعون في أصولهم إلى نجد، هاجروا إلى منطقة الأنبار بالعراق في القرن السابع عشر الميلادي، وأخذت قوتهم تزداد مع مرور الوقت، ونشأ خلاف بينهم وبين الدولة العثمانية فطلبت منهم المغادرة، وتوجهوا إلى بلاد فارس، واستولوا على مدينة النورق، وأطلقوا عليها اسم الفلاحية، وتمكن الكعبيين من بناء أسطول لهم ساعدهم على مد سيطرتهم على المناطق المجاورة للنورق.

٩ المنتفك أو المنتفك: وهو اتحاد عشائري ضم العديد من العشائر التي تقطن جنوب حرمي العراق، تولى آل السعدون زعامة هذا الاتحاد لسنوات طويلة.

١٠ د. ميمونة خليفة الصباح، المرجع السابق، ص ٢١٦.

١١ أحمد الرشيدوي وآخرون، المرجع السابق، ص ١٠٤.

١٢ د. ميمونة خليفة الصباح، المرجع السابق، ص ٢٢٦.

- سنتين وبالتحديد من ٣٠ أبريل ١٧٩٣ ولغاية ٢٦ أغسطس ١٧٩٥ م^{١٢}.
- ٤- ترحيب أمير الكويت بمندوب خورشيد باشا قائد القوات المصرية الذي وصل إلى سواحل الأحساء عام ١٨٣٨ م، وساهمت سفينة كويتية في نقل الذخيرة والعتاد من ميناء الحديدة إلى القوات المصرية التي تحاصر القطيف في نوفمبر عام ١٨٣٩ م^{١٤}.
- ٥- ومما يؤكد استقلال الكويت عن الدولة العثمانية قيام حاكم الكويت الشيخ جابر بإرسال ابنه الشيخ صباح لتوقيع إتفاقية مع بريطانيا في عام ١٨٤١ م، وفيها طلبت بريطانيا من شيخ الكويت جابر بن عبد الله (١٨١٣-١٨٥٩ م) أن ينضم إلى إتفاقيات الهدنة التي أبرمتها مع شيوخ إمارات الخليج، ونظراً لأهمية تلك الإتفاقية نرى بأن نوردتها كاملة في الملاحق، وفيها تعهد حاكم الكويت بالمحافظة على أمن البحار، وعدم التعرض والدخول في حرب مع المشايخ العرب ممن وقعوا إتفاقيات مع بريطانيا، وأنه في حالة تعرضه للعدوان من قبل أحدهم، فإنه لا يقوم بالانتقام لنفسه، وإنما يرفع الأمر إلى السلطات البريطانية في الخليج، لتقوم بمعاقبة المسيئ، وذلك من غرة ربيع الأول ١٢٥٧ هـ/ ٢٣ أبريل ١٨٤١ م ولمدة سنة كاملة^{١٥}.
- ولو تساءلنا عن الدوافع التي دفعت للشيخ جابر لتوقيع هذه الإتفاقية لرأينا أن تدهور الوضع السياسي في منطقة الخليج العربي بسبب إحتدام النزاع بين الدولة العثمانية وإيران، وخشية بريطانيا من أن يؤدي ذلك الملاحة في منطقة الخليج، ويؤثر سلباً على نشاط السفر البحري وتجارة الفوسيلي اللؤلؤ، فدعت بريطانيا لتكوين حلف بين دول المنطقة بضمن استقرارها، ويحافظ على أمنها، ويجنب لأصحاب السفن التعرض للمخاطر الناجمة عن تلك النزاعات.

١٢ ج ج لوريير، المصدر السابق، ج٣، ص ١٥٠٧؛ لعبد الرشودي ونفرون، المرجع السابق، ص ٤٧.

١٤ ج ج لوريير، دليل الخليج العربي: القسم التاريخي، ج٣، قطر، دت، ص ١٥١٤.

¹⁵ Kuwait Political Agency, Arabic Documents, Archive Edition, 1994, p580(R.15.5.59).

وتكشف هذه الاتفاقية عن أن الكويت كانت تتمتع باستقلال القرار السياسي عن حكومة الباب العالي في استانبول، وكان لحاكمها الحق في إبرام دون أخذ موافقة مسبقة من الدولة العثمانية. كما أشارت الاتفاقية إلى حرص الكويت على استتباب الأمن في منطقة الخليج، لذا لم تتورط السفن الكويتية في أعمال القرصنة، ولا في الاعتداء على سفن وممتلكات الآخرين^{١٦}.

كما تكشف تلك الاتفاقية عن أن شيخ الكويت حرص على عدم التورط في اتفاقيات طويلة المدى بديل أنه وقعها لسنة واحدة فقط. وإن توقيع هذه الاتفاقية لا يخرج عن رغبة شيخ الكويت لإقامة علاقات حسنة مع بريطانيا وغيرها من القوى الموجودة في المنطقة.

وفي الوقت نفسه حرص شيخ الكويت على تدعيم علاقته بالدولة العثمانية وقام برفع العلم العثماني على مقره بإضافة كلمة الكويت على أحد جوانبه^{١٧}، كما رفع العلم العثماني على سفنه لضمان أمنها في عرض البحر. وفي المقابل ألزمت السلطات العثمانية للكويت بدفع جزية سنوية تمثلت في كميات من الأرز والتمر تقدمها لوالي بغداد^{١٨}.

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما طلبت الدولة العثمانية دعم الكويت ومساندتها في صراعاتها مع القوى المحلية. فقدمت الكويت الدعم العسكري لمساعدة متسلم البصرة عندما أغارت عليه قبائل بني كعب وحاصرته عام ١٨٢١م، ففر المتسلم واستجد بشيخ الكويت فأرسل الأخير السفن المحملة بالسلاح والعتاد، فاستعاد سيطرته على البصرة.

١٦ رسالة الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، العدد ٧، يونيو ٢٠٠٤م، ص ٨.

١٧ د. ميمونة خليفة الصباح، المرجع السابق، ص ٢١٢.

١٨ أحمد الرشيد وآخرون، المرجع السابق، ص ١٢٣. ويشرح لنا لوريمر ما يدفع شيخ الكويت للدولة العثمانية خلسة سنوية. ج. لوريمر، دليل الخليج العربي: القسم التاريخي، ج ٢، قطر، د.ت، ص ١٥١٢.

الموجودة في البصرة للقضاء على تمرد سكان الزبير. كما تمكنت القوات العثمانية من استعادة المحمرة من بني كعب في عام ١٨٢٧م بفضل المساعدات الكويتية^{١٩}.

وفي عام ١٨٥٤م طلبت السلطات العثمانية من شيخ الكويت أن يتولى حماية ميناء البصرة وذلك بعد أن أيقنت الدولة من قوة الكويت البحرية، وذلك مقابل راتب سنوي يدفع له من خزانة الولاية^{٢٠}. وهنا انقلب الوضع رأساً على عقب فبعد أن كانت الكويت تدفع للدولة العثمانية، أصبحت الأخيرة تدفع للكويت نظير قيامها بحماية ميناء البصرة.

ومن هنا رأينا أن لتجاه الكويت للدولة العثمانية لم يكن إلا إجراء شكلياً اقتضته المصلحة السياسية للكويت، فأقام شيخ الكويت علاقات حسنة مع الدولة العثمانية لتحاىي وقوع الكويت تحت سيطرة أي من القوى المحلية التي كانت ترغب في السيطرة عليها. وكذلك للابتعاد عن الأطماع البريطانية التي كانت تتجه إلى الكويت، فحين أدرك شيوخ الكويت عجزهم عن مجاربة بريطانيا، رأوا أن أفضل طريقة لتحاىي الوقوع تحت النفوذ البريطاني هو إقامة علاقات مع الدولة العثمانية، وبرزت هنا أهمية الاتجاه على الجانب العثماني للوقوف في وجه بريطانيا.

ويؤكد استقلال الكويت عن الدولة العثمانية خلال هذا الوقت مجموعة من الأدلة فلم تدفع الكويت أية رسوم، ولم يكن هناك موظفون عثمانيون، ولا حاميات أو مراكز عسكرية عثمانية، هذا فضلاً عن تصرف الكويت باستقلالية تامة في شؤونها الداخلية وعلاقاتها الخارجية. وهكذا نشأت علاقة وطيدة بين الجانبين عادت بالنفع على الطرفين.

١٩ د. ميمونة خليفة الصباح، المرجع السابق، ج١، ص ٢١٤.

٢٠ أحمد الرشيد وأخرون، المرجع السابق، ص ١١٠.

علاقة الكويت بالدولة العثمانية خلال الفترة ١٢٨٣-١٢٨٩هـ / ١٨٦٦-١٨٧٢م فكرت الدولة العثمانية في إقامة حكومة مركزية قوية لفرض هيبة الدولة في مختلف ولاياتها، وبدأت بتطبيق هذه السياسة منذ أن تولى نامق باشا ولاية بغداد (١٨٦٦-١٨٦٩م) فأراد نانق باشا أن يقبل شيخ الكويت بلقب قائم مقام، ولأن ينشئ مركزاً عثمانياً في الكويت لتحصيل الجمارك، ولكن شيخ الكويت رفض هذين الطلبين، ويقال أن نامق باشا فكر في غزو الكويت نظراً لازدياد النفوذ البريطاني فيها، فطلب الشيخ من بريطانيا ألا ترسو سفنها في ميناء الكويت^{٢١}، واكتفى برفع العلم العثماني على قصره، وعلى السفن الكويتية دون رفع أي رسوم للدولة العثمانية.

وتشير الوثائق العثمانية الموجودة في سجل العيّنات الصادرة بتاريخ ٢٣ محرم ١٢٨٤هـ / ٢٧ مايو ١٨٦٧م والمتعلقة بهذه المسألة إلى أن السلطات العثمانية قررت إقامة مكتب جمركي في الكويت، وتم إرسال قوائم بالرسوم وختم جمركي إلى شيخ الكويت كي يدير هذا المكتب بمعرفته، ولكن لوحظ القيام ببعض الأعمال المخالفة للأنظمة المعمول بها في الدولة العثمانية بسبب جهلهم بقواعد ونظم الجمارك، وأُرسلت مذكرة من أمانة الرسوم في بغداد بضرورة إرسال موظف عثماني إلى هناك للإشراف على إدارة أمور المكتب^{٢٢}.

وتضيف تلك الوثائق بأن السلطات العثمانية قررت إرسال موظف عثماني إلى الكويت براتب قدره ألف قرش ليشرف على تحصيل الرسوم على الحيوانات التي تخرج من أراضي الدولة العثمانية وخاصة من البصرة إلى الدول المجاورة عن طريق الكويت دون دفع رسوم عليها، وقررت أيضاً تعيين كاتب براتب قدره خمسمائة قرش، كما أرسلت إلى شيخ الكويت تعريفه الرسوم والتعليمات، ولكن الشيخ لم يقبل بإقامة المكتب بحجة أن الأهالي لم يوافقوا على إقامة المكتب الجمركي.

٢١ ج ج لوريمر، دليل الخليج العربي: القسم التاريخي، ج٣، قطر، دت، ص ١٥٢٠.
 ٢٢ BDA, Ayniyat 851, s26 no2.

وأشارت الوثيقة إلى ضرورة إرسال قوة عسكرية إلى الكويت في حالة إصرار الشيخ على موقفه، ولكن بعد مراجعة ذوي الاختصاص رأى أساسة العثمانيون ضرورة تأجيل النظر في هذا الموضوع وذلك في ٢٢ من جمادى الآخرة ١٢٨٤هـ / ٢١ من أكتوبر ١٨٦٧م^{٢٣}.

ونستشف من تلك الوثائق أن الوالي نامق باشا نجح أخيراً في كسب تأييد حاكم الكويت الشيخ عبد الله الثاني^{٢٤}، كما صانف ذلك رغبة الشيخ في إقامة علاقات ودية مع الدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية وهو ما يعطي الكويت بعداً إسلامياً، فقبل الشيخ برفع العلم العثماني رمزاً للإسلام وللهوية الإسلامية. وربما كان ذلك دافعاً لدى السلطات العثمانية إلى استبعاد فكرة إرسال جيش إلى الكويت لإجبار حاكمها على قبول فتح المكتب الجمركي، ولعدم رغبة الدولة العثمانية في تحقيق مزيد من العداوات في منطقة الخليج، وحتى لا تصطدم الدولة العثمانية بالإنجليز بالذين أخذوا يحاولون السيطرة على منطقة الخليج بجدية كبيرة منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي.

لذا كان على الدولة العثمانية أن تتصرف بحذر شديد وأن تنتظر الوقت للملام لتحول وجودها الإسمي في منطقة الخليج العربي إلى واقع فعلي، وأخذت تتحين الفرص لذلك، وتتابع الأوضاع في شبه الجزيرة العربية لعلها تجد ضالتها.

وحدث لها ذلك حين بدأت المنطقة تشهد مرحلة اضطرابات وفتن بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي المؤسس الحقيقي للدولة السعودية الثانية في عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م، والذي خلف أربعة أبناء هم عبد الله وسعود ومحمد وعبد الرحمن تصارعوا فيما بينهم، فبدأت الدولة السعودية الثانية تشهد حرباً أهلية

^{٢٣} BDA, Ayniyat 851, s27 no2.

^{٢٤} الشيخ عبد الله الصباح: وهو خامس حكام الكويت، حكم خلال الفترة ما بين ١٢٨٢-١٢٩٠هـ / ١٨٦٦-١٨٩٢م.

حين خرج سعود على سلطة أخيه عبد الله بعد عام. واحد من وفاة والده، وأخذ ينافسه في السيطرة على مدن نجد والأحساء، ونجح سعود في انتزاع مدن الأحساء ونجد من أخيه عبد الله. فأخذ الأخير يجوب المنطقة بحثاً عن حليف قوي، وداعم يستطيع الاتكال عليه ليستعيد ملكه من أخيه سعود، ولم يكن أمامه إلا الاتصال بالوالي العثماني في بغداد ليقدم له المساعدة المطلوبة والعون المنشود.^{٢٥}

الكويت والحملة العثمانية على الأحساء عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م

ولما جاء مدحت باشا^{٢٦} والياً على بغداد (١٨٦٩-١٨٧٢م) خلفاً لنامق باشا، نجح في إلناع الحكومة العثمانية بضرورة استغلال النزاع الدائر بين

٢٥ لمزيد من المعلومات حول أوضاع الجزيرة العربية وللإطلاع على الوثائق العثمانية المتعلقة بالحملة العثمانية راجع: د. فيصل الكندري، الحملة العثمانية على الأحساء عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م من خلال الوثائق العثمانية، جامعة الكويت: إصدارات مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية، الكويت، ٢٠٠٣، ص ٢٣ وما بعدها.

٢٦ ولد مدحت باشا في استانبول في صفر ١٢٣٨هـ / أكتوبر - نوفمبر ١٨٢٢م، وسمي بأحمد شفيق، حفظ القرآن في سن مبكرة للقب بحافظ شفيق، وأعطى لقب مدحت بسبب مواهبه العالية، فطغى هذا اللقب على اسمه وصار يعرف به. تعلم اللغة العربية والفارسية في صغره في جامع الفاتح. ثم تعلم بعد ذلك اللغى الفرنسية، وكان هذا بداية اطلاعه على أوروبا وأوروبا. وفي عام ١٨٥٩ أصبح مدحت رئيس سكرتارية المجلس الأعلى. وعام ١٨٦٤ عين والياً على طونه (الدانوب) وهي ولاية جديدة ظهرت ضمن تشكيلات إيالة سلسترا، وقام بالعديد من الإصلاحات هناك كانت سبباً في انتشار صيته ورفعة مكانته عند الساسة العثمانيين. وفي ٢٧ فبراير ١٨٦٩م نقل والياً على مدينة بغداد وأظهر هناك مجدداً قدرة كبيرة على الإدارة، ونجح في إعادة الهيمنة العثمانية على نجد. إلا أنه اصطدم مع الصدر الأعظم الجديد محمود نديم باشا حول إيرادات الولاية فقدم استقالته، وعاد إلى استانبول في مايو ١٨٧٢. ولم يتركه نديم باشا في استانبول فعينه والياً على أنرته. ولكن سرعان ما عينه السلطان عبد العزيز صدراً أعظم خلفاً لنديم باشا في عام ١٨٧٢م، إلا أن فترة صدارته الأولى - تسمر أكثر من ٨٠ يوماً - وهنا بدأت الأفكار الديمقراطية تغزو الدولة العثمانية، فكان مدحت أحد رواد التغيير فيها، وأخذ يطالب بفكرة إيجاد دستور للدولة. وعندما جاء السلطان عبد الحميد الثاني قام بتعيين مدحت باشا صدراً أعظم للفترة الثانية في ١٩ ديسمبر ١٨٧٦م. أظهر السلطان تجاوباً مع رواد الإصلاح ووافق على الدستور الذي لعب مدحت باشا دوراً بارزاً في إعداده، فأعلن الدستور في ٢٣ ديسمبر، لذا عرف مدحت باشا بأبي الدستور. ولكن فرحة مدحت باشا لم تكتمل حيث أن فترة صدارته لم تسمر أكثر من ٩٩ يوماً ليغزل، وعين مدحت باشا والياً على سوريا في عام ١٨٧٨م، وعزل مدحت باشا بعد سنتين. ثم فتحت الدولة ملف اغتيال السلطان عبد العزيز وأتهم مدحت باشا مع سبعة من رفاقه بقتل السلطان عبد العزيز، وصدر حكم الإعدام بحقهم، ولكن السلطان عبد الحميد خفف

الأخوين عبد الله^{٢٧} وسعود^{٢٨} أبناء الإمام فيصل بن تركي^{٢٩} لإعادة هيمنة الدولة على نجد والأحساء ولا سيما أنهما خرجتا عن سيطرة الدولة المباشرة منذ قيام الدولة السعودية الأولى التي سيطرت على نجد وشرقي الجزيرة والحجاز وصير.

ولأخذ مدحت باشا يستعد لتجهيز حملة عسكرية لإعادة سيطرة الدولة العثمانية على شرقي شبه الجزيرة العربية، ووضع خطة محكمة لتسهيل عمل الحملة، وتركزت تلك الخطة في الإعداد الجيد، وتجهيز عدد كبير من القوات العثمانية، وإشراك عدد لا بأس به من شيوخ وزعماء العشائر والقبائل العربية لتتقف بجانب القوات العثمانية حتى لا تبدو وكأنها حرب بين الأتراك والعرب، فكل تلك العوامل ساعدت في حسم أمر المعركة لصالح العثمانيين، لذا أخذت مدن وقرى الأحساء تستسلم واحدة بعد الأخرى للقوات العثمانية، ولم تبق مقاومة تذكر، ودون أن تتكبد الدولة العثمانية خسائر وتضحيات كبيرة.

كانت مشاركة الكويت في هذه الحملة عاملاً رئيسياً في حسم نتائج المعركة لصالح العثمانيين، حيث ساهمت الكويت بأسطول بحري بلغ قوامه قرابة مائة سفينة، وقام هذا الأسطول بنقل المعدات والقوات العثمانية من جنوب العراق إلى

الحكم إلى السجن المؤبد لمزيد من المعلومات حول سيرته انظر إلى مذكراته المنشورة في كتاب:
علي حيدر بك، مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، ترجمة: يوسف كمال بك حنطة وصديق
الدملوجي، ط ١، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢. لمزيد من المعلومات حول
انظر:

R.H. Davison, "MIDHAT PASHA", The Encyclopaedia of Islam², Leiden, 1991, Vol VI, pp. 1031-1035.

٢٧ عبد الله الفيصل: وهو أكبر أبناء الإمام فيصل بن تركي، وهو الحاكم الشرعي للدولة السعودية الثانية.

٢٨ سعود الفيصل: وهو ثاني أبناء الإمام فيصل بن تركي، خرج على سلطة أخيه عبد الله بعد عام واحد من ميلاده له، وحارب أخاه في أكثر من موقعة حتى انتصر عليه، توفي في الرياض عام ١٢٩١هـ / ١٨٧٥م.

٢٩ الإمام فيصل بن تركي: يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة السعودية الثانية، واستطاع أن يستعيد أمجاد أسلافه وسيطر على نجد والبحرين وقطر وعمان، توفي في عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م.

رأس تتورة بقيادة شيخ الكويت عبد الله الصباح، كما شاركت فعلياً في حصار مدينة القطيف^{٢٠}. فضلاً عن أن الكويت كانت نقطة لتجمع القبائل العربية التي قررت أن تشارك بقوات برية في الحملة، وعندما اكتمل تجمع القوات خرجت من الكويت، وشاركت الكويت بقوة برية بقيادة الشيخ مبارك الصباح^{٢١} أخو الحاكم.

ولم تقف المشاركة الكويتية عند هذا الحد وإنما كشفت لنا الوثائق العثمانية عن الدور الحيوي الذي لعبه الشيخ عبد الله الصباح كوسيط في المفاوضات مع أمراء المدن من أنصار سعود الفيصل هذه التي كثيراً ما كانت تنتهي باستسلامهم للقوات العثمانية دون قتال. كما استخدم الشيخ عبد الله الصباح دبلوماسيته في إقناع حاكم قطر الشيخ جاسم آل ثاني^{٢٢} بالاتضمام تحت اللواء العثماني مما ساعد على مد النفوذ العثماني إلى شبه جزيرة قطر^{٢٣}.

هذا، وقد لعبت الكويت دور الوسيط في إيصال التعليمات من مركز الولاية في بغداد إلى ساحات القتال في الأحساء، وفي نقل الأخبار من الأحساء إلى البصرة التي كانت يدورها ترفعها إلى بغداد ومنها إلى استانبول، وذلك عن طريق تسيير سفن خاصة لهذه الغاية أشرف على تسييرها الشيخ محمد الصباح^{٢٤} أخو الحاكم والذي تولى إدارة أمور الكويت في أثناء غياب حاكمها الشيخ عبد الله الذي توجه إلى ساحات القتال مع القوات الكويتية التي شاركت في

٢٠ أرشيف رئاسة الوزراء BDA ، إرادة داخلية 44320 وثيقة رقم 2.

٢١ الشيخ مبارك الصباح: هو سابع حكام الكويت، استمرت فترة حكمه ما بين ١٢١٢-١٢٢٤هـ/ ١٨٩٦-١٩١٥م، وهو مؤسس الكويت الحديثة، تولى الحكم بعد أخيه محمد، توفي أثناء الحرب العالمية الأولى.

٢٢ الشيخ جاسم آل ثاني (١٢٣٦-١٢٣١هـ/ ١٨٢١-١٩١٢م) مؤسس دولة قطر الحديثة تولى الحكم بعد والده عبد الله الذي توفي عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م.

٢٣ جمال زكريا قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج٢، القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٧، ص ٢٢١.

٢٤ الشيخ محمد الصباح: وهو سابع حكام الكويت، تولى الحكم بعد وفاة أخيه عبد الله، حكم خلال الفترة ما بين ١٣٠٩-١٣١٢هـ/ ١٨٩٢-١٨٩٦م.

الحملة، فقام الشيخ محمد بتسيير سفينة شراعية كل اسبوع لنقل الأخبار عبر الكويت إلى الفار والبصرة ومنهما إلى بغداد^{٣٥}. ولزيادة الإطمئنان فقد طالب مدحت باشا بتعيين ساع يقوم بنقل البريد براً عن طريق الكويت^{٣٦}.

وإن كانت الوثائق العثمانية لا تذكر صراحة قيام سفن الكويت بنقل التعليمات من بغداد إلى الأحساء فإننا نستطيع أن نستنتج ذلك لأن السفينة إذا وصلت إلى البصرة لنقل معلومة ما فإنها لن ترجع خالية، ومن المفترض أنها كانت تزود ببعض الرسائل أو الردود على استفسار قائد الحملة أو كانت تنبي حوائج للجيش، وكان من الطبيعي أن يطلب من قائد السفينة الكويتي بأن يحمل الرد إلى القوت العثمانية في الأحساء. ومما لا شك فيه أن موقع للكويت الجغرافي الواقع بين البصرة والأحساء ساعدها على القيام بمثل هذا الدور.

ولو تسامنا هل كانت ستجرح الحملة لولا مساعدة الكويت، لا شك أن موقف الحملة العثمانية كان سيختلف تماماً لو اتخذ حاكم الكويت موقفاً مغايراً من العثمانيين، وكانت الحملة ستواجه عدة مخاطر منها:

أولاً: كان على والي بغداد أن يجد البدائل الكفيلة بنقل الجيوش والمعدات العثمانية إلى سواحل الخليج العربي لإتزالها فيما بعد إلى اليابسة، وكان ذلك سيتعذر على العثمانيين وخاصة وأنهم كانوا يعانون من قلة السفن العثمانية العاملة في الخليج العربي. وتلافياً لهذا العيب فإن مدحت ألح على السلطات العثمانية عند بداية قدومه إلى بغداد في ضرورة شراء سفينتين تقومان بزيارة مولاي الخليج العربي بين فترة وأخرى.

وأدرك مدحت باشا أن غياب الدولة العثمانية عن الخليج هو الذي أعطى فرصة ذهبية للإتجلىز للهيمنة على المنطقة، كما ساعد بلاد فارس على الإدعاء بتبعية البحرين لها. وأفاد بأن ذلك من شأنه أن يقنع مشيخات الخليج بوجود دولة

٣٥ أرشيف رئاسة الوزراء BDA ، إرادة داخلية 44320 وثيقة رقم 5.

٣٦ أرشيف رئاسة الوزراء BDA ، إرادة داخلية 44002 وثيقة رقم 1.

عثمانية قوية تستطيع أن تواجه الوجود الإنجليزي في مياه الخليج. إذا ساعد على جمع معلومات عن الوجود الإنجليزي في الخليج العربي ورفعها إلى السلطات العثمانية لوضع التدابير والخطط لمواجهة ذلك. واستجابت الدولة لتلك المطالب وقامت بشراء سفينتين هما بابل وآثور (أو آشور) للقيام بهذه المهمة في الخليج.^{٣٧} ولكن حتى مع وجود هاتين السفينتين فهما غير كافيتين لنقل معدات حملة كاملة. وفي ظل عدم وجود السفن الكافية لنقل الجيوش العثمانية ومعداتهم إلى ساحات القتال كان ذلك يتطلب من العثمانيين سلوك الطريق البديل وهو الطريق البري، وكان الطريق شاقاً ومملاً نظراً لطول المسافة التي كانت ستقطعها القوات العثمانية المرابطة في بغداد وهي الجيش السادس، فلك أن تتخيل حالة الجندي والآليات العثمانية عندما تقطع كل تلك المسافة التي تقدر بالآلاف الكيلومترات من بغداد إلى الأحساء، إذ كانت القوات ستصل إلى الأحساء وهي منهكة القوى، قد أضناها طول الطريق، وقطع الصحراء القاحلة التي كانت ستمر بها. وعند وصولها إلى الأحساء ستكون القوات العثمانية فريسة سهلة لقوات سعود الفيصل، وهذا ما حدث مع الجيوش العثمانية التي أرسلت من بغداد وبلاد الشام للقضاء على الدولة السعودية الأولى، وكان مصيرها جميعاً الفشل. ثانياً: مع وجود السفن العثمانية الكبيرة كانت الحملة غير قادرة على إيصال القوات والمعدات إلى سواحل الخليج، لأن معظم بلدان ومدن الخليج تمتاز بوجود موانئ طبيعية، وهذه الموانئ غير صالحة لرسو السفن الكبيرة والضخمة، وكان لابد من الاستعانة بسفن صغيرة الحجم تستطيع أن تدخل الموانئ لتفرغ حمولتها، لذا نجد أن السفن العثمانية الكبيرة التي شاركت في نقل المعدات والجنود لم تشارك في حصار موانئ الأحساء لأنها لا تستطيع الاقتراب منها، وإنما اكتفت بإطلاق قذائفها من بعد على تلك المدن والقلاع،

وهنا جاء دور السفن الكويتية الصغيرة الحجم فساهمت في نقل الجلود
العثمانيين إلى ميناء رأس تنورة، وفي حصار مدينة القطيف لأنها أخف
وزناً، وأسرع وأقدر على القيام بمناورات عسكرية.

ثالثاً: كان من المتعذر على السلطات العثمانية إبقاء الاتصال مفتوحاً ومستمراً
بين القوات العثمانية في الأحساء وولاية بغداد بدون دور فاعل للكويت حيث
إن طول المسافة يتعذر معه المحافظة على خطوط إمداد وتموين الجيش
العثماني، وهذا يدفعنا إلى القول بأن الكويت ربما كانت هنا محطة رئيسية
لتنزويد الجيش العثماني بما يحتاج إليه من تموين ومواد غذائية، لأن عدد
القوات المشاركة في الحملة بلغ قرابة ستة آلاف جندي، ولا شك في أن
وجود هذا العدد الضخم يحتاج إلى خطوط إمداد وتموين مستمرة على مدار
الساعة بين مركز الولاية في بغداد وإدارة العمليات العسكرية في الأحساء
ونجد، وإن كانت الوثائق العثمانية المتعلقة بالحملة لا تشير إلى مسألة إمداد
وتموين الجيوش العثمانية، ولكن هذا الأمر من البدهيات العسكرية التي لا بد
منها لضمان نجاح أية حملة. وإذا لم تكن الكويت المحطة الرئيسية في ذلك
فلا شك في أن السفن الكويتية قد لعبت دوراً حيوياً وقاعلاً في هذا الميدان،
ولاسيما إذا علمنا بأن منطقتي نجد والأحساء خرجتا عن الهيمنة العثمانية
منذ وقت مبكر مع ظهور الدولة السعودية الأولى في القرن الثامن عشر.

رابعاً: إن مشاركة الكويت في الحملة كان أمراً حيوياً ورئيسياً لإتجاحها حيث إن
لمير الكويت لو اتخذ موقفاً معادياً من الحملة لما وجدت هناك خطوط
للإمداد والتموين للقوات العثمانية بالإضافة إلى أن ظهور العثمانيين ستكون
مكشوفة للأعداء الذين بإمكانهم أن يفرضوا حصاراً بحرياً على القوات
العثمانية المحاصرة للقطيف، وهذا لن يتأتى إلا لإمارة مثل الكويت كانت
تمتلك أسطولاً لا يستهان به في ذلك الوقت. كما أن دخول القوات العثمانية
عن طريق البر إلى صحراء نجد كان سيعرضها إلى حرب أشبه ما تكون

بحرب العصابات حيث كان بإمكان القبائل العربية التي تعرف طرق البادية معرفة جيدة بأن تنصيد الجيش العثماني في عدة أماكن، وإن تقوم بمهاجمتها لأنها تعونت على طريقة الكر والفر في الحروب، وكانوا لا يحملون معهم إلا بندقية بسيطة ليكونوا خفيفي الحركة بعكس أفراد القوات العثمانية الذين كانوا يحملون معهم المدافع والآليات الثقيلة، لذا فإن الكر والفر أو حرب العصابات تلائم ظروف الصحراء بشكل أفضل، وهذا ما اعتاده العربي في منطقته وهو غير الجندي العثماني القادم من بغداد إلى صحراء نجد.

وهذا يجعلنا ندرك أهمية مشاركة قبائل موالية لشيخ الكويت في صفوف العثمانيين، وأن تلك القوات البرية بعد أن تجمعت واكتملت عندها في الكويت خرجت تحت إمرة الشيخ مبارك الصباح الذي علش الفترة الأولى من حياته في البادية ليتعلم معارفها ولاسيما في الرماية والفروسية، وقد استطاع أن يقيم علاقات وطيدة مع شيوخ القبائل البدوية^{٣٨}. وعندما خرجت القوات البرية من الكويت كانت تعرف دريها معرفة تامة، كما كانت على علم تام بكيفية التعامل مع أبناء الصحراء إذا حدث أي أمر طارى في الطريق.

خامساً: إن لاختيار الشيخ عبد الله الصباح كمفاوض مع أعداء الدولة دليل على حنكته وخبرته السياسية، وعلى ما كان يتمتع به من مكانة وسمعة طيبة بين أمراء منطقة الخليج العربي، لذا نجده ينجح في إقناع الطرف الآخر بما يريده. ولاشك في أن هناك أمراء عرب آخرون كانوا يقفون بجانب العثمانيين إلا أن إصرارهم على ذهاب الشيخ عبد الله مع الوفد العثماني دليل على قوة شخصيته وقدرته على إقناع الآخرين بما يريده وفق مبررات عقلية ومطلقة، وهذا ساعد على تسهيل مهمة القوات العثمانية في الأجساء ومنطقة الخليج العربي. ولو لم يشارك شخص مثل الشيخ عبد الله في الحملة

٣٨ ظافر محمد الحمي، جيش الكويت في عهد الشيخ مبارك الصباح ١٨٩٦-١٩١٥م، ط١، د١، ٢٠٠٠، ص ٥٥.

فقد كان من المحتمل ان يطول بقاء القوات لفترات أطول، أو ربما فضل
أمره سعود الفيصل مقاومة العثمانيين بدلا من الاستسلام.
النتائج التي ترتبت على مشاركة الكويت في الحملة

وبعد أن نجحت الحملة العثمانية عام ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١م في استعادة نجد
والأحساء من جديد تحت جناح للدولة العثمانية^{٣٩}، أدرك مدحت باشا وهو
السياسي البارز للنور الحيوي والرئيسي الذي لعبه أمير الكويت الشيخ عبد الله
الصباح- والذي بيناه فيما سبق- في مساندة الحملة وتقديم كافة الإمكانيات
والطاقات الكامنة لديه في خدمة القوات العثمانية دون أن يتصيد الفرصة لفرض
شروطه أو لتقديم طلب نلو الآخر في وقت كانت فيه الدولة العثمانية بحاجة ماسة
إلى خدماته، إن طبيعة وشخصية الشيخ عبد الله لم تكن من هذه الفئة من الناس،
وإنما قدم كل ما قدمه وكل ما كان يمكنه أنذاك ووضع تحت تصرف للدولة
العثمانية مجانا، ويشير مدحت باشا إلى أن الأسطول الكويتي بقي حتى انتهاء
أمر الحملة^{٤٠}، ولم يطلب شيخ الكويت أي ثمن مقابل ذلك، وليس هذا فقط وإنما
ضحى بحياته وبحياة أخيه ومجموعة كبيرة من شباب بلده لخدمة الدولة
العثمانية حين قرر المشاركة في الحملة.

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن للشيخ عبد الله الصباح ادراك إن وقوفه إلى
جانب الدولة العثمانية إنما يملأه عليه إيمانه وقناعاته الشخصية بأن تلك الدولة
مهما ضعفت فإنها تمثل دولة الإسلام ، وإن من واجب كل شخص أن يسخر كل
طاقاته وإمكاناته ويضعها تحت تصرفها دون أي مقابل.

وتقديرا لمؤلف الكويت ومساهماتها الكبيرة في الحملة العثمانية على
الأحساء عام ١٨٧١م، فرغ مدحت باشا عدة مطالب إلى الدولة العثمانية بشأن
الكويت من أجل أن يربط الكويت بالدولة العثمانية بروابط ووشائج أقوى وأمتن

٣٩ لمزيد من المعلومات حول هذه الحملة راجع: د. فيصل الكندي، المرجع السابق.

٤٠ علي حيدر بك، مدحت باشا: حياته- منكراته- محاكمته، ص ٢٤٣.

عما كانت عليه قبل أن يتولى ولاية بغداد وتتلخص مطالبه في التالي:

١- الاستمرار في منح شيخ الكويت لقب قائم مقام، وللعلم فإن الدولة العثمانية من تقرر منح هذا اللقب بعد مشاركته في الحملة، وإنما منحت هذا اللقب قبل الحملة، وربما كان ذلك أيام نامق باشا والي بغداد السابق، لأن الوثائق العثمانية التي كتبت في أثناء الحملة ويعدّها^{٤١} كلها تتفق على أن شيخ الكويت كان يحمل لقب قائم مقام وهي تورد العبارة التالية: "كويت قائم مقامى شيخ عبد الله الصباح" أى "قائم مقام الكويت الشيخ عبد الله الصباح"، ولم أجد إلا وثيقة واحدة تطالب بإسناد لقب قائم مقام لشيخ اكويت بشرط تحقيق الأمن^{٤٢}.

وكان هذا لقباً تشريفياً، حيث لم يقترن بهذا اللقب أية التزامات يقوم بها حاكم الكويت إلى الدولة العثمانية، ولا يعنى هذا لقب أى شكل من أشكال التبعية سواء كانت فعلية أو اسمية، لأن شيخ الكويت حملها اللقب قبل الحملة، ومع ذلك لا تشير الوثائق العثمانية - رغم كثرتها - إلى صدور أى فرمان عثمانى يأمر شيخ الكويت أو يطلب منه المشاركة بالحمة كونه تابع للعثمانيين، أو كونه موظف عثمانى، ودم صدور مثل هذا فرمان دليل على عدم تبعية الكويت إلى الدولة العثمانية، وبالتالي فإن مشاركة شيخ الكويت في حملة لم تكن بسبب أوامر صدرت إليه من السلطان اعثمانى أو من والى بغداد، وإنما بسبب دوافع وقناعات شخصية^{٤٣}.

٢- أرسل منحت باشا برقية إلى الصدارة العظمى طالب فيها بتوجيه رتبة الاسطبل العامرة إلى حاكم الكويت للشيخ عبد الله الصباح، ومنح نشانين مجيدين

٤١ انظر على سبيل الوثيقة التي تحدث فيها منحت عن وصول القوات العثمانية إلى الكويت وأن شيخها ورجالاتها خرجوا إلى البحر لاستقبال القوات العثمانية بالفرح وذبح الخراف.
لوشيف رئيسة الوزراء BDA ، براءة داخلية 44002 وثيقة رقم 4.

42 BDA, Ayniyat 851, s27 no2.

٤٣ جيورجي بوندار يسكي، الكويت وعلاقتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ترجمة ماهر سلامة، الكويت: مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٤، ص ٨٢.

من الرتبة الخامسة لأخويه مبارك ومحمد لدوريهما في مساندة القوات العثمانية في أثناء حملة الأحساء^{٤٤}. ورفعت السلطات العثمانية عريضة إلى السلطان العثماني في ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٨٨ هـ/ ٣٠ يونيو ١٨٧١م، ووافق عليها السلطان العثماني بعد يومين أي في ١٣ جمادى الأولى^{٤٥}.

٣- تحدث مدحت باشا عن الكويت في مذكراته التي نشرها ابنه علي حيدر ومن ضمن ما ذكره عن الكويت بورد العالي: "... فقد دعاهم مدحت باشا، واعفاهم من الرسوم الجمركية وغيرها من التكاليف الأميرية... ودعا عبد الله بن الصباح بقائهم في الكويت، وأبقاه كما كان وأبقى غيره من الموظفين أيضاً، ولم يغير شكل حكومتهم"^{٤٦}.

ومن الفقرة السابقة نستخلص ما يلي:

- أن الكويت قضاء مستقل، يتوارث الحكم فيها أسرة آل الصباح، على أن يكون للشيخ مستقلاً في شؤونه الداخلية والخارجية، وهذا ما نستشفه من قول مدحت باشا بأنه "لم يغير شكل حكومتهم".

- لا يلتزم أهالي الكويت بدفع أية رسوم أو ضرائب للباب العالي. إن قبول الكويت بماعرضه عليه مدحت باشا كان مشروطاً بعدم دفع أية تكاليف إلى السلطات العثمانية.

- إلزام السفن الكويتية برفع العلم العثماني، مع إعفائها من الرسوم^{٤٧}، لأن السفن الكويتية كانت تصل إلى الهند وشرق أفريقيا، وسواحل بحر العرب، وكانت تتاجر مع البصرة لذا فإن رفع راية الدولة بمثابة هوية لها، وللاستفادة

٤٤ أرشيف رئاسة الوزراء BDA ، إرادة داخلية 44320 Irade Dahiliye وثيقة رقم

4.

٤٥ أرشيف رئاسة الوزراء BDA ، إرادة داخلية 44320 وثيقة رقم 6 : BDA, Ayniyat

851, s119 no1.

٤٦ علي حيدر بك، مدحت باشا: حياته - مذكراته - محاكمته، ص ٢٢٩.

٤٧ أحمد الرشيد وأخرون، الكويت من الإمارة إلى الدولة، ص ١١١-١١٢.

من الاتفاقيات التجارية المبرمة بين الدولة العثمانية وبريطانيا كتخفيض نسبة الرسوم مثلاً وغيره.

٤- عندما وصل مدحت باشا إلى بغداد وجد أن هناك أراضي زراعية شاسعة مهملة، ولا يستفاد منها بشيء، وفكر بطريقة للاستفادة منها فأخذ يوزعها على رؤساء القبائل والعشائر ليكسب بها ولاءهم، وليقوموا باستصلاحها وبررعته، ومن ثم دفع للضرائب المترتبة عليها للدولة، وبهذا استطاع أن يحقق عدة أهداف في آن واحد، ومن هذا المنطلق منح شيخ الكويت أراضي زراعية في الفاو تنفيذاً لهذه السياسة. وتشير الوثائق العثمانية بأن مدحت باشا منح الشيخ عبد الله نصيباح مساحات كبيرة في ناحية تعرف باسم تجر في منطقة الفاو لمدة سبع سنوات، وقدرت إيرادات تلك الأراضي بقيمة ١١,٥٠٠ (أحد عشر ألفاً وخمسمئة) قرش.

والجدير بالذكر أننا لا نقصد بالمساحات الزراعية أنها كانت بساكنة مثمرة، كما أن حدائق ذات بهجة يتغنى بها الشعراء والأدباء، وإنما كانت أرضاً بور، فقام شيوخ الكويت باستصلاحها، وجلب المياه لها، واختاروا أجود أنواع النخيل لراعتها حتى غدت بعد فترة أراضٍ مثمرة، وغدت مزارع الكويتيين مثلاً حدى به وإن امتلاك الكويتيين للأراضي الزراعية في البصرة لم يقف عند حدهم، وإنما أخذ تجار الكويت فيما بعد يتسابقون على شراء مثل تلك الأراضي، وحدث ذلك عندما بدأت العائلات الكويتية تشتري الأراضي منذ عام ١٢٢٥ هـ/ ١٨١٠م، وانفقوا عليها مبالغ كبيرة حتى تصبح مثمرة، وبلغ مجموع الأراضي المستملكة للكويتيين حوالي ١٨٦٥٠ جريباً (والجريب يعادل ٣٩٦٧ متر مربعاً)^{٤٨}.

٤٨ كان ذلك في النصف الأول من القرن الماضي، وكانت تلك الأراضي تترك خلاء كبيراً قبل اكتشاف البترول، لذا لمآلت تلك المبالغ لمعالي الحكومات العراقية، فأخذت تسيطر حتى وضعت يدها على معظم ممتلكات الكويتيين في جنوب العراق. لمزيد من المعلومات حول ممتلكات الكويتيين راجع: يوسف بن محمد النصف، نخلتك، ط٥، الكويت، ١٩٩٧، ص ٣٣-٥٥.

٥- كنا قد ذكرنا أن السلطات العثمانية وافقت على دفع المبلغ المذكور من خزينة ولاية البصرة لشيخ الكويت نظير قيامه بحماية ميناء البصرة، ولسبب أو لآخر قامت تلك السلطات بإيقاف ذلك فترة من الزمن، ولما جاء مدحت باشا قرر إعادة صرف ١٥٠ كارة من تمور البصرة لشيخ الكويت نظير خدماته المجانية ومشاركته بنفسه في حملة الأحساء، ورفع هذا الطلب إلى وزارة المالية لاتخاذ اللازم، ووافق مجلس شورى الدولة، والسultan العثماني على هذا الطلب في رجب عام ١٢٨٩هـ/ سبتمبر ١٨٧٢م^{٤٩}.

٦- جرت العادة عند العثمانيين إعطاء رؤساء القبائل وشيوخ العشائر خلعا (وهي ما يعرف حاليا باسم البشت) لكسب تليدهم وضمان ولائهم للدولة، ولكن تشير الوثائق العثمانية إلى أن شيوخ الكويت يختلفون عن غيرهم ولا يمكن مقارنتهم برؤساء القبائل الأخرى لذا وجب تكريمهم بشيء خاص على قدر مكنتهم عند الدولة، ورفعت الدولة من قيمة تلك الخلع التي تصرف لشيوخ الكويت لتبلغ سبعة وعشرون ألفا وثمنامائة وكسور قرش من ضمن ميزانية ولاية البصرة وذلك في عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م^{٥٠}.

٧- إن الناظر في الوثائق العثمانية يستنتج بأن الكويت كانت تعمل معاملة خاصة بسبب الدور الحيوي الذي قامت به في خدمة ومساندة الدولة، لذا لم تحاول الدولة العثمانية أن ترسل أية قوات عثمانية لترابط في الكويت على الرغم من الإرتباط الوثيق الذي لمسه بعد الحملة، وإنما اصررت السلطات العثمانية على عدم المساس باستقلالية الكويت. وهذا خلاف ما حدث مع قطر مثلا حين ارتبط حاكمها جاسم آل ثاني بالدولة العثمانية مساعى الشيخ عبد الله الصباح الذي نجح في إقناعه برفع الراية العثمانية بعد نجاح الحملة العثمانية على الأحساء عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، فبادرت الدولة العثمانية إلى إرسال حامية عثمانية مكونة من مائة جندي وعدد من المدافع إلى قطر لتأكيد تبعيتها للدولة العثمانية^{٥١}.

^{٤٩} BDA, Ayniyat 851, s163 no2 & s? no1.

^{٥٠} BDA, Ayniyat 851, s243 no1.

^{٥١} لمزيد من المعلومات حول المدافع التي دفعت لجسم آل ثاني قبل السيادة العثمانية راجع: فيصل الكندي، المرجع السابق، ص ٧١-٧٦.

الخلاصة

رأينا في هذه الورقة كيف أن الكويت كانت تدفع رسوماً للدولة العثمانية نظير رفع العلم اعثماني، ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما كانت الدولة العثمانية بحاجة إلى خدمات شيخ الكويت كثيراً للاستفادة من أسطوله في حماية ميناء البصرة من تهديدات القبائل البدوية الموجودة في جنوب العراق، وفي المقابل قامت السلطات العثمانية بدفع مبالغ سنوية لشيخ الكويت.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حاولت الدولة العثمانية تقوية هيمنتها على منطقة الخليج عن طريق خلق إدارة قوية، فأرسلت حملة على الأحساء عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ونجحت الحملة في إعادة السيطرة العثمانية على نجد والأحساء بفضل المساعدات التي قدمها شيخ الكويت للحملة العثمانية، وفي المقابل استقادت الكويت كثيراً من تلك المساعدة وأدى ذلك إلى توثيق الروابط بين الكويت والدولة العثمانية والتي استمرت لسنوات بعد الحملة. وأوضحت الدراسة أن الكويت كانت تتمتع بالاستقلال عن الدولة العثمانية منذ فترة مبكرة.

ولكن لم يستمر اهتمام الدولة العثمانية بالخليج العربي كثيراً فسرعان ما انشغلت الدولة بحروبها في البلقان، فتعرض وجودها العسكري للتدهور بسبب كثرة تمرد القبائل على الحكم العثماني، بسبب جهل ولاية بغداد في كيفية التعامل مع أبناء منطقة الخليج، ولم يأخذوا بالإصلاحات الكبيرة التي قام بها مدحت باشا، وأهملوا المنطقة فكانت عرضة لانتشار الأوبئة والأمراض^{٥٢}، ولهيمنة قوى أوروبية أخرى وجدت الطريق أمامها مفتوحاً للسيطر على الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية.

الملاحق

الأرشيف البريطاني

Kuwait Political Agency, Arabic Documents, Archive Edition, 1994,
p580 (R.15.5.59)

بسم الله

مضمون هذه الأحرف بانى أنا يا صباح ابن جابر بنيليتى عن ابى جابر ابن عبد الله الصباح حاكم الكويت قد رضىت وقبلت عن نفسى وعن رعاياى والمتعلقين على بالقرار الذى قرره جناب ذى الشوكة والإجلال الأفخم القبطان هل باليوز خليج فارس مع مشايخ العرب المصالحين من استقامة المهادنة والصلح عن صدور التحديات والتعرضات فى البحر وأن لا لى حرب ولا جدال فى البحر مع جميع مشايخ العرب الداخلين فى سلك الصلح المهادنة مع جناب ذى الاقتدار والمفاخر السركار الألفرنسى (الفرنسى) الأفخم وأن أصون رعاياى والمتعلقين على من التعدى والتعرض على سائر الطوائف المصالحين فى البحر، وإن لا قدر الله تعالى أحد تجراً وتعرض رعاياى والمحبوسين (المحبوسين) على فى البحر فلا يكون فروا أقوم لأخذ التصلص والانتقام بل أنترم برفع الأمر لجناب على الجاه البليوز صلحب للمذكور حتى يقوم بلازم التنبيه والتقصاص بعد تحقيق الأمر وأجريت مع جناب المشار إليه مضمون ما ذكر من حين التحرير الذى هو شرة ربيع الأول سنة ١٢٥٧ هـ إلى مدة سنة كاملة هذا والله خير للشاهدين.

صباح عبد ابن جابر

الوثائق العثمانية المترجمة

عقبات 851 ص 20 وثيقة رقم 3

تقرر إقامة جمرك فى موضع يسمى الكويت يقع بين البصرة ومسقط ويمثل مفتاح البصرة، وهو مخفى ومخرج للأشياء المهربة، وقد تم إرسال قولتم بالرسوم وخلافه الموجودة فى الجمرك الأخرى وختماً جمركياً إلى مشيخة الكويت التى سبداً بمعرفتها، إلا أنه قد لوحظ قيامهم ببعض الأعمال المخالفة للنظام نظراً لجهلهم بقواعد ونظم الجمرك، وبناءاً على ذلك وردت مذكرة من أمانة الرسوم بخصوص استفساركم عن حقيقة الأمر من أجل تعيين وإرسال موظف إلى هناك فى الوقت كان يؤمل فيه تحقيق إيرادات. وغنى عن البيان أن حاصلات الرسوم تعد أحد الإيرادات المهمة للخرينة الجلية، لذا يلزم حسن إدارتها وحمايتها، وليس من شك فى أن تعاملكم فى هذا الشأن سيتم البناء على هذا الهدف.

ونظراً لأن إدارة هذا النوع من الرسوم بأداة مخصصة وخيرة سيكون من مقتضيات الأصول المرعية فإنه فى حالة التقييم بالتحقيقات اللازمة على النحو المذكور، ووصول تحصيل الإيرادات العامة إلى الدرجة المطلوبة فعليكم إعتبار إخبارنا بحقيقة الأمر. والأمر فى هذا الشأن لسيدى. فى ٢٣ محرم ١٢٨٤.

عقبات 851 ص 27 وثيقة رقم 2

بناءً على التحريرات الجوابية التى تتضمن بعض الإجابات بشأن تأجيل الجمرك المزمع إنشاؤه فى موضع يسمى الكويت فقد تم الاتصال بأمانة الرسوم فى هذا الشأن، ونظراً لما ورد

في البرقية السابقة من ناظر الرسوم في بغداد في هذا الشأن من مرور الحيوانات التي تصدر من البصرة إلى البلاد الأجنبية عبر الكويت دون رسوم، وقرار إقامة جمرات في الموضع المذكور على النحر السابق، وبناء على القرار الصادر بتعيين وإرسال موظف إلى هناك براتب ألف قرش لتحصيل الرسوم عن الحيوانات، وتعيين كاتب أيضا براتب خمسمائة قرش. فقد تم الاستئذان بالتنفيذ، وأرسل إلى شيخ الموضع المذكور تعريفه بالرسوم والتطبيقات، ولكنه رد بأن الأهالي لم يوافقوا على إقامة الجمرات المذكورة، وإذا أصر على موقفه فسيكون من الضروري إرسال قوة عسكرية إلى هناك. ولهذا فقد لوحظ بأنه من المناسب تأجيل هذا الموضوع الآن، وفي حالة إقرار لاحقا قسيتم يلائمكم بعمل اللازم، وقد بدى هذا للمصلحة والحال. وتعد الأمانة المرجع الرسمي في هذا وقد بدى هذا مناسبا للمصلحة والحال. وتعد الأمانة المرجع الرسمي في هذا الشأن وفي الأمور الخاة بالرسوم والجمرات، وعندما يلزم الأمر عمل شيء جديد ولساسي يتم الإخبار أولا، ولأن الأمر يستلزم انضباط الإدارة فذلك منوط بمجهودكم، والأمر لحضرة سيدي. في ٢٢ جمادى الآخرة ١٢٨٤هـ.

عنيت 851 ص 162 وثيقة رقم 3

ورد في برقيتكم أنه تقرر إسناد الحصة الميرية في البساتين التي يتولاها قائم مقام الكويت عبد الله الصباح في كنز تجر في الفاو وقترها أحد عشر ألفا وخمسمائة قرش عن عام ٨٧ إلى عهدة المذكور مدة سبع سنوات بشرط دفع المبلغ المذكور كل عام، وتطلبون الإن في ذلك، وإذا ظهر مخالفة الأصول في الالتزام ببيانات المأمورية، فعن الحكومة استراجع المذكور للاستفادة من رأيه ومعاونته في أمر الإصلاحات هناك مثلما اتصف بحسن الخمة في السابق في الاستيلاء على منطقة نجد طبقا للإشعار والمعلومات الواردة. وقد روى من المناسب تكريمه ليمتنى مع المصلحة، وإسناد البذل المقرر للحصة الميرية على النحر الموضح ولمدة سبع سنوات إلى عهده، وتحويل الأمر إلى وزارة المالية لقيام الخزينة بالتنفيذ. في ٥ رجب ١٢٨٩.

عنيت 851 ص 163 وثيقة رقم 2

وردت برقية من ولاية بغداد بخصوص إعطاء مشايخ الكويت الواقعة في الولاية المذكورة محصول المانة وأربعين صغيرا من النخيل (بوز قرق صغير كاره خرما) المخصصة سنويا من حاصلات لواء البصرة، وقد قمت البرقية المذكورة مع منكرة وزارة المالية في هذا الشأن إلى مجلس شوري الدولة. ونظرا للإشعار الوارد فإن المخصصات تعدل محصول بساتين الكويتيين التي تم الاستيلاء عليها سابقا في البصرة، وعندما تم الاستيلاء على الموضع المذكور في الماضي، علق هذا العطاء على الإيفاء بالشروط التي عرضت عليهم، ونظرا لتحقيق معظم هذه الشروط، ولحسن خدمة قائم مقام شيخ الكويت عبد الله الصباح بحراء وأخيه مبارك برا وبالمجان، فإنه يلزم إعطاء مقابل هذه الخدمات نقدا، ولكن لأن الأمر يتطلب إعطاءهم الكثير من الأشياء مقابل هذه الخدمات.

فقد تقرر إعطائهم مقابل هذا كله مائة وخمسين طنا من التمر عينة سنويا من الإيرادات المحلية المقيدة أو طبقا للقواعد السابقة، وإيصال المقدار الذي توقف فترة بناء على هذه القواعد، وإعطاء مند للقيام مقام المذكور، وإسناد منصب القائم مقام إليه شرط تحقيق الأمن، وتقييمه بالخدمات اللازمة كما ورد في إشعار أوزارة المذكورة إعطاء عبد الله الصباح المذكور سنويا بثل الكمية المقررة له وقدرها مائة وستة عشر صغيرا من التمر بالسعر المتداول من أموال اللواء المذكور. ونظرا لما اكده الإشعار من حسن خدمة المذكور في مسألة نجد مالا وبدنا فله

لائق بالتكريم، والتقدير المخصص من التمر لن يقرر ثانية، فقد كان يأخذه من البصرة في السابق، ثم توقف فترة من الوقت، ثم أعيد صرفه مكافأة لخدماته.
وقد روى من المناسب إعطاء المخصصات السابقة والاحقة طبقا للحساب المذكور ويبلغ مائة وخمسين طنا من التمر سنويا من أموال اللواء المذكور. وقد تم إحالة الموضوع إلى وزارة المالية لعمل اللازم. في ٢٥ رجب ١٢٨٩.

عينات 851 ص 16 وثيقة رقم 2

إلى ولاية بغداد
ورد إشعار من ولاية بغداد بخصوص إعطاء شيوخ الكويت محصول التمر للبالغ مائة وأربعين كاره صغيرة من حاصلات لواء البصرة سنويا (سوى مخصص أولان يوز قرق صغير كاره خرما محصولاتند) مقابل حاصلات البساتين الخاصة بالكويتيين التابعين لولاية بغداد (بغداد ولايتي دخلنده كانن كويتلورن مقدما) التي سبق الاستيلاء عليها في البصرة، ونظرا لتحقيق معظم الشروع التي تم عرضها أثناء السيطرة على الموضوع المذكور، وما قام به عبد الله الصباح قائم مقام الكويت من الخدمة الحسنة مالا وبنا في مسألة لجد، ولزوم إصدار أمر رسمي للمذكور بإعطائه مائة وخمسين طنا من التمر (يوز اللي تونيلتو خرما) من أموال اللواء المذكور سنويا مقابل المخصصات السابقة مكافأة على خدماته.
فقد تم الاتصال بوزارة المالية، ووافق مجلس شوري الدولة، وجناب السلطان على ما جاء في إشعار الولاية، وأبلغت وزارة المالية بإصدار الأمر العالي، وإرساله إلى الولاية المذكورة. في ٢٣ رجب ١٢٨٩.

عينات 851 ص 243 وثيقة رقم 1

إلى ولاية البصرة
بناء على الإشعار الوارد من طرفكم بخصوص تسوية بمبلغ خمسمائة قرش من المصاريف الخاصة من مبلغ السبعة والعشرين ألفا وثلاثمائة وكسور قرش لشان الخلع التي أكتسبت وأعطيت لمشايخ الكويت، وبخصوص المبلغ المتبقى، وبناء على ما اتضح من مضجعة مجلس شوري الدولة، وبناء على الاتصال الذي جرى مع وزارة المالية، فإنه جرت العادة قديما بإعطاء موظفي الدولة خلعا وقبيلاتا لرؤساء العشائر والقبائل.
ونظرا لأن المشايخ المذكورين لا يقارنون برؤساء القبائل الأخرى، فإنه من سبيل توثيق تبعيتهم وارتباطهم بالسلطنة المنتية، لزم إعطاؤهم أشياء مثل الخلع والألوية، وبناء على هذا، وبعد الاستئذان فقد صدرت الإرادة السنية السلطانية بخصوص حساب الخمسمائة قرش التي دخلت ضمن موازنة ولاية البصرة من المبلغ المذكور، وتسوية المبلغ المتبقى وهو ستة وثمانون ألفا وثمانمائة وخمسة وستون قرشا أيضا من الأموال المطبقة، وإيلاغ وزارة المالية لعمل اللازم. في ٢٥ جمادى الأولى ١٢٩٣.

مضمون هذه الاحرف ما في انا يا صاحب بن جابر بن جابر بن جابر بن عبد الله
 الصلاح حاكم الكويت قد رضىت وقبلت على نفسي عن رعاباي والتعلين على
 بالقرآن الذي قرره خباب ذي الشوك والاحلال الاهل الا فخر الصبان هل بالبيرز
 خليج فارس مع مشايخ العرب الصالحين بن استقامة المهاوند والصلح مع صدهم
 السدات والشركاء في الجردان لاني حرب ولا جدال في الجرم مع جميع مشايخ
 العرب التعلين في سلمنا الصلح والمهاوند مع خباب ذي الاقتدار والمفاخر
 السدات والشركاء لا فخر وان احسن رعاباي والتعلين على من السدات والتفرض
 على من السدات الصالحين في الجردان لا قدر الله تعالى احدنا تجرى ونفرض رعاباي
 والمحبوسين على في الجرم فلا يكون فردا اقدم لاخذ القصاص والانتقام بل التزم برفع
 الاسر لجاب على الجاه الباليوز صاحب المذكر حتى يقربها لازم التيبه والقصاص
 بعد تحقيق الاسر واحريت مع خباب الشا واليه مضمون ما ذكر من حين التحرير الذي
 هو عنده ربيع الاول ١٢٥٧هـ الى مدة سنة كاملة هذا والله خير الثامدين

صاحب
 عبد
 ابن جابر

التاريخ
والآثار
المصرية
والإسلامية

المساعدات الاقتصادية بين دول الشرق الأدنى القديم وأبعادها السياسية والإنسانية

د. وفاء أحمد السيد بدار

مدرس تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٠٠

تقديم

قد يبدو من الوهلة الأولى أن مصطلح "المساعدات الاقتصادية" مصطلح حديث إذ يتكرر ذكره كثيراً في إطار العلاقات الدولية المعاصرة، خاصة وأن عالم اليوم صار يعاني بين الحين والآخر من الكوارث الطبيعية، والفكبات البشرية المنتملة في الحروب، ومن ثم تبدو الحاجة ملحة لتقديم المساعدات الاقتصادية للتخفيف من وطأة تلك الأزمات، إلا أن تاريخ العلاقات الدولية في منطقة الشرق الأدنى القديم يؤكد لنا أن هذا النوع من العلاقات كان معروفاً، إذا مارسه دول تلك المنطقة شكلاً ومضموناً في إطار العلاقات المتبادلة بين تلك الدول، وإن كان ذلك بشكل غير مباشر حيث يمكننا أن نلمس تلك القضية من خلال مضمون بعض الرسائل المتبادلة بين الحكام، وكذا بعض النصوص التي أشارت إلى هذه القضية.

ومما لا شك فيه أن "المساعدات الاقتصادية" قد تنوعت أنواعها وتباينت وأهدافها عما كانت عليه في الماضي، إذ أصبحت الآن تلائم لغة العصر ومتطلباته الفكرية والمادية، أما "المساعدات الاقتصادية" بين دول الشرق الأدنى القديم فكانت تتألف دوماً من مساعدات عينية كالحبوب، إذا أن نقص مصادر الأكرات كان يفضي بدوره إلى مجاعات مهلكة، الأمر الذي كان يستوجب معه تقديم مثل هذه المساعدات التي كانت تمثل إطاراً اقتصادياً يؤكد بدوره على وجود ذلك النوع من المساعدات.

وتمثل المساعدات الاقتصادية بين دول الشرق الأدنى القديم أبعاداً إنسانية واقتصادية ترتبط بالظروف السياسية والعلاقات السائدة بين هذه الدول، وستقوم الباحثة بإبراز هذه المساعدات ودورها السياسي، وتبدأ الدراسة بتحديد مفهوم المساعدات الاقتصادية، ثم عرض حالات المساعدات الاقتصادية.

مفهوم المساعدات الاقتصادية :

تمثل المساعدات الاقتصادية نوعاً من أنواع العلاقات السياسية بين دول الشرق الأدنى القديم ، ويقترن هذا النوع من العلاقات بفكرة تقديم المساعدة لطرف آخر عند الحاجة .

ويشكل عام فإن المساعدات المتبادلة بين دول الشرق الأدنى القديم كانت تنقسم بدورها إلى جزأين :-

- ١- المساعدات العسكرية ^(١)
- ٢- المساعدات الاقتصادية .

أما النوع الثاني من المساعدات ، " المساعدات الاقتصادية " وهو النوع الذي يمثل محور هذا البحث ، فقلما نجد معاهدة تتعلق به ، أو تنص علي تقديمه عند الحاجة إليه من الأمثلة النادرة في هذا الصدد ، تلك المعاهدة التي عقدت بين مملكة أبلا ودولة آشور ، فهي تختلف عن المعاهدات المعتادة بين دول الشرق الأدنى القديم حيث ارتبطت بتقديم المساعدة بين كلا الجانبين في حال تعرض أيا منها لخطر أو وباء يهدد الأقوات والمحاصيل ^(٢) ، إذ جاء بتلك المعاهدة ما يلي :

" إذا اعتدي أحد علي أبارسال (آشور) فإن أبلا ستحمي غلال محاصيل حقول (أبارسال - آشور) وإذا ما اعتدي أحد علي إبلا فإن أبارسال (آشور) ستكفل غلال حقول أبلا ^(٣) " .

وعلي الرغم مما تعكسه تلك المعاهدة من تبادل تقديم المساعدة في حال الأخطار التي ينجم عنها تهديد المحاصيل والغلال ، إلا أن دلالتها تظل باقية في التأكيد علي التعاون وقت الشدة لحماية الغلال بصفتها عنصراً اقتصادياً هاماً ، لهذا فهي معاهدة فريدة في مجال العلاقات الدول الشرق الأدنى القديم .

هذا وقد ارتبطت المساعدات الاقتصادية دائماً بظروف استثنائية تجعل الحاجة ماسة إلي تقديم مثل هذا النوع من المساعدات مما يجعل الأمر مسألة حيوية عاجلة خاصة خلال الحروب وما يصاحبها من اضطرابات ، ويكفي للدلالة علي مدى تأثير الحروب والتحركات البشرية وما تحدثه من أخطار

ومجاعات أن نستشهد هنا بما ورد في حوليات الملك الآشوري (تجلات بلاسر الأول) من تصويره لحال الآشوريين من جراء هجمات الأراميين التي كانت أن تعصف بكيان دولة آشور، إذ جاء في أحد نصوص هذا الملك مايلي :

" في العام العاشر عصفت للمجاعة بأرض [] وأكل الناس لحوم بعضهم البعض [...] .

[-] منازل الأراميين .

[-] أصبحوا في حاجة لتقديم الغوث

لقد غزوا آشور ولجبروا الآشوريين علي الفرار للجبال لإتقاذ حياتهم^(٣).
كما تمثل التقلبات المناخية وظروف الجفاف وما يصاحبها من جندب، عاملا لخر من العوامل الفعالة لتقديم المساعدات الاقتصادية نظرا يترتب عليها من نقص الإكوات^(٤) .

ويتضح من خلال دراسة ذلك الموضوع أن الحبوب كان تمثل النوع الأساسي من المساعدات الاقتصادية ، ذلك لأنها المصدر الرئيسي في الغذاء من ثم تأتي أهمية الحبوب في إطار المساعدات الاقتصادية بصفتها عنصرا حيويا في هذه المساعدات، ونظرا لأهمية الحبوب علي هذا النحو فقد كانت الجيوش الحديثة تعمل علي الاستيلاء علي مخازن الحبوب لويحتي إحقاقها وذلك لأضعاف السكان وسهولة الاستيلاء علي المدن التي تجتاحها فقد ورد في حوليات الملك الحيثي "مورشيليش" أنه كان يأمر جنوده دائما بالاستيلاء علي مخازن الحبوب لويحقاقها لينتشي لهم تحقيق النصر بسرعة علي الأعداء^(٥) .

ويبدو حريا بنا في إطار تحديد مفهوم المساعدات الاقتصادية، أن نؤكد علي أن "المساعدات الاقتصادية" كانت تختلف في جوهرها تماما عن جانب الهدايا والجزى التي كان تفرضها الدول الكبرى علي الولايات التابعة لها ، حتي وإن جمع للشكل الاقتصادي بين كلا الجانبين ، ذلك أن الهدايا والجزى كانت التزاما سنويا تتلقاه الدول الكبرى من الولايات التابعة لها لظير ما يتصل بحماية الدول

الكبرى لتلك الولايات، ثم أن الجزى كانت تأتي في إطار معاهدات تعقد لتؤكد على حقوق النول صاحبة السيادة علي ولاياتها^(٦).

وفي هذا الصدد تسجل الآثار المصرية مجئ الجزى والهدايا الأجنبية علي مصر^(٧) ومن ذلك مناظر الجزية السورية في المقبرة رقم (٨٤) بطيبة^(٨).

وكذا مناظر مقبرة الوزير "رخمي رع" التي تصور تلقي الجزى الأجنبية من بلاد النوبة، بونت، رنتو، كريت^(٩).

كما تعكس رسائل العمارة صورة أخرى للهدايا التي كان الملوك يتبادلون برسائلها بعضهم لبعض^(١٠).

أما للمساعدات الاقتصادية فأتى في إطار آخر من الناحية الاقتصادية، كما أنها مساعدات عاجلة تشد الحاجة إليها في وقت الأزمات، وتتخذ شكلا عينا يتمثل في الحبوب.

المساعدات الاقتصادية من مصر لبلاد النوبة السفلي :

إن أول ما يطالعنا عن "المساعدات الاقتصادية" هي تلك المساعدة التي قدمتها مصر لبلاد النوبة السفلي (واوات) خلال عصر الانتقال الأول، إذ يذكر حاكم أقليم أفر ونخن "عنخ تيفي" في نصوص مقبرته بالمعلا أنه قد قدم القمح للنوبة السفلي^(١١)، حيث ورد بمقبرته النص الآتي :



it šm^cw hnt ph.n.f. w3w3t.

"لقد وصل قمح الجنوب بحرا إلي ووات"^(١٢).

وكما يتضح من نقوش مقبرة "عنخ تيفي" أن أمر تلك المجاعة لم يقتصر علي النوبة السفلي إذ يذكر "عنخ تيفي" أنه قد أمد صعيد مصر بالقمح وذلك في المنطقة الممتدة بين طيبة جنوبا وخنادة شمالا^(١٣)، إذ أشرفت مصر العليا علي الهلاك جوعا حتي أكل الناس أولادهم من وطاة المجاعة، وقد أشار "عنخ تيفي"

أنه لم يسمح بأن يحدث ذلك في إقليمي الذي يبدو أنه كان أحسن حالا عن غيره من لأقاليم الصعيد آنذاك^(١٤).

وبذلك ينسب "عنخ تيفي" لنفسه بعدا إنسانيا وعملا جليلا متمثلا في مساعدته لصعيد مصر الذي احتاجته المجاعة إبان الصراع بين طيبة واهناسية خلال عصر الانتقال الأول. كذا مساعدته لبلاد النوبة السفلى حيث عمل على أن يصل للتمتع بسرعة إلى تلك البلاد لينقذها من خطر نقص الحبوب^(١٥).

مما هو جدير بالذكر أن "عنخ تيفي" حينما تحدث عن مساعدته لبلاد النوبة السفلى لم يتطرق للإشارة إلى أي نوع من التقيود أو الشروط المتعلقة بتلك المساعدة إنما ذكر أنه قد (منح - أعطي) كمحا لواوات، بينما نراه حين يذكر مساعدته لأقاليم الصعيد يستخدم الصيغة الآتية :

iw di. n. i Ubt n it šm^cw

"لقد أعطيت سلفة قمح الجنوب"

^(١٦)

مما يشير إلى أن ما منحة "عنخ تيفي" من قمح لأقاليم الصعيد كان على سبيل القرض التي يفترض أن يرد إليه حينما تتحسن الأوضاع مستقبلا. وهكذا فنحن أمام حالة من حالات المساعدات الاقتصادية التي تخطت حدود مصر إلى بلاد النوبة السفلى التي كانت تعاني نقصا في الحبوب^(١٧) فإذا بهذا الحاكم يقدم من جانبه تلك المساعدة للوبيين^(١٨).

والواقع إن ما ذكره "عنخ تيفي" بصدد مساعدته لبلاد النوبة السفلى لأمر يثير التساؤل حول تبرير ذلك العمل، فإذا كان من المنطقي تقبل فكرة ما قدمه من مساعدات لإخوته في صعيد مصر، من منطلق أنه أمر طبيعي بصفتهم أبناء وطنه وبني جلدته، خاصة أن ذلك كان إبان فترة الحرب الضروس بين طيبة واهناسية، إلا أن الأمر يبدو مختلفا تماما فيما يتعلق بمساعدته لبلاد النوبة

السفلى، خاصة وأن هناك من يشير إلى أن علاقات مصر بالنوبة السفلى قد أصابها نوعا من الفتور خلال عصر الانتقال الأول^(١٩).

وقد يمكننا إذا ما استعرضنا الوضع السياسي والاقتصادي خلال هذه الحقبة أن نجد تعليلا مقبولا لإقدام "عنخ تيفي" على تقديم مساعدات اقتصادية للنوبة السفلى، ذلك أن مصر كانت تعاني في هذه الحقبة من حرب أهلية بين طيبة واهناسية، مما يبدو منطقيا معه أن يحدث نقصا في الأقوات بل مجاعة كادت تقضي على الأخضر واليابس، وقد عكس الأندب المصري القديم تلك الصورة من خلال ما ورد في تحذيرات الحكيم "إيبو - ور" إذ ذكر ما يلي :

"انظر لقد صار الناس يأكلون الحشائش ويشربون الماء. لا توجد فاكهة لا يوجد عشب يأكل منه الحيوان والطيور.

وأصبح [الطعام] يخطف من أفواه الخنازير، ولم يعد أحد يقول هذا لي فخذة بدلا عني، لأن القوم صاروا جوعا" ^(٢٠).

وهكذا ساءت الأحوال الاقتصادية وتشتت المجاعة، واختل الأمن فتعذر وصول قمح الشمال إلى جنوب مصر مما ضاعف من حدة المجاعة ونقص الأقوات.

وقد يمكننا القول بأن بلاد النوبة السفلى كانت تستورد القمح من مصر فلما اضطرب ميزان الأمن بالبلاد نتيجة لتلك الحرب بالأهلية، صار من الصعب معه إمدادها بالقمح، ناهيك عن نقص الأقوات خلال تلك الحقبة. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يبدو أن للأمر بعدا سياسيا آخر حدا "بعنخ تيفي" إلى اتخاذ تلك الخطوة خاصة وأنه قد تصرف في الأمر من منطلق خاص بصفته حاكم إقليم وليس حاكما على مصر كلها، وتتبع تلك الخطوة من منطلق المسئولية تجاه الجند المرتزقة من النوبيين^(٢١)، ذلك أن الجند "المدجاي" (المجاي) النوبيين كانوا مجندون إبان الحرب الأهلية بين طيبة واهناسية^(٢٢)، ومن ثم قد يكون "عنخ تيفي" شخصا في حاجة إلى عون هؤلاء الجند المرتزقة خاصة وأنه قد انضم

إلى حاكم اهناسية في صراعه ضد طيبة^(٢٢).

وهكذا يمكننا القول بأن "عُخ تَيْفِي" قد أخذ علي عاتقه للقيام بعمل كان من الأجدر أن يقوم به حاكم طيبة^(٢٣) ولكن حاجته لهؤلاء الجند دفعته لمساعدة بلادهم.

وطبقا لما ذكره "عُخ تَيْفِي" فقد تم نقل شحنة القمح لبلاد النوبة السفلى من خلال المراكب^(٢٤)، إذ تمثل تلك لحسن وسيلة لنقل مثل هذا النوع من المساعدات.

المساعدات الاقتصادية من حاكم ماري لدولة أور الثالثة

يتخذ هذا المثال من المساعدات الاقتصادية بعدا سياسيا هاما، إذا يلقي بالضوء علي الأحداث المرتبطة بنهاية أسرة أور الثالثة وكذا علي الوضع السياسي عقب انهيار هذه للدولة خاصة في الفترة التي سبقت وتلت سقوطها مباشرة ويرتبط هذا النموذج من المساعدات بشخصية حاكم ماري "إيشبي ارا" وكان تابعا لدولة أور الثالثة خلال حكم آخر ملوكها الملك "إيبي سين" الذي ما إن تولى الحكم حتى واجهته العديد من المسائل الدقيقة التي عصفت بكيان هذه الدولة، إذ واجهته مشاكل زحف الأموريين تجاه مناطق القلب من إمبراطوريته^(٢٥)، كما واجهته مشاكل التهديدات العيلامية من جهة الشرق^(٢٦)، ونتيجة لهذه الظروف السياسية المضطربة تعرضت دولة أور الثالثة لمشاكل اقتصادية تتعلق بغلاء الأسعار والتضخم الاقتصادي ونقص الحبوب، إذ أصبحت وزنه الشعير توزي ٣٦ شاقل من النضة بالمقارنة بسرهما الطبيعي الذي كان يوزي ٦ شاقل لكل وزنه يس أولن عصر لمرور أور الثالثة، وكان ارتفاع سعر الشعير مؤشرا إلى نقص في الحبوب، كما ارتفعت أسعار الزيت والتمر^(٢٧).

وتعكس كوائم القرابين المقدمة لمجد المعجودة "إنانا" هذه الحالة الاقتصادية للحرية التي مرت بها أسرة أور الثالثة قبيل سقوطها^(٢٨).

كما قل نصيب المعابد من محصول الشعير بسبب نقص الحبوب^(٢٩) ويعكس

لنا الأدب بدوره صورة أخرى عن سوء الأحوال الاقتصادية ونقص الحبوب ففي قصيدة مرثية "أور" التي تتعلق بالنواح على سقوط أسرة أور الثالثة نجد الإشارة إلي "عدم وجود حبوب في حقول المدينة" ^(٢١) فحقول المدينة لم تعد تزرع .

فحينما احتاج الأموريون الأراضي الزراعية قلت الحبوب، وقد لجأ رجل ماري "إيشبي أرا" إلي شراء أمدانت من الحبوب وتخزينها في مدينة "إيسين" وبدأ يساوم الملك "إيبي سين" بشأن تلك الحبوب وذلك لتحقيق مكاسب سياسية تتعلق به ^(٢٢) .

وتعكس الخطابات المتبادلة بينهما مدي دهاء حاكم ماري "إيشبي أرا" إذ أحسن استغلال تلك الموقف، وكان الملك "إيبي سين" قد بعث إليه بخطاب لشراء كميات كبيرة من القمح ونقلها إلي مدينة "أور" ^(٢٣) ، لكن حاكم مدينة ماري قام بتخزين الحبوب في مدينة "إيسين" وتعلل بخطورة الطريق وصعوبة نقل شحنه الحبوب إلي "أور" بسبب هجمات الأموريين ^(٢٤)، وهذا ما يؤكد نص الخطاب الذي أرسله "إيشبي أرا" إلي ملكه "إيبي سين"، وقد جاء في هذا الخطاب مايلي:

"إلي مولاي الملك "إيبي سين"

هذا ما يقوله "إيشبي أرا" تابعك

لقد أمرت بارسال حملة إلي إيسين وكازالو لشراء الحبوب لقد وصل سعر الحبوب (الآن) إلي معدل شاقل لكل جور وقد انفتت ٢٠ تالنت من الفضة لشراء الحبوب لقد علمت أن الأعداء الأموريين قد دخلوا إلي الأراضي المتبسطة وقد احضرت إلي "إيسين" ١٤٤ ألف جور من الحبوب بالتمام الآن فقد تسال الأموريين إلي داخل البلاد واسقولوا علي الحصون الكبرى الواحد بعد الآخر .

وبسبب هؤلاء الأموريين فإنني غير قادر علي أن أمد (ك) بالحبوب

لقد أصبح الأمر شاق علي

فهل لمسيدي الملك أن يرسل ستمائة مركب "

ويلي ذلك الجزء كسر في نص الخطاب ثم يختتم "إيشبي أرا" هذا الخطاب

بافتراح أن يتولي أمر الدفاع عن "ايسين" وجارتها "نيبور" (٢٥).

وكما يتضح من نص ذلك الخطاب فإن رجل ماري قام بشراء الحبوب وعرض على الملك "ايبي سين" أن يوفر ستمائة مركب لنقل تلك الشحنة إلى مدينة أور، ولم يكن الملك "ايبي سين" قادراً على نقل تلك الشحنة من الحبوب، فعرض على "ايشبي ارا" مبلغاً مضاعفاً مقابل نقل تلك الشحنة، ولكي يواجه الملك تلك النفقات الباهظة، لجأ إلى بيع مقتنيات شحنة من معبد "أور" لكي يوفر ثمن نقل هذه الحبوب (٢٦).

ومقابل قيام رجل ماري بنقل الحبوب، طلب من الملك بأن يعهد إليه بشئون المناطق التي سترسو فيها السفن، وبالفعل عهد إليه الملك بمدينة "نفر" و"ايسين" (٢٧).

وبالرغم مما حققه رجل ماري من مكاسب لزاء استغلاله لهذا الموقف إلا أنه لم ينقل الحبوب إلى مدينة "أور" بل انتهز تلك الأوضاع السياسية والاقتصادية المتردية وأصبح حاكماً مستقلاً عن نفوذ الملك "ايبي سين" (٢٨).

ويؤكد أحد خطابات "ايبي سين" إلى حاكمة على مدينة "كوزاللو" الحاكم "بوزور نوماشدا" على أن "ايشبي ارا" صار يتطلع إلى الملكية. وقد جاء في ذلك الخطاب ما يلي:

"إلى بوزور نوماشدا حاكم كازاللو هذا ما يقوله ايبي سين .

لماذا أرسلت إلي بهذا. ايشبي ارا يضع عينه علي وسوف احضر عندما ينصرف عن ذلك. كيف يكون هذا ألم تعلم متى يعود لأدرجه لمدينته لماذا لم تتعاون مع "كير بوبو" حاكم جيركال تقدم بالقوات التي وضعها تحت تصرفك

فهل سمع "لليل" الملكية إلى رجل سي إلى "ايشبي ارا"

الذي لا ينتمي إلى أصل سومري

والذي لليل لا تتحول عني بعيداً لا تذهب ضدي

سوف لا يضع إيشي أرا يده على المدينة رجل ماري لن يكون ملكا كما يريد" (٢١).

وهكذا يعكس هذا الخطاب الصراع بين الملك "أيني سين" وتابعه "إيشي أرا" والواقع أن الملك "أيني سين" قد بات في موقف لا يحسد عليه إذ تراكت عليه المشاكل داخليا وخارجيا، وبات أمر سقوط دولة أور أمرا وشيكاً، وهذا ما تحقق بالفعل على أيدي الجيوش العيلامية (٢٢).

المساعدات الاقتصادية من مملكة حلب إلى مملكة ماري

يقوم لنا أرشيف "ماري" صورة أخرى من صور المساعدات الاقتصادية في الشرق الأدنى القديم، إذا طلب ملك ماري "زمرى ليم" من ملك حلب "يا ريم ليم" سرعة إرسال الحبوب لإنقاذ بلاده من المجاعة (٢٣) ويبدو أن مملكة ماري كانت تعاني أحيانا من نقص في الأقوات ونقص المراعي للماشية وهذا ما يعكسه أحد خطابات ماري إذ أرسل حاكم ماري أيام الآشوريين "إاسماخ اند" إلى أخيه "إيشي داجان" يطلب منه إنزال ماشيته مع ماشية أخيه لترعى في قطنه حيث المراعي الغنية، وكان إجابة أخيه عليه كما يلي :

"كما كتبت لي، فقد أوليت الأمر اهتماما، سوف أقوم بإنزال ماشيتك التي تعاني حقا من نقص الغذاء والمرعى، ولنقم بإطعام ماشيتك مع ماشيتي فالمرعى هنا غنية جدا" (٢٤).

ومن ناحية أخرى يتضح من مضمون خطاب "زسري ليم" إلى ملك حلب بصدد طلب المساعدة الاقتصادية منه، أن ظروف عدم الاستقرار والاضطرابات التي توافقت مع استعادة "زمرى ليم" عرش ماري من منافسيه الآشوريين (٢٥)، كان لها دورها في نقص الأغوات إذ جاء بذلك الخطاب النص الآتي :

"إلى والذي يسر لي الوصول للعرش، هو الوحيد الذي مد لي يد العون وثبت إقدامي، فعتذ أن جلست على العرش (استعدت الحكم) لم أواجه سوى الصراعات والمشاكل، ولؤكد أنني لم أرغب في أن يدخل بلادي أبدا أي

محصول (من بلد آخر) فإذا كنت والذي حقاً فخذ علي عاتقك توطيد أركان حكمي وساعدني وأجعل التجار الذين احضروا القمح إلي "إيمار" يرحلون بسرعة بسفنهم حتي تهدأ البلاد" (١٤).

وهكذا يمكن من خلال الخطاب السابق أن نستنتج أن "زمرى ليم" كان يعاني من نقص الحبوب في مملكته، فعلي الرغم من غني مملكة ماري التي كانت تعتمد علي التجارة كمصدر اقتصادي رئيسي لها، إلا أنها كانت تجلب الحبوب من سورية الداخلية والجزيرة العليا عبر ميناء "إيمار" (١٥)، مما يدعو للقول بأنها كانت تسد العجز في إنتاج الحبوب باستيرادها من الخارج.

كما يتضح من ذلك الخطاب كذلك أن "زمرى ليم" كان يفضل أن تكون تلك المساعدة من خلال حمية الملك "ياريم ليم" ملك حلب، فعلي الرغم من الصداقة التي جمعت بين ملك ماري والملك البابلي "حمورابي" إلا أن "زمرى ليم" لم يقبل العرض الذي قدمه له الملك حمورابي بمساعدته إياه وتزويده بالقمح (١٦)، مفضلاً علي ذلك أن تكون المساعدة من قبل ملك حلب "ياريم ليم".

والواقع إن رفض "زمرى ليم" تقبل مساعدة الملك "حمورابي" ليعود سابقة هامة فيما يتعلق بالمساعدات الاقتصادية، فهو أمر له دلالاته السياسية، فربما أراد "زمرى ليم" أن يتبين لويا ملك بابل تجاه مملكة ماري، خاصة إتهما كانا يشرفان معا علي كل وادي الفرات، وكان من مصلحة ملك بابل أن يتفرد بالأمر وحده وهذا ما كشفت عنه الأحداث التالية فعلي الرغم من العلاقات الودية بينهما فيما بعد، وعلي الرغم من التعاون العسكري بين الجانبين، إلا أن الأحداث اللاحقة تظهر أن المودة التي أبداه ملك بابل تجاه "زمرى ليم" لم تكن تخلو من حسابات خفية لمصلحة بابل، وربما استخدم حمورابي هذا الأسلوب مع صديقة "زمرى ليم" ريثما يوطد سلطانه فيكون هناك شأنا آخر وهذا ما حدث فيما بعد (١٧).

ويمكننا القول في ضوء العلاقات الطيبة وعلاقات المصاهرة التي ربطت

بين البيت الحاكم في مملكة ماري والبيت الحاكم في مملكة حلب ، نقول يمكننا القول بأن الاستجابة من قبل ملك حلب لم تكن مشروطة أو مقيدة بشروط أو بمكاسب سياسية ينبغي أن ينالها من وراء إسهامه بتقديم المساعدة لمملكة ماري، بل أن ملك حلب كان من مصلحته تدعيم جبهة صهره الملك "زمرى ليم" والعمل على استقرار الأوضاع في مملكته حتى لا تكون مملكة ماري سهلة المنال على الملك حمورابي الذي بات يهدد للفرات بأكمله من خلال تطلعاته التوسعية.

وفي ضوء ذلك يتنرض أن ملك حلب قد أرسل تلك المساعدات الاقتصادية لحليفه مملكة ماري .

المساعدات الاقتصادية من مصر لولاياتها في سورية

كانت المساعدات الاقتصادية إحدى الوسائل التي ربما تبنتها مصر لتدعيم سياستها في سوريا، خاصة عندما أصبحت الولايات المصرية في سوريا مهددة بالأخطار من مقلب "عبدى شرتا" وأبنه "عزيرو" والأمراء المواليين للحيتيين^(٤٨).

فها هو "ربعدي" أمير بيبيلوس يرسل عدة رسائل للفرعون يرجوه فيها سرعة إرسال مساعدات اقتصادية وعسكرية لإنقاذ مدن الفرعون^(٤٩) ومن ذلك ما جاء في الخطاب رقم ١٠٦ من خطابات العمارنة .

".... إناس من مصر قد قدموا من أولادنا وانضموا معي ولكن لا توجد حبوب لدعمهم. فلم يسمح لمنني أن تصل "بارموتي" ولا أستطيع أن أرسلهم إلى سومرا"^(٥٠).

والواقع أن "ربعدي" لم يكف عن إرسال الرسائل التي تكشف عن مدى الأخطار المحدقة بالولايات المصرية في سوريا، وبعض تلك الرسائل كان يحمل عبارات اللوم للفرعون على تأخير وصول الإمدادات العسكرية والاقتصادية بينما مدن الفرعون تسقط الواحدة تلو الأخرى في أيدي "عبدى شرتا" وأولاده، حتى أن "ربعدي" لم يعد يسيطر إلا على مدينة "جبله"، وذلك كما جاء في الخطاب رقم ١٢٦ من خطابات العمارنة:

"... لقد كتبت إلى الملك سيدي . لقد اخذوا كل مدني سيدهم ابن عبيدي شرتا
جبله أصبحت المدينة الوحيدة الخاضعة لي
للم إرسال بر رسول إلى سيدي المملك؟
ولم يصل الجنود
ولما ذا أخرت وصول الرسول
لرسله مع القوت" (٥١).

وهكذا يمكن القول بأن السياسة المصرية في سوريا كانت في حاجة إلى
لدعم العسكري والاقتصادي لتتصد أمم محاولات "عبيدي شرتا" والموالين له من
الأمرأه الذي انضموا لصفوف الحثيين خلال الصراع المصري الحثي في
سوريا .

للمساعدات الاقتصادية لدولة خيتا

تمثل المساعدات الاقتصادية لدولة خيتا نموذجا هاما لفكرة المساعدات
الاقتصادية ولربطها بالظروف السياسية المتعلقة بها، حيث تعكس الحقبة
الأخيرة من تاريخ الإمبراطورية الحثية كم المشاكل التي كانت تعيقها تلك
الإمبراطورية آنذاك، ومنها مشاكل الصراع الداخلي والاتباع غير المخلصين
وتنقص الأقوات (٥٢)، علاوة على أن الإمبراطورية الحثية قد بلغت في وضع لا
تتصد عليه من جراء هجمات شعوب البحر التي يبدو أنها قد قوضت لركان تلك
الإمبراطورية وقد ارتبطت تلك الفترة الحرجة من تاريخ دولة خيتا بعدد من
الخطابات التي عثر عليها في أرشيف مدينة "لوجاريت" لتلقي بالضوء على مدى
دقة الموقف الحثي آنذاك ومدى حاجته للمساعدة الاقتصادية من قبل حاكم
لوجاريت.

كما تعكس النصوص المصرية بدورها صورة أخرى للوضع السياسي
والاقتصادي في خيتا، ومدى تأثير هجمات شعوب البحر على المنطقة برمتها،
لولا شجاعة الفرعون "رعسيس الثالث" في التصدي لهذا الموقف وعلى ذلك

فيكننا الاعتماد على أرشيف "أورجايت" والنصوص المصرية لتوضيح مسألة المساعدات الاقتصادية لدول خيتا.

- مساعدات مصر لخيتا خلال عهد الفرعون مريبتاح (١٢٢٤-١٢٠٤ ق.م.)

مما لا شك فيه أن عقد للمعاهدة المصرية الحيثية قد ساعد على تصفية الاجواء السياسية بين الدولتين وساعد على فتح آفاق للتعاون بينهما خاصة في النواحي السياسية، وبمضي الوقت قد تدعمت العلاقات بين الجانبين وصارت هناك مجالات أرحب للتعاون الاقتصادي بينهما، فمصر كانت تجلب الحديد من دولة خيتا. وهذا ما يؤكد أحد خطابات "بوغاز كوي"، وهو خطاب مرسل من الملك الحيثي إلي الفرعون "رعسيس الثاني"

"وقد جاء فيه فيما يتعلق بالحديد الجيد الذي أرسلت في طلبه، لا يوجد حديد نقي الآن في مناجم كيزولنتا. فالوقت غير ملائم لصنعه وسوف أطلب منهم أعداده. وعندما ينتهون سوف أرسل لك" (٥٣).

كما أن مصر كانت تلبي احتياجات خيتا في إيفاد أطباء مصريين لتقديم مساعدات طبية مع ما في ذلك خلفيات سياسية بخصوص العلاقة بين الجانبين (٥٤).

وكذلك فقد كانت مصر تمد دولة خيتا بالقمح أيام الفرعون "رعسيس الثاني" وهذا ما يؤكد أحد خطابات "بوغاز كوي"، وهو خطاب مرسل من الفرعون إلي الملك الحيثي وقد جاء فيه:

"يجب أن يأتي الأمير "خيشمارا" سريعا ويتسلم مراكب القمح" (٥٥).

ويبدو أن دولة خيتا قد أصبحت منذ عهد الملك "خاتوميل الثالث" تعاني من نقص الحبوب ، حيث أن إشارة بهذا الصدد قد وردت في أحد خطابات الملكة "هالوخيا" إلي الفرعون لتؤكد على نقص الحبوب في خيتا وكانت مصر من المصادر الرئيسية لحصول خيتا على القمح (٥٦).

ومن ناحية أخرى تحدثنا المصادر المصرية عن مساعدات اقتصادية معثلة

في الحبوب، فدمتها مصر لدولة خيتا في عهد الفرعون "مرنبتاح" إذ ورد في النقش الكبير لمرنبتاح بمعبد الكرنك النص الآتي :



idiw. i By. tw it m nkw r s'nh U pn n ht^(٥٧)

"لقد جعلت (سبيت) لمحا يؤخذ في مراكب mkw لأحياء هذه الأرض الخيتية" (٥٨).

مما يشير إلى شحنة من القمح وصلت من مصر إلى خيتا لإبقائها من مجاعة (٥٩).

وعلى الرغم مما يلوح به الفرعون "مرنبتاح" من بعدا إنسانيا خيرا ينسب فيه لنفسه العمل على إبقاء دولة خيتا لتبقي على قيد الحياة فأرسل لها قمحا، إلا أن الأمر لبعادا سياسية أخرى تتعلق بتطور الأحداث الدولية آنذاك^(٦٠). فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي تشير فيها للنصوص المصرية إلى نقص الحبوب في دولة خيتا، ذلك أن النصوص المتعلقة بالزواج الأول لرعمسيس الثاني من أميرة خيتية قد تطرقت للإشارة إلى الجذب والجفاف ونقص الأكرات في دولة خيتا^(٦١)، لكن الأمر هنا جد مختلف ذلك أن نقص الحبوب في خيتا خلال هذه المرحلة يعزو إلى عوامل أخرى غير الجذب والجفاف الذي ينجم عن الظروف المناخية.

وقد يري البعض في مساعدة الفرعون "مرنبتاح" لدولة خيتا نوعا من الوفاء بالوعد^(٦٢). ولكننا نعود فنؤكد على أن العهد الذي قطعته مصر على نفسها من خلال المعاهدة مع دولة خيتا كان عهدا يتعلق بالنواحي السياسية والعسكرية فلم تتضمن المعاهدة بنودا تتعلق بتبادل تقديم المساعدات الاقتصادية بينهما عند حاجة إيا منهما إليها، ومن ثم فهناك دوافع أخرى غير المعاهدة دفعت بالفرعون "مرنبتاح" لتقديم المساعدة لدولة خيتا خلال تلك المرحلة الدقيقة في تاريخ هذه الدولة بل في تاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم برمتها.

ويبدو أن أمر تلك المجاعة لم يقتصر على دولة خيتا فقط ذلك أن الملك

"أرنونداش الثالث" قد تحدث عن المجاعة التي اجتاحت غرب آسيا الصغرى في عهد والده "تودخاليش الرابع" (١٢٥٠-١٢٢٠ ق.م) والذي تتوأكب الفترة الأخيرة من حكمه مع السنوات الأولى من حكم الفرعون "مرنبتاح" (١٢٤٤-١٢٠٤ ق.م) ^(١٢).

مما يشير بدوره إلى حدث جلل تعرضت له المنطقة بأسرها، خاصة وأنه مما يؤثر الانتباه أن الفرعون في نقشه بالكرنك الذي يسجل فيه نصره علي الآسيويين والليبيين قد أشار إلى شحن الحبوب لدولة خيتا ^(١٣)، فقد كان من مصلحة الفرعون تقديم المساعدة والدعم لدولة خيتا حتي تمثل جبهة أخرى لصد الأعداء الجدد من شعوب البحر ^(١٤).

ومما يدل علي خطورة تحركات شعوب البحر وما نجم عن ذلك من اضطراب في المنطقة، ما ذكره الفرعون رمسيس الثالث في أخباره عن شعوب البحر الذين هاجموا مصر برا وبحرا ^(١٥).

"انقثت البلاد الأجنبية علي التآمر (مع بعضها) في جزرها (وقررت الغزو) وبسرعة اختفت البلاد (التي تعرضت للغزو) ونشبت شملها بالقتال ودمرت فجأة ولم تستطع أيا منها الصمود أمام أسلحتها ولا المقاومة بدءا من خاتي وكوده (كيزولتا) وقرقيش وارزاوا إلي الأشياء (قبرص)" ^(١٦).

وهكذا كان الموقف الدولي خطيرا وجادا مما يدعونا للقول بأن الفرعون "مرنبتاح" قد استجاب وبسرعة لطلب خيتا بصدد إرسال تلك المساعدات، ومما يدعونا كذلك للقول بأنه لم يشترط أي شروط أو يضع قيودا تتعلق بمساعدته لدولة خيتا خلال هذه المرحلة الدقيقة.

- المساعدات الاقتصادية من أوجاريت لخيتا

يقدم لنا أرشيف مدينة "أوجاريت" صورة أخرى تجلي حقيقة الموقف المتعلق بالمساعدات الاقتصادية لدولة خيتا. بل وطبيعة الموقف الدولي آنذاك . والواقع إن ثمة علاقات قوية وسابقة علي تقديم تلك المساعدات، كان تربط

بين أوجاريت ودولة خيتا، ذلك أن أوجاريت قد انضمت تحت لواء خيتا وصارت ولاية تابعة لها خلال الحرب السورية الأولى^(٦٨) عندما بدأت كل من مدينة "تبا" و"توهاش" تمارسان ضغطاً على "أوجاريت" للانضمام إليهما فلم يجد ملك أوجاريت "نقماد الثاني" غضاضة في أن يلجأ إلي الملك الحيثي "توبيلوليوما" طالباً مساعدته^(٦٩)، ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية العهد بدولة خيتا كانت أوجاريت إحدى الولايات التابعة لها^(٧٠).

إن مدينة أوجاريت تعد واحدة من أهم الموانئ في شرق البحر المتوسط وكانت من أكثر الموانئ قرباً من جزيرة قبرص، لذا أصبحت سوقاً تجارية لمنتجات تلك الجزيرة كاللحاح^(٧١)، كما كان يرد إليها العديد من منتجات آسيا الصغرى وميزوبوتاميا ومصر والساحل الفينيقي فقد كان لها دوراً هاماً في حركة التجارة الدولية^(٧٢).

ومن هنا كانت أهمية مدينة أوجاريت بالنسبة لدولة خيتا، وبعد خضوع أوجاريت للإمبراطورية الحيثية، كان عليها أن تقدم الجزية والهدايا والتبوات للدولة صاحبة السيادة عليها^(٧٣). ولاشك في أن الجزية التي كانت تفرضها خيتا على أوجاريت، كانت تتناسب مع ثراء هذه المدينة ففي أحد خطابات رأس الشمر "أوجاريت" يطلب الملك الحيثي من ملك أوجاريت أن يقدم ٥٠ مينا من الذهب خلال الحرب بين خيتا والأشوريين وذلك نظير عدم إرسال قوات من أوجاريت^(٧٤) وبذلك كان من الممكن استبدال الدعم العسكري بدعم مادي تقدره دوله خيتا وفقاً لمتطلباتها^(٧٥).

وتؤكد خطابات أوجاريت على أهمية الدور الذي قامت به هذه المدينة خلال الأوقات العصيبة التي مرت بها دولة خيتا إبان هجمات شعوب البحر عليها، ففي الخطاب رقم ٢١٢ (٢٠) وهو خطاب مرسل من ملك خيتا إلي الملك حمورابي ملك أوجاريت، يطلب الملك الحيثي مساعدات اقتصادية ويؤكد الملك الحيثي على سرعة وصول أمر تلك المساعدات فالمسألة تتعلق بالحياة والموت^(٧٦).

وقد جاء في هذا الخطاب وفقا لترجمة (سثيفر) ما يلي :

"... الآن يعاني الأوريون من مشاكل عديدة ، وقد تضرعوا إلي الشمس (ملك خيتا) وطلبوا العون طلبوا الطعام . فأجابهم وعمل علي جلب ٢٠٠٠ كور من الحبوب من موكيش ومن جانبك قم بأعداد مركب كبير وملاحين لنقل الشحنة التي ربما تنقل علي مرة أو مرتين فلا تؤخر وصول المراكب إليهم لأنها مسألة حياة أو موت" (٧٧) .

وكما يتضح من الخطاب السابق فطلب تلك المساعدة يرتبط بأن تقدم أوجاريت لخيئا مركبا كبيرا وملاحين لنقل شحنة حبوب إلي ميناء "أورا" . هذا ويرجح أن الملك الحيثي الذي طلب تلك المساعدة من الملك حمورابي هو الملك "تود خاليش الرابع الذي أمده الفرعون "مرنبتاح" بالقمح ولذا يمكن القول بأن مساعدة أوجاريت لخيئا تزامنت مع مساعدة "مرنبتاح" لذات الدولة (٧٨) . مما يدل علي أن الأمر كان جد خطير وأن خيئا كانت بحاجة للدعم والمساعدة من قبل حلفائها واتباعها .

وإذا ما كانت مساعدة ملك أوجاريت للملك الحيثي تأتي في إطار الالتزامات التي تربط أوجاريت بخيئا، فالنول التابعة لخيئا كانت ملزمة بمقتضى المعاهدات علي تقديم الدعم للدولة صاحبة السيادة عليها (٧٩)، لكن الأمر هنا قد يبدو مختلفا تماما خاصة وأن تلك المساعدة تأتي في فترة دقيقة وحرجة من تاريخ دولة خيئا، بل أن البعض يرى أن سيادة خيئا علي أوجاريت كانت سيادة أسميه في هذه المرحلة (٨٠) خاصة وأنه قد ورد في أحد خطابات أوجاريت ما يشير إلي أن الملك الحيثي قد أعفي ملك أوجاريت من الخدمة (٨١)، ولكن الموقف الدولي آنذاك كان خطيرا ويحتم أن تقدم مصر وأوجاريت مساندتهما لدولة خيئا للإبقاء علي كيان تلك الدولة ضد الخطر الذي بات يهدد الجميع، وهو خطر تحركات شعوب البحر (٨٢) .

مما هو جدير بالذكر أن الميناء الذي سوف تنتهي عنده هذه الرحلة المتعلقة

بنقل الحبوب إلى خيتاء، هو ميناء "أورا"، الذي يعد ميناء ذا أهمية استراتيجية بالنسبة لدولة خيتاء لذا حرص الحيثيون على بقاءه نوما تحت سيطرتهم فعن طريق هذا الميناء كانت تنقل لخيتاء سلعا حيوية كالحبوب^(۸۳) حيث ورد على إحدى اللوحات الحيثية عبارة "هذه الحبوب إلى أورا"^(۸۴).

المساعدات الاقتصادية من أوجاريت لآشيا (قبرص)

يكشف عدد آخر من خطابات أوجاريت عن مساعدات اقتصادية قدمتها تلك المدينة إلى آشيا (قبرص)، والواقع أن هذه المساعدات تأتي في إطار العلاقات الطيبة التي كانت تجمع بين كلا الدولتين، كما تلقى هذه الخطابات بالضرورة على تحركات الأعداء من شعوب البحر.

ويتضح من خلال هذه المراسلات أن ملك أوجاريت كان بلقب ملك آشيا بلقب والدي، وملك آشيا بلقبه أبني مسا يشير إلى وجود جو من العلاقات الأسرية التي كانت تربط بينهما فربما تتمثل تلك العلاقات في زواج أسري بين كلا الدولتين^(۸۵). ويمكننا خلال عرض بعض هذه الخطابات أن نتعرف على حقيقة الموقف الدولي الذي بات يدعو كل الأطراف للتعاون فيما بينها، فقد ورد في أحد هذه الخطابات ما يلي :

من ملك آشيا إلى أبني حمورابي ملك أوجاريت

".... منذ أرسل إلى ابني بلوحي (قائمة) الطعام قلدي وفره وفائض . دع أبني يتصرف بنفس الطريقة ويجهز مركب بحر ويقويها.... طعام"^(۸۶).

وكما ينهم من مضمون ذلك الخطاب فإنه بمثابة إجابة على خطاب سابق لملك آشيا طلب فيه تزويده بالأقوات لمواجهة نقص في الطعام ببلاده .

كما يتضمن الخطاب طلبا بإرسال مركب^(۸۷).

ويبدو ثمة ارتباط بين هذا الخطاب والخطاب التالي الذي يمثل إجابة من قبل ملك أوجاريت على الخطاب السابق .

"والدي هكذا يتكلم ملك أوجاريت، لك أعظم تحية يا أبني

أبي لقد حضرت مراكب العدو
إن مدني تحترق. لقد اشعلوا فيها النيران
إن الأمور سيئة، والعدو قد ارتكب الآثام في البلاد
إن جميع قواتي في بلاد خيتا
والمراكب في ليقية
ولم يعودوا لأراجهم من رحلتهم
لقد صارت للبلاد عرضه للذهب
سلب الذهب يا والذي
لقد وصلت سبع مراكب للعدو
وارتكبت الفظائع والآثام
إذا كانت هناك مراكب لخزي للعدو فأعلموني حتى أغرقهم بأية وسيلة^(٨٨).
ويتضح من خلال الخطاب السابق أن ملك أوجاريت لم يستطع إرسال
المركب الذي طلبه ملك الآشيا في الخطاب السابق فقواته كانت في خيتا وسفنه
خارج البلاد .
كما يتضمن الخطاب أنباء عن وصول سبع سفن للعدو إلى سواحل بلاده
وأنها قد أحدثت الكثير من الاضطراب والفوضى بالبلاد .
وهذا خطاب آخر من ملك الآشيا إلى ملك أوجاريت ، يمكن أن نعهده بمثابة
إجابة على الخطاب السابق. وقد جاء فيه ما يشير إلى قلق ملك الآشيا بشأن
ظهور سنن أخرى للأعداء .
"هكذا تكلم ملك الآشيا
إلى حمورابي ملك أوجاريت
لك التحية يا من ترعاك الآلهة
لقد كتبت إلي تقول: "لقد رأينا مراكب العدو في البحر "
فإذا كانت هذه حقيقة فعندما ترى المراكب. كن رابط الجأش الأمر يرجع

إليك فهل ستترك هذه المراكب ترسو عندك أولا .

إن العدو خلفهم سيهجم عليك أنه بجوار الأسوار ويجرار المدن

فهل ستتركه يدخل بقولته وعرباته

إن أقدم العدو ثابتة" (٨٩) .

ومن خلال الخطابات السابقة يمكن القول ، بأن ملك لوجاريت لم يكن في مقدوره تقديم المركب الذي طلبه ملك الآشيا ، ذلك لأن الحالة في بلاده كانت مضطربة فقد وصل الأعداء وقاموا بالسطب والنهب في منته (٩٠) .

ويرى البعض في ذلك أنه إشارة إلى وصول أول مرحلة من شعوب البحر بينما القوة الفعلية للعدو كانت ما تزال في مناطق الأيجيين .

ويبدو أن أهداف العدو قد باتت واضحة فلم ينتظر ملك لوجاريت وصولهم حيث أبحرت مراكبه تجاه الغرب إلى "ليتته" .

لتدفع عن الطريق من إيجه إلى المتوسط ، بينما كل قواته قد انضمت إلى جانب الحيثيين في محاولة لوقف العدوان على التخوم الغربية للإمبراطورية الحيثية، في حين تمكنت قوة مكونة من سبع سفن للأعداء من مهاجمة الشاطئ الغير محمي من مملكة لوجاريت (٩١) .

وهكذا كان الموقف الدولي خطيرا نتيجة تحركات شعوب البحر التي أفضت لحالة من التوضي والاضطراب والمجاعة فكان الأمر يحتم تقديم المساعدات الاقتصادية بين الدول المعنية بهذا الشأن .

ولعل تلك الخطابات توضح تطور الأحداث في مناطق سوريا و قبرص و أسيا الصغرى خلال فترة تحركات شعوب البحر (٩٢) .

الخاتمة

يؤكد البحث على أن فكرة "المساعدات الاقتصادية" فكرة قديمة وكان لها بصمات واضحة في إطار العلاقات الدولية بين دول منطقة الشرق الأدنى القديم، حتى وإن كانت هذه الفكرة بسيطة في أول أمرها ولكن جوهرها ومضمونها أمر أكدته هذه الدراسة .

ويلقي هذا البحث الضوء على الأسباب التي تحتم تقديم مثل هذه "المساعدات الاقتصادية" فهي دائما أسبابا بيئية تتعلق بالتقلبات المناخية وما ينجم عنها من جذب ونقص في الأكلات وأسباب أخرى سياسية تنحصر في الحروب وما تثيره التحركات البشرية من فوضى واضطراب ، ومن ثم تبدو الحاجة الملحة لتقديم الدعم الاقتصادي للدول التي تتشده .

كما تشير الدراسة إلى أن الحبوب كانت النوع الأكثر فاعلية وجدوى في مجال المساعدات الاقتصادية ذلك أن الغذاء يمثل المحور الفعال والحيوي في نطاق المساعدات الاقتصادية .

وتؤكد هذه الدراسة على أن "المساعدات الاقتصادية" لم تمثل بدا من بنود المعاهدات السياسية بين القوي المختلفة ، إذ لم نجد معاهدة سياسية بين قوي كبرى تؤكد على تبادل تقديم المساعدات الاقتصادية تحت أي ظرف من الظروف، فقد إذ كانت تلك المعاهدات تركز دائما على النواحي السياسية والعسكرية وتتعلق بالتعاون في تلك المجالات .

كما يلقي هذا البحث بالضوء على ارتباط المساعدات الاقتصادية بفكرة تحقيق مكاسب سياسية من جانب الطرف الذي يقدم هذه المساعدات ، وهو ما يؤكد على أن السياسة والاقتصاد وجهان لعملة واحدة تسمى المصالح الخاصة .

توضح هذه الدراسة فكرة تضافر الجهود الدولية عند ظهور خطر ما يهدد المنطقة بأسرها، وهذا ما حدث إبان غزو شعوب البحر للمنطقة ، إذ سارعت مصر و أوجاريت بتقديم المساعدات الاقتصادية لدولة خيتا ، وهو ما يمثل إشارة

مبكرة لما صارت عليه النظم التي تتعلق بالمساعدات الاقتصادية في العصور الحديثة من حيث وجود هيئات ومنظمات دولية تشرف علي أمور تلك المساعدات.

كما توضح هذه الدراسة مدى فاعلية الدور المصري في أوقات الأزمات، إذ أسهمت مصر بنصيب وافر في مسألة المساعدات الاقتصادية ، فمصر لم تتخل أبدا عن دورها المؤثر والفعال في هذه المنطقة خاصة خلال الأوقات الحرجة في تاريخ منطقة الشرق الأدنى القديم .

المراجع

* المساعدات العسكرية: كان ينص على هذا النوع من المساعدات من خلال المعاهدات التي تعقدها الدول فيما بينها، ومن الأمثلة على ذلك المعاهدة المصرية - الحيثية ، إذ أكدت المعاهدة على تبادل تقديم المساعدات العسكرية والسياسية بين كلا الجانبين عند تعرض أحدهما لظروف سيئة تحتم تقديم المساعدات

A. spalinger., " consideration on the treaty between Egypt and Hatti " SAK.9,1981, p. 299 ff; A. Cotze., " Egyptian and Hittite treaties" ANET, New Jersey, 1969, p. 202-203.

كما تمثل المعاهدة الدولية بين بابل ودولة حيتا نموذجا آخر للعلاقات والمساعدات العسكرية بين كلا الجانبين، فلم تنص المعاهدة التي عقدت بين ملك بابل (قادشمان انليل الثاني) وبين الملك الحيثي (خاتوسيل الثالث) على أي تعاون بينهما خارج نطاق الأمور العسكرية والسياسية .

Rowton. "Comparative chronology at the time of Dgnasty XIX" JNES, 19, 1960, p. 16-17.

1.C.Berman(C. Weitzman., Ebla. An Archaeological Emigna, New York, 1979, p. 191 - 162 ; P. Matthiae., Ebla. An Empire Rediscovered, London, 1980 , p. 174

٢. علي لقيم إمبراطورية لبال - دمشق ، ١٩٨٩ ، ص ١٤٩ .

* يرى كثير من المؤرخين أن " أبا سال" اسم أطلق على آشور . علي لقيم ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

3.A. Kuhrt., the Ancient Near East, 3000-330 B.C, London, 1995, p. 369.

4.N.K. Sandars., the sea peoples, London, 1978, P. 24.

5.V. Korosec., "the warfare of the Hittites. From the legal point of view" Iraq, 25, 1963, p. 163.

6.M.Abdul- Qader., " the Hitties provincial Admin-istration of conquered territories" ASAE, 59, 1960, p.111-117.

7.G. Robins., Women in Ancient Egypt, London, 1993 , p. 34.

8.G. Davies ., " Syrians in the tomb of Amun Ed Jeh" JEA, 27, 1941, p. 96-97.

C. Aldered., " foreign Gifts offered to pharaoh" JEA, 56, 1970, p.108.

10. A.B. Mercer., the tell El-Amarna tablets, Vol, I toronto, 1939, p. 59,71, 79, 83.

11. J. Vandier., Mo'alla, Le Caire, 1950 p. 220-221.

12. Ibid, p. 220-221.

13. Ibid, p. 43.

14. Ibid, p. 220; T.G. H. James., the Heka Nakhte papers and ather Early Middlekingdom Documents, Newyork.1962, p. 35.

١٥. حسن محمد محيي الدين السعدي ، حكام الأقاليم في مصر الفرعونية، الإسكندرية، ١٩٩١ ، ص ١٦٦-١٦٧ .

16. J. Vandier., op.cit, p. 220.

- ترجم فركنر كلمة Abi بمعنى سلطنة أنظر

R.O. faulkner., Aconcise Dictionary of Middle Egyptian,oxford, 1964, p.303;

كما وردت تلك الكلمة في كتاب الموتى كذلك بمعنى سلفة . أنظر

- A. Gardiner., Egyptian letters to the Dead, London, 1928, P.118 II, 5 .
17. J. Bottero , E. Cossin. J. Vercoutter., the Near East. The early civilization, London, 1967, p. 337-345.
18. J. Vercoutter., " upper Egyptian settlers in the middle kingdom, kush, 5, 1957, p. 69.
19. D.O. Connor., Ancient Nubia, Egypt's, rival in Africa, USA, 1993, p. 33.
20. P. Ghalioungi, Lgrivetti, W.J. Darby., food : the gift of osiris, London, 1977, p.185; J. Wilson., " the Admanitions of Ipu- wer" ANET, New Jersey, 1969, p. 441-444.
21. B.C. Trigger., Nubia under the pharaohs, london, 1976, p. 62.
22. Ibid, p. 60.
23. J. Bottero, E.Cassin, J. Vercoutter., op.cit, p. 335.
24. N. Kanawati., Governmental Reforms in old Kingdom Egypt, Englund, 1980, p. 123.
25. J. Vandier., op.cit. p. 220-221.
26. T. Gomi., "on the critical Economic situation at ur early in the Reign of Ibbi sin" JCS , 36 mo2 , 1984, p. 211; J. Oates., Babylon, London, 1991, p. 51.
27. H.W. saggs., the Greatness that was Babylon, london, 1960, p. 57-58; D. Wolkstein. S.N. kramer., Inanna Queen of Heaven and Earth, london , 1983, p. 118.
28. T. Gomi., op.cit, p. 211-2122.
29. J.N. postgate ., Early Mesopotamia. Society and Economy at he Dawn of History, New York, 1992, p. 43.
30. C.K. Maisels., the Near East, London, 1995, p. 181.
31. S.N. Krammer., " Lamentation over the Destruction of ur" ANET, p. 460.
32. H.W. saggs., peoples of the past. Babylonias , London, 1995; p. 94.
33. Idm., the great ness that was Babylon, London, 1966, p. 57-58.
34. M. van De Meiroop., A history of the Ancient Near East, 3000-323 B.C. Oxford. 2004 p. 77; C.J. Jadd., " the third Dynasty of ur " CAH, vol. I. part 2B. p. 613 .
35. T. Jacobsen., " the Reign of Ibbi-suen" JCS, 7, 1936, p. 40.
36. H.W. Saggs. Babylonians, p. 94 .
٣٧. عامر سليمان . " العلاقات السياسية الخارجية " مجلد حضارة العراق ج٢ ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٠ .
38. H.W. saggs., op.cit, p. 94.
39. S.N. Kramer., " Letter of king Ibbi-sin" ANET, p. 480.
40. C.J. Jadd., op.cit, p. 616-617.
41. J.N. Munn Rankin., " Diplomacy in western Asia in the Early second

Millennium B.C " IRAQ, 18, 1956, p. 78.

42. G. Dossin., " le Royaume de Qatna au XVIIIe Siecle avant notre ere d,apres les " Archives Royales de Mari " Academie Royale de Belgique." Class des letters, tome. 40, 1954-56. p.421-422.

43. J.N. Munn Rankin., op. cit, p. 78.

44. G. Dossin., " Le Royaume d. Alep au XVIII e siecle avant notre d, apres " les Archives de Mari" Academe Royale de Blegique . Classdes Letteres, Tome 38, 1952, 5-6, p. 235 .

٤٥. أحمد ارحيم هيو. تاريخ الشرق الأدنى القديم . سورية، صنعاء، ١٩٩٣، ص ١٦٠.

46. J.M. Munn Rankin., op.cit, p. 78-79; G. Dossin., op.cit , p. 235.

٤٧. عبد الله الحلو. صراع الممالك في التاريخ السوري القديم، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٩٢ - ١٩٣.

48. W. Helck., Die Beziehungen Agyptens zu vor Der Asien Bond 5, Weisbaden, 1926, S. 392.

49. W. Murnan., the Road to kadeh, USA, 1985, p. 207.

50. S. Mercer., the tell El Amarna tablets. Vol. I, toronto, 1939, p. 357 .

51. Ibid , p. 419 .

52. K.A.Kitchen., pharaoh triumphant , the American university in Cairo precs. 1990, p. 215.

53. D.D. luckenbill., "Hittite treaties and letters" AJSL, 37, 1920, p. 206 .

54. E. Edel., Agyptische Arzte und agyptisch Medizinan Helhistischen konig westdeutscher verlag, 1976, S. 38, 128

55. W. Helck., op.cit, p. 392.

56. T. Bryce., the king dom of Hittites, oxford, 1999, p. 356-364.

57. KRI, IV, 5 .

58. BAR, III, 580 .

نوع من المراكب يطلق عليه ذلك الاسم (mkw) Wb II, 161 , 14

59. R.O faulkner., "Egypt from the inception of Nineteenth Dynasty to the Death of RamessesIII, CAH, Vol.2 part 2A, p.234.

60. A.G. Wainwright., Mernptah Aid to the Hittites" JEA, 46, 1960, p.24.

61. J.F. Borchouts., " the first Hittite Marriage Record: seth and the Climate" Melanges Adolphe Cutbub, Montpeller 1984, p. 14.

62. K.A. Kitchen. Op.cit, p. 215.

63. A.Kuhrt., the Ancient Near East .3000-330 B.C.Vol II,London, 1995, p. 391.

64. T.Bryce., op.cit , p. 365.

65. A. Goetze., the last kings of khatti land" CAN, Vol III, part 2A, p. 265.

66. M. Van De Mieroop., Ahistory of the Ancient Near East, 3000-323 B.C oxford, 2004, p. 182.

67. A. Kuhrt., op.cit, p. 387 ;B. Baramki , phoenicia and the phoenicians,

Beirut, 1961, p. 115.

68. K.A.Kitchen *suppiluliuma and the Amarna pharaoh*, liverpool, 1962, p. 34.

69. W. Murnane., *op.cit*, p. 180.

70. A. Goetze., *op.cit*, p. 265.

71. W.Hallo. K.W. simpson., *the Ancient Near East*, Newyork, 1971, p. 112.

72. M. Heltzer., " the Metal trade of ugarit and the problem of transportation of commerical goods, *Iraq*, 39, part2, 1977, p. 203 ff.; T. Bryce., *op. cit*, p. 177.

73. S. lackenbcher., " Between Egypt and Hatti" *Near Eastern Archaeologg*" 63 no 4, 2000, p. 194.

74. V. Koroses., " the Warfare of the Hittietes – from the legal point of view", *Iraq* 25, 1963, p. 164.

75. T. Bryce., *op.cit*, p. 349.

76. M.c.Astour., " New Evidence on last days of Ugarit" *AJA*, 69 no 3, 1965, p. 254.

77.F.A.Schaeffer., *Ugarit et les pays Hittites*" *Ugaritica*, V, paris, 1968, p. 105-107.

* الأورونيون . أهل ميناء اورا التابع لخبثا ويقع غرب قبليّة

78.G.A. Wain Right., *op.cit*, p. 25-26.

79. M.Abdul . Qader., *op.cit*, p. 111-116.

80. M.C. Astour., *op.cit*, p. 254.

81. F.A. Schaeffer., *op.cit*, p. 106.

82. G.A. Wain Right., *op.cit*, p. 26.

83. T. Bryce., *op.cit*, p. 364.

84. M. Heltzer, *op.cit*, p. 209.

85. A. Stour., *op.cit*, p. 255.

86. *Ibid*, p. 255.

87. M.S. Dröwer., " Ugarit" *CAH*, Vol. II part 2B. p. 146.

88. F.A. Schaffer., " Ugaritet Alasia", *Ugaritica* V, paris, 1968, p.88-89.

89. *Ibid*, p. 85 –86.

90. V. Karageorghis., *cyprus from the stone Age to the Romans*, USA, 1982, p. 83.

91. M. C . A Stour., *op.cit*, p. 255.

92. J. Nougayrol., "Curreet Paix a Ugarit " *Iraq*, 25, 1963, P. 120.

الجغرافيا
والظلم
المعلومات
الجغرافية

اللغات فى العالم من منظور جغرافى

أ.د. محمد خميس الزوكة

أستاذ بقسم الجغرافيا

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

اللقاء في العالم من منظور جغرافي

أحمد محمد خميس الزوكة

مقدمة :

اللغة وسيلة للتعبير ، وأداة للتفاهم والتقارب والتعاطف ، وأسلوب لنقل التراث والأفكار ، وهي تعد من أهم العناصر البشرية التي تسهم في توحيد الجماعات البشرية التي تنتمي إلى الأمة الواحدة وتؤدي إلى تكوين المجتمعات البشرية وتنمية الحضارات وتطويرها .

ويسعى هذا البحث إلى تحديد ماهية كل ما يرتبط باللغة من مصطلحات مثل الكلام، الكتابة ، النطق ، اللهجة ، مع تسليط الضوء على أهمية اللغة بالنسبة للمجتمعات البشرية وتكوين الحضارات ، بالإضافة إلى دراسة موضوعات التوزيع الجغرافي للغات في العالم ، والمجموعات (العائلات) اللغوية الرئيسية، واللغات المنعزلة والأقليات اللغوية .

تعريف اللغة :

تتعدد التعاريف الخاصة بتحديد ما هي اللغة ومرد ذلك تباين الكائنات الحية في تحديد وسيلة الاتصال والتواصل والتخاطب فيما بينها والتي تتراوح بين الأصوات والإشارات والرموز والحركات (الإيماءات) بل والرائحة أحياناً^١ إلا أن أبسط التعاريف وأشملها يشير إلى أنها عبارة عن رموز وإشارات لها أصوات ومعان تتبادل بين مجموعة من البشر ، وهو ما يعني أنها قدرة ذهنية مكتسبة تتألف من عدة معارف لغوية (الأصوات، المفردات ، المعاني، القواعد) . وتعد هذه القدرة مكتسبة لأن الإنسان لا يولد بها وإنما يولد للبشر ولديهم الاستعداد الفطري لاكتساب اللغة التي يستخدمها المجتمع والتي تسمى بدورها الشعور بالانتماء إليه (إلى المجتمع) سواء من حيث المنافع المادية المتمثلة في

^١ أثبتت الدراسات الحديثة في مجال علم اللغة عن علماء الحيوان والحشرات أن النمل يترك آثار خلال خط سيرة ذات روائح محددة حتى يسهل على باقي أفراد الجماعة تتبعها ، كما أن النحل يؤدي رقصات خاصة ليعلن لباقي أعضاء الخلية عن أماكن تركيز الرحيق .

المصالح والتعاضد الآمن المشترك أو المنافع المعنوية المتمثلة في التواصل الحضاري والنفسي .

وتعد الكلمات هي وسيلة التعبير عن اللغة لدى البشر في معظم الأحيان ، حيث يسمح لهواء الرنينين بالمرور عبر الأفواه التي تتحرك بدورها بطرق متباينة تحدث الأصوات ، أي أصوات الكلمات التي يتألف كل مقطع منطوق من تتابع الكلمات ، وعلى ذلك يعرف الكلام بأنه أصوات متتابعة ناتجة عن خروج الهواء ويخوله من وإلى كل من الفم والأنف ، وهي طريقة للتعبير عن اللغة ظهرت مع ظهور الإنسان وإن تباينت من حيث الطبيعة والإطار ، عكس الكتابة التي تعد طريقة أخرى وأحدث للتعبير عن اللغة حيث عرف الإنسان الكتابة منذ نحو ستة آلاف سنة قبل الآن ، وجدير بالذكر أن هناك لغات بشرية في عالمنا المعاصر ليس لها حروف أبجدية أي أنها لغات تنطق ولا تكتب كاللغة النوبية على سبيل المثال .

وتعد الإشارة من أحدث وسائل التعبير عن اللغة ، وهي تتكون من إشارات تستخدم فيها الأيدي والأصابع في الأغلب لإنتاج إشارات تمكن من التواصل والاتصال بين البشر ، واخترعت هذه الوسيلة خلال القرن التاسع عشر للتغلب على الصعوبات التي يواجهها المصابون بالصمم من البشر .

وتشكل اللغة وتعلمها صفة مميزة للإنسان دون غيره من الكائنات الحية ، لذا يمكن تعريفها بشكل عام بأنها تشتمل على كافة صورة الاتصال والتخاطب لفظية (منطوقة) كانت أو غير لفظية .

وتتعدد أنماط النطق في إطار اللغة الواحدة وهو ما درج على تسميته بمصطلح اللهجة .. Dialect وهي عبارة عن نمط محادثة يتوافق مع ظروف البيئة المكانية لتمييز إقليم من إقاليم الدولة ، وهو ما يعرف باللهجة الإقليمية أو المحلية، وقد تميز اللهجة فئة من فئات المجتمع وهو ما يعرف باللهجة الاجتماعية. ويرجع تباين اللهجات محليا إلى عدة أسباب يتصدرها اقتباس

كلمات أو مصطلحات من لغات أخرى تسود في أقاليم أو دول متاخمة ، أو ناتجة عن استخدام مفردات ترجع إلى لغة أو لغات لم تستخدم إلا خلال فترات تاريخية قديمة. وتباين اللهجات من حيث معايير النطق والقواعد وبعض الكلمات (مفردات اللغة) .

وترتبط اللهجة عادة بلكنة خاصة Accent وتكتسب اللهجة أحيانا مكانة خاصة بحيث تصبح هي اللغة القياسية (المعيارية) Standard لدولة ما . وتختلف اللهجة عن اللغة في أنها - أي اللهجة - تلائم مستخدمها محدود العدد عادة ، عكس الوضع بالنسبة للغة التي يستخدمها قطاع عريض من البشر . ولا يمنع اختلاف اللهجات انتقال الأفكار والتراث فيما بين الشعوب ، عكس الوضع بالنسبة للغات التي يعني تباينها صعوبة انتقال الأفكار وانسيابها بين الشعوب متباينة اللغات .

اللغة والحضارة :

تشكل اللغة أحد أركان النشأة الاجتماعية في المجتمعات البشرية لدورها الفاعل في تأكيد سبل التعايش وتواصل الحياة بين البشر وخاصة أنها تعد أداة ترسيخ القيم والمفاهيم ، ووسيلة التعبير عن الأحاسيس والرغبات والاحتياجات ، وبالتالي تحدد المواقف .

واللغة وسيلة التخيل والإبداع الفكري وترجمة الأحاسيس وانتقال الأفكار^١ لذا تشكل أحد أسس التراث البشري ومستودع تجاربه مهما تباين مكانيا من إقليم إلى آخر وزمنيا من فترة لأخرى وهو ما لخص به البشر دون سائر المخلوقات . وإذا كانت الحضارة هي مجموع الإنجازات الفكرية والمادية لمجتمع ما فإن اللغة تعد رافدها الأساسي ، فهي التي تمد الفكر البشري بالقيم والأفكار والخبرات والتجارب والمعارف ، وبالتالي الإبداع الذي يشكل طريق التقدم

^١ يعرف بعض علماء اللغة مصطلح التفكير بأنه عبارة عن كلمات كامنة في عقل الإنسان غير منطوقة .

والازدهار الحضاري، لذا تعد اللغة من خلال الممارسة من معايير تحديد ملامح شخصية أي إقليم جغرافي وإيراز مستواه الحضاري، كما أنه لا غني عن اللغة لبناء الإنجازات البشرية بدءاً من أرفها وأرقها وهي الآداب والفنون بما فيها الموسيقى .. غذاء الروح وانتهاء بأبغضها وأكثرها تدميراً وخراباً وهي الحروب العسكرية .

وتتغير أطر اللغات وبعض مفرداتها ويتباين محتواها وتراكيبها وخاصة أن بعض الكلمات القديمة قد تختفي أو تتغير، فاللغة الإنجليزية القديمة التي كانت سائدة خلال العصور التاريخية الوسطي يصعب فهمها بالنسبة لقراء وناطقي اللغة الإنجليزية المحدثين، وقد تظهر كلمات جديدة لتلائم مع ظروف العصر مما يعني أن اللغة تعد ظاهرة متجددة غير ثابتة ، وتطبق هذه الخاصية على معظم اللغات المكتوبة السائدة في العالم ، ففي اللغة الإنجليزية على سبيل المثال أدى اتساع دائرة التوزيع الجغرافي للناطقين بها إلى دخول مفردات جديدة عليها من لغات أخرى مثل تلك التي بوضوحها الجدول رقم (١) .

جدول رقم (١)

الكلمة في اللغة الإنجليزية	اللغة الأصلية المنقولة منها	معناها باللغة العربية
Adobe	التبطينة	الطوب اللبن
Giraffe	العربية	الزرافة
Turban	الفارسية	عصمة
Sauna	الفنلندية	السونا (حمام بخاري)

ولدى التوسع في استخدام الحاسبات الآلية في مختلف الأغراض والمجالات إلى دخول بعض مصطلحات الحاسبات الآلية في اللغة الإنجليزية العامة مثل Input (يغذي)، Feed back (يرد بالرأي) ، Flow chart (رسم موضح عليه بيانات) .. وهكذا .

ودخل اللغة الإنجليزية خلال العقود الأخيرة بعض المصطلحات الجديدة للتعبير عن بعض المعاني غير البعيدة عن أصلها مثل تلك الشائع استخدامها في بعض الألعاب الرياضية وخاصة كرة السلة التي تعد من الرياضات الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية (ذات التأثير الثقافي الواسع) مثل Strike Out (يستهل عملاً)، Grand Slam (انتصار تام)، Pinch hit (ينوب عنه) .

وعلى العكس من ذلك اللغة العربية التي لم تتغير مفرداتها وتراكيبها حتى أنه يمكن قراءة وفهم أي نص مكتوب باللغة العربية ويرجع إلى عدة قرون مضت، ويرجع الفضل في ذلك إلى القرآن الكريم الذي حافظ على اللغة العربية وأبعدها إلى حد كبير عن أية مؤثرات أجنبية قد تغير من خصائصها وتراكيبها .

وتتباين دول انتشار اللغات المنطوقة السائدة في العالم حيث تتراوح بين الاتساع والاكتمال تبعاً للعديد من العوامل التي يتصدرها تباين التوزيع الجغرافي للقوى السياسية في العالم ، فعلى سبيل المثال ترتب على الصراع والتنافس العربيين بين البرتغال وإسبانيا للسيطرة على الأقاليم المكتشفة خلال العصور الوسطى تدخل البابا وسيطا بينهما حتى تم عقد معاهدة تورديسيلاس Tordesillas عام ١٤٩٤ - أي بعد عامين من وصول كريستوفر كولومبس إلى القارة الأمريكية - والتي تم فيها وضع حد فاصل بين نطاقات سيطرة كل من الدولتين ، وتمثل هذا الحد في خط طول ٦٠ غرباً بحيث تصبح الأراضي الواقعة إلى الغرب منه وحتى خط طول ١٤٥ شرقاً ملكاً لإسبانيا، في حين تؤول ملكية الأراضي الواقعة إلى الشرق منه للبرتغال^١ وترتب على ذلك فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية تركيز اللغة البرتغالية في البرازيل، وانتشار اللغة الأسبانية في كل دول وأقاليم أمريكا اللاتينية بين المكسيك شمالاً والأرجنتين وشيلي جنوباً تقريباً ولنفس السبب (المد الاستعماري) انتشرت اللغة البرتغالية في أنجولا وموزمبيق

^١ محمد خميس الزوكة ، آسيا - دراسة في الجغرافيا الإقليمية ، الطبعة الثالثة ، الإسكندرية ، ٢٠٠٢ ، ص ٥٤ .

بأفريقيا ومكاو في جنوبي الصين الشعبية وتيمور الشرقية في آسيا في حين انتشرت اللغة الأسبانية في الفلبين.

وتبع انحسار النفوذ البريطاني في العالم وتقهقره وخاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتشار حركات التحرير واستقلال المستعمرات البريطانية تقلص دائرة انتشار اللغة الإنجليزية في العالم، كذلك الحال بالنسبة لتراجع اللغة الألمانية في تنجانيقا (تنزانيا حاليا بعد اتحادها مع جزيرة زنجبار) والكاميرون بأفريقيا، ومنطقة كيانتشاو Kiaochow الواقعة على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة شانتونج، بالإضافة إلى بعض جزر القارة الآسيوية^١. وتقلصت دائرة انتشار اللغة الفرنسية في العالم بعد تعدد حركات التحرير ولكن بدرجة أقل لتركيز الاستعمار الفرنسي على نشر الثقافة الفرنسية التي لا زالت سائدة في معظم المستعمرات الفرنسية السابقة وخاصة في المغرب العربي وسوريا ولبنان وبعض جزر البحر الكاريبي والعديد من مناطق النفوذ الفرنسية القديمة في أفريقيا .

التوزيع الجغرافي للغات

يتحدث سكان العالم البالغ عددهم أكثر من ٦٠٠٠ مليون نسمة عدة آلاف من اللغات التي تنبأين من حيث مدي اتساع دائرة توزيع المتحدثين بها وأعدادهم ، إذ توجد لغات يتحدث بها أعداد محدودة من البشر وذلك في أطر أقاليم جغرافية محدودة المساحة تبدو بعضها أحيانا في شكل نطاقات منفردة أو جزر لغوية منعزلة، وعلى العكس من ذلك توجد لغات يتحدث بها أعداد كبيرة من البشر تنتشر في أقاليم واسعة المساحة، عظيمة الامتداد .

ويبين الجدول رقم (٢) أهم لغات العالم واسعة الانتشار وهي تلك اللغات التي يتجاوز عدد المتحدثين بكل منها مائة مليون نسمة .

^١ محمد خميس الزوكة ، نفس المرجع ص ٥٨ .

جدول رقم (٢)

اللغة	عدد الناطقين بها (مليون نسمة)
الصينية (الماندارين)	١٢٠٠
الهندية	٧٢٠
الإنجليزية	٤٥٠
الأسبانية	٣٤٥
الروسية	٢٩٥
العربية	٢٩٤
الملاي - أندونيسية	٢٣٠
البرتغالية	٢١٤
الأردية	١٤٤
البنغالية	١٣٢
اليابانية	١٢٧
الفرنسية	١٢١
الألمانية	١٢٠

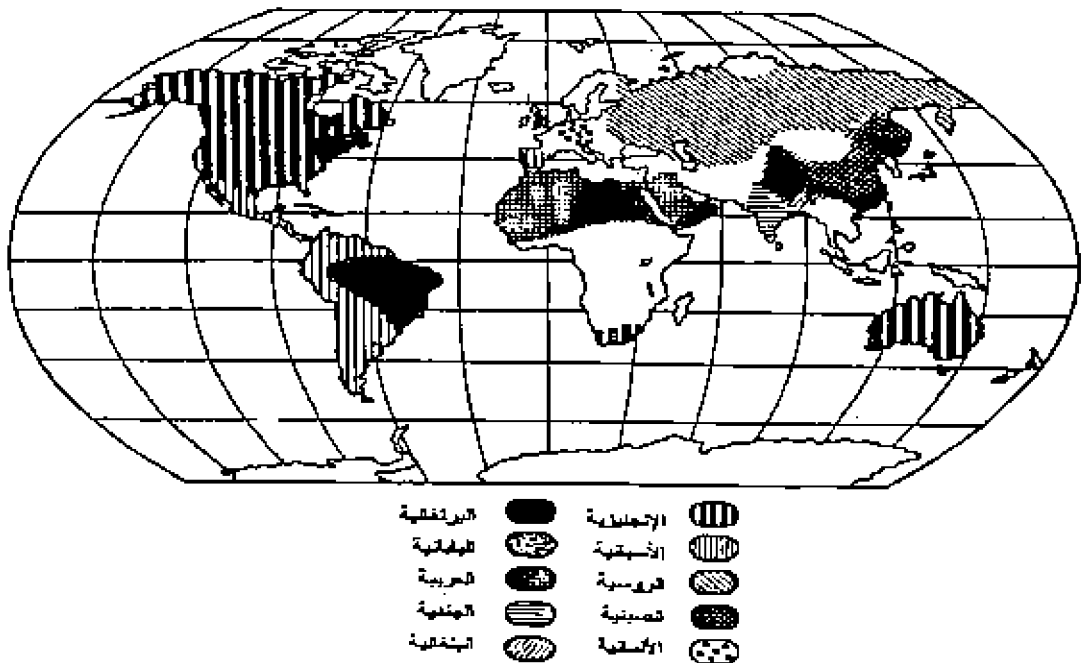
تظهر أرقام الجدول رقم (٢) أن اللغات التي يتجاوز عدد المتحدثين بكل منها مائة مليون نسمة بلغ عددها ١٣ لغة يتحدث بها نحو ٤٢٩٢ مليون نسمة وهو ما يعادل ٧٢,٢% من إجمال سكان العالم عام ٢٠٠١، أما باقي سكان العالم ونسبتهم ٢٧,٨% فيتحدثون لغات أخرى قدر بعدة آلاف^١.

وتنتشر اللغات الرئيسية في العالم والبالغ عددها ثلاثة عشرة في قارات العالم الست وإن تباينت دوائر انتشارها على مستوى الدول، فبعضها يتحدث بها سكان عدة دول ينتشرون في أقاليم جغرافية متباينة الخصائص، واسعة الامتداد كاللغة العربية التي تنتشر أساساً في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا،

^١ تشكل ست لغات من هذه المجموعة الرئيسية لللغات الرسمية لمنظمات الأمم المتحدة وهي من حيث ضخامة عدد المتحدثين بها في العالم الصينية (الماندارين) ، الإنجليزية ، الأسبانية ، الروسية ، العربية ، الفرنسية

والإنجليزية التي تشكل اللغة الأساسية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا ، بالإضافة إلى المملكة المتحدة .
واللغة الأسبانية المنتشرة في معظم دول أمريكا اللاتينية - باستثناء البرازيل - إلى جانب جزر كناريا بأفريقيا وأسبانيا بأوروبا ، واللغة البرتغالية المنتشرة في البرتغال بأوروبا ، والبرازيل في أمريكا اللاتينية ، وأنجولا وموزمبيق وجزر ماديرا في أفريقيا ، واللغة الألمانية في ألمانيا والنمسا وبعض جهات سويسرا وبلجيكا ، واللغة الفرنسية في فرنسا وبعض الدول الأفريقية ، إلى جانب مستعمراتها صغيرة المساحة في كل من بعض جزر البحر الكاريبي وبعض جزر المحيط الهادي الجنوبي .

وعلى العكس من ذلك نتركز مجموعة أخرى من اللغات الرئيسية بالعالم في دولة بعينها مثل اليابانية في اليابان ، والبنغالية في بنجلاديش ، والأردية في باكستان ، والصينية في الصين ، والملاحظ أنها لغات تتركز كلها في آسيا أكثر قارات العالم سكانا . شكل رقم (١) .



شكل رقم [١] توزيع اللغات الرئيسية في العالم

العائلات (المجموعات) اللغوية

تعرف العائلة اللغوية بأنها مجموعة من اللغات تتشابه أو تشترك مع بعضها البعض في معايير رئيسية مثل المفردات ، القواعد النحوية ، تركيب الجمل وذلك بتأثير النشأة التاريخية المشتركة إلا أن تحركات السكان في اتجاهات ومحاور متباينة خلال مراحل تاريخية متتالية واستقرارهم في أقاليم جغرافية مختلفة الخصائص انعكست على العديد من خصائص اللغة السائدة في كل إقليم وخاصة من حيث المفردات والنطق لتتشكل فروع في اللغات - تمثل نتاج تفاعل عدة عوامل بعضها بيئي وبعضها الآخر اقتصادي وبعضها الثالث ديني وبعضها الرابع سياسي وعسكري - تنتمي إلى نفس العائلة (المجموعة) اللغوية .

وعندما بدأت الدراسات العلمية الساعية إلى تتبع تاريخ لغات العالم وعقد المقارنات فيما بينها في إطار مناهج علمية تسمى إلى تتبع أوجه التماثل والاختلاف بين اللغات لمكن إثبات بعض العلاقات بين عدد من اللغات التي ترجع إلى مصدر أو أصل واحد رغم لختفاء هذا المصدر بعد ذلك، لذا ظهر مصطلح العائلة (المجموعة) اللغوية لأول مرة في أواخر القرن الثامن عشر عن طريق البريطاني سير وليم جونز Sir William Jones (١٧٩٤-١٧٦٦) وهو قاضي خدم في جزر البحر الكاريبي البريطانية، وخلال مرحلة بحثه في النصوص الدينية والكتابة الشعبية للسكان الأصليين للجزر تعلم اللغة السنسكريتية Sanskrit واكتشف أن مفرداتها مشتقة من اللغتين اللاتينية واليونانية القديمة، لذا أشار أن المدقق لمفردات اللغات الثلاثة (السنسكريتية واللاتينية واليونانية) يكتشف أنها تنتمي لمجموعة لغوية واحدة وإطلاق تعبير Language Family لأول مرة وقصد بها مجموعة من اللغات تنتمي إلى أصل أو مصدر واحد .

ومع بداية القرن التاسع عشر الميلادي تعددت الدراسات اللغوية الساعية إلى بحث العلاقات التاريخية بين اللغات مما أفرز في النهاية هيكل للعائلات اللغوية الرئيسية التي تتوزع على مستوي قارات وأقاليم العالم ، ويمكن من خلال تتبعها

رصد محاور اتجاهات الهجرات البشرية القديمة وأبعاد الأحداث السياسية المختلفة، فاللغات المجرية والفنلندية والإستونية في شمالي ووسط وشمالي غربي أوروبا ترجع إلى أصول آسيوية حيث تنتمي إلى مجموعة Ural Altic اللغوية التي يتحدث بها سكان شمالي آسيا (سيبيريا) وأقصى شرقي أوروبا (في أراضي روسيا الاتحادية حالياً). وقد انتشرت في مواقعها الحالية نتيجة لتحركات القبائل المغولية وعناصر آسيوية أخرى صوب الغرب خلال العصور الوسطى . وتشكل اللغات الأوربية الرئيسية، (الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية) فروعاً تنتمي إلى عائلة لغوية واحدة، لذا يسهل على أي متحدث بإحداها تعلم باقي لغات العائلة بسهولة تفوق إمكانية تعلم لغات تنتمي إلى عائلات لغوية أخرى كالصينية أو العربية مثلاً .

وأظهرت الدراسات اتحدار معظم لغات أوراسيا Eurasia على سبيل المثال إلى لغة أو أصل واحد.. أي اللغة الأم التي عرفت باسم Proto Indo - European، وعادة ما تموت اللغة الأم بعد أن تتفرع منها لغات متنوعة وهي - أي اللغات المتفرعة - لا تظهر فجأة وإنما بشكل متدرج . كما أن كل منها ينمو على حدة، وقد تتلاقى اللغات المشتقة من أصل واحد وقد تختلف .

وتتصف مراحل التطور اللغوي بعدم الوضوح ، كما أن التغير والتطور الذي يعترى أية لغة بشرية يتصف بالتباين تبعاً لاختلاف كل من الخصائص البشرية والملاصق البيئية والأحداث التاريخية والسياسية في الأقاليم الجغرافية المختلفة على مستوى الكتل القارية .

ويستخدم مصطلح عائلة أو مجموعة لغوية Language Family كما سبق الذكر للإشارة إلى مجموعة اللغات ذات الأصل الواحد والعلاقات التاريخية المشتركة، أما إذا كانت العلاقة ضعيفة وغير واضحة أو معدومة فيستخدم مصطلح Phylum أي الشعبة أو الأسرة، وإذا كانت العلاقة غير محددة يستخدم مصطلح Macro.Phylum. والدليل على ذلك نشير إلى أن اللغات

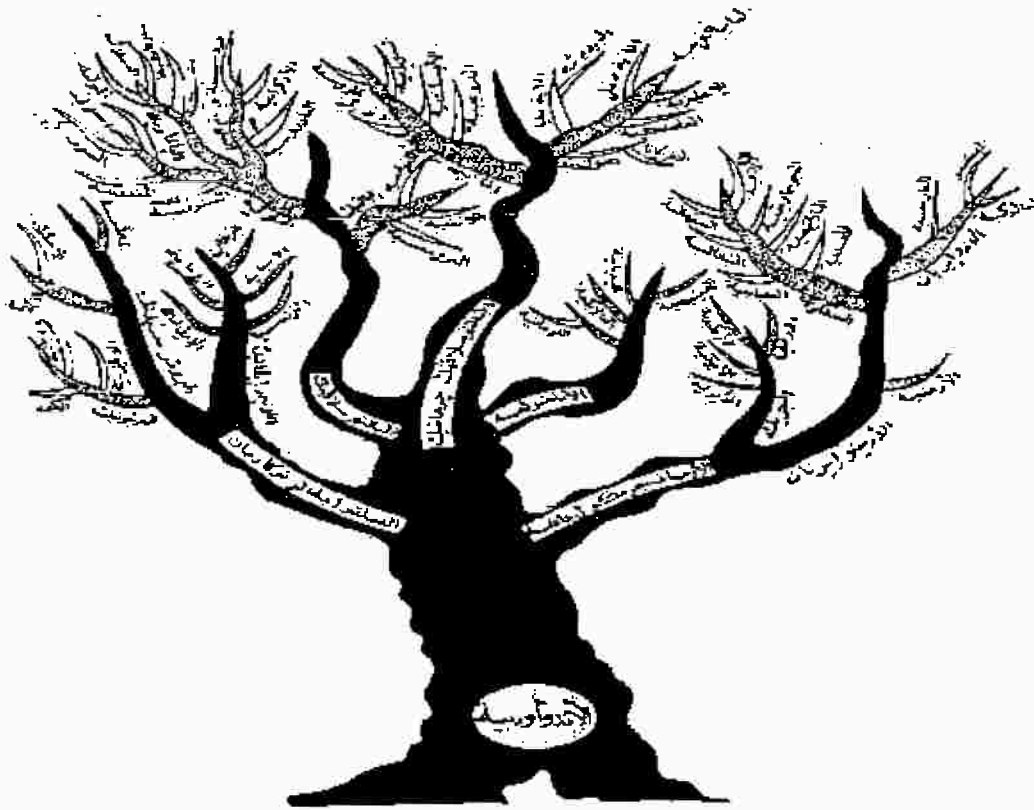
الأبوريغينية .. Aboriginal المنتشرة في القارة الأسترالية غير مترابطة ولا توجد علاقات تاريخية فيما بينها لذلك لا يطلق عليها Australian Aboriginal Family وإنما تسمى .. Australian Aboriginal Macro Phylum .
التوزيع الجغرافي للعائلات اللغوية

يبلغ عدد المجموعات اللغوية في العالم نحو ١٥ عائلة لغوية رئيسية ، يمكن حصر أهمها وأوسعها انتشارا فيما يأتي :

١ . العائلة الأندو أوروبية :

من أوسع المجموعات اللغوية انتشارا في العالم حيث تنتشر في كل أوروبا تقريبا ، بالإضافة إلى جنوب غربي آسيا لتضم أجزاء من تركيا، إيران، أفغانستان ، باكستان ، بنجلاديش وشمالي الهند، كما يمتد لطاق طولي من شرقي آسيا ليخترق النطاق الأوسط من القارة الآسيوية حتى ساحل الجانب الآسيوي من روسيا الاتحادية المطل على بحر اليابان، إلى جانب الطرف الجنوبي من شبه جزيرة كمشكا .

وأسهمت الكشوف الجغرافية الأوروبية وما ارتبط بها من مد استعماري في انتشار لغات المجموعة الأندو أوروبية في عالم الأمريكتين والاقيانوسية .
وتتفرع شجرة عائلة اللغات الأندو أوروبية إلى خمسة فروع رئيسية تخرج منها شعب فرعية على النحو التالي : (شكل رقم ٢) .



شكل رقم [٢] شجرة العائلة اللغوية الأندو أوروبية

أ - فرع السيلتو / إيطالو / توكراريان .. Celto - Italo - Tocharian

تعد الفرنسية والاسبانية والبرتغالية والإيطالية والرومانية أهم لغات هذا الفرع .

ب - فرع البالطو / سلافيك .. Balto - Slavic

تعد اللغات السلافية (السلوفينيا ، السلوفاك ، التشيك ، البولندية ، المجرية ، اللاتفية) أهم لغات هذا الفرع .

ج - فرع البالطو / سلافو / جيرمانيك .. Balto - Slavo - Germanic

تتعدد لغات هذا الفرع لتضم الإنجليزية ، الألمانية ، السويدية ، الدانماركية ، النرويجية ، الهولندية ، الفلمنكية .

د - فرع الأناتوليان .. Anatolian

تضم عدد من اللغات محدودة الانتشار مثل الباليك Palaic ، اللاتين

Lycian ، الهيتيتي Hittite .

هـ فرع الاربان / جريكو / أرمني .. Aryan – Greco - Armeni
تضم عدة لغات أهمها الأردو، الهندية، الفارسية، البنجابية، الباشتو، الأرمنية .
يتضح مما تقدم اتساع دائرة التوزيع الجغرافي للأقاليم التي تسودها لغات
العائلة الأندو أوروبية حيث تنتشر في قارات أوروبا ، آسيا ، الأمريكتين ،
استراليا ، بالإضافة إلى جنوبي القارة الأفريقية .
وينتمي إلى هذه العائلة تسع لغات من اللغات الرئيسية في العالم والتي
يتجاوز عدد الناطقين بكل منها مائة مليون نسمة ، هذه اللغات هي الهندية ،
الإنجليزية ، الألمانية ، الروسية ، البرتغالية ، الأردية ، البنغالية ، الفرنسية ،
الألمانية ، ويبلغ عدد الناطقين بهذه اللغات وحدها نحو ٢٥٤١ مليون نسمة وهو
ما يوازي ٤١,٧ % من جملة سكان العالم (٦٠٨١ مليون نسمة عام ٢٠٠١)
فإذا أضفنا إليهم الناطقين بباقي لغات هذه المجموعة يبلغ عدد السكان الناطقين
بلغات المجموعة الأندو أوروبية نحو ثلاثة مليار نسمة أي ما يقرب من نصف
سكان العالم .

٢ - عائلة السيئو - تيبان Sino - Tibetan :

تنتشر هذه العائلة اللغوية في شرقي القارة الآسيوية ؛ وتضم أربعة فروع
هي علي النحو التالي :
أ - اللغة الصينية ، وتنتشر في كافة ربوع الصين ، بالإضافة إلى نطاقات محدودة
من أقصى جنوب شرقي آسيا الروسية .
ب - لغة التيبو / بورميسي .. Tibeto Burmese ، تأتي لغات هذه العائلة من
حيث اتساع دائرة الانتشار حيث يتحدث بها سكان التبت وشمال الهند واتحاد
ميان مار وأقصى الأجزاء الغربية من ماليزيا .
ج - لغة التاي .. Thai ، يتحدث بها أساسا سكان تايلاند ، بالإضافة إلى قطاع
عريض من سكان لاوس .

د - اللغة الفيتنامية Vietnamese، يتحدث بها سكان فيتنام ، إلى جانب سكان أقصى الأطراف الجنوبية من الصين الشعبية .

وتتصدر الصينية لغات هذه المجموعة من حيث حجم السكان الناطقين بها والبالغ عددهم ١٢٠٠ مليون نسمة وهو ما يكون ١٩,٧% من جملة سكان العالم .

٣ - عائلة اللتيك Altaic :

تنتشر في أجزاء متفرقة من شمالي وشرقي ووسط وغربي آسيا لتضم الفروع اللغوية التالية :

أ - اللغة اليابانية، وتنتشر في جزر اليابان .

ب - اللغة الكورية، وتسود في الكوريتين الشمالية والجنوبية .

ج - اللغة المنغولية وتنتشر في منغوليا والأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من الصين الشعبية .

د - اللغة التركية وتسود في تركيا وأذربيجان وجمهوريات وسط آسيا (كازاخستان ، قرغيزستان، أوزبكستان، تركمانستان) (١) . بالإضافة إلى الأجزاء الشمالية من أفغانستان وشمالي غربي الصين الشعبية والناطقات الساحلية المطلة على شمال غربي بحر قزوين في روسيا الاتحادية .

هـ لغة الأوراليك Uralic ، وتنتشر في جهات متفرقة من سيبيريا في شمالي آسيا، بالإضافة إلى فنلندا والمجر وأستونيا وجنوبي شبه جزيرة البلقان في أوروبا .

وتتصدر اليابانية لغات هذه العائلة من حيث حجم الناطقين بها البالغ عددهم ١٢٧ مليون نسمة، وإذا أضفنا باقي لغات المجموعة يصل إجمالي عدد الناطقين بها نحو ٣٠٠ مليون نسمة وهو ما يعادل ٤,٩% من إجمالي سكان العالم .

٤ - العائلة السامية / الحامية :

تنتشر لغات هذه المجموعة في شمالي أفريقيا ومنطقة القرن الأفريقي وجنوب غربي آسيا ، وتضم هذه العائلة عدة لغات يتصدرها العربية التي تدرج

ضمن اللغات الرئيسية في العالم وهي تلك التي يتجاوز حجم الناطقين بها مائة مليون نسمة .

٥ . العائلة السودانية Sudanic :

يتحدث بلغاتها القبائل والجماعات المنتشرة في كل من شمالي سيراليون ، الأجزاء الداخلية من غينيا ، شمالي ليبيريا ، شمال غربي ساحل العاج ، جنوبي كل من تشاد والنيجر ، شمالي نيجيريا ، جنوبي السودان ، جنوب غربي إثيوبيا .

٦ . عائلة النيجر / الكونغو Niger - Congo :

تنتشر لغات هذه العائلة في معظم غربي أفريقيا ، وأفريقيا جنوب خط الاستواء عدا الطرف الجنوبي للقارة وجزيرة مدغشقر

٧ . عائلة الملايو / بولونيزين Malayo - Polynesian :

تنتشر لغات هذه العائلة في جزر الهند الشرقية وجزر الفلبين ، والطرف الجنوبي من شبه جزيرة الملايو في آسيا، بالإضافة إلى جزيرة مدغشقر في أفريقيا .

٨ . العائلة الدرافيدية Dravidian :

تنتشر في النطاق الجنوبي الشرقي من شبه القارة الهندية المطّل على خليج بنغال ، بالإضافة إلى جزيرة سيلان .

٩ . العائلة القوقازية Caucasian :

تضم هذه العائلة نحو ٣٥ لغة محلية يمكن تصنيفها إلى مجموعتين رئيسيتين هما اللغات القوقازية الشمالية ، واللغات القوقازية الجنوبية ، وتعد الجورجية أقدم لغات هذه العائلة. إذ ترجع إلى القرن الخامس الميلادي .

١٠ . العائلة الهندية الأمريكية { Amerindian } American Indian :

تنتشر في جهات متفرقة من الأمريكتين وإن تركزت أوسعها انتشار في حوض الأمازون وأقصى شمالي أمريكا الشمالية .

(١) يتحدث سكان تاجيسكتان لغة التاجيك .

وقدر عدد اللغات الهندية الأمريكية المنتمية إلى هذه العائلة ما بين ألف والفي لغة لم يسجل منها إلا نحو ٦٠٠ لغة المتبقي منها في الوقت الحاضر حوالي ١٢٠ لغة أشهرها لغات الإسكيمو في الشمال، الواكاشان Wakashan في جزيرة فانكوفر، الموسكوجين Muskogean في جنوب شرقي الولايات المتحدة الأمريكية، الأزتك في المكسيك، المايا في المكسيك وجواتيمالا .

١١- عائلة المحيط الهادي Oceania :

تتراوح اللغات التي يتحدث بها سكان جزر المحيط الهادي بين ألف، ألف وخمسمائة لغة تصنف إلى ثلاث مجموعات هي الأكتوياسفيك Indo/ Pacific، الاسترالية، الاسترو - تاي Austro - Tai .

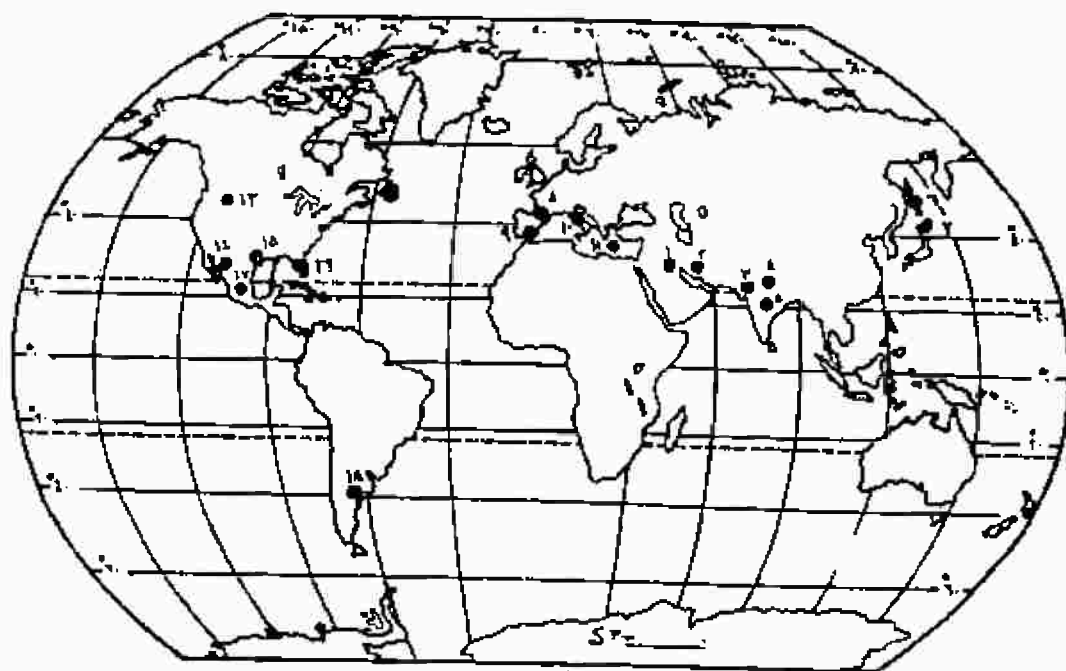
١٢- عائلة الخمير Mon Khmer :

تنتشر لغات هذه العائلة بين جماعات الخمير في كمبوديا بجنوب شرقي آسيا .

اللغات المنعزلة

هي تلك اللغات التي لا علاقة لها بالمجموعات اللغوية السائدة في العالم والتي لا يمكن إدراجها ضمن قائمة أي منها ، وهي لغات تعرف فقط بمفرداتها المرسومة (المنقوشة)، ولا يعرف عنها سوى القليل من خلفياتها التاريخية وملامحها اللغوية، ومن أمثلة هذه اللغات الإينو المتمركزة في شمالي اليابان، البوروشسكي Burushaski في باكستان ، الباسك في شمال شرقي إسبانيا وجنوب غربي فرنسا، التاراسكان Taraskan في ولاية كاليفورنيا الأمريكية، الكوتيناوي Koutenay في مقاطعة كولومبيا البريطانية بكندا .

ويمكن حصر أهم اللغات المنعزلة بأقاليم العالم علي مستوي القارات علي النحو التالي: { شكل رقم ٣ } .



- | | | |
|-------------------|-------------------|-----------------------|
| أولاً: في آسيا | ثانياً: في أوروبا | ثالثاً: في الأمريكتين |
| ١- السومارية | ٨- النباسك | ١٢- البيوتك |
| ٢- الإيلاميتية | ٩- الإيبيرية | ١٣- الكوتينا |
| ٣- التوهنزو/ دارو | ١- الإندونيسيتية | ١٤- الكيريس |
| ٤- البروشسكي | ١١- اللينز A | ١٥- الكارانكاوا |
| ٥- ألناهالي | | ١٦- الكالوسا |
| ٦- الجيليكا | | ١٧- الباراسكا |
| ٧- الإينو | | ١٨- الهيت |

شكل رقم [٢١] اللغات المنعزلة في العالم

أولاً: قارة آسيا :

١ - السومارية :

هي أقدم اللغات للمنعزلة التي تم حفظ مفرداتها في العالم حيث ترجع إلى حوالي عام ٣١٠٠ قبل الميلاد ، واستمر التحدث بها على نطاق واسع في جنوبي العراق حتى عام ٢٠٠٠ ق.م. وتوجد نقوش وبرديات مكتوبة باللغة السومارية في مجالي القانون وعلم اللاهوت ، إلى جانب العديد من كتابات التراث والأساطير .

ومن أُمير الكتابات السومارية المحفوظة حتى الآن نقش يحتوي علي حصر لأعداد الماشية التي يمتلكها الرعاة في إقليم مدينة أور القديمة (جنوبي العراق) وترجع إلي عام ٢٠٢٩ ق.م.

٢ - الإيلاميتية Elamite :

لغة منقرضة استخدمها سكان إقليم إيلام Elam الواقع في إقليم خوزستان جنوب غربي إيران ، وترجع نقوشها إلي الألف الثالثة قبل الميلاد ، وظلت مستخدمة في الإقليم حتى الألف الأولى قبل الميلاد .

٣ - الموهنزو / دارو Mohenjo - Daro :

ويعني الاسم " الركام الميت " حيث يتألف موقع الإقليم من مجموعة من الروابي (الهضبات) تقع علي ضفة نهر السند في باكستان ، وتم اكتشاف أثارها خلال عقد العشرينيات من القرن العشرين ، وترجع هذه اللغة إلي الألف الثالثة قبل الميلاد .

٤ - البوروشسكي Burushaski :

هي لغة تتلق ولا تكتب حيث لا حروف أبجدية لها ، ويبلغ عدد المتحدثين بها نحو عشرين ألف نسمة هم جملة افراد قبيلة بوروشو Burusho التي يمتد مواطنها بين شمال غربي كشمير والأراضي الباكستانية المتاخمة لها .

٥ - الناهالي Nahali :

لا يتجاوز عدد المتحدثين بها ألف نسمة يقطنون منطقة جنوب غربي مدها برانش في الهند .

٦ - الجيلييك Gilyak :

تعرف أحيانا باسم لغة النيفخي Nivkhi ، ويقدر عدد المتحدثين بها ثلاثة آلاف نسمة تقريبا يتركزون في شمال شرقي آسيا الروسية وبالتحديد في جزيرة سخالين والأراضي اليابسة الممتدة قبالتها .

٧ - الأينو Ainu :

تتركز أساسا في جزيرة هوكايدو شمالي اليابان ، بالإضافة إلى أجزاء من جزيرة سخالين وجزر كوريل ، ولا يتجاوز عدد المتحدثين بها ١٦ ألف نسمة بعد انتشار اللغة والثقافة اليابانية في الأقاليم المشار إليها ، وكانت هذه اللغة القديمة واسعة الانتشار في جزر اليابان ونطاقات أقصى شمال شرقي آسيا خلال العصور التاريخية القديمة ، إلا أنها تدهورت أمام زحف للهجرات البشرية القديمة حتى انحسرت في مواقعها الحالية .

ثانيا : قارة أوروبا :

١ - الباسك Basque :

تعد هي اللغة الوحيدة الباقية حتى اليوم من اللغات القديمة التي كانت سائدة في القارة الأوروبية وانقرضت بعد ذلك أمام زحف وانتشار مجموعة اللغات الأندو أوروبية وترجع أصولها المكتوبة إلى العصر الروماني .

وتتركز هذه اللغة القديمة في إقليم الباسك الممتد بين شمالي إسبانيا وجنوب غربي فرنسا والبالغ مساحته نحو أربعة آلاف ميل مربع ويقطنه أكثر من ٧٠٠ ألف نسمة. ويطلق الباسك على لغتهم اسم يوسكارا Euskara .

٢ - الإيبيرية Iberian :

انتشرت هذه اللغة القديمة على نطاق واسع في شرقي إسبانيا وجنوبها وخاصة في نطاق حوض نهر إيرو وذلك منذ ما قبل العصر الروماني ، ويعتقد أنه شاع استخدامها في نطاقات متفرقة من أوروبا قبل العصر الروماني .

وأثبتت الحفائر والنقوش التي عثر عليها أنها لغة تألفت من ٢٨ حرفا مما يعكس تأثرها بأبجدية اللغتين اليونانية والفينيقية، ومع ذلك فتاريخ هذه اللغة لازال يكتنفه الكثير من الغموض.

٣ - الإتروسكانية Etruscan :

نسبة إلى إقليم توسكاني الحالي غربي شبه جزيرة إيطاليا حيث نشأة دولة إتروريا Etruria القديمة والتي بلغت أوج عظمتها الحضارية خلال القرن السادس قبل الميلاد .

وشاع استخدام هذه اللغة حتى القرن الرابع قبل الميلاد ، وأمكن معرفة بعض كلماتها من خلال بعض الحفائر والآثار التي تم العثور عليها في الإقليم والبالغ عددها نحو عشرة آلاف حفرة أظهرت اشتقاق حروفها من اللغة اليونانية التي اشتق منها حروف اللغة اللاتينية . ولم يعثر حتى الآن على أية وثائق أو سجلات مكتوبة خاصة بحضارة إتروريا القديمة سوى نقوش جنانزية مختصرة .

٤ - الليز A - linear :

يطلق هذا الاسم على الكتابات التي اكتشفت في جزيرة كريت اليونانية والتي ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، ويعتقد بعض الباحثين أنها هي اللغة المينارية Minoan^١ .

وهي لغة تكتب كما يوحى اسمها بطريقة طولية (خطية) ، ومن المحتمل أنها كانت تكتب من اليسار إلى اليمين . وحرف A المرتبط باللغة يميزها عن لغة Linear B التي استخدمت في كتابة اللغة اليونانية خلال القرن الثاني قبل الميلاد .

ثالثا : عالم الأمريكتين :

١ - البيوثوك Beothuk :

لغة هندية تحدثت بها قبائل السكان الأصليين في جزيرة نيوفاوندلاند شرقي كندا وانقرضت هذه اللغة بموت آخر متحدث بها وكان ذلك عام ١٨٢٩ .

^١ نسبة إلى مينوس ملك كنوسوس الأسطوري في جزيرة كريت ، وامتدت هذه الحضارة خلال الفترة الممتدة بين عامي ٣٠٠٠ - ٢١٠٠ قبل الميلاد

وكان أفراد القبائل الهندية القاطنة في القارة يدهنون أجسادهم بأوكسيد الحديد أحمر اللون ، وربما لذلك أطلق عليهم - قبائل السكان الأصليين في الأمريكيتين بعامية - مصطلح الهنود الحمر Red Indians .

٢ - الكوتينا Kutena :

تحدث بهذه اللغة القبائل الهندية القاطنة جنوب شرقي مقاطعة كولومبيا البريطانية ومقاطعة البرتا في كندا، والأجزاء الشمالية من ولايات واشنطن، أيداهو، مونتانا في الولايات المتحدة الأمريكية .
ومع تناقص أعداد هذه القبائل الهندية بدأ يقل عدد المتحدثين بها والذين لا يتجاوز عددهم حاليا ٥٠٠ نسمة .

وتعرف هذه اللغة بأسماء أخرى منها سكالزي Skalzi ، كوتينيس Cootenais .

٣ - الكيريس Keres :

تحدث بها القبائل الهندية في ولاية نيومكسيكو الأمريكية ، ولا يتجاوز عدد المتحدثين بها حاليا سبعة آلاف نسمة ، وتتنطق هذه اللغة بعدة لهجات محلية في إقليم انتشارها في جنوب غربي الولايات المتحدة الأمريكية ، وتعرف هذه اللغة أيضا بأسماء متعددة منها كيوريس Queres ، كيسان Keresan .

٤ - الكارانكاوا Karankawa :

من اللغات الهندية المنقرضة، وكان يتحدث بها أفراد القبائل الهندية التي قطنت الأقاليم الساحلية لولاية تكساس الأمريكية حتى نهاية القرن الثامن عشر حين استقر الأوروبيون الوافدون إلى الولاية بأعداد كبيرة في الأقاليم المشار إليها .

٥ - الكالوسا Calusa :

تحدث بها أفراد القبائل الهندية التي عاشت في جنوب غربي ولاية فلوريدا حتى اختفوا تماما في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي من الولاية أمام موجات

الهجرة الأوروبية . وجدير بالذكر أن أعداد من أفراد هذه القبائل نزحت إلى جزيرة كوبا القريبة في نطاق البحر الكاريبي .

٦ - القاراسكا Tarasca :

سانت هذه اللغة بين القبائل الهندية التي عاشت في غربي المكسيك وجنوبها وبعض نطاقاتها الوسطي، ورغم اتساع دائرة انتشار المتحدثين بهذه اللغة فإن عددهم الحالي لا يتجاوز ٦٠ ألف نسمة أمام زحف وانتشار اللغتين الأسبانية والإنجليزية .

وتعرف هذه اللغة بعدة أسماء منها الميتشوكان Mechoacan ، البوريبيشا Porepecha .

٧ - الهيت Het :

من لغات الهنود الأمريكيين، وتعرف أيضا باسم شيشيهيت Chechehet، وكانت تستخدم في الأرجنتين، ولا يعرف من حروفها الأبجدية سوى القليل ، إلى جانب أسماء بعض المواقع . وانقرضت هذه اللغة في نهاية القرن الثامن عشر . وبالإضافة إلى اللغات المشار إليها في عالم الأمريكتين يوجد في أمريكا الجنوبية على وجه الخصوص العديد من اللغات المنعزلة الجاري دراستها في الوقت الحاضر بمعرفة علماء اللغة منها الجوما Juma ، البانا Baenna ، الناتو Natu ، الأريكابو Aricapu في حوض الأمازون بالبرازيل ، الكالاويا Callahuaya في بوليفيا .

الأقليات اللغوية

عادة ما يسود المجتمع البشري الواحد لغة واحدة تكون هي الرئيسية أو يتحدث بها الغالبية في التفاهم بين فئات المجتمع ، كما تكون هي الرسمية في المخابرات والمكاتبات بين الهيئات والمؤسسات الحكومية والأهلية .

ونتيجة للهجرات البشرية والأحداث التاريخية والسياسية علي مر العصور التاريخية تتعدد الأقليات البشرية في العديد من الأقاليم بالكتل القارية المختلفة

بصورة تؤدي إلى تعدد اللغات . ففي أوروبا على سبيل المثال لا يتحدث السكان في أية دولة لغة واحدة باستثناء نماذج قليلة تتمثل في ألمانيا والنمسا وبعض الوحدات السياسية صغيرة المساحة نسبيا مثل اليونان ، إيطاليا ، المجر ، أيسلندا ، موناكو ، النرويج ، السويد ، البرتغال .

ومن أكثر الدول الأوروبية تعقيدا في التركيب اللغوي سويسرا التي يتحدث شعبها أربع لغات رسمية هي الألمانية في الشمال ، والفرنسية في الغرب ، والإيطالية في الجنوب ، والرومانش في الشرق . وبلجيكا التي يتحدث نحو ٥٦% من جملة سكانها اللغة الألمانية بلهجة الفلمنك Flemish المنتشرة في الأقاليم الشمالية للدولة وفي أكثر ارتباطا بكل من ألمانيا وهولندا ، في حين يتحدث نحو ٢٢% من سكان بلجيكا اللغة الفرنسية بلهجة والون Walloon المنتشرة في الجنوب ، في حين يتحدث باقي السكان ونسبتهم ١٢% اللغة الألمانية . واستونيا التي لا تتجاوز مساحتها ٤٧٥٤٩ كيلو مترا مربعا ومع ذلك يتحدث سكانها أربع لغات هي الاستونية ، الليتوانية ، اللاتفية ، الروسية . وفرنسا التي يتحدث سكانها ست لغات هي الفرنسية ، البريغتون ، الفلمنكية ، الإيطالية ، الباسك ، القطلونية .

وبريطانيا التي يتحدث سكانها أربع لغات هي الإنجليزية ، الاسكتلندية ، الويلزية والغيلية (تنتشر الأخيرة بين سكان مرتفعات اسكتلندا) . ولوكسمبورج التي يتحدث سكانها ثلاث لغات هي اللوكسمبورجية والفرنسية والألمانية . وأسبانيا التي يتحدث سكانها اللغة الأسبانية بلهجاتها القطلونية والقشتالية ولغة الباسك وعدة لغات أخرى متناثرة .

وتتكرر نفس الصورة التي تدل على انتشار الأقليات اللغوية في باقي الدول الأوروبية حيث توجد أقليات تتحدث الألمانية في كل من الدنمارك وسلوفاكيا وبولندا ورومانيا ، وأخرى تتحدث المجرية في كل من رومانيا والتشيك وسلوفاكيا ، وثالثة تتحدث الروسية في لاتفيا وجورجيا وأرمينيا واستونيا

ولاتقيا وليتوانيا ، ورابعة تتحدث التركية في كل من شمالي اليونان (إقليم كوموتيلي) ومقدونيا ، وخامسة تتحدث اليونانية في البانيا^١ ورغم العرض السابق الذي يدل علي تعدد الأقليات اللغوية في معظم دول أوروبا ، إلا أنه كان لدول القارة تأثيرا ثقافيا هائلا علي باقي دول العالم المعاصر وليس أدل علي ذلك من انتشار الإنجليزية والفرنسية كلغتين عالميتين وفي قارة إفريقيا تتكرر ظاهرة تعدد التركيب اللغوي علي مستوي العديد من الدول بتأثير سيادة الطابع القبلي في تركيب السكان مما أسهم في تعدد الهجرات البشرية وتباين محاور تحركاتها وهو ما أوجد ظاهرة تعدد الأقليات اللغوية في العديد من الدول الأفريقية بما في ذلك الرئيسية منها مثل نيجيريا وغانا حيث توجد لغة رسمية واحدة ، ومع ذلك فإن ما يقرب من ٩٠% من جملة سكان كل منها تتحدث أكثر من لغة فغانا رغم أن الإنجليزية هي لغتها الرسمية إلا أن سكانها يتحدثون أربع لغات هي الأكان Akan ، الموسميا .. Musomba ، الأوا Ewa ، الجا Ga .

وتعد الأمهرية هي اللغة الرسمية في أثيوبيا ، ومع ذلك يسود بين سكانها لغات أخرى منها التيجراني Tigrinya ، الأورومينجا Orominga

ويبين الجدول رقم (٣) أهم الدول الأفريقية التي تتعدد فيها اللغات

جدول رقم (٣)

الدولة	اللغة الرسمية	اللغات الأخرى السائدة
نيجيريا	الإنجليزية	الهوسا ، اليوروبا ، الإبو Ibo
تنزانيا	الإنجليزية	السواحلية
غانا	الإنجليزية	الأكان ، فومسبا ، الإيوا ، الجا
سيراليون	الإنجليزية	الماندي ، تشلي ، الكرو Krio
بشوا	الإنجليزية	السيتسوانا Setswana
انجولا	البرتغالية	لغات البقتو
غينيا بيساو	البرتغالية	الكريولو Crioulo
جزر القمر الأخضر	البرتغالية	الكريولو Crioulo
بنين	الفرنسية	الفون Fon ، الهودجا
سلح العاج	الفرنسية	عدة لغات محلية أهمها الفويولا Dioula
الكونغو الشحيبة (برازافيل)	الفرنسية	اللينجالا Lingala ، الكيكونجو Kikongo
لغوييا الوسطى	الفرنسية	العربية ، السلنجيو ، الهوسا ، السواحلية
النيجر	الفرنسية	الهوسا ، الدجيرما Djerna
ملي	الفرنسية	البامبارا Bambara
السنغال	الفرنسية	الولوف ، اليولار Pulaar ، الديولا Diosa

وبين الجدول رقم (٤) أهم الدول الأفريقية التي تتعدد فيها اللغات الرسمية .

جدول رقم (٤)

الدولة	اللغات الرسمية
جيبوتي	العربية ، الفرنسية
جزر القمر	العربية ، الفرنسية ، القمرية Comorian
تشاد	العربية ، الفرنسية
الكامبيرون	الفرنسية ، الإنجليزية
غينيا الاستوائية	الفرنسية ، الأسبانية
كينيا	الإنجليزية ، السواحلية
ليسوتو	الإنجليزية ، السيسوتو Sesótho
مالاوي	الإنجليزية ، الشيشوا Chichewa
ناميبيا	الإنجليزية ، الأفريكاانا Afrikaana

ونظرا لصفة التعددية التي يتصف بها تركيب سكان جنوب أفريقيا نتفرد

هذه الدولة الأفريقية بخاصية تعدد لغاتها الرسمية البالغ عددها إحدى عشرة لغة

منها الأفريكانا، الإنجليزية، النديبيلي Ndebele ، البيدي Pedi، السوثو Sotho.

وتتكرر ظاهرة تعدد الأقليات اللغوية في العديد من دول باقي الكتل القارية في العالم ففي أمريكا الجنوبية تشمل اللغات التي تتحدث بها طوائف السكان في البرازيل البرتغالية وهي اللغة الرسمية ، بالإضافة إلى الإنجليزية والأسبانية والفرنسية ، ويتحدث سكان الأرجنتين ثلاث لغات رئيسية هي الأسبانية (اللغة الرسمية) والإنجليزية والإيطالية.

وفي قارة آسيا يتحدث سكان الهند ١٦ لغة رئيسية منها لغتين رسميتين هما الهندية Hindi والإنجليزية، وتعد باقي اللغات (الرئيسية) وعددها ١٤ لغة رسمية على مستوى أقاليم الدول الرئيسية.

ويوجد في اندونيسيا أربع لغات رئيسية هي الباهاسا Bahasa وهي اللغة الرسمية للدولة بالإضافة إلى الإنجليزية والهولندية والجاوية Javanese. ويوجد في الفلبين لغتين رسميتين هما الفلبينية Pilipino والإنجليزية، وتعد التاي هي اللغة الرسمية كما تسود الإنجليزية في تايلاند.

وفي لاوس تنتشر لغات اللاو (الرسمية)، الفرنسية، الإنجليزية، في حين ينتشر في اتحاد ماليزيا لغات المالاي Malay (الرسمية)، الإنجليزية، الصينية .

وتتصف قارة أمريكا الشمالية بتعدد مصادر عناصر السكان المهاجرة إليها وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا مما أدى إلى تعدد الأقليات اللغوية في مجتمع كل منها ولكن بدرجات متباينة حيث وفد إلى القارة عناصر سكانية نازحة من أوروبا وخاصة من ألمانيا، إيطاليا، النمسا ، المجر، السويد، اليونان، جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وأسبانيا ، بالإضافة إلى بريطانيا وإيرلندا، ومن آسيا وخاصة من الصين، اليابان ، الفلبين، والعديد من الدول العربية ، كما وفد إلى القارة عناصر مهجرة من قارة أفريقيا خلال مرحلة تجارة الرقيق التي

استمرت نحو ثلاثة قرون تمتد بين أوائل القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر^١

ويضاف إلى العناصر السكانية المشار إليها المتحدثون بالاسبانية والنازحون من المكسيك وبورتوريكو وكوبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بالإضافة إلى الهنود الأمريكيون Americas سكان القارة الأصليين المتحدثون بالعديد من اللغات المتباينة تبعا لخصائص البيئات الجغرافية التي عاشوا فيها والتي تراوحت طبيعتها بين الساحلية والغابية والجبلية والسهلية والنهرية^٢.

ولسهم الواقع السكاني المشار إليه في تعدد الأقليات اللغوية علي مستوى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد أثبتت دراسة مسحية أجريت في البلاد خلال ستصيف عقد السبعينيات من القرن العشرين وجود أقليات سكانية لا تتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة ولا زالت محتقظة بلغاتها الأصلية مما انعكس علي ثقافتها واتجاهاتها الحضارية في المجتمع الأمريكي الكبير .

ونبين حقول الجدول رقم (٥) تفاصيل الأقليات اللغوية في الولايات المتحدة الأمريكية^٣.

محمد خميس الزوكة ، جغرافية التجارة الدولية ، الطبعة الأولى ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٨ .

^١ راجع التركيب الجنسي لسكان الأمريكتين من المرجع التالي .
محمد خميس الزوكة ، جغرافية العالم الجديد ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ١٩٩٢ .
^٢ الجدول من إعداد المؤلف اعتمادا علي المادة العلمية التي تم تجميعها من المصدر التالي :
Crystal , D. , The Cambridge Encyclopedia Of Language , Fed Edition
N.Y ١٩٨٩, p. ٣٦١ .

جدول رقم (٥)

مناطق يتحدثون لغات غير الإنجليزية ١		للولاية
اللغات التي يتحدثون بها	% من جملة سكان الولاية	
الأسبانية ، الهانغاري ، الألباني ، النرويجي (لغات هندية)	٤٤	نيويورك
الاسبانية ، الصينية ، الهانغاري	٣٥	هواي
الاسبانية ، الإيطالية ، الألمانية ، الفرنسية ، اليابانية ، الصينية ، البرتغالية ، الكورية ، الفيتنامية ، الفلبينية	٢٥	كاليفورنيا
الاسبانية ، الفرنسية ، الألمانية	٢٥	تكساس
الاسبانية ، الإيطالية ، الألمانية ، البولندية ، الفرنسية ، النرويجية ، الصينية ، الهانغاري ، الهانغولي (هندية)	٢٥	نيويورك
الاسبانية ، الألمانية ، الهانغولي (هندية)	٢٣	أريزونا
البولندية ، الأسبانية ، الفرنسية ، الإيطالية	٢١	رودايلاند
الاسبانية ، الإيطالية ، الفرنسية ، البولندية	١٩	كونيكتكت
الاسبانية ، الألمانية ، الإيطالية ، الفرنسية	١٩	نيوجيرسي
الفرنسية ، الأسبانية	١٧	لويزيانا
الفرنسية ، الإيطالية ، البولندية ، الأسبانية	١٧	ماساشوسيتس
الألمانية ، النرويجية	١٦	نورث دكوتا
الفرنسية	١٥	نيوهامشير
الألمانية ، الأسبانية ، الهانغولي	١٤	فلوريدا
الاسبانية ، الألمانية	١٤	كلورادو
اليونيك (هندية) ، الإندونيسي (هندية)	١٤	الاسكا
البولندية ، الأسبانية ، الألمانية ، الإيطالية ، الفرنسية	١٣	إلينوي
الفرنسية	١٣	مين
الاسبانية	١٢	نيفادا
الفرنسية	١٠	فيرمونت
الألمانية ، البولندية	١٠	ويسكونسن
العربية ، البولندية ، الألمانية ، الأسبانية	٩	ميتشجان
الألمانية ، النرويجية ، اللاتوكا (هندية)	٩	ساوث دكوتا

تبرز أرقام الجدول رقم (٥) ارتفاع نسبة الأقليات اللغوية في ولايات الشمال الشرقي المتاخمة لكندا حيث تنتشر اللغة الفرنسية على وجه الخصوص ، بالإضافة إلى الولايات المحيطة بنيويورك المركز الاقتصادي الرئيسي في الدولة حيث تتعدد الأقليات ، كما ترتفع نسبة الأقليات اللغوية في ولايات الشمال حيث تنتشر اللغتين الألمانية والنرويجية على وجه الخصوص، وفي الجنوب حيث تنتشر اللغتين الفرنسية والأسبانية بصفة خاصة، بالإضافة إلى ولاية كاليفورنيا

الختمة

كأكنوبة النقاء العرقي (الجنسي) لا يوجد نقاء لغوي على مستوى معظم الوحدات السياسية في العالم يتشابه في ذلك الدول الكبيرة والدول الصغيرة، الدول القوية والدول الضعيفة، الدول الغنية والدول الفقيرة، الدول القديمة (في قارات العالم القديم) والدول الجديدة (في قارات العالم الجديد) .

والتنوع اللغوي أو التوزيع الجغرافي للغات في العالم وتباينه يمثل نتاج تفاعل العديد من العوامل التي يتصدرها التركيب العرقي والقبلي للسكان ، الهجرات البشرية للسكان قديما وحديثا، الهياكل الحضارية القديمة ومحاور امتدادها وتطورها، النقل الحضاري والثقافي لشعوب العالم ذات العلاقات والارتباطات المتداخلة ومتباينة الشعب، التوزيع الجغرافي لكل من الأديان السماوية (اليهودية، المسيحية، الإسلام) والأديان غير السماوية (البوذية ، الهندوكية، الشينتيوية وغيرها)، التوزيع المكاني لنطاقات العزلة الجغرافية ، حلقات المد الاستعماري القديم والحديث وبأشكاله المختلفة .. العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية.. فكلها عوامل تفاعلت مع بعضها البعض وأفرزت في النهاية خريطة التوزيع الجغرافي للغات العالم والتي سعت هذه الدراسة إلى تبسيط الأضواء على بعض ملامحها .

أهم المراجع

أولا : المراجع العربية :

- أحمد محمد الصنوبر ، الحصيلة اللغوية - أهميتها ، مصادرها ، وسائل تنميتها ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٦ .
- تراسك ، ر.ل. ، أساسيات اللغة (ترجمة رانيا إبراهيم يوسف) ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ٢٠٠٢ .
- سليمان مظهر ، قصة العقدة بين السماء والأرض ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- محمد خميس الزوكة ، جغرافية العالم الجديد ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٩٢ .
- - ، أوروبا - دراسة في الجغرافيا الإقليمية ، الطبعة الأولى ، الإسكندرية ٢٠٠٠ .
- - ، آسيا - دراسة في الجغرافيا الإقليمية ، الطبعة الثالثة ، الإسكندرية ، ٢٠٠٢ .
- - ، الجغرافيا الحضارية ، الطبعة الأولى ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤ .
- موان ، ج. ، علم اللغة والترجمة (ترجمة أحمد زكريا إبراهيم) المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠١ .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

- Barnhart , R.K. , Chambers Dictionary Of Etymology , N.Y. , 1988 .
- collier , s Encyclopedia , N.Y., 1987 (Different Volumes) .
- Crystal , D., The Cambridge Encyclopedia Of Language , 3 ed Edition , N.Y. 1989 .
- Deblij , Human Geography – Culture , Society And Space , N.Y. , 1977.
- Jackson R., Hudman, Cultural Geography- People , Places and Environment N.Y. , 1997 .
- Shelley , F., Clarke ,A. ,Human and Cultural Geography , N. Y. , 1971 .
- The New York Times Almanac , N.Y., 2000 .

اللغات في العالم من منظور جغرافي
أ.د. محمد خميس الزوكة

الجغرافيا
ونظم
المعلومات
الجغرافية

التطور الجيومورفولوجي لمنطقة مصب رشيد خلال القرن العشرين

د. مهديوح تهاى عقل

قسم الجغرافيا

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

جريدة كلية الآداب

العدد ١٠٠٠
الطبعة ١٠٠٠
العدد ١٠٠٠

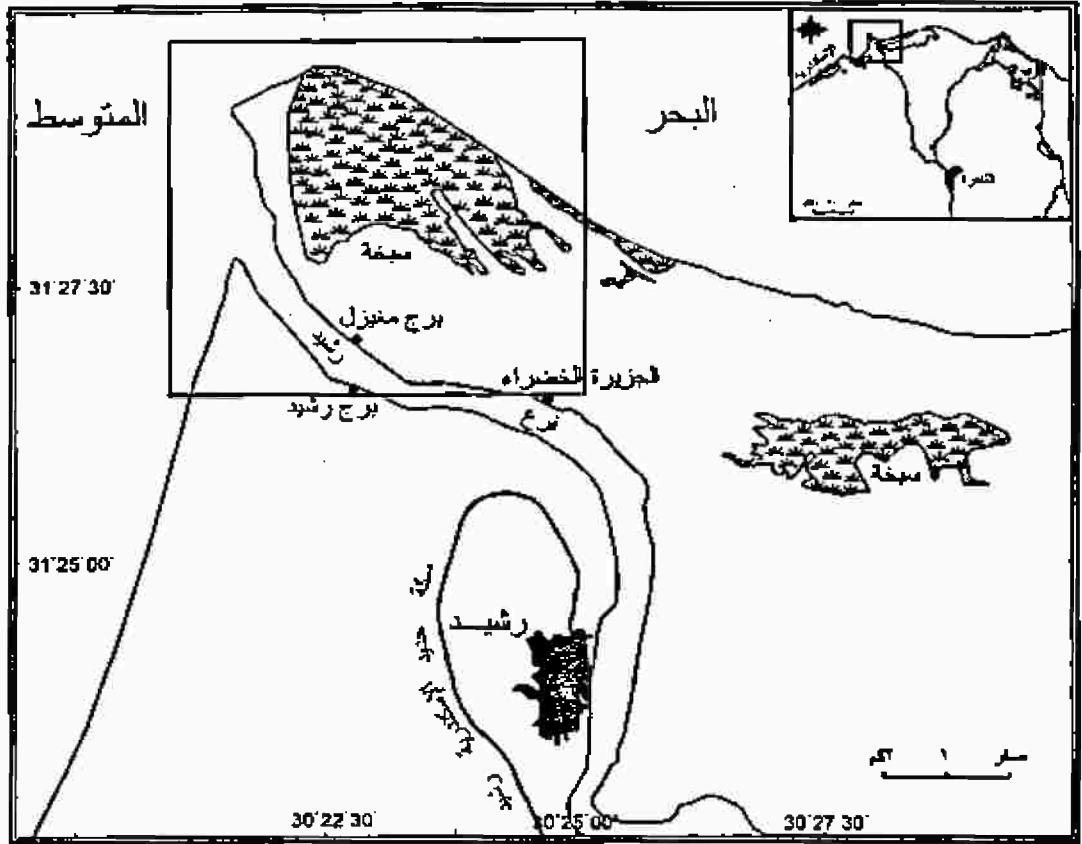
مقدمة :

تمثل منطقة مصب رشيد الطرف النهائى لفرع النيل الغربى (فرع رشيد) وتتميز بكونها أحد ثلاثة بروز تتوغل فى البحر، ومن ثم فهى ذات حساسية خاصة لعلاقتها بتأثير البحر التحاتى كراس أرضية متوغلة فى البحر. وتحتصر منطقة البحث بين خطى طول ٢٠ ٣٠.١٩ - ٢٥ ٢٠.٢٨ شرقاً، ودائرتى عرض ٢٩ ٣١.٢٦ - ٣٢ ٣١ شمالاً (شكل ١). وتتميز بانخفاض منسوب سطحها، ولا يتمثل بها من الظواهر الجيومورفولوجية سوى السبخات التى تنتشر بالقرب من خط الشاطئ، وبعض المسطحات الرملية ذات المساحات المحدودة التى هى بقايا إرساب بحرى/ نهري يتعرض الآن فى معظم أجزائه إلى عمليات النحت والتآكل. ومن هنا فإن هذه المسطحات الرملية تتكشم فى مساحاتها بمرور الزمن، فى حين أن السبخات القديمة التى كانت تشرف على خط الشاطئ ابتلعها البحر فى سلسلة طغيانه على منطقة المصب، وأصبحت جزءاً منه. وهى وإن كانت تخفى فى هذه الأجزاء، فإنها تظهر فى مناطق داخلية كانت أرضاً يابسة جافة. وإلى الداخل تظهر الأراضى الطينية السهلية التى تمثل الأراضى الحقيقية للدلتا، والتى تعاني الآن من اقتراب البحر منها بشدة، وفى تواصل لم ينقطع حتى الآن، بالإضافة إلى بعض الكثبان الرملية التى تأخذ شكل الكومات الرملية أكثر من كونها كثباناً مثالية للشكل.

طبيعة المشكلة :

يمثل شاطئ الدلتا منطقة صراع أبدي بين قوى البناء المتمثلة فى الإرساب النهري بما يجلبه للنهر من حمولة متنوعة يكون قرارها النهائى أمام الشاطئ وتعمل على تقدم الدلتا على حساب البحر، وقوى الهدم المتأصلة ، وتوابعها والتيارات البحرية والمد والجزر. ويساعد هذا الياوس بالبحر ارتفاعاً أو انخفاضاً لأى منهما، بالإضافة

الشاطئ. وتتجسد المشكلة في أن شواطئ لقا النيل تتعرض بصفة عامة لتأثير قوى الهدم (فعل البحر الهدام) بعد أن تراجع بشدة تأثير قوى البناء بسبب ندرة ما



المصدر: خريطة طبوغرافية اصطلح ١٩٨٢

شكل (١) الموقع العام لمنطقة الدراسة

يصل لتلك الشواطئ من رواسب نهريّة عن طريق فرعي النيل بعد إقامة المنشآت الاصطناعية بغرض التحكم في تنفق مياه النهر. وتزداد ضراوة عمليات الهدم على منطقة مصب رشيد لكونها رأس أرضية تتوغل في البحر (ولأسباب أخرى سوف نناقشها فيما بعد). ومن ثم فإن راييس منطقة المصب يتعرض للتراجع أمام الأمواج بمعدلات تتدرج بالخطر. ولابد من السيطرة على العمليات البحرية حتى تتمكن من حماية الشواطئ المعرضة لعمليات النحت.

الدراسات السابقة :

اجتذب شاطئ الدلتا العديد من الباحثين الذين قاموا بدراسة فردى وجماعات. وأنه لمن الصعب سرد كل الدراسات التى وردت فى هذا الصدد، إذ أن المجال لا يتسع لذلك، ولكن من أبرز هذه الدراسات تلك التى يقوم بها معهد بحوث الشواطئ بعد أن انيط به مراقبة أحوال الشواطئ المصرية وبخاصة شاطئ الدلتا. فأجرى باحثوه العديد من الأبحاث الخاصة برصد خصائص حركة المياه وطبيعتها وتحركات خط الساحل وتحليل رواسب الشاطئ وقاع البحر أمام الشاطئ... إلخ. وهناك الدراسات الفردية مثل تلك التى قام بها أبو العينين (١٩٧٣م) وجاويش (١٩٨٨م) وأبو راضى (١٩٩٠م) والسيد (١٩٩٨م) وسالم (١٩٩٨م) بالإضافة إلى باحثين غير مصريين لعل أبرزهم Stanley and (1989, 1990) Stanley و(1993) Warne. وقد تناولت هذه الدراسات تأثير العوامل المختلفة على شاطئ الدلتا عامة أو فى مناطق محددة، وخصائص الرواسب وتطور الشاطئ فى مراحل مختلفة. وهذه الدراسات رغم قيمتها العلمية الرفيعة، فإننا أمام ظاهرة ديناميكية سريعة للتغير، ونجد أنفسنا كباحثين- أمام صراع ضارى بين قوى التعرية البحرية والتهرية لا يتوازن عند حد معين، ومن ثم ف الساحل الدلتا يحتاج -وباستمرار- إلى جهود المزيد من الباحثين وذلك بسبب أهميته من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية، بالإضافة إلى أن معدلات تغيره السريعة والأخطار الناشئة عن تراجعها إلى الدخول تفرض علينا دقة المراقبة واستيعاب دور العمليات المشكلة، واستشراف المستقبل ومن ثم اقتراح الحلول.

أهداف الدراسة :

يمكن تحديد أهداف البحث فى النقاط الآتية :

- ١- دراسة تطور منطقة المصب بهدف تحديد مناطق ومعدلات التراجع وتحديد خطورتها.

٢- تحديد مدى خطورة العوامل المؤثرة على تآكل وترجع خط الشاطئ.

٣- تحديد الحالات المورفودينامية لشواطئ منطقة المصب.^١

٤- تقديم بعض الاقتراحات العملية التى قد تنفذ فى حل هذه المشكلة.

أساليب الدراسة :

اتبع الباحث عدة أساليب لتحقيق الأهداف السابقة منها :

١- تحليل الخرائط الطبوغرافية والصور الجوية والمرئيات الفضائية الرقمية فى دراسة التطور الجيومورفولوجي للمنطقة. وقد اعتمد الباحث على الخرائط والصور الآتية :

أ- خريطة الحملة الفرنسية لمنطقة مصب رشيد مقياس ١ : ١٠٠,٠٠٠ إصدار عام ١٧٩٨.

ب- خريطة طبوغرافية لوحة رشيد III- VIN مقياس ١ : ٥٠,٠٠٠ إصدار مصلحة عموم المساحة عام ١٩٠٩ م.

ج- خريطة بحرية (الإسكندرية/ بورسعيد) مقياس ١ : ٢٣٥,٤١ إصدار الأدميرالية البريطانية عام ١٩٢٦ م.

د- أربع لوحات طبوغرافية (مصب رشيد، طابية الفرش، كوم مشعل، برج مفيزل) مقياس ١ : ٢٥,٠٠٠ إصدار مصلحة المساحة المصرية عام ١٩٢٢ م.

هـ- مجموعة خرائط طبوغرافية للمنطقة مقياس ١ : ٥٠,٠٠٠ إصدار إدارة المساحة العسكرية بالقاهرة عام ١٩٧٠ م.

و- مجموعة خرائط طبوغرافية للمنطقة مقياس ١ : ٥٠,٠٠٠ إصدار الهيئة المصرية العامة للمساحة عام ١٩٩٨ م.

ز- مجموعة صور جوية مقياس ١ : ٤٠,٠٠٠ إصدار إدارة المساحة العسكرية بالقاهرة عام ١٩٥٠ م.

- ج- مجموعة مرئيات فضائية رقمية TM للقمر الصناعى الأمريكى لانصاف Landsat مقياس ١: ٧٥,٠٠٠ التقطت فى أعوام ١٩٨٤م، ١٩٩٧م، ٢٠١١م والاستفادة من هذه الوسائل ثم اتباع الخطوات الآتية :
- أولاً : معالجة الخرائط والصور الجوية والفضائية وضبطها:
- ١- بالنسبة للخرائط الطبوغرافية تم إجراء الآتى
- أ- تم عمل مسح ضوئى Scan بدرجته وضوح 300 dpi (٣٠٠ نقطة فى البوصة المربعة).
- ب- عمل تصحيح للإسقاط من خلال ربطها بنقاط تم رفعها من الميدان بجهاز GPS وضبطها على الإسقاط الآتى :

Projection UTM

Sphroid Helemrt

Datum Old Egyptian 1907

- ج- تم عمل موزايك لمجموعة الخرائط الطبوغرافية لكل سنة على حدة.
- ٢- بالنسبة للصور الجوية فقد اتبعت نفس الخطوات السابقة.
- ٣- أما المرئيات الفضائية فقد تم اتباع الآتى :
- أ- ضبط مساقط المرئيات الفضائية من خلال ربطها بالخرائط الطبوغرافية على نفس الإسقاط.
- ب- عمل تحسين للمرئيات لتوضيح الحدود الفاصلة بين الظواهر المختلفة لدقة فصلها عن بعضها البعض وسهولة رسمها، وذلك من خلال برنامج Erdas Imagine واختيار أنسب ثلاث طبقات (أطيان) Bands من الطبقات السبعة الموجودة بكل مرئية. والطبقات المختارة هى ١، ٤، ٧ الممثلة للألوان الآتية:
- الأحمر Red، والأخضر Green، والأزرق Blue.

ثانياً : تحديد ورسم الظواهر الجيومورفولوجية من مجموعة للخرائط والصور والمرئيات من خلال مجموعة طبقات معلومات Information Layers يحدد فيها مساحة ومحيط كل ظاهرة من الظواهر المختلفة المتمثلة فى المنطقة.

ثالثاً : عملية إخراج الخرائط النهائية وذلك من خلال وضع خطوط الطول والعرض ومقياس الرسم ومفتاح الخرائط وأسماء الأعلام... إلخ.

٢- لقيام برفع قطاعات مساحية للشاطئ ميدانياً باستخدام جهاز المحطة المساحية المتكاملة Total Station فى عامى ٢٠٠٢، ٢٠٠٣ بغرض المقارنة والتحليل.

٣- جمع عينات من الرواسب وتحليلها حجمياً ومعدنياً بمعامل قسم الأراضى بكلية الزراعة- جامعة الإسكندرية بغرض التعرف على الحجم السائد وإدراك العلاقة بين حجم الرواسب وطاقة عمليات التشكيل السائدة.

٤- استخدام أسلوب التحليل الكمي والإحصائى كلما تطلبت الدراسة ذلك.

٥- الاستعانة ببرامج الكمبيوتر لمعالجة الصور الفضائية ولرسم الخرائط والقطاعات بكافة أنواعها وتحليل الأرقام إحصائياً ومعالجة الصور الفوتوغرافية. ومن أهم هذه البرامج المستخدمة: Arcview, Auto CAD 2000, Erdas Imagine V.8. 3., SPSS V. 8. statistica, Adope Photoshop V.6.

التطور المورفولوجى الحديث لمنطقة مصب رشيد

تمهيد :

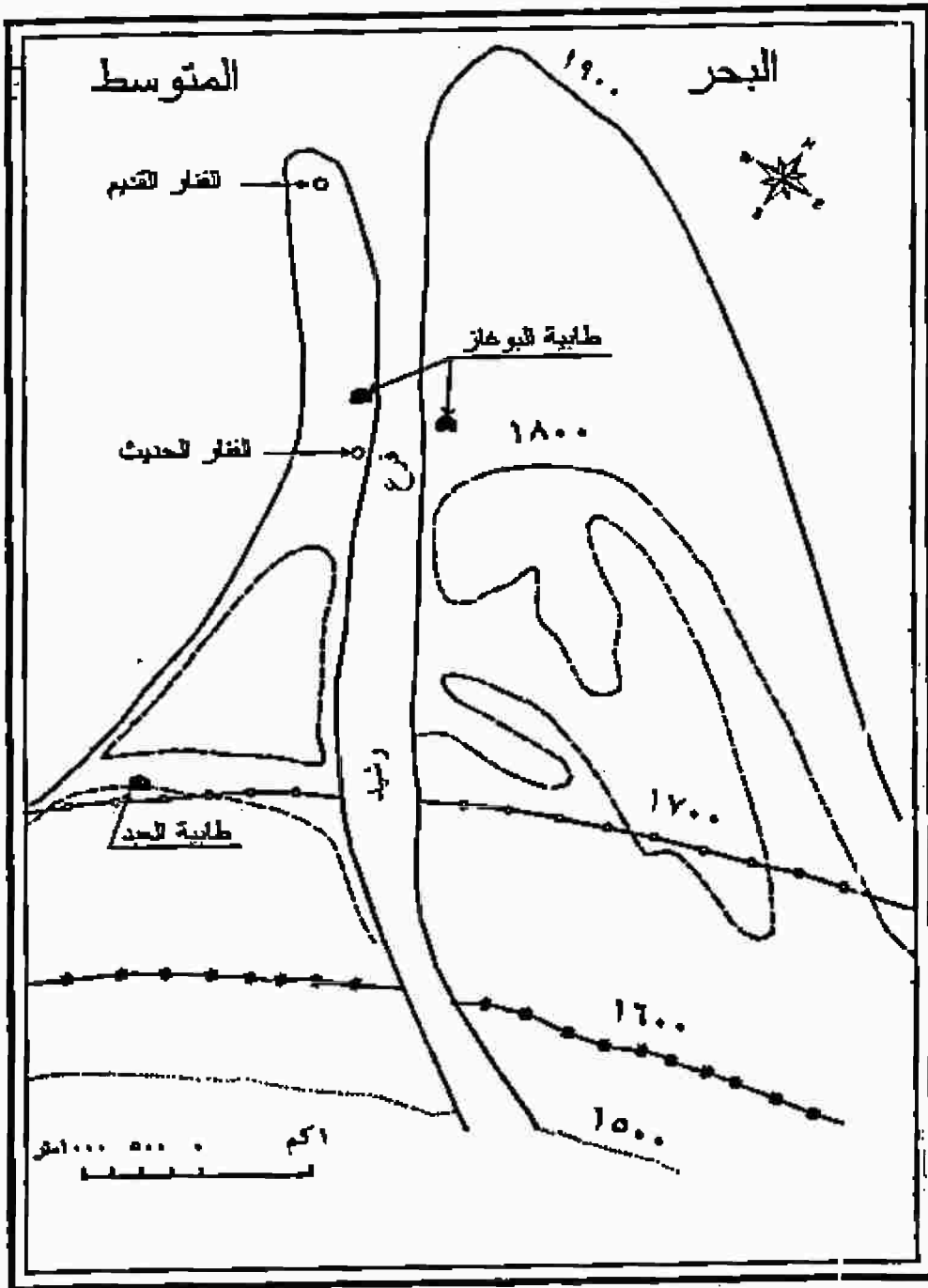
يشير إجماع الباحثين إلى أن شواطئ الدلتا كانت فى نمو مستمر خلال القرون السابقة للقرن العشرين، وإن اختلفت معدلات هذا النمو من فترة إلى أخرى تبعاً للضوابط الجيومورفولوجية النهرية والبحرية والتوازنية. وتتواتر البيانات التاريخية لى تؤكد على الزحف العمرانى المستمر للمراكز العمرانية تجاه الشمال حتى بداية القرن العشرين. فقد بنى الإغريق مدينة ميتيليس (قوة

حاليًا) في القرن السابع قبل الميلاد لكي تكون ميناء على فرع النيل. ثم بنى الرومان مدينة بوليبيتين على الفرع البولبيتى (رشيد) في القرن الأول قبل الميلاد. ويرجح أن هذه المدينة كانت تقع إلى الجنوب من مدينة رشيد الحالية وعند تل أبو منصور (المصرى ٢٠٠٠ ص ٧٨).

ويجمع كثير من المؤرخين على أن مدينة رشيد أخذت موقعها الحالى فى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله عام ٨٧٠م (٢٥٦هـ) لتحل محل فوة التى أخذت تبعد تدريجيًا عن ساحل البحر بسبب الإرساب المستمر لطمي النيل على الشواطئ الشمالية (مبارك ١٣٠٥هـ ص ١١٥). وبغض النظر عن الجدل المحتدم بين المؤرخين بشأن تأريخ نشأة مدينة رشيد، فإننا نخرج بنتيجة مؤداها أن تقدم مصب رشيد فى البحر استدعى زحفا عمرانيًا وراء هذا الامتداد، والذي بلغ متدله نحو ٢٥ كم هى المسافة الفاصلة بين المدينتين فوة ورشيد.

وقد تسارع تقدم مصب رشيد فى البحر بعد انطمار أفرع النيل فيما بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وبعد أن ساعدت هذه الأفرع فى ردم وإطماء مساحات كبيرة من المستنقعات والبحيرات والسبخات، فتركز التصريف والطمي فى فرع رشيد ونمياط فقط، ومن ثم ساعد ذلك على بناء جسرين للفرعين فى عمق البحر. هذا على الرغم من تأثير التيار الغربى للبحر المتوسط الذى يسهم بإعادة توزيع قدر من هذه الرواسب على سواحل الدلتا فى اتجاه الشرق، والذي عمل على استقامة شاطئ الدلتا إلى حد كبير. وكان التقدم بطيئًا فى البداية بعد تلاشى أفرع النيل القديمة وذلك بسبب انخفاض كمية للتصريف وبالتالي كمية الرواسب. فقد تقدم مصب رشيد فيما بين القرنين ١٦م، ١٧م كيلو مترًا واحدًا فقط (شكل ٢)، أى بمعدل سنوى قدره عشرة أمتار وقت أن كان فيضان النيل يقدر متوسطه بنحو ١٧,٥ ذراع. ثم تزايد المعدل بين القرنين ١٧م، ١٨م ليبلغ ضعف هذا القدر (٢٠ مترًا سنويًا) وواصل تزايدده فى الامتداد نحو البحر فيما بين القرنين

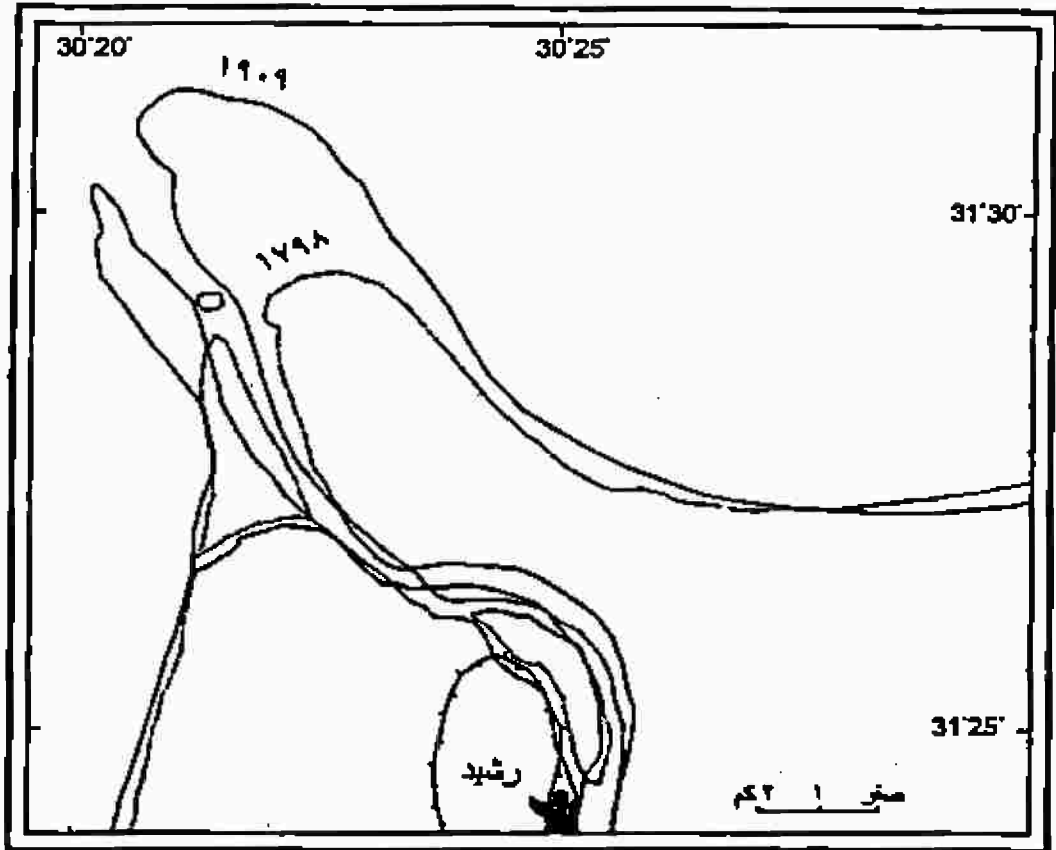
١٨م، ١٩م بمصافة ٣,٢٥ كم عن الفترة السابقة، وكان متوسط فيضان النيل في هذه الفترة ١٨ نراغا.



المصدر: مسح بحوث التوالت - تقرير التوالت (١٩٦٠م)

شكل (٢) تطور مصب رشيد فيما بين ١٥٠٠-١٩٠٠م

ويبلغ الامتداد أقصاه فيما بين القرنين ١٨م، ٢٠م، إذ يوضح الشكل (٣) تطور خط الشاطئ فيما بين الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨م) وبدايات القرن العشرين (١٩٠٩م) وتبين بالقياس على طول المحور الموازي لمجرى فرع رشيد أن رأس المصب امتدت في البحر لمسافة تقدر بنحو ٤ كم، أى بمعدل سنوى قدره ٤٠ مترًا. وكان متوسط فيضان النيل في هذه الفترة ٩,٢ (أتراغا^(١)). وخلاصة ما سبق أن مصب رشيد توغل في البحر منذ القرن السادس وحتى بداية القرن العشرين بنحو ١٠,٢٥ كم بمعدل سنوى قدره ٢٥,٦ متر.



المصدر : من عمل الباحث اعتماداً على خرائط الحملة الفرنسية من خريطة طبعها سنة ١٩٠٩

شكل (٣) تطور مصب رشيد فيما بين ١٧٩٨ - ١٩٠٩م

(١) تم حساب مسافات تقدم مصب رشيد اعتماداً على الشكل رقم (٢) أما بيانات فيضان النيل فمصدرها: وزارة الموارد المائية والري، إدارة توزيع المياه: سجلات غير منشورة. الجيزة.

التغيرات المورفولوجية أثناء القرن العشرين :

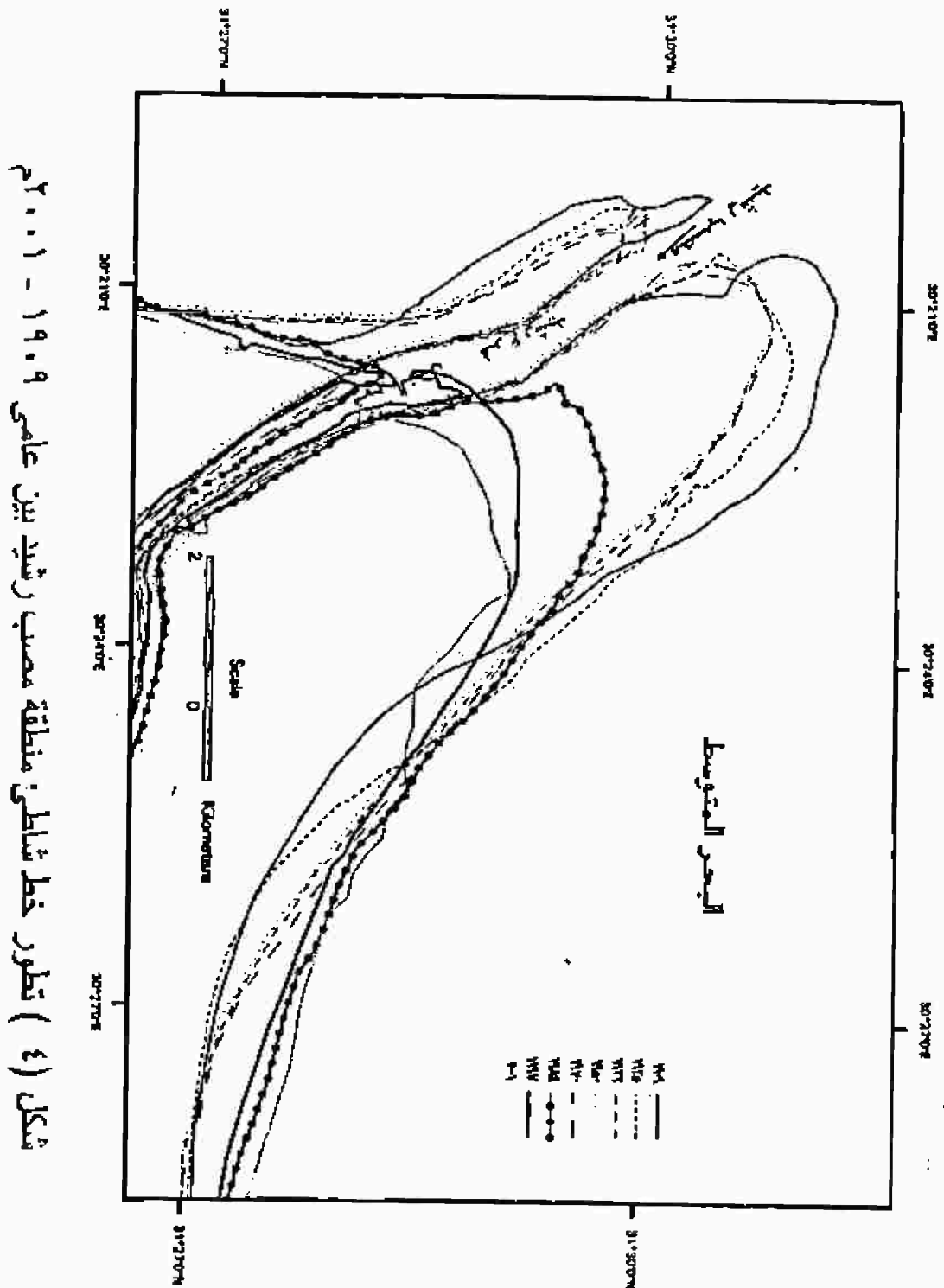
رأينا مما سبق أن فى الفترة السابقة للقرن العشرين كان شاطئ الدلتا بصفة عامة ومنطقة مصب رشيد بصفة خاصة فى نمو دائم ومستمر على حساب البحر. ولكن مع بداية القرن العشرين، تغير نمط التحكم فى تصريف مياه نهر النيل عن طريق بناء خزان أسوان، ثم السد العالى، فضلا عن الإنشاءات الهندسية الأخرى المتمثلة فى سلسلة القناطر، مما أثر على كمية وطبيعة تدفق التصريف والحمولة النهرية. ومن ثم بدأت منطقة المصب تعاني من إغارة البحر عليها باكتساح مكوناتها، وتعرض خط الشاطئ للتآكل والتراجع. ويمكن تقسيم هذا التراجع إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى (١٩٠٠ - ١٩٧٠ م) :

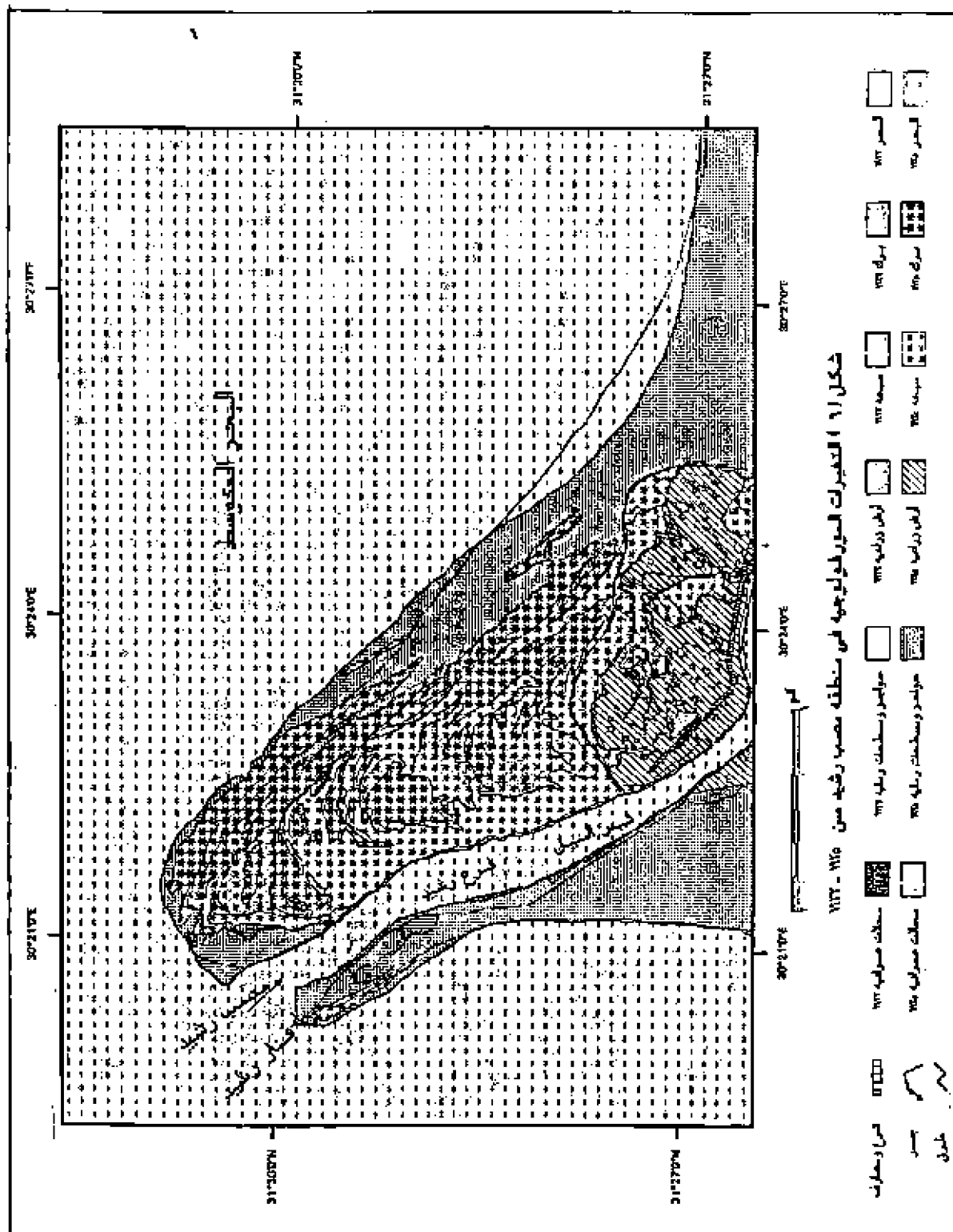
تبدأ هذه الفترة مع بدايات القرن العشرين وتنتهى مع الانتهاء من بناء السد العالى وبداية تأثيره الفعلى. ومنذ بداية هذه الفترة أنشئ خزان أسوان فى عام ١٩٠٢م، وتمت تعليته فى عامى ١٩١، ١٩٢٣م. وكانت النتيجة أن تم حجز جزء من مياه الفيضان والرواسب الفيضية أمام الخزان. وتكونت بحيرة استطالت حتى بلغت كاجدارتى على مسافة ٢٦٠ كم من الخزان. وبدأ خط الشاطئ عند مصب رشيد فى التأثر بهذا الوضع. وتوضح الخرائط (أشكال ٤-٨) التغير فى مورفولوجية منطقة مصب رشيد ونظراً لطول الفترة، فقد قام الباحث بتقسيمها إلى فترات ثانوية وفقاً لتوافر الخرائط التى حصل عليها، ويمكن إيجاز التغيرات التى طرأت على منطقة المصب فيما يلى:

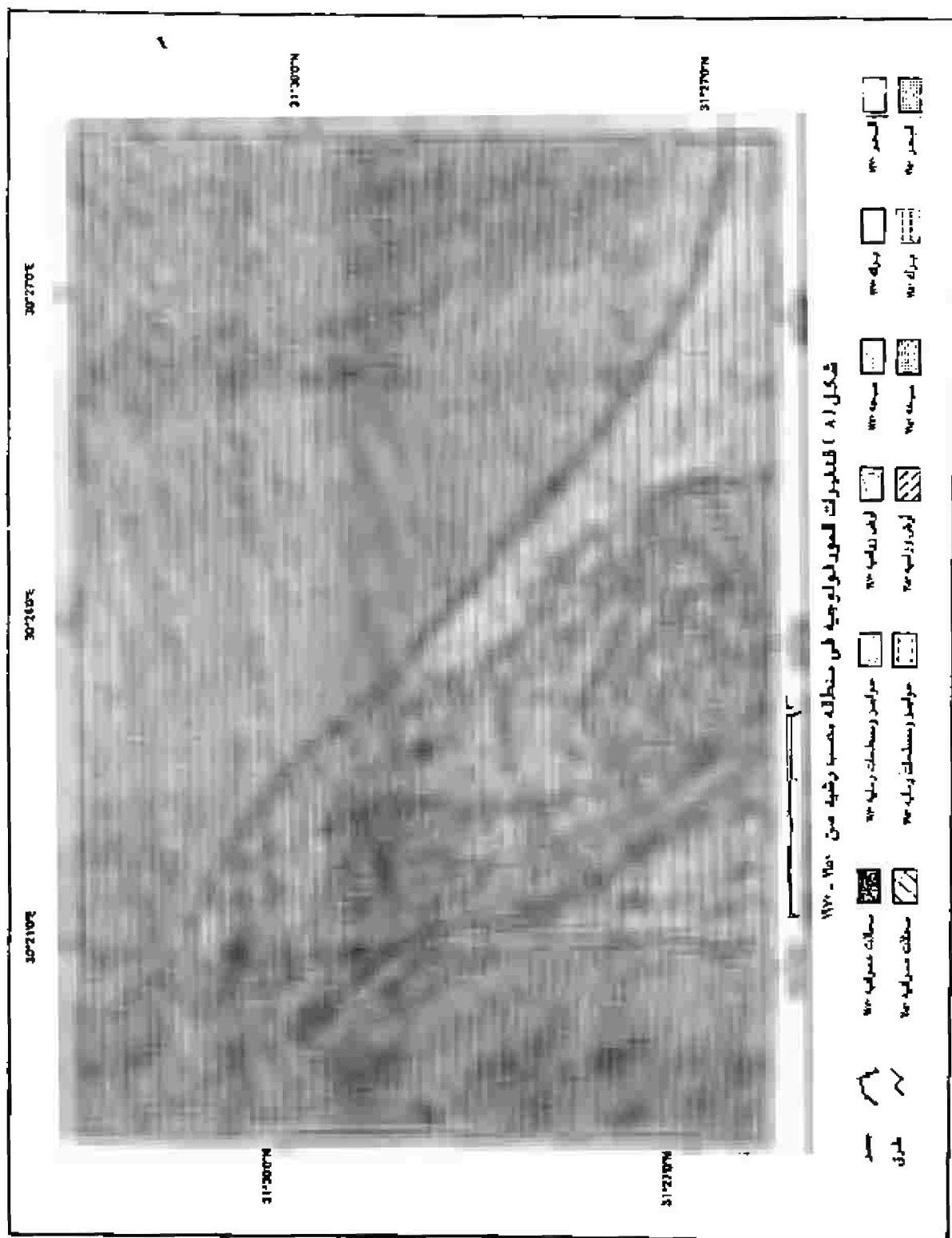
- ١- يوضح الشكل (٥) التغير المورفولوجي لمنطقة المصب فى الفترة بين ١٩٠٩ - ١٩٢٥م. ومنه يتبين مدى التراجع الذى بدأ يظهر على خط الشاطئ، حيث تآكل الحاجز الرملى على الجانبين الشرقى والغربى من رأس المصب، كما ضم البحر إليه الأطراف الشمالية من بركة البوص على الجانب الشرقى. وكان مقدار التراجع فى الجانب الشرقى ٨٠٠م، وفى الجانب الغربى ٨٧٠م فى الفترة المشار

إليها (جدول ١). واستطاع البحر نحت مساحة تقدر بـ ٢٠,٧٨ كم^٢ من رأس اللسان الشرقي وجزئه الشمالي الشرقي وذلك بمعدل سنوي ١,٢ كم^٢.



شكل (٤) تطور خط شاطئ منطقة مصب رشيد بين عامي ١٩٠٩ - ٢٠٠١م





جدول (١) معدل التراجع فى منطقة مصب رشيد على طول المحور الموازى

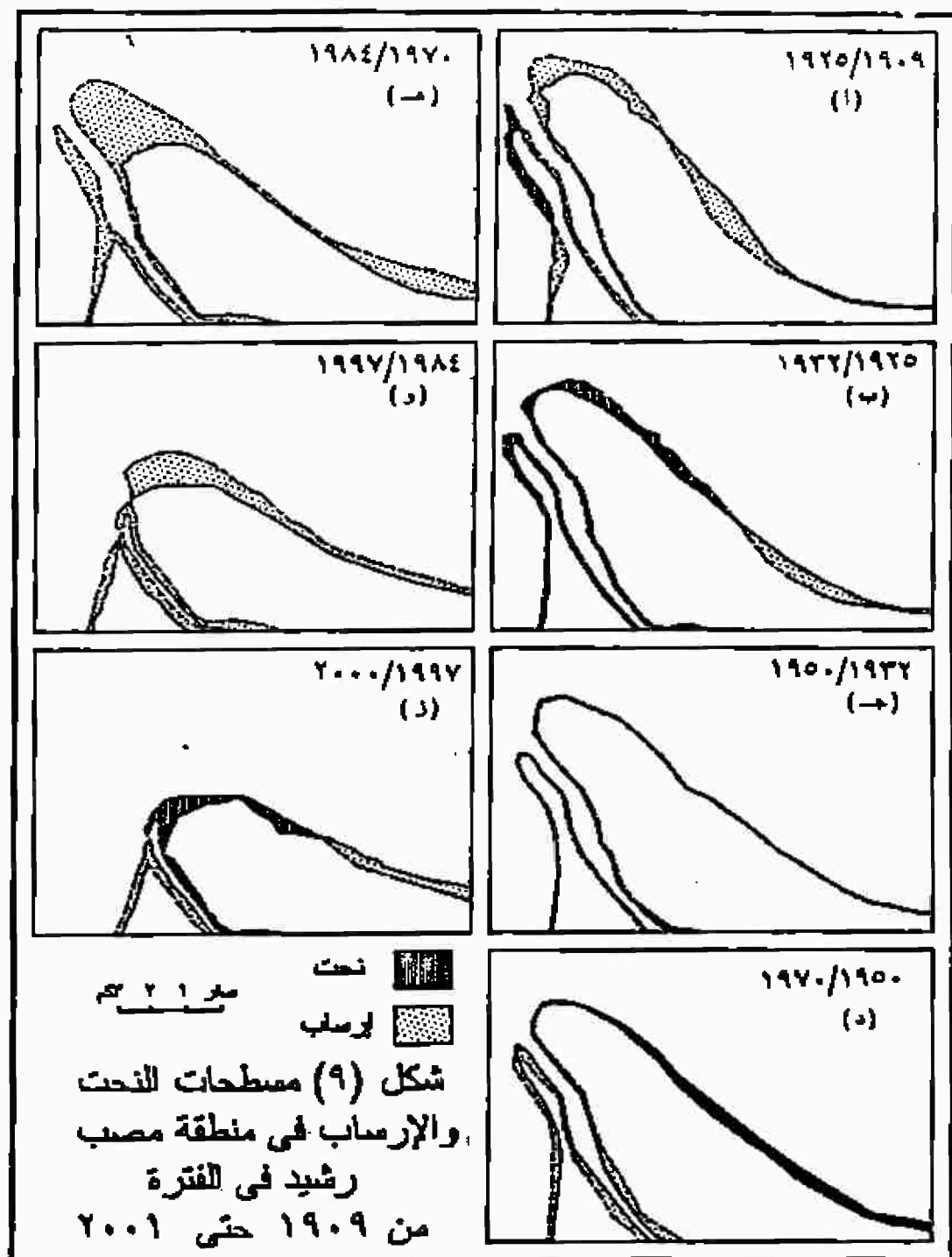
للفرع فيما بين ١٩٠٩ - ٢٠٠١

الفترة الزمنية	الجانب الشرقى		الجانب الغربى	
	مقدار التراجع (كم)	المعدل السنوى للتراجع (م)	مقدار التراجع (كم)	المعدل السنوى للتراجع (م)
١٩٢٥ / ٠٩	٨٠	٥٠,٠٣	٨٧	٥٤,٣٧
١٩٣٢ / ٢٥	١٣	١٩,٠٦	٣٣	٤٧,٦٤
١٩٥٠ / ٣٢	صفر	صفر	٠,٧	٣,٧١
١٩٧٠ / ٥٠	صفر	صفر	٠,٩	٤,٧٢
١٩٨٤ / ٧٠	٢,٨٧	٢٠٢,٧١	٤,١٣	٢٩٥,٣٨
١٩٩٧ / ٨٤	٨٧	٦٦,٧٠	١٣	١٠,٢٦
٢٠٠١ / ٩٧	١,٠٠	٢٥٠,١٣	٤٠	١٠٠,٠٥

*المصدر : من عمل الباحث قياساً من الشكل (٤) بواسطة الحاسب الألى.

أما الجزء الغربى من المصب، فقد نحت البحر منه ٨,٨٩ كم^٢ من الرأس الشمالى والساحل الغربى بمعدل سنوى ٢٣ كم^٢. وكانت العمليات البحرية تحت من الرزوس الأرضية المتوغلة فى البحر، ولكنها كانت ترسب فى المناطق المحمية على الجانبين الشرقى والغربى من منطقة المصب. وفى الشاطئ الشرقى للجانب الشرقى من المصب، تم إرساب ١٩,٩٥ كم^٢، وفى الشاطئ الغربى للجانب الغربى من المصب إرساب البحر ٣٣,٦٤ كم^٢ فى الفترة الزمنية (١٩٠٩ - ١٩٢٥). وكانت المحصلة النهائية لعمليات التعرية^(١) لهذه الفترة سالبة، فقد استطاع البحر أن ينحت أكثر مما لرسب. وبلغت هذه المحصلة على الجانب الشرقى - ٨٣ كم^٢، وعلى الجانب الغربى - ٥,٢٥ كم^٢ (جدول ٢)، (شكل ١٩).

(١) محصلة عمليات التعرية هى الفارق بين مسطحات النحت (-) ومسطحات الإرساب (+)، وإذا كان الفارق سالباً فإن هذا يعنى أن المقطع من الياض (نواتج النحت) تفوق المضاف إلى الياض بالإرساب (نواتج الإرساب) والعكس إذا كان الفرق إيجابياً.



جدول (٢) مساحة التغير في منطقة مصب رشيد فيما بين ١٩٠٩ - ٢٠٠٩ (كم^٢)

الجانب الغربي					الجانب الشرقي					الفترة الزمنية
معللة	المعدل السنوي	إرساب (+)	المعدل السنوي	مخت (-)	معللة	المعدل السنوي	إرساب (+)	المعدل السنوي	مخت (-)	
٥,٢٥-	٠,٢٣	٣,٦٤	٠,٥٦	٨,٨٩	٠,٨٣-	١,٢٥	١٩,٩٥	١,٣٠	٢٠,٧٨	١٩٢٥/٠٩
٣,٧٣-	صفر	صفر	٠,٥٣	٣,٧٣	٧,٢٩-	١,٩٠	١٣,٢٩	٢,٩٤	٢٠,٥٨	١٩٣٢/٢٥
٩,٨٠+	٠,٧	١,٢٠	٠,٠١	٠,٢٢	٠,٠١+	٠,٠٩	١,٦٠	٠,٠٨	١,٥١	١٩٥٠/٣٢
٢,١٤-	٠,٦	١,٢٤	٠,١٧	٣,٣٨	٩,٩١+	٠,٤٩	٩,٩١	صفر	صفر	١٩٧٠/٥٠
١٨,٦٣-	٠,٣	٠,٣٥	١,٣٦	١٨,٩٨	٣٥,٧٣-	١,٧٥	٢٤,٤٤	٤,٣٠	٦٠,١٧	١٩٨٤/٧٠
٣,٠٧-	صفر	صفر	٠,٢٤	٣,٠٧	٤١,٦٠-	صفر	صفر	٣,٢٠	٤١,٦٠	١٩٩٧/٨٤
٠,٩٨-	صفر	صفر	٠,٢٤	٠,٩٨	٠,٢٢-	٠,٤٦	١,٨٧	٠,٥٢	٢,٠٩	٢٠٠١/٩٧

المصدر : من عمل الباحث قياساً من الشكل (٤) بواسطة الحاسب الآلي.

٢- يبين الشكل (٦) التغير في منطقة مصب رشيد في الفترة من ٢٥ - ١٩٣٢ م. ويلاحظ من دراسة الشكل استمرار سلوك العمليات البحرية في النحت والإرساب. فقد استمر النحت أيضاً على الأطراف الشمالية والشمالية الشرقية من الجانب الشرقي للمصب. وبلغ معدل التآكل السنوي ٢,٩٤ كم^٢، بإجمالي قدره ٢٠,٥٨ كم^٢. وتكرر نفس الشيء على الجانب الغربي، ووصل المعدل السنوي للتآكل ٥٣ كم^٢ بإجمالي ٣,٧٣ كم^٢. وكانت محصلة التعرية سالبة أيضاً، ولكنها كانت أكثر عنفاً، إذ بلغت -٧,٢٩ كم^٢، -٣,٧٣ كم^٢ للجانبين الشرقي والغربي على الترتيب (شكل ٩ب). وترجع زيادة معدلات النحت في هذه الفترة عن الفترة السابقة إلى عدة أسباب نرجح منها ما يلي :

أ- شهدت الفترة الأولى (١٩٢٥ - ٠٩) تحولاً من البناء على حساب البحر، إلى التراجع بالنحت على حساب اليابس، وذلك بعد ظهور تأثير بناء خزان لسون. وعندما بدأ البحر في مهاجمة اليابس بذل قدراً كبيراً من طاقته في اكتساح وإزالة الرواسب التي كانت ملقاة في منطقة الشاطئ البعيد Off-Shore، وبعد أن عمق هذه المنطقة، بدأ في مهاجمة خط الشاطئ ذاته، ومن ثم بدأ التأثير يتضح أكثر في الفترة اللاحقة (٢٥ - ١٩٣٢).

ب- في خلال هذه الفترة تمت تغطية خزان لسون، وهذا يعني زيادة كفاءته في حجز المياه والرواسب أمامه وخاصة في أوقات الفيضان.

٣- وفي الفترة المحصورة بين ٣٢ - ١٩٥٠ م (شكل ٧) حدث ما يشبه الثبات في خط الشاطئ، حيث بدأ ولأول مرّة إنشاء خزان لسون يتفوق معدلات الإرساب على معدلات النحت، وإن تم هذا بنسب ضئيلة للغاية، فقد كانت محصلة التعرية على الجانب الشرقي + ٠,١ كم^٢، وعلى الجانب الغربي + ٠,٩٨ كم^٢. وتركز النحت على طول الشاطئ الشرقي للجانب الشرقي من المصب على طول شريط ضيق بلغ مقدار تراجع ٩٩,٩ م طوال الفترة الزمنية. أما الرأس الأرضية للمصب

والمتوغلة فى البحر فقد كانت ثابتة تقريباً ولم تتعرض للتراجع، فبينما لوحظ وجود شريطين من الإرسابات، أحدهما فى الجزء الشمالى الغربى من الجانب الشرقى، والثانى على هيئة شريط يمتد بموازاة الشاطئ الغربى من الجانب الغربى لمنطقة المصب، وبلغ متوسط النمو الإرسابى فى اتجاه البحر نحو ٧٠ مترًا.

٤- توقف النحت تقريباً على طول الشاطئ الشرقى من الجانب الشرقى من منطقة المصب فى الفترة المحصورة بين ٥٠ - ١٩٧٠م (شكل ٨) وظهر شريط من الرواسب الرملية على طول الشاطئ بمتوسط قدره ١٩٩,٩م. وبلغت المساحة المضافة إلى اليابس نحو ٩,٩١ كم^٢ بمعدل سنوى قدره ٠,٤٩ كم^٢ (شكل ٥٩). أما الجانب الغربى من المصب، فقد تعرضت أطرافه الشمالية للإرساب، ويبدو أن الإرساب كان بفعل زيادة معدلات الإطماء التليى حيث يوضح شكل (٨) نمو إرسابى على طول الضفة الغربية لفرع رشيد وامتدادها فى الرأس الغربية للمصب. ورغم ذلك فقد تعرض فنار رشيد للإغراق. أما الشاطئ الغربى لنفس المنطقة، فقد تعرض إلى النحت، حيث بلغ متوسط تراجع الشاطئ فى هذه الفترة نحو ٩٤,٤م بمساحة إجمالية قدرت بـ ١,٢٤ كم^٢، أى بمعدل سنوى ٠,٦ كم^٢.

المرحلة الثانية (٢٠٠١ - ٧٠):

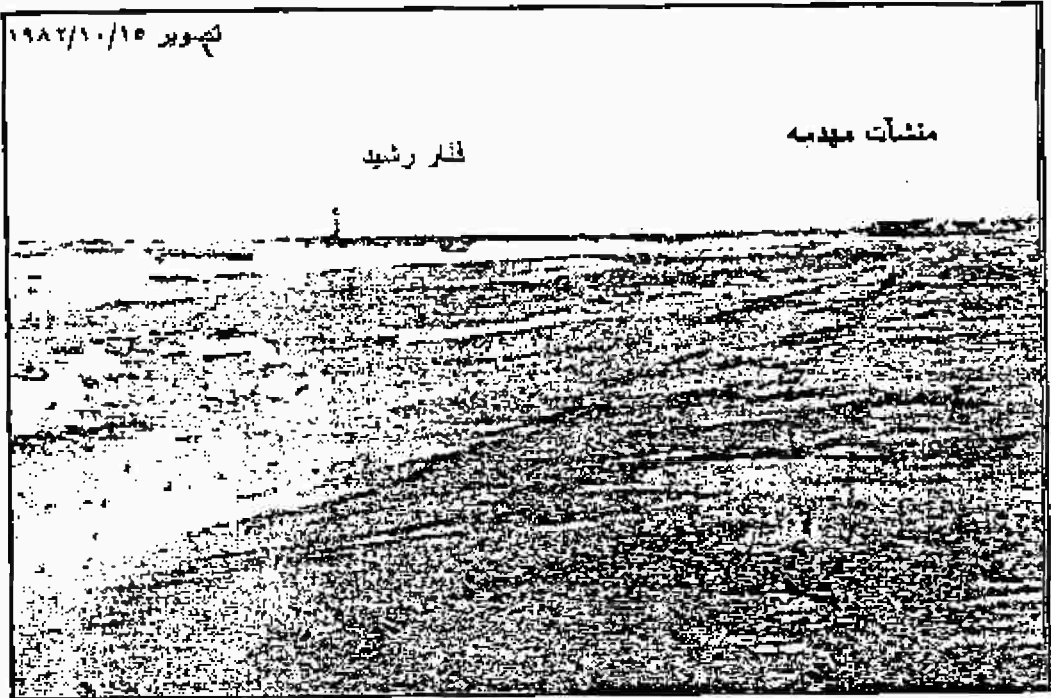
وهى وإن كانت تبدأ خرائطياً فى عام ١٩٧٠م (سنة إصدار الخريطة)، ولكنها تبدأ فعلياً قبل ذلك بسنتين على الأقل. وفيها حدثت تغيرات مورفولوجية فى منطقة المصب جد خطيرة. فقد بدئ فى إنشاء المد العالى فى أوائل العقد السابع من القرن العشرين، وتم الحجز للجزئى لمياه نهر النيل فى عام ١٩٦٤م. أما الحجز الكامل للمياه فكان فى عام ١٩٦٨م. ومن هنا تم التحكم الكامل فى مياه نهر النيل الذى أثر بصورة جلية على كمية التصريف الواصلة إلى مصب رشيد وكذلك كمية الحمولة للنهرية (حمولة القاع والحمولة العالقة) الملقاه أمام

الشاطئ، إذ تم حجز وترسيب نحو ٩٦,٩% من الحمولة النهرية أمام السد العالى. ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى فترتين :
الفترة الأولى (١٩٧٠ - ١٩٨٤) :

١- يوضح الشكل (١٠) التغيرات المورفولوجية التى حدثت فى منطقة المصب فيما بين عامى ٧٠ - ١٩٨٤م. ومن دراسته يتبين أن للنحت البحرى و تراجع خط الشاطئ بلغا شأواً لم يبلغاه من قبل، حيث تراجع خط الشاطئ بالجانب الشرقى على طول المحور الموازى لفرع رشيد حوالى ٢,٨٧ كم بمعدل سنوى بلغ ٢٠٢,٧١ م. بينما تراجع نظيره الغربى بما يفاهز ٤,١٣ كم، بمعدل سنوى ٢٩٥,٣٨ م. وبالتالي بدلت مياه البحر تحيط بفنار رشيد الجديد وغمرته تماماً بدءاً من عام ١٩٧٩م ثم لفهار واختفى عن الأنظار فى عام ١٩٨٥م (صورة ١٠٢) علماً بأن هذا الفنار بنى على مسافة تبعد إلى الداخل عن الفنار القديم بنحو ٥ كم. واستطاع البحر أن يكتسح الأراضى التى كانت تشغلها بركة البوص والمحيط السبخى الذى كان يلفها والحوجز الرملية التى كانت تفصلها عن البحر. ولما أحس المزارعون الخطر قاموا بإنشاء جسر يبدأ من فرع رشيد غرباً ويمتد إلى الشرق بموازاة الأراضى الزراعية (شكل ١٠). واقتطعوا القسم الجنوبى من بركة الفليون والمعروف باسم عُراقة العيد. وانكمشت بركة الفليون بسبب الإرسابات الرملية، كما اقتطع البحر أطرافها الشمالية. ووصلت المساحة التى أغار عليها البحر وحولها من يابس إلى قاع له إلى ٦٠,١٧ كم^٢ (شكل ٩٩) بمعدل ٤,٣٠ كم^٢ سنوياً. أى أن البحر ابتلع مساحة من اليابس فى خلال ١٤ سنة تفوق ما لزاله منذ بداية القرن وحتى هذه الفترة (٧٠ سنة) بنسبة ١٤٠,٣٥%. أما الجانب الغربى من منطقة المصب فقد اكتسح البحر اللسان الأرضى الرسوبى الممتد بموازاة مجرى الفرع بمساحة قدرها ١٨,٩٨ كم^٢ بمعدل إزالة بلغ ١,٣٦ كم^٢ سنوياً. وتكرر سلوك العمليات البحرية فى طريقة التعرية كما سبق فى الفترات

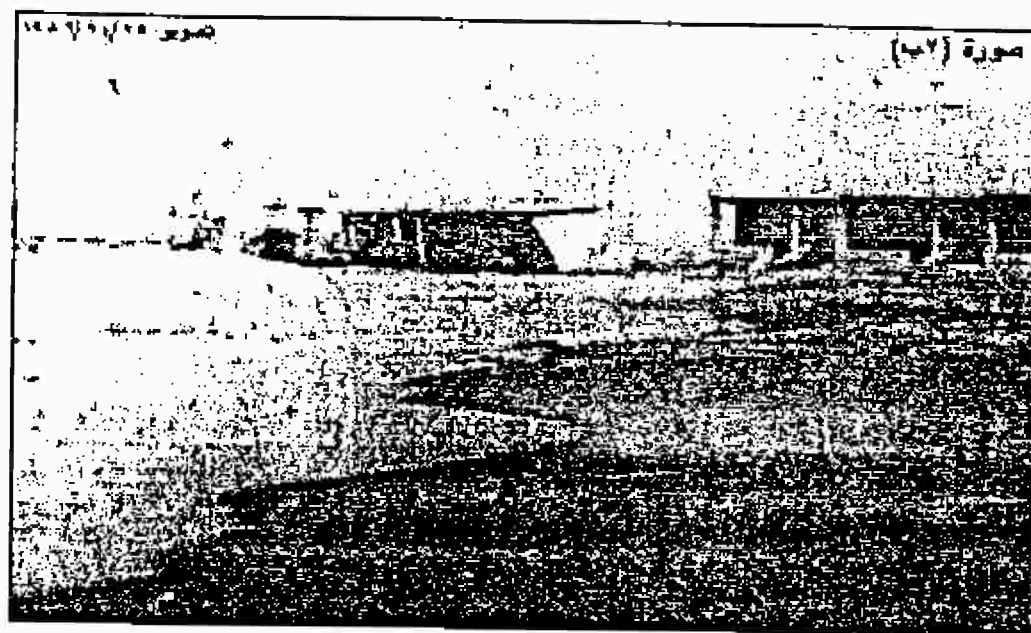
السابقة. فتبدأ الأمواج فى الهجوم على التلسان الأرضى الرسوبى وتقوم فى نفس الوقت بالإرساب على المناطق الجانبية، ثم تقوم باكتساح ما أرسبته لكى تعاود الهجوم على التلسان الرسوبى مرة أخرى. وفى هذه الفترة ظهر شريط رسوبى واضح فى أقصى شرق منطقة الدراسة (شكل ١٠) وبلغت مساحته ٢٤,٤٤ كم^٢، ومن ثم كان محصلة ما فقد من أراضى الجانب الشرقى - ٣٥,٧٣ كم^٢. أما القسم الغربى فإن الشريط الرسوبى كان ضئيلاً جداً وبلغت مساحته ٣٥ كم^٢، وكانت محصلة التعرية - ١٨,٦٣ كم^٢. أى أن صافى ما اقتطع من أراضى منطقة المصب خلال هذه الفترة (١٤ سنة فقط) ٥٤,٣٦ كم^٢. وهذا يوضح مدى خطورة ما آلت إليه المنطقة.



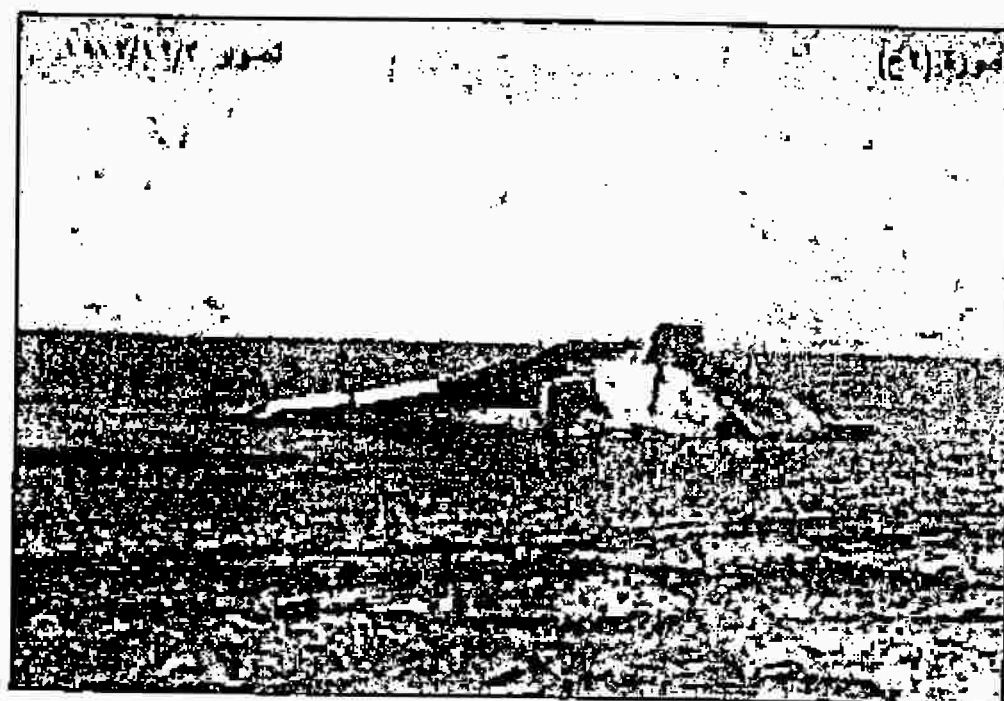


صورة (١) تراجع خط الساحل وانهيار المنشآت أمام هجوم الأمواج ويظهر فنار رشيد الحديث وقد لحظت به المياه





صورة (ب٢)



صورة (ج٢)

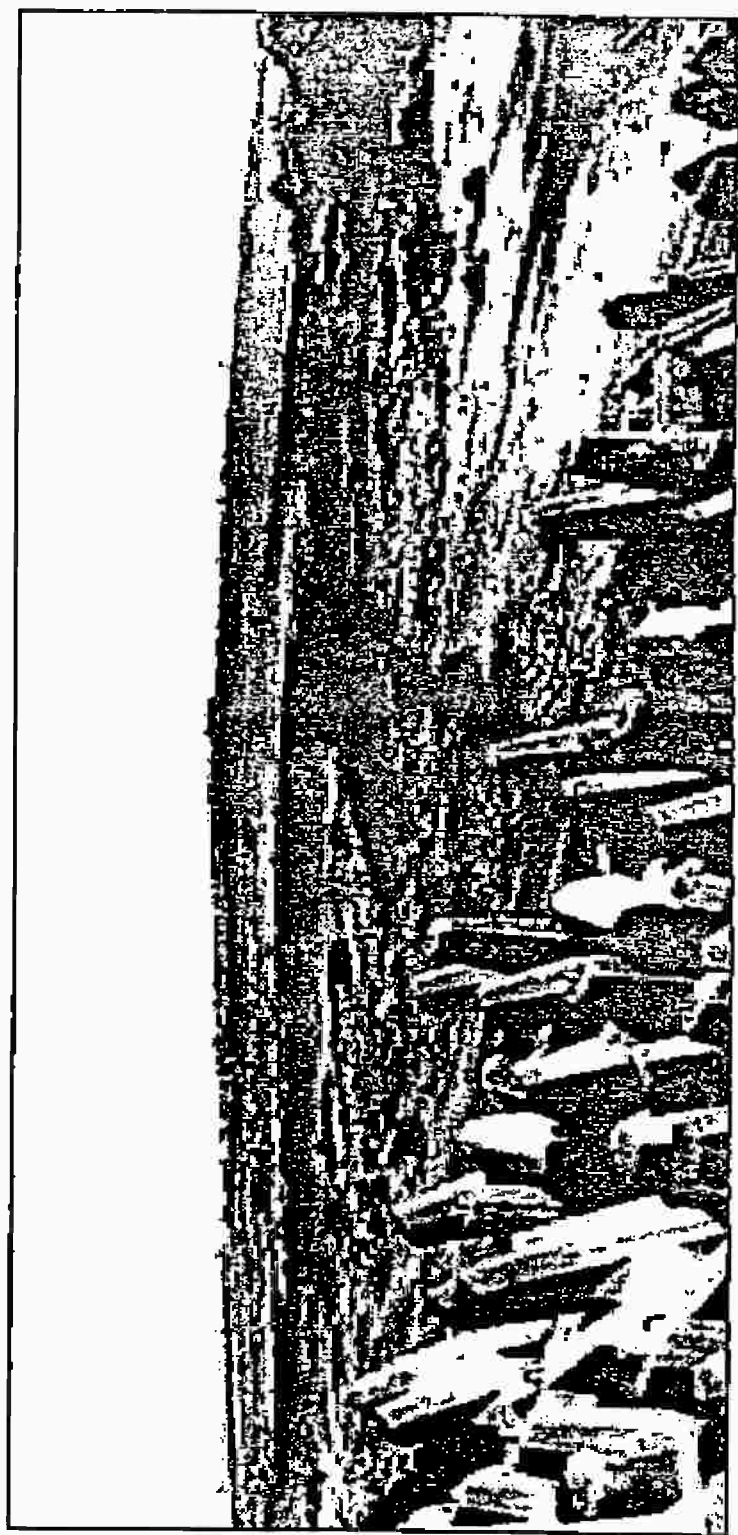
٢- ويؤكد الشكل (١١) استمرار التراجع فى خط الشاطئ فيما بين عامى ٨٤- ١٩٩٧م وذلك لاستمرار الظروف المؤثرة فى المنطقة وإن خفت مظاهر النحت نسبياً. فقد تراجع الشاطئان الشرقى والغربى للمصب بمقدار ٣٠٣م، ١٣٣م على التوالي. وكان متوسط التراجع أكبر بالنسبة للرأس الأرضى المتوغل فى البحر حيث بلغ هذا المتوسط ١٠٦٦م. وأصبح فنار رشيد فى ذمه التاريخ (اختلف تماماً عام ١٩٨٥م)، وابتعد عنه خط الشاطئ فى عام ١٩٩٧م بنحو كيلو متر واحد تقريباً. وتوقف الإرساب فى المنطقة المدروسة تماماً، وإن كان موجوداً خارج نطاق منطقة الدراسة (شكل ١٢). وبلغت مساحة الأراضى المتأكلة على الجانب الشرقى ٤١,٦ كم^٢، فى حين قدرت على الجانب الغربى بنحو ٣,٠٧ كم^٢. وعلى الرغم من ذلك، فقد اتسعت مساحة الأراضى الزراعية المستصلحة حديثاً، حيث تخطى المزارعون جسر الدوار واقتطعوا القسم الغربى من بركة الغليون التى أرسبت الرمال فوق قاعها بفعل الرياح، واستصلحوا هذه الأراضى وقاموا بزراعتها. وحدث نفس الشيء أرضاً على الجانب الغربى أمام قرية برج مغيزل. ولاشك أن هذه الأراضى مهددة بالبوار بسبب ارتفاع نسبة الملوحة وزحف مياه المستنقعات الشمالية تجاهها وخاصة فى فصل الشتاء حينما تغمر أمواج العواصف منسوب الأراضى الواطنة خلف خطى الحماية وتغمر هذه الأراضى بمياه البحر (صورة ٣).

التغيرات الآتية (الحالية) :

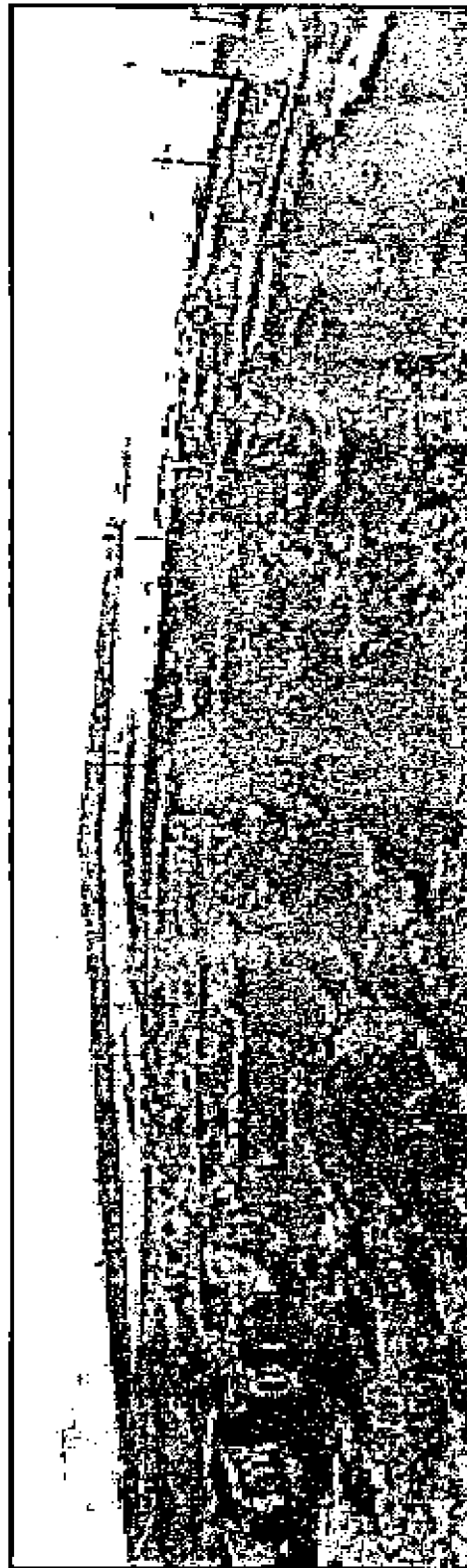
وتمتد هذه الفترة من عام ١٩٩٧م حتى كتابة سطور البحث. واستطاع البحر أن يزيل الشاطئ الرملى الذى كان يقع أمام خط حماية الشاطئ الذى أقامته الجهات المعنية^(١)ومن ثم أزيلت الرواسب الرملية تماماً وأصبحت الأمواج

(١) تم إنشاء حاجز لحماية الشاطئ من كتل الدولوس Dolos واستغرق الإنشاء الفترة من ٨٦- ١٩٩١. ويبلغ ارتفاع الحاجز ١٢ مترًا ستة منها تعلو سطح البحر ومثلها أسفل سطح البحر ويبلغ طول الحاجز الغربى ١,٥ كم بينما يمتد الحاجز الشرقى لمسافة ٣,٥ كم، باتساع يبلغ متوسطه ٦٠ مترًا.

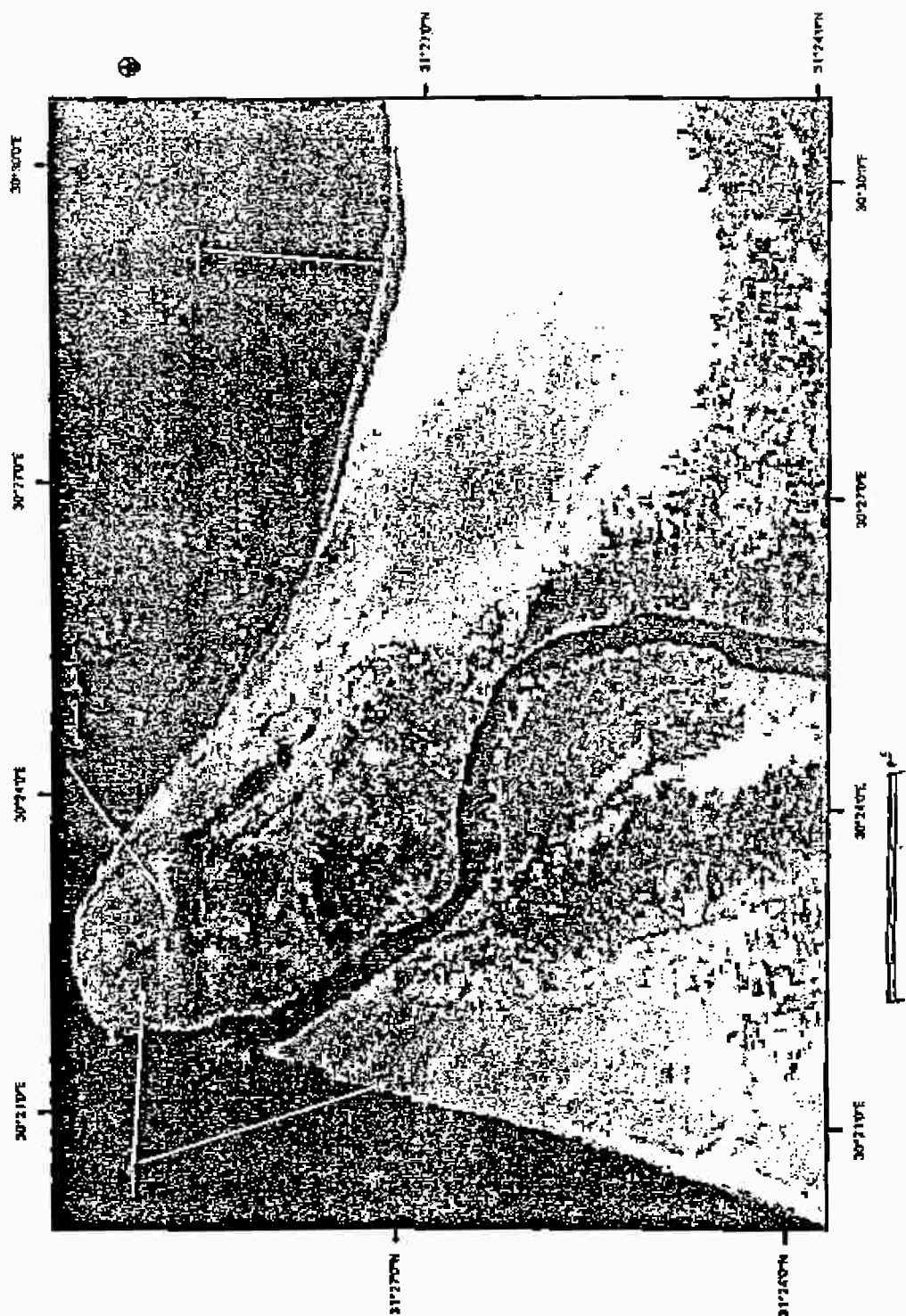
تضرب قواعد الكتل الخرسانية مباشرة (صورة ٤). ثم قامت الأمواج بمهاجمة الشاطئ من النهاية الشرقية لخط الحماية الشرقى مما تسبب عنه تراجع الشاطئ فى هذه المنطقة بنحو ١٠٠م تقريبًا. وقامت التيارات البحرية والتيارات الدفع بحمل ودفع الرواسب وإلقائها بالطرف الشرقى من منطقة الدراسة (شكل ٤). أما الجزء الغربى فتكرر نفس الوضع تقريبًا، حيث قامت الأمواج بالالتفاف حول نهاية الطرف الغربى لخط الحماية وكونت خليجًا بحريًا صغيرًا نتيجة لنحت وإزالة الرواسب (صورة ٥). وقد نقلت المواد المنحوتة وأعيد إرسائها أمام الشاطئ الجنوبي الغربى من المنطقة (خارج منطقة الدراسة). وقد بلغت مساحة الرواسب المكتسحة خلال هذه الفترة ١٠,٥٧ كم^٢ من الجانب الشرقى بمعدل سنوى قدره ٢,٦٤ كم^٢، و ٢,٢ كم^٢ من الجانب الغربى بمعدل سنوى ٥,٥٥ كم^٢. وتراجع خط الشاطئ لمسافة ١,٥ كم، ٩ كم للجانبين الشرقى والغربى على التوالى خلال الفترة من ١٩٩٧م وحتى عام ٢٠٠١م.



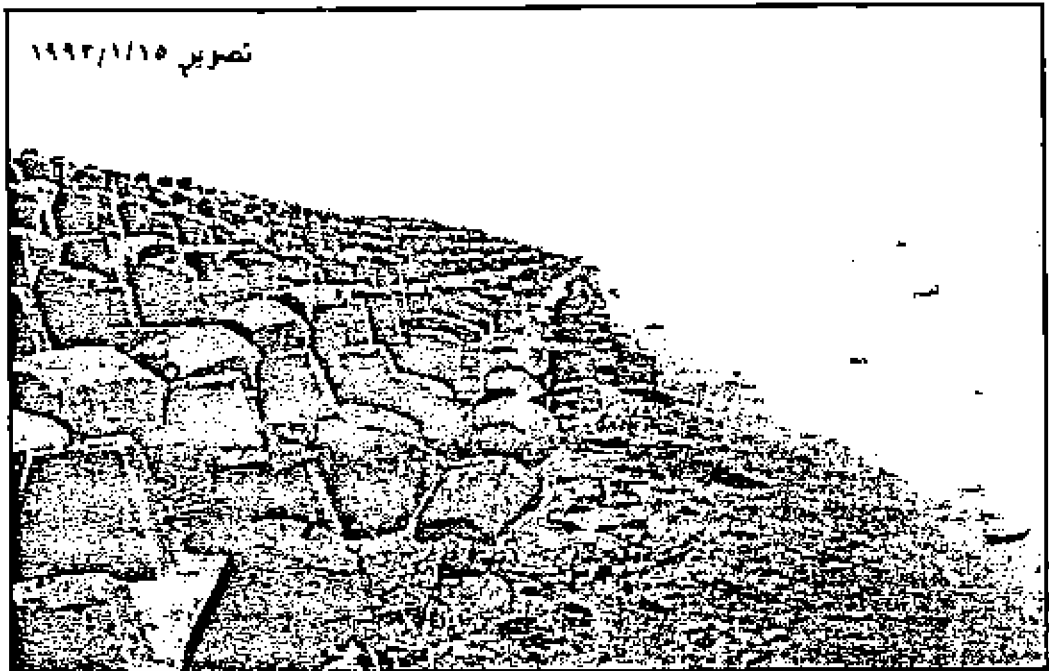
صورة (١٢) مستنقع لصلي خلف خط الحدية الغربي



صورة (٣ ب) المستنقعات جنوبى غربى خط الحماية الغربى



شكل (١٢) صورة فضائية معالجة لمريتين من عامي ١٩٨٤ - ١٩٨١ توضح المناطق التي تتعرض للانهك والارباب في منطقة مصب رشيد



صورة (٤) صورة الشاطئ الأمامي أمام الحاجز الغربى (اعلا) وقد أجهزت عليه الأمواج (اسفل)

الخلاصة :

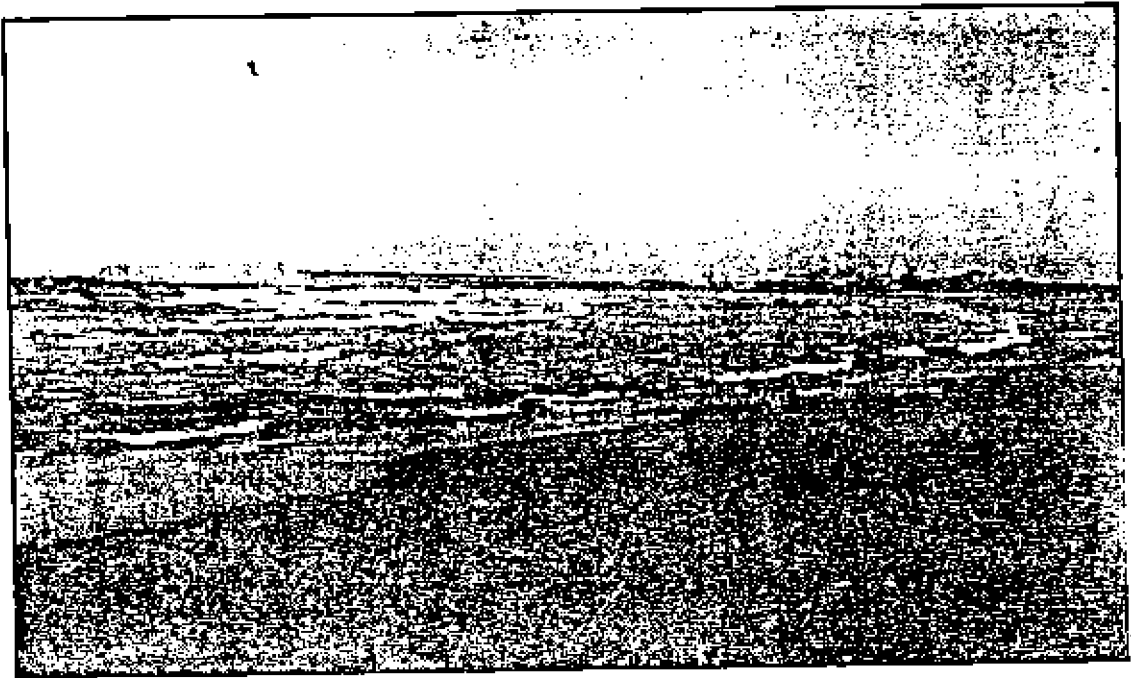
من دراسة التطور المورفولوجي وتغير خط الشاطئ في منطقة مصب رشيد خلال القرن العشرين، يمكن إجمال الملاحظات التالية :

١- أن منطقة مصب رشيد (وشاطئ الدلتا عامة) كانت في نمو مستمر على حساب البحر حتى بداية القرن العشرين.

٢- توقف النمو وانتلب إلى تراجع في خط الشاطئ مع بدايات القرن العشرين حيث بنى سد أسوان. وكان التراجع محدوداً حتى بداية العقد الثامن من القرن العشرين، ولكنه تميز بالاستمرار وإن اختلفت معدلاته. وكان إجمالى تراجع اللسان الشرقى على طول المحور الموازى لمجرى الفرع خلال القرن العشرين ٦٧,٥ كم، بينما بلغ نظيره الغربى ٦٠,٢ كم.

٣- منذ الانتهاء من بناء السد العالى (١٩٦٨م) اتضحت شراسة البحر في التأثير على منطقة المصب، حيث حرمت من مصادر بلانها (الحمولة النهرية) بصورة تكاد تكون كلية.

٤- تكرر سلوك عمليات التعرية البحرية في كيفية مهاجمة منطقة المصب سواء في حالتى الشدة أو الهدوء النسبى. وهذا السلوك يبدأ بمهاجمة البروز الأرضى (اللسان) المتوغل لى البحر والإرساب فى المنطقتين الجانبيتين، ثم يكاد يتوقف اللحت على اللسان إلى أن يتم إزالة ما تم إرسابه على الجانبين، وتكرر العملية مرة أخرى وهكذا.



صورة (٥) استطاعت الأمواج تحت الطرف الغربى من خط الحماية الغربى وتكون خليجا بحريا. (لاحظ تقدم الأمواج فى شكل قوسى يوازي ساحل الخليج)

٥- يتعرض خطا الحماية إلى التقاف الأمواج حولهما من ناحية طرفيهما الشرقى والغربى، وإذا استمر هذا الوضع فإنهما سيتحولان إلى جزيرة أمام الشاطئء مثل لمنشآت التى كانت تقع على الشاطئء.

العوامل المتحكمة فى التغير المورفولوجى لمنطقة المصب

رأينا من العرض السابق أن منطقة مصب رشيد تعد من المناطق الحية ذات التغير الدائم وفقا للمتغيرات المتحكمة فى هذه المنطقة وبخاصة فيما يتعلق بالقوى البحرية والقوى النهرية. وسوف نناقش فيما يلى أهم العوامل المتحكمة فى خط الشاطئء فى منطقة المصب.

١- العوامل البحرية (فعل البحر)

ويقصد بذلك حركة المياه فى منطقة الشاطئ والمتمثلة فى الأمواج والتيارات البحرية والمد والجزر.

أ- الأمواج :

تعد الأمواج أحد أهم العوامل المؤثرة فى تشكيل السواحل نحتاً وإرساباً. وقد قام الباحث بقياس الأمواج ميدانياً فى منطقة الدراسة، ولكنه أثر الاعتماد على البيانات الواردة فى تقارير وأبحاث معهد بحوث الشواطئ وذلك لكونها أكثر دقة واستمرارية لفترات زمنية أطول. ويوضح الجدول رقم (٣) والشكل رقم (١٣) بعض خصائص الأمواج فى منطقة مصب رشيد. ومن دراستهما يمكن استنتاج الآتى :

١- يبلغ المتوسط العام لأطوال الأمواج فى منطقة مصب رشيد ٦,٤٩م، ويصل أقصى طول للأمواج ١٥,١م، وذلك فى شهر يوليو، بينما ينخفض لأقصى طول للأمواج فى أشهر الشتاء ويبلغ أدناه فى شهر يناير (٤,٣٨م).

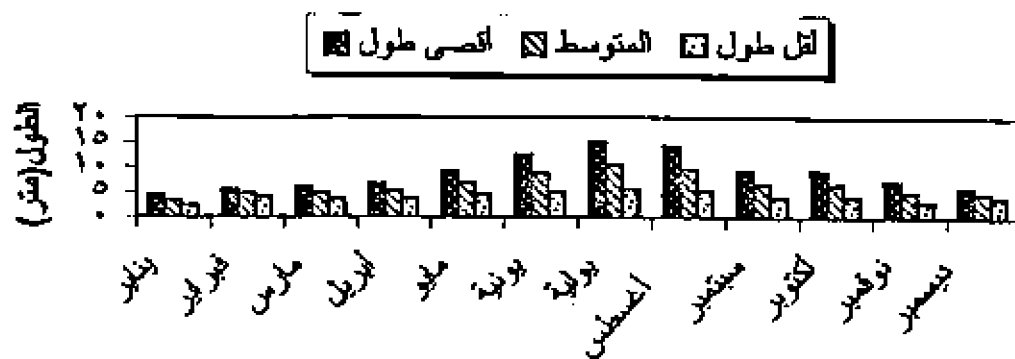
٢- يتباين ارتفاع الأمواج تبايناً كبيراً بين الشتاء والصيف، فيبلغ المتوسط العام لأشهر الشتاء ١,٥٥م، بينما ينخفض ارتفاعها إلى ٠,٤٠م فى أشهر الصيف.

جدول (٣) بعض القياسات الخاصة بالأمواج لى منطقة مصب رشيد "١٩٨٨-٢٠٠٠"

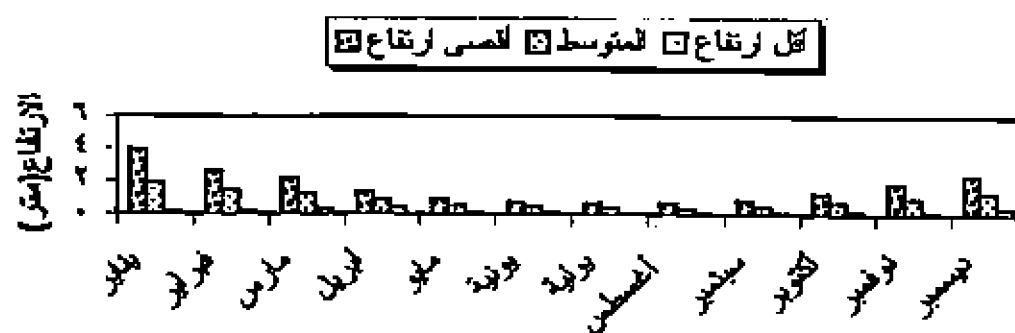
البيانات	تردد الموجه "سنة"				ارتفاع الموجه "متر"				طول الموجه "متر"				ملاحظات
	التردد	أقل تردد/ث	أعلى تردد/ث	التردد	أقل ارتفاع	أقصى ارتفاع	التردد	أقل طول	أقصى طول	التردد	أقل طول	أقصى طول	
ش/خ/ش/خ	٤,٥	٣	٦	١,٨٥	٠,٦٦	٢,٩٧	٢,٤١	١,٤٤	٤,٣٨	٢,٤١	١,٤٤	٤,٣٨	عام
ش/خ/ش/خ	٥,٥	٤	٧	١,٤٦	٠,٦٠	٢,٦٤	٢,٧٨	١,٩٧	٥,١٣	٢,٧٨	١,٩٧	٥,١٣	فيلم
ش/خ/ش	٦,٥	٦	١٠	١,٢٦	٠,٤٩	٢,١٥	٢,٩٥	٢,٧٨	٦,١٦	٢,٩٥	٢,٧٨	٦,١٦	حار
ش/خ/ش	٩,٥	٧	١١	٠,٨٤	٠,٣٦	١,٣٢	٥,٢٣	٢,٨٣	٦,١٣	٥,٢٣	٢,٨٣	٦,١٣	أمير
ش/خ/ش/ش	٩,٥	٩	١١	٠,٥٢	٠,١٦	٠,٩٢	٦,٩٣	٤,٥١	٩,٣٥	٦,٩٣	٤,٥١	٩,٣٥	عابث
ش/خ/ش/ش	١١	١٠	١٦	٠,٤٥	٠,١٦	١,٧٨	٨,٨٥	٥,٤٦	١٢,٤٨	٨,٨٥	٥,٤٦	١٢,٤٨	موجة
ش/خ/ش/ش	١١,٥	١٠	١٣	٠,٣٨	٠,٠٩	٠,٦٧	١٠,٤٥	٥,٨٠	١٥,١٥	١٠,٤٥	٥,٨٠	١٥,١٥	موجة
ش/خ/ش/ش	١١,٥	١٠	١٣	٠,٣٨	٠,٠٨	٠,٦٨	٩,٧٨	٥,٣٣	١٤,١٣	٩,٧٨	٥,٣٣	١٤,١٣	القطر
ش/خ/ش/ش	١٠	٩	١١	٠,٤٧	٠,٠٩	٠,٨٥	٦,٨٠	٤,١٣	٩,٤٧	٦,٨٠	٤,١٣	٩,٤٧	سنتو
ش/خ/ش/خ	٨	٧	٩	٠,٥٦	٠,١٧	١,٢٥	٦,٦٤	٤,٠٣	٩,٢٥	٦,٦٤	٤,٠٣	٩,٢٥	تخبر
ش/خ/ش/ش	٦,٥	٤	٩	٠,٩٨	٠,١٦	١,٨٤	٥,١٦	٣,٠٩	٧,١٥	٥,١٦	٣,٠٩	٧,١٥	نفسر
ش/خ/ش/ش	٦	٤	٨	١,٣٧	٣٧	٢,٣٧	٤,٩٢	٢,٩٨	٥,٨٦	٤,٩٢	٢,٩٨	٥,٨٦	نفسر
-----	٨,٤	٦,٩	١٠	٠,٨٨	٠,١٩	١,٦٦	٩,٤٩	٣,٩٤	٨,٧٩	٩,٤٩	٣,٩٤	٨,٧٩	التردد

المصدر : جمع من عدة تقارير داخلية - معهد بحوث الشواطئ.

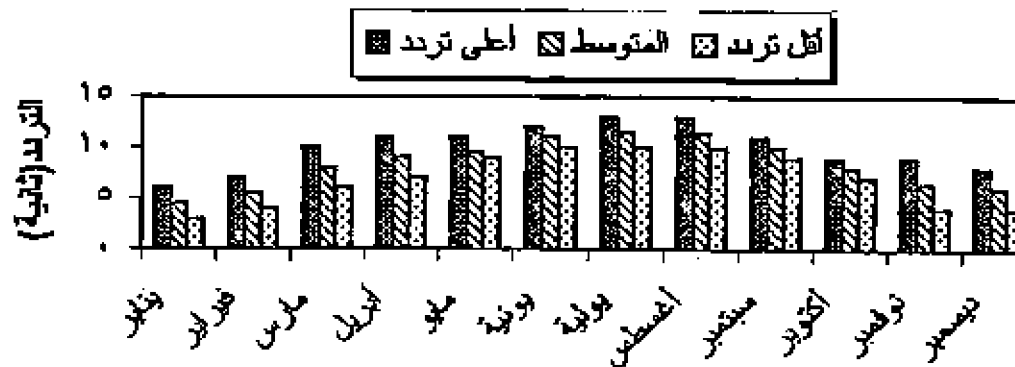
طول الموجة



ارتفاع الموجة



زمن تردد الموجة



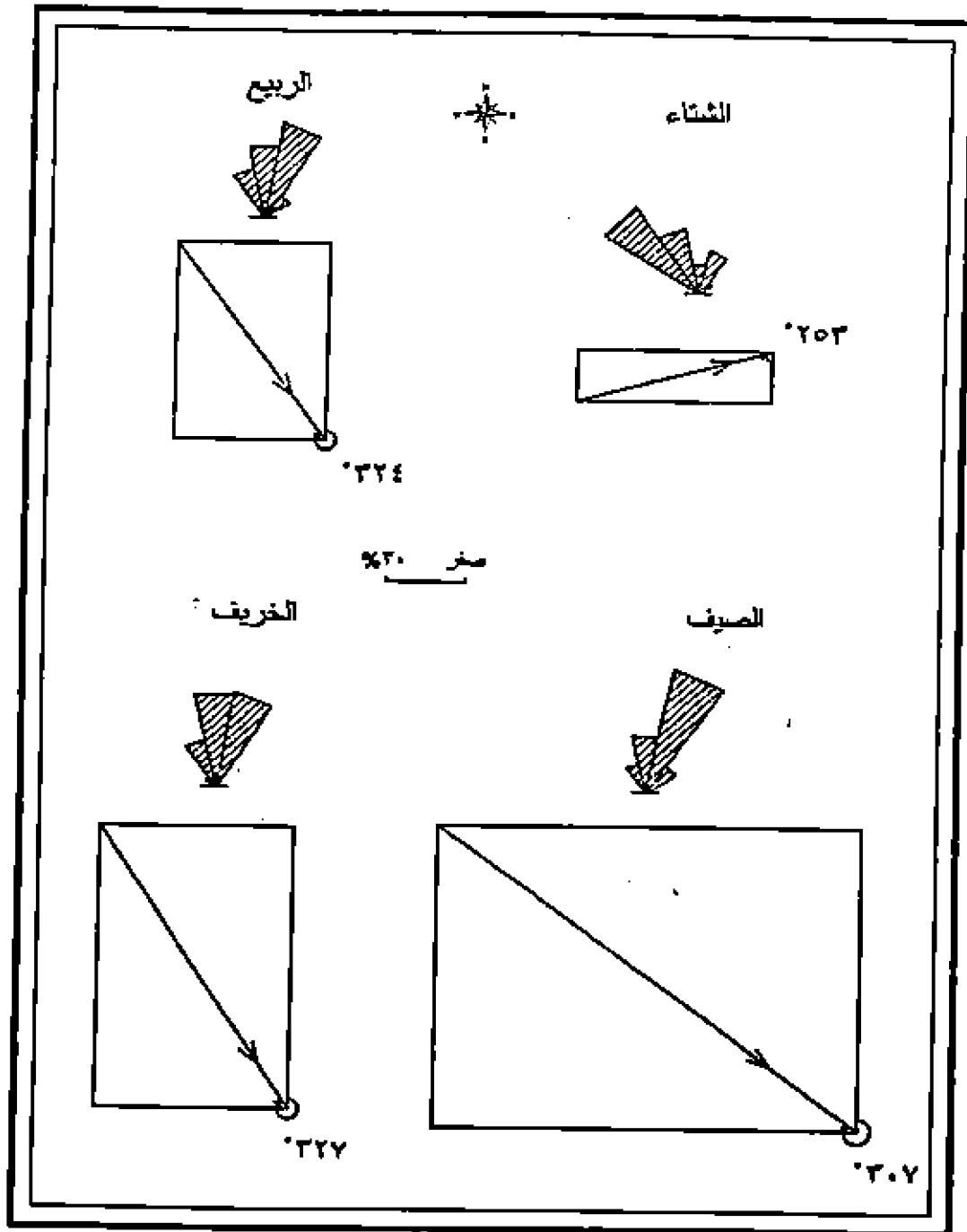
شكل (١٣) خصائص الأمواج أمام مصب رشيد

٣- تمثل الأمواج ذات الارتفاع الأكثر من مترين نسبة ١٦% من جملة ارتفاع الأمواج في فصل الشتاء و ١١% في فصل الربيع و ٤,٢% في الصيف و ٤,٢% في الخريف.

٤- تتميز الأمواج في منطقة الدراسة بسرعة ترددها، أي بقصر الفترة الزمنية الفاصلة بينهما Wave Period. ويزداد معدل هذا التردد في فصل الشتاء، إذ تصل الفترة الزمنية الفاصلة بين أمواج فصل الشتاء ٥,٢٣ ثانية، تزداد في فصل الصيف إلى ١١,٢٣ ثانية. أما أقل تردد زمني للأمواج في الشتاء فيبلغ ٣,٦٧ ثانية فقط. وهذا يعني أن الأمواج تتلاطم على الساحل بما يزيد على ١٦ موجة في الدقيقة الواحدة. وهو ما يدخلها ضمن الأمواج الهدامة Destructive Waves. أما في الصيف فيبلغ أقل تردد ١٠ ثانية، أي تتلاحق الأمواج بعدد ٦ موجات فقط في الدقيقة الواحدة، ومن ثم تندرج هذه الأمواج تحت طائفة الأمواج البناءة Constructive Waves.

٥- يعد الاتجاهان الشمالي الغربي وشمال الشمال الغربي الاتجاهان السائدان في فصل الشتاء وبعض شهور الربيع والخريف القريبة من فصل الشتاء (شكل ١٤) بينما يتغير الاتجاه قليلاً ليصبح شمالياً شرقياً وشمال الشمال الشرقي. وخطورة هذا الوضع أن الأمواج التي تأتي من الشمال الغربي وشمال الشمال الغربي تكون أمواج قوية وذات طاقة عالية، فهي تسجل أعلى الارتفاعات وأقصر الأطوال وأعلى تردد (أقصر فترة زمنية) وتأتي بصورة متعامدة على رأسى المصب فتشدد ضراوتها وقدرتها على النحت والاكتساح وتتسحب إلى شعبتين تكحلان مجرى الفرع وتتجابه مع مياهه فتترسب ما اكتسحته فيحدث الإطماء الذي يعاني منه مخرج الفرع. أما على الجانب الشرقي فإنها تتحرف عن الوضع العمودي بما يتراوح بين ٢٢- ٤٥°، وعلى الجانب الغربي ٢٨- ٥١°، وهذا يعطى لها الفرصة للنحت والاكتساح ثم نقل المواد إلى السواحل الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية.

٦- وفقا لما ذكرناه آنفا، فيمكن تقسيم الأمواج فى منطقة الدراسة بحسب خصائصها (الارتفاع- التردد- الطول) إلى نوعين: الأمواج العاتية Surge Waves، وهى أمواج الهدم. ويقع على عاتقها القيام بنحت واكتساح ونقل مكونات الشاطئ.



شكل (١٤) وردات اتجاه الأمواج ومحصلة الرياح

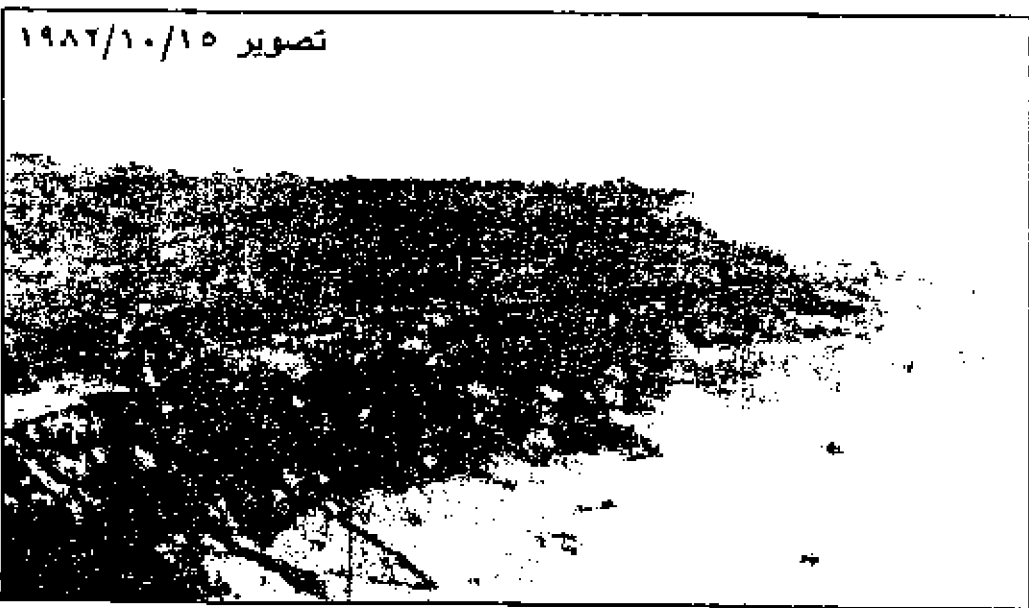
ويتركز حدوثها أثناء الشتاء، ويزداد نشاطها في شهر يناير. والفوج الثاني هو الأمواج الهادئة Swell Waves وهي إن لم ترسب فإنها تأتي متهادية وضعيفة وشبه متعدمة الطاقة، وبالتالي لا تسبب أي نوع من الهدم لمكونات الشاطئ.

٧- تمثل المتوسطات المستخدمة في الدراسة مؤشراً عاماً لطبيعة الأمواج، ولا تعبر عن الواقع الحقيقي. فالمتوسطات تخفى في طياتها دائماً الحالات الشاذة للأمواج العواصف Storm Waves. وهذه الأمواج وإن كانت تستمر لفترات قصيرة خلال عواصف الانخفاضات الجوية، ولكنها تتجزع عملاً جيومورفولوجياً من نحت ونقل وإرساب قد يستغرق أسابيع عدة في الحالات العادية.

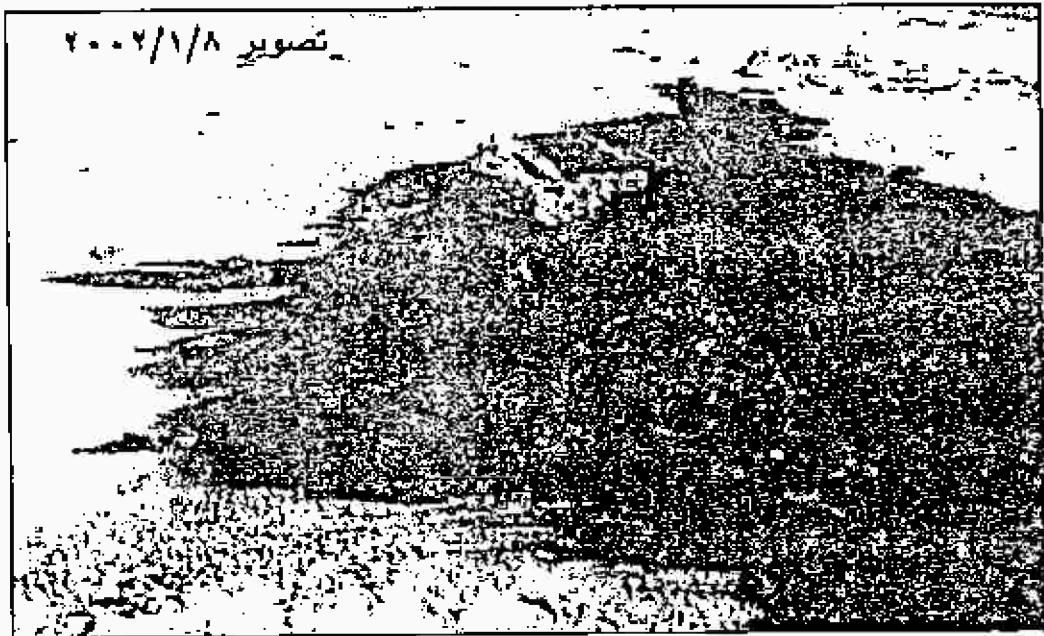
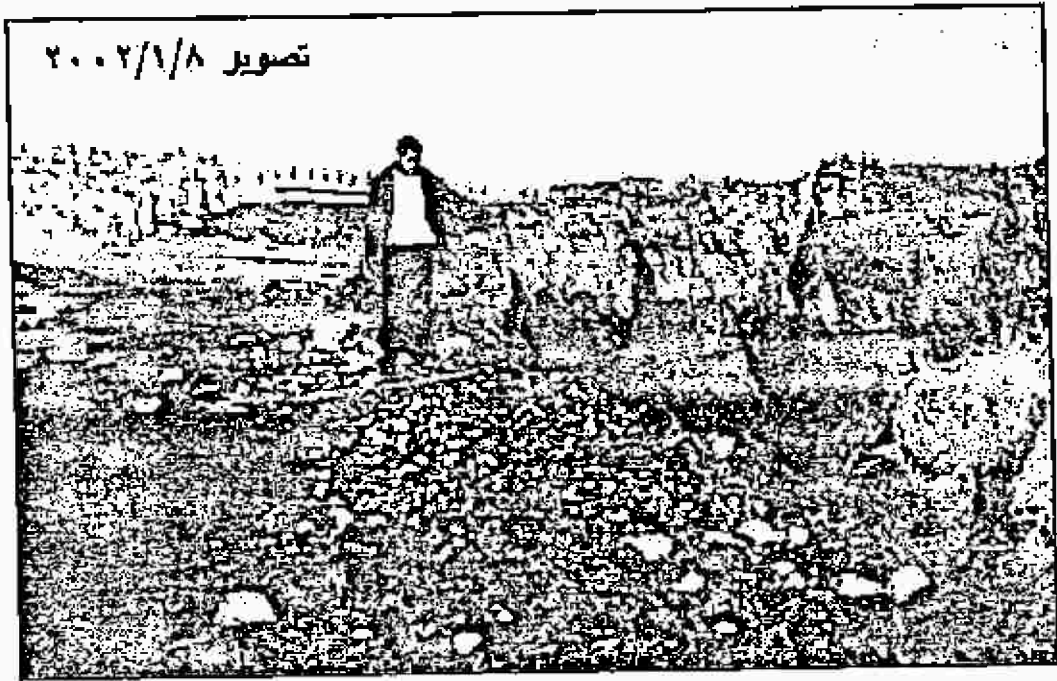
وحيثما يزداد قاع البحر ضحالة ليزيد ارتفاع الموجة، تتعرض الأمواج للتكسر على المنطقة الشاطئية فيما يعرف بنطاق تكسر الأمواج Breaker Wave Zone. وحيثما يكون ارتفاع الأمواج كبيراً فإن طولها يزداد قصراً، وتتواتر بمعدلات أسرع وتكون أشد انحداً Wave Steepness. وتؤثر درجة انحدار الموجة تأثيراً واضحاً في نحت وتآكل الشواطئ. ويتوقف هذا على درجة انحدار جبهة الشاطئ المواجهة للأمواج، ويحسب انحدار الموجة عن طريق قسمة طولها على ارتفاعها (Ritter et al., 1995 P. 434). ويوضح الجدول (٤) نتائج حساب انحدار الأمواج بمنطقة مصب رشيد. ويتبين منه أن أمواج الشتاء (وبخاصة أمواج العواصف Storm Waves) تتميز بزيادة ارتفاعها وسرعة ترددها وقصر طولها، ومن ثم فإن انحدارها يكون شديداً بالنسبة لدرجة انحدار الشاطئ، وبالتالي فهي تتكسر على وجه الشاطئ بزاوية كبيرة يترقب عليها تيار سحب رجعي عنيف Violent Rip Current يؤدي إلى سحب مكونات الشاطئ إلى الداخل بقوة. ولاشك أن عملية النحت التي تقوم بها الأمواج على ساحل الدلتا- وساحل رشيد خاصة- ما هي إلا محاولة من الأمواج لبناء معدل انحدارها المتوازن بالنسبة لمعدل الانحدار الطفيف إلى المعتدل نوعاً الذي تتميز

به الشواطئ الأمامية لساحل الدلتا (أبو راضى ١٩٩٠، ص ٤٠). ولعل هذا يفسر زيادة درجة انحدار شواطئ منطقة مصب رشيد التى تتعرض للنحت عن قرينتها التى تتعرض للإرساب (صورة ٦).

لما فى فصل الصيف فإن انحدار الأمواج يكون طفيفا نسبيا (٠,٠٤) وذلك لقلّة ارتفاع الأمواج وزيادة طولها، وهذا يؤدي إلى ضعف المياه المرتدة إلى البحر Back Wash، ويكون تأثيرها ضعيفا على مياه الموجة المتدفقة إلى الشاطئ Swash فتتدفق المياه على الشاطئ حاملة معها الرواسب الرملية. وهذا يفسر مدى التغير فى خصائص خط الشاطئ شتاء وصيفا، وعلى اختلاف توازنه.



صورة (٦) انحدار جبهة الشاطئ الأمامى المواجهة للأمواج شرقى المصب



صورة (٦ب، ج) انحدار جبهة الشاطئ الأمامي المواجهة للأمواج فى شواطئ النحت
غرب خط الحماية الغربى

جدول (٤) نتائج حساب انحدار الأمواج بمنطقة مصب رشيد

نوع الأمواج	ارتفاع موجة (متر)	طول الموجة (متر)	تردد موجة (ثانية)	انحدار موجة
أمواج الشتاء	١.٥٥	٤.٣٧	٥.٢٣	٠.٣٥
أمواج الصيف	٠.٤٠	٤.٦٩	١١.١٧	٠.٠٤
المتوسط الملى	٠.٨٨	٦.٤٩	٨.٤٠	٠.١٣

ب- التيارات البحرية :

هناك نوعان من التيارات البحرية التى تؤثر فى شواطئ المنطقة: الأول هو تيارات الدفع الشاطئية Longshore Currents وهى تتولد فى المنطقة الضحلة أمام الشاطئ نتيجة لتكسر الأمواج، والثانى هو تيارات المياه العميقة Ocean Currents (Streams) وتحدث فى المياه العميقة وترتبط بدورة المياه السطحية والعميقة فى الإقليم البحرى.

التيارات الشاطئية : Longshore Currents

يرتبط هذا النوع من التيارات بحركة الأمواج، بل إنه العكاس مباشر للأمواج باختلاف خصائصها. فحينما تنقسم الأمواج إلى الساحل Swash وتتكسر فى منطقة تكسر الأمواج، تنبذ طاقتها وتعود مرة أخرى إلى داخل البحر Back wash الأمر الذى يساعد على تولد تيارات شقية (مازقة) Rip Currents تنشأ من تجمع الماء المتدفق قبالة الشاطئ (أبو راضى ١٩٩٠، ص ٤٢). وحينما تميل الأمواج بالنسبة لاتجاه الشاطئ، فإنها تكون تيار دفع طولى Longshore Drift.

وهذه التيارات ذات أهمية خاصة بالنسبة للشواطئ التى تتعرض إلى التآكل والاكتساح، حيث تلعب دوراً مهماً فى نقل و تحريك المواد المنحوتة بعيداً عن منطقة التحت فيهىء للأمواج الناحنة الظروف الملائمة لكى تستهلك طاقتها فى أداء عملية التحت. وتستطيع هذه التيارات تحريك الرواسب بسهولة ويسر بأحجام يزيد قطرها على ٢ ملم إذا كانت متوسطة السرعة (محسوب ١٩٩١ ص ٨٠).

ويوضح الجدول رقم (٥) خصائص التيارات الشاطئية في منطقة مصب رشيد في عامي ١٩٩٧، ١٩٩٨ م. ودراسته يمكن استخلاص ما يلي:

جدول (٥) خصائص التيارات الشاطئية أمام الجانب الغربي من مصب رشيد (سم/ ثانية)

السنوات	التيارات المتجهة إلى الشمال			التيارات المتجهة إلى الجنوب		
	أقصى سرعة	متوسط السرعة	% من التيارات	أقصى سرعة	متوسط السرعة	% من التيارات
١٩٩٧	٥٠	٢٤,٨٨	٢٧	٦٤	٢٨	٦٧
١٩٩٨	٤٠	٢٤,٦٠	٢٠	٥٥	٢٦,٣٠	٦٩,٧٠

أخذت الأرصاد على أعماق تتراوح بين ١,٢ - ١,٥ م

المصدر : Coastal Res. Inst., 2003

١- تتراوح أقصى سرعة للتيارات المتجهة إلى الجنوب بين ٦٤ - ٥٥ سم/ ثانية، بينما بلغ المتوسط العام لسرعتها في فترة الدراسة ٢٧,١٥ سم/ ثانية. في حين تراوحت أقصى سرعة للتيارات المتجهة إلى الشمال ما بين ٥٠ - ٤٠ سم/ ثانية وبلغ متوسط سرعتها ٢٤,٧٤ سم/ ثانية.

٢- تستأثر التيارات المتجهة إلى الجنوب بالنسبة الأكبر من مجموع التيارات في المنطقة، حيث استحوذت على ٦٧%، ٦٩,٧% في عامي الدراسة، وهذا يشير إلى مدى مسئولية هذه التيارات عن الإرساب على الأطراف الجنوبية من منطقة الدراسة.

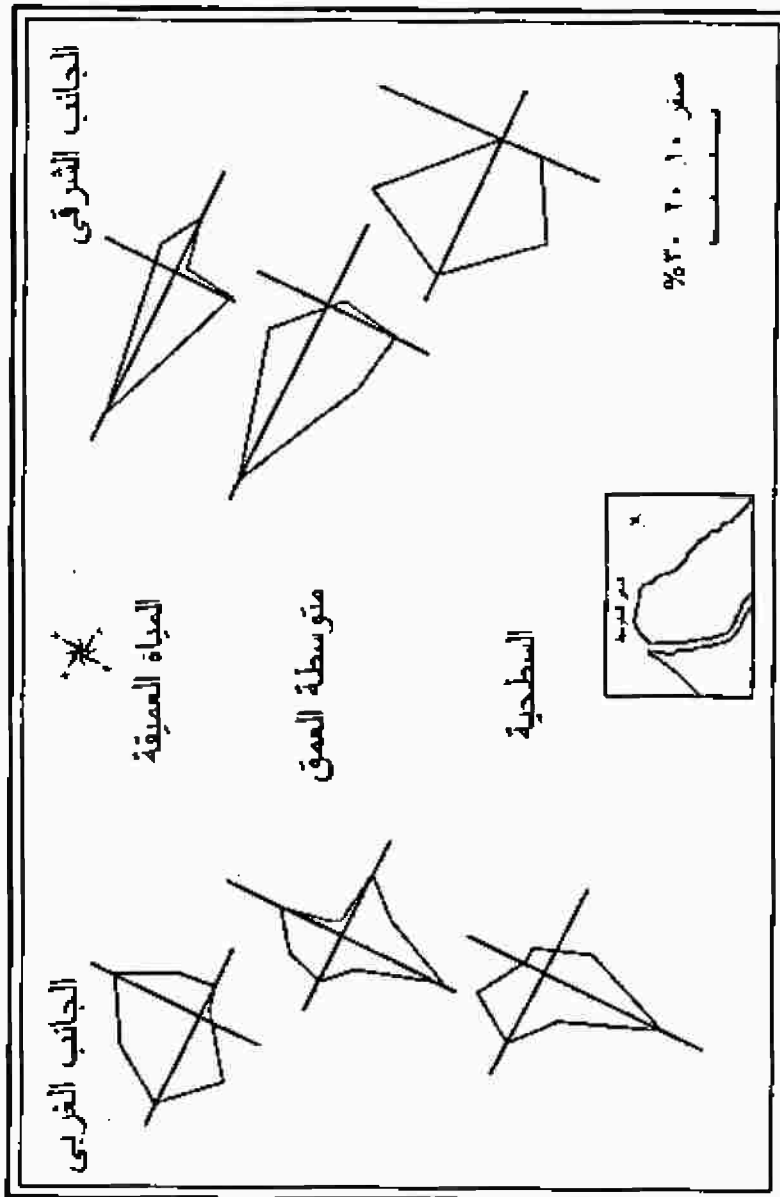
٣- يتضح من الدراسة أن التيارات المتجهة إلى الجنوب هي الأقوى والأكثر سرعة وهي الغالبة في نسبة وجودها، وذلك بسبب ميل الأمواج على الجانب الغربي من المصب كما سبق أن ذكرنا، ودفعها لهذه التيارات في اتجاه الجنوب بمخاذاة الساحل الغربي. وهذا الوضع يساعدها على نقل المراد المكتسحة، بل والنحت عندما يشتد لزرها.

٤- يؤكد لطفى وموسى فى دراستهما لخليج أبو قير (Lotfy and Mousa, 1994, p. 74) أن تيارات الدفع الشاطئية تقوم بنقل الحبيبات الجيرية رغم كبر أقطار حبيباتها نسبياً، بينما يصعب عليها جرمات ذات الكثافة النوعية العالية (المعادن الثقيلة) بالرغم من صغر حبيباتها. وهذا ما أثبتته دراسة التوزيع الحجمى والمعادن الثقيلة فى منطقة المصب.

٥- تزداد سرعة التيارات الشاطئية، ومن ثم طاقتها، فى فصل الشتاء عن بقى فصول السنة. إذ تبلغ أقصى سرعة للتيارات الآتية إلى الجنوب ٦٤ سم/ ثانية فى شهر يناير. بينما بلغ متوسط أقصى سرعة لها فى شهور الصيف $٣١,٢$ سم/ ثانية، وهو يرتبط إيجابياً بتوزيع طاقة الأمواج على مدار العام كما سبق أن أوضحنا.

وقد قام معهد بحوث الشواطئ (Coastal Res. Inst., 2003) برصد حركة التيارات البحرية خلف منطقة تكسر الأمواج على عمق ستة أمتار فى المتوسط على جانبى لسان المصب. ويبين الجدول رقم (٦) البيانات المرصودة ومنه يتبين أن تيارات الجانبين تكاد تكون متساوية فى سرعتها القصوى، إذ تبلغ فى الجانبين بالمياه السطحية ٤٠ م/ ثانية وإن كانت المتوسطات تظهر نشاطاً وقوة بالنسبة لتيارات الجانب الشرقى حيث تبلغ ١٣ م/ ثانية فى المياه السطحية، فى حين تبلغ قرينتها على الجانب الغربى ١٠ م/ ثانية فقط. كما يتضح أيضاً أن سرعة التيارات للمائية تقل بالاتجاه نحو القاع بصفة عامة، وإن كان معدل التغير يكون أسرع بالنسبة لتيارات الجانب الشرقى فى السرعات القصوى والمتوسطة. وتشير التسجيلات أيضاً أن الاتجاه السائد للتيارات أمام الجانب الشرقى صوب الغرب فى المياه السطحية والمتوسطة، وصوب الغرب والشمال الغربى قرب القاع (شكل ١٥). أما أمام الجانب الغربى فتتجه صوب الشمال والغرب فى طبقة المياه السطحية وصوب الجنوب فى كل من طبقتى المياه المتوسطة وقرب القاع. وتستخلص من هذا أن تيارات الجانب الشرقى تحمل جزءاً

من الرواسب لكي تلتقى مع الأمواج أمام المصب فتدفعها وتدخل بها مصب فرع رشيد وهذا من أسباب إطمائه. أما تيارات الجانب الغربى فتتجه بالرواسب صوب السواحل الجنوبية حيث يتم إرسابها على السواحل الشرقية من خليج أبو كبير.



المصدر: من عمل الباحث اعتمادا على تسجيلات مصدرها Coast.Res.Inst.,2002

شكل (١٥) اتجاهات التيارات الشاطئية أمام منطقة مصب رشيد

جدول (٦) خصائص التيارات البحرية خلف منطقة تكسر الأمواج
لمام مصب رشيد (٢٠٠٢)

الاجانب الغربى			الاجانب الشرقى			الأعماق
الاتجاه للمائد	متوسط السرعة م/ث	أقصى سرعة م/ث	الاتجاه السائد	متوسط السرعة م/ث	أقصى سرعة م/ث	
صوب الشمال والغرب	١٠	٤٠	صوب الغرب	١٢	٤٠	سطحية
صوب الجنوب	٩	٢٥	صوب الغرب	١٢	٢٠	متوسطة
صوب الجنوب	٩	٢٥	صوب الغرب والشمال الغربى	١١	٢٠	عميقة

المصدر : Coastal Res. Inst., 2003.

تيارات المياه العميقة :

تحدث هذه التيارات فى البحر المفتوح خارج منطقة تكسر الأمواج Surf Zone وتحدثنا الدراسات الكلاسيكية عن انتشار آثار الرواسب النيلية على السواحل الجنوبية الشرقية من حوض البحر المتوسط حتى سواحل فلسطين الجنوبية. وقد لرشد هذا عن العلاقة بين تيارات المياه فى البحر المفتوح ومسئوليتها عن نقل الرواسب النيلية من أمام النلتا وإقرارها على طول تلك السواحل. وقد درس هاشم تيارات المياه العميقة فى منطقة الدراسة (Hashem 1976, pp 3-35) وأورد بعض البيانات عن تلك التيارات (جدول ٧) وتبين من دراسة البيانات أن التيارات تأخذ اتجاهاً عاماً من الغرب إلى الشرق باستثناء فصل الصيف والنصف الأول من فصل الخريف، فيتغير اتجاهها ليصبح من الغرب والجنوب الغربى إلى الشرق والشمال الشرقى. وتباين سرعة التيارات خلال فصول السنة، فيتزايد نشاطها خلال شهور الشتاء وتبلغ سرعتها القصوى ٢٥,٦ سم/ ثانية، ثم يقل نشاطها

تدرجياً حتى تصل سرعتها القصوى إلى أدنى معدل لها في شهور الصيف حيث تبلغ ١٥ سم/ ثانية

جدول (٧) خصائص التيارات البحرية في المياه العميقة أمام

منطقة مصب رشيد

الاتجاه	متوسط السرعة سم/ ث	أقصى سرعة سم/ ث	فصول السنة
صوب الشرق	١٣	٢٥,٦	الشتاء
صوب الشرق	٤	٢٠	الربيع
صوب الغرب والجنوبي الغربي	١٠	١٥	الصيف
صوب الغرب	١٥	٢١	الخريف
صوب الشرق	١٢	١٨	ب

المصدر : Hashem 1976

فقط. والتيارات ذات الاتجاه الشرقي هي الأقوى والأبعد أثراً. فسرعتها القصوى تتراوح بين ٢٥,٦ - ١٨ سم/ ثانية. كما أن التيارات الشرقية الأكثر دوماً خلال شهور السنة، إذ أنها تغطي نحو ٧١,٣% من أيام العام. ومن ثم فهي الأكثر قدرة على تحريك ونقل الرواسب وإعادة إرسابها. أما التيارات المتجهة صوب الغرب فتأثيرها يكاد يكون متعصماً في تحريك وحمل الرواسب. ويؤكد ذلك انتشار الرواسب النيلية في مياه البحر أمام السواحل وعلى الشواطئ الشرقية حتى السواحل الجنوبية لفلسطين كما سبق أن ذكرنا. أما على الجانب الغربي فإن الرواسب النيلية تتعدم إلى الغرب من الإسكندرية، حيث تصفو المياه وتخلو الشواطئ من تلك الرواسب. ويلاحظ من هذه الدراسة مدى التلازم بين قوة الأمواج والتيارات الشاطئية والتيارات المياه العميقة وفصل الشتاء.

ج- المد والجزر :

تعد حركة المد والجزر أضعف القوى البحرية إسهامًا في تشكيل منطقة مصب رشيد. فالحركة المدية ضعيفة بصفة عامة في حوض البحر المتوسط، إذ أن الفارق بين منسوبي المد والجزر يدور حول متوسط لا يتعدى ٣٠ سم. ويسجل الجدول (٨) القياسات الخاصة بمنسوب البحر أثناء حدوث المد والجزر في الفترة من ٩٢-١٩٩٩ م. ومن دراسته يتضح الآتي :

جدول (٨) خصائص المد والجزر في خليج أبو قير

في الفترة من ٩٢-١٩٩٩ (متر)

السنوات	المد			الجزر		
	أعلى منسوب	أدنى منسوب	المتوسط	أعلى منسوب	أدنى منسوب	المتوسط
١٩٩٢	٠,٥٨	٠,٢٥	٠,٢٩	٠,٠٨	٠,٢٢-	٠,٠٣
١٩٩٣	٠,٦٢	٠,١٨	٠,٢١	٠,٠٤	٠,٣٢-	صفر
١٩٩٤	٠,٤٤	٠,١٥	٠,١٩	٠,٠١	٠,٣٤-	٠,٠٢-
١٩٩٥	٠,٤٤	٠,١٥	٠,١٩	٠,٠١	٠,٣٢-	٠,٠١-
١٩٩٦	٠,٥٦	٠,١٧	٠,٢١	٠,٠٣	٠,٢٠-	صفر
١٩٩٧	٠,٣٧	٠,٠٩	٠,١٣	٠,٠٤	٠,٣٤-	٠,٠٦-
١٩٩٨	٠,٣٢	٠,١٢	٠,١٦	٠,٠١-	٠,٢٤-	٠,٠٤-
١٩٩٩	٠,٤٢	٠,١٣	٠,١٨	صفر	٠,٢٠-	٠,٠٢-
المتوسط	٠,٤٧	٠,١٦	٠,٢٠	٠,٠٢	٠,٢٧-	٠,٠٢-

المصدر : معهد بحوث الشواطئ (تقرير داخلي بدون تاريخ)

١- يبلغ المتوسط العام لمستوى المد ٢٠ م، والمتوسط العام لمستوى الجزر ٠,٢ م، وبالتالي فإن الفارق بين منسوبي المد والجزر في المنطقة يبلغ متوسطًا قدره ٢٢ م.

٢- يتراوح أعلى منسوب للبحر في حالة المد بين ٦٢ م - ٢٢ م، بينما يتراوح أدنى منسوب للبحر في حالة الجزر بين ٠,٣٤ م - ٠,٢٠ م. وعلى هذا فإن الفارق

بين متوسط أعلى منسوب للمد (٠,٤٧م) وأدنى منسوب للجزر (-٠,٢٧م) يصل إلى ٠,٧٤م.

٢- يتميز المد والجزر في المنطقة بأنه من النوع نصف اليومى Semidurnal ويعنى هذا حدوث مدان وجزران كل يوم قمرى (السيد، ١٩٩٨ ص ٢٨) غير أنهما لا ينتظمان بدقة سواء في زمن الحدوث أو مدى التباين بين منسوبيهما.

٤- يحدث أعلى منسوب للبحر في حالة المد في شهور مارس وديسمبر ويناير ونوفمبر حينما تتوافر ظروف المد العالى Spring Tide مع حدوث العواصف الناشئة عن الانخفاضات الجوية والتي تتكرر خمس عشرة مرة في شتاء كل عام (Abou Raddy 1988, p. 38).

ويقتصر دور حركة المد والجزر على مساعدة القوى البحرية الأخرى (الأمواج والتيارات البحرية). إذ أن أقوى أثر يمكن أن تحدثه تيارات المد القوية المصاحبة للعواصف هو ترك شريط من الرواسب الرملية على الشاطئء الأمامى سرعان ما تكتسحه أمواج العواصف التالية أو تزيله الرياح الشمالية إلى الداخل حيث نطاق الكثبان الرملية. أما تيارات الجزر القوية، فإنها تساعد التيارات الشقية (المازقة) Rip Currents في نقل الرواسب من منطقة تكسر الأمواج إلى منطقة المياه العميقة وهذا هو الأثر الأخطر حيث تعمق هذه العملية قاع البحر في منطقة التكسر وهو ما يساعد على زحزحة خط تكسر الأمواج Break Wave Zone تجاه الشاطئء مما يؤدي إلى زيادة طاقة الموجة في النحت.

٢- تغير منسوب سطح البحر في الفترة المعاصرة

يعتبر تذبذب مستوى سطح البحر من العوامل المهمة المؤثرة على تشكيل السواحل وبخاصة في المناطق المنخفضة التضاريس المستوية السطح والمؤلفة من رواسب لينة. ويكون التأثير سلبياً على تلك الرواسب في حالة ارتفاع مستوى سطح البحر. ولاشك أن هذا التذبذب يتأثر بصورة مباشرة بذبذبات درجات

حرارة جو الأرض. وقد عُثيت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) NASA عن طريق فريقين من باحثيها بدراسة تغير المتوسط السنوي لدرجة حرارة الأرض فيما بين ١٨٨٠م و ١٩٨٠م لإحدى الدراسات، وفيما بين ١٩٠٥م و ١٩٩٥م للدراسة الأخرى. كما اهتمت أيضًا وحدة أبحاث المناخ بجامعة إيست إنجليليا East Anglia بإنجلترا بنفس الموضوع منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى نهايات القرن العشرين. وخلصت هذه الدراسات إلى ارتفاع المعدل السنوي لدرجة حرارة الأرض بقيمة تتراوح بين ٠,٤٥م° و ٠,٩١م°. ويجب الاعتناء بهذا القدر رغم ضآلته، فقد لفت جريبين النظر إلى أن هذا الارتفاع يعنى إضافة هذه القيمة يوميًا إلى درجة حرارة الأرض (Gribbin 1990, p. 23) فإذا كان اليوم أدفا من الأمس بدرجة واحدة، فإن هذا لن يعنى شيئًا يذكر. ولكن إذا كان كل يوم من أيام العام الحالي أدفا من مثيله في العام السابق، فإن هذا يعنى إذا كمية من الحرارة بعدد أيام السنة (Gribbin 1990, p. 25). وطبقًا لتقديرات مركز المناخ الكندي (CCC) فإنه في حالة زيادة نسبة تركيز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الغازي إلى ٦٦٠ جزء في المليون (قدر (Begley 1997, p. 54) نسبة تركيز ثاني أكسيد الكربون عام ١٩٩٧م بنحو ٣٦٠ جزء/ مليون) فإن حرارة الأرضى الشمالية من أمريكا الشمالية وآسيا والأراضى الجنوبية ممثلة في قارة أنتاركتيكا سوف ترتفع بمتوسط سنوى قدره ٨م°. وسوف يؤثر هذا بدرجة كبيرة على مستويات وحدود (مساحة) الغطاءات الجليدية في هذه المناطق، الأمر الذى سينعكس بصورة مباشرة على مستوى وحدود سطح البحر.

وبعيدًا عن الجدل الحائر بين العلماء فيما يختص بأسباب ارتفاع حرارة جو الأرض وتقديراته المتباينة، فإن من إحدى نتائج المباشرة ارتفاع منسوب سطح البحر. ومن بين الدراسات الرائدة في مراقبة وتتبع تذبذب سطح البحر في الأونة الأخيرة تلك التى قام بها فريق من بحاث معهد جودارد الأمريكى لبحوث الفضاء

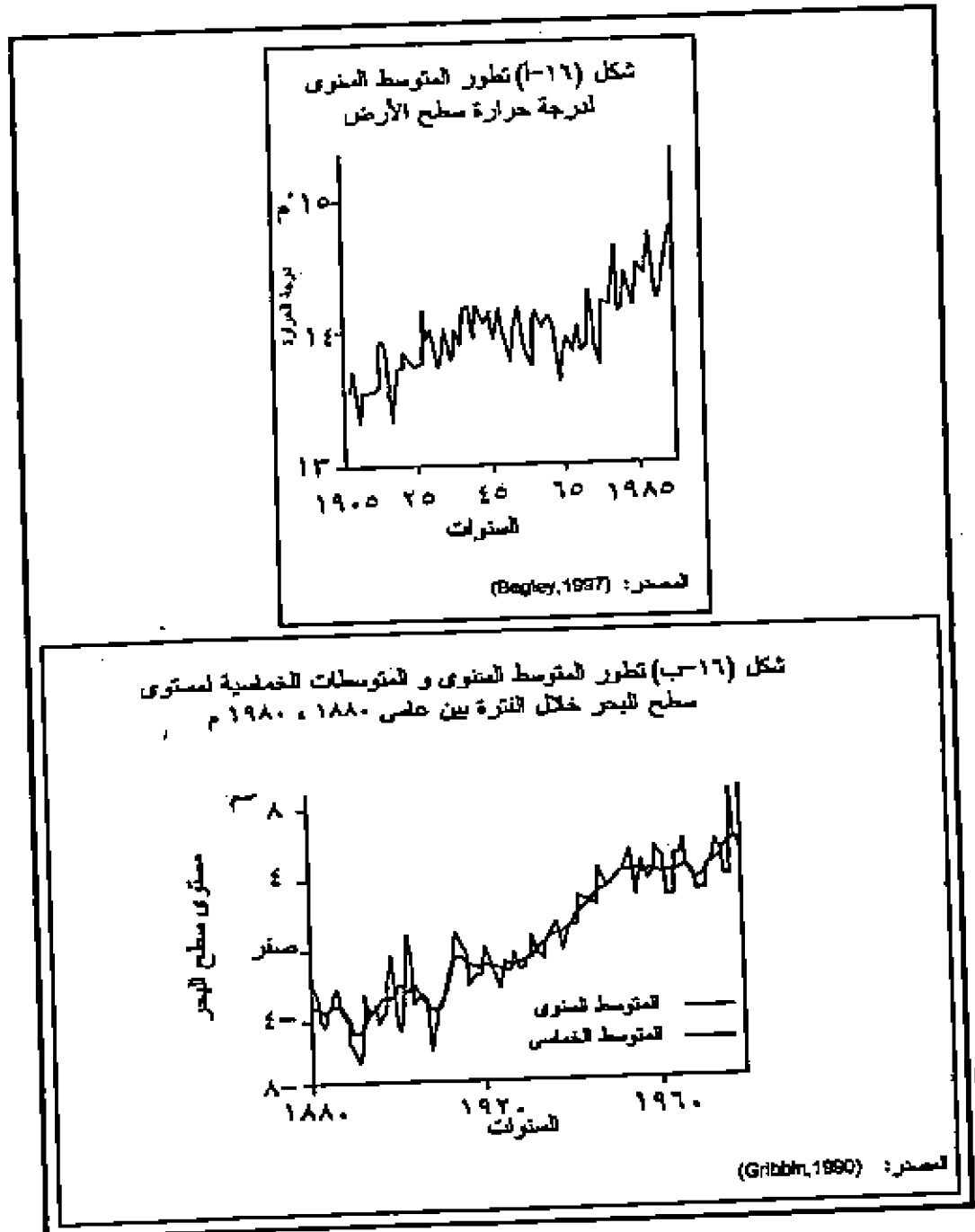
(GISS) ونشرت في عام ١٩٨٢م (Gribbin 1990, p. 211). وقد أوضحت الدراسة أن مستوى سطح البحر ارتفع بمقدار ١٢ سم في الفترة ما بين ١٨٨٠م و ١٩٨٠م، إذ زاد من منسوب -٦,٥ سم في عام ١٨٩٢م إلى +٥,٥ سم عام ١٩٨٠م (شكل ١٦). أي أن الزيادة السنوية تبلغ معدلاً قدره ١,٣٦ ملليمتر، وقد نتج هذا الارتفاع لسببين: الأول هو انصهار الجليد وبخاصة من قارة أنتاركتيكا وجرينلاند اللتان تحويان نحو ٩٩% من المسطحات الجليدية في العالم. والثاني أن ارتفاع درجات الحرارة يؤدي إلى تمدد كتل المياه، ومن ثم يزداد ارتفاعها وطفئاتها على اليابس. وبالرغم من أن هذه الزيادة تعتبر ضئيلة نسبياً سواء على المستوى الإجمالي أو على مستوى المعدل السنوي، فإنها تعتبر أمراً جدياً خطيراً. فارتفاع سنتيمتر واحد من منسوب سطح البحر يتأكل معه متر من الشواطئ الرملية أو الطينية (Gribbin 1990, p.209) بالإضافة إلى تحرك مستوى وحدود المياه المالحة الأرضية بالنسبة لمنطقة منخفضة مثل سواحل دلتا النيل. وبمقارنة منحنى الحرارة ومنحنى منسوب سطح البحر (شكل ١٦) يتبين أن هناك علاقة طردية وثيقة للصلة بين الاثنين خلال الفترة من ١٨٨٠م و ١٩٨٠م. فعند حساب معامل الارتباط بينهما وجد أن العلاقة بينهما موجبة بقيمة ٠,٧٨، وبلغ معامل التحديد ٦٦%. وهذا يعني أن ٦٦% من الاختلاف في قيم مستوى سطح البحر تتفق مع الاختلاف في قيم متوسطات درجات حرارة جو الأرض. وهذا يوضح مدى العلاقة بين هذين المتغيرين.

ويتوقع الخبراء أن زيادة استخدام الوقود الحراري ومضاعفة ثاني أكسيد الكربون والغازات الأخرى التي من شأنها الاحتفاظ بالحرارة، وتثبيط عملية الاحتباس الحراري، سوف يؤدي إلى رفع متوسط حرارة الأرض بنحو ٣م، وهذا يستوجب ارتفاعاً في منسوب البحر يتراوح بين ٢٠-٢٠ سم وذلك بحلول عام ٢٠٥٠م (Gribbin 1990, p.214) وذلك بفعل التمدد الحراري فقط. وإذا

أضفنا انصهار المسطحات والقلنسوات الجليدية فسيكون ارتفاع منسوب البحر بين ٤٠ - ٦٠ سم. ويوضح شكل (١٧) مدى ما سوف تتأثر به السواحل الشمالية للدلتا. فعندما يرتفع مستوى سطح البحر نصف المتر، سوف تغرق الأجزاء الشمالية من الدلتا بمساحة ١٧٥٤ كم^٢. أما عندما يرتفع منسوب سطح البحر مترًا واحدًا فإن مساحة تقدر بـ ٤٤٧٦ كم^٢ من الأراضي الشمالية للدلتا سوف تتحول إلى قاع للبحر. وكانت تقديرات (Jelgersma and Sestini 1996, p.173) أكثر تشاؤمًا، حيث قدرنا ارتفاع مستوى سطح البحر في الفترة من ١٩٠٠-١٩٩١ م بنحو ٢٢,٩ سم بمعدل سنوي قدره ٢,٥٢ ملليمتر. وإذا استمر هذا المعدل حتى نهاية القرن الحادى والعشرين، فإن الأراضي التي تقع تحت منسوب ٠,٥ متر سوف تتعرض للإغراق بما يقدر بنحو ٢٧٠٠ كم^٢. وفي دراسة أعدها معهد بحوث الشواطئ (Coastal Res.Inst., 2003, p.4) ورصد من خلالها منسوب سطح البحر خلال النصف الأول من العام المذكور في محطات مختلفة، تبين أن متوسط منسوب سطح البحر كان في المعديّة (غرب مصب رشيد) ٢٥,٢ سم، وفي غرب الإسكندرية ٢٠,٢ سم وفي دمياط ٢٢,٣ سم فوق مستوى خط المقارنة. وهذا يؤكد ارتفاع منسوب سطح البحر خلال القرن العشرين.

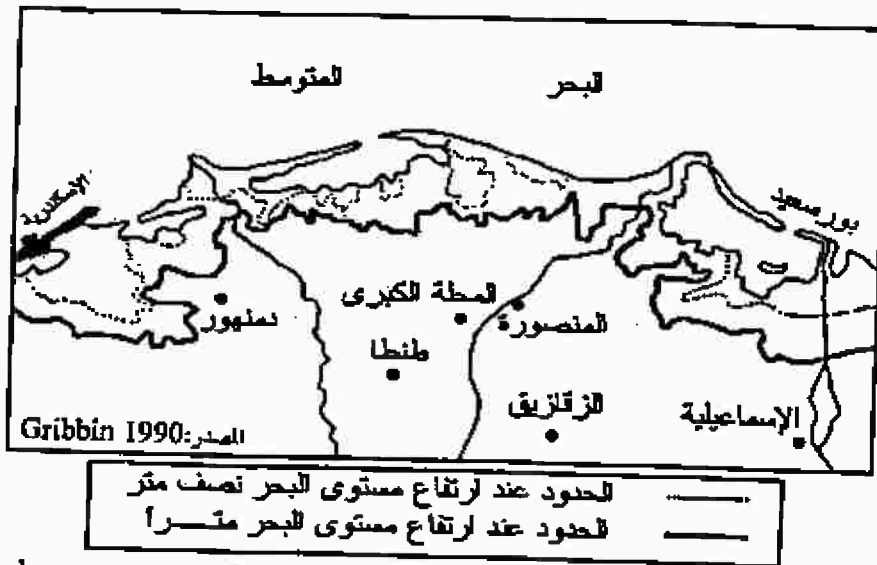
وفي مجال توقع ارتفاع منسوب سطح البحر خلال القرن الحادى والعشرين، لجريت العديد من الدراسات التي عالجت هذا الموضوع. ومن أبرز هذه الدراسات البحوث التي أجراها مركز جامعة كميريدج لدراسة التغيرات المناخية IPCC وربط الباحثون بين زيادة نسبة تركيز ثاني أكسيد الكربون في الطبقة السفلى من الغلاف الجوى حتى عام ٢١٠٠ م، وعلاقة ذلك بارتفاع درجة حرارة جو الأرض وزيادة منسوب سطح البحر (شكل ١٨). وأورد الباحثون ثلاثة احتمالات لتزايد منسوب البحر أقلها ارتفاعه بنحو ٣٢,٤ سم عن منسوبه الحالى،

وأعلاما أنه بحلول عام ٢١٠٠م يكون البحر قد ارتفع بنحو ١١ سم عن منسوبه الحالي (Gregory 1992. p. 226).

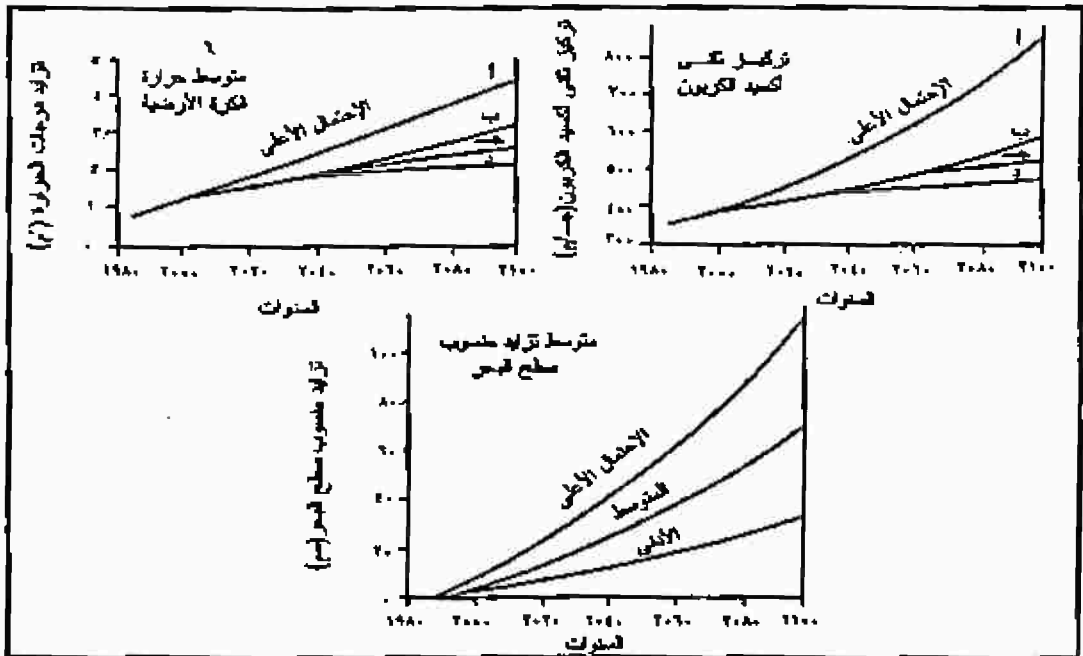


٢- هبوط أرض الدلتا

مرت دلتا النيل بتاريخ جيولوجى وجيومورفولوجى طويل ومعتد، تشابكت فيه العديد من العوامل التكتونية (الانكسارات) والعوامل البنائية (تاريخ وطريقة الإرساب ومعدله) والعوامل التوازنية الخاصة بعلاقة ذبذبات سطح البحر بهذه الأراضي الأخذة فى النمو والظهور فوق صفحته. فنهر النيل ذاتهلقى راسب دلتاه فوق حوض تكتونى من نوع الأخدود خدبت حدوده الشرقية بحافة انكسارية ذات اتجاه شمالى شرقى/ جنوبى غربى (نمط خليج العقبة) وحدوده الغربية بحافة أخرى ذات اتجاه شمالى غربى/ جنوبى شرقى (نمط البحر الأحمر وخليج السويس (سعيد ١٩٩٣م، ص ٩٢). ويبدو أن هذا الأخدود (الثانوى) كان سبباً أساسياً فى الاضطراب التوازنى الذى تعاني منه الدلتا وخاصة سواحلها الشمالية منذ نشأتها وحتى الآن.



شكل (١٢) أراضي الدلتا التى سوف تتعرض للإغراق فى حالة ارتفاع مستوى سطح البحر



المصدر: Gregory 1992

شكل (١٨) لـتـمـاـلـات تـزـايد نـسـبـة ثـانـي أكـسـيد الكـربون وارتفاع الحرارة ومنسوب سطح البحر

وبعيداً عن الجدل المحتدم بشأن تفسير تغير منسوبى البحر وسطح الدلتا بالنسبة لكليهما، فإن الكثير من الباحثين- والشواهد- يؤكدون على ارتباط سطح الدلتا منذ نشأتها، بدءاً من آثار الإسكندرية الغارقة غرباً (أرصفت الميناء الغارقة- مقابر الشاطبي- جزيرة أنتيرودس الغارقة- بعض أحياء الإسكندرية الرومانية... وغيرها) مروراً ببحيرة البرلس التى عثر فيها علماء الحملة الفرنسية على بقايا آثار غارقة، ووصولاً إلى بحيرة للمنزلة التى تعتبر متحفاً مائياً لبقايا وأطلال قرى ومدن قديمة بادت تحت مسطح مائها (حمدان، ١٩٨٠م، ص ٢٠٨). ومما يؤكد أن الهبوط كان فى أرض الدلتا ذاتها ما ذكره هيوم من أن الجزء الشمالى الغربى كان مأهولاً بالسكان حتى حدثت حركة هبوط فى منتصف القرن السابع الميلادى، تحول على أثرها إلى صحراء من الملح (Hume 1925, p. 122).

وقد أكدت الدراسات الحديثة استمرار عملية هبوط سطح الدلتا في الفترة المعاصرة. ومن أبرز هذه الدراسات أبحاث كل من: Said 1981, UNDP, Stanley 1988, 1990, Sneh et al. 1986, 1978, وغيرهم الكثير. واعتمدت هذه الدراسات على وسائل وطرق بحث متنوعة ودقيقة ومقارنة الشرائح الرسوبية في مناطق متعددة من شمال الدلتا شملت أكثر من ٦٥ بنراً على أعماق تراوحت بين ١٠ - ٦٠ متراً، وتناولت أكثر من ١٥٠٠ عينة من رواسب الدلتا. وإجراء تحليل لبعض منها بطريقة الكربون المشع. فضلاً عن الاستشهاد بالدراسات الأركيولوجية. وقد أثبت تحليل خرائط الخطوط المتساوية لسمك الطبقات الرسوبية Isopachs أن الانكسارات حدثت حوض الترسيب الدلتاوى باتجاه شمال شرق/ جنوب غرب (Stanley 1988, p. 497). وتم تنشيط هذا الأخدود الإنكسارى في البلايستوسين المتأخر والهولوسين، فنزاحبت معدلات الإرساب في القسم الشمالى الشرقى من الدلتا. وأدى هذا إلى زيادة معدلات الهبوط لتصل إلى أقصى درجاتها في هذا الجزء. وقد أكدت الدراسات أن أقل معدلات للهبوط كانت في القسم الشمالى من وسط الدلتا حيث بلغ ٠,٠٤ سم/ سنة. أما للمنطقة المحصورة بين شرق الإسكندرية ومصيب رشيد فتراوح معدل الهبوط بين ٠,٢٥ - ٠,٢٠ سم/ سنة. ووصل معدل الهبوط أقصاه إلى الشرق من مصب نسياط وحتى بورسعيد حيث ناهز المعدل ٠,٥ سم/ سنة (Stanley 1990, p. 151). ولاشك أن هذا الهبوط سوف يتعكس آثاره السلبية على زيادة معدلات التآكل البحرى وتراجع خط الساحل وزيادة ملوحة التربة وارتفاع منسوب الماء الأرضى المالح وتقدمه إلى الداخل وزيادة مسطحات البحيرات الحالية والسبخات المصاحبة لها، مما سينعكس على النشاط الزراعى والعمرانى وعلى خطط التنمية في المستقبل.

٤- العوامل الهيدرولوجية (فعل النهر)

بعد نهر النيل ممثلاً فى فرع رشيد أحد العوامل المؤثرة والفعالة فى موفولوجية مصب رشيد، بل إنه- من وجهة نظر الباحث- المحدد الأساسى الذى على أساسه تحدد بداية ونهاية فترات نمو لسان المصب فى البحر وتراجعته (نقهتره) إلى الداخل. وسوف نهتم هنا بدراسة تصريف النهر وما يحمله من راسب لما لهما من تأثير بين على المنطقة المدروسة.

وفيما قبل القرن العشرين كان نهر النيل حراً بصورة كاملة، ومن ثم كان نظامه الهيدرولوجى يصل تأثيره إلى منطقة المصبين (المصبين فيما سبق) فى البحر المتوسط. وكان هذا النظام يتمثل فى الفيضان السنوى المتذبذب، سواء على مدار السنة الواحدة أو بين سنة وأخرى. وتشير الدراسات التاريخية إلى أن المتوسطات القرنية لمنسوب النيل فيما قبل القرن السادس عشر الميلادى تذبذبت بين ١٦، ١٨ ذراعاً^(١). أما فيما بعد ذلك وحتى بداية القرن العشرين، فقد تراوحت بين ١٩، ٢، ١٧، ٥ (ق ١٨) ذراعاً. ولاشك أن فيضان النيل ينعكس بصورة واضحة على الحمولة النهرية، فالعلاقة بينهما طردية. وقد بلغت متوسط كمية الحمولة العالقة بنهر النيل عند الجعافرة خلال القرن ١٩ نحو ٢٠٠ مليون طن سنوياً. ويبدو أن متوسط الحمولة العالقة فى الفترة المحصورة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر كانت أكبر من مثيلتها فى الفترة ما بين القرنين السابع والسادس عشر (ارتباطاً بكمية التصريف المشار إليها سابقاً) الأمر الذى أدى إلى زيادة معدلات بناء لسان مصب رشيد فى الفترة الأخيرة بنسبة تزيد بأربعة أمثال معدل البناء فى الفترة الأقدم (على، ١٩٩٥م، ص ٢٨٧).

^(١) يعتبر الفيضان متوسطاً وكافياً لاحتياجات البلاد إذا أوى ما بين ١٦ - ١٨ ذراعاً، وشحيحاً إذا تراوح بين ١٢ - ١٤ ذراعاً، وعالياً إذا تجاوز العشرين ذراعاً انظر (شاوور ١٩٨٢م، ص ١٩٦).

الخصائص الهيدرولوجية لنهر النيل بين ١٩٠٠ - ١٩٦٤ م :

استمر نهر النيل على سلوكه المتذبذب في كمية المياه والحمولة العالقة التي ترد إلى مصر، وإن كان القرن العشرين أقل حظاً في عطاء النهر من القرن السابق، فقد أثبتت أمال شاوور (شاوور ١٩٨٩م، ص ٢٠٥) عن طريق دراستها لمنحنى المتوسط المتحرك Moving Mean لإيراد النيل خلال القرنين الأخيرين أن نسبة السنوات التي زل فيها إيراد النهر عن ٩٠ مليار مترًا مكعباً - أي أنه فيضان فوق المتوسط^(١) - بلغت في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ٨٦,٦% من إجمالي عدد السنوات، في حين أن نظيرتها في أوائل القرن العشرين لم تتجاوز ٢٦,٦% فقط من إجمالي عدد السنوات. وهناك اتجاه عام - لخرطتناقص الإيراد منذ أواخر الستينيات وحتى الآن (شاوور ١٩٨٩، ص ٢٠٢). فقد وصل متوسط إيراد النيل عند أسوان في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ١١٠ مليار م^٣ سنوياً، انخفض إلى ٨٤ مليار م^٣، فقط في الفترة الممتدة منذ بداية القرن العشرين وحتى عام ١٩٨٨م (سعيد ١٩٩٣، ص ١٤٦). كل هذه الشواهد تؤكد اتجاه تصريف النيل إلى التناقص التدريجي.

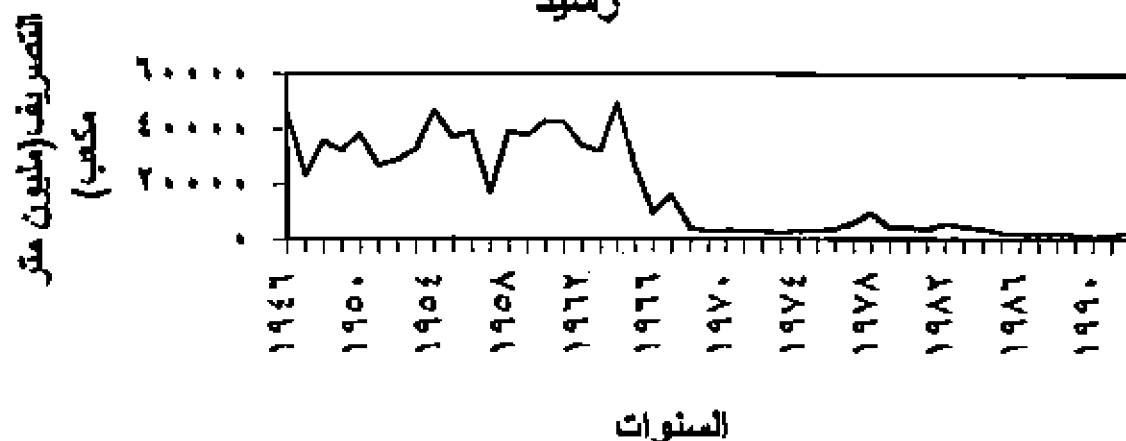
وكذلك بلغت كمية ما يلقى في البحر من مياه النهر عند رشيد متوسطاً قدره ٤١,٤٨٤ مليار م^٣ فيما قبل بناء السد. ولم تكن هذه الكمية موزعة بالتساوي على شهور السنة، وإنما كان التذبذب في كمية التصريف هي السمة الغالبة. وكانت شهور الفيضان (أغسطس، سبتمبر، أكتوبر) هي الأعلى نصيباً بمتوسط يبلغ نسبته ٦٨,٢% من كمية المياه المنصرفة في البحر. ويأتي شهر سبتمبر على قمة هذه الشهور بما يمثل ٣٤,٥% من كمية المنصرف من مصب رشيد إلى البحر. وقد تأثرت الكمية المنصرفة إلى البحر بشدة بعد بناء السد العالي (شكل ١٩) فقد انخفضت الكمية أثناء فترة الحجز الجزئي للمياه إلى متوسط سنوي قدره

(١) يبلغ المتوسط العام لإيراد النيل السنوي عند أسوان ٨٤ مليار متر مكعب انظر : (Hurst, 1958 p. 41).

٢٥,٦٦٢ مليار م^٣، وتواصل الانخفاض بعد التحكم الكامل فى مياه النهر لينخفض الماء المنصرف إلى البحر عند رشيد إلى متوسط سنوى بلغ ٣,٦٠١ مليار م^٣. ويلاحظ من الشكل (١٩) أن كمية المياه انخفضت عن هذا المتوسط بدءاً من عام ١٩٨٥م.

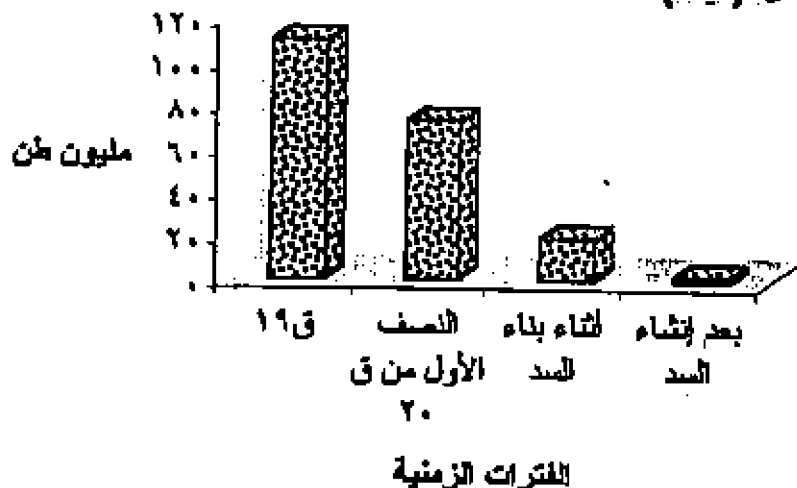
وفى القرن التاسع عشر قدرت كمية الحمولة النهريّة عند أسوان بنحو ٢٠٠ مليون طن سنوياً. وكانت مياه الفيضان تحمل معظم هذه الرواسب إلى مصبى النهر ليصل ما يتبقى منها فى البحر بنحو ١٧٠ مليون طن سنوياً (Viles and Spencer 1999, p. 302) ثم انخفضت هذه الكمية إلى نحو ٧٢ مليون طن سنوياً منذ بداية القرن العشرين وحتى ستينيات هذا القرن (شكل ٢٠)، وذلك تأثيراً بانخفاض كمية التصريف بصفة عامة خلال ذلك القرن كما ذكرنا سابقاً. وبالمثل، فقد تأثرت أيضاً الحمولة النهريّة الملقاة فى البحر ببناء السد العالى. فتناقص ما يصل منها إلى البحر عن طريق مصب رشيد من ٧٢ مليون طن سنوياً قبيل بناء السد العالى إلى ١٨,٥ مليون طن سنوياً فقط أثناء فترة الحجز الجزئى، لتواصل انخفاضها حتى تصل إلى مليونى طن سنوياً (معهد بحوث النيل) وذلك بعد حجز مياه الفيضان بصورة كاملة أمام السد العالى، وبالتالي حجز نحو ٩٦,٥% من كمية الحمولة التى يأتى بها الفيضان. وتلك الأرقام توضح لنا بصورة جلية الحرمان الذى تعرضت له سواحل الدلتا من مصدر بنائها. وكانت هذه الفترة (منذ عام ١٩٦٨) نقطة تحول واضحة وخطيرة فى تراجع سواحل الدلتا بشدة بسبب هجوم القوى البحرية وعدم استطاعة قوى الإرساب النهري من تعويض ما يكتسحه البحر.

شكل (١٩) كمية المياه المنصرفة إلى البحر عبر فرع رشيد



المصدر: من عمل الباحث اعتماداً على بيانات مصدرها معهد بحوث النيل.

شكل (٢٠) الحمولة العالقة الواصلة إلى مصب رشيد



المصدر: من عمل الباحث اعتماداً على بيانات مصدرها معهد بحوث النيل.

٥- طبيعة رواسب الشاطئ

لا شك في أن حجم ومكونات الرواسب الشاطئية تسهم في التأثير على سير العمليات الجيومورفولوجية على طول السواحل المعرضة لعمليات التآكل. ولأجل دراسة طبيعة هذه الرواسب، فقد قام الباحث بجمع ١٥ عينة من الرواسب الشاطئية، خمس منها من منطقة غرب مصب فرع رشيد، اثنتان من منطقة الشاطئ الأمامي وثلاث من منطقة تكسر الأمواج على عمق نحو المترين. وباقي العينات (عشر عينات) من الجانب الشرقي، أربع منها من الشاطئ الأمامي، وست من منطقة تكسر الأمواج. وتم تحليل العينات بطريقة النخل الجاف، ولتبع الخطوات المعروفة في هذا المجال. وقد تم استخدام الحاسب الآلي في إدخال بيانات التحليل لتطبيق المعادلات التي أوردها (Folk and Ward 1957) والخاصة باستخراج متوسط حجم الرواسب Mean والانحراف المعياري (معامل التصنيف Sorting) والإتواء Skewness والتقلطح Kurtosis وهي:

$$\text{متوسط حجم الرواسب (MZ)} = \frac{84\phi + 50\phi + 16\phi}{3}$$

$$\text{التصنيف (Q I)} = \frac{5\phi - 95\phi}{6.6} + \frac{16\phi - 84\phi}{4}$$

$$\text{الإتواء (SK)} = \frac{50\phi^2 - 95\phi + 5\phi}{(5\phi - 95\phi)^2} + \frac{50\phi^2 - 84\phi + 16\phi}{(16\phi - 84\phi)^2}$$

$$\text{التقلطح (KG)} = \frac{5\phi - 95\phi}{(25\phi - 75\phi)^2, 44}$$

ويوضح الجدول (٩) نتائج التحليل الحجمي للرواسب، ومنه يمكن استخلاص

النتائج التالية :

جدول (٩) نتائج التحليل الجزيئي لرواسب منطقة مصب رشيد (٩)

رقم العينة	موقع العينة	نوع العنصر	متوسط حجم الرواسب (mm)		الخصائص (Q)		الاجزاء (SK)		الخصائص (KG)	
			القيمة	الوصف	القيمة	الوصف	القيمة	الوصف	القيمة	الوصف
١	٢ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٣	رمل ناعم	١,٤٣	جيد	١,١٤	سلب	٠,٥٣	شبه الانطلاق
٢	٣ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٢	رمل ناعم	١,٤٩	جيد	١,١٩	متناقل	١,٨٥	متناقل
٣	٤ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩١	رمل ناعم جدًا	١,٦٦	متوسطة	١,١٦	سلب	١,٨٩	متناقل
٤	٥ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٠	رمل ناعم	١,٤٥	جيد	١,٠٧	متناقل	١,١٠٨	متوسطة
٥	٦ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٢	رمل ناعم	١,٤٢	جيد	١,٠٢	متناقل	١,٢٠	متوسطة
٦	٧ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٢	رمل ناعم جدًا	١,٢٢	متوسطة	١,٠٢	سلب	١,١٠	متوسطة
٧	٨ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٢	رمل ناعم جدًا	١,٢٠	متوسطة	١,٠١	متناقل	١,٠٢	متوسطة
٨	٩ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٤	رمل ناعم جدًا	١,٤٨	جيد	١,٠٧	سلب	١,١٨	متوسطة
٩	١٠ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٨	رمل ناعم جدًا	١,٣٦	جيد	١,٠٧	سلب	١,١٥	متوسطة
١٠	١١ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٧	رمل ناعم	١,٥٠	متوسطة	١,٤٥	سلب جدًا	٠,٥٨	شبه الانطلاق
١١	١٢ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩١	رمل ناعم	١,٤٩	جيد	١,٢٠	سلب	٠,٩٢	متناقل
١٢	١٣ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٢	رمل ناعم	١,٤٦	جيد	١,١٨	سلب	١,٢٢	متناقل
١٣	١٤ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٨	رمل ناعم	١,٤٦	جيد	١,٠٠	سلب	١,٢٥	متناقل
١٤	١٥ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩٤	رمل ناعم	١,٤٣	جيد	٠,٠٤	متناقل	١,١٣	متناقل
١٥	١٦ تكسر الأمواج	لنت	٢,٩١	رمل ناعم	١,٤١	جيد	١,١٨	متناقل	١,٤٤	متناقل

١- يتراوح متوسط حجم العينات بين ϕ ٢، ϕ ٣,٥٢ أى بين الرمل الناعم والرمل الناعم جدًا. وهناك عينة واحدة فقط تشذ عن هذا المتوسط (عينة ٤١) وتندرج تحت فئة الرمال المتوسطة، وإن كانت تقترب جدًا من الرمال الناعمة (ϕ ١,٨٤) ومن هنا يتبين أن شواطئ منطقة الدراسة تميل إلى دقة مكوناتها. ويرجع هذا بالطبع إلى تأثير نهر النيل في جلب هذه الرواسب.

٢- تبين من الدراسة أن رواسب الشاطئ الأمامي تتميز بخشونة أكثر من رواسب منطقة تكسر الأمواج، فالأولى يتراوح متوسط حجم رواسبها بين ϕ ١,٨٤ و ϕ ٣,١٢ بنسبة غالبية للرمال الناعمة. والعينة الوحيدة التي تصنف تحت فئة الرمال الناعمة جدًا تقع قريبة جدًا من الضفة الشرقية لنهاية مصب رشيد، وهي المنطقة التي تتعرض حاليًا للإطماء. أما الثانية فيتراوح متوسط حجم رواسبها بين ϕ ٢,١١ و ϕ ٣,٥٢ بنسبة ٥٥,٥% للرمال الناعمة جدًا، ٤٥,٥% للرمال الناعمة. ويرجع هذا إلى طبيعة فعل الأمواج في إعادة ترسيب حمولتها في منطقة أمام الشاطئ حيث ترسب الأحجام الدقيقة فالأدق صوب البحر المفتوح..

٣- تشير الدراسات الخاصة بالمواحل أن الشواطئ المعرضة للنحت تكون أكثر خشونة من قرينتها المعرضة للإرساب، حيث تقوم العمليات البحرية بانتقاء الأحجام الأقل خشونة، ومن ثم يتبقى على الشاطئ الأمامي الرواسب الأخشن حجمًا. وقد أثبتت الدراسة استثناء لهذه القاعدة، حيث تميل الشواطئ المعرضة للنحت إلى دقة مكوناتها عن شواطئ الإرساب، وإن كان مدى الاختلاف بينهما محدود للغاية. ويرجع هذا إلى سببين: الأول هو أن المنطقة غير مستقرة في عمليات النحت والإرساب سواء على مستوى شهور السنة أو على مدى السنوات. فقد أثبتنا من خلال دراسة تطور خط الساحل أن الموضع الواحد قد يتعرض إلى النحت في فترة ثم الإرساب في فترة أخرى، ثم تعاود قوى النحت مهاجمته مرة أخرى وهكذا. والثاني: أن شواطئ النحت تزداد في مكوناتها نسبة المعادن

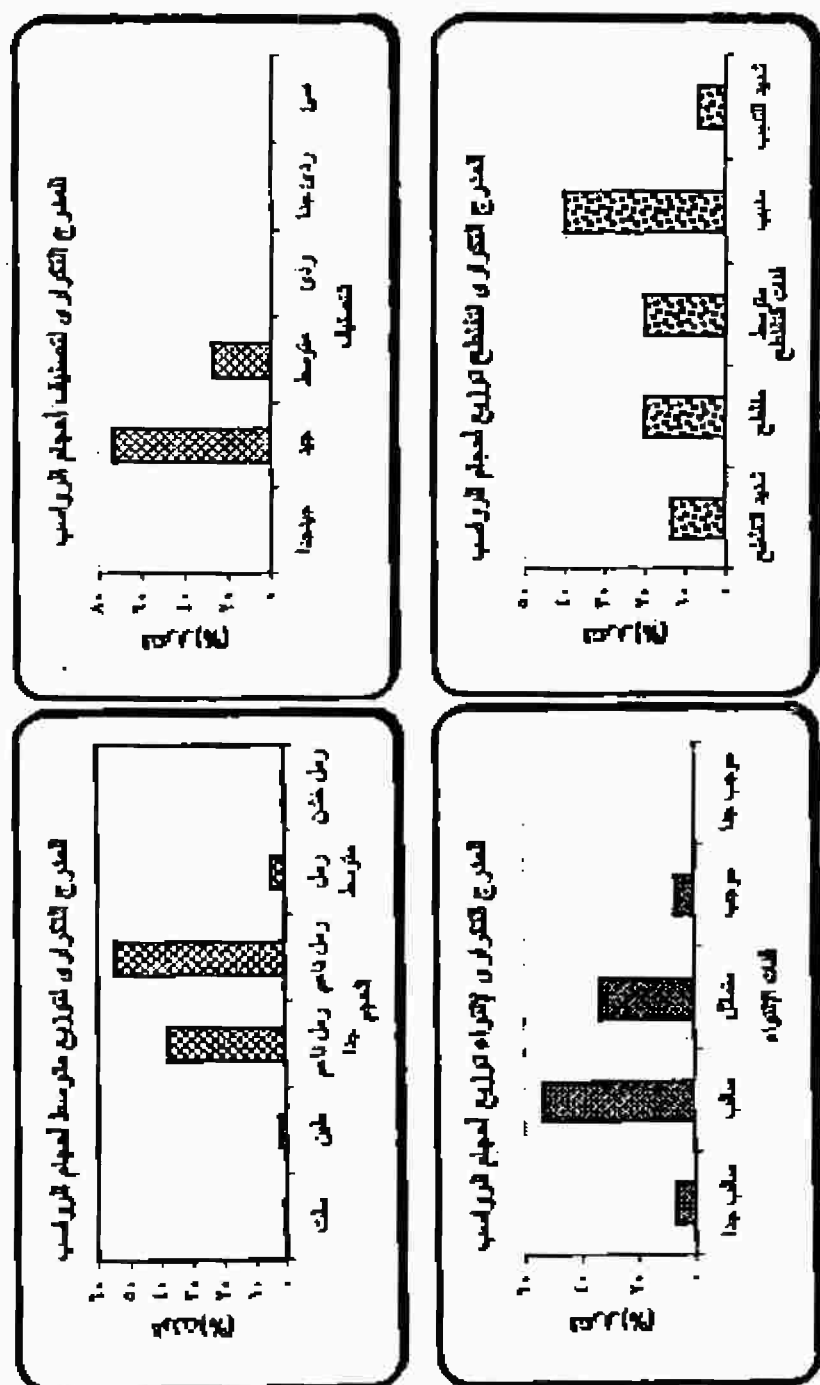
الثقيلة، وهى تتدرج تحت فئة الرمال الناعمة وشديدة النعومة. وقد ثبت بالفعل أن نسبة وجودها فى شواطئ النحت بين ٨٦,٧٩% - ٢٥,٣٤%، وفى شواطئ الإرساب بين ٢٢,٧٥% - ٥,٨٦%. وهذا يعنى أن العمليات البحرية تجبر على اكتساح ونقل الحبيبات الأخف وزناً نوعياً وإن كانت أخشن نسبياً.

٤- يوضح الشكل (٢١) متوسط نسب أحجام الرواسب ومنه يتبين أن الرمال الناعمة والناعمة جداً تولفان ٩١,٩٧% من إجمالى أوزان العينات وتتمثل مجموعة الرواسب الطينية بنسبة ٣,٠٧% من إجمالى الوزن. وتزيد هذه النسبة عن النسب التى أوردتها دراسات مماثلة فى شمال الدلتا (جاويش ١٩٨٨، ص ٧٩، الهيئة القومية للاستشعار من بعد ١٩٩٧م، ص ٣٤) وذلك بسبب زيادة نسبة المواد الطينية حول مصب رشيد. ولم تظهر الرمال الخشنة إلا فى لربع عينات فقط (٤، ١٠، ١٢، ١٤) وجميعها من الشاطئ الأمامى، ومثلت ٥٤% فقط من إجمالى وزن العينات.

٥- أوضح تحليل العينات أن جميعها يتراوح بين متوسطة إلى جيدة التصنيف. وهذا يؤكد على مدى تجانس رواسب المنطقة. ولم يظهر تحليل للعينات أى اختلاف فى قيم معامل التصنيف Sorting بين الشواطئ التى تتعرض للنحت أو الإرساب. وهذا يؤكد ما ذكرناه سلفاً أن شواطئ المنطقة غير مستقرة تحاتياً، ومن ثم فإن الاختلافات بينها تكون غير واضحة.

٦- يتراوح متوسط التواء أحجام الرواسب بين التواء سالب جداً والتواء موجب (شكل ٢١) ويتبين أن ٥٣,٣% من إجمالى العينات ذات التواء سالب، ونحو ثلث العينات (٣٣,٣%) ذات التواء مائل. وتؤكد هذه النسب على الفارق الضئيل بين منحنيات توزيع أحجام الرواسب واتجاهها نحو الالتواء السالب. وهذا يدل على تعرض المنطقة إلى قوى هدم بحرية ذات طاقة عالية قادرة على الاكتساح ونقل المواد إلى داخل الشاطئ البعيد (King, 1972, p 152).

٧- يتبين من دراسة الشكل (٢١) أن ٤٠% من العينات ذات تفلطح مدبب وأن نفس النسبة تقاسمها العينات ما بين التوزيع المتوسط والمفلطح؛



المعادن الثقيلة :

تعتبر دراسة نسب وجود المعادن الثقيلة ذات أهمية بالغة لمثل دراستنا الحالية، لأنها تعكس ظروف كل من التعرية النهرية والبحرية نحنًا وإرسابًا، وبخاصة في منطقة شديدة الحساسية للعلاقة بين هذين النمطين من التعرية. وقد تم تحليل خمس عشرة عينة^(١)، خمس من الجانب الغربى من منطقة المصب، وعشر عينات من الجانب الشرقى. واستخدم محلول بوليلنجستات الصوديوم على الكثافة (٢,٩ جم/سم^٣). وأجرى التحليل على الرواسب الدقيقة التى تتراوح أقطارها بين ϕ ٢، ϕ ٤، حيث يتركز بها المعادن الثقيلة. وقد أمكن جدولة نتائج التحليل بالجدول رقم (١٠) وتمثيلها بيانيًا فى الشكلين رقمى (٢٢، ٢٣). ومن هذه الدراسة أمكن استخلاص النتائج الآتية :

١- تزداد نسبة المعادن الثقيلة فى المواد الألق حيث بلغ متوسطها فى شواطئ النحت فى الرمال الناعمة جدًا ٨٤,٣٢% بينما بلغت فى الرمال الناعمة ٤٤,٩٨% فقط. وهذا يدل بصورة واضحة على مدى دقة أقطار هذه الرواسب.

٢- يبلغ المتوسط العام لنسب وجود المعادن الثقيلة فى رواسب مصب رشيد ٣٤,٧٨% وتختلف هذه النسبة بمدة بين شواطئ النحت والإرساب. فيبلغ متوسطها العام فى شواطئ النحت ٥٠,٢٢% بمدى يتراوح بين ٨٦,٧٩% (عينة ٢)، ٢٥,٣٤% (عينة ١١). أما شواطئ الإرساب فيصل متوسطها العام إلى ١١,٢٣% بمدى يتراوح بين ٢٢,٧٥% (عينة ٦)، ٥,٨٦% (عينة ٥). وتزداد القيمة بصفة خاصة فى العينة رقم (٦). وقد أخذت هذه العينة من رواسب الشاطئ المأخوذ للضفة الشرقية للمصب والمحدد شرقًا بخط الحماية الاصطناعى. وهى منطقة تتعرض للإطماء حاليًا بالرواسب النيلية.

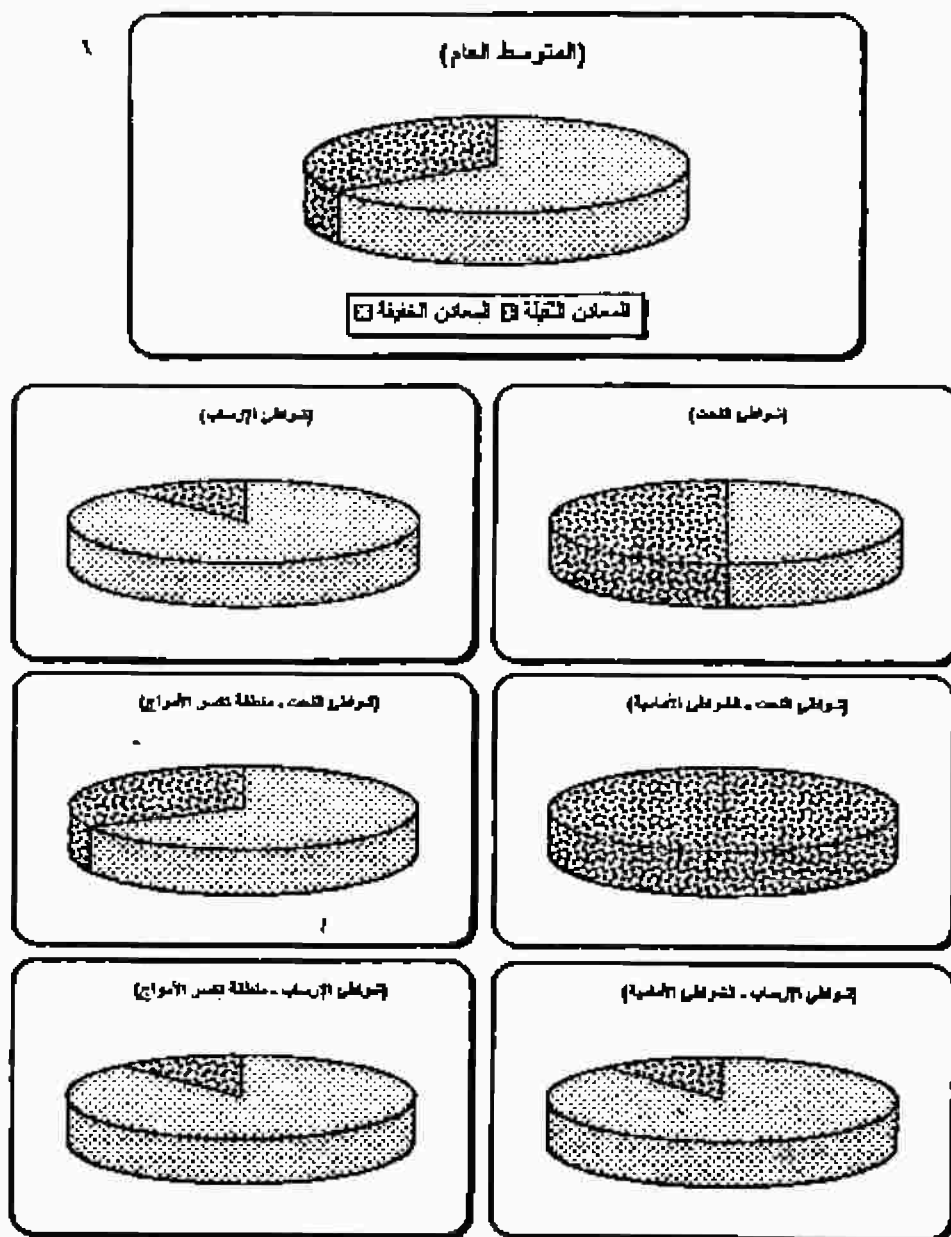
٣- تزداد نسب المعادن الثقيلة فى رواسب الشواطئ الأمامية (٤٧,٩٨%) عن قربتها فى منطقة تكسر الأمواج (٢٥,٩٩%) وتزداد الملاحظة وضوحًا فى العينات

^(١) تم إجراء التحليل باسم الموروجا بحالة المغرب جامعة الإحصائية.

جدول (١٠) نسب المعادن الثقيلة فى رواسب مصب رشيد

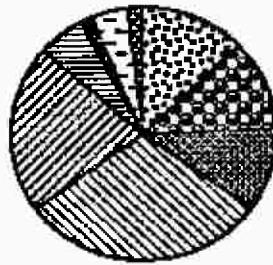
رقم العينة	موقع العينة	نوع الشاطئ	ماجيبيت	التيث	هيمات	أورجيت	هوريلند	أيلنوت	جارت	تورماين	أخوى ^(١)	إجمالي العينة
١	م. تكسر الأمواج	مخت	١٨,٣٢	١٧,٩٥	١٣,٣٨	٢٤,٣٨	١٦,٨١	٣,١٥	٠,٩٨	٣,٨٤	١,١٩	٤٥,٨١
٢	الشاطئ الأمامى	مخت	٣١,٠٥	٢٢,٧٤	٢٨,٨٦	٦,٧٥	٠,٩٢	١,٩٧	٣,٥١	٠,١٢	٤,٠٨	٨٦,٧٩
٣	م. تكسر الأمواج	مخت	١٤,١٨	٩,٣٥	١٩,٠٨	٣٢,٢٣	١٢,١٩	٤,٣٥	٢,١٤	٥,٩٠	٠,٥٨	١٨,٧٩
٤	الشاطئ الأمامى	إرساب	٢,٩٨	١,٤٧	٣,٥٥	٣٧,٤١	٣١,٣٨	٨,٥٨	٠,٧٥	١٢,٨٤	١,٠٤	٨,٤٧
٥	م. تكسر الأمواج	إرساب	٢,٤٣	١,٩٥	١,٦٢	٣٩,٧٨	٣٢,٢٤	١٠,١٦	٠,٥٥	١٠,٠٩	٠,٨٨	٥,٨٦
٦	الشاطئ الأمامى	إرساب	٦,٤١	٧,١٧	٣,٥٧	٣٨,٦٣	٣٥,٦٥	٢,٧٩	١,٢٨	٣,٤٥	٠,٧٥	٢٢,٧٥
٧	م. تكسر الأمواج	إرساب	٨,٣٣	٥,٤٦	٤,٣٨	٢٨,٢٤	٣٩,٩٢	٦,٥٤	١,١٣	٤,٣٨	١,٦٢	١٥,٧٧
٨	م. تكسر الأمواج	مخت	٩,٨٩	١٤,٣٠	٨,٣٤	٣٥,٨٧	١٥,٢٤	٥,٢٣	١,٠٨	٨,٦٣	١,٤٢	٣٧,١٤
٩	م. تكسر الأمواج	مخت	١٣,٤١	٧,٨٨	١٠,١٥	٤٢,٥٣	١٥,٣٩	٦,٤٤	٠,٢٨	٢,٨٣	١,٠٩	٣٢,٤٩
١٠	الشاطئ الأمامى	مخت	١٧,٣٤	٢٥,٩٣	٢٦,٦٨	١١,٨٣	٢,١٥	٢,٠٨	١,١٥	٠,٧٨	٢,٠٦	٨٢,٥٧
١١	م. تكسر الأمواج	مخت	١٥,٣١	٨,٩٥	١١,٥٧	٢٧,٣٧	١٩,٢٤	٩,٢٧	٠,٣٧	٦,٥٥	١,٣٧	٢٥,٣٤
١٢	الشاطئ الأمامى	مخت	٢٤,٠٩	٣٣,١٤	٢١,١٥	٨,٣٧	١,٩٣	١,٢٤	٣,٨٢	٠,١٢	٦,١٤	٨٤,١٩
١٣	م. تكسر الأمواج	مخت	١٠,٥٥	١٢,١٥	٥,٢٣	٣٧,٦٦	٢٠,٨٤	٨,٥٤	١,١١	٢,٤٨	١,٤٤	٣٨,٨٩
١٤	الشاطئ الأمامى	إرساب	٥,٤٨	٢,٩٤	٤,٧٥	٣٢,٤٣	٤١,١٣	٧,٩٢	٣,٥٦	٠,٦٤	١,١٥	١٠,٠٧
١٥	م. تكسر الأمواج	إرساب	١,٠٨	٣,٢٢	١,٧٩	٤٦,١٥	٣٣,٦٤	٩,٨٦	٠,٦٥	٣,٥٣	٠,٠٨	٦,٨٥
		مخت	١٨,٢٤	١٦,٩٣	١٦,٠٥	٢٥,٤٤	١١,٣٣	٤,٧٠	١,٦٠	٣,٤٧	٢,٠٢	٥٠,٢٢
		إرساب	٤,٤٥	٣,٧٠	٣,٢٨	٣٧,١٩	٣٥,٦٦	٧,٦٤	١,٣٢	٥,٨٢	٠,٩٢	١١,٦٣
	المتوسط	العام	١٦,٧٢	١١,٦٤	١٠,٨٩	٣٠,٠١	٢١,٢٤	٥,٨٩	١,٤٩	٤,٤١	١,٥٨	٣٤,٧٨

١- انتمسالى المازوت والمواد كبريت والمواد كبريت.



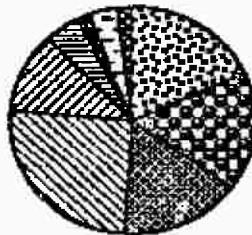
شكل (٢٢) التنبؤ المئوية للمعادن الثقيلة في رواسب منطقة مصب رشيد

(المتوسط العام)



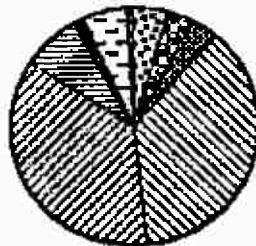
- ماجنيثيت
- إلمينيت
- هيماتيت
- لوجيت
- هورنبلند
- أبيدوت
- جارنت
- تورمالين
- أخرى

(شواطئ النحت)



- ماجنيثيت
- إلمينيت
- هيماتيت
- لوجيت
- هورنبلند
- أبيدوت
- جارنت
- تورمالين
- أخرى

(شواطئ الإرساب)



- ماجنيثيت
- إلمينيت
- هيماتيت
- لوجيت
- هورنبلند
- أبيدوت
- جارنت
- تورمالين
- أخرى

شكل (٢٣) النسب المئوية لأنواع المعادن الثقيلة في رواسب منطقة مصب رشيد

أرقام (٢، ١٠، ١٢) التى تمثل شواطئ النحت حيث تبلغ نسبة تركيز المعادن الثقيلة فى هذه العينات ٨٤,٥٢%، فى حين بلغت النسبة لعينات نفس المناطق ولكن فى منطقة تكسر الأمواج (العينات أرقام ١١,٣ / ١٣) ٢٧,٢٤% فقط، ويتضح هذا مع منطقية العمليات السائدة. فحينما تهاجم عمليات النحت البحرى للشواطئ، فإنها تكتسح وتقل الأقل حجماً والأخف وزناً وتدخل به إلى منطقة الشاطئ البعيد Off shore، وبالتالي فإنها تترك المعادن ذات الكثافة العالية على الشاطئ الأمامى فتزداد نسبة انتشارها فى الرواسب. ويرى ذلك بوضوح على طول الشواطئ التى تمتد على كلا جانبي منطقة المصب فيما يعرف بالرمال السوداء التى تظهر للعيان وخاصة فى جهات الشواطئ التى تتعرض للنحت. ويقل تركيز هذه الرمال السوداء (المعادن الثقيلة) كلما بعدنا عن منطقة المصب شرقاً وغرباً (Rashed, 1992, p. 385).

٤- يمثل معدن الأوجيت أعلى النسب حيث يمثل بنسبة ٣٠,٠١% من إجمالى المعادن الثقيلة (شكل ٢٣) يليه معدن الهورنبلند بنسبة ٢١,٢٤% ثم يأتى بعد ذلك معادن المايجنيتيت (١٢,٧٢%)، الإلمنيت (١١,٦٤%) والهيمايتيت (١٠,٨٩%). وبعد الجارنت أقل المعادن انتشاراً حيث يمثل بنسبة ١,٤٩% فقط من إجمالى المعادن الثقيلة. وتعد معادن المايجنيتيت والإلمنيت والهيمايتيت من أقل المعادن وزناً نوعياً.

وقد لوحظ انتشارها بنسبة أكبر بين المعادن الثقيلة فى الشواطئ الأمامية المعرضة للنحت (العينات ١٠, ١٢, ١٤) إذ تبلغ نسبة انتشارها ٢٧,٤٩%، ٢٧,٢٧%، ٢٥,٥٦% على الترتيب، فى حين تتخفف بشدة فى الشواطئ الأمامية المعرضة للإرساب (العينات ١٤, ١٦, ١٨) حيث تبلغ ٥,٦٠%، ٣,٢٩%، ٤,٢٣% على التوالى. ويحدث العكس بالنسبة للمعادن الأقل وزناً نوعياً ويمثلها الأوجيت والهورنبلند والأبيدوت والتورمالين.

٥- يرجع مصدر هذه المعادن الثقيلة في الرواسب الشاطئية إلى حمولة نهر النيل التي أتى بها من منابعه العليا وبخاصة الحبشية ومرت عبر هذه الرحلة الطويلة، ولعل في هذا تفسير لنقطة أحجامها.

توازن شاطئ منطقة رشيد

وحالاته المورفوديناميكية

إن الوصول إلى حالة التوازن State of Equilibrium بين عامل التعرية والأشكال الأرضية المسنول عن تكوينها لا يتحقق إلا في فترة زمنية قصيرة، لا تمتد طويلاً. إذ أن العلاقة بينهما تعتمد على متغيرات عديدة خاصة بسطح الأرض ومكوناته وأخرى خاصة بعامل التشكيل ذاته. ومن ثم لا تحدث المهادنة بينهما إلا في فترات قصيرة لا يلبث أن يتغير أحد العناصر (المتغيرات) الخاصة بأحد الطرفين، فيفقد حالة التوازن إلى حالة أخرى قد تكون في اتجاه النحت إذا كان التغير في اتجاه زيادة طاقة عامل التعرية، وقد يكون في اتجاه الإرساب إذا خارت طاقة العامل المشكل ولم يقو على نقل حمولته. وفي المناطق الشاطئية ربما تصل الشواطئ إلى مرحلة ثبات في قطاعاتها Stable Profile بحيث لا تتعرض إلى عمليات تآكل (نحت) أو عمليات إضافة (إرساب). وفي هذه الحالة يكون الشاطئ قد وصل إلى مرحلة التوازن بين عمليات النحت والإرساب. وبالرغم من أن هذا الوضع ربما يستمر لفترة زمنية معينة، فإن عملية التوازن هذه قد تتغير أثناء العام الواحد. صحيح أن محصلة العام ما بين النحت والإرساب ربما تكون صفراً (أي أن ما نحت في موسم معين يرسب مثله في موسم آخر خلال العام) ولكن التوازن قد يُنقد خلال شهور (مواسم) العام.

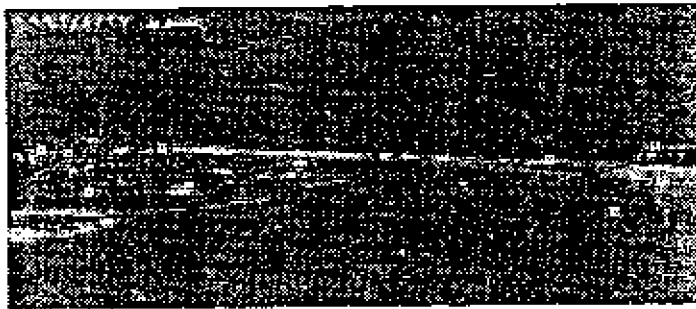
وإثناء هبوب العواصف (النوات) في فصل الشتاء، فإن الأمواج تتميز بكونها قوية ونشطة Vigorous Waves وذات طاقة عالية، وتميل إلى تدمير الحافة الشاطئية الرسوبية (المسطاح) Berm التي تكونت في فترة الهدوء النسبي

للأمواج، وتسحب المواد المنقولة إلى الداخل بعنف بفعل قوة تيار الشق (السحب) Rip Current وربما تكون حواجز بحرية أو شطوط ضحلة فى منطقة الشاطئ البعيد Off-Shore Shoals. وعلى العكس من ذلك فأتشاء فترات الهدوء النسبى، تكون الأمواج هادئة وضعيفة وتتجه بالرواسب إلى الشاطئ فتعيد بناءه وتكون حافات شاطئيه من الرواسب الرملية Berms. ولأن تردد العواصف يكون موسميًا، فإن تغير الشاطئ من موسم لآخر يكون أمرًا واقعيًا.

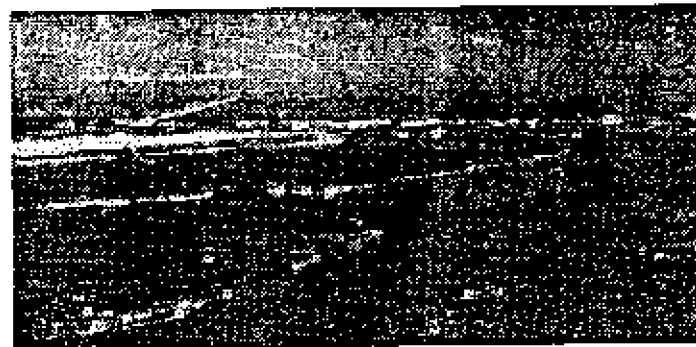
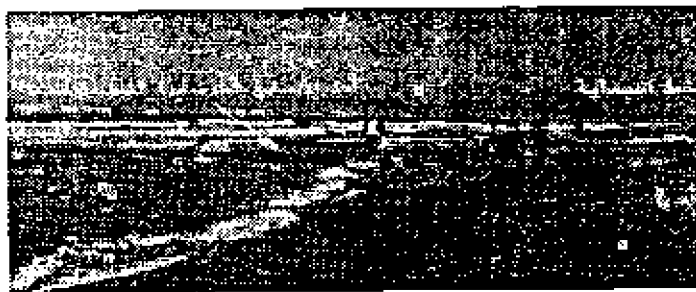
وتعتمد الحالة المورفودينامية للشاطئ Beach Morphodynamic State - التى بناءً عليها يتحدد توازن الشاطئ- على عدة متغيرات أهمها حالة قوى التعرية البحرية (الأمواج- المد والجزر- التيارات البحرية) وشكل قطاع الشاطئ وبخاصة فى منطقة الشاطئ الأمامى ونطاقى زبد الأمواج Surf Zone وتكسر الأمواج Break Zone، وكذلك الحجم والوزن النوعى للرواسب التى يتكون منها الشاطئ. ولا شك أن هذه المتغيرات تتباين من فترة لآخرى ومن موسم لآخر خلال السنة الواحدة كما سبق أن أشرنا. فالشاطئ قد يتعرض لديناميات عالية الطاقة Dissipative حينما يتعرض لأمواج ذات طاقة عالية وقوة سحب هائلة عند ارتدادها- قادرة على اكتساح ونقل مواد الشاطئ الضعيفة التماسك. ويتميز الشاطئ بالإنحدار الهين نسبيًا. وعلى الرغم من ذلك قد يتميز خط نهاية الأمواج بواجهات خطية على طول الشاطئ (صورة ٤)، كما قد تظهر المستنات (ضروس الشاطئ) Cusps (صورة ٧)، وذلك لأن الأمواج تميل إلى التدافع على هيئة أمواج حادة Edge Waves متدفقة، وتصبح مصوبة من منطقة تكسر الأمواج تجاه الشاطئ (Ritter et al., 1995 P. 450). أما عكس الحالة السابقة، أى حينما تكون الأمواج ضعيفة، وذات طاقة محدودة تسود حالة من الانحراف عن المتوسط Reflective State يترتب على أثرها تعرض الشاطئ إلى الإرساب. وبين الحالتين السابقتين تكون حالة الاستقرار والثبات للشاطئ

Short and Hesp, 1982) (Intermediate State) Equilibrium State
(P. 265

ونظراً لأهمية الحالة المورفودينامية للشواطئ في مثل دراستنا هذه، فقد قام الباحث بدراسة الحالة المورفودينامية لشواطئ منطقة الدراسة في فصلي عام ٢٠٠١ (الشتاء والصيف) ومنهما يمكن الحكم على المحصلة الإجمالية لحالة الشواطئ.



صورة (iv) المستنقعات إلى الشرق من مصب رشيد



صورة (v) المستنقعات غرب خط الحماية الغربي

وقد قام الباحث بتطبيق المعادلة التى أوردها (Guza and Inman, 1975)

١

(P. 3005) ونصها كما يلى:

$$E = \frac{ab (w)^2}{g (\tan \beta)^2}$$

حيث أن:

E = معامل الإنحراف

ab = سعة الموجة

$2,14 \times 2$

2π

$$= \frac{2,14 \times 2}{2\pi} = W$$

T = زمن تردد الموجة بالثانية

g = عجلة الجاذبية الأرضية ($9,80665$ م/ثانية/ ثانية)

$\tan \beta$ = ظل زلوية إنحدار الشاطئ ونطاق تكسر الأمواج

وحينما تكون قيمة E أقل من $2,5$ تسود الشاطئ ديناميات ذات طاقة

منخفضة Reflective. وإذا تراوحت قيمة E بين $2,5$ - 20 فتكون الديناميات

ذات طاقة معتدلة Intermediate، لما إذا كانت أكثر من 20 فيتميز الشاطئ

بديناميات عالية الطاقة Dissipative (Short and Hesp, 1982, p. 265).

وبوضح الجدول (١١) نتائج تطبيق معادلة الحالة المورفودينامية لشواطئ منطقة

مصب رشيد. ومنه يمكن استخلاص النتائج التالية.

١- يبلغ المتوسط العام لقيمة E فى شواطئ منطقة الدراسة $55,49$ وهذا يدخل

المنطقة ضمن الديناميات عالية الطاقة والتي تعمل على فقد الشاطئ لمكوناته

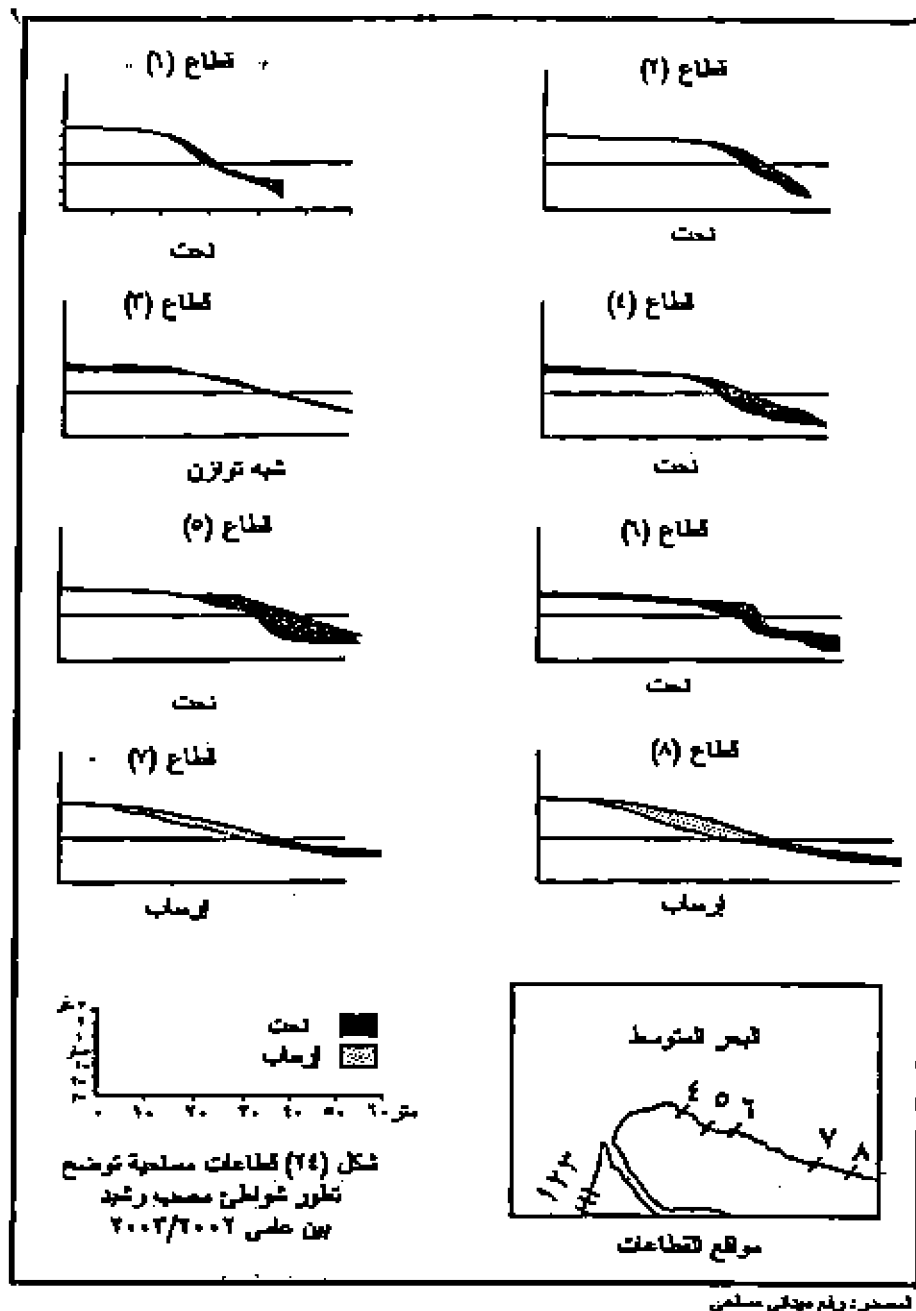
وتعرضه للتراجع. ولكن هذا المتوسط يخفى تبايناً كبيراً من قطاع لآخر فى

منطقة الدراسة، ومن شهر لآخر خلال السنة.

٢- تسود القطاعات (١، ٢، ٤، ٥، ٦) (شكل ٢٤) ديناميات عالية الطاقة، حيث

تؤكد كل الشواهد على سيادة عمليات النحت والإكتساح بشدة وتراجع خط

الشاطئ فى هذه القطاعات. فليبلغ متوسط قيمة E فى القطاعات المذكورة $63,96$ ،



وتتراوح درجات اتحدار واجهة الشاطئ المواجهة للأمواج بين ٢٠° إلى أكثر من ٧٠°. كما تسجل قطاعات هذه الشواطئ أعلى تردد للأمواج. وكانت النتيجة الحتمية لهذا هو زيادة نسبة المعادن الثقيلة في رمال الشواطئ بسبب سحب الأمواج عن طريق تياراتها الرجعية للمواد الأخف وزناً نوعياً والأقل في حجمها. ويتضاعف نشاط الأمواج وتزداد طاقتها في فصل الشتاء، حيث تبلغ قيمة E لهذه الشواطئ ١٧٢,٤٤ (في فصل الصيف ٣٨,٥٥). ويدل ذلك على انصاف الشواطئ بدinamيات عالية الطاقة بصورة أكبر في فصل الشتاء بسبب زيادة ارتفاع الأمواج ومعدلات تلاحقها نتيجة للعواصف المتكررة خلال هذا الفصل. ونقل الدinamيات في قيمتها نسبياً في فصل الصيف، وإن كانت للشواطئ تظل على معاناتها من حالة التعرية على مدار العام وخلال كل فصول السنة.

٣- تتمتع شواطئ القطاع (٢) بنوع من التوازن الدينامي، وإن كان هذا التوازن يُقَدَّر بين فصول العام الواحد. ففي فصل الشتاء تسود ديناميات عالية الطاقة، حيث تبلغ قيمة E ٢٠٠,٤٤. ولكن حينما تقل حدة الأمواج في الصيف، إذ يبلغ معدل اتحدارها ٠٠,٠٤ فتتكسر على شواطئ ذات زوايا اتحدار هينة (٣٠° - ٢٠°) ومن ثم فهي تميل إلى البناء.

٤- تتميز الشواطئ التي يمثلها القطاعان ٧، ٨ بسيادة حالة من الضعف في طاقة القوى البحرية التي تؤثر على المنطقة Reflective State التي تؤثر على المنطقة. فتتراوح قيمة E بين ٢,٣١ (الشتاء)، ٠,٢٢ (الصيف) أي بين شبه التوازن الدينامي والميل نحو الإرساب بمتوسط عام ١,٢٦. وهذا يعني أن المحصلة النهائية هي تمتع تلك الشواطئ بالإرساب. ويؤكد ذلك أن المعادن الثقيلة في رواسب الشواطئ تصل إلى أدنى معدل لها، حيث يبلغ متوسطها ١٠,٠٧% في الشاطئ الأمامي، ٦,٨٥% في منطقة تكسر الأمواج (جدول ١٠). كما يتميز الشاطئ الأمامي بمواد متوسطة الخشونة. في حين تسود الرواسب الأكثر نعومة

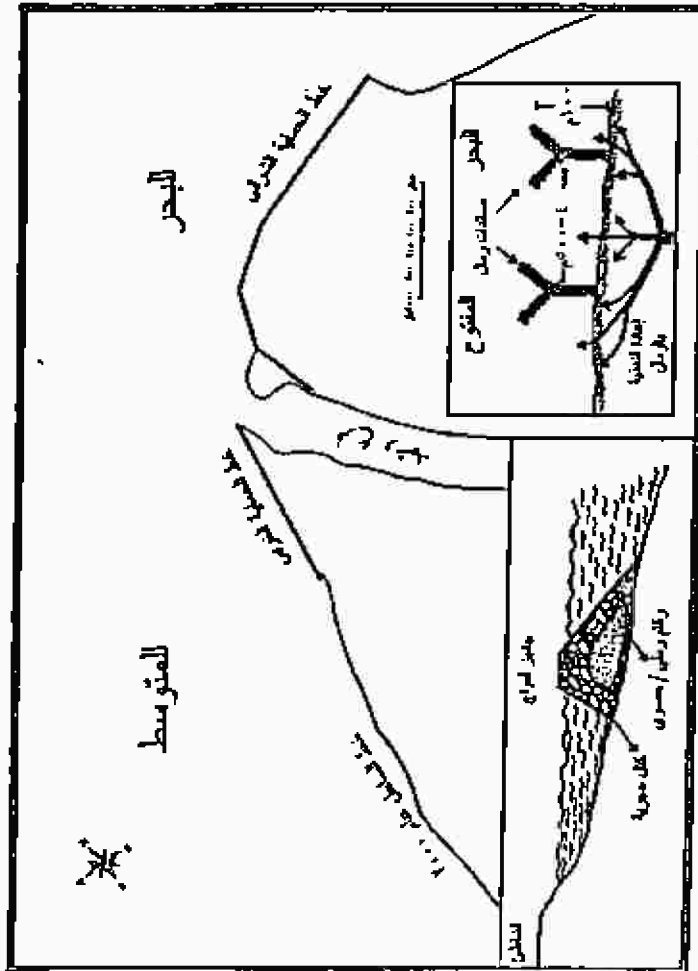
في منطقة تكسر الأمواج (جدول ١٠). وهذا يعني أن الأمواج حينما تكتسح المواد الأخف وزناً (وربما المتوسطة الخشونة ولكنها أخف وزناً) وتقوم التيارات المائية بسحبها ونقلها من القطاعات التي تتميز بالبحث (١، ٢، ٤، ٥، ٦) وتقوم الأمواج بإعادة إرسابها في أقصى شرق منطقة الدراسة في شواطئ القطاعين ٧، ٨ وتكون هذه الرواسب من المواد المتوسطة الحجم إلى الناعمة، وتحتوى على أقل نسبة من المعادن الثقيلة.

٥- تتوافق دراسة الحالة الدينامية لشواطئ منطقة مصب رشيد مع الدراسات التي قام بها الباحث للمنطقة من حيث تطور الشواطئ والقطاعات الشاطئية الميدانية والتحليل الحجمي وتحليل المعادن الثقيلة. وكلها تؤكد أن منطقة مصب رشيد تعاني من ديناميات عالية الطاقة تقوم بنحت واكتساح رواسب الشاطئ في منطقة خطى الحماية وعلى امتدادهما شرقاً وغرباً، ثم تقوم بإعادة إرساب جزء من هذه المواد في أقصى شرق منطقة الدراسة في الجنوب الغربي من القسم الغربي من المصب (شكل ١٢).

طرق الحماية

اتضح من الدراسة السابقة أن معدلات تراجع اليابس في منطقة مصب رشيد اشتملت خطورتها بعد إنشاء المد العالى والذي ظهرت بولاره منذ بداية القرن العشرين. ويبدون العوامل البيئية- كما اتضح من الدراسة- ليست في صالح ساحل الدلتا، ومن ثم فإن الخطر سوف يستمر في السنوات القادمة إن لم تتخذ وسائل الحماية المناسبة والكافية لدرء خطر القوى البحرية. وقد اتخذت الجهات المعنية بعض التدابير لمواجهة هذا الخطر الذى يهدد شمالى الدلتا بكامله. وكانت أكبر المشاريع- حتى الآن- إقامة خطى (حائطى) حماية شرقى وغربى مصب رشيد بناء على دراسة شركة Master Plan. ويبلغ طول الخط الغربى ٥ كم،

والشرقى ٣,٥ كم (شكل ٢٥)، ويتراوح عرضها بين ٤٨ - ٧٠ م، والارتفاع الكلى ١٢ م يبدأ من منسوب -٦ م وحتى منسوب ٦ م فوق منسوب سطح البحر (صورة ٤). ويبدو أن خطى الحماية لا يمثلان الحل الأمثل للمشكلة. حيث أتت الأمواج أولا على الشاطئ الأمامى الذى يقع أمام الكتل الخرسانية وبدأت الأمواج فى تقويض أسافلها. كما قامت الأمواج بالإنفاف حول نهاية الخط الغربى من ناحية الغرب ونهاية الخط الشرقى من ناحية الشرق وادى هذا إلى تكوين خليجين



شكل (٢٥) بعض طرق حماية الشاطئ

(شكل ٢٥ وصورة ٥). وبذلك لم يتوقف نحت وهجوم الأمواج على خط الساحل، مما حدا بشركة إس بى إيه إيجبت (SPA Egypt 1998) بتنفيذ تكنولوجيا الرؤوس (الأسنة) الغاطسة على بعد نحو ٣٠٠ متر من الطرف الغربى من خط الحماية الغربى ولمسافة كيلو متر واحد وهى عبارة عن أسنة إسطوانية من الخرسانة الغاطسة تتعامد على خط الساحل. ولكن هذه الطريقة لم تجد شيئا حيث استمر النحت فى هذا الجزء بمعدل سنوى ٥٠ سم فى السنة فى الفترة بين عامى ٢٠٠١، ٢٠٠٣ ويتوقع الباحث فى المستقبل- إذا استمر هذا الوضع- أن يستمر توغل البحر وفحت الأمواج للأطراف الشرقية والغربية لخطى الحماية وأن يتحول الحائطان إلى جزيرتين تحيط بهما المياه من كل جانب بعد أن تتحول المستنقعات الخلفية إلى بحيرات دائمة. ويطرح للباحث عدة اقتراحات يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

١- لا بد أن يؤخذ فى الاعتبار أن الحماية تبدأ من أمام خط الساحل أى داخل البحر وليس على خط الساحل نفسه.

٢- يقترح الباحث أن تتم الحماية فى صورة منظومة متكاملة تعتمد على:

أ- بناء كاسرات أمواج (حواجز أمواج) فى منطقة تكسر الأمواج Breaker Wave Zone تولزى خط الساحل وتتعامد على اتجاه الأمواج. وتتألف من نواه من الرمال والحصى تغطيها كتل حجرية (يازلت) غير منتظمة الشكل حتى تعلو عن مستوى سطح البحر بنصف متر على الأقل. ومهمة هذا الحاجز أن يعمل على كسر حدة الأمواج واستنزاف طاقتها فتصل إلى خط الساحل متهدبة دون تأثير تحاتى.

ب- بناء مصابيد للرمال عمودية على خط الساحل لا يقل طولها عن ١٠٠ متر وتتراوح المسافة الفاصلة بينها بين ٢٠٠ - ٤٠٠ م، وتنتهى فى البحر على شكل حرف Y. وتتألف أيضًا من كتل حجرية غير منتظمة الشكل ولا يشترط أن

ترتفع لمنسوب سطح البحر. ومهمتها إعاقه حركة تيار الشاطئ الطولى Long
Shore Currents واصطياد ما تحمله هذه التيارات من رؤسب وإرسابها
على خط الشاطئ.

ج- الإستفادة من الكتبان الرملية التى تقع فى ظهير الساحل فى إعادة تغذية
الشاطئ Feedback بالرمال كلما احتاج الأمر لذلك فى بعض المناطق
المتضررة.

د- تشجيع الأهالى على استثمار الشاطئ فى النشاط السياحى وإقامة المصايف
حتى يمكن الاستفادة من مساهمتهم للمادية فى الحفاظ على هذه الشواطئ.
هـ- الاستفادة من الخبرات الأجنبية فى نول تعاني من مشكلات تأكل شواطئها
وأبرزها هولندا (الأراضى المنخفضة) ومحاولة الحصول على منح من الجهات
المانحة بعد التأكيد على مدى ما تمثله هذه المشكلة من خطورة على البيئة
ولقنصاديات السكان والدولة.

الخلاصة

أثبتت الدراسة أن منطقة مصب رشيد كانت في نمو دائم ومستمر حتى بداية القرن العشرين، ثم توقف النمو وبدأت تتعرض لعمليات نحت وتراجع بطيء في خط الساحل بسبب إنشاء خزان أسوان. واستمر الوضع حتى أواخر الستينيات حيث تم بناء السد العالي وتم حجز القدر الأكبر من الحمولة النهرية وهنا بدأ خط الساحل في التراجع السريع والمستمر وإن اختلفت معدلاته بين فترة وأخرى. وقد تأكد أن هناك مجموعة من العوامل تلعب دوراً سلبياً ومؤثراً بشدة على تراجع خط الساحل في منطقة مصب رشيد، وتتمثل هذه العوامل في تأثير البحر من حيث فعل الأمواج والتيارات البحرية والمد والجزر، وارتفاع منسوب سطح البحر في الفترة المعاصرة، وهبوط أرض الدلتا بالإضافة إلى العوامل الهيدرولوجية التي ترتبط بانقطاع الفيضان عن فرعي النيل وما ترتب على ذلك من انخفاض كمية التصريف والحمولة النهرية التي كانت ترد إلى منطقة المصب.

وقد أوضحت الدراسة أن معظم شواطئ المنطقة تتعرض لديناميات عالية الطاقة وبخاصة في الشواطئ التي تتاخم المصب مباشرة، وتتحول إلى ديناميات منخفضة الطاقة على الهوامش الشرقية والجنوبية الغربية لمنطقة الدراسة. وهذا يعني أن المنطقة لاتزال تتعرض للنحت رغم بناء خطى حماية للشواطئ المتاخمة للمصب. ولا يزال استقرار المنطقة جيومورفولوجياً في المستقبل القريب. ومن ثم ينبغي اتخاذ التدابير الملزمة لوقف عمليات النحت. ويقترح الباحث ما يلي:

- ١- بناء حاجز للأمواج في منطقة تكسر الأمواج.
- ٢- بناء مصابيد للرمال على الشاطئ.
- ٣- تغذية الشاطئ برمال الكثبان الرملية وخاصة المتضرر منها.
- ٤- تشجيع الأهالي على استثمار هذه الشواطئ.
- ٥- الاستعانة بالخبرات الأجنبية التي لها سابقة أعمال في هذا المجال.

أولاً: مراجع باللغة العربية

- أبو العنين، حسن (٢٩٧٣) : أشكال التكوينات الرملية فى منطقة رشيد وضواحيها المجلة الجغرافية العربية، العدد (٦)
- أبو راضى، فتحى عبد العزيز (١٩٩٠): ديناميات التعرية الشاطئية والتغيرات المعاصرة لساحل دلتا النيل. مجلة كلية الآداب - جامعة طنطا، العدد (٦)
- جاويش، على مصطفى كامل (١٩٨٨): جيومورفولوجية الشريط الساحلى لدلتا النيل بين قرعى سمياط ورشيد. رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- حمدان، جمال (١٩٨٠) : شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان. الجزء الأول، عالم الكتب، القاهرة.
- سالم، نصر الدين محمود (١٩٩٨): فرع رشيد- دراسة جيومورفولوجية. رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.
- سعيد، رشدى (١٩٩٣): نهر النيل- نشأته واستخدام مياهه فى الماضى والمستقبل. الطبعة الثانية، القاهرة.
- السيد، حمدي عبد القادر (١٩٩٨): مورفوديناميات شواطئ خليج أبو قير. إصدارات مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، المجلد ٤٦.
- شارب، أسال (١٩٨٩): إيراد نهر النيل بين الزيادة والنقصان فى الفترة الحديثة. المجلة الجغرافية العربية، العدد ٢١، القاهرة.
- على، عبد القادر عبد العزيز (١٩٩٥): التغيرات المناخية وفيضانات النيل. ندوة المياه فى الوطن العربى، المجلد الأول، الجمعية الجغرافية المصرية، القاهرة.
- مبارك، على (١٣٠٥هـ) : الخطط التوقية، القاهرة.
- محسوب، محمد صبرى (١٩٩١): حاجز بحيرة المنزلة- دراسة جيومورفولوجية. مجلة كلية الآداب- جامعة المنوفية، العدد (٦).
- المصرى، جابر سلامة (٢٠٠٠) : مدينة رشيد فى العصر الإسلامى. مجلة الإنسانيات، كلية الآداب - فرع دمهور، العدد الأول، السنة الثالثة.
- معهد بحوث الشواطئ (بدون تاريخ) : لسان رشيد وبوغاز رشيد، تقرير داخلى، الإسكندرية.
- معهد بحوث النيل (بدون تاريخ) سجلات غير منشورة - القاهرة.
- الهيئة القومية للاستشعار عن بعد وعلوم الفضاء (١٩٩٧): دراسة التغيرات الساحلية بمنطقة جمصة- بطليم باستخدام تكنولوجيا الاستشعار عن بعد. شعبة التطبيقات الزراعية والتربة وعلوم البحار.

ثانياً : المراجع الإنجليزية

- Abou Raddy, F.A., (1988) : Local Areal Variation of Beach Sands Along the Coast of Alexandria City, Egypt. Bull. Fac. of Arts, Univ. Alex., vol. xxxvi, pp. 38 - 74.
- Begley, S., (1997) : Too Much Hot Air. Newsweek, October 20.
- Coastal Res.Inst., (2003) : Technical Rep. on the Sea Level Vartion at Damietta, Maadia and the Northwestern Coast of Alex, Rep.No.2.
- Coastal Res.Inst., (2003): Technical Rep. on the study of Current pattern and Hydrographic properties at Rosetta, Burullus and Damietta Outlets, Rep. No.2.

- Fanos, A.M., Khalagy, A.A., and Dean, R.G., (1995) : Protective works on the Nile Delta Coast., J. of Coastal. R. 11. 2.
- Folk, R.L., and Ward, W.C., (1957) : Brozes River Bar in the Singnificance of Grain size parameters, J. Geology, vol. 62.
- Gregory, K., (1992) : Changing Physical Environment and Changing Physical Environment and Cahnging Physical Geography, Geog., vol.77., No. 4.
- Gribbin, J., (1990) : Hothouse Earth, the Greenhouse Effect and Gaia. Transworld Publishers LTD, Great Britain.
- Guza, R.T., and Inman, D.L., (1975) : Edge Waves and Beach Cusps, J. Geophys. Research, vol. 80, pp. 2997- 3012.
- Hashem, M.T., (1976) : Fisheries Invesitigation of the Sardine and other Palagic Fish, along the Egyptian Mediterranean Coast From Rashid to El-Sallum Coastal Res. Inst. Teachnical Rep No.2.
- Hume, W.F., (1925) : Geology of Egypt, vol.1, Geol. Surv. Egypt.
- Hurst, H.E., (1958) : the Nile. London.
- Jelgersma, S., and sestini, G., (1996) : Implication of a Future Rise in Sea level on the coastal lowlands of the mediterranean sea. Geol. Surv. of the Netherlands, Harlem.
- King, C.A.M., (1972) : Beaches and Coasts. London.
- Lotfy, M.F., and Mousa, A.A., (1994) : Sediment Drift Patern in the Vicinity of Lake Idku - Mediterranean Sea Communication Outlet, Bull, Fac. Sciend, Univ. Alex, V. 34 No.1.
- Rashed, M.A., (1992) : Engineering - Geological Properties of Mediterranean Beach Sands Along Alexandria - Rashid Stretch, Egypt, Bull. Fac. Sci., Univ. Alex. V. 32.
- Ritter, D.F., Kochel, R.C., and Miller, J.R., (1995): Process Geomorphology, London.
- Said, R., (1981) : The Geological Evoluotion of the River Nile, springer, New York.
- Short, A.D., and Hesp, P.A., (1982) :Wave, Beach and Dune Interaction in Southeastern Australia, Marine Geol. Vol. 48, pp. 259 - 264.
- Sneh, A., et al., (1986) : Holocene Evolutaion of the Northeastern Corner of the Nile Delta. Quat. Res. vol. 26, pp. 194 - 206.
- SPA Egypt (1998) : Shore Protection and Nourishment system - The case of west Rosetta, Cairo.
- Stanley, D.J., (1988) : Subsidence in the Northeastern Nile Delta. Science vol. 240. pp. 495 - 500.
- Stanley, D.J., (1990) : Recent Subsidence and Northeast Tilting of the Nile Delta, Egypt. Marine Geol., vol. 94, pp. 147 - 154.

- Stanley, D.J., and Warne, A.G., (1993) : Nile Delta : Recent Geological Evolution and Human Impact. Science, Vol. 260.
- UNDP., (1978): Coastal Protection Studies. Technical Rep.Paris, vol .2.
- Viles, H., and spencer, T., (1999) : Coastal Problems : Geomorphology, Ecology and Society at the Coast, London.

الإجتماع

١

ارتداء الحجاب ونسق الضبط الاجتماعى فى المجتمع الريفى والحضرى
دراسة سوسيو أنثروبولوجية بين الطالبات الجامعيات

د. فائق محمد عبد الغفار شريف

أستاذ مساعد بقسم إجتماع

كلية الآداب - جامعة المنصورة

إهداء الحجاب ونسق الخطب الاجتماعي
د. فائق محمد عبد الغفار شريف

مقدمة

لقد شهدت السنوات الأخيرة تزايداً مستمراً لظاهرة إرتداء الحجاب بين النساء في المجتمع المصري، حيث انتشر بين أعداد كبيرة من النساء في مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية وفي الريف والحضر. ولقد تحول بعد ثلاثين عاماً من الصحو الإسلامية المعاصرة - والتي بدأت في السبعينات من القرن العشرين - إلى عرف سائد وتقليد متبع والتزام اجتماعي، كما أصبح زي المحجبات مفهوماً فضفاضاً مابين الزي الشرعي الذي ينادي به أصحاب التيارات الإسلامية والزي الواقعي المقبول اجتماعياً .

وتركز المناقشات والدراسات المعاصرة حول تأثير دور المرأة المميز في المجتمع المصري على الملابس كرمز للتعبير عن الذاتية أو الهوية سواء كانت لزياء إسلامية أو أزياء تميل للموضات الغربية والتي من المفترض أنها غير محتقمة، ولقد سجلت ملاحظات بعض الباحثين أن هناك بحثاً جديداً لإرتداء الزي الإسلامي بأشكاله المختلفة التقليدية والمعاصرة بين الإناث في المراحل التعليمية المختلفة والعلامات في المراكز الحضرية، كما أسهم إرتداء هذا الزي في تمهيد الطريق للمرأة للمشاركة في الحياة العامة والاتجاه للتعليم^(١) .

ولقد اهتم بعض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بظاهرة الحجاب في مصر، واهتموا لها تفسيرات شتى، فمنهم من ذكر أن السبب هو الارتقاء المفاجئ في معدل الحراك الاجتماعي، وكانوا يقصنون بذلك أن بعض الطبقات الاجتماعية التي حرمت نساؤها من فرص التعليم أو العمل خارج المنزل، حصلت على هذه الفرص فزاد اختلاطهن الاضطرابي بالرجال، على نحو لم يعتن عليه من قبل، فلجأن إلى الحجاب كنوع من الحماية لأنفسهن من نمط الحياة الجديد، ورحب رجالهن بالحجاب أو أجبروهن عليه لنفس السبب، ومنهم من ذهب إلى أن الظاهرة هي جزء من الصحو الجديدة للحركات الإسلامية، التي حدثت كرد فعل لهزيمة ١٩٦٧. وفشل كل من الاشتراكية والرأسمالية في

تقديم حل لمشاكل المجتمع، ومنهم من أشار إلى الهجرة للبلاد العربية النفطية كسبب محتمل لانتشار الحجاب في مصر، حيث تلتزم النساء بتلك البلاد برداء أكثر احتشاماً وهذا يؤدي إلى استمرارهن في ارتداء الزى إلا أن هذه التفسيرات لم تتعرض لتأثير نسق الضبط الاجتماعي السائد في المجتمع المحلي في انتشار ارتداء الحجاب سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة وخاصة بين الشابات الصغيرات في المرحلة الجامعية. إلا أن هذه المحاولات لتفسير الظاهرة تفسيراً اجتماعياً وسياسياً لم تتمتع بقبول واسع، ورفضت رفضاً باتاً من جانب الحركات الإسلامية الجديد^(٢).

ومن الأمور التي أثارت انتباه الباحثين والمهتمين بدراسة التيارات الإسلامية أو اتجاهات الجماعات الإسلامية، أن ظاهرة ارتداء المرأة للحجاب حالياً لاتماثل الأشكال التقليدية السابقة للتحجب، فلقد ارتبط في الماضي بتخلف المجتمع وجهل الإناث وخضوعهن للذكور، إلا أن نشاط تلك الجماعات برز من خلال الجامعات والنساء المتعلّمات في مجالات عديدة، وقد انعكس ذلك في انتشار ظاهرة الحجاب بينهن. وقد يرجع ذلك إلى أن العديد من تلك الجماعات تظهر قدر من المرونة في التشجيع على تعليم الإناث مما يعزز دورهن كأمهات، وفيما يتعلق بعملهن فإنهم يفضلون أن تعمل في مجالات التدريس والطب والتمريض ومجالات خدمة النساء الأخريات، وبالتالي يمكن تجنب الإختلاط بين الجنسين وما يحدثه من مشكلات^(٣).

ويؤكد دور كايم في كتاباته على أن الظواهر الاجتماعية إنما تصدر أساساً عن العقل أو الضمير الجمعي، الذي ينشأ عن تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض، وفي إطار هذا "العقل" الدور كايمي فيما يتعلق بالعقائد والعادات تامة للتكوين التي نرثها عن الأجيال السابقة فإننا نتقبلها ونرتضيها لأنها تمتاز بنوع خاص من الضبط الاجتماعي الذي عودتنا التربية والأسرة احترامه والخضوع له كأعضاء في المجتمع^(٤).

ومن خلال هذه الرؤية الدوركاديمية يمكن فهم طبيعة ظاهرة الحجاب التي تقوم على العقيدة الدينية وتنقل عبر الأجيال وتنشأ عن الضمير الجمعي حيث تنشأ الفتاة في المجتمعات المحلية عامة والجماعات الإسلامية خاصة، على الالتزام بالاحتشام أو ارتداء الزي الشرعي مثل نساء العائلة، وبعد نوعاً من الإلزام الاجتماعي، والخروج عليه قد يعرضها لبعض أساليب الضبط الاجتماعي غير المباشر كالإستهجان أو السخرية أو عدم الاحترام، إلا أن آراء دور كايم حول الإلزام الاجتماعي لأعضاء المجتمع تعرضت لنقد العديد من المفكرين والفلاسفة لتجاهله التيارات المضادة والتي قد تنمرد على فكرة الإلزام الجمعي أو تقاومها.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع الديني لا يتناول دراسة الجوانب الدينية إلا من خلال علاقتها بالظواهر الاجتماعية السائدة في جماعة أو مجتمع معين، وهي غالباً ما تكون دراسات وصفية تحليلية لما هو سائد في المجتمع، دون التعرض لأحكام الشريعة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتلك مجالات العلوم الدينية التي تعتمد على الكتب المقدسة والأحاديث النبوية والسير الدينية .

كما أعطي العديد من علماء الأنثروبولوجيا اهتماماً خاصاً لموضوع الرموز وارتباطها بالشعائر الدينية، ومحاولة فهم الأفكار التي تعبر عنها والتأثيرات المرتبطة بها باستخدام بعض المفاهيم الرمزية، أمثال ريموند فيرث R. Firth وجارفي Jarvie وكليفورد جريتز Clifford Greets الذي يرى أن الدين هو نسق من الرموز يعمل على وضع أنماط وصيغ سلوكية لها تأثيرها على الإنسان وتساعد على تماسك الجماعات وتربطها. ومما لا شك فيه فإن فهمنا لتلك الرموز الدينية يسهم في إلقاء الضوء على أهمية وظيفة الدين في نسق الضبط الاجتماعي^(٩).

لذا فإن تناولنا لظاهرة الحجاب لن يتعرض له كفرض ديني- فهذا مجال علماء الدين والشريعة- ولكن كرمز ديني وعرف سائد بين النساء، ومن خلال الرؤية السوسيوأنثروبولوجية سوف نعرض لدور نسق الضبط الاجتماعي في انتشار تلك الظاهرة، ونشأتها وتطورها والمتغيرات الاجتماعية والثقافية المؤثرة على الاتجاهات المتزايدة نحو ظاهرة الحجاب، وتأثير أساليب الضبط الاجتماعي في المجتمعات المحلية على مدى انتشارها .

مشكلة البحث

بالرغم من تزايد الاهتمام في الوقت الحالي بموضوع الحجاب، في الندوات والمناقشات والمقالات إلا أن أغلبها ركز على الأسباب والدوافع التي ساعدت على انتشاره، والصراع ما بين تيارات الجماعات الإسلامية التي تدعو النساء للحجاب كفرض ديني، واتجاهات التحرريين التي تدعو للسفور ومشاركة المرأة في أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ولن نتعرض الباحثة للجانب الديني، ومدى الإلتزام بالزي الشرعي كما حددته الشريعة الإسلامية، فهذا مجال رجال الدين والشريعة، ولكننا سوف تناقش تأثير أساليب الضبط الاجتماعي في المجتمع المحلي على تزايد الاتجاه نحو إرتداء الحجاب، ومدى ارتباطه بالحياء والإلتزام الخلقي وإكتساب احترام الآخرين. ولذا فإن مشكلة البحث تكمن في محاولة فهم التأثير المباشر وغير المباشر لأساليب الضبط الاجتماعي على إرتداء الحجاب بأشكاله المختلفة ما بين زي محتشم وزى شرعي ولتفسير التناقض ما بين ارتداء الحجاب كفرض ديني وعرف سائد.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على الآليات التي ساعدت على ارتداء الحجاب وتأثير أساليب الضبط الاجتماعي في انتشار تلك الظاهرة بين الطالبات الجامعيات سواء من بيئة ريفية أو حضرية، ومحاولة تفسير تعدد أشكال أزياء التحجب وواقع كل منها .

المفاهيم الأساسية

يرتكز هذا البحث على عدة مفاهيم محورية وهي الحجاب والخمار والنقاب والضبط الاجتماعي .

١- الحجاب

يعني الحجاب الساتر والحجب يعني المنع، وحجب الشيء أي ستره، وحجب فلان أي منعه من الدخول أو الميراث^(١) .

ومفهوم الحجاب في البحث كأحد أشكال التحجب وهو أكثرها انتشاراً وهو عبارة عن وشاح يغطي الشعر والرقبة، ومن ترتديه عادة ملابسها تغطي الذراعين والساقين، ويصل طول الجونلة إلى الكاحلين على أن تكون -أيضاً- البنطلون- فضفاضة ومن ترتدي على هذا النحو تسمى محجبة .

٢- الخمار

ويعد الخمار شكلاً آخر للتحجب وهو عبارة عن وشاح أكبر من السابق وله شكل مستدير، بحيث يغطي كل منطقة الصدر والأرداف، وعادة ماتكون مقدمة الخمار تغطي الجبهة أو جزء كبير منها، أما باقي أجزاء الخمار فعبارة عن رداء فضفاض ومن لون واحد وعادة تكون ألوانه أسود أو بني أو أزرق غامق أو رمادي قاتم ، وأحياناً ترتدي المرأة مع الخمار قفازين .

٣- النقاب

وهو الشكل الثالث من التحجب ويتكون من غطاء كامل للوجه مع وجو فتحتين صغيرتين للعينين، وهو ينسدل على الرداء الذي يصل طوله للأرض

وغير محدد المعالم ولونه أسود، كم ترتدي المرأة المنقبة ققازين من اللون الأسود وكذلك جورياً سمكاً. ويعد مفهوم النقاب من المفاهيم المستخدمة بين البدو في الشرق الأوسط وخاصة في المملكة السعودية ليشير إلى زي مشابه وليس مماثل له تماماً وهذا الزي المتزمت يعد تأويلاً أو طبقاً للتعاليم الإسلامية التي تقرر على المرأة تغطية جسدها بارتداء ثوب فضفاض ملائم وأن تخفي شعرها^(٧). ويمثل النقاب أكثر الأشكال تشدداً فيما يتعلق بشروط الحجاب.

٤- مفهوم الضبط الاجتماعي

يمكن القول بوجه عام أن مصطلح الضبط الاجتماعي Social control تستخدم أحيانا على نطاق واسع ليشير إلى كل أنماط القسر والقيود التي تقرر الامتثال للمعايير والعادات في المجتمع البشري وتميل دراسة الضبط الاجتماعي في الأنثروبولوجيا الوظيفية إلى التأكيد على الضبط كي يتحقق الامتثال كتعبير عن المصالح الجمعية^(٨).

ومما لا شك فيه أن كل المجتمعات الإنسانية تعرف بعضاً من المعايير أو القواعد العامة التي تقنن سلوك أعضائها في المواقف والمناشط الاجتماعية المختلفة، كما أنها تحدد للأعضاء ما يجب وما لا يجب عليهم سلوكه أو بمعنى آخر فهي تحدد لهم ما هو مقبول وما هو مرفوض أو مستهجن من جماعتهم أو مجتمعهم^(٩).

ويشير مفهوم الضبط الاجتماعي إلى مختلف العمليات التي تهدف إلى جعل سلوك الأفراد متوافقاً مع ثقافة المجتمع، ووفقاً للأنماط السلوكية المتعارف عليها اجتماعياً، وقد عرف بارك Park وبيرجس Burgess الضبط بأنه "تدخل في العملية الاجتماعية" وذهب بوجاردوس Bogardus إلى أنه الطريقة التي تنظم بها الجماعة سلوك أفرادها ويرى عالم الاجتماع الأمريكي بريلي Brearly أن الضبط لفظ عام يطلق على العمليات المخططة أو غير المخططة التي يمكن بواسطتها تعليم الأفراد وإقناعهم أو حتى إجبارهم على التوافق مع عادات

مجتمعهم وقيمه. وقد ذهب بارسونز Parsons إلى أن الضبط هو تلك العمليات أو الميكانيزمات التي تعارض الاتجاهات الإنحرافية وتصادرها لما لاير La Pier فقد نظر إلى الضبط على أنه البعد الثالث من مكونات السلوك الاجتماعي وهو مؤثر معياري في تحديد هذا السلوك كذلك عرفه جيرفتش Gurvitch بأنه الأنماط الثقافية والرموز الاجتماعية والقيم والمعاني والأفكار وكذلك المثل والأفعال والعمليات التي تستخدم للتغلب على التوترات والصراعات وإعادة التوازن^(١٠).

وإذا نظرنا إلى المجتمعات التقليدية بصفة عامة والجماعات الصغيرة بصفة خاصة، نجد فيها تطابقاً وتوافقاً واضحاً إلى حد بعيد بين أنماط السلوك السائد فيها، وبين القواعد المنظمة لهذا السلوك، ومن ثم يندر أن نجد تناقضاً بينهما، فالأشخاص يكتسبون أنماط سلوكهم من خلال تنشئتهم الاجتماعية في إطار من المعايير والأعراف السائدة في مجتمعهم، وليس لديهم مبررات مقنعة تكلفهم لانتهاكها في أغلب الأحيان^(١١).

والمفهوم الإجرائي للضبط الاجتماعي يتعلل في أنه العملية التي يتم من خلالها إلزام أعضاء المجتمع على التوافق مع العادات والقيم والمعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع المحلي والتي تنبع من التعاليم الدينية، وذلك من خلال إيداء الإستهجان أو الإتهاب أو العقاب أو ممارسة ضغوطا اجتماعية من قبل المجتمع لتحقيق ذلك التوافق.

الإجراءات المنهجية للبحث

١. المجال البشري: طالبات محجبات في كليات مختلفة بجامعة المنصورة من الطالبات الريفيات المقيمت بالقرى التابعة لمراكز محافظة الدقهلية، وطالبات يقمن بمدينة المنصورة أو مغتربات من المدن الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية

٢- المجال الزمني: استغرقت الدراسة الميدانية للعام الدراسي ٢٠٠٢/٢٠٠٣ علي مرحلتين الأولى من أكتوبر حتي نهاية ديسمبر سنة ٢٠٠٢م. والثانية من فبراير حتي منتصف شهر مايو ٢٠٠٣م

٣- مناهج وطرق البحث: استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي لأنه يتناسب مع طبيعة الموضوع ويحقق فهماً أفضل للظاهرة والعوامل التي ساعدت علي انتشارها. بجانب المنهج التاريخي لبحث تطور إرتداء الحجاب وتغير أشكاله ودوافعه، بالإضافة للمنهج المقارن بين الطالبات اللاتي يقمن في المناطق الريفية واللاتي يقمن في الحضر لبحث تأثير إختلاف البيئة- الريفية والحضرية علي نسق الضبط الاجتماعي فيما يتعلق بإرتداء الحجاب بين الطالبات وتحليل أوجه التشابه والإختلاف بينهما.

٤- أهم طرق البحث المستخدمة في الدراسة: تتمثل في الملاحظة المباشرة من خلال عمل الباحثة كعضو هيئة تدريس بالجامعة واتصالها المباشر بالطالبات، بالإضافة لإستخدام دليل العمل لإجراء مقابلات مقننة مع المبحوثات للتعرف علي رؤيتهن لمواصفات التحجب وتأثير نسق الضبط الاجتماعي في المجتمع علي انتشار الحجاب بين الفتيات بالإضافة للتصوير الفوتوغرافي لبعض الطالبات المحجبات الريفيات والحضرية لإستعراض الأشكال المختلفة لزي التحجب.

تساؤلات الدراسة

تستهدف الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية :-

- ١- ماهي المرحلة العمرية التي ارتدت الفتيات فيها الحجاب؟ وأسباب ذلك؟
- ٢- ما مدى إختلاف المحجبات الجامعيات الريفيات والحضرية في رؤيتهن للزي الشرعي؟ وماهي مواصفاته من وجهة نظرهن؟

- ٣- كيف استقبلت الأسرة والمحيطين بها ارتداء الفتاة للحجاب وما مدي تأثيرهم عليها؟ ماهي الأسباب والدوافع التي شجعتهم علي ارتداء الحجاب؟^١
- ٤- هل هناك مميزات اجتماعية إكتسبتها الطالبة بعد التحجب؟
- ٥- ماهي القيود التي يفرضها ارتداء الحجاب؟ وأهم المشكلات التي قد تواجهها الفتيات بعد الحجاب؟
- ٦- هل هناك مناسبات معينة أو اشخاص من غير المحارم لا تلتزم معهم بالحجاب؟ وماهي الأسباب؟
- ٧- كيف يؤثر نسق الضبط الاجتماعي علي التحجب بين الطالبات الريفيات والحضریات؟

الإطار النظري

وسوف نعرض لبعض القضايا الأساسية المرتبطة بموضوع البحث أهمها

- ١- للتطور التاريخي لظاهرة الحجاب
- ٢- الحجاب في الديانات السماوية
- ٣- المواصفات الاجتماعية والدينية للزوي الإسلامي
- ٤- نسق الضبط الاجتماعي في الإسلام
- ٥- الحجاب والحياء في نسق الضبط الاجتماعي

التطور التاريخي لارتداء الحجاب

تهدف دراسة البعد التاريخي إلي الكشف عن الدورة الكاملة لنشوء الحجاب وتراجعته ثم عودته كرمز من الرموز الإسلامية للمعاصرة. ذلك أن ارتداء الحجاب ذاته سابق علي الإسلام بقرون عديدة، وفي الشرق الأدنى كان الملوك الآشوريين Assyrian الأوائل يفرضون الحجاب والعزلة علي نسايتهم، أما لغاتيات والخاديمات فهن غير مطالبات بالتحجب، وقد يتعرضن للجلد إذا تمردن علي هذا القانون، كم أن إخفاء الوجه وعزل النساء كان سائدا في العديد من

المجتمعات في الماضي منها اليونان القديمة والمجتمع البيزنطي المسيحي، وفي فارس، وبين نساء طائفة الرجوتي Rajut وهي طبقة هندوسية عسكرية في الهند. وحين وصل الإسلام إلى بلاد عبيدة كان الحجاب سائداً في البعض منها، ولم يفرضه الإسلام إلا في العام الثاني الهجري .

وفي العصور الوسطى فرضت القوانين السائدة العزلة على المرأة، وتم منعها من ممارسة أي نشاط خارج المنزل، وكانت الإتجاهات الفكرية تؤيد هذه القوانين وتؤكد على ضرورة تحجب المرأة وإرتداء النقاب^(١٢).

كما خضع المجتمع من الناحية الاجتماعية لمجموعة من التقاليد في القرن الثامن عشر، ولعل أهم ما يتصل بتلك التقاليد الحرص على المرأة والحفاظ عليها وكانت النساء لا يخلعن نقابهن، وفي حالة السماح لأي رجل بالتحدث إليهن فلا بد أن يكون هناك ساتراً أو مانعاً أو وجود لحد الأخوة.

وكانت المرأة إذا خرجت من بيتها فينبغي أن تكون متدثرة بدثار كبير، فضفاض يسمى ثوب مع غطاء الوجه "البرقع"، وهو عبارة عن قطعة طويلة من قماش "الموصل" الأبيض تحجب الوجه كله ما عدا العينين، وبعض النساء يلبسن الحبرة لتغطية الجسم كله، وتعد هذه الملابس لإخفاء زينة المرأة وكل ما فيها من جاذبية وغالباً ما تكون ثياب الخروج متعبة مربكة للمشي، ولا تكشف المرأة إلا عن عينيها وأطراف أصابعها، حتى نساء الطبقات الشعبية لمتهكات دائماً في أعمال خارج منازلهن، فإنهن طيلة الوقت متحجبات بالبرقع، ولا يعتبرن ذلك إهانة بل إنه علامة على الاحترام. ويصف الجبرتي في تاريخه عن عام ١٨٠٠م بداية حركة سفور النساء في مصر وخروج المرأة أنه نتيجة مخالطة المصريين للفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر ومحاكاتهم في الزي والسلوك. وهكذا يردد الكثير من المؤرخين إن الحملة الفرنسية أحدثت في مصر ثورة نسائية أو حركة تحرير المرأة من خلال هؤلاء النساء اللاتي خرجن عن المألوف وجرين وراء تتبع أعمال الفرنسيات وتقليدهن.

وعلى الرغم من أن الجبرتي كان متقنًا ومتقبلًا لبعض وجوه الحضارة الفرنسية والاهتمام بالعلوم والآداب والتنظيم السياسي والنظام القضائي، والاهتمام بالتعمير العمران فإنه كان محافظًا تمامًا فيما يتصل بتغيير أوضاع المرأة الشخصية والاجتماعية، رافضًا كل الرفض لما كان يراه حوله من مظاهر الخروج على التقاليد والأخلاق المستقرة فهو يقول... ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء^(١٢).

وفي القرن التاسع عشر بنضل نمو الطبقة المتوسطة وانتشار الصناعة والاكتشافات العلمية التي أطلقت العقل الإنساني مما تمخض عنه عصر الثورات، كان له أثر كبير في نمو الشعور بالشخصية، وتقرير الحقوق الإنسانية وإلغاء الرق والامتيازات الطائفية والطبقية، وفي القضاء على الآراء والإيديولوجيات التي كانت تتادي بعدم المساواة بين الرجل والمرأة.

ولقد شهد مطلع القرن التاسع عشر بدء الزحف الاستعماري الغربي على للدول الإسلامية، وما لن انتصف القرن التاسع عشر حتى غدت معظم الأمم المسلمة تحت السيادة الاستعمارية. ولذا فإن أغلب النساء إتخذن من إرتداء زي الحجاب وسيلة دفاعية ضد الاتجاهات الغربية وكتعبير عن الإحتجاج الصامت، وتأكيد على الذاتية القومية ضد القيم والأنواق الغربية .

واستمر الحجاب في مصر ساترا لكل جسم المرأة مغطيا الوجه والرقبة والكتفين والصدر، ولستخدمت المرأة لذلك البرقع والحبره والبيشه والملاءة والأقنعة المغطية للوجه، حتى دعا قاسم أمين في عام ١٩١٢ إلى خلع الحجاب والسفور والتحرر من قيود هذه الأغطية وغيرها، وتعتبر دعوة قاسم أمين إلى الأخذ بالحضارة الغربية وقيمها بتأثير الغزو الثقافي الغربي الذي كان يلح على لشعب المصري محاكاة الفوق الأوربي في الملبس، والتخلي عن الحجاب تحقيقا لعملية التحديث وعلى الرغم من مقاومة للكثيرين في البداية لهذه الدعوة إلا أنها سرعان ما لقيت أنصاراً ومؤيدين لها من قيادات الحركة النسائية أمثال هدى

شعراوى وسيزا نبراوى وملك حفنى وغيرهن، حيث كن ينتمين إلى طبقة
أرستقراطية^(١٤).

ولقد نادت الكاتبة المصرية ملك حفنى ناصف بحق المرأة في التعليم
وحاجتها لمعرفة أفضل بالعالم المحيط بها وأن المرأة هي التي يجب أن تكافح في
سبيل نيل حقوقها ولا تخضع لإرادة الرجل في التحجب أو عدم التحجب لأن ذلك
إنعكاس لسلبية المرأة وفشلها في تحقيق مكانة أفضل أو المشاركة في الأنشطة
العامة للمجتمع^(١٥).

ولقد كان تغير الزي للنمطي التقليدي للمرأة فيما عرف بخلع الحجاب،
ولتجاه المرأة المصرية إلى السفور، معبرا عن تغير وضعها ودورها في المجتمع
حيث ارتبط السفور بالتعليم والعمل خارج محيط الأسرة والمشاركة في الحياة
العامة^(١٦).

وتعد قضية السفور والحجاب من أبرز قضايا المرأة في العصر الحديث وقد
تعرض الكثيرون لهذه القضية من أهمهم رفاة الطهطاوي والزهاوى ونجيب
حداد. وهناك من الأدباء من أخذ يقاوم التيارات التحررية للمرأة وسفورها ومن
اشهرهم مصطفى صائق الرافعى. كما أيد عبد الله النديم سياسة الحجاب والتمسك
بها وفي محاوراته بعنوان "مدرسة البنات" أيد تعليم البنات الدين وشئون الأسرة
وأصول الحياة الزوجية والتدبير المنزلي وعارض تعليمهن الموسيقى والرقص
واللغات الأجنبية^(١٧).

ويدافع قاسم أمين عن آرائه في تحرير المرأة وعدم ارتداء الحجاب بقوله لو
لم يكن في الحجاب عيب إلا أنه مضاف للحرية الإنسانية وأنه صار للمرأة إلى
حيث يستحيل عليها أن تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين
الوضعية في حكم القاصر، فلا تستطيع أن تباشر عملا ما بنفسها مع أن الشرع
يعترف لها في تدبير شئونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل، وجعلها
سجينة مع أن القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل. أنه لو لم يكن في

الحجاب إلا هذا العيب - لكفى وحده في مقتته وفي أن ينفر منه كل طبع غرز فيه الميل إلى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية ولكن الضرر الأعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو أنه يحول بين المرأة واستكمال تربيتها^(١٨).

ويرى المنتقدون لاتجاه قاسم أمين في تحرير المرأة أنه تطرف في مسألة الحجاب وأنه أشار برفعة تقليداً للعادات الغربية، وأن الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولا يترتب عليه ضرر، ولذلك ذهبوا إلى وجوب استبقائه والمحافظة عليه، وقالوا أن الذي حط بالمرأة عن منزلتها إنما هو عدم التربية، فلو تربت تربية حسنة لأمكنها وهي في الحجاب أن تقوم بواجباتها أحسن قيام، ويوضح قاسم أمين في كتابه المرأة الجديدة أن الخلاف بينه وبين المناظرين الآخرين يرجع إلى الاختلاف في فهم معنى التربية والتي تعني بالنسبة لهم التعلم في المدارس، بينما يرى قاسم أمين أن التربية محصلة التجارب ومزاولة الأعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الأمور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب وكل هذه الأشياء هي منابع حقيقية للعلم والأدب. والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفسي، لأن المرأة التي تعيش مسجونة في بيتها ولا تبصر العالم إلا من نوافذ الجدران أو من بين أستار العربة ولا تمشي إلا وهي كما قال الأمير على القاضي "ملتقة بكفن" لا يمكن أن تكون إنساناً حياً شاعراً خبيراً بأحوال الناس، قائراً على أن يعيش بينهم^(١٩).

ولقد انعكست آراء قاسم أمين على الحركات التحررية للمرأة والدعوة لنيل الحجاب والتي واكبت الحركات القومية للأستقلال والحكم الذاتي، ومما لا شك أن التغييرات التي طرأت على أدوار النساء في المجتمع كانت من الآليات التي أسهمت في الاستقلال للبلاد، ولقد لعبت التنظيمات النسائية دوراً بارزاً في تحرر النساء من الحجاب، وعلى الرغم من أن التحجب نقطة خلاف ثانوية في نضالهن لنيل حقوقهن السياسية والإصلاحات التشريعية، إلا أنها كانت رمزا لعزل المرأة وعدم السماح لها بالمشاركة في الأنشطة العامة للمجتمع.

إلا أن ظاهرة الحجاب برزت من جديد في أواخر الستينات بين بعض النساء، ثم ما لبثت أن لاقت بعض التأييد على المستوي الشعبي، للتأكيد على الهوية، وكرد فعل شعبي لنكسة ١٩٦٧ مع إسرائيل، وإدراك أن القصور ناتج عن عدم الإلتزام الديني وثمرة من ثمراته التخلي عن الحجاب كفرض ديني، وكانت العودة للدين والتعاليم الإسلامية وارتداء الحجاب لتدعيم الثقافة الإسلامية في مواجهة الثقافة الغربية من منطلق التميز والسمو^(٢٠).

ولقد مرت ظاهرة الحجاب المعاصرة بعدة مراحل انتقالية بعد سنة ١٩٧٠ وانتشرت في كل أنحاء العالم العربي والعالم الإسلامي وقد نشأت جماعات تدعو إلى إحياء النزعة الدينية كما حدث في الحركة الإسلامية في مصر في السبعينات ولقد تركزت جهود تلك الجماعات الإسلامية على ارتداء النساء المسلمات للزى الشرعي التقليدي ليميزهن عن النساء الدنيويات

في منتصف السبعينات أصبحت ظاهرة الحجاب ملحوظة في شوارع القاهرة بمصر. وفي البداية كانت الظاهرة غريبة على الملاحظين للمظهر العام للمصريات وكان الزى يبدو ملفتاً حتى بالنسبة للسكان المحليين ثم تزايدت أعداد النساء الحضريات اللاتي يرتدين الحجاب وخاصة الطالبات في الكليات المختلفة. وفي منتصف الثمانيات في مصر بدأت بعض النساء اللاتي يعارضن من البداية ارتداء الخمار - غطاء للرأس يغطي الشعر ويمتد أدنى الجبهة ويأتي تحت اللقن ويخفي الرقبة ويسقط ليغطي الصدر والظهر - بارتداء التيربون Turbon وهي اقبعة نسائية ضيقة تغطي جزءاً كبيراً من الشعر ويرجع ارتدائها إلى جذور تركية وهو يبدو أكثر أناقة، ويعد في مرتبة وسط بالنسبة لقضية غطاء الرأس ما بين الخمار والسفور^(٢١).

إن الحجاب أصبح في السنوات الأخيرة موضة، ورمزاً مميزاً للذاتية الإسلامية وخاصة فيما بين الفتيات الصغيرات، وعلى الرغم من تعرض البعض

منهن لمعارضة الأهل ورغبتهم في تأجيل قرار التحجب إلى ما بعد الزواج، إلا أنهن يتمسكهن بالزى الإسلامي^(٢٢).

وحالياً أصبح الزى الإسلامي غير منفت في المدن الكبرى وفي أنحاء مصر حيث ترتديه أغلب النساء من السكان المحليين، وعلى الرغم من حياد الدولة وعدم فرض إرتداء الحجاب على النساء، كما يوجد في بعض الدول الإسلامية إلا أن هناك انتشاراً ملحوظاً في كل من المراكز الحضرية والريفية^(٢٣).

الحجاب في الديانات السماوية

تعتبر ظاهرة الحجاب بين النساء من الظواهر الاجتماعية القديمة فلقد كانت معروفة من عهد إبراهيم عليه السلام بين العبرانيين، وظلت معروفة بينهم في أيام أنبيائهم إلى ما بعد ظهور المسيحية، وجاء الإسلام ليجد هذه الظاهرة في كل مكان، امتداداً للعادات المتوارثة فعمل على تهذيبها، وتقنينها بل وجعل من الحجاب أدباً مستحباً.

ولقد تكررت الإشارة إلى البرقع في غير كتاب من كتب العهد القديم وكتب العهد الجديد. ففي الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن "رفقة" أنها رفعت عينيها فرأت إسحاق "فنزلت عن الجمل وقالت للعبد:- من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائى؟ فقال العبد: هو سيدي فأخذت البرقع وتغضت " وفي الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين أيضاً أن تamar: "مضت وقعدت في بيت أبيها. ولما طال الزمان... خلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت..." وفي الإصحاح الثالث من سفر أشعيا أن الله سيعاقب بنات صهيون على تبرجهن والمباهاة برنين خلاخلهن بأن "ينزع عنهن زينة الخلاخل والصفائر والأهلة والحلق والأساور والبرقع والقصائب". ويقول بولس الرسول في رسالة كورنثوس الأولى أن النقاب شرف للمرأة.

وكانت المرأة عندهم تضع البرقع على وجهها حين تلقي الغرباء وتخلعه حين تتزوي في الدار بلباس الحداد. ولقد ذكرت الكتب الدينية التي يقروها غير المسلمين العديد من الآيات تناولت البرقع والعصائب^(٢٤).

وكان الحجاب يمارس بين الراهبات المسيحيات ولقد ذكر الحجاب في كل من العهد القديم والعهد الجديد وقد تناول الإنجيل الحجاب في أجزاء عديدة^(٢٥).

وفي القرن السابع عندما جاء الإسلام كانت المرأة تتمتع بقدرة من الحرية إلى حد كبير، ذلك إن علاقة الناس كانت تعتمد على حصانة القرابة أو النسب وكل شخص يعرف الآخر، ومعنى التحرش بالمرأة أو اغتصابها فإن ذلك يعنى ارتكاب الزنا بالمحارم والمرأة في المجتمعات القبلية تتعامل مع رجال القبيلة كأخوة لها .

إلا إن مفهوم الحجاب أو التحجب بدأ في الظهور كلما اقتربنا من المدن حيث نجد إن النساء في المدن غالباً ما تحجز في المساكن وتفاعلها الاجتماعي محدود وبالتالي هناك حدود أو سياج تمنع إختلاطها في الحياة المجتمعية ولذا فإن التحجب وخاصة بين نساء الحضر في الطبقات العليا من أجل حمايتهن من الأغراب في الأسواق والشوارع ، وطوال القرون انتشر الحجاب في باقي أنحاء المجتمع العربي والإسلامي^(٢٦).

كما أهتم الإسلام بموضوع المرأة وانزل الله من أجل المرأة آيات بل سميت سورة في القرآن باسم النساء وبين الله في كتابه وعلى لسان رسوله الأحكام المتعلقة بالمرأة، والحجاب فريضة إسلامية بصريح نصوص القرآن والسنة وإجماع العلماء المسلمين، ومن الآيات القرآنية التي تناولت الزي الإسلامي وشروطه قوله تعالى "يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً"^(٢٧). وقوله تعالى "وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم". "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين

زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو إبنائهن أو أخواتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون^(٢٨).

المواصفات الاجتماعية والدينية للزى الإسلامي

على الرغم من أن الحجاب فرض ديني على المسلمات إلا أنه أيضا يعد أحد رموز العالم الإسلامي، وقد اتخذ مزيداً من الاتساع وأصبح بالنسبة لكثير من النساء المسلمات وسيلة دفاع عن القيم التقليدية والإسلامية في مواجهة التيارات الغربية ويعد انعكاس للفكر الإسلامي. وهو يلعب دوراً هاماً كرمز محوري في المجتمعات الإسلامية والتزام ديني على المسلمين فقد تناول القرآن ملابس المرأة مفصلاً لحدودها، فيبين ما يحل كشفه وما يجب سترة فهو يقول "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَعْرِفْنَ فَلَ يُوْذِينَ ۚ" "ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن .."

ويؤكد علماء الفكر الإسلامي على أن للحجاب وظيفة وهي السترة والحشمة، وليس رمزا للمسلمات فقط، لأنهن يرتدين الحجاب ليس للأعلان عن النفس والدين ولكن طاعة لأوامر الله تعالى.

كما يشير الزى الإسلامي في الشوارع المصرية أحيانا إلى رؤية دينية متشددة، وأحيانا أخرى إلى أحدث الموديلات، ومن المعالم الأساسية للزى بين الجماعات الإسلامية أنه يتكون من جلباب طويل يغطي من العنق حتى الأقدام وله أكمام كما أنه مصنوع من قماش سميك من القطن أو الصوف والولائه

متدرجة ومحددة في اللون البني والأزرق والرمادي، وعلى الرأس غطاء يسمى (خمار) مصنوع من قماش متوسط السمك لونه أبيض أو لون فاتح يغطي جزءاً من الجبهة وكل الشعر ويطوق الوجه بشكل بيضاوي ويغطي منطقة الرقبة والصدر، وأحياناً يأخذ شكلاً متطرفاً حيث تضع النساء النقاب على الوجه لتغطيته تماماً مع عمل فتحة للعينين وكذلك ارتداء القفاز. وهناك شكل آخر للزي الإسلامي أو الحجاب وهو ليس متشدداً عبارة عن زي للنساء طويل مكون من جونلة أو بنطلون وبلوزة وألوانه مبهجة مع إيشارب يغطي الشعر والرقبة، وغالباً ما يحدد المعالم الفيزيائية لمرتديات الزي نوعاً ما، ويعطى قدراً أكبر من الحرية في استخدام الألوان والموديلات.

تعد الملابس النضفاضة Loose clothes نمطاً للالتزام والتمسك بالتقاليد المحافظة والتي تتمثل في طول الرداء والطرحه سمائيح أو يسمح للمصلين سهولة أداء الصلاة والسجود Prostration والاحتناء والركوع والتي من الصعب أدائها بملابس ضيقة أو ملاصقة للجسم^(٢٩).

ويحدد الإسلام السن التي تبدأ بها المرأة في الاحتشام في السن الذي يحدث فيه الحيض، كما روي عن الرسول (ص) أنه قال "يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يري منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه". وحتى لو كانت المرأة عجوزاً لا رغبة لها ولا رغبة فيها يقول الله تعالى "والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح إن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن"^(٣٠).

ولقد أثارت ظاهرة ارتداء الزي الشرعي بين المسلمات نقاط خلاف بين علماء المسلمين منحصر في هل يكشف وجه المرأة ويديها أم لا ؟ وهل ارتداء النقاب فرض على المسلمات لأن للوجه فتنة ؟ أم فضل ترتديه من ترغيب ولا تأثم من لا ترتديه ؟

والدين الإسلامي يأمر النساء بالحياء وإرتداء زي محتشم لا يكشف عن مفاتيها أو معالم جسمها، ولكن مواصفات هذا الزي يختلف بين المجتمعات الإسلامية طبقاً للثقافة والعقيدة السائدة في كل منها . إلا أن التفسيرات الشرعية للزي الإسلامي يتمثل في طول الثوب وغطاء الرأس الذي ترتديه الكثير من النساء المسلمات، وهو من الموضوعات المثيرة للنقاش حول سمات الحجاب الشرعي والشروط التي يجب توافرها فيه.

ولقد نشرت رابطة الدارسين المسلمين في الولايات المتحدة وكندا نشرها كتيب عن متطلبات الزي للمرأة المسلمة طبقاً للقرآن وهي في أربعة شروط يجب الالتزام بها: الأولى تتعلق بمدى الغطاء وذلك أن الجسد كله يجب أن يغطي ما عدا الوجه والكفين لأن هناك ظروف تفرض الكشف عنهم، وكذلك التحكم في نزعة التباهي بالثوب، كما يجب على المرأة المسلمة أن تحرص إلا يراها الآخرون بدون حجاب .

الثانية أن الثوب يجب أن يكون فضفاضاً بحيث لا يحدد شكل جسد المرأة والأفضل أن ترتدي عباءة ملائمة لتغطي معالم الجسم كله.

الثالثة أن الثوب يجب أن يكون من قماش سميك غير شفاف حتي لا يشف ما تحت الثوب.

الرابعة يجب أن يكون محتشماً ولا يلفت أنظار الرجال. بالإضافة إلى أن الزي الإسلامي يجب ألا يتشابه مع الرجل ولا مع زي الكافرين ولا يعكس إلى حد ما المكانة الاجتماعية للمرأة التي ترتديه سواء كانت غنية أو فقيرة^(٢١).

وأهم شروط الحجاب الشرعي كما يحدده علماء الدين هي :-

استيعاب جميع البدن إلا ما استثنى وهما الوجه والكفان .

ألا يكون الثوب نفسه زينة مزخرفاً ومزركشاً بألوان عديدة .

أن يكون فضفاضاً غير ضيق ولا شفافاً كاشفاً للبشرة .

ألا يكون الثوب معطراً فيه إثارة للرجال .

ألا يكون الثوب فيه تشبه بملابس الرجال .

إلا يشبه زى الكافرات من حيث الموديلات والموضة .

ألا يكون ثوب شهرة فلا يكون غالي الثمن باهظ القيمة (٣٢) .

وتختلف مواصفات الزى الإسلامي بين الدول الإسلامية طبقا للثقافة والبيئة السائدة في كل منها ، ولكنها تتفق على ضرورة أن يكون محتشم لا يكشف عن مفاتن المرأة أو معالمها الفيزيائية .

كما إن التشدد في إرتداء الحجاب ليس بنفس الدرجة في كل مكان ، ففي بعض البلدان كمصر تكتفي أغلب النساء المسلمات، بما يدعى "الحجاب الإسلامي" وهو نوع من لفحة محكمة تطوق الوجه بدون أن تخفيه، لكنها تخفي الشعر وجلباب طويل يغطي الذراعين والرجلين، بدون أن تعيقها، بينما في مناطق أخرى، مثلا في أرياف العراق النائية "العباية" تخفي المرأة تماما، وترتدي نساء مدينة الجزائر ما يعرف باسم "الحيك" الأبيض وهو كماش طويل مشلوح على الشعر، وأحيانا يمسك بالأسنان حين تكون انزع النساء مشغولة بأعمال، كما أن أسفل الوجه مخفي وراء منديل، لكن بعض مناطق الجزائر الشرقية تفضل الحجاب الأسود، وهو رداء طويل يخبئ الجسم والوجه، حيث تترك إحدى العينين مكشوفة وفي المزاب اللباس أكثر صرامة أيضا، والنساء غير مكتفيات بأنهن متحجبات تماما، يدرن رؤوسهن حين يصادقهن رجلا (٣٣) .

ويختلف الحجاب الإسلامي في مصر عن الزى الإسلامي في إيران، حيث أن Chador أو الزى الإسلامي الإيراني عبارة عن نقاب أسود يغطي الرأس حتى القدم وترتديه النساء في الريف والحضر التقليدية قبل الثورة، وقد أداته شاه إيران ثم فرضته الثورة الإيرانية على النساء، كما أن هناك اختلافات بين الزى الإسلامي للمرأة في مختلف البلاد العربية ويرجع ذلك إلى انقسامها إلى بلاد الخليج وتشمل السعودية والكويت والعراق والبحرين وهم أصحاب الاتجاه المحافظ ثم شمال إفريقيا مثل ليبيا ومصر وبلاد المغرب العربي وهي دول تجمع

بين التيارات الدينية المحافظة والمتحررة الغربية، وبلاد الشرق ويشمل لبنان والأردن وسوريا وفلسطين وهي أكثر ميلا في محاكاة الغرب في الأزياء^(٣٤). وهناك شعوب مثل أفغانستان تفرض على النساء إرتداء البرقع الأزرق، وتعاقب من تكشف عن كاحلها، بينما في تونس فإن الفتاة محرم عليها إرتداء غطاء الرأس في المدرسة. كما أن إرتداء النقاب قد يقتصر على الطبقة العليا، أو قد يعني الإنتماء لطبقة أدنى، وقد يمثل الإتجاه المحافظ أو المتشدد^(٣٥).

وتواجه المرأة في المجتمعات الإسلامية نوعا من التضارب الثقافي الذي ترتب على التغييرات الجذرية التي تتعرض لها تلك المجتمعات، وهو وضع ينشأ من ناحية عن استمرار التمسك أو الشعور بالالتزام بالقيم الدينية التي تحيط جسم المرأة بتحريمات تجعل منه غيما عدا الوجه واليدين - عورة ينبغي سترها، والناتج بما يعرف بالتحضر أو التمدن أو التطور وما يفرضه من متابعة لخطوط الموضة في اختيارها من ناحية أخرى^(٣٦).

فلقد لعبت الأيديولوجية الجديدة دورا هاما في ظهور كثير من الإبداعات التي طرأت على الأنماط التقليدية ولذا نجد أنه على الرغم من وجود أشكال تقليدية للحجاب فإن هناك حجاب إسلامي حديث ومعاصر منتشر بين الفتيات والنساء وهو عبارة عن غطاء للرأس يخفي الشعر والرقبة وملابس رغم أنها تغطي الجسم إلا أنها تكشف عن الملامح الفيزيائية للمرأة. ويرى أصحاب للتيارات الإسلامية أن هذا الزي المعاصر يعد تهديد للهوية الإسلامية لأنه يفتقد لشروط الحجاب كما حددتها الشريعة الإسلامية والتي تتبع من الحياء الذي يكمن في سلوك النساء ومظهرهن وزيهن^(٣٧).

نسق الضبط الاجتماعي في الإسلام

يلعب الدين دورا هاما في نسق الضبط الاجتماعي، حيث يضع لأعضاء المجتمع الأحكام والشرائع التي تنظم السلوك والعلاقات كما يحدد في كثير من

الأحيان العقوبات التي يجب توقيعها علي من يخرق التعاليم الدينية أو يخرج علي أوامرها^(٣٨).

ومما لا شك فيه أن فكرة العقاب والعذاب التي تولف ركنا هاما في الدين تسهم إلي حد كبير في تحقيق التوازن في السلوك وبالتالي إقرار النظام في المجتمع. والضبط الاجتماعي عملية تمارسها كل التجمعات البشرية، وشأن كل نظام يعد الضبط الاجتماعي وسيلة لتحقيق الالتزام بالتقاليد المرعية وعدم الخروج عليها، وأي إنحراف من أعضاء الجماعة أو المجتمع عن المعايير التي تحددها الجماعة للأنماط المتوقعة لسلوك أعضائها يترتب عليه تعرضهم لأنماط مختلفة من الجزاءات الاجتماعية^(٣٩).

ولكن يمكننا أن نتصور الأهمية النسبية للضبط الاجتماعي في ظل الثقافة العربية الإسلامية، فبينما تلعب العادات والتقاليد دورا هاما في نسق الضبط الاجتماعي لأغلب الثقافات، نجد أن معظم المجتمعات الإسلامية تمنح كل ما هو مقدس مكانة رفيعة في نسق الضبط الاجتماعي^(٤٠).

وتظل عملية الضبط الاجتماعي في الإسلام في مقدمة المبادئ التي يلح المشرع الإسلامي عليها ما دلم هدفه الإسلامي - أساسا - هو المجتمع "العبادي" وهو مجتمع لا يمكن أن يحقق توازنه وأمنه إلا من خلال تنشئة أعضائه وفقا للتعاليم الدينية ومن ثم ضبطه عن الانحراف عنها، حيث أن التنشئة من جانب والجزاء من جانب آخر يتكفلان بتعديل السلوك الذاتي والمنحرف أو ضبطه. ويتيح الإسلام فرصا لتعديل سلوك المسلم حتى لا يصل الأمر إلي مرحلة الجزاء وهو ما يتمثل في مفهوم (التوبة) التي يطالب المشرع الإسلامي بالتوفر عليها دون الحاجة إلى ممارسة الجزاء في إطار العلاقة الرئيسية بين الله تعالى والعبد وبما تفرضه من تلقائية في تعديل السلوك^(٤١).

إن ما يعنينا من ظاهرة (الضبط الاجتماعي) في الإسلام أن نشير إلي أن الشطر الأولي من عملية الضبط وهو التنشئة التي تفرض فاعليتها في صياغة

المجتمع المتوازن من حيث كونها تصاغ وفق مبادئ يتم التشرب بها من خلال قناعة و يقين بـ "كمال المصدر" الذي تستمد المبادئ منه (العلاقة الرئيسية بين الله تعالى والانسان) مضافاً إلى إن معرفة ذلك تقترن بتقدير وبجزاء خاص يجعلان الالتزام بالأوامر الدينية مصحوباً بفاعلية لا سبيل إلى التشكيك بها .

والشريعة الإسلامية هي جملة الأوامر الإلهية التي تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهي تشمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية وعلي تفاصيل أداب الطهارة وصور التحية وأداب الأكل والزى الشرعي والحياء وغيرها من الأمور التي تنظم حياة المسلمين^(٤٢).

وتأثير نسق الضبط الاجتماعي علي ارتداء الحجاب يكمن في مدي الإلتزام بالقواعد الشرعية للزي الإسلامي وينعكس ذلك الإلتزام في دوافع التحجب وفي أشكاله المختلفة، فقد يكون ارتداء الحجاب كعرف سائد في المجتمع أو فرضاً من قِبل المدرسة أو الأهل وليس بوازع ديني، ولذا نجد تناقضاً بين السلوكيات والمظهر المحتشم، لو يكون بدافع ديني وكعرف سائد بين نساء المجتمع، وبالتالي لا يوجد تناقض بين الزي والسلوك المتواءم مع المعايير والقيم السائدة في المجتمع، وعامة فإن إقتران الحجاب بالإلتزام العام للشرع ، يؤدي لإتضباط بين السلوك الديني والزي .

الحجاب والحياء في نسق الضبط الاجتماعي

بعد الحياء أحد المعايير الأساسية للسمات الشخصية للمؤمن، لأنه من أقوى الدعامات الخلقية، ويستند دستور الحياء إلى الشريعة الإسلامية، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية تربط بين الحياء والإيمان^(٤٣) .

ويرتبط الحياء بحجب أجزاء معينة من الجسم وكثير من الآيات القرآنية التي تنصح بالحياء أو الحجاب كانت موجهة لأهل بيت الرسول(ص)، الذين يعدوا قدوة للمؤمنين، ونماذج مثالية للسلوك القويم ولذا فإن هذه المعايير التي وضعها القرآن الكريم موجهة إلى جميع المسلمين.

كما يرتبط الحياء بنسق الضبط الاجتماعي الذي يركز على الحماية والمحافظة على المرأة والذي يتحقق بإرتداءها الحجاب كسائر لمفاتها. ولذا يسعى دستور الحياء بأساليب الضبط الاجتماعي الرسمية وغير الرسمية للمحافظة على العرف والقيم الاجتماعية التي تحتل على الشرف والأخلاق، وتعد للمرأة أول من يتحمل مسؤولية انتهاك الحياء والخروج على المعايير السائدة في المجتمعات الإسلامية وذلك في حالة الكشف عن مفاتها والتبرج والحث على الغواية .

وفي دراسة لريتشارد انطون لقرية كفر علما كشف عن ارتباط فكرة الحياء بالالتزام بالحجاب، حيث تعد المرأة المحجبة بمثابة نموذج للشرف، على اعتبار أن الشرف يكون كاملاً عندما تغطي المرأة جسمها تماماً بالملابس بينما ينقص عندما تكشف عن جسمها، الذي يتعرض بذلك للانتهاك فالكشاف المرأة إنما يمثل قمة عثم الاستحياء، كما انه يعنى فقدان الشرف نظراً لخروجها على المعايير الخاصة بستر العورة، فالتحجب للمرأة المسلمة يعكس إلتزامها الديني ويجعلها جديرة بالإحترام من الآخرين^(٤٤).

أن خروج المرأة المسلمة للتعليم والعمل والاختلاط بالرجال الأغراب يتطلب ميكانيزم لحمايتها والمحافظة على حياتها، ويفرض الحجاب على الآخرين معاملة من ترتديه بإحترام، كما يؤكد لأعضاء المجتمع المحلي أنها امرأة تقليدية تحافظ على دورها التقليدي نحو أسرتها وإن الهدف من خروجها للشارع هو الحصول على شهادة علمية أو ممارسة العمل لمعاونة أسرتها وليس لرغبة شخصية في الاستعراض لمفاتها^(٤٥).

وأن كانت هذه الرؤية تتعارض مع الأفكار المحافظة التي يتبناها الرجال في الجماعات الإسلامية والتي يشكل خروج المرأة للمجتمع سواء للتعليم أو العمل تعارضاً مع الحياء والاحتشام ولذا فهم يفضلون عونها للبقاء في المنزل^(٤٦).

إلا أن مناداة "الإسلاميين" بعودة المرأة لأدوارها كزوجة وأم، لا يعد بأي حال مماثلاً لما يمكن اعتباره أدواراً تقليدية، ذلك أن هذه الأدوار اتخذت أبعاداً متغيرة في القرن العشرين، وأصبحت المرأة تجمع بين هذه الأدوار وممارستها في المجالات العامة التي أصبحت محور اهتمامها نتيجة التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي اجتاحت العالم عامة والمجتمع المصري خاصة^(٤٧).

وعلى الرغم من إعلان الجماعات الإسلامية أنها ليست ضد أن تحصل المرأة على فرص التعليم لأعلى درجة علمية، إلا أنهم يؤكدون على أن الوضع الأفضل للمرأة يكون في المنزل وإلتزامها الأول تجاه زوجها وتنشئة أطفالها تنشئة إسلامية صحيحة، ويجب أن يكون خروجها للعمل تلبية لإحتياجات ضرورية، كما تؤكد تلك الجماعات على ضرورة تحجب المرأة لحمايتها والمحافظة على القيم الدينية للمجتمع^(٤٨).

الدراسات السابقة

على الرغم من انتشار ظاهرة الحجاب في العقدين السابقين بصورة ملفتة للنظر سواء في المجتمع المصري، أو المجتمعات العربية والإسلامية - والتي لا تفرض حكومتها ارتداء الزي الإسلامي على نساءها - فإن الاهتمام الأكاديمي بدراسة هذه الظاهرة لازال محدوداً لا يتناسب مع حجم الظاهرة أو كم المقالات والمناقشات التي تتناولها وسائل الإعلام المختلفة. وسوف نستعرض أهم تلك الدراسات - من وجهة نظر الباحثة - التي تعرضت لظاهرة الحجاب في مصر.

١- بحث قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بعنوان ظاهرة الحجاب بين الجامعات في الفترة من يناير ١٩٨١ - حتى أكتوبر ١٩٨٣ وقد تم نشره في تقريرين خلال عام ١٩٨٤ حيث طبق هذا البحث على عينة من الطالبات الملتحقات بجامعات عين شمس والقاهرة والأزهر يدرسن بكليات نظرية وعملية بمدينة القاهرة فقط وقد استهدفت الدراسة التعرف على مدى تأثير نوعية الدراسة الجامعية على اتجاه الطالبات نحو التحجب ومعرفة أثر

مجتمع الجامعة في توجيه سلوك الطالبات حيث ضمت عينة البحث طالبات في السنوات الأولى والنهائية للدراسة وانعكاسات البيئة الاجتماعية والتشنة الاجتماعية للمحجبات على اتخاذهن لقرار الحجاب ومن أهم نتائج الدراسة أن رجال الدين هم المصدر الأساسي للثقافة الدينية للمحجبات مما أدى إلى وجود خط فكري واحد بين أرائهن.

وقصور دور الصحافة في الإعلام الديني وتتفق معظمهن على عدم رؤيتهن للعروض السينمائية لخروجها عن القيم الدينية. وأن تعليم الفتاة أمر ضروري لإعدادها لتكون زوجة صالحة أساساً، ولم تزد نسبة من يوافقن على عمل المرأة خارج البيت عن ثلث العينة وقد أشرن إن مهنتي الطب والتدريس هما المجال الملائم لعمل المرأة. والغالبية يفضلن أن تكون العلاقة بينهن وزملائهن علاقة محايدة، كما أنهن يؤثرن التعامل مع النساء في الحياة اليومية. وتزيد معظم المبحوثات من المحجبات المساواة بين الرجل والمرأة وأن كان حوالي الثلث يرفضن وصول المرأة إلى أعلى المناصب المتاحة مثل الرجل .

من أهم أسباب إرثاء هذا الزي الإحتشام والحياء والاقتصاد في التكاليف، والتبعض يرى إنها موضحة سائدة، ونسبة ضئيلة ترتدي الحجاب لأنه يوفر الذهاب لمصنف الشعر، وأقل نسبة ذكرت أن تحرش الرجال بالنساء المحجبات يكون أقل ونظرتهم تكون أكثر احتراماً لهن^(١٩).

٢- كما قدمت الأنثروبولوجية فدوى الجندى دراسة عن التهجيب Veiling تناولت فيه الحياء والإحتشام وتأثير كل من التيارات الدينية والإتجاهات الدنيوية المقاومة للحجاب، وقد تمت الدراسة في مدينة القاهرة سنة ١٩٩٥ ثم استكملتها بملاحظات سجلتها عن أشكال الحجاب في بعض المجتمعات العربية وجنوب آسيا والأندلس بأسبانيا وقد دعم البحث مركز الدراسات الإفريقية UCLSA ومؤسسة فورد، بالإضافة لمنحة من برنامج فولبرايت الأمريكي. واعتمدت دراستها على المنهج الوصفي التحليلي والمادة التاريخية

والملاحظة الشخصية والصور الفوتوغرافية، بالإضافة إلى الاستعانة بالكتب المتقدمة والتفسيرات الدينية وتستعرض الدراسة تطور ظاهرة الحجاب عبر التاريخ والتشابه بين زى المحجبات وزى الراهبات المسيحيات وخاصة الكاثوليك، كما تناولت تأثير الحركات النسائية والتيارات الجديدة علي تحرير المرأة في منتصف القرن التاسع عشر، وأهم الشخصيات النسائية المصرية التي تمردت على الحجاب مثل هدى شعراوي ونبوية موسى وسيزا نبراوي وغيرهن. وكذلك دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة كما سجلت الدراسة ظاهرة الحجاب ومدى انتشارها منذ منتصف السبعينات، وكذلك الاختلاف في أشكال الزى الإسلامي بين المسلمات في مصر من جانب وبين حجاب المسلمات في بعض الدول العربية والإسلامية من جانب آخر، حيث يعد الحجاب رمزا محوريا للمسلمات يعبر عن هويتهن .

وتستعرض فدوي الجندي في دراستها دور النشاط في الجماعات الإسلامية وجهودهم في الدعوة لإحياء النزعة الدينية والتي تستند على الآيات القرآنية والسنة النبوية في انتشار ظاهرة الحجاب والنقاب بين النساء المسلمات. ونشاط الحركات النسائية والديويين الذي يشير إلى أي مدى تهدد هذه النزعة الإسلامية الوضع الأيديولوجي لهم في المجتمع، وتري الباحثة أن فهم كل أبعاد ظاهرة الحجاب لا يمكن حصرها في الدراسة، ذلك إن دوافع التحجب وأسبابه ودمتور الحياء المرتبط بالتحجب، غير مرئي أو ملموس وهو كامن في النفوس^(٥٠) .

٣- والدراسة التالية قام بها السيد عبد الفتاح عفيفي عن الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية لعودة ظاهرة الحجاب ولقد شملت الدراسة عينة عشوائية منتظمة من الطالبات المحجبات عددهن مائة، وعينة أخرى مائة من الطالبات غير المحجبات، في كلية الخدمة الاجتماعية بالقويس، وقد اعتمد الباحث علي استمارة المقابلة لكل عينة، كما استخدم المنهج التاريخي والمنهج المقارن.

كما ركز الباحث على مفهوم التحديث ومحاكاة الغرب، وتأثيره على التغيير الثقافي، وكذلك مفهوم الأعتراب وصلته بالعودة لظاهرة الحجاب وأسباب انتشار الحجاب كظاهرة لاجتماعية.

وأهم نتائج الدراسة تتعلق بتأثير عامل المحاكاة والتقليد بين الفتيات في الإقبال على إرتداء الحجاب، وبروز الظاهرة بين مختلف الفئات العمرية الثلاث وإن سبب اقتناعهن بإرتداء الحجاب يرجع إلى أنه الزى الشرعي للإسلام كما أنه يوقف تعرضهن لمضايقة الشباب.

ولقد أثبتت نتائج البحث أن بروز ظاهرة الحجاب مرة أخرى ما هو إلا انعكاس لصحوة الأحياء الديني التي عمت كل شرائح المجتمع المصري وفئاته منذ مطلع السبعينات، وأنه لاعلاقة بينها وبين الهزيمة العسكرية لمصر في نكسة ١٩٦٧ كما أوضحت ذلك أغلب عينة المحجبات ونفي عينة غير المحجبات وجود مثل هذه العلاقة على الإطلاق^(٥١).

٤- وفي دراسة قامت بها ماكلاود Macleod عن النساء العاملات والحجاب الجديد والتغير في القاهرة، تناولت الأسباب التي دعت النساء الشابات العاملات في مدينة القاهرة إلى العودة لإرتداء الحجاب بعد أن تخلى عنه منذ عدة عقود، فقد لاحظت انتشار ظاهرة الحجاب في الشوارع، وارتبطت الكثيرات منهن بالجماعات الإسلامية، التي تنادي بالعودة إلى القيم الإسلامية السلفية، إلا أن ذلك يتعارض مع مساهمتهم في الحياة العامة بالالتحاق بالمدارس والجامعات وممارسة مهن عديدة، كما تخصصت بعض محلات الأزياء في إعداد الملابس لهن. وخلال أكثر من خمس سنوات (١٩٨٣-١٩٨٨)، أجرت الباحثة دراسات حالة على عينة من نساء الطبقة المتوسطة الدنيا، وعقدت مقابلات مع ٢٨ عائلة و ١١٠ سيدة، ركزت فيها على العمل والحجاب والعلاقات داخل الأسرة ومواقع العمل. ومن أهم نتائج تلك الدراسة تتمثل في أن جميع النساء والرجال يزكون على الدور الأساسي للمرأة

كزوجة ولم وأن عليها طاعة الزوج وطلب الأذن عند ترك المنزل لأي سبب. وكانت الحاجة الاقتصادية هي السبب الرئيسي لعمل المرأة وليس بدافع حقهن في المساواة مع الرجال أو تنمية ذواتهن. كما أن نسبة كبيرة منهن تعتقد أن عمل المرأة محرم في الإسلام ولكنهن مرغبات بسبب الضغوط الاقتصادية. وتخلص ما كلاود إلى القول أن الحجاب قادر على أن يحمل معان كثيرة بالنسبة للنساء الطبقة الوسطى - الدنيا فهو يشكل رمزاً يعبر عن مشاعر الارتباك والصراع التي يعاينها بين أدوارهن الطبيعية وتجربتهن الجديدة في العمل خارج المنزل، وهو يخدم حاجتهن لردم الهوة بين التقاليد والقيم التي تجبرهن على البقاء في المنزل وبين السلوكيات التي تفرضها الحياة المعاصرة، فالحجاب وسيلة اتصال تحمل رسائل معينة إلى الآخرين تستعملها النساء كمؤثر على هويتهن الثقافية وكوسيلة حماية بحيث يصبح خروجهن للعمل أمراً مقبولاً اجتماعياً، أو كموضة أو وسيلة جذب لبعض الرجال الذين يفضلون الإرتباط بفتاة محجبة، وتعلق الباحثة في نهاية الدراسة، على أن هذا الوضع يكرس اختلاف الأنوار بين الجنسين وعدم المساواة بينهما^(٥٢).

٥- دراسة قامت بها ليلى هاتم على العاصي للحصول على درجة الدكتوراة بعنوان ظاهرة تحجب المرأة في المجتمع المصري وآثارها ودوافعها حيث قامت الباحثة بدراسة عينتين حجم كل عينة ١٥٠ حالة تضم ثلاث فئات من طالبات جامعة عين شمس وموظفات جامعة عين شمس ومن ربات البيوت بحي حلمية الزيتون بالقاهرة كل فئة ٥٠ حالة والعينة الثانية من غير المحجبات بنفس الحجم والفئات السابقة، وقد اعتمدت الباحثة على استمارة مقابلة للمبحوثات، وتعرضت الدراسة لمدى الالتزام بالشعائر الدينية وروية المبحوثات لنظرة المجتمع للمحجبات ونظرة الرجل للمرأة المحجبة والأنوار الاجتماعية التقليدية للمرأة.

وقد وجدت الدراسة أن المحجبات أكثر حرصاً للتمسك بالشعائر الدينية كالصلاة والصوم من غير المحجبات وأن هناك علاقة سلبية بين التحجب والمستوى الاقتصادي للمرأة وارتباط الحجاب ببعض الدوافع النفسية، وحرص المرأة على ممارسة الأدوار الاجتماعية التقليدية^(٥٣).

٦- وفي دراسة لأندريا راف Andrea Rugh بعنوان الزي والعقيدة، تناول فيها إرتداء كل من الحجاب والأزياء المكشوفة التي ترتديها الفتيات والنساء المصريات سواء كن من أصول ريفية أو حضرية في الأحياء المختلفة بالقاهرة. واعتمد الباحث في جمع المادة الميدانية علي طرق المقابلة ودراسة الحالة بالإضافة للملاحظة المباشرة، وكذلك الصور الفوتوغرافية.

وقد رصد أندريا راف تنوع الأشكال والموديلات للزي بين النساء وأشار إلي أنه في بعض الحالات يعبر عن رؤية دينية متشددة وحالات أخرى عن محاكاة الغرب في الملابس المكشوفة والتي ترتديها بعض الفتيات علي أحدث الموضات.

كما حدد الباحث ثلاث فئات للزي الإسلامي في شوارع القاهرة، الفئة الأولى تتمثل في الزي الفضفاض الطويل والمصنوع من مادة ثقيلة كالقطن أو الصوف، وعلي الرأس ترتدي المرأة الخمار ليخفي الرقبة والأكتاف. والفئة الثانية ترتدي المرأة النقاب بألوان فاتمة من الأسود أو الكحلي أو البني ولا يظهر إلا عينيها من خلال فتحة صغيرة، كم تغطي يديها بالقفازات وقدميها بالجوارب الثقيلة. أما الفئة الثالثة فيمثلها فريق غير متشدد ويتكون الزي من تنورة طويلة أو بنطلون وبلوزة، وغطاء الرأس يكون إيشارب يغطي الشعر والرقبة، أو تيربون "برنيه يغطي الشعر"، وهذا الزي يختلف عن الفئتين السابقتين في أنه يحدد الشكل الفيزيقي للمرتديات له، كم أن ألوانه مبهجة وتحاكي الموضة. كما أكد أندريا راف في دراسته علي أن الزي يعد أحد الرموز الدينية والتي تعكس درجة الإلتزام بين المستنئين، كم أنها إلعكاس لرؤية الآخرين^(٥٤).

ومن استعراض الدراسات السابقة يتبين لنا أنها استطاعت أن تلقي الضوء على مدى انتشار ظاهرة التحجب في المجتمعات الإسلامية عامة والمجتمع المصري خاصة نتيجة الصحوّة الإسلامية المعاصرة وإتخاذ الحجاب كرمز لها، والصراع بينها والتنظيمات التحررية التي تدعو لسفور المرأة، وتنوع أشكال الحجاب بين مختلف الفئات والطبقات، كما تعرضت بعض من تلك الدراسات لبعض المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي لعبت دورا هاما في انتشار الحجاب وخاصة بين طالبات المدارس والجامعات، والعاملات في المجالات المتعددة .

إلا أن أغلب تلك الدراسات لم تتعرض للمزاوجة بين الحجاب كرمز تشريعي ووظيفة دينية لغرض منها السّتر والحشمة لحماية الأسرة المسلمة والمجتمع .

كما لم تتناول ظاهرة الحجاب بعد أن أصبحت بالنسبة لأغلب الفتيات عرفا سائدا وتقليدا اجتماعيا أكثر منه إلترام ديني يفرض قيوده على مرتديه.

تحليل الدراسة الميدانية والنتائج

لقد حاولت الباحثة من خلال دليل العمل الجمع بين البيانات الكمية لدلالات أكثر دقة، والتحليل الكيفي لروية أكثر عمقا، وذلك من خلال المنهج المقارن بين فئتين من الطالبات المحجبات الأولى تنتمي إلى مناطق ريفية والأخرى لمجتمع حضري للكشف عن انعكاس تأثير نسق الضبط الاجتماعي في كل من البيئة الريفية والحضرية على ارتداء الحجاب بين الطالبات الجامعيات في الكليات المختلفة بجامعة المنصورة.

١- اشتملت عينة الدراسة على مائه طالبة مقيمة في مناطق حضرية بمدينة المنصورة وبعض الطالبات المغتربات من القاهرة والإسكندرية. ومائه طالبة تنتمي إلى بعض القرى التابعة لمراكز محافظة الدقهلية مثل أجا وشربين وطلخا والسنبلاوين ودكرنس.

٢- وأغلب الطالبات ملتحقات بكلّيات الآداب والحقوق والتجارة والتربية والطب والهندسة. وقد راعت الباحثة تنوع النرق الدراسية والتخصّصات النظرية والعملية.

٣- ضمت العينة مختلف الفئات العمرية في المرحلة الجامعية وهي ١٧-١٩ نسبة الطالبات الريفيات في هذه الفئة ٤٣%، بينما الطالبات الحضريات ٥٧%- وبالنسبة للفئة العمرية الثانية ٢٠-٢٢ سنة نسبتها بين الفئة الأولى الريفيات ٥٩% بينما الثانية أي الحضريات تمثل ٤١% .

- أما الفئة الثالثة ٢٣-٢٥ فهي بين الريفيات حوالي ٤٠% والحضريات ٦٠%. وتتماثل النسبة بين المجموعتين في الفئة العمرية من ٢٦-٢٨ حيث تمثل ٥٠% لكل منهما .

٤- وقد أظهرت الدراسة أن الحالة الاجتماعية للمبحوثات كما يلي ٩٠% من الطالبات الريفيات غير متزوجات، ٨% عقد قرانهن أو مخطوبات، ٢% متزوجات. وبالنسبة للطالبات الحضريات وجد أن ٩٤% منهن لم يتزوجن، ٤% عقد قرانهن أو مخطوبات، و ٢% متزوجات .

٥- وعن المرحلة التي بدأت فيها المبحوثات ارتداء الحجاب وأسباب ذلك نجد أعلى نسبة من الطالبات الريفيات والتي تمثل ٥٦% ارتدت الحجاب في المرحلة الإعدادية، ويرجع ذلك إلى إلزام المدارس للتلميذات بارتداء الإيشارب أو الطرحة في أغلب القرى، مما يساعد على تنشئة الفتاة منذ الصغر على الاحتشام والتحجب وقد تخلعه أحيانا خارج المدرسة ولكنها مع بداية المرحلة الثانوية تكون هناك استمرارية في ارتداء الحجاب، ثم تليها ٣٢% في المرحلة الثانوية حيث تزي الطالبات أن حضور الندوات الدينية في المناسبات الدينية كالمولد النبوي والإسماء والمعراج ورأس السنة الهجرية... وحث الدعاة على الالتزام بالحجاب سواء في المدرسة أو المساجد أو وسائل الإعلام كان لها أكبر الأثر في ارتداء الحجاب وخاصة مع تشجيع الصديقات بعضهن البعض. وأقل نسبة ارتدت

الحجاب في الجامعة ١٢% لأنه يكسبها ثقة الأهل ويمنحها حرية الحركة بالإضافة إلى تجنب المعاكسات من الشباب.

ويختلف الأمر بين الطالبات الحضرية حيث تمثل أعلى نسبة منهن ٤٧% ارتدت الحجاب في المرحلة الجامعية، ومن أهم الأسباب التي دفعتهن للحجاب أنها شعرت أنها مقبلة على مرحلة جديدة وقد أصبحت شابة وحتى تكتسب ثقة أهلها واحترام الآخرين، بجانب تأثير الصديقات والقريبات وخاصة بعد شهر رمضان حيث تلتزم كل مسلمة بالحجاب أثناءه وقد تستمر في التحجب، خاصة إذا لاقت استحساناً من المحيطين بها، أما إذا عرضها للسخرية أو التهكم فإنها تخلعه. كذلك تأثير الخطيب أو الزميل على بعض الفتيات الجامعيات والإلحاح على ارتداء الحجاب يؤدي في النهاية لارتدائه.

تأتي المرحلة الثانوية في المرتبة الثانية حيث تمثل ٣٧% وأكثر الأسباب شيوعاً التفرغ للثانوية العامة والمذاكرة وعدم تضيق الوقت في تصفيف الشعر، وهناك دوافع أخرى كما ذكرت بعض الفتيات إن إقامتها مع أسرتها في إحدى الدول العربية جعل ارتداء الحجاب عادة استمرت معها، بالإضافة إلى التعرض لبعض الأزمات الشديدة مثل وفاة أحد الوالدين أو إحدى الصديقات، أو تعرض الفتاة لمرض قد يقدها شهوراً عديدة قد يدفعها لارتداء الحجاب، وأقل نسبة من الطالبات الحضرية ارتدت الحجاب في المرحلة الإعدادية نسبتها ١٦% وهي غالباً تكون في الأسر التي تتسم نساؤها بارتداء الحجاب أو النقاب وغالباً ما تقوم الفتاة بعد البلوغ بارتدائه:

٦- وفيما يتعلق بالأشخاص الذين كان لهم تأثير في ارتداء الطالبات الحجاب فإنه على الرغم من أن العديد من الطالبات الريفيات فكرن تأثير الأخوات والأخوة وخاصة الأخ الأكبر في تشجيعهن على ارتداء الحجاب من منطلق أنها كبرت ويجب عليها الالتزام مما يعكس مشاعر القلق لدى الأخوة الذكور وتأبيدهم لحجاب أخواتهم لتجنب المشكلات التي قد تنجم عن السفور، نتيجة اختلاطه

بأقرانه من الشباب. كما أن الصديقات يلعبن دورا هامافي التأثير وممارسة الضغوط لإرتداء الحجاب. فكما تذكر إحدى الطالبات "صديقتي ارتدين الخمار والتقاب وكن يلحجن عليّ حتي ارتديت الخمار في الثانوية العامة"، وتذكر أخريات أن الصديقة الحميمة كان لها دور هام حين تتحدث كثيرا عن الراحة النفسية التي شعرت بها بعد ارتداء الحجاب، ومدى اكتسابها ثقة واحترام الأهل .

كما من الملاحظ إن الصديقات والزميلات كان لهن تأثير كبير أيضا على الطالبات المحجبات الحضرريات، بالإضافة إلى دور الأم والأب وإن كان دور الأب أكبر مما يعكس خوفه وقلقه علي أبنته من مجتمع الاختلاط وخاصة في بداية دخولها الجامعة ولذا فهو يشجعها ويستحسن قرارها أن يتسم مظهرها بالالتزام الخلقي والديني، وأحيانا يلعب الخطيب دورا في الالتزام بالحجاب أو الضغط علي الخطيبة للتحجب (إذا كانت غير محجبة)، وكذلك هناك دور للدعاة الإسلاميين في المساجد ووسائل الإعلام مثل عمرو خالد في الحث علي ارتداء الحجاب.

٧- وبالنسبة لشروط الحجاب من وجه نظر الطالبات فقد اتفقت الأغلبية في كلا المجموعتين علي أن من شروط الحجاب أن يكون فضفاضاً ولا يشف أو يصف ولا يظهر سوى اليدين والوجه، كما رفضت الطالبات الريفيات ارتداء البنطلون والبلوزة القصيرة لأنه يعرضهن لإنتقادات من الآخرين. أما بالنسبة للحضرريات لم يعترضن علي البنطلون بشرط ألا يكون ضيقاً ومن شروطه أن يكون محتشماً وألا يكون الماكياج صارخاً، أي أن الاعتراض ليس علي التزين ولكن عدم المبالغة. وبصفة عامة فإن كلا المجموعتان تميل إلي الاعتدال في شروط الزي الشرعي وأن كانت الريفيات أكثر التزاماً .

٨- أما عن الزي المناسب للحجاب من وجهة نظر المبحوثات يمكننا من خلال البيانات الكمية أن نوضح الفروق بين الطالبات الريفيات والحضرريات حيث نجد أن الفئة الأولى أغلبهن حوالي ٦٩% يفضلن ارتداء العباءة مع الخمار أو طرحة

طويلة أو أن تكون جولة واسعة وبلوزة طويلة مع الخمار لأنه لا يظهر ملامح الجسم ولا يكشف إلا عن الوجه والكفين وإن ارتداء البنطلون تشبه بالرجال وترى ٢٣% منهم أن ارتداء الجولة أو بنطلون واسع وقصفاض وعليه بلوزة طويلة تحت الركبة تعد ملابس عملية تتيح لهن سهولة الحركة وركوب المواصلات وفي نفس الوقت يكون محتشما ومناسبا، و٦% تفضل ارتداء النقاب لأنه أكثر التزاما بتعاليم الدين .

وترى ٧٩% من الطالبات الحضریات أن الزي المناسب لهن يكون عبارة عن جولة أو بنطلون وبلوزة طويلة. فكما تذكر إحدى المبحوثات "الزي المناسب يكون طرحه ليس شرط أنه تكون طويلة طالما تدارى الشعر والرقبة مع جولة طويلة وبلوزة حشمة من أجل سهولة الحركة والمواصلات وفي نفس الوقت يكون على الموضة، وفيه عندنا في الكلية محجبات تلبسن بنطلونات ضيقة وبلوزة قصيرة" وتذكر بعض الطالبات الحضریات محاولتهن ارتداء العباءة أو الخمار ولكنهن لم يسترحن فيه ورجعن للبنطلون والبلوزة مع للطرحه. أما ٢١% يفضلن العباءة وإن كن يعترضن أنها ليست عملية في نزولهن للجامعة يوميا، وقد يلبسن تحت العباءة بنطلونا بحيث يراعى أن تكون مناسبة لسهولة الحركة.

٩- وعن استقبال الأسرة لارتداء الحجاب بالنسبة للطالبات الريفيات فإن الأغلبية ذكرت أن الأسرة استقبلت ارتداءها للحجاب كامر طبيعي ومتوقع لأن جميع النساء في عائلتهن محجبات أو متقبات. مما يشير إلى مدى انتشار الظاهرة من جانب وإلى تأثير عامل التقليد والمحاكاة من جانب آخر. وقد تفضل بعض الأمهات أحيانا تأجيل قرار الحجاب لما بعد الخطوبة إلا أنها لا تعترض على ارتداء ابنتها للحجاب .

وفيما يتعلق بالطالبات الحضریات فإنه من الملاحظ معارضة الأهل أكثر منه بين الريفيات وخاصة الأم سواء بالسلبية تجاه هذا القرار أو طلب تأجيله خوفا من خلعه بعد فترة قصيرة أو إظهارها أكبر سنا، وعلى الرغم من ذلك فإن

قرار الحجاب يترك ثلثاة وقد تمتدح بعض الأسر هذا القرار وتقوم بشراء ملابس جديدة وإشاريات كنوع من التشجيع وخاصة من الأب والأخوة الذكور الذين يشعرون بالاطمئنان تجاه تحجب ابنتهم لأنه مظهر لإلتزامها الديني والخلقي.

١٠- أما عن المشاكل التي تواجه الطالبات بعد ارتداء الحجاب نجد أن أغلبية الطالبات الريفيات حوالي ٨١% لم تواجهن أي مشكلات بل على العكس فإن الحجاب يغنيهن عن متابعة الموضة وتصنيف الشعر وغالباً ملابسهن تكون طويلة ومحتشمة قبل ارتداء الطرحة. وقد ذكرت بعض الطالبات نسبتهن ١٩% أن أهم المشكلات التي قد تواجهن هو العبء المادي في بداية التحجب لشراء ملابس جديدة مناسبة. ونسبة ضئيلة ترى أنه يسبب لهن ضيقاً أثناء الصيف والحر. وبالنسبة للحضرىات فإن النسبة الأكبر منهن ذكرن عدم وجود مشكلات تواجهن ولكن أقل من الريفيات حيث يمثلن ٧٦% أما اللاتي ذكرن أن هناك بعض المشكلات فإتتهن يمثلن ٢٤% وهي تتمثل في محاولة مسايرة الموضات الجديدة وخاصة للتقليعات الجديدة بالطرح، وكما تقول إحداهن "لا بد من مسايرة للموضة علشان ميقولوش عليه متخلفة"، كما ترى بعض الطالبات أن بداية التحجب وخاصة في الصيف يصحبه الشعور بالحر وحساسية- لطبيعة المنسوجات الصناعية التي تصنع منها أغلب الطرح ومن المشكلات التي تواجه البعض منهن أن الملابس الأنيقة مرتفعة السعر وكانت ملابس المحجبات قليلة وتفتقد الأناقة ومع انتشار ظاهرة الحجاب أصبحت متوفرة بموديلات كثيرة وأسعار متفاوتة.

١١- القيود التي يفرضها ارتداء الحجاب بالنسبة للفتيات الريفيات فإن الأغلبية ترى أن الحجاب التزم ويجب ألا تمارس المحجبة الرقص أو الغناء وأن كان للبعض منهن أيدن إقامة علاقات عاطفية تمهيداً للارتباط وكما ذكرت إحدى الطالبات "ممكن الواحدة ترتبط عاطفياً وهي محجبة وعندي صاحبتى منقبة ومرتبطة بشاب بدين يعنى زيها وهيتقدم لها لما ظروفه تتحسن" بينما ترى بعض

الطالبات أن الحجاب لا يفرض أي قيود وأنه احتشام في المظهر وكما ذكرت أحدهن " التي عايزة تعمل حاجة من غير حجاب هتعملها بالحجاب وأغلب اللي لابسين حجاب منظر بس ويبمشوا مع الشباب وممكن يرقصوا بس مع تجمع البنات في المناسبات والأفراح .

وبالنسبة للحضريات فإن الأغلبية ترى أنه لا يفرض قيوداً ومن الممكن أن تكون محجبة وتمارس أشياء قد لا ترضاهم فتاة غير محجبة وإن أقامه علاقة مع شاب مناسب تمهيداً للإرتباط به حق لأي فتاة سواء محجبة أو غير محجبة، بينما ذكرت العديد من الطالبات أن الحجاب يفرض قيوداً لأن المحجبة يجب أن تكون ملتزمة في تصرفاتها وأسلوبها في علاقتها بالآخرين وخاصة الشباب حتى لا تتعرض للنقد من الناس وكما ذكرت أحدهن " كان فيه واحدة لابسه خمار وقاعدة على جنب مع شاب فالفراش قالها احترمي حجابك اللي لابساه".

كما ذكرت إحدى الطالبات أنها حتى لا تتعرض للنقد من المحيطين بها، فإنها تخلع الحجاب في لفراح أقاربها وصديقاتها حتى ترقص وتغني وهي تؤكد علي "أن أغلب البنات بتكون محجبة وتعرف شاباً وتخرج معاه عادي ، وممكن ترقص وتغني في الرحلات والحجاب بيكون مظهر فقط علشان أهلها يطمنوا لها".

١٢- أهم المميزات الاجتماعية التي اكتسبتها الفتاة من ارتداء الحجاب فقد لجمعت الطالبات للريفات أن أهم المميزات التي اكتسبتها بعد الحجاب تتمثل في ثقة الأهل في التزامها "الأهل تثق في البنت لما تتحجب أكثر من اللي مبينة شعرها لأن البنت طالما التزمت بالحجاب سوف تراعي ربنا في تصرفاتها ومش هتعمل حاجة غلط وحجابها هيفرض احترامها على الآخرين " كما يمنحهن حرية الخروج لأنهن لم يعدن مصدراً للمعاكسات أو لفت الانتظار.

بالإضافة إلى كسب احترام الآخرين لأنه انعكاس لمدي التزامها بالدين والأخلاق. وعلى المستوى الشخصي فإنه يكسب الفتاة الشعور بالنضج فكما تقول

أحداهن "الحجاب أعطاني الإحساس أنني كبرت وبقيت شخصا يعتمد عليه ولما لبست الحجاب كأني تخطيت مرحلة الطفولة" كما أنه يمنحهن ثقة بالنفس المستمدة من نظرة المحيطين بهن والشعور بأنهن يرضين الله.

وبالنسبة للحضريات فأهم مميزات الحجاب بالنسبة لهن بالترتيب تتمثل في اكتساب ثقة الأهل ومنحهن بعض الحرية في الخروج كما ذكرت أغلب الطالبات أن الحجاب جنبنهن معاكسات الشباب إلى حد كبير فكما تقول أحداهن "مهما تكون المحجبة عاملة في نفسها مش هتيجي زى اللي معيبه شعرها ولا بسه قصير فلانزم هتعاكس". بالإضافة إلى اكتساب احترام الآخرين لأنها تكون وقورة في مظهرها .

١٣- أما عن المناسبات التي قد تخلع فيها الفتيات حجابها نجد أن ٧٢% من الريفيات لا يظعن الحجاب في المناسبات الاجتماعية ولكن من الممكن استبدال الخمار بطرحة قصيرة بينما ذكرت ٢٨% أنهن يخلعن الحجاب في أفراح الأقارب والأعياد وكما تقول إحداهن "خلعت للحجاب في فرح أختي وكنت فرحانة بالتسريحة والماكياج لأنني رأيت أن شكلي هيكون أكبر من سني بالحجاب".

وترى الطالبات الحضريات أن ٥١% لا يخلعن الحجاب في أي مناسبة لأنه للتزلم بينهما ٤٩% تخلعه في المناسبات كأعياد ميلاد أولاد الأخوات أو حفلات الخطوبة والأفراح وفي الأعياد وذكرت بعض الطالبات أن أغلب بنات العائلة تخلع الحجاب في هذه المناسبات وتذهب لمصفف الشعر وتترزين. وتقول أحداهن "لما أخلع الحجاب في المناسبات الحلوة دي يبقى على حريتي لو ضحكت أو راقت محدش يقول دي محجبة وميصحش تعمل كده".

وأخرى تذكر "في الأفراح بتاعة العيلة بقلع الحجاب لأنني الوحيدة اللي اتحجبت في سن صغير وفيه أكبر مني في العيلة. مش محجبات وعلشان أكون يومها براحتي ومزلجي أرقص وأغني وأعمل شعري وأحط ماكياج".

ويتضح لنا أن نسبة عالية من المحجبات وخاصة الحضرية تخلع حجابها في المناسبات الاجتماعية وتذهب لمصنف الشعر وغالباً ما يكون رجلاً مما يلقي الضوء على شكل من أشكال الرؤية المزدوجة لمفهوم التحيب بين الالتزام الديني والمظهر الخارجي .

١٤- وفيما يتعلق بخلع الطالبة الحجاب في خطوبتها أو فرحها نجد أن حوالي نصف العينة ٤٧% من الطالبات الريفيات خلعت حجابها يوم خطوبتها أو فرحها أو سوف تخلعه وتقرر المبحوثات هذا الرأي بأنها ليلة في العمر ولن تتكرر كما أن الزواج التزام ولن تخلعه بعد ذلك كما ترى إحداهن "يوم فرحي لازم اخلع الحجاب لأن الواحدة بتكون في أحسن مظهر وصورة بشعرها ودي مناسبة مش متكرر" وإن تخلع الفتاة حجابها من الأمور المقبولة اجتماعياً فكما تذكر إحداهن "إحنا عندنا في البلد عادي إن الواحدة المحجبة تخلع الحجاب يوم فرحها لأنها العروسة وتتزين لزوجها وشعرها بيزيدها جمالاً"، بينما ترفض ٤٣% من الريفيات فكرة خلع الحجاب وإن كان البعض منهن ترى استبدال الخمار بطرحة وقد تظهر جزء من شعرها، وقد أكدت هذه النسبة على أن الحجاب زينة واحترام والتزام وطالما ربنا أكرمها بالزواج يجب إلا تخلعه وتعصى الله . بينما البعض منهن أفرارهن إسلامية يتم فيما الفصل بين الرجال والنساء.

فيما يتعلق بالطالبات الحضرية فإن نسبة اللائي يفضلن خلع الحجاب ليلة خطوبتهن أو عرسهن أعلى فيما بين الريفيات حيث تمثل ٦٤% ويتضح تفضيلهن لذلك من خلال الأقوال التالية "أنا قلعت الحجاب يوم خطوبتي ويوم الفرح ممكن الفستان يكون عريانياً لأن دي ليلة في العمر ولما يجي خطيبي عندنا بأقعد معاه بدون حجاب ومحدث في البيت بيتكلم". "دي ليلة في العمر ولازم يكون شكلني حلو وعلى مزاجي لأنني بعد الجواز لن اخلعه".

"مهما كنت جميلة في الحجاب برضه الواحدة فتكون أجمل بشعرها لأن الشعر تاج البنت وبعدين ده يوم في العمر والواحدة بتروح الكواكير أنا عارفة أن ده مش صح لكن معظم الناس بتعمل كده".

كما ذكرت بعض الفتيات اللاتي خلعن الحجاب يوم خطوبتهن أن خطيبها ترك لها حرية ارتدائه أو خلعها، وهن فضلن أن يخلعن الحجاب ليلة الخطوبة. وتري ٨% من الطالبات (لم يتم خطوبتهن) أن خلع الحجاب أو ارتدائه يوم للخطوبة أو الفرح يتوقف على رأي العريس ورغبته.

أما ٢٨% من الحضریات فقد رفضن فكرة خلع الحجاب لأنه حرام وإن الحجاب زينة للفتاة وقد ذكرن أن الهداية من الله والإقبال على حياة جديدة يجب إلا تكون بمعصية بخلع الحجاب .

١٥- وعن الأشخاص من غير المحارم والذين لا ترتدي الطالبات أمامهم الحجاب فمن الملاحظ لارتفاع نسبة الطالبات الريفيات اللاتي لا يجدن حرجاً أو خطأ في عدم الالتزام بالتحجب أمام غير المحارم طالما ليسوا من الأغراب حيث تمثل حوالي ٧١% لا ترتدي الحجاب أمام أبناء العمومة أو الأخوال أو أزواج الأخوات أو العمات أو الخالات ومن تلك النسبة ١٢% لا تجد حرجاً في كشف شعرها أمام الأغراب وتري إحدى الطالبات ترتدي الخمار في الكلية "أنا في البيت لأعطي شعري أمام أبناء عمي وخالتي وأجواز أخواتي وغالباً ارتدى ملابس البيت العادية لأنه بيت عيلة ولما أتجوز ويبقى لي شقة مستقلة أقدر أعمل فيها اللي بريحني الواحدة لما نتجوز ما يصحش حد من قرايبها يشوفها إلا بالحجاب لأن خلاص لها راجل ولا يصح أن يشوف حد غريب شعرها". كما ذكرت ٢٩% من الطالبات الريفيات أنها ترتدي الحجاب أمام أي شخص من غير المحارم والأغراب وقد يفرض الأب الالتزام بالحجاب على بناته فكما تقول إحداهن "بابا مانع نبيين شعرنا أمام أولاد أعمامنا لأن ممكن نتجوز منهم". بالنسبة للطالبات الحضریات نلاحظ ترايد النسبة عن الطالبات الريفيات اللاتي لا يلتزم

يارتداء الحجاب أمام غير المحارم من الأقارب حيث يمثلن ٨٨%، منهن ٣٠% لا ترتديه أمام غير المحارم أو الأعراب لأنهن يخلعن الحجاب في المنزل ولا يجدن حرجاً في فتح الباب أو الخروج إلى الشرفة وهي ساقرة .

وترى ١٢% من العينة أنهن يرتدين الحجاب سواء أمام الأعراب أو غير المحارم من الأقارب وكما تقول أحدهن "أنا باللبس الحجاب أمام أي زائر حتى لو كان عمي" إلا أن الجدير بالملاحظة إن طالبة ذكرت أنها ترتدي الحجاب أمام غير المحارم والأعراب ولكنها تجلس مع خطيبها بدون حجاب رغم أنه لم يعتقد قرانه عليها بعد ولا تجد معارضة من أحد أفراد أسرتها.

١٦- أما عن تأثير الحجاب على الاختيار الزواجي للشباب من وجهة نظرهن فإن أغلب الطالبات الريفيات ترى أن الشباب يفضل الفتاة المحجبة لأنها أكثر التزاماً وأخلاقاً، كما أن الشباب المتدين يفضلها متدينة والحجاب عنوان لتدين الفتاة، والرسول (ص) أوصى بالزواج من ذات الدين وفضلها على الجمال والحسب والمال. كما أن الأهل غالباً ما يوافقوا على اختيار الابن إذا كانت فتاته محجبة، كما ترى العديد من المحجبات أن الحجاب يجعل الفتاة أكثر جمالاً من الأخرى التي تستعرض شعرها أمام الناس.

إلا أن قلة منهن ترى أن الحجاب ليس له تأثير على الاختيار الزواجي للشباب، لأنه من المحتمل أن يحب أو يختار فتاة غير محجبة، ثم يفرض عليها الحجاب، والبعض قد يفضلها جميلة وملفته للأنظار وقد يجذبه تبرجها.

بالنسبة للحضريات فإن العديد منهن ذكرن أن الحجاب تأثيره يكون على الشباب الريفي أكثر من الحضري، كما أن بعض الشباب يعتقد أن المحجبة معقدة بينما غير المحجبة أكثر جاذبية ومع ذلك فهناك اتجاه متزايدة نحو تفضيل الفتاة المحجبة لأنها أكثر التزاماً ودليل على أخلاقها واحتشامها وتذكر إحدى الطالبات أن عريساً تقدم لها قبل أن تتحجب وفضل أن تكون محجبة وهي من الأسباب التي دفعتها للحجاب.

النتائج العامة في ضوء تساؤلات البحث

في ضوء نتائج الدراسة الميدانية للبحث ، يمكننا الإجابة عن التساؤلات التي تم طرحها في البداية علي النحو التالي :-

١- بالنسبة للتساؤل الأول الخاص بماهية المرحلة العمرية أو المناسبات التي ارتدت فيها الطالبات الحجاب، أظهرت الدراسة أن المرحلة العددية أكثر المراحل التي شهدت تحجب للطالبات الريفيات، ويرجع ذلك إلي أن أغلب المدارس العددية في القرى تلزم الفتيات بالتحجب. وبالنسبة للحضرية فإن أعلى نسبة تحجب في المرحلة الجامعية سواء بتأثير عامل التقاليد والمحاكاة أو لإكتساب ثقة الأهل ومنحهن حرية الخروج.

وتأتي مرحلة الثانوية العامة لتحل المرتبة الثانية لكلا الفئتين في ارتداء الحجاب. - وأهم المناسبات أو المواقف التي تشهد تزايد للتحجب بين المبحوثات منها عقب شهر رمضان حيث تحرص جميع الطالبات الحضرية والريفيات علي إرتداء الحجاب طوال الشهر سواء كن محجبات أو غير محجبات والعديد منهن يواصلن لارتدائه ، وكذلك عقب بعض المواقف الصعبة التي قد تتعرض لها الفتاة مثل إصابتها بحالة مرضية شديدة أو وفاة أحد الوالدين أو إحدى الصديقات .

٢- وفيما يتعلق بالتساؤل الثاني عن رؤية المحجبات للزى الشرعي ومواصفاته، فلقد تبين أن كلا المجموعتين تميل غالبا إلي الاعتدال في شروط للزى الشرعي، وإن كانت للريفيات أكثر تزمنا من الحضرية، ويفضّلن الخمار والعباءة بينما أغلب الحضرية يفضلن الجونلة أو البنطلون الفضفاض مع بلوزة طويلة ليتيح لهن سهولة الحركة، ويجمع بين الاحتشام ومسايرة الموضة .

٣- أما عن التساؤل الثالث عن موقف الأسرة تجاه إرتداء الحجاب فيلحصر في ثلاث صور الأولى الموافقة أو التشجيع وخاصة حين تكون نساء العائلة محجبات أو منقبات، وهي التي أغلب أسر الطالبات الريفيات ونسبة كبيرة من الحضرية، الصورة الثانية السلبية وهي لاتعني رفض الحجاب ولكن الرغبة في

تأجيله إلى مابعد الزواج إلا أنهم لا يعترضون على حجاب ابنتهم ونسبة الحضريات أعلى من الريفيات. والصورة الثالثة الرفض تحت دعوي مبررات عديدة منها صغر السن أو الخوف من خلعه أو إعاقة فرص العمل والزواج وهي نسبة ضئيلة من أسر الحضريات ولا توجد بين الريفيات هذه الصورة.

٤- يتعلق التساؤل الرابع بالميزات الاجتماعية التي تمنح للفئة المحببة فقد اتفقت الفئتان على أن أهمها إكتساب ثقة الأهل فمن المفترض أن الحجاب إلزام ديني وخلق، وبالتالي تمنح قدرًا من الحرية لأن مظهرها غير ملفت للأنظار. وكذلك إكتساب إحترام وتقدير الآخرين، كما يجنبها معاكسات الشباب لأن الحجاب رسالة أنها لا تستعرض مفاتها ومحافظة على القيم والتقاليد.

٥- أما عن التساؤل الخامس للقيود التي يفرضها الحجاب على المبحوثات والمشكلات التي قد تواجههن ، فقد تبين أن أغلب الطالبات الريفيات ترى أن الحجاب إلزام ولذا يجب أن تتجنب أي سلوكيات قد يعرضها لانتقاد الآخرين. وبالنسبة للحضريات فإن الأغلبية ترى أنه لا يفرض أي قيود، وأن الإلتزام بالأخلاق يتوقف على درجة التدين وليس على المظهر. والجدير بالملاحظة أن بعض الريفيات وأغلب الحضريات لم يجدوا أي تعارض بين التحجب والارتباط يشاب والخروج معه طالما يفرض الزواج .

أما عن أهم المشكلات التي واجهتهن فنسبة عالية من كلا الفئتين لم تذكر مشكلات وبالنسبة لبعض الريفيات تتمثل في العبء المادي في بداية التحجب لشراء ملابس مناسبة والطرح، وترى الحضريات أن أهمها صعوبة مسابرة الموضة والإحتشام في نفس الوقت وشراء الموديلات الحديثة، وكذلك إضطرارهن ارتداء أغطية للرأس وغالبًا ما تصنع من مواد صناعية مما يعرضهن للحساسية والشعور بالحرارة وخاصة في فصل الصيف .

٦- وفيما يتعلق بالتساؤل السادس عن صور عدم الإلتزام الديني الذي يفرضه الحجاب مثل خلعه في بعض المناسبات الاجتماعية أو أمام بعض الأشخاص من

غير المحارم. فلقد تبين من الدراسة أن الطالبات الريفيات أكثر إنتراما من الحضريات بصفة عامة وخاصة فيما يتعلق بخلع الحجاب في أفراح الأقارب أو في المناسبات الاجتماعية والذهاب لمصفف الشعر والتزين. أما فيما يتعلق بخطوبتهن أو أفراحهن فإنه من الملاحظ أنه من الأمور المقبولة اجتماعيا سواء في الريف أو الحضر أن تتزين العروس عند مصفف الشعر وأحيانا يكون رجل وقد ترتدي فستان يتسم بالعري إلى حد ما، وعلى الرغم من ذلك فقد ذكرت العديد من الريفيات أن هناك أفراحا إسلامية يفصل فيها الرجال عن النساء. كما أن العديد من المبحوثات رفضن فكرة خلع الحجاب في أفراحهن لأن الله فرضه. أما عن الأشخاص من غير المحارم مثل أبناء العمومة أو الخولة أو أزواج الأخوات والعمات والخالات فإنه من الملاحظ عدم حرص الأغلبية من كلا الفئتين وإن كانت أعلى بين الحضريات على التحجب أمامهم وقد بررن ذلك لعدم تفضيل ارتداء الحجاب في المنزل، أو لأنهم مثل أخوتهم أو أعمامهم، ولأقامتهن في بيت العائلة، ولا تجد العديد منهن حرجا في فتح الباب لأحد الغرباء أو الخروج للشرفة بدون حجاب على الرغم من ارتدائهن الخمار عند الخروج من المنزل.

٧- ولخيرا للتساؤل السابع يتناول تأثير نسق الضبط الاجتماعي على التحجب بين الطالبات الريفيات والحضريات، فقد تبين أن ارتداء الحجاب بين غالبية الطالبات الريفيات والحضريات أصبح عرفا سائدا وتقليدا متبعاً وضغطاً اجتماعياً أكثر منه فرضاً دينياً أو أمراً تشريعياً، والدليل على ذلك العديد من الصور للتجاوزات الدينية والمقبولة اجتماعياً- التي سبق ذكرها- كما أن رؤية المجتمع للمحجبة التي تخلع الحجاب أنها ارتكبت عيباً يعرض أهلها لانتقاد الناس ويسئ لكرامة الأب وأسرته، يعكس التأكيد على أنها مسألة تتعلق بالتقاليد والقيم كجزء من نسق الضبط الاجتماعي أكثر منه إثم ديني.

وكذلك تفضيل الشباب وخاصة في المجتمعات الريفية الزواج من المحجبة التي يعكس مظهرها المحتشم إلتزامها الديني والخلقي .
إلا أن الجدير بالملاحظة بصفة عامة أن الطالبات الريفيات أكثر إلتزاما وتدينا في المظهر والسلوك من الحضريات مما يعكس تأثير القيم الدينية في نسق الضبط الاجتماعي الريفي أكثر منه في الحضر .

المراجع

- 1-Badran, Margot; "Gender Activism: Feminists and Islamite in Egypt" In International Journal of Middle East studies, 19, February 1987, p. 36.
- ٢- جلال أمين؛ نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع؛ مكتبة مدبولي؛ القاهرة؛ ١٩٨٩؛ ص ٤١-٤٢.
- 3-Maghadam, Valentine; " Women, Work and Ideology in the Islamic Republic"; in International Journal of Middle East studies; 20; (2); 1988; P.221
- ٤- إميل دور كايم؛ قواعد المنهج في علم الاجتماع؛ (ترجمة محمود قاسم، السيد بدوي)؛ مكتبة النهضة المصرية؛ القاهرة؛ ١٩٥٠؛ ص ٤١.
- 5-Clifford, Greets; "Religion as a cultural system "in Anthropological Approaches to the study of Religion; Michael Banton (ed) ; Tavistoel publication ; London ; 1966; p.4
- ٦- المعجم الوجيز؛ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية؛ القاهرة؛ ١٩٩٦؛ ص ١٣٥.
- 7-Rugh, Audrea, B.; Reveal and conceal "Dress in contemporary Egypt"; Syracuse university press, 1996, p. 149.
- ٨- شارلوت سيمور-سميث؛ موسوعة علم الإنسان (ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف محمد الجوهري)؛ المجلس الأعلى للثقافة؛ القاهرة؛ ١٩٩٨؛ ص ٤٧٥.
- 9-Sherif, Mozafer & Sherif Carolyn; "Group Formation " in International Encyclopedia of Social sciences; Sills, David, L.; vol.5-6; Macmillan Company and free press; N.Y. 1968; p. 280
- ١٠- محمود أبو زيد؛ الشائعات والاضطراب الاجتماعي "دراسة سوسيومترية في قرية مصرية"؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ الإسكندرية؛ ١٩٨٠؛ ص ٢٧.
- 11-Beals , Ralph, L. & Hoijar , Harry ; An Introduction to Anthropology ; Collier Macmillan publishing com. ; U.S.A. ; 5th ; 1977; p.444
- 12-Reese, Lyn; The Burqa , Chador , Veil and Hijab !Historical perspective on Islamic dress; [http:// www.Womenworldhistory. Com / essay-01- htm/ 2002. Pp.1-2](http://www.Womenworldhistory.Com/essay-01-hm/2002.Pp.1-2)
- ١٣- عصمت محمد حسن؛ جوانب من الحياة الاجتماعية لمصر من خلال كتابات الجبرتي؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ القاهرة؛ ٢٠٠٣؛ ص ١٢٩-١٣٠.
- ١٤- السيد عبد الفتاح عفيفي؛ مرجع سابق؛ ص ١٢٢.
- 15-Reese, Lyn; op. cit. p.3
- ١٦- محمد عبده محجوب؛ الأنثروبولوجيا ومشكلات التحضر الكتاب الأول دراسات حقيقية في منطقة الخليج ص ٦٦.
- ١٧- محمد كمال يحيى؛ الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية في العصر الحديث؛ مرجع سابق؛ ص ٧٤.
- ١٨- قاسم أمين؛ المرأة الجديدة؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ القاهرة؛ ١٩٩٢؛ ص ٩٩.
- ١٩- المرجع السابق؛ ص ١٠٥-١٠٦.
- 20-Ibid ; p.3
- 21-EL.Guindi, Fadwa; op. cit. Pp. 52-53.
- 22-Akbar,Ahmed; Reflections on Muslim Family; [http. l // Muslim-Canada. Org. /2002.p.1](http:// Muslim-Canada. Org. /2002.p.1)

23-EL-Guindi, Fadwa; op. cit. p.55.

٢٤- عباس محمود العقاد : المرأة في القرآن : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع : القاهرة : ٢٠٠٠ : ص ٦٥-٦٦

25-Women, Islam. And Hijab ; <http://www.com.emorg.Edu/English.p.l>

26-Ahmed, A.; op. cit. p. 1

٢٧- القرآن الكريم : سورة الأحزاب : الآية ٥٩

٢٨- القرآن الكريم : سورة النور : الآية ٣١

29-Rugh, Andrea, B.; op. cit. p.148

٣٠- القرآن الكريم : سورة النور : الآية ٦٠

31-R ugh, Andrea, B., Op. cit. PP. 152-153

٣٢- محمد متولي الشعراوي : المرأة المسلمة والطريق إلى الله : مكتبة القرآن : القاهرة : ١٩٧٩ : ص ٣٥

٣٣- جوليت منسي : المرأة في العالم العربي : دار الحقيقة : بيروت : ١٩٨١ : ص ٦٦

34- EL - Guindi, Fadwa ; op. cit. p.53-

35- Ellen, Goldman; Dressed for oppression; <http://www.Postwritersgroup.Com.p.2>

36-Moghadam, Valentine; M, Modernizing Women; The American university in Cairo press; Egypt; 1994; p. 138.

٣٧- محمد عبده محجوب : الأنثروبولوجيا ومشكلات التحضر : مرجع سابق : ص ٦٧

38-Ibid; p.138.

39-Fincham, Robin & Rhodes , Peter ,p.121

40-Moghadam ,V.op.cit.p.108

٤١- محمد البستقي : موسوعة الفكر الإسلامي (الإسلام وعلم الاجتماع) : مجمع البحوث الإسلامية ، بيروت : ١٩٩١ : ص ١٠٧ - ١١٤

٤٢- جوزيف شاختي ، كليفورد بوزورث : تراث الإسلام (الجزء الثاني) : الطبعة الثالثة : (ترجمة حسين مؤنس ، إحسان صدقي) : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب : ٢٢٤ : الكويت : يونيو ١٩٩٨ : ص ٩٥

43- Rugh, Andrea; op. cit.;. p.149.

44-Antuan, Richard ;On the Modesty of women in Arab Muslim villages:- A study in the Accommodation of traditions, American Anthropologists, vol.70. N.4 August.

(ترجمة فاروق إسماعيل المرجع فاروق إسماعيل ، الإنسان ، البيئة ، الثقافة ، مطبعة الجمهورية ، الإسكندرية ١٩٩٥ ، ص ٢٩٧)

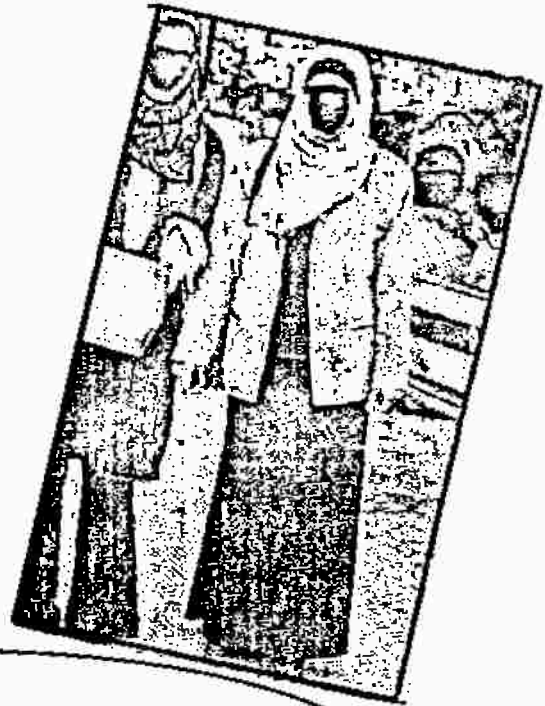
45-AAbuja Dispatch; who's behind that veil?; Africa Stage;November 17;1999 ; P.2

46-Badran,Margot;"Gender Activism: Feminists and Islamite in Egypt" In International Journal of Middle East studies, 19,February 1987, p.36.

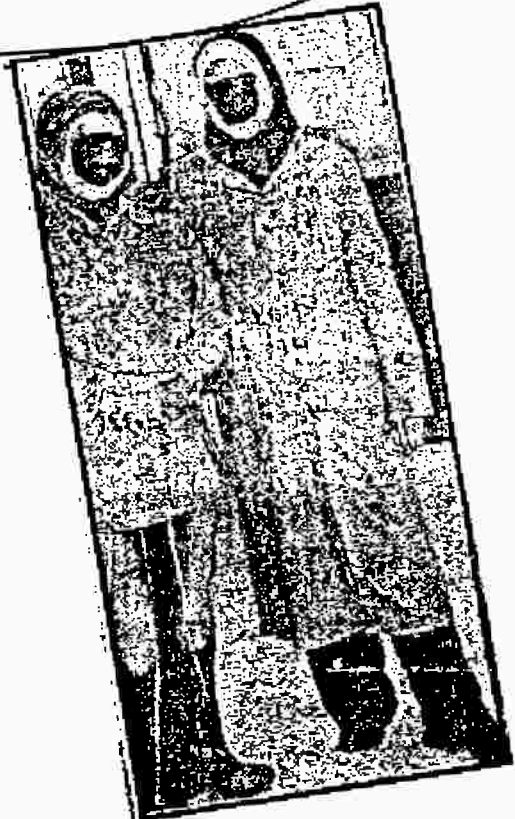
47-Abu- Lughod , Lilij ; "The Marriage of feminism and Islamism "in the Anthropology of Globalization ; p.445

- 48-Hopkins, Nicola & Saad Eddin , Ibrahim ; Arab Society ; The American University in Cairo press ;Egypt; 1994 ; p. 498
- ٤٩- المركز القومي للبحوث الاجتماعية : ظاهرة الحجاب بين الجامعات ، القاهرة ، ١٩٨٤
- 50-El. Guindi, Fadwa ; veiling , Modesty, Privacy and Resistance; Berg Publish; United Kingdom ; 1999.
- ٥١- السيد عبد الفتاح عتيقي ؛ بحوث في علم الاجتماع المعاصر ؛ دار الفكر العربي ؛ القاهرة ؛ ١٩٩٦
- 52-Macleod, Alene.E.; Accommodating protest. Working women, the new veiling, and change in Cairo; the American university press, Cairo, 1992.
- (وفاقه سليم حمود ؛ المرأة المصرية ؛ دار الأسين للنشر والتوزيع ؛ القاهرة ؛ ١٩٩٧ ؛ ص ١٢٨ - ١٣١)
- ٥٣- ليلي هاتم علي العلي ؛ ظاهرة تحجب المرأة في المجتمع المصري آثارها وبواعثها ؛ رسالة دكتوراة (غير منشورة) قسم الاجتماع وعلم النفس ؛ كلية الآداب بسوهاج ؛ جامعة أسيوط ؛ ١٩٨٤
- 54-Rugh, Andrea, B.; Religion and dress; Syracuse University press; N.Y. 1986; Pp. 149-161

إرتداء الحجاب ونسق الضبط الاجتماعي
د. فائق محمد عبد الغفار شريف

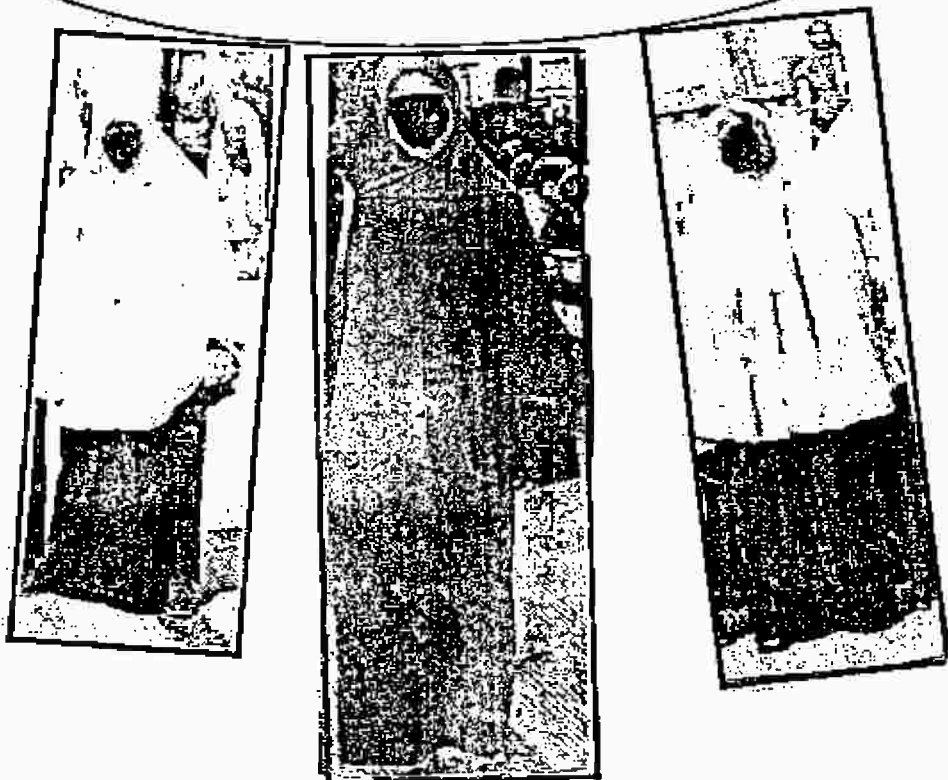


بعض أشكال للحجاب بين الطالبات في المجتمع الحضري





بعض أشكال للحجاب بين الطالبات في المجتمع الريفي





بعض أشكال للنقاب بين الطالبات الجامعيات



دليل عمل لبحث الحجاب ونسق الضبط الاجتماعي

- ١- الاسم:-
- ٢- السن:-
- ٣- الموطن الأصلي:-
- ٤- محل الإقامة:-
- ٥- الكلية الملتحقة بها:-
- ٦- الحالة الاجتماعية:-
- ٧- ماهي المرحلة العمرية والتعليمية التي بدأت فيها إرتداء الحجاب؟ وأسباب ذلك؟
- ٨- ماهي المناسبة التي بدأت إرتداء الحجاب فيها؟ (بداية شهر رمضان- بداية حدوث الدورة الشهرية- بعد حديث ديني أو ندوة دينية- عقب موقف أو حدث معين) يذكر بالتفصيل
- ٩- من الشخص الذي كان له تأثير عليك في ارتداء الحجاب؟ (صديقة- زميلة - قريبة- الأم أو الأخت- داعية -آخرين يذكر) وكيف تم ذلك ؟
- ١٠- ماهي شروط الحجاب من وجهة نظرك ؟
- ١١- ماهو الزي المناسب للحجاب من وجهة نظرك ؟ هل هو النقاب- الخمار - عباءة- البنطلون وبلوزة- طرحة قصيرة -جوزلة غير طويلة- إظهار جزء من الشعر) تذكر بالتفصيل؟
- ١٢- كيف استقبلت الأسرة إرتداء الحجاب؟ (تشجيع- معارضة- سلبية)؟ وما مظاهر هذا الاستقبال (مثل امتداح هذا الإتجاه أو الإستهجان أو شراء ملابس جديدة) ، تذكر بالتفصيل
- ١٣- هل هناك مشاكل تواجهك بعد إرتداء الحجاب؟ مثل عبء مادي لتكاليف الزي الطويل- أو تقييده للحركة- أو عدم تمشييه مع الموضة- أخرى تذكر)
- ١٤- هل الحجاب يفرض قيودا معينة؟ مثل إقامة علاقة عاطفية والخروج مع شاب في أماكن عامة- أو الرقص والغناء في المناسبات الاجتماعية والرحلات- أخرى تذكر

١٥- ماهي للمميزات الاجتماعية التي تعتقدي أنك اكتسبتها من ارتداء الحجاب؟
مثل نظرة الإحترام من الآخرين- ثقة الأهل- تجنب المعاكسات- حرية الخروج- لغيري تذكر)

١٦- هل هناك مناسبات تخلعي فيها الحجاب؟ نعم () لا ()- في حالة الإجابة
بنعم ماهي تلك المناسبات؟ (أفراح - أعياد - مناسبات- أخرى تذكر) ولماذا؟
١٧- هل في خطوبتك لو فركك يمكن أن تخلعي الحجاب؟ لماذا أو ماهي
الأسباب؟

١٨- هل هناك لشخاص من غير المحارم لا ترتدي الحجاب أمامهم؟ (مثل أبناء
الأصمام أو الأخوال- أزواج الأخوات- أزواج العمات أو الخالات- أو لا ترتديه
في المنزل رغم وجود غرباء)

١٩- هل تعتقدي أن الحجاب له تأثير عند الاختيار الزوجي للشباب؟ نعم () لا ()-
في حالة الإجابة بنعم كيف ذلك هل يفضلون المحجبات لأنهن أكثر تدينا أم
غير المحجبات لأنهن أكثر جاذبية؟

إرتقاء الحجاب ونسق الضبط الاجتماعي
د. فائق محمد عبد الغفار شريف

الأنثروبولوجيا

الجريمة والسلوك الإنحرافي في ظل العولمة الثقافية " دراسة أنثروبولوجية لجرائم الإنترنت "

د. مصطفى عمر حمادة

المدرس بقسم الأنثروبولوجيا

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الجريمة والسلوك الانحرافي

د. مصطفى عمر حمادة

مقدمة :

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على بعض الجرائم التي تحدث في ظل نظام العولمة الثقافية، وكذلك ما يتم من انحراف لسلوك بعض الأفراد الذين يتعاملون مع الإنترنت، وسوف نتناول في هذه الدراسة ونركز فيها على أهم هذه الجرائم والانحرافات، وهي جرائم السرقة، التعدي على برامج شبكات المعلومات، وأثر ذلك على المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

وعموماً، فإن العصر الحالي يتميز عن سابقه من العصور الأخرى بأمرين هامين هما :

الأمر الأول : هو سهولة الاتصالات .

الأمر الثاني : هو وفرة البيانات والمعلومات وتدفقها.

وأهم هذه الظواهر التي تعكس هاتين الميزتين أو هذان الأمران هي شبكة المعلومات العملاقة " الإنترنت " (حسام الدين محمود، ٢٠٠١، ٢٨٠ - ٢٨١).

وعموماً، فقد أحدث الإنترنت تحولاً كبيراً في تاريخ العلم، حيث انتقلت البشرية إلى عصر جديد هو عصر ثورة الوسائط المعلوماتية " الأنفوميديا " The Revolution age infomedia وحققت بالفعل ما يسمى بالانفجار المعرفي.

وتشير الإحصائيات الدالة على انتشار الإنترنت إلى أن عدد المشتركين في تلك الشبكة قد بلغ حوالي ٦٠ مليون مشتركاً، وأن ما يزيد عن ٢ مليون شخصاً ينضمون إلى الشبكة شهرياً، أي بمعدل ٤٦ مستخدماً جديداً كل دقيقة (مصطفى السيد، ٢٠٠٢ : ٢٣).

ومنذ أوائل التسعينيات، وتحديدًا منذ عام ١٩٩٢م إحتل العالم العربي، وبخاصة دول الخليج نصيباً لا بأس به في استخدام الإنترنت، حيث تحولت تلك المجتمعات العربية إلى مجتمعات معلوماتية تعتمد أساساً في اقتصادياتها ورفاهية أفرادها على تقنية المعلومات، في محاولة الاستفادة والانتفاع بها في مختلف

الأنشطة التعليمية والاقتصادية والاجتماعية... الخ (زكريا لال ، ٢٠٠٢ : ١٢ - ١٣).
وتعتبر المملكة العربية السعودية - بصفة خاصة - من الدول العربية التي
تسجل أحد أكبر معدلات نمو في العالم استخداماً للإنترنت، إذ بلغت نسبة الزيادة
لعام ٢٠٠١م نحو ١٠٢ % مقارنةً بعام ٢٠٠٠م، حيث تحتل المركز الرابع في
العالم من حيث ارتفاع نسبة النمو في عدد أجهزة الحاسب الآلي بنسبة ٣٢ %
سنوياً .

كما يستحوذ السوق السعودي على النصيب الأكبر من حجم سوق تقنية المعلومات
 والاتصالات في المنطقة العربية، ومن المتوقع أن يصل عدد مستخدمي الإنترنت
 إلى ٢١% من جملة عدد السكان (محمد نجيب ١٩٩٩م - ١٤٢٠ هـ : ٢٨).
وتظهر قيمة وأهمية الإنترنت فيما يؤديه من مهام جديدة وعديدة وسريعة
 يحتاج إليها الناس، ولا يستطيع أن يؤديها سوى هذه الشبكة، وتتمثل تلك المهام
 في مجموعة الخدمات الآتية :

- ١ - البريد الإلكتروني E-Mail .
- ٢ - الدردشة Chat .
- ٣ - نقل الملفات file Transfer Portcat
- ٤ - مجموعة الأخبار News Groups
- ٥ - النسيج العالمي للمعلومات World Wide Web (WWW)
- ٦ - نظام الفهرسة " الأرشيف " Archie

وبذلك أصبحت ثورة المعلومات التي ترجع إلى استخدام الحاسب الآلي
 بصفة عامة، والإنترنت بصفة خاصة، أعمق أثراً من الثورة الصناعية، حتى أن
 تأثيراتها في تغيير الأسس الاجتماعية والحضارية أصبحت غاية في الوضوح في
 كافة مجالات الحياة، سواء في المؤسسات الحكومية وقطاع النقل والتجارة والزراعة
 والثقافة والعلوم، أو حتى في حياتنا الشخصية نفسها (عضيمة ، ١٤١٦ هـ : ١٣).
ومن العناصر التي يجب أن نحظى بنصيب وافر من العناية والاهتمام، هو

العنصر الخاص "بأمن المعلومات" وأمن نظم المعلومات، فقد صاحب تنامي الحاسبات الآلية ووجودها في العديد من المواقع سواء في العمل أو في المنازل، ومع تزايد الإقبال على استخدام الإنترنت واستعمالها بشكل أكبر في العصر الحالي، أن ظهرت أنماط جديدة من الجرائم، وظهور نسل جديد من المجرمين ينبغي التعامل معه تعاملًا خاصًا.

كما أن التخوف العالمي من التطور التقني في أساليب النسخ والتصوير عن طريق الطابعات الملونة، وما صاحبه من تقدم تقني، والاتجاه نحو التعامل الإلكتروني أدى إلى ظهور أنواع أخرى من الجرائم هي جرائم تزوير البطاقات البنكية والانتمائية وغيرها (بصلة، ١٤١٦ هـ).

ومن هنا سوف نتناول دراسة الجريمة والسلوك الإحترافي في ظل نظام العولمة الثقافية، وبخاصة تلك الجرائم الناجمة عن التطور الرهيب في ثورة المعلومات والحاسبات واستخدام الشبكة العملاقة "الإنترنت" حيث أفرزت لنا هذه الثورة المعلوماتية نوعية جديدة من المجرمين، وما يتبع ذلك من تغييرات لاجتماعية، وثقافية واقتصادية، وسياسية، وأيضاً عسكرية، وحضارية، ليس فقط على مجتمعنا العربي وحده، بل على المجتمع العالمي بشكل عام .

وسوف تأتي دراستنا لتشمل عدد من النقاط الهامة نذكرها على النحو التالي :

أولاً : تعريف الجريمة والسلوك الإجرامي في عصر الإلكترونيات الرقمية .

ثانياً : الاتجاهات الحديثة في دراسة الجريمة .

ثالثاً : أساليب الجريمة الإلكترونية الحديثة .

رابعاً : بعض النماذج التطبيقية لأساليب الجريمة الإلكترونية .

خامساً : تحديات مكافحة الجريمة في ظل نظام العولمة الثقافية .

سادساً : موقف النظم الإسلامية والوضعية من الجريمة الإلكترونية الحديثة.

سابعاً : الآثار الاجتماعية والثقافية للجرائم الإلكترونية الحديثة .

ثامنا : خاتمة وأهم النتائج .

أهداف البحث :

لعل أهم أهداف هذا البحث تكمن في عدد من النقاط الهامة التي نوجزها فيما يلي:

١ - التعرف على أهم الجوانب السلبية الناتجة عن استخدام التقنيات الحديثة " الإنترنت " في ظل نظام العولمة الثقافية .

٢ - التعرف على بعض الجرائم الحديثة في ظل نظام العولمة، ومعرفة نوعية هذه الجرائم، والأساليب الحديثة المتبعة في ارتكابها، وكذلك أثرها على الأمن الاجتماعي.

٣ - إظهار أهم التحديات التي تواجه أساليب مكافحة الجريمة، والسلوك الانحرافي في ظل نظام العولمة الثقافية.

أهمية مشكلة البحث :

لقد انتشرت الحاسبات الآلية في المملكة العربية السعودية منذ أوائل السبعينات من القرن العشرين، وزادت أهميته في استخدامه في العديد من القطاعات الصناعية والتجارية والمالية وغيرها ...

ومما يدل على ذلك الانتشار والنمو هو أن المملكة العربية السعودية تعتبر من كبر الأسواق التجارية للحاسبات الآلية في الشرق الأوسط، فقد بلغت وارداتها في تلك الفترة فقط من الحاسبات ومعدات معالجة البيانات ما يقرب من ١,٦ بليون دولار أمريكي، وأن عدد الحاسبات الشخصية المتوفرة بالمملكة حتى نهاية ١٩٨٩ جعلتها تأتي في المرتبة الثانية بين دول العالم النامي بعد البرازيل ، وقد جاء في "النشرة الشهرية" السفارة للمملكة في واشنطن (1994,Saudia Arabia May) أن مبيعات تقنيات المعلومات في المملكة تمثل ٦٠% من إجمالي المبيعات في منطقة الشرق الأوسط، والإحصائيات المنشورة عن إجمالي المبيعات حديثا تجعل المملكة الدولة الثانية بعدمصرفي منطقة الشرق الأوسط، حيث يمثل السوق

السعودي أكثر من ٤٠% من حجم التعاملات في المنطقة، ويُقدّر حجم المبيعات السنوية في مجال تقنية المعلومات بحوالي ٣ مليار ريال سعودي.^١ ونظراً لهذا الانتشار السريع للحاسبات الآلي، مع وجود ودعم الإنترنت، فإن الجرائم والانتهاكات الناتجة عن انتشاره، قد تمثل تهديداً مباشراً وسريعاً للأمن الوطني والاقتصادي المحلي والعالمي.

وقد وجد المتسللون فرصتهم لممارسة جرائم عديدة مثل التزوير واختلاس الأموال والاستغلال الجنسي للأطفال وغيرهم، ومن أمثلة هذه الجرائم ما حدث من اختراقات لبعض مواقع الإنترنت لجهات حكومية سعودية وقطاع خاص، وموقع شركة هندسية سعودية في مدينة الرياض (Mbce.com.sa) الذي تعرض لهجوم من قبل قرصنة البرازيل، كما تعرضت مؤخراً مواقع حساسة في الكويت، والإمارات العربية المتحدة، ولبنان، مثل موقع مطار الكويت الدولي، ومصلحة الكهرباء والمياه في دبي، وشركة (D.J.System) في لبنان لاختراقات قرصنة عبر الإنترنت.

وكذلك ما حدث للمصرف الأمريكي للعلاق "سيتي بنك" الذي تم اختلاس مبلغ عشرة ملايين دولار منه، وكذلك الحادث المتعلق بحجب الدخول إلى الخدمة لعدد من المواقع الشهيرة والمهمة مثل موقع "ياهو" Yahoo.com ومواقع أخرى للبيع بالتجزئة مثل باي إنك "buy.com" وموقع إبي إنك (Ebay.com) وموقع من. إن. إن (CNN.com) وموقع أمازون (Amazon.com)، وفي عام ١٩٩٨م استطاع المتسللون مهاجمة العشرات من شبكات الحاسب الآلي في الولايات المتحدة الأمريكية، من أهمها مواقع وكالة الفضاء والطيران الأمريكية (Nasa) وتم اختراق أربعة عشر موقعاً من الخمسة عشر موقعاً الخاصة بالوكالة (صالح المسند، ٢٠٠٠م: ١٥٧).

ومن هنا جاءت أهمية البحث للوقوف على أهمية هذه القضية المعاصرة، ومحاولة

الجريمة والسلوك الانحرافي

د. مصطفى عمر حمادة

التعرف عليها، وعلى أبعادها المختلفة وبخاصة الأبعاد الأمنية والاجتماعية والثقافية، وأثرها على المجتمع، ومحاولة طرح بعض الحلول والتوصيات التي تكفل مواجهتها، من خلال الدراسة النظرية واستعراض ومراجعة أهم البحوث والدراسات التي تناولت هذا الموضوع.

أولاً : تعريف الجريمة والسلوك الانحرافي :

إن الجريمة بمعناها التقليدي تعني كل أو أي خروج عن السلوك أو المعايير الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، والتي يحكمها القانون الوضعي لأي مجتمع، وبالتالي فإن التعدي على الفرد وحقوقه وكذلك المجتمع يعرض دائماً مرتكبي هذا السلوك للمساءلة القانونية والجنائية.

لذلك فإن الجريمة التقليدية تعني كل عمل إنساني يخالف القانون، يقوم به المجرم لتحقيق أهداف إجرامية محددة.

وعموماً، فإنه يوجد نوعان من العمليات الإجرامية، الأول: يعرف بالعمليات الإجرامية التقليدية، والثاني: يعرف بالعمليات الإجرامية الإلكترونية الرقمية.

ويقصد بالنوع الأول: كل عمل إنساني يخالف القانون باستخدام الوسائل أو بدونها لارتكاب الجريمة لتحقيق غرض إجرامي محدد، ومن هذا التعريف تتضح لنا بعض العناصر التي تركز عليها تلك العملية وهي: تتمثل في المجرم التقليدي، والوسائل التقليدية، الجريمة التقليدية، والغرض التقليدي المحدد.

فالمجرم التقليدي هو إنسان مخالف للقانون، أما الوسائل التقليدية فهي تلك الأسلحة النارية أو البيضاء، في حين أن الجريمة التقليدية هي كل فعل لا اجتماعي بغرض تحقيق غرض إجرامي محدد يتمثل في الاعتداء على النفس أو المال أو المصلحة العامة.

أما النوع الثاني "الجريمة الإلكترونية الرقمية" فهي كل عمل إنساني إلكتروني رقمي يخالف القانون يقوم فيه المجرم باستخدام التقنية الرقمية الحديثة، وشبكة الإنترنت لارتكاب جريمة إلكترونية رقمية لتحقيق غرض محدد (عبدالرحيم

صنفي، ١٩٨٩م، ١٤١-١٤٢).

ويتضح لنا من هذا النوع أن العملية الإجرامية الإلكترونية الرقمية ترتكز على عدة عناصر هي: المجرم الإلكتروني الرقمي، ونوعية التقنيات التي يستخدمها، وكذلك نوعية الجريمة الإلكترونية الحديثة، وكذلك الغرض الإجرامي المحدد من هذه الجريمة الإلكترونية الرقمية.

فالمجرم الإلكتروني الرقمي هو الشخص الذي يخالف القانون ولديه معرفة إلكترونية رقمية لاستخدام الحاسب الآلي الرقمي، وشبكة الإنترنت، وأجهزة الاتصال الرقمية جنباً إلى جنب، أما التقنية الحديثة فهي الوسيلة (الجديد منها وما يستجد في المستقبل) في حين أن الجريمة الإلكترونية الحديثة هي أيضاً كل فعل لاجتماعي إلكتروني رقمي بغرض تحقيق غرض إجرامي محدد فيه اعتداء على المصلحة العامة أو النفس أو المال (عبدالرحيم صنفي م ١٩٨٩م - ٤٣٠).

لذلك يعتبر المجرمون الإلكترونيون الرقميون، أو ما يطلق اسم "الهكرز" Hackers هم رعاة بقر العصر الحديث، ويرجع ذلك إلى عدم معرفة الكثير من الناس للتكنولوجيا الإلكترونية الرقمية، وبرامج ونظم وقواعد بيانات الحاسبات الآلية الرقمية لشعوب ودول تحلم بالأمن والأمان والسلام والطمأنينة، والتطور الذي يحسن الخدمات المصرفية والتعليمية والصحية والدفاعية، ويسعى إلى توفير الأمن الغذائي، ويحسن التجارة بالمواد والخدمات التي لا تضر بالبيئة ولا تؤذي الإنسان والتقنيات التي تساعد على جعل الحياة أمتع نسبياً (مصطفى موسى، ٢٠٠٣: ٧-٩).

ومن هنا نجد أن المجرم في ظل نظام العولمة الثقافية، يطلق عليه المجرم الإلكتروني الرقمي، وهو اصطلاح له عدة مدلولات قانونية، إلكترونية، وأيضاً لغوية.

فمن هذا الاصطلاح القانوني، فإن المجرم الإلكتروني الرقمي يطلق عليه

علماء وفقهاء القانون الجنائي اصطلاح "المجرم المعلوماتي" وهو يعني الشخص الذي لديه مهارات تقنية أو ذرية تكتيكية باستخدام الحاسب الآلي، والقادر أيضا على اختراق الكود السري لتغيير المعلومات أو لتقليد البرامج أو التحويل من الحسابات عن طريق استخدام الحاسب نفسه (هدى حامد، ١٩٩٢، ٢٧) .

أما من ناحية الاصطلاح الإلكتروني، فيطلق خبراء أمن المعلومات الإلكترونية مصطلح "هاكرز" Hackers، وهي جمع لكلمة "هاكر" وتعني الإنسان الذي يقوم بعمليات الاختراق والتخريب عبر شبكة الإنترنت، كما يطلقون مصطلح "كراكرز" crackers على المخصصين بفك شفرات البرامج وليس تخريب الشبكات، فهم نوع من "الهاكرز" المتخصص (مصطفى موسى، ٢٠٠٣، ١٥-١٦) .

أما من ناحية المعنى اللغوي لكلمة "الهاكرز" فنظر عدم وجود ترجمة دقيقة واضحة للكلمة حتى الآن، فإن مصطلح الهاكرز يستخدم كما هو، وإن كان مصطلح "مخترقو أمن الشبكات" هو الأقرب تفسيراً للمعنى حتى الآن، ويطلق "مصطفى موسى" اصطلاح "المجرم الإلكتروني الرقمي" على كل مخترق لشبكة الإنترنت، ويقصد بالرقمي Digital تخزين البيانات في ذاكرة الحاسب الآلي الرقمي في شكل أرقام، وحين تطلب تخرج على شاشة الحاسب أو للطابعة في الشكل المقروء حسب اللغة التي خزنت بها، وليس كما هي مسجلة في ذاكرته .

وعلى ذلك فالمجرم الإلكتروني الرقمي هو الذي لديه قدرة على تحويل لغته إلى لغة رقمية وتخزينها واسترجاعها باستخدام الحاسب الإلكتروني الرقمي وملحقاته ووسائل الاتصال الرقمية .

ونلك بأداء فعل محدد، مما يحدث اضطرابات في المجتمع المحلي أو الدولي نتيجة لمخالفة قواعد الضبط الاجتماعي محلياً ودولياً (مصطفى موسى، ١٦، ٢٠٠٣-١٧) .

وقد حظي موضوع جرائم الحاسبات الآلية، في ظل نظام العولمة الثقافية، باهتمام كبير لدى الرأي العالمي والباحثين على حد سواء على المستوى العالمي، وبخاصة في الدول المتقدمة صناعياً، ففي الولايات المتحدة على سبيل المثال، فقد أنتجت هوليوود Hollywood في عام ١٩٨٣ فيلماً بعنوان "ألعاب الحرب" War Gams والذي يحكي قصة طالب ثانوي استخدم حاسباً شخصياً للوصول إلى حاسب هيئة الدفاع الوطني، وكان على وشك إشعال حرب نووية.

وفي خريف نفس العام استخدم مجموعة من الطلاب في ولاية "وسكانس" الأمريكية حاسبات شخصية للدخول إلى نظم حاسبات منتشرة في عدد من الولايات الأمريكية تملكها الحكومة، والقطاع الصناعي، ومؤسسات الخدمة العامة مثل المستشفيات، حتى قيل أيضاً أن هؤلاء الطلاب استطاعوا الدخول إلى حاسب أحد المستشفيات أكثر من ٨٠ مرة (صالح المصند، ٢٠٠٠م: ١٥٠-١٥١).

وفي نفس العام أيضاً حاول مجموعة من الإرهابيين تقجير حاسب "شركة مان" الألمانية لاحتجاجهم على مساهمة الشركة في تطوير صواريخ حربية، وقد كانت الخسائر المالية كبيرة، إلا أن ملفات البيانات الاحتياطية قد سلمت من الدمار.

وفي اليابان تم الإبلاغ عن ٢٨٨ جريمة تتعلق بأجهزة الصرف الإلكترونية في عام واحد فقط هو عام ١٩٨١، أما في كوريا الجنوبية فقد استطاع شاب بريطاني لا يتجاوز السادسة عشرة التسلل إلى قواعد بيانات تابعة لمركز أبحاث الطاقة النووية الكورية عبر شبكة الإنترنت التي ارتبطت بها شبكات المركز (عبد، ١٩٩٥: ٦٩).

ومن حاسب متواضع بمنزله في لندن، استطاع طالب فاشل يدعى "ريتشارد برايس" عمره ١٦ عاماً، أن يخترق شبكة معلومات القوات الجوية الأمريكية، وهو في غرفة نومه (الرياض، ١٤١٧: ٣٤).

وعلى مستوى البحث العلمي، فقد تم عقد العديد من المؤتمرات والندوات لمناقشة جرائم الحاسب الآلي، وأمن الحاسبات خلال العقدين الماضيين، فقد ناقش المؤتمر الوطني للحاسبات الآلية الذي عقد في مدينة الرياض عام ١٤١٢ هـ، أمن الحاسبات الآلية، كما نظم مركز المعلومات الوطني بوزارة الداخلية حلقة بحث عن "أمن الحاسبات والمعلومات" في الفترة من ٥ - ٨ من ذي القعدة عام ١٤١٩ هـ، وتمت مناقشة عدد من أوراق البحث التي تناولت الموضوع نفسه .

كما نظمت شركة (I.B.C) مؤتمراً حول الاتصالات الإلكترونية وشبكات الحاسب الآلي في مدينة "نبي" في نوفمبر عام ١٩٩٥م، حيث تم مناقشة المشكلات الأمنية الناتجة عن تزايد الاعتماد على شبكات الحاسب الآلي في منطقة الخليج العربي، كما تم عقد ست ندوات ومؤتمرات في أمريكا وفرنسا وبريطانيا ونيوزيلندا وفلندا خلال شهري سبتمبر وأكتوبر فقط من عام ١٩٩٥م لمناقشة أمن الحاسبات الآلية (صالح المسند، ٢٠٠٠ : ١٥١ - ١٥٢) .

أما من ناحية الاهتمام بدراسة قضايا أمن الحاسبات الآلية وتطوير أفضل الوسائل للحد من ظاهرة "جرائم الحاسبات الآلية"، فقد قامت وكالة الحاسبات الوطنية National Computerization Agency في كوريا الجنوبية بإقامة مركز أبحاث مهمته وضع إجراءات أمنية وبرامج محكمة كقيلة بضمان حد أدنى من أمن النظم والشبكات.

كما تم إنشاء "المركز الوطني لبيانات جريمة الحاسب الآلي" The National Center of Computer Crime Data في الولايات المتحدة الأمريكية ، كما تم تأسيس "تحالف برامج الأعمال" Business Software Alliance وهي هيئة أمريكية هدفها محاربة القرصنة المعلوماتية على المستوى العالمي ويعتقد بعض الخبراء والمحللين والمستشارين، المهتمين بأمن الحاسبات والمعلومات، أن جرائم الحاسبات الآلية سوف يكون لها أثر كبير على نظم المعلومات على جميع

المستريات، سواء كان ذلك على المنظمات أو على مستوى جميع أفراد المجتمع، بل ربما يصل تأثيرها على الأشخاص في أي مجتمع بذاتهم، وخاصة مع وجود انتشار الإنترنت واستخدامها والاستفادة منها بشكل كبير في جميع أرجاء المعمورة، فعالم اليوم يتزايد اعتماده على المعلومات وتقنياتها المختلفة.

ومع تسلمنا التام بكل ما يمكن أن تقدمه هذه التقنية من إيجابيات وفوائد عظيمة ومتعددة، في كافة جوانب الحياة، إلا أنها أيضاً لا تخلو من سلبيات وأوجه قصور قد تكون محل اهتمام واستغلال سيئ من قبل القراصنة الذين لديهم المهارات المعرفية والتقنية، فالممثلون Hackers يمثلون تهديداً حقيقياً، وهم مسئولون بدرجة كبيرة عن تعطيل أنظمة المعلومات والإضرار بها.

لكن هؤلاء المجرمون ليسوا الوحيدين الذين ينبغي التنبيه إليهم وأخذ الحيلة منهم، فهناك دلائل تشير إلى وجود منظمات إرهابية هدفها مهاجمة البنية التحتية للمعلومات مثل الإنترنت والهواتف والبنوك وغيرها من المواقع الأكثر حساسية في أي مجتمع على المستويين المحلي والعالمي (صالح المسند، ٢٠٠٠م: ١٥٢ - ١٥٣).

وإذا نظرنا إلى هذه الجرائم وأساليب ارتكابها وسلوك مرتكبيها، نجد أن الفرصة متاحة لهؤلاء المجرمين - أفراداً ومنظمات - أن يضعفوا المجتمع ويقومون بهدم أي مجتمع دون الحاجة إلى إطلاق رصاصة أو صاروخ واحد .

ولكي ندرك هذه الحقيقة يجب أن نتصور عدد القطاعات الرئيسية في أي مجتمع حديث، وبخاصة تلك التي تعتمد على التقنية الحديثة، والتي يفقدونها ربما تحل كارثة كبيرة في هذا المجتمع لو ذاك، ومن هذه القطاعات، على سبيل المثال لا الحصر، القطاع الصحي، وقطاع البنوك والقطاع الصناعي، وقطاع النقل والمواصلات، والأهم والأكثر خطورة هو القطاع الأمني والعسكري، وبقية القطاعات الحكومية الأخرى .

ثانياً : الاتجاهات الحديثة في دراسة الجريمة :

لم يعد للمجرم- في ظل نظام العولمة الثقافية- سمات فيزيقية أو اجتماعية محددة كما كان معروفاً في النظريات السابقة، كما هو الحال في النظرية التي أطلقها (لامبروزو).

لكن في عصر الإلكترونيات والفضائيات الحديثة، هناك سمات أخرى ثقافية وتقنية واقتصادية ظهرت مع بداية عصر "الكوكبية" Globalization أو ما نطلق عليه الآن "عصر العولمة الثقافية" بحيث أصبح العالم اليوم قرية واحدة.

ويمكن النظر إلى الجرائم الإلكترونية الرقمية، باعتبارها جرائم تهدد الأمن الاجتماعي، وبخاصة لمجتمعاتنا الإسلامية، حيث أن تعرض هذه المجتمعات لقيم وسلوكيات المجتمعات الغربية، قد تؤدي إلى تغييرات ثقافية من شأنها أن تعرض بعض الأبنية الاجتماعية لمجتمعاتنا إلى انهيار بعض النظم الاجتماعية والثقافية، وكذلك قد تؤدي إلى التفكك الاجتماعي بشكل عام.

ومن ذلك نجد أن الاستخدام الغير أخلاقي واللاقانوني لشبكة المعلومات الرقمية قد يصل إلى آلاف المراهقين والهواة، مما قد يؤثر سلباً على نمو شخصياتهم النمو السليم ويوقعهم في أزمات قيمية لا تتماشى مع النظام الاجتماعي السائد في مجتمعاتهم، وهذا يظهر بصفة خاصة عند التعامل مع المواضيع الجنسية، والصور والمواد الإباحية (البداينة ، ١٩٩ : ١٠١) .

ونظراً لأن "الظاهرة الإجرامية" تعد من الظواهر الاجتماعية التي تتميز بالنسبية، لكونها تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات، فإن ما يعد جريمة أو جنحة في مجتمع ما، قد لا يعد جريمة في مجتمع آخر، وقد يعد أيضاً مقبولا في مجتمع ثالث، فالتسريع والثقافة السائدان في كل مجتمع هما اللذان يحددان الجرائم والفضائل (السيف ، ١٩١٧ هـ : ١).

وقد استلزم التطور التقني تطوراً أيضاً في طرق إثبات الجريمة والتعامل

معها، فالجرائم التقليدية العادية يسهل - غالباً - تحديد مكان ارتكابها، بل أن ذلك يعتبر خطوة أولية وأساسية لكشف ملابسات الجريمة، في حين أنه من الصعوبة بمكان تحديد مكان وقوع الحادثة عند التعامل مع جرائم التقنية الرقمية الحديثة، وذلك لأن الرسائل والملفات الإلكترونية تنتقل من نظام إلى آخر في ثواني قليلة، كما أنه لا يقف أمام نقل هذه الرسائل أو الملفات أي حدود جغرافية مكانية أو زمانية.

لذلك فإن تحديد أين تكون محاكمة مرتكبها، والقوانين التي يخضعون لها أمر في غاية الحساسية والتعقيد، خاصة وأن كل دولة تختلف قوانينها عن الدولة الأخرى، فما يعتبر مثلاً جريمة في الصين، قد لا يعتبر جريمة في أمريكا والعكس، حتى أن الأمر يصل إلى حد اختلاف قوانين الولايات المختلفة داخل الدولة الواحدة، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية (Thompson, 1999: 25).

وقد أدى التطور التقني إلى ظهور جرائم جديدة لم يتناولها القانون الجنائي التقليدي مما جعل مشرعي القانون الوضعي يجمعوا على جسامه أوضخامة الجريمة المعلوماتية، والتهديدات التي يمكن أن تنشأ عن استخدام الحاسبات الآلية وشبكة الإنترنت، وقد دفع هذا إلى ضرورة دراسة الظاهرة الإجرامية الجديدة (الإلكترونية) وما لآثاره من مشكلات قانونية حول تطبيق القانون الجنائي من حيث الاختصاص القضائي، ومكان وزمان ارتكاب الجريمة، حيث يسهل على المجرم في مثل هذه الجرائم ارتكاب جريمة ما في مكان غير المكان الذي يتواجد فيه، أو الذي حدث فيه نتائج فعله (تمام، ٢٠٠٠ : ١-٣) .

إن تطوير القوانين الجنائية وتحديثها أمر يستغرق بعض الوقت، فهناك تعديلات كثيرة مطلوب إدخالها على التشريعات والتوانين التي تتعامل مع الجريمة، لكي تأخذ في الاعتبار المعطيات الجديدة التي نشأت عن استخدام الحاسبات الآلية، في مجال المعلومات، وعن ظهور شبكات المعلومات العالمية، ولذلك فقد لاقت جرائم الحاسب الآلي اهتماماً عالمياً، فعقدت العديد من المؤتمرات والندوات المختلفة، ومنها المؤتمر السادس للجمعية المصرية للقانون

الجناني في عام ١٩٩٢م، والذي تناول موضوع جرائم الحاسب الآلي والجرائم الأخرى في مجال تكنولوجيا المعلومات، وتوصل إلى توصيات أحاطت بجوانب مشكلة جرائم الحاسب الآلي، إلا أنها لم تتعرض لجزئية هامة، وهي التعاون الدولي في مجال مكافحة، والذي يعتبر الركيزة الأساسية للتعامل مع هذه النوعية من الجرائم (عيد، ١٤١٩ هـ : ٥٦-٢٥٩).

وقد كان هذا المؤتمر مؤتمراً تحضيرياً للمؤتمر الخامس عشر للجمعية الدولية لقانون العقوبات، الذي عقد في عام ١٩٩٤م، والذي وضع توصيات حول جرائم الحاسب الآلي، والإنترنت، والتحقيق فيها ومراقبتها وضبطها، وقد ركز المؤتمر على ضرورة إدخال بعض التعديلات في القوانين الجنائية لتواكب مستجدات هذه الجريمة وإفرازاتها (أحمد، ٢٠٠٠م : ٥-١٠).

لذلك، فإن التعاون الدولي في التعامل مع جرائم الإنترنت، هام جداً، لأنه سوف يطور أساليب متشابهة لتحقيق قانون جنائي وإجرامي لحماية شبكات المعلومات الدولية، خاصة أن هذه الجرائم تعد عابرة للقارات ولا حدود لها، وفي المقابل فإن عدم التعاون الدولي سوف يؤدي إلى زيادة القيود على تبادل المعلومات عبر الحدود، مما سيعطي الفرصة للمجرمين من الإفلات من العقوبة، ومضاعفة أنشطتهم الإجرامية (الشنيقي، ١٤١٤ هـ : ١١٣).

ومن هنا فقد أصبحت النظرية القائلة بأن "الجريمة تتوقف على الفرصة المتاحة لارتكابها" حكمة مستقرة في علم الإجرام، إذ غدا الحد من هذه الفرصة واحداً من المبادئ الأساسية لمنع الجريمة، وهذه المبادئ الأساسية لعلم الإجرام تنطبق على الجريمة المقتربة بالحاسبات الآلية والإنترنت، بقدر ما تنطبق على سرقة البنوك أو حتى سرقة معروضات المتاجر وغيرها من السرقات.

وعموماً، فإن الجريمة الإلكترونية الحديثة قنجلت من ظاهرة الجريمة ظاهرة إجرامية عالمية، ومن هنا ظهرت نظرية "عالمية الجريمة"، وهي تناقش

المسائل الناشئة عن امتداد تأثير نظم المعلومات الحديثة، إلى كافة أنحاء العالم، فلم تعد الجرائم التي تمارس من خلال الحاسبات الآلية والإنترنت، تحدث على المستوى المحلي فقط، بل شملت معظم دول العالم المتقدم والنامي على حد سواء. ولم تعد تستخدم فيها تلك الطرق التقليدية المعروفة لدينا جميعاً، ولم تقتصر على نوعية معينة من البشر لهم نفس السمات الفيزيائية والاجتماعية المعروفة في النظريات التقليدية المتعلقة بدراسة الجريمة، وسمات المجرم المعروفة في ارتكاب الجرائم، بل إن ممارسة الجريمة في عصر تدفق المعلومات والبيانات عبر الشبكة العنقائية "الإنترنت" جعل من الصعب تحديد سمة معينة من السمات التي كانت معروفة من قبل في النظريات التقليدية عن المجرم بصفة عامة، والممارسات الإجرامية بصفة خاصة، بل إن هناك خصائص جديدة أصبح يتحلى أو يتصف بها "المجرم الإلكتروني" في العصر الحديث، أولها وأهمها على الإطلاق تلك المعرفة التقنية بأساليب الحاسبات الآلية والإنترنت.

ومن هذا المنطلق جاءت أهمية الأساليب للمعرفة في التعامل مع التقنية الحديثة لشبكة المعلومات العنقائية "الإنترنت" في الأولوية للمجرم الإلكتروني، حتى يمكنه استغلال الفرص المتاحة لارتكاب جريمته بأسلوب تقني حديث في المكان والزمان الذي يحدده هو عبر هذه الشبكة العنقائية.

لذلك أصبح هناك خصائص ثقافية وتقنية واقتصادية لدى المجرم الإلكتروني لم تكن موجودة لدى المجرم التقليدي، ومن هنا جاءت "عالمية الجريمة" التي تمارس من خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، فلم تعد المجرم ولا لنوعية الجريمة التي تمارس نفس الأدوات أو الخصائص التقليدية، بل أصبحت جريمة ذات موصفات تكنولوجية عالية، لكنها ما زالت تمثل نفس الغرض الذي تمارس من أجله، وهو الاعتداء على النفس أو المال أو العرض، وحتى الأمن العام للدولة كلها بصفة عامة، وعلى المواطن بصفة خاصة.

ولما كان للجريمة الإلكترونية، ونوعية مرتكبيها هذا الخطر الكبير، الذي يشمل العديد من الدول والمجتمعات، فإن نظرية "عالمية الجريمة" تتعامل مع هذه النوعية من الجريمة، وكذلك مرتكبيها باعتبارها جرائم تمثل خطراً على الأمن الاجتماعي والثقافي والاستراتيجي لدول العالم أجمع، وبخاصة تلك الجرائم المتصلة بالجوانب الحيوية لأي مجتمع، مثل قطاع البنوك، والتجارة، والنقل والمواصلات والقطاعات الأخرى الحيوية المتصلة بالأمن الاجتماعي والعسكري لدول العالم المتقدم والنامي.

لذلك فإن التعاون الدولي في التعامل مع هذه النوعية من الجرائم، في غاية الأهمية، حتى يمكن وضع وتطوير الأساليب القانونية والجنائية والإجرائية الموحدة لحماية شبكة المعلومات الدولية من ناحية، ومعاينة مرتكبي هذه الجرائم من ناحية أخرى، وقد كانت السويد أول دولة تضع تشريعات خاصة بجرائم الحاسب الآلي والإنترنت، حيث صدر قانون البيانات السويدي عام ١٩٧٣ م، والذي عالج قضايا الاحتيال عن طريق الحاسبات الآلية، إضافة إلى شموله فقرات عامة تشمل جرائم الدخول غير المشروع على البيانات أو تزويرها أو تحويلها أو الحصول غير المشروع عليها. (الشينقي، ١٤١٤ هـ : ١٠٨، عيد، ١٤١٩ هـ : ٢٥٥).

وجاءت الولايات المتحدة بعد السويد، حيث شرعت قانوناً خاصاً بحماية أنظمة الحاسبات الآلية منذ عام ١٩٧٦ م، وفي عام ١٩٨٥ م، حدد معهد العدالة القومي خمس أنواع رئيسية للجرائم المعلوماتية وهي: جرائم الحاسب الآلي الداخلية، جرائم الاستخدام غير المشروع عن بعد، جرائم التلاعب بالحاسب الآلي، التعاملات الإجرامية، وأخيراً سرقة البرامج الجاهزة والمكونات المادية للحاسبات الآلية (محمد منشاوي، ١٤٢٣ هـ : ١٢-١٣).

وجاءت بريطانيا في المرتبة الثالثة في سن قوانين خاصة بجرائم الحاسب الآلي، حيث أقرت قانون مكافحة التزوير والتزيف عام ١٩٨١ م، حيث شمل تعريف أداة التزوير ووسائل التخزين المتنوعة، أو أي أداة أخرى يتم التسجيل

عليها بالطرق التقليدية أو الإلكترونية أو بأي وسيلة أخرى. (الشينقي، ١٤١٤ هـ : ١٠٩، ع ١٤١٩ هـ : ٢٥٥).

وتطبق كندا قوانين متخصصة ومفصلة للتعامل مع جرائم الحاسب الآلي والإنترنت حيث عدلت في عام ١٩٨٥م قانونها الجنائي بحيث شمل قوانين خاصة بجرائم الحاسب الآلي والإنترنت، كما شمل القانون الجديد تحديد عقوبات لجرائم السرقة أو الدخول غير المشروع لأنظمة الحاسبات الآلية، كما جاء ذلك في قانون المنافسة (The Competition)، والذي يخول لمأمور الضبط القضائي، متى ما حصل على امر قضائي، حق التفتيش على الحاسبات الآلية، والتعامل معها وضبطها (أحمد، ٢٠٠٠م : ٢٦٣).

وعلى مستوى الدول العربية فإنه - وحتى الآن - لم تقم أي دولة عربية بمن قوانين خاصة بجرائم الحاسب الآلي والإنترنت، ففي مصر مثلاً، لا يوجد نظام قانوني خاص بجرائم المعلومات، إلا أن القانون المصري يجتهد بتطبيق قواعد القانون الجنائي التقليدي على الجرائم المعلوماتية، والتي تفرض نوعاً من الحماية الجنائية ضد الأفعال الشبيهة بالأفعال المكونة لأركان الجريمة المعلوماتية، ومن ذلك على سبيل المثال اعتبر قانون براءات الاختراع ينطبق على الجانب المادي من نظام المعالجة الآلية للمعلومات، كما تم تطويع نصوص قانون حماية الحياة الخاصة، وقانون تجريم إفشاء الأسرار، بحيث يمكن تطبيقها على بعض الجرائم المعلوماتية، وأوكل إلى القضاء النظر في القضايا التي ترتكب ضد أو بواسطة النظم المعلوماتية الحديثة (تمام، ٢٠٠٠م : ١٩٩١، ١٠٤ - ١٢٦).

وفي المملكة العربية السعودية، نجد أنه لم تكن قوانين خاصة بجرائم الإنترنت، إلا أن الوضع مختلف هنا، فهي ليست في حاجة لتحديث قوانينها وتشريعاتها، لأنها تنطلق من الشريعة الإسلامية الكاملة، فالمشرع (واحد) لا ثاني له، والتشريع أزلي لأنه صالح لكل زمان ومكان، لأنه صادر من الخالق "العلي

القدير"، وهو خالق الكون، والعليم بما يصلح له ويصلحه.

وتركت الشريعة الإسلامية الباب مفتوحاً لتجريم الجرائم المستحدثة تحت قواعد فقهية واضحة منها مبدأ "لا ضرر ولا ضرار" وتركت لولي الأمر تقرير العقوبات لبعض الجرائم المستحدثة مراعاة لمصلحة المجتمع، ويندرج ذلك تحت باب التعازير (الشهري، عبدالله، ١٤٢٢هـ: ٣٨).

وهناك قاعدة "سد الذرائع" أي دفع الوسائل التي تؤدي إلى المفساد، والأخذ بالوسائل التي تؤدي إلى المصالح، ومن المقرر فقهيًا أن "دفع المفساد، أو الضرر، مقدم على جلب المصالح، أو المنفعة (أبو زهرة، ١٩٧٦م : ٢٢٨).

ثالثاً : أساليب الجريمة الإلكترونية الحديثة :

لقد زادت في الآونة الأخيرة الجريمة، بشكل يصعب معه تحديد مرتكبيها ومعاقبتهم، وذلك نظراً لاستخدام أساليب إلكترونية رقمية، جعلت من الصعوبة بمكان الوصول إلى المجرم في ظل هذا النظام الإلكتروني، والفضائي الحديث.

وهذه مشكلة كبيرة يعاني منها كل من الدول المتقدمة تكنولوجياً، والدول النامية التي تأخذ ببعض البرامج التكنولوجية الحديثة، وذلك بسبب تعدد الأساليب المتعلقة بالجريمة الإلكترونية من ناحية ونوعية المجرم الإلكتروني الذي يستخدم هذه الأساليب التقنية الرقمية من ناحية أخرى.

لذلك لا بد لنا أن نتعرف على الأساليب الإلكترونية الرقمية، ونوعية المجرم الإلكتروني الرقمي، وكذلك أنواع تلك الأساليب التقنية المستخدمة في هذه النوعية من الجرائم.

فإذا ما تم لنا معرفة ذلك، أمكن لنا أن نشكل الأساليب المضادة للحد من الجريمة وضبطها، وبذلك تسهم هذه المعرفة في تمكن رجال البحث الجنائي الإلكتروني من ضبطها، حتى تكون معرفتهم لهذه الجرائم التقنية الرقمية سابقة على المجرم الإلكتروني الرقمي في الوقت الراهن.

وقد تعددت، بل واختلفت طرق وأساليب جرائم الحاسبات الآلية والإنترنت، فهناك أساليب شائعة ومعروفة في ارتكاب جريمة الحاسب الآلي، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، بعض هذه الأساليب والتي من أهمها ما يلي:

- ١ - أسلوب قرصنة البرامج: وهي تعني النسخ الغير مقوض للبرامج.
- ٢ - أسلوب غش البيانات: وهو عبارة عن أسلوب إضافة أو حذف للبيانات، أو تغيير هذه البيانات قبل أو بعد أو حتى في أثناء إدخالها في النظام.
- ٣ - أسلوب تقريب الأرقام، وهو أسلوب يستخدم لاستغلال المؤسسات المالية التي تدفع الفائدة .

- ٤ - أسلوب القنبلة الموقوتة: وهو عبارة عن تعليمات غير مرخصة موضوعة في برنامج، وهي تهدف إلى إجراء عمليات غير مشروعة في وقت محدد مسبقاً.
- ٥ - أسلوب تسريب البيانات، وهو يعني النسخ غير المفوض للبيانات.
- ٦ - أسلوب التصنت على أجهزة الاتصالات السلكية واللاسلكية.

وهناك أساليب أخرى كثيرة مثل التزوير والخداع الإلكتروني، وغيرها من الأساليب الإلكترونية الرقمية التي يستخدمها قراصنة الحاسب الآلي والإنترنت (صالح المسند ، ٢٠٠٠م : ١٨٢-١٨٤) .

لذلك، فإن الأسلوب الإجرامي، هو ذلك الذي يتعلق بكيفية قيام المجرم باستخدام طريقة تتصل بالفعل أو الأداء المتمثل في القيام بفعل أو الامتناع عنه مما يحدث اضطراباً في المجتمع نتيجة مخالفة قواعد الضبط الاجتماعي.

وهذا الفعل أو الامتناع، يطلق عليه اسم "الجريمة" وعلى من ارتكبه اسم "المجرم" والفعل الذي يرتكبه المجرم بواسطة وسائل تقنية إلكترونية رقمية سواء شبكة الإنترنت أم بدونها، يمكن أن يطلق عليه اسم "الجريمة الإلكترونية" ويطلق على من يرتكبها اسم "المجرم الإلكتروني الرقمي".

وعندما نقول أساليب الجريمة الإلكترونية، فإننا نقصد هنا بالأساليب

الإجرامية الرقمية، كيفية استخدام الحاسب الآلي بنظمه، وبرامجه ووسائل الاتصال الرقمي، في ارتكاب الجرائم، سواء كانت هذه التقنية الرقمية هي محل الجريمة لم كانت وسيلة ارتكابها، سواء كانت عبر شبكة الإنترنت أو بأي أسلوب تقني آخر، يستخدم وسائل إلكترونية رقمية حديثة.

ويستخدم الإنترنت كوسيلة لارتكاب الجرائم والتي تنقسم إلى قسمين:

١ - الأول: وهو القسم الذي يحمل طابعاً جنائياً بحتاً .

٢ - والثاني: وهو يحمل طابع سياسي .

وسواء كانت الجرائم التي ترتكب تحمل طابعاً جنائياً بحتاً، أو طابعاً سياسياً خالصاً، وهي جرائم تبدو تقليدية تماماً، فإن الوسائل التي تستخدم في ارتكابها اليوم، تعدد وسائل تقنية وإلكترونية رقمية، وخاصة أن الوسيلة التي تستخدم في ارتكابها هي "الإنترنت" مما يجعلها تصبح جريمة إلكترونية رقمية ذات طابع تقني في أسلوبها وفي طريقه القيام بها.

رابعاً : بعض النماذج التطبيقية لأساليب الجريمة الإلكترونية :

هناك العديد من النماذج التطبيقية لأساليب الجريمة الإلكترونية الرقمية، فكما سبق أن أشرنا، فهناك جرائم ذات طابع جنائي، وأخرى ذات طابع سياسي، وسوف نتعرض لبعض هذه النماذج، باعتبارها وسائل مستخدمة لارتكاب الجرائم الإلكترونية، وبخاصة تلك الجرائم التي تستخدم "الإنترنت" باعتباره أحد أهم هذه الوسائل المستخدمة لارتكاب مثل هذه الجرائم، وبعض هذه النماذج التطبيقية نذكرها على النحو التالي :

١ - قيادة الجماعات الإرهابية عن بعد: بحيث يمكن من خلال شبكة الإنترنت بث الأفكار المتطرفة، سواء كانت سياسية أو دينية أو عنصرية، والتي تسيطر على وجدان الأفراد وتقسد عقاندهم، وتستغل معاناتهم في تحقيق مآرب خاصة تتعارض مع مصلحة الأفراد والمجتمع (جميل الصغير ، ٢٠٠٢م : ٢٢).

تقد قامت فتاة تدعى "انجيلا ناركان" من ألمانيا، وهي تنتمي إلى إحدى الجماعات المتطرفة، قامت بوضع معلومات مفصلة على موقعها الخاص في الإنترنت عن كيفية القيام بأعمال تخريبية، منها كيفية العبث بأسلاك صناديق الإشارة الكهربائية في السكك الحديدية لتعطيل حركة القطارات، بالإضافة إلى حالات أخرى لنشر مواد إباحية تتعلق باستخدام الأطفال في الجنس أو أساليب العنف الجنسي، وهو ما يتعارض مع قوانين الآداب العامة وقوانين حماية الطفل.

٢ - تتسبب جهود عصابات الجريمة المنظمة: حيث كشفت باحثة بريطانية عن استغلال شبكة الإنترنت في تجارة "الرقيق الأبيض" من خلال عقد صفقات لبيع الفتيات من خلال عقد صفقات لبيع الفتيات من أربعين دولة نامية ومن أوروبا الشرقية لمواطنين في دول الغرب من أجل المتعة والجنس، حيث يتم إرسال كالتلوجات تتضمن موصفات دقيقة عن فتيات مرافقات من أوروبا الشرقية والفلبين وكوستاريكا وغيرها، والتمن المحدد للشراء، وكيفية الاتصال بالوسيط، مع تنظيم لقاءات للراغبين في الشراء، ومقابلة الفتيات، التي يحصلن على وعود بالزواج والثراء التي لا أساس لها من الصحة، وترجع العصابات من ورائها ملايين الدولارات (جميل الصغير، ٢٠٠٢م : ٢٣-٢٤).

٣ - جرائم تهديد الأمن القومي والعسكري: ففي الآونة الأخيرة وقعت عدة حوادث تبين تعرض بعض المراكز العسكرية لجرائم قرصنة مطومانية بهدف الوصول والحصول على معلومات مخزنة في ذاكرة الحاسبات الآلية المستعملة فيها، وأكبر مثال على ذلك، سرقة معلومات عسكرية تتعلق بالسفن الحربية الخاصة بالدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي ناتو NATO، وذلك من خلال أنظمة الحاسبات الآلية الخاصة بسلاح البحرية الفرنسية في صيف ١٩٩٤م وقد حدث أيضاً، أن تمكن قرصان أمريكي يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، من اختراق واحد من أكثر النظم التقنية العسكرية أماناً، وهو الخاص بوزارة

الدفاع الأمريكية "البنتاجون" وتسلك عبرما يسمى "الجدران النارية" Fire Walls التي وضعت لحماية هذه الشبكة وكان بإمكانه أن يفرض البشرية كلها لخطر الإبادة لو تمكن من مواصلة عمله لتنفيذ إلى المخزون النووي الاستراتيجي ومعرفة شفرته، وضبطها نحو اتجاه معين لإطلاق آلاف القنابل النووية (جميل الصغير، ٢٠٠٢م : ٢٤) .

وفي إسرائيل، ألقى البوليس القبض على كاتب إسرائيلي بتهمة الاعتداء على أمن الدولة، حيث قام بنشر معلومات محظورة على الإنترنت تتعلق باختفاء الغواصة Sous-Marin في البحر المتوسط عام ١٩٦٨م.

وأثناء عملية غزو العراق للكويت، تمكن أحد اللصوص الهولنديين من سرقة أسرار عسكرية أمريكية بالغة الأهمية، من بينها تحركات القوات الأمريكية ومواقعها وأسلحتها وتحركات الطائرات المقاتلة، وقد أرسل هذه المعلومات إلى العراق قبل اندلاع الحرب، إلا أن العراقيين رفضوا هذه الهدية خشية أن يكون في الأمر خدعة (الأهرام، ١٩٩٧ : ١) .

وقد أدى انتشار استخدام الحاسبات الآلية، ووسائل التقنية الإلكترونية الرقمية، إلى قلة أو ندرة الجواسيس الدوليين، الذين يتبادلون حقائب الملفات في أماكن سرية، أو نقل معلومات مهمة في ميكرو فيلم يخفي في أماكن معينة من جسم الإنسان، فالمواد المحظورة مثل المنشورات الإرهابية أو الخطط الإرهابية التخريبية، أو المواد الخطرة ، يمكن بل يسهل نقلها الآن من خلال ضغطة واحدة خفيفة على زر موجود بلوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر (جميل الصغير ، ٢٠٠٢م : ٣٤) . وهناك العديد من النماذج التطبيقية لأساليب الجريمة الإلكترونية الرقمية، يصعب حصر أنماطها، نظراً للتطور السريع في أساليب التقنية الحديثة لأنماط جرائم الحاسبات الآلية.

فهناك جرائم إلكترونية رقمية تشمل العديد من أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وكذلك تشمل الأمن الاجتماعي والقومي والاستراتيجي والعسكري .

فعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك جرائم للسطو على البنوك، وجرائم تمثل الاحتيال باستخدام بطاقات الدفع الإلكتروني، والجرائم المخلة بالأدب العامة للمجتمع واستثارة الغرائز الجنسية، وجرائم الأحداث وبيع الأطفال عبر الشبكة العنقالية "الإنترنت".

ومن الأمثلة التطبيقية تمثل هذه الجرائم نذكر منها بعضاً من النماذج التي استخدمت تلك التقنية الحديثة في غير الغرض المخصص لها، وهي جريمة لصبي يبلغ من العمر ستة عشرة سنة من أصل أسترالي قام بالدخول إلى أحد المواقع البولندية على شبكة الإنترنت، وقام بتحميل البرامج التي يستخدمها البنوك، لكي يتوصل إلى الترتيب العشوائي لترقيم بطاقات الائتمان.

وبعد أن توصل إلى الأرقام الصحيحة لهذه البطاقات، استخدمها في شراء أجهزة كمبيوتر بلغت قيمتها ٣٧ ألف دولار أسترالي (حوالي ٢٤ ألف دولار أمريكي) وتبرع لأحد الجمعيات الخيرية بمبلغ ٥,٧٠٠ دولار.

ومن أمثلة النماذج التطبيقية لأساليب الجريمة الإلكترونية، والتي تمس الأمن الاجتماعي لأي مجتمع، تلك الجريمة التي قام بها طالب مصري يدرس بمعهد الطيران المدني، ويدعى (أ.أش) حيث روج هذا الطالب "عبر موقع أنشأه على الإنترنت باللغة الإنجليزية" لشائعة وجود سفاح طليق بمنطقة مصر الجديدة ومدينة نصر، يقوم باستدراج الفتيات وقتلن، مما ترتب عليه انتشار الذعر والخوف بين الفتيات والنساء بهذه المناطق، مما أدى إلى زعزعة الأمن والاستقرار الاجتماعي بهذه المناطق لفترة من الزمن (خالد جودة، ٩٩ : ٣٢).

وقد حكمت محكمة أمن الدولة بحبس الطالب شهرين وغرامة ٢٠٠ جنية مصري، في أول قضية من نوعها ينظرها القضاء المصري، وبخاصة في مجال استخدام الحاسب الآلي، مستنداً في ذلك على المادة ١٠٢ مكرر، من قانون العقوبات والخاصة بكل من أذاع عمداً شائعات كاذبة من شأنها زعزعت الأمن

العام، وإلقاء الرعب في قلوب الناس وإلحاق الضرر بالمصلحة العامة.
ومن الأمثلة التطبيقية على أنواع الجرائم التي تمس الأمن الاستراتيجي والعسكري، تلك الجريمة التي قام بها "ريشارد برايس"، والذي يبلغ من العمر ١٦ عاماً وهو بريطاني الجنسية، حيث استخدم شبكة الإنترنت لاختراق محطة الأبحاث النووية لكوريا الشمالية، وشبكة القوات الجوية الأمريكية، مما كان سيعرض هذه المجتمعات إلى كارثة نووية وعسكرية خطيرة، ليس فقط على كوريا الشمالية والولايات المتحدة، بل كارثة تشمل العالم كله، مما يهدد الأمن والاستقرار العالمي، وهذه جرائم في غاية الخطورة على الأمن والاستقرار العالمي، وهذه جرائم في غاية الخطورة على الأمن والسلام العالميين. (مصطفى موسى م ٢٠٠٣: ٧٠).

وعصوماً، فإن كل هذه النماذج السابقة للجرائم الإلكترونية الرقمية، وغيرها الكثير ليست هي الغرض الأساسي الذي ظهرت من أجله أجهزة الحاسبات الآلية، أو الشبكة العنقائية "الإنترنت"، وإنما كان الهدف الأول من إنشائها هو زيادة حجم المعلومات وانتشارها عبر اتصالات بشكل سريع، وكذلك الاستفادة من الثورة العلمية الحديثة، والاستفادة من الدراسات على مستوى العالم، إلى غير ذلك من الأهداف المفيدة علمياً وتكنولوجياً، وتكون أيضاً ذات أهداف نبيلة تحمل قيمة إنسانية.

خامساً: تحديات مكافحة الجريمة في ظل العولمة الثقافية :

تواجه الجريمة الإلكترونية، في ظل نظام العولمة الثقافية، تحديات كبيرة في مواجهتها ومكافحتها، نظراً لأساليب التقنية التي تستخدمها من ناحية، وتنوع أشكالها وتعددتها من ناحية أخرى، فالجرائم الإلكترونية كثيرة ومتنوعة وسريعة، وتشمل كافة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وأيضاً الأمنية، مما يجعل هذه الجرائم تمثل تهديداً خطيراً لأمن الفرد والمجتمع والثقافة.

ومن هنا نجد أنه لا يوجد حل جذري ينصح به للوقاية من جرائم الحاسب الآلي بأشكالها المختلفة، فكما سبق أن رأينا، فإن جرائم الحاسب الآلي والإنترنت

تتنوع أشكالها وتتعدد أساليب ارتكابها وتظهر في كل يوم أساليب جديدة بحسب التطور التقني الذي يحدث بسرعة رهيبه، في كافة الوسائل وأساليب الاتصالات الحديثة، إلا أنه يجب وضع استراتيجية أمنية شاملة لنظم المعلومات تحدد عناصرها ومسؤوليات الدخول إلى نظم المعلومات، كما يجب وضع خطة طوارئ دقيقة واختبارها ومراجعتها بصفة دورية (صالح المسند ، ٢٠٠٠م : ١٩٠).

أما عن تحديثات مواجهة الجريمة الإلكترونية في ظل نظام العولمة ، فقد قدم "مارتن نابجمان" M.Nabgman تقريراً حول "لوربا ومجتمع المعلومات العالمي" أو ما يسمى بمجتمع الإعلام الكوكبي، وقد نشر التقرير في يوليو ١٩٩٤، وقد تضمن التقرير خطة عمل ضمن أربعة محاور رئيسية، وقد كانت أهم نقطة في التقرير هي "ضرورة مزية البيانات وحماية حقوق الملكية الفكرية" (باتريك نيكولا، ١٩٩٧ : ١١٢ - ١١٣).

وقد ناقش وزراء خارجية دول الاتحاد الأوروبي مشروع يسمح بحماية أسس البيانات، هذا بالإضافة إلى قرارات مؤتمر قمة الدول الصناعية السبعة في فبراير من عام ١٩٩٥م.

ولمكافحة الجريمة الإلكترونية، وحماية البيانات والمعلومات الإلكترونية، فقد قدم كل من وزير العدل الكندي والنائب العام في نهاية ١٩٩٥م، كدما مشروع قانون يقترحان فيه ما يقرب من مائة وخمسون تعديلاً في قانون العقوبات والقوانين الأخرى المرتبطة به، والخاصة بالجرائم التكنولوجية، وتزويد كروت الاعتماد والاحتيايل، والحصول على خدمات بوسائل تكنولوجية، وذلك من أجل مكافحة ومواجهة الجرائم الإلكترونية، وتشديد العقوبات الخاصة بهذه الجرائم، نظراً لخطورتها على المجتمع والأمن القومي لكافة المجتمعات (السيد عتيق، ٢٠٠٢م : ٤٢).

ولما كان لجرائم الإنترنت هذه لخطورة على أمن الفرد والمجتمع، وبخاصة

ما يتعلق بحرية البيانات والمعلومات الخاصة بكل فرد أو مؤسسة، وخاصة أن تلك الجرائم تمثل اعتداءً على النفس والعرض والمال وغيرها، وكذلك ما تمثله هذه الجرائم من تهديد للأمن القومي للمجتمعات على مستوى العالم، ما يتبع ذلك من آثار اجتماعية وثقافية واقتصادية سلبية، وبخاصة أن هناك بعض من هذه الجرائم تمثل اعتداءً على حياة وأمن واستقرار الأسرة والمجتمع، لأن من بين الجرائم التي ترتكب في هذا الشأن ما يعرض تلك الأسر أو المجتمعات لمشكلات اجتماعية بالغة الخطورة، خصوصاً أنها تمس أعراض هذه الأسر، أو التشهير ببعض أفرادها، وكذلك بث الصور والموضوعات التي قد تتسبب في التفكك الأسري، والخلافات العائلية، والتي غالباً ما تؤدي إلى الانفصال أو الطلاق في كثير من الأحيان.

ولما كان لهذه الجرائم الإلكترونية هذا القدر من الخطورة، فإنه كان لزاماً على الجهات الأمنية والتشريعية والقضائية أن تطور أساليبها ووسائلها حتى يمكنها التعامل مع جرائم ثورة المعلومات الحديثة، ومواجهة تلك الجرائم الإلكترونية بأسلوب علمي متطور وغير تقليدي، حتى يمكنها أن تقف أمام تحديات عصر العولمة الثقافية، وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، وذلك في ظل التقدم التقني الذي فتح آفاقاً جديدة، وجلب معه مشكلات ومخاطر جديدة لم نكن نسمع عنها من قبل.

لذلك فإن لم نستطع أن نواجه هذه المخاطر والتهديدات والمشكلات الناجمة عن هذه الثورة المعلوماتية، ونتعامل معها بكفاءة عالية واقتدار، وأن نطور مؤسساتنا وأنظمتنا، فإن أمننا الاجتماعي والقومي سيكون مهدداً وتصبح بذلك حياتنا الاجتماعية والثقافية الاقتصادية، بل والاستراتيجية في خطر كبير، لذلك يجب وضع البرامج والأساليب والطرق الحديثة الفعالة للتعامل مع هذا الواقع الجديد الذي فرض نفسه على الأفراد والمجتمعات على مستوى العالم كله (صالح المسند ، ٢٠٠٠م : ١٩٤).

ورغم أن "الإنترنت" يمكن أن يستفاد منه في فتح آفاق جديدة للمعرفة والتقدم التقني لكافة المؤسسات التعليمية والصحية والاقتصادية، والاستفادة كذلك منه في التسويق والإعلان والخدمات العديدة الأخرى، وهذا هو الغرض الأساسي الذي أنشئ من أجله، لخدمة البشرية وتيسير الاتصالات الدولية ونقل البيانات والمعلومات التي تعود بالفائدة على الفرد والمجتمع، إلا أنه فتح أبواباً خلفية للمتسللين واللصوص لارتكاب العديد من المخالفات والجرائم، التي يجب التعامل مع هذه النوعية التقنية من الجرائم، وبخاصة تلك الفوعية التي تهدد أمن الفرد والمجتمع، أو تلك الجرائم التي تؤثر سلباً على الأمن الاجتماعي والقومي لكافة مجتمعات العالم، وهذه النوعية من الجرائم الإلكترونية تمثل خطراً - ليس محلياً بل دولياً - كبيراً يجب التصدي له ومواجهته مواجهة تتضافر فيها جهود الفرد والمجتمع، وليضا المجتمع الدولي، نظراً لما تحمله من تهديدات على الصعيدين الفردي والمجتمعي.

سادساً : موقف النظم الإسلامية والوضعية من الجريمة الإلكترونية :

لقد فاقت أساليب الجرائم الإلكترونية الرقمية كل الحدود، وتعددت أساليبها وأنواعها وطرق ممارستها، وبخاصة مع التطور الرهيب والمتجدد في مجال في مجال صناعة الحاسبات الآلية وطرق ووسائل الاتصالات الحديثة. وتشير الإحصائيات إلى أن الخسائر العالمية نتيجة عمليات القرصنة قد بلغت حوالي ٤,٣ مليار دولار، هذا إلى جانب الخسائر المترتبة على بعض الأساليب الإلكترونية الأخرى (مصطفى موسى، ٢٠٠٣م : ٢٥٧).

وقد بدأ إقرار بعض القوانين الوضعية من بعض الدول، سواء كان ذلك على مستوى العالم العربي أو على مستوى العالم، وهناك العديد من هذه القوانين التي تم وضعها من أجل الحد من ظاهرة الجريمة الإلكترونية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، ذلك القانون الذي تم إقراره من جانب الكونجرس الأمريكي

للتصدي لهذه الظاهرة، وذلك من خلال التصديق على قانون يجعل أنواعا معينة من القرصنة التي تتم على الحسابات الآلية جريمة يعاقب مرتكبيها بالسجن المؤبد وسوف يشدد هذا القانون الأحكام المفروضة على الحاسب، كما يمنح مزودي خدمة الإنترنت مهلة إضافية لتقديم تقرير عن نشاط أي مستخدم يشتبه فيه إلى السلطات، وسيحظر الإعلانات على الشبكة لأجهزة رقابة غير مقننة، ويقيم مكتبا للعلوم والتكنولوجيا داخل وزارة العدل الأمريكية (٢٠٠٣م : ٢٥٧).

ويسعى القانون إلى جعل الإجرام الإلكتروني بنية التسبب في الضرر الجسدي أو حالة وفاة جريمة أخطر بكثير مما هي عليه الآن.

ومن هنا نجد أن اتجاه ظاهرة الإجرام بصفة عامة، والإجرام الإلكتروني الرقمي بصفة خاصة، تشير إلى الزيادة والتنوع والتطور المذهل الأمر الذي يستلزم مضاعفة جهود الباحثين والعلماء من أجل الحد من الظاهرة الإجرامية، وبخاصة الإلكترونية الرقمية وذلك برصد هذه الظاهرة وأساليب مواجهتها بطرق أمنية مضادة للحد من هذه الظاهرة، وضبطها على الصعيدين المحلي والعالمي.

وفي هذا الصدد، فقد أعلن الدكتور: رمسيس بهنام في كتابه الشهير الذي يحمل عنوان "الجريمة والمجرم في الواقع الكوني" مقولاته الاجتماعية والأخلاقية حين قال: "أيها الناس، إنكم في هذا الزمان، أحوج ما تكونوا إلى أهل الأخلاق منكم إلى أهل العلم" (رمسيس بهنام، ١٩٩٦م: ١٤٥).

وهذا معناه أن المجتمع الآن في حاجة ماسة إلى أناس يحملون قيما اجتماعية وأخلاقية، قبل أن يكون لديهم أساليب تقنية حديثة، لأن العلم والتقدم التكنولوجي إذا لم يصاحبه قيما أخلاقية، أدى إلى نقشي الفوضى وانتشار الجرائم، وهو ما يهدد أمن المجتمع واستقراره وسلامة أفراده.

وكما قال الشاعر:

والعلم إن لم تكتفه شمائله
كان مطية الإخفاق

وعموماً، فإن الجريمة— كما هو معتاد ومتعارف عليه— في القانون الوضعي وفي الفقه الإسلامي، إذا ارتكبت بالطرق التقليدية، فإنها تأخذ وصفها الموضوع لها، سواء أكانت سرقة أم قذفاً أم نصباً وما إلى ذلك.

وبالتالي تطبق العقوبة الموضوعة لها ولكن نظراً لحدثة الجرائم الإلكترونية التي تقع عن طريق استخدام الحاسبات الآلية، والتي لم تكن موجودة في عصر تكوين الفقه الإسلامي، بل إن بعض القوانين الوضعية لم تتدخل بالتنظيم لاستخدامات الحاسب الآلي ووصف الجرائم التي ترتكب عن طريقه.

لذلك لم يجد القضاء بداً من تطبيق القواعد العامة المعروفة في القانون الوضعي. ومن الملاحظ، في الأغلب الأعم، أن الحاسب الآلي لم يكن له أذى تأثير في وصف الجرائم التي ترتكب من خلاله، فجرائم النصب تأخذ نفس الصفة، حتى لو ارتكبت عن طريق الإنترنت، مثلها في ذلك مثل جريمة النصب التي ترتكب سواء بالطرق التقليدية، أو عن طريق استخدام التقنية الحديثة، وذلك باستخدام وسيلة الإنترنت، في ظل نظام العولمة الثقافية.

وقد حرصت النظم الإسلامية على مواجهة الجريمة بصفة عامة بطرق وأساليب تحمي الفرد والمجتمع وتصور الأضرار من كل من تسول له نفسه ارتكاب أي فاحشة أو جريمة، وذلك حرصاً منها على صيانة وحماية المجتمع من نقى الرذيلة وإعلاء للفضيلة التي هي غاية الشريعة الإسلامية.

وتعتبر أساليب ووسائل الإعلام في المملكة العربية السعودية نموذجاً للحد من ارتكاب الجرائم، سواء أكانت تلك تقليدية أم إلكترونية، ويمكن ملاحظة ذلك عند نشر أخبار الجرائم ونشر صور المجرمين، لأن سياسة المملكة ونظمها تابعة من العقيدة والشريعة الإسلامية، فالإسلام يأمر بالستر على العاصي، ما لم يجاهر العاصي بمعصيته، حتى لا تشيع الفاحشة ويعم الضرر منها على الجميع، فالستر على المخطئ والمذنب صفة من صفات المؤمنين وعباد الله المتقين، مع النصيح

الدائم للمذنب والمخطئ في الخفاء بالحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين، على أن تكون النصيحة في جو من التوجيه لتأخذ طريقها إلى القلوب، ويظهر أثرها في الأخلاق والسلوك، وذلك لأن الله تعالى نهى عن سوء الظن بالآخرين والتجسس عليهم.

ويتركز أسلوب وزارتي الداخلية والإعلام في المملكة العربية السعودية في الإعلان عن تنفيذ العقوبة في بيانات نمطية تابعة من الشريعة الإسلامية في جرائم الحدود والقصاص، ويعتمد الأسلوب في الإعلان عن جرائم "الرأي العام" مثل "الإرهاب" وخلافه على البيانات المتضمنة معلومات تفيد التحقيقات والمصلحة العامة بما يخدم البلاد ولتعميق مفهوم "الجزاء من جنس العمل".

وعن مدى شرعية نشر الأساليب الإجرامية بصفة عامة، والإلكترونية بصفة خاصة، بشكل تفصيلي في المملكة، يقول الدكتور الطيباني "إن نشر التفاصيل الدقيقة لكيفية القيام بأعمال مثل السرقة والاعتداءات وارتكاب المحرمات، إذا كانت هناك مصلحة تتحقق من نشر هذه التفاصيل فيجوز نشرها، أما إذا كان لمجرد النشر، دون أن يحقق ذلك فائدة أو مصلحة، فالأولى هو "عدم النشر"، وذلك بشرط عدم ذكر التفاصيل التي تثير الغرائز أو تعين على فعل وارتكاب مثل هذه الجرائم، وتلفت أنظار وأذهان الشباب أو تنبه من يفكرون في القيام بارتكاب جرائم إلى وسائل تنفيذها ويكتسبون الخبرة من جراء نشر هذه التفاصيل" (مصطفى موسى، ٢٠٠٣م : ٢٤٥).

ويقول الشيخ محمد الشطي عن حكم نشر التفاصيل الدقيقة لكيفية ارتكاب مثل هذه الجرائم "إن نشر تلك التفاصيل المتعلقة بجرائم السرقة وغيرها تعد من المحرمات، لأن فيها تعريف دقيق لأصحاب النفوس الضعيفة والمترددة، والتي من الممكن أن تقوم بعمل هذه الجرائم، وفيها أيضاً تشجيع لهم على القيام بمثل هذه الأعمال الإجرامية التي حرمها الشرع، وأكبر مثال على ذلك يظهر لنا في

قصة قتل قابيل لأخيه هابيل، حيث لم يبين القرآن الكريم تفاصيل الجريمة، وكيفية القتل، وذلك حرصاً منه على عدم تعريف الناس بوسائل وأساليب وطرق القتل، قال تعالى ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ (المائدة : ٣٠) .

وهنا يتضح لنا حرص المولى عز وجل على عدم ذكر تفاصيل أول جريمة في تاريخ البشرية بصفة عامة وقعت على الأرض، وذلك حتى لا تنتشر التفاصيل الدقيقة التي يمكن أن يتعلم منها البشر كيفية ارتكاب الجرائم، لكي لا تنتشر الجريمة والفوضى وتنتشر بين الناس.

وهذا المبدأ الشرعي ينطبق على كافة أنواع الجرائم سواء كانت تلك الجرائم التقليدية بصفة عامة، لم الجرائم الإلكترونية الرقمية بصفة خاصة.

وعموماً، فإن قضية الجريمة والعقاب في الشريعة الإسلامية تنقسم بوضع متميز بين سائر التقنيات الجنائية المقارنة، حيث عالجها الشارع الحكيم في إطار النظام القانوني الشامل المتكامل، الذي يغطي كافة جوانب الحياة ويصلح لكل زمن ومكان. فالتجريم والعقاب في النظام الإسلامي يتوجه مباشرة إلى صيانة وحماية المصالح المعتبرة في الإسلام، وهي الدين، والنسل، والنفس، والمال، والعقل. ولن أي اعتداء على مصلحة من تلك المصالح يعتبر جريمة يعاقب فاعلها، ويختلف بالطبع مقدار العقاب حسب جرمة الفعل الإجرامي. (صالح المسند، عبد الرحمن المهني، ٢٠٠٠م: ١٨٤).

سلباً : الآثار الاجتماعية والثقافية للجرائم الإلكترونية :

لا شك أن استخدام وسائل التقنية الحديثة "الإنترنت" ذات أهمية للفرد والمجتمع، وذلك إذا تم استخدام هذه التقنية لصالح كل من الأفراد والمجتمعات، وهذا هو الغرض الأساسي من وراء اختراع الحاسبات الآلية، والشبكة العملاقة "الإنترنت". لكن الاستخدام السيئ لهذه الشبكة قد أدى إلى ظهور العديد من المشكلات الاجتماعية والثقافية، التي كان لها تأثيرها على الفرد والمجتمع،

وبخاصة على أمنه واستقراره وسلامته، نتيجة للتهديدات المتلاحقة التي يسببها الاستخدام السيئ لهذه الشبكة "الإنترنت".^١

لذلك، فباته مما لا شك فيه أن هناك خطورة كبيرة من تلك الجرائم التي تُمارس بواسطة استخدام الحاسبات الآلية بمختلف أشكالها سواء كانت تلك الخطورة تشمل الفرد أو المجتمع. ومن بين هذه الآثار، تلك الخسائر، وانتهاك حقوق الإنسان لقطاعات كبيرة من السكان، وزعزعة الأمن والاستقرار الاجتماعي، وتهديد سيادة الدول.

فقد أصبح بإمكان الجماعات الإرهابية المدربة تدريباً جيداً التغلغل في المجتمع وتهديد أمن المطارات والمصانع الكيميائية، ومحطات الطاقة النووية، والصواريخ.. وغيرها من المؤسسات والقطاعات التي تسيطر بالحاسب الآلي، ولا تطبق فيها إجراءات أمنية كافية. كما أن الاعتماد على النظم الإلكترونية في تزايد مستمر في القطاع المالي، حيث يُستخدم في تحويلات النقد وربط أسواق المال بشبكات اتصال ضخمة تعمل على مدار الساعة. فيمكن أن تتسبب أي معلومة خاطئة أو أي خلل في الاتصال في مشكلات كبيرة، وربما يؤدي ذلك إلى تذبذب خطير في سوق المال. ولعل نتائج مثل هذه الأفعال وسهولة ارتكابها يُعد دافعا قويا للجريمة المنظمة التي تملك المال والخبرات والتنظيم الذي يمكنها من تنفيذ تلك الجرائم الإلكترونية والتي تهدد الأمن والاستقرار الاجتماعي للفرد والمجتمع. (صالح المسند، عبدالرحمن المهني، ٢٠٠٠م: ١٧٣).

وبالإضافة إلى الكوارث المالية، أو ما يُعرف بالآثار الاقتصادية الناجمة عن جرائم الحاسب الآلي والإنترنت، والتي يمكن أن تسببها تلك الجرائم للمؤسسات التجارية وأيضاً للأفراد، فهذه الجرائم يمكن أن تهدد حياة فئات اجتماعية أخرى، كما هو الحال للجريمة التي حدثت في أحد المستشفيات الأمريكية، حيث قام أحد المجرمين بالدخول إلى حاسب مستشفى وعيّن بملفاته وغير ذلك، وكانت النتيجة وفاة أحد المرضى.

كما أن المحادثات الإلكترونية عبر شبكة الإنترنت أصبحت وسيلة تهدد سلامة المجتمع وقيمه الأخلاقية، فقد تسببت تلك المحادثات في ارتكاب أفعال مشينة، وجرائم أخلاقية ضد الأطفال والنساء على أيدي بعض الأشخاص عديمي الأخلاق والضمير، وهذه النوعية من الجرائم قد تحدث على كافة المستويات، سواء في الدول المتقدمة أو النامية، كما أنها قد تحدث لجميع الأفراد سواء من كان منهم خبيراً في الحاسب الآلي أو كان مبتدئاً. ما لم يتم باتباع الطرق الصحيحة للحنر والحيلة. (صالح المسند، عبد الرحمن المهني، ٢٠٠٠م : ١٧٤-١٧٥).

ولقد نتج عن الاستخدام السيئ لشبكة المعلومات "الإنترنت" ظهور عدد كبير من المشكلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وأيضاً الاستراتيجية والأمنية ذات التأثير المباشر على أمن المجتمع واستقراره الاجتماعي والاقتصادي والعسكري، الأمر الذي أدى في النهاية إلى ظهور بعض الجرائم ذات الصلة باستخدام شبكة المعلومات والاتصالات استخداماً سيئاً، نتج عنه زعزعة الأمن والاستقرار على مستوى العالم.

ولعل ما يهمنا هو ذلك التأثير المباشر لاستخدامات هذه الشبكة على المجتمع وبناءه الاجتماعي. فقد أشارت العديد من الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية إلى ضرورة استقرار البناء الاجتماعي والثقافي لأي مجتمع مهما كان حجمه، ولعل لدراسات "رادكليف براون" R. C. Brown عن "البناء الاجتماعي" وخصائصه، وكذلك دراسات مالمينوفسكي B. Malinowski عن "البناء والوظيفة" وغيرهما أهمية خاصة في إبراز أهمية دراسة بنية المجتمع الاجتماعية والثقافية للتعرف على التغييرات التي طرأت على هذا البناء في أزمنة مختلفة.

من هنا تبرز أهمية التعرف على تأثير شبكة المعلومات والاتصالات على البناء الاجتماعي، وكذلك دراسة الآثار الاجتماعية والثقافية التي نتجت عن ثورة المعلومات والاتصالات في ظل نظام العولمة الثقافية، وخاصة أن هذه التقنية

الحديثة قد خلقت نوعيات من الانحرافات، كان لها تأثيرات مباشرة على كل من الأسرة والمجتمع . وأصبح لهذه النوعية من الانحرافات السلوكية وانتشارها عبر شبكة المعلومات أثارها الاجتماعية والثقافية على البناء الاجتماعي بكل نظمته وأنماطه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الموجودة في المجتمع.

وقد ظهرت العديد من المشكلات الاجتماعية، على مستوى الأسرة والمجتمع فقد بدأت في الظهور مشاكل انحراف داخل الأسرة، نتيجة للاستخدام السيئ لشبكة الإنترنت في ظل غياب رقابة الأسرة من ناحية، ونظام المراقبة الاجتماعية من ناحية أخرى.

يضاف إلى ذلك انتشار المقاهي الثقافية لاستخدام الإنترنت "مقاهي الإنترنت" على مستوى المجتمع، والذي أدى إلى العديد من الانحرافات السلوكية لدى الشباب، حيث أن استخدام هذه الشبكة عن طريق المقاهي تكون بمنأى عن الأسرة ورقابة المنزل - أحياناً - على استخدام شبكة الإنترنت الموجودة لدى العديد من الأسر العربية الآن، وتطالعنا الصحف العربية، ربما يومياً، بالعديد من هذه المشكلات الانحرافية داخل الأسرة وبين الشباب، وكذلك عرض العديد من المشكلات الناتجة عن استخدام الإنترنت لدخل الأسرة.

وقد عرض برنامج "البيوت أسرار"^(١) يوم السبت الموافق ٢٠٠٣/١٠/٤ نماذج من استخدام الإنترنت لدخل الأسرة، وما نتج عن استخدامه من انحرافات بين الأزواج، وأيضاً بين الأبناء. فقد عرض البرنامج لحالتين داخل أسرتين مختلفتين، كل منهما تبين المأساة الناتجة عن الاستخدام السيئ لشبكة المعلومات والاتصالات الحديثة "الإنترنت"، وأثرها على الأسرة من ناحية، وبالتالي على المجتمع من ناحية أخرى.

الحالة الأولى: وهي لزوج يقوم بعقد لقاءات مع فتاة على شبكة الإنترنت من

(١) برنامج " البيوت أسرار " محطة الاوائل ART السبت ٢٠٠٣/١٠/٤ .

خلال برنامج "الردشة" Chat، والذي يستغرق يومياً ساعات طويلة، يبتعد خلالها عن زوجته وأولاده، ويتفرد بنفسه في غرفته الخاصة "حجرة مكتبه" ويظل ساعات طويلة من خلال هذا البرنامج، حتى وصل به الحال لممارسات غير شرعية مع الفتاة التي يتحدث معها من خلال برنامج الردشة، وذات مرة دخلت زوجته عليه الغرفة فجاءه فرجده يمارس الجنس مع هذه الفتاة عبر شبكة الإنترنت، من خلال هذا البرنامج اللعين، وبدأت علاقات أسرية شديدة، أنت في النهاية إلى الطلاق وضياع الأسرة وزعزعة استقرارها الاجتماعي وتفكك بناءها وتصعد ميكائزم الأسرة، ونتج عن ذلك أيضاً تفكك الأسرة، وفقدانها للاستقرار وتعرضها للضياع.

الحالة الثانية: هي حالة لفتاة أدمنت الجلوس أمام الإنترنت لساعات طويلة كل يوم، ووصلت إلى حالة من "إدمان" للإنترنت، حيث بدأت بالتجوال لولا بين المواقع المختلفة، واستقر بها الأمر إلى الاتصال والردشة عبر هذه الشبكة مع العديد من الشباب، ولنتهى بها الحال إلى الاندماج مع مواقع الإباحية الجنسية، والمواقع الأخرى المخلة بالأداب العامة، ووصل بها الحال أيضاً إلى عقد صداقات مع بعض الشباب من جنسيات أجنبية وممارسة بعض السلوكيات المخلة، والتي لا تتفق مع القيم الدينية لفتاة مسلمة وعربية، كذلك لا تتفق مع عادات وقيم الحياة الاجتماعية والدينية للأسرة العربية المسلمة. وهي بالتالي لا تتفق وحياء المرأة ولا الفتاة المسلمة بصفة خاصة، والعربية بصفة عامة. وعندما علمت الأسرة بذلك، قامت بحرمانها من استخدام الإنترنت، وعانت الفتاة بعد ذلك من مرض الاكتئاب، وبدأت تعيش في عزلة داخل المنزل. وحاول رب الأسرة تخفيف تلك المعاناة، فقام بقطع الاشتراك في شبكة الإنترنت لتعود الفتاة لاستخدام الجهاز باعتباره حاسباً لياً فقط، وهنا فقت الفتاة للسيطرة تامة على ذاتها، وشعرت بأنها وحيدة بدون الاشتراك في شبكة الإنترنت، مما أدى بها في النهاية إلى الانتحار، وفقت بذلك آخرتها وحياتها.

وهذه الحالة توضح لنا الآثار المدمرة لاستخدام هذه الشبكة المعلوماتية وتظهر لنا أثراً سلبياً من استخدامها، وهو مرض "الإدمان" وهو إدمان من نوع خاص، ليس بإدمان المخدرات أو الهروين أو غير ذلك من المواد المخدرة، بل هو إدمان استخدام شبكة الإنترنت، والذي يؤدي - ليس فقط - إلى ضياع الفرد، بل تدمير للفرد والأسرة والمجتمع بصفة عامة.

أضف إلى كل ما سبق ذلك الانحراف السلوكي الناتج عن استخدام الشباب - الذين هم عماد الوطن - لشبكة الإنترنت، وبخاصة انتقالهم بين المواقع الجنسية والإباحية المختلفة، التي تؤدي إلى تدميرهم وضياع هويتهم الثقافية. وأخص بالذكر موقعين في غاية الخطورة على شباب أمتنا العربية والإسلامية وهما موقع "عرب-لاف" Arab-Love ، وموقع "عرب-سكس" Arab-Sex.

وعند تحليل هذان الموقعان، نجد أن المستهدف منهما عند الدخول لهذان الموقعان هم "المراهقون" الذين يسهل الإيقاع بهم، والحصول من خلالهم على لنق المعلومات التي قد تضر بالمصالح الحيوية للشباب وبلادهم المختلفة، ولا نستبعد أن يكون وراء هذا الموقع "إسرائيل" وأكبر دليل على ذلك، أن هذا الموقع يظهر الفتيات والشباب العربي بالسطحية والشذوذ، في حين يظهر الفتيات الإسرائيليات بأنهم يبحثون عن الرجل المتفاهم للحياة، والذي يقيم علاقة صداقة مخلصه بهدف الزواج، وإقامة عائلة مبنية على الحنان والحب والتفاهم.

وقد ذكر أحد الأطباء الأمريكيين، والذي يعمل في جامعة "كولومبيا" أنه إذا صح أن السجن هو جامعة الجريمة، فإن الإنترنت الآن - وبعض وسائل الاتصال الأخرى كالتلفزيون - يعتبر المدرسة الإعدادية لانحراف الشباب، نظراً إلى أن أكثر المتعاملين مع هذه التقنية من الشباب هم في سن المراهقة، وهذا معناه أن كثيراً من المجرمين قد تعلموا - في السابق من التلفزيون - الجريمة من شبكة المعلومات الإلكترونية.

وقد أظهرت بعض الدراسات العلمية الجادة في اسبانيا أن حوالي ٣٩% من الشباب المنحرفين قد تلقوا معلوماتهم التي استمدوها في تنفيذ جرائمهم إما من التليفزيون أو الإنترنت، وقد تطابقت نتائج هذه الدراسة مع النتائج التي أسفرت عنها الدراسات التي أجريت في العديد من بلدان العالم، التي كشفت أن غياب البديل السليم هو أهم العوامل المؤثرة في انقلاع الشباب نحو برامج الجريمة والجنس وغير ذلك من مواقع الإباحية والانحراف. فالشباب اليوم لا يبحث عن البرامج المخلة أو الخليعة إلا حينما يفقد البديل الصحيح. ومن ثم فإنه إذا تعود الشباب والصبية على هذه النوعية السيئة من البرامج التي تبثها المواقع المختلفة، يصبح من الصعب بعد ذلك تحويلهم عنها، خاصة بعدما ظهر ما يمكن أن نطلق عليه "إدمان الإنترنت".

ومهما يكن من وجود آثار اجتماعية وثقافية ذات تأثير سلبي مباشر على الأسرة والمجتمع، نتيجة لاستخدام أجهزة الاتصالات الحديثة في ظل نظام العولمة الثقافية استخداماً سيئاً، إلا أن هذه الوسائل التقنية الحديثة، ليست كلها شر مطبق، لكن هناك العديد من الإيجابيات، وبخاصة في الاتصال والإعلام والتجارة والمواصلات وغير ذلك من جوانب الحياة المتعددة، والتي تعود بالعديد من الفوائد على الفرد والمجتمع.

فالتكنولوجيا المعاصرة داخل وسائل الاتصالات ونظم المعلومات تلعب دوراً كبيراً في إحداث تغييرات جوهرية على حاضرتنا ومستقبلنا، أردنا ذلك أو لم نرد، وسوف تترك هذه التغييرات آثاراً بارزة على البيئة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وأيضاً السياسية لمختلف المجتمعات، وتؤدي بعد ذلك إلى إنشاء قنوات وطنية وعالمية لتبادل المعلومات ونقلها بطريقة مفيدة وبناءة من خلال توظيف أحدث الأجهزة الإلكترونية الرقمية الحديثة.

خاتمة وأهم النتائج

لقد حاول هذا البحث الإجابة على بعض التساؤلات، التي طرحت في مقدمته وبخاصة تلك المتعلقة بالجرائم الإلكترونية ذات التأثير المباشر على الفرد والمجتمع واستقرارهما الاجتماعي.

وقد حاولنا في هذا البحث أن نتعرف على النقاط الهامة، والتي انطلق منها هذا البحث، حتى يمكننا الوقوف على نوعية الجرائم الحديثة في ظل نظام العولمة الثقافية، وكذلك الأساليب المتبعة في ارتكابها، ومعرفة إلى أي حد يمكن أن يكون لهذه الجرائم الإلكترونية الحديثة من آثار سلبية ذات تأثيرات مباشرة على الأمن الاجتماعي لكافة المجتمعات، والتي تنعكس بدورها على الفرد والثقافة والمجتمع. وقد حاولنا أيضا أن نتعرف على أي حد يمكن أن يكون هناك من تحديات تواجه هذه النوعية من الجرائم والاحترافات وأساليب مكافحتها في ظل نظام العولمة الثقافية.

وقد اتضح من الدراسة أن شبكة الإنترنت تمثل صيحة العصر، ولله مثل أي وسيلة علمية يحمل الخير للإنسانية، بما يقدمه من خدمات لا حصر لها، أما الجرائم التي ترتكب من خلاله، فهي تمثل الجانب المظلم أو الجانب السلبي من استخدامه، وهذا ما دفعنا لبحث موضوع "الجريمة والسلوك الانحرافي" الناتج عن استخدام هذا الأسلوب التقني في عصر العولمة الثقافية.

وقد اتضح لنا أيضا من خلال البحث والدراسة أن الجرائم التي تنشأ عن استخدام "الإنترنت" وشبكات الاتصال عن بُعد تتطلب إعادة النظر في بعض المبادئ المستقرة في القوانين الجنائية، حتى يامن الفرد والمجتمع شر الاستخدام السيء لهذه التقنية الحديثة وخاصة أن هناك بعض السلوكيات التي تعتبر جريمة في دولة، في حين تعتبر تعبيراً عن حرية الرأي في دولة أخرى، وأكبر مثال على ذلك هو الحكم الصادر من القضاء الفرنسي بمصادرة كتاب الطبيب الخاص

الرئيس "فرانسوميتران" الذي أوضح فيه طبيعة مرض "السرطان" الذي كان يعاني منه منذ بدء ولايته الأولى، لأن الكتاب يتضمن اعتداء على حرمة الحياة الخاصة للرئيس الراحل، في حين نجد أن هذا الكتاب قد أعيد نشره في الولايات المتحدة، بحجة ممارسة الحرية والتعبير عن الرأي.

وكد جاءت أهم نتائج البحث - المتصلة بالتساؤلات التي طرحها - متضمنة لبعض موضوعات الدراسة، وقد اشتملت على ما يلي:

١ - لقد أوضحت الدراسة بعض الجوانب السلبية الناتجة عن استخدام التقنيات الحديثة مثل شبكة "الإنترنت" في ظل نظام العولمة الثقافية. فعلى الرغم من أن الإنترنت يمكن أن تفتح أبواب عالم جديد لكافة المنشآت للاستفادة منه في الإعلان وتسويق المنتجات، وإيصال الخدمات، إلا أنه قد فتح الباب أيضاً للمتهملين ولصوص التقنية الحديثة، وبخاصة في سرقة المعلومات والرسائل السرية وأرقام البطاقات الائتمانية عن طريق البريد الإلكتروني، وغيرها من سبلات استخدام هذه الشبكة العملاقة.

٢ - أوضحت الدراسة ظهور نوعيات جديدة من الجرائم والسلوك الانحرافي الناتج عن استخدام الإنترنت، وكذلك الأساليب الإلكترونية المستخدمة في هذه النوعية من الجرائم. وكذلك أثر هذه النوعية من الجرائم على الأمن الاجتماعي لكافة المجتمعات، وما لهذه الأساليب من آثار اجتماعية وثقافية واقتصادية وأيضاً أمنية على الفرد والمجتمع. ومن هذه الأساليب التعدي على حقوق الآخرين وسرقة المعلومات، والانحراف السلوكي، وانتهاك الحرمات، وجرائم الجنس والمال، والتعدي على الأطفال، وحرمات الأسر والمجتمعات، والذي يهدد بزعزعة الأمن والاستقرار الاجتماعي لهذه المجتمعات.

٣ - لقد أوضحت الدراسة أن هناك تحديات كبيرة تواجه أساليب مكافحة هذه النوعية من الجرائم والانحرافات السلوكية في عصر المعلومات والاتصالات

تمثلت في صعوبة إثبات الجريمة وأيضاً صعوبة الوصول إلى الجاني، هذا بالإضافة إلى تحدي أكبر وأهم وهو "صعوبة تطبيق العقوبة على الجاني" سواء كان داخل الدولة أم خارجها.

٤ - أوضحت الدراسة ضرورة أن تتطور الأجهزة الأمنية والقضائية وأيضاً التشريعية، وتطوع أساليبها، حتى تتمكن من التعامل مع ثورة الاتصالات والمعلومات الحديثة في ظل العولمة الثقافية.

٥ - أوضحت الدراسة أن أمن المجتمعات جميعاً في خطر، وسوف تكون كل المجتمعات مهددة بهذا الخطر القائم عن طريق هذه الشبكة - إذا لم تستخدم الاستخدام الأمثل - لذلك لابد من وضع برامج عملية وأساليب وطرق فعالة للتعامل مع هذا الواقع الجديد، وما يفرضه من تحديات - إيجابية وسلبية - على مستوى الأفراد والمجتمعات، ليس على مستوى المجتمعات المحلية فقط، ولكن على مستوى العالم بصفة عامة. مما يتطلب معه تضامن دول العالم لجمع في التصدي لتلك الجرائم والانحرافات الناتجة عن استخدام شبكة المعلومات والاتصالات الحديثة، والتي تؤثر على أمن واستقرار الفرد والمجتمع.

ومن هنا نجد أن الأساليب الإجرامية، باستخدام التقنية الإلكترونية الرقمية، قد تجاوزت الحدود، وتعددت أنواعها وطرقها مع التطور الجديد والمتجدد دائماً في مجال صناعة الحاسبات الآلية، ووسائل الاتصالات الحديثة والمتطورة.

وأخيراً، فقد اتضح من البحث والدراسة، أن هناك العديد من المشكلات والصعوبات العملية والإجرائية، التي تظهر عند ارتكاب أحد الجرائم الإلكترونية الرقمية "الإنترنت" ومن بين هذه المشكلات ما يلي:

١ - صعوبة إثبات الجريمة.

٢ - صعوبة التوصل إلى الجاني.

٣ - صعوبة تطبيق العقوبة على الجاني، وبخاصة المقيم بالخارج .

- ٤ - اختلاف القوانين الجنائية من مكان لآخر.
 - ٥ - صعوبة تحديد المسؤولية الجنائية على الفعل الإجرامي.
 - ٦ - قصور القوانين الجنائية في كثير من الدول، وبخاصة في العديد من البلدان العربية.
 - ٧ - صعوبة المطالبة بالتعويضات المدنية .
 - ٨ - صعوبة ضبط الأدلة التي تثبت الجريمة .
- التوصيات :

وعموماً، فقد خرجت الدراسة بعدة توصيات، نوجزها فيما يلي:

- ١ - ضرورة التعاون الدولي والإقليمي في مواجهة الجرائم الإلكترونية الحديثة.
- ٢ - ضرورة تضافر جهود بعض الوزارات في كل دولة لمكافحة مثل هذه الجرائم، ومن هذه الوزارات، وزارة العدل، ووزارة الداخلية، والتجارة وبعض الجامعات ومراكز البحوث المعنية بمثل هذه البحوث .
- ٣ - ضرورة وضع برامج تدريبية مستمرة لرجال الأمن، تواكب تطور هذه الجرائم، حتى يمكن مواجهتها طبقاً لتغيرات العصر .
- ٤ - ضرورة عقد مؤتمر دولي لتوحيد المبادئ والقوانين الجنائية الدولية، التي تحاسب وتعاقب "المجرم الإلكتروني" مهما اختلف المكان الذي يرتكب فيه مثل هذه الجرائم.

وفي نهاية البحث نؤكد على المقولة الشهيرة للدكتور رمسيس بهنام في كتابه

"الجريمة والمجرم في الواقع الكوني" حين قال :

" ليها الناس، إنكم أحوج إلي أهل الأخلاق منكم إلى أهل العلم في هذا

الزمان".

المراجع

أولاً : المراجع العربية :

- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (بدون سنة نشر) "لسان العرب"، دار صادر، بيروت.
- أبو زهرة، "الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي"، دار الفكر العربي، ١٩٧٦.
- أحمد زكي بدوي، "معجم العلوم الاجتماعية"، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٢.
- أحمد صائق دياب، "أغرب قصص الاحتيال ضحاياها أنكياء جدا"، مجلة الجديدة، العدد ٧١١، فبراير ٢٠٠٠.
- أحمد حسام طه تمام، "الجرائم الناشئة عن استخدام الحاسب الآلي"، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠.
- أحمد راضي، "سقوط عصفية تخصصت في تقليد العملات بالفيوم"، الوفد، يناير ٢٠٠٠.
- أحمد جلال عز الدين، "أساليب التعاون العربي في مجال التخطيط لمواجهة الجرائم والإرهاب"، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ١٤١٤هـ.
- السيد عتيق، "جرائم الإنترنت"، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- جلال ثروت، "الظاهرة الإجرامية- دراسة في علم الإجرام والعقاب"، بدون نشر، ١٩٧٢.
- جميل الصغير، "الإنترنت والقانون الجنائي"، دار النهضة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- حسام الدين محمود عزب، "إيمان الإنترنت وعلاقته ببعض أبعاد الصحة النفسية"، المؤتمر العلمي السنوي، مركز دراسات الطفولة، جامعة عين شمس في الفترة من ٢٤-٢٥ مارس عام ٢٠٠٠، القاهرة.
- خالد جودة، "أول حكم قضائي مصري لحماية الملكية الفردية"، الشرق الأوسط، ١٩٩٩.
- زكريا لال، "الإنترنت في التعليم وواقع البحث العلمي"، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٠.
- عبد الله عبد العزيز اليوسف، "للتقنية والجرائم المستحدثة"، أبحاث الندوة العلمية لدراسة الظواهر الإجرامية المستحدثة ومبيل مواجهتها - أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية" تونس، ١٤٢٠هـ.
- عبد الرحمن عبدالعزيز الشنيقي، "أمن المعلومات وجرائم الحاسب الآلي"، ط١، الرياض، بدون نشر، ١٤١٤هـ.
- عبد المجيد سيد منصور، "السلوك الإجرامي والتفسير الإسلامي"، مركز أبحاث الجريمة، الرياض، ١٤١٠هـ.
- فايز عبد الله الشهري، "استخدامات شبكة الإنترنت في مجال الإعلام الأمني العربي"، مجلة البحوث الأمنية، ١٤٢٢هـ.
- عبد الرحيم محكي، "الظاهرة الإجرامية"، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٩م.
- محمد إبراهيم السبب، "الظاهرة الإجرامية في ثقافة وبناء المجتمع السعودي: بين التصور الاجتماعي وحقائق الاتجاه الإسلامي"، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٧هـ.
- محمد أمين الرومي، "جرائم الكمبيوتر والإنترنت"، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٣.
- محمد الطبطبائي، "التجسس على الآخرين لا يجوز"، القبس، ٢٠٠٢م.
- محمد نجيب سعد، "النساء قد يستثمرن أموالهن وذهبهن في التجارة الإلكترونية في السعودية نوناً معوقاً"، جريدة الحياة، العدد ١١، ١٤٢٠هـ.
- محمد فتحي عيد، "الإجرام المعاصر"، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

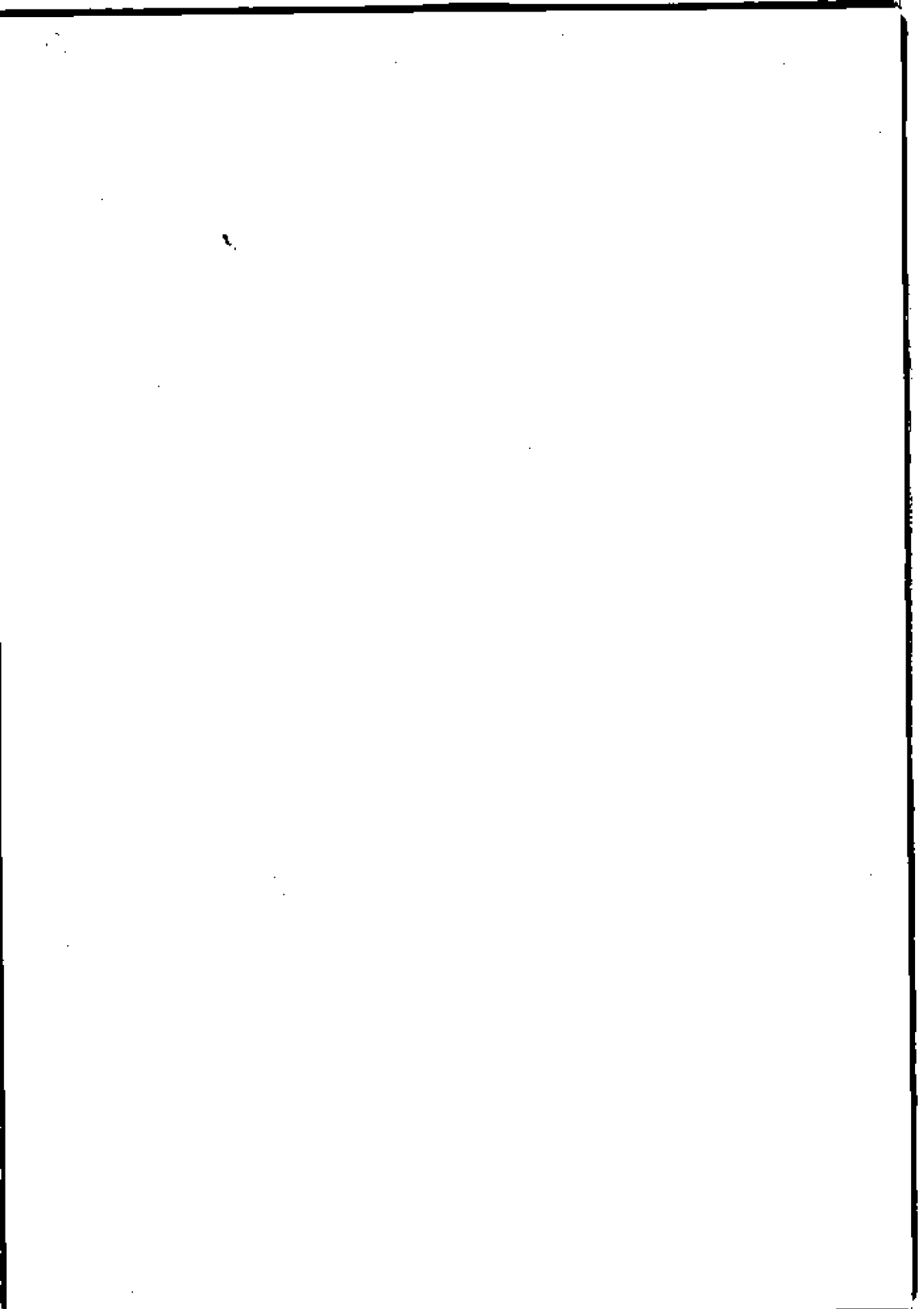
- محمد فتحي عيد، " الإنترنت ودوره في انتشار المخدرات"، اكااديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- مشعل عبد الله القدهي، "المواقع الإباحية على شبكة الإنترنت وأثرها على الفرد والمجتمع"، جدة، ١٤٢٢هـ.
- مصطفى السيد، "تلك إلى شبكة الإنترنت"، ط٢، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- مصطفى موسى، "اصاليد إجرامية بالتقنية الرقمية: ماهيتها، مكافحتها"، دار الكتب والوثائق القومية المصرية، ٢٠٠٣م.
- هادي عبد الإله أحمد، "تفتيش نظم الحاسب الآلي وضمانات المتهم المعلوماتي"، النشر الذهبي للطباعة، عابدين، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- هدى قشوش، " جرائم الحاسب الآلي في الشريعة المقارن"، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.

ثانياً المراجع الأجنبية :

- Ball,M.,1987, (To each Athief :),Lesson im seystms security .
- Coelli,W.& Shain,M.,1989,(Information security for Managers.) London . Macmillan Publisjers .It .
- Carter,D.,1995,(Computer Crimevatgeories : How Techno-Criminals Operate . FBI Law Enforcement Bulletin .
- Chryusler ,E.,1987,,(Impact of Computer Crime on EPP.Audits.Journal of System Management .
- Coutoure,L.,1989,,(The Computer Criminal : An Investagative Assessment.FBI Law Enforcement ,Bulletin .
- Egger,Q.,1996,(Internet Behaviour and Addiction Digital Madia),.Vol.10 .
- Jorrah,Fawaz,2000,(Human Development),. in Encyclopedia of Social Science,Vol.,20 .
- Kuper,A.,& Kupe,J.,1985,(Cognitive Behavioral Therapy). ,in the Social Science Encyclopedia ,LondonmBoston,Roston,Routledge and Kagan Paul .
- Magzoub,M.m& Aladulaaly,A.,1992,(The Role of Research in the advancement of Computer Technology in Saudia Arabia Proceeding of the 13th National Computer Conference on Information Technology ,Riyadh,Techno Printing Press .
- Marley ,S.,1995,(High Technology Thiefs Lead to High Priced Losses) Business Insurance .
- Mesh,Gustavo,S.,2001,(Social Relationships and Internet mse among adolescents in Israel,) Social Science Quarterly,Vol.82 .

- Mitchall, K.I., 2001, (Risk Factors and Impact of online Sexual solicitation of Youth, Jama : Journal of the American Medical Association .
- Noblett, M., G., 1993, (The Computer High - tech Instrument of crime), FBI., law Enforcement Bulletin .
- Parker , D.B., 1989, (Coputer Crimes, Viruse and other Crimoids) .Executive Speeches .
- Prasad, J.N., & Sprague, D., 1991, (the Global Problem of Coputer Crimes and the need for security .
- Romney , M., 1995, (Coputer Fraud - What Can be done about it ? the CPA . Jomals .
- Roeley J., 1996, (the Basises of Information Systems), London: Library Association ublashing .
- Sanders, D., 1985, (Computer stoday). New.york, Megraw.Hill .
- Sessionm W.S., 1991, (Computer Crimes :An Escalating Crime Trend) FBI Law Enforcemen Bulletin .
- Sieber , Mlrich., (The International Handbook on Computer Crime: Computer Related To Economic Crime and the Infringement .
- Simddy, L.Q., 1992, (Computer Low) in Encyclopedia of library and Information Science , Vol.49, New.york , Marcel Doucker .
- Suler, J., 1996, (why is this thing eating my time ?) computer and cyper space , Vol.11 .
- Sobol, M., (Computer Crime Trends : A Brief Guide for Bank) Bank administration .
- Stevens, L., 1987, (Security Systems ; Getting Management to shell out Computer world .

مراجعة الكتب



الصناعات الغذائية في مصر :

١ تحليل في التنظيم المكاني والتركيب والاداء

(التأليف: أ.د. محمد محمود إبراهيم الديب) كلية الآداب - جامعة عين شمس

الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ٢٠٠٢ .

عرض: أ.د. محمد إبراهيم رمضان*

يقع الكتاب في ١٠٥٢ صفحة ، وقد زود بعدد من الأشكال البيانية والخرائط التي رسم العديد منها بالحاسب الآلي والتي بلغ مجموعها ٧٠ شكلاً تقريباً ، أسهمت في تحليل الاختلافات المكانية للصناعات الغذائية ، كما ساعدت على تفهم موضوعاته وتبسيطها. بالإضافة إلى ١٥٥ جدولاً تضم الإحصاءات التي وردت في الكتاب، وهي تضم نوعين من الإحصاءات أحدهما : مباشر - أي من مصادره - والنوع الآخر: إحصاءات قام بتجميعها وتبويبها وفق متطلبات موضوعات الدراسة ، مستخدماً في كثير من المواضع أسلوب الزيارات الميدانية لتجميع المادة العملية - التي لا يقوى عليها غير أولي العزم من الرجال

ونزيل الكتاب بعدد وافر من المراجع العربية والأجنبية (يزيد عددها على ٤٠٠ مرجع وأكثر من ٢٥% منها صدرت بعد عام ١٩٩٠ م) لمن يريد المزيد من التفاصيل في أي موضوع من موضوعات الدراسة .

وبعد الكتاب ذا فائدة منهجية لطلاب البحث العلمي ، إذ يعالج الصناعات الغذائية في مصر بمنهج جديد يختلف عن المناهج المتبعة عند دراسة مثل هذه الموضوعات - جغرافية الصناعة - وتتمثل أركان هذا المنهج في :-

(الوصف ، التفسير والتحليل ، تحديد المشكلة ووضع الحلول والتنبؤ)

- أما الوصف :- فيتمثل في دراسة التطور الاقتصادي للصناعة ، والعوامل المؤثرة فيه .

* استاذ الجغرافيا ووكيل كلية الآداب لشئون خدمة المجتمع وتنمية البيئة - جامعة الإسكندرية

- وأما التفسير والتحليل :- فمن طريق رسم خريطة التنظيم المكاني للصناعة، وتحليل العوامل أو المتغيرات المكونة لهذا التنظيم^١.

- على حين تتعمل المشكلة والحل والتنبؤ :- في دراسة تركيب الصناعة وتنظيمها (أي هيكلها الحجمي والنوعي والإداري) والعوامل التي تعمل في ظلها (سياسية أو اقتصادية أو جغرافية) أملا في زيادة القدرة على المنافسة من خلال زيادة الجودة وخفض تكاليف الإنتاج إذ يقاس نجاح السلعة بمدى اتساع سوقها .

ولما كان المؤلف - كما هو معروف لدينا نحن الجغرافيين - متخصصاً ذا باع طويل في اقتصاديات الصناعة والتصنيع فقد قتم منهجه حلقة حلقة ، حتي وضع إطار المشكلة واقترح حلولاً لها وصولاً إلى الهدف المنشود من الدراسة وهو: تحليل التنظيم المكاني والتراكيب والأداء للصناعات الغذائية في مصر من منظور جغرافي . وجاء العرض في صورة بانوراما تشمل الصناعات الغذائية ككل (أي على المستوى الأفقي)، ثم على مستوى نوع الصناعة (أي على المستوى الرأسي) .

كما استخدام العديد من الأساليب الكمية والكارتوجرافية الهامة التي ساهمت كثيراً في عرض المادة العلمية، إضافة إلى قياس خصائص التركيب والتنظيم المكاني للصناعات الغذائية بصورة دقيقة، التي كان لها أثر عميق في استخلاص النتائج وتفسير العلاقات المكانية والارتباطات فيما بينها .

وأشار المؤلف إلى العديد من المفاهيم الأساسية والضرورية في مجال جغرافية الصناعة التي لا غنى عنها للمهتمين والباحثين في هذا المجال .

والجدير بالذكر أن المؤلف قد ضم صناعة استخراج الملح - وهي تضاف ضمن الصناعات الاستخراجية - إلى مجموعة الصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ، التي يعد التنوع الشديد أهم خصائصها . وركزت الدراسة على المرحلة

الوسطى - الصناعات التحويلية للغذاء - هي سلسلة الغذاء الواقعة بين مرحلة إنتاجه الزراعي ومرحلة تجارته وتوزيعه .

واستطاع المؤلف بخبرته الواسعة وإدراكه الكامل لحال الصناعة في مصر أن يحدد البعد الزمني لبيئات تشغيل الصناعات الغذائية في مصر منذ نشأتها في القرن التاسع عشر حتى نهاية القرن العشرين . ولهذا فالكتاب يستعرض بصورة سلسلة "قصة الصناعات الغذائية بمصر" - إن صح التعبير - .

ويبدأ الكتاب - الذي يحتوي على خمسة عشر فصلا - بالإشارة في مقدمته إلى تحديد موقع الصناعة التحويلية للغذاء من المنظومة الخطية للغذاء (زراعة - صناعة - تجارة) ، وهي موضوع الدراسة ، متاولا بإيجاز واف أثر التغيرات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية المحلية والعالمية على تنظيم هذه الصناعة وأدائها وأشار المؤلف إلى الهدف الأساسي من الدراسة ، وهو تحليل الخصائص الجغرافية والمتغيرات المكونة لنظام مجموعة للصناعات الغذائية وكيفية أدائها للوقوف على الضغوط والمشكلات التي تقف في طريق تطورها ونموها ، وأتسب للحد من أخطائها هذه العقبات والمشكلات حتى تصل إلى أعلى مستوى من الجودة والكفاءة .

● ويتناول الفصل الأول :- تطور الصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ، التي بدأت حرفية الطابع صغيرة الحجم، توطنت إما بجوار مصادر خاماتها، أو في أسواق استهلاكها، أو في موانئ تفرغ الخامات المستوردة. وتتبع المؤلف التطور الصناعي في مصر عامة، ونمو للصناعات الغذائية خاصة ، وقسمه إلى أربع مراحل رئيسية هي :-

المرحلة الأولى :- وهي مرحلة سيطرة الحكومة (أو أسرة محمد علي) من ١٨٠٥ إلى ١٩٠٠ م . وتميزت بظهور رأس المال الأجنبي في إنشاء العديد من

المصانع كبيرة الحجم بعد فشل " محمد علي " في تصنيع مصر . أما رأس المال الوطني فكان مقصوراً علي العمل بالصناعات الصغيرة .^١

المرحلة الثانية :- وتبدأ مع نهاية القرن التاسع عشر ، واستمرت حتى العقد السادس من القرن العشرين ، وهي مرحلة سيطرة القطاع الخاص الأجنبي - صاحب النسبة الكبرى - والمصري الأقل أهمية وحصر المؤلف سبعة عشر عاملاً أثرت في نمو الصناعة وتغير هيكلها ومحاورها . وانتهت هذه الفترة بتصير المصانع وتصفيه الرأسمالية الوطنية في عدة مجالات عقب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م .

المرحلة الثالث :- وهي مرحلة استطاع العام علي الصناعة المصرية (من ١٩٦٠ إلى ١٩٧٣ م) . واتسمت هذه المرحلة بنظام الاقتصاد الموجه والتخطيط المركزي ، وبعد التوطن المنظم واندماج كثير من الشركات أهم سمات الصناعات الغذائية في هذه الفترة . ورغم ذلك فإن حجم الإنتاج من بعض هذه الصناعات لم يغط حاجة الاستهلاك نظراً لانخفاض الطاقة الإنتاجية للمصانع . واستطاع المؤلف أن يحدد أسباب ذلك في عدة أمور نوجزها فيما يلي:

نقص الخامات ، القصور المالي والتسويقي، قدم الآلات، اضطراب الإدارة .

المرحلة الرابعة :- وتبدأ عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ (وهي مرحلة الانفتاح الاقتصادي والإصلاح المالي والخصخصة) وفي هذه المرحلة تخلت الدولة عن نظام التخطيط المركزي ، وسيطر القطاع الخاص من جديد حيث هيات الحكومة المناخ اللازم لذلك الانفتاح . وكان الدافع لنهج هذه السياسية هو قصور مالية الدولة وتفاقم مشكلات القطاع العام .

وتناول المؤلف بتحليل راق رقمي وموضوعي آثار الانفتاح والإصلاح المالي والخصخصة على الصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ . كما استطاع أن يوضح بأمانة وموضوعية وبأدلة قاطعة أن ما حدث ويحدث في بيع شركات

القطاع العام يكتفقه كثير من الغموض والتعقيد .

• ويركز الفصل الثاني :- علي دراسة تطور بعض هياكل الصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ بالإضافة إلي توضيح مظاهر التكامل الرأسي والأفقي في هذه الصناعات ، مع الإشارة إلي المشكلات والعقبات التي قابلت هذا التطور ، والجدير بالذكر أنه قد تتبع هذا التطور من خلال مراحل النمو الصناعي في مصر - التي قام المؤلف بوضع حدودها الزمنية أي منذ سيطرة أسرة "محمد علي" علي الصناعة المصرية حتي الوقت الحاضر (الخصخصة) ، بأسلوب نقدي تحليلي دون تحيز وبميزان كفته الأولي لا تجامل ، والثانية لا تظلم .

وتناول المؤلف بإيجاز واف وأحياناً بإسهاب غير ممل التغيرات الهيكلية والتنظيمية التي طرأت ، ليس فقط علي مستوى الصناعة ، بل علي مستوى بعض المصانع الرئيسية التي تعمل في نفس المجال .

• ويناقش الفصل الثالث :- التوزيع الجغرافي للصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ . ويهدف إلي تحديد المراكز الرئيسية لهذه الصناعة ، من خلال تحليل الأهمية النسبية والتوزيع الجغرافي لهيكلها النوعي ، ومدى تركيزها وانتشارها جغرافياً في مصر .

واستخدام المؤلف بعض الأساليب الكمية المناسبة للمتغيرات قيد الدراسة التي تحقق الهدف المنشود . وأظهرت الدراسة تصدر صناعة المخبوزات كافة هياكل الصناعات الغذائية من حيث عدد المصانع وعدد العاملين والقيمة المضافة كما صنف محافظات مصر تبعاً لمؤشر قوة الصناعة - أسلوب كمي - ثم تناول بإيجاز واف الهيكل النوعي للصناعات الغذائية في كل محافظة ، كما أشار أيضاً إلي بؤر الصناعة التي توجد في كل منها . ولم يغفل دور التحليل الكارنوجرافي - الخريطة - في توضيح الاختلافات المكانية لهذا التوزيع . وباستخدام دليل الانتشار - أسلوب كمي آخر - صنف هيكل الصناعات الغذائية

إلى أربع مجموعات حسب درجة تركيزها الجغرافي وانتشارها .
ونبه المؤلف إلى أن التركيز والانتشار الجغرافي ليست بأمور ثابتة ، بل في
تغير مستمر ، فهناك مصانع جديدة تنشأ وأخرى تتوقف عن العمل أو يعاد
توطينها

• وخصص الفصل الرابع :- لتوطن الصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ،
ولإدراك المؤلف بطبيعة هذه الصناعات التي تتشابه في خصائصها العامة،
وتختلف فيما بينها داخل كل مجموعة منها ، وبالتالي تتباين شروط توطينها، اقتصر
الدراسة هنا على مناقشة العوامل التي أثرت في اختيار مواقعها. أما تفاصيل عوامل
توطن كل هيكل فقد تمت معالجتها على مستوي كل صناعة عند دراستها .
وحدد المؤلف ثلاث زوايا رئيسية لتأثير الخامات على توطن الصناعات
الغذائية وهي: خصائص المادة الخام، التقنية المتبعة في معالجتها، إمكانية نقلها
إلى موقع الصناعة. كما وضع المتغيرات التي يجب تحليلها عند دراسة أثر
السوق ومنها: عدد السكان: خصائصهم الاجتماعية والاقتصادية، نمط
السكان (حضر، ريف، بادية)، الدخل، العادات الغذائية. وأظهرت الدراسة عدم
تجانس سوق المصنوعات الغذائية اقتصادياً واجتماعياً . كما صنف الصناعات
الغذائية تبعاً لطبيعة سوقها إلى :

صناعات سوقها قومية مثل : ضرب الأرز ولخري سوقها إقليمية مثل :
صناعة المشروبات الغازية وثالثة سوقها محلية مثل : المخبوزات .

كما ناقش المؤلف أثر تكلفة السوق على الصناعات الغذائية (أي تأثير النقل
على التوطن) وأساليب تسعير هذه المصنوعات. وعالج المؤلف بإيجاز واف أثر
كل من الطاقة والمياه ومساحة المصنع على توطن هذه الصناعة .

وترجع أهمية هذا الفصل إلى أنه يضع النقاط الأساسية لكيفية دراسة هذه
العوامل.

• أما الفصل الخامس :- فعلى الرغم من أنه يدرس التركيب (أو الهيكل) الحجمي للمصانع التي تعمل في إنتاج الصناعات الغذائية ، فإنه أشار في مقدمته إلى تعريف المنشأة وأسس تصنيفها معتمداً في ذلك على عدد من المراجع العربية والأجنبية. وفي هذا إفادة بالغة للمهتمين بهذا المجال .

وأظهرت الدراسة التحليلية والكارتوجرافية تميز قطاع الصناعات الغذائية بتعدد تركيبه وتنظيمه الإداري خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٨٩، ١٩٦٠م، أي بظهور القطاع الاستثماري حيث تنوعت أشكال المشروعات العاملة بالقطاع الخاص، وأدى هذا التغير الجوهري في التركيب والتنظيم الإداري إلى نشاط المنافسة بين مصانعها .

وناقش المتغيرات التي أثرت في تركيب المصانع الحجمي، والتي عند تغيرها بمقدار معين تتغير معها أحجام المصانع، وأشار إلى أن " الحجم الاقتصادي "المصنع مفهوم ديناميكي متغير غير ثابت ، ولتحديد الحجم الاقتصادي يمكن الاستعانة بخبرات الدول المتقدمة أو بالخبرات المصرية العاملة في نفس المجال. وأشار أيضاً إلى أن عدم قدرة المصنع على المنافسة ، إنما ترجع إلى ارتفاع تكلفة الإنتاج، وهذا يرجع إلى أن المصنع لم يتم إقامته بالحجم الاقتصادي. ولا يجوز إنشاء مصنع بحجم ما إلا إذا توفر سوق لاستيعاب منتجاته، وأن إمكانات تسويقها تسمح بتشغيله بقدر قريب من طاقته الإنتاجية .

ويعتبر كل من :- السوق، الطاقة الإنتاجية، التقنية المستخدمة، رأس المال، الموارد المتاحة، التكامل الرأسي. أهم المتغيرات التي تؤثر في حجم المصنع .

وأشار المؤلف إلى أن الارتباط المنظم بين الزراعة من ناحية والصناعات الغذائية من جهة لخرى ، وكذلك التكامل الرأسي في مصانع هذه الصناعات يساعد على تدعيم التنمية الإقليمية من خلال المركب الزراعي - الصناعي .

ولزيارة الاستفادة وضح كيفية استخدام مؤشر " بيرى " لقياس التجمع المتنوع - أي قياس النشاطات الصناعية المختلفة للمصنع الواحد - وهذا المقياس يفيد في تحديد مدى استغلال المصنع لأصوله بطريقة أكثر فاعلية ، كما تناول بشكل موجز كيفية التمثيل البياني لظاهرة التركيز (الاحتكار لسوق السلعة) .

ومما سبق نتبين أن دراسة التركيب الحجمي بهذا الأسلوب غاية في الأهمية، إذ إنها توضح الأحوال التي تعمل في ظلها المنشآت . ومدى الكفاءة في استخدام عوامل الإنتاج ، وأثر ذلك على الأسعار والانماج والتجمع المتنوع.

وقد خصص المؤلف الفصول من السادس إلى الرابع عشر لدراسة بعض هياكل للصناعات الغذائية باتباع نفس المنهج الذي رسمه لنفسه منذ البداية ، مع عرض لأهم المشكلات التي تقابل كل هيكل وكيفية حلها .

• الفصل السادس :- يناقش صناعة استخراج الملح ، من حيث المفاهيم والخامات وعوامل توطئها، بالإضافة إلى التوزيع الجغرافي لهيكلها، كما تناول الطاقة الإنتاجية وعمليات التصنيع على مستوى الملاحات المصرية وأشار إلى الأنواع المختلفة من الملح التي تنتجها مصر سواء للاستهلاك الأدمي أو للاستخدام الصناعي. أما المشكلات التي تعاني منها هذه الصناعة، فقد تناول منها أربعاً رئيسية بالتفصيل مع الإشارة إلى حلولها .

• ويعالج الفصل السابع :- صناعة الألبان ومنتجاتها، مبتدئاً بدراسة حجم مصدر المادة الخام (الماشية)، وإنتاج الألبان والعوامل المؤثرة فيه وتوزيعه الجغرافي، كما ناقش أنماط إنتاج الألبان الخام (نمط تقليدي ونمط متخصص) وتسويقها ومشكلات نقلها سواء للمستهلك أو للمصنع .

وتناول التوزيع الجغرافي لهيكل الصناعة من حيث عدد المصانع والعمال والقيمة المضافة، والمتغيرات التي حدثت في تنظيمها والمشكلات المتعلقة بهذا التوزيع. وأثبتت الدراسة انخفاض نسبة التشغيل (الطاقة الإنتاجية) في كافة

مصانع منتجات الألبان لعدة أسباب أهمها :

زيادة الواردات من منتجات الألبان، ضعف القدرة الشرائية للمستهلك، قصور السياسات التسويقية لبعض الشركات. بالإضافة إلى معاناة المصانع في مصر من نسبة فاقد عالية أثناء التصنيع (بسبب انقطاع التيار الكهربائي). ونقص كفاءة العاملين .

كما تناول التركيب الحجمي لمصانع الألبان ، وعوامل توطنها واختتم الدراسة بمناقشة مشكلة كمية اللبن الخام ومواصفاته ، ومشكلة الاستثمارات اللازمة للصناعة وطرق علاجها . كما أشار إلى بعض التجارب الدولية في هذا المجال للنهوض بهذه الصناعة .

• وخصص الفصل الثامن :- لصناعة الزيوت النباتية التي تعد من أهم هياكل الصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ في مصر. وأظهرت الدراسة التحليلية والكارتوجرافية تبين التوزيع الجغرافي لهذه الصناعة، التي تتوزع جغرافياً بين ٦١ مدينة وبلدة وقرية. وقام المؤلف بتقسيمها إلى أربع فئات حجمية من حيث أهميتها النسبية تبعاً لمعيار عدد العاملين ، كما صنف التوزيع الجغرافي لطاقت الإنتاج إلى خمس فئات حجمية وعلاقة ذلك بمسافات النقل وتكلفة الإنتاج. وأشار- بعد هذه الدراسة التحليلية - إلى ضرورة إعادة توطين بعض الوحدات الإنتاجية للجمع بين المكونات الثلاثة للمصنع الواحد (عصر، تكرير، عمل المرجرين) في موقع واحد بدلاً من تباثرها بين عدة مواقع جغرافية خفضاً لتكلفة النقل .

كما قام بتحليل أثر كل من المادة الخام والنقل والسياسة الحكومية في توطين صناعة الزيوت النباتية بمصر ، وأشار بإيجاز إلى تنظيم الصناعة وتركيبها الحجمي . وقد استطاع المؤلف - بمهارته وخبرته في هذا التخصص - أن يجمع جوانب مشكلة هذه الصناعة في أربعة محاور رئيسية تتمثل في : انخفاض الطاقة

الإنتاجية وتخلف التقنية ، وسوء التخزين والتعبئة ، واختناقات النقل ، والتشريعات الحكومية ، وأضاف إليها المشكلات المتعلقة بالبيئة ، ولم تنته الدراسة عند هذا الحد ، بل وضع الحلول المناسبة لهذه المشكلات (على المدى القصير والطويل) للمهتمين بهذه الصناعة .

• أما الفصل التاسع :- فيدرس صناعة السكر. ويبدأ بمناقشة محاصيل السكر الثلاثة (القصب ، البنجر ، الذرة السكرية) وأسباب زراعتها ، وأوجه الاختلاف بين مناطق زراعتها ومواسمها . كما تناول صناعة السكر من كل نوع مستخدماً أسلوب العرض الكارتوجرافي لتحديد نطاقات نفوذ مصانع السكر في مصر .

وخلص من الدراسة التحليلية للتوزيع الجغرافي لمصانع السكر حدوث تغيرات جوهرية في هذه الصناعة بعد عام ١٩٨١ ، وذلك بدخولها إلى الوجه البحري بعد أن كانت تتركز جنوباً للتركز جغرافياً في مصر العليا . وتناول أثر كل من الخامات ، والنقل ، الطاقة ، المياه ، المساحة ، السوق ، السياسات الحكومية على توطن صناعة السكر. كما أشار إلى أثر الصناعة على تلوث البيئة (لغازية ، السائلة ، الصلبة) ثم تتبع بعد ذلك التركيب الحجمي لمصانع السكر في مصر ، ومراحل نمو حجمها والعوامل المؤثرة فيه .

• ويتناول الفصل العاشر :- صناعة حفظ الخضار والفاكهة، التي يمكن أن تؤدي دوراً هاماً في التنمية الاقتصادية والاجتماعية بمصر. وبايجاز تناول أسباب تقدم هذه الصناعة والطرق والأساليب المستخدمة فيها مشيراً إلى فرصة مصر في تصدير منتجاتها، كما ألقى الضوء على الخامات المستخدمة هذه الصناعة (من حيث الإنتاج والجودة) وأساليب المصانع في الحصول عليها .

ثم تتبع بالتفسير والتحليل التوزيع الجغرافي لصناعة حفظ الخضار والفاكهة على مستوى محافظات مصر ، وأظهرت الدراسة أن الإسكندرية هي المركز الرئيسي لهذه الصناعة. وأشار إلى أن تغير السياسة الاقتصادية لمصر بعد

عام ١٩٧٣ كانت سبباً وراء انتعاش هذه الصناعة وزيادة إنتاجها. وتناول بالتحليل الإحصائي والكارتوجرافي التركيب الحجمي لصناعة الخضر والفاكهة على مستوي نوع القطاع (عام وخاص) وأسباب الاختلاف فيما بينها والمشكلات التي تعترض زيادة الحجم وطرق حلها. ولما عن توطن الصناعة، فقد تناول بالدراسة العوامل الأساسية المؤثرة فيه (خامات، نقل، حوافز الاستثمار، المياه، للمساحة) موضحاً مناطق توطن كل صناعة والعقبات التي تعترضها.

وأشار إلى البعد البيئي للمخلفات (الصلبة والسائلة والغازية) الناجمة عن هذه الصناعة.

ووضع عدة ضمانات لنجاح الصناعة، التي تعاني - كما ذكر - من ضعف وربطها الخلفية (مع الزراعة) والأمامية " (مع السوق) والجانبية (مع صناعة العبوات)، بالإضافة إلى انخفاض الطاقة الإنتاجية والكفاءة (أي الداخلية إن جازت لي الإضافة).

• ويناقش الفصل الحادي عشر :- صناعة الحلويات والشيكولاته والبسكويت من حيث الأنواع وأهم الخامات وعمليات التصنيع. وأشار المؤلف بعد دراسة تحليلية متأنية للتوزيع الجغرافي وتطور صناعة الحلويات والشيكولاته والبسكويت إلى حدوث انفجار في هذه الصناعة، بعد اتباع مضر لسياسة الانفتاح الاستهلاكي عام ١٩٧٣، والدليل على ذلك قفز عدد منشأتها الصناعية من ٩٥ مصنعاً عام ٩١/٩٠ إلى ٤٥٦ مصنعاً تقريباً عام ١٩٩٦. وتعد الإسكندرية والقاهرة والعاشر من رمضان أهم مراكز هذه الصناعة.

ويعتبر السوق أهم العوامل التي أثرت في توطن صناعة الحلويات نظراً لزيادة الوزن المنتج على وزن الخام المستخدم في صناعتها، وأشار إلى أن للقاعدة الاقتصادية في هذه الحالة تقضي بتوطن مثل تلك الصناعات في السوق تقيلاً لتكلفة النقل.

وأشار المؤلف إلى طبيعة الهيكل الحجمي والتنظيمي لصناعة الحلويات والشيكلات والبسكويت ومنتجاته والعوامل المؤثرة في كل من الإنتاج والاستهلاك .

• وخصص الفصل الثاني عشر :- لصناعة الأعلاف وناقش في مقدمته تطور الإنتاج والتشريعات الحكومية المنظمة لإنتاجه وتسويقه. وعند دراسته للتوزيع الجغرافي لصناعة الأعلاف أوضح أسباب عدم التطابق المكاني الكامل بين صناعتي الزيوت النباتية والأعلاف رغم ارتباطهما ببعض ، وأن الوجه البحري يعد المنطقة الأولى لهذه الصناعة في مصر وركز علي دراسة اثر السوق وتكلفة النقل في توطن مصانع الأعلاف بالإضافة إلى العوامل المؤثرة الأخرى . وأشار إلى طبيعة كل من التركيب الحجمي والتنظيمي لمصانع الأعلاف ومشكلات هذا التنظيم والتركيب . وفي نهاية الفصل تناول أنواع المنتج من الأعلاف وخصائص استهلاكه والعقبات التي تعترضه ، وكيفية التغلب عليها مع الإشارة إلى بعض التجارب الدولية في هذا المجال للاستفادة منها .

• ويركز الفصل الثالث عشر:- علي دراسة صناعة المشروبات -التي تسير علي أسس علمية - حيث قسمها إلى قسمين هما :- غازية وكحولية .

وتناول تعريف صناعة المياه الغازية ومستلزمات إنتاجها، ثم تتبع بالتحليل التوزيع الجغرافي لهيكلها من خلال طبيعة القطاع الذي تعمل فيه (العام، الاستثماري، الأهلي) وأظهرت هذه الدراسة تغير محاورها حيث أصبحت القاهرة المركز الرئيسي لصناعة المياه الغازية في مصر بعد عام ١٩٧٣، إذ لم تكن كذلك قبل هذا العام، كما أظهرت أيضا عدم الاتساق بين التوزيع الجغرافي لهذه الصناعة وجملة سكان مصر (حضر وريف) ، وناقش مبررات اختيار المواقع الجديدة لصناعة المياه الغازية ، وأشار إلى المواقع التي تحتاج إلى مثل هذه المشروعات. وتناول المؤلف المراحل التي تطورت خلالها صناعة المياه الغازية - ثلاث مراحل - أثناء دراسته لكل من الإنتاج والطاقة الإنتاجية وطبيعة

الاستهلاك، وبايجاز واف حدد أسباب الصراع غير المتكافئ بين القطاعين العام والاستثماري، الذي انتهى لصالح الأخيرة خلال مناقشته للمرحلة الأولى. وتدخلت الدولة في المرحلة الثانية. الأمر الذي أدى إلى إفلاس بعض المصانع الاستثمارية، وانتهى الصراع في المرحلة الثالثة، التي تم فيها خصخصة مصانع المياه الغازية التابعة للقطاع العام في ١٩٩٤ م.

وعن العوامل المؤثرة في توطن هذه الصناعة تم تناول الحاسمة منها وهي: السوق، النقل، المياه، المساحة اللازمة للمصنع .

وعند دراسته للمشروبات الكحولية أشار إلى موقف الشريعة الإسلامية منها - وهو ما يزيده ويتمسك به - وصنف هذه المشروبات إلى ثلاث مجموعات: المخمرة (البيرة)، المعصورة (النبذ) المقطرة (الويسكي) .

وتناول كل صنف من الأصناف الثلاثة من حيث عمليات التصنيع والتوزيع الجغرافي لمصانعها ، وقارن بين إنتاجها وطاقة المصانع الإنتاجية ، بالإضافة إلى عوامل توطنها ، حيث يغلب أثر السوق في توطن البيرة ، بينما يتغلب أثر المادة الخام على العوامل الأخرى في توطن النبذ .

وعلى الرغم من عدم تأييد المؤلف لهذه الصناعة ، إلا أنه ناقش بموضوعية أهم المشكلات والعقبات التي تعترض إنتاجها .

• أما الفصل الرابع عشر :- فخصص لصناعة التبغ التي تعتمد بالكامل على استيراد مادتها الخام من الخارج وعلى الرغم من أن هذه الصناعة تصنف ضمن الصناعات الغذائية ، فإنها ليست غذاء ولا شرباً بالمعنى المفهوم . وأشار إلى أسباب عدم زراعة مادتها الخام (الدخان) رغم إمكانية زراعته في مصر - كما كان الحال قبل عام ١٨٩٠م - إذ تمثل هذه الصناعة أهم مصادر الدعم المالية للمصرية لما تفرضه الحكومة عليها من رسوم جمركية وضرائب متنوعة. وأظهرت الدراسة تركيز صناعة التبغ المتطورة في : الجزيرة

والإسكندرية ، أي بسوقين كبيرين ، أما صناعة منتجات التبغ الشعبية (المعسل ودخان المدغة) فتتميز بانتشارها الجغرافي نظراً لكونها سلعة للخدمة الأسواق المحلية وعلى الأكثر الإقليمية .

وتناول المؤلف بإيجاز مراحل تصنيع أنواع التبغ المختلفة. وعن التوطن اقترح أن صناعة التبغ في مصر ليس لها علاقة بالريف منذ نشأتها نظراً لاعتمادها على المادة الخام المستوردة، ولذا توطنت بالسوق، وخاصة في المدن الكبرى وبعض المدن الإقليمية. كما أشار إلى أهم مشكلات الإنتاج، وتتبع بعد ذلك التركيب الحجمي للمصانع والعوامل المؤثرة فيه ، حيث أثبتت الدراسة عدم تجانس المصانع من حيث الحجم والتقنية ورأس المال وطرق التسويق .

• ويتناول الفصل الخامس عشر (الأخير) :- المشكلة والحل. ونظراً لطول هذا الموضوع، فقد قسمه المؤلف إلى قسمين: أحدهما يتناول المشكلة والآخر يعرض الحل.

وفي بدايته ناقش أركان مشكلة الفجوة الغذائية في مصر من خلال :
أهمية الصناعات الغذائية ، الإنتاج ، الاستهلاك . وتم وضع الإطار العام للمشكلات التي تعاني منها الصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ في النقاط التالية : الملكية واتخاذ القرار ، نقص المادة الخام وتدني جودتها كما أشار هنا إلى عدم وجود تكامل رأسي خلفي بين أي من الصناعات الغذائية وخاماتها ، ومشكلة تخلف التقنية وانخفاض الإنتاجية ، ومشكلة الدعم ، ومشكلة التلوث ، ومشكلة التوزيع والسوق .

• أما عن حل المشكلة :- فقد أضاف واجبات جديدة على الحكومة لإتماء الصناعات الغذائية وشرح دورها في ظل الخصخصة من مراقبة بيئة الإنتاج - المصنع - ووضع الاشتراطات الصحية اللازمة في إنتاج المصنوعات الغذائية.

كما وضع المؤلف خطة استراتيجية لانماء هذه الصناعات ومعالجة الأنشطة الاقتصادية والخدمات المساعدة لها .

الكتاب :- إذن يعد بمثابة شهادة علمية موضوعية على حالة الصناعات الغذائية والمشروبات والتبغ بمصر خلال القرن العشرين ، كما أنه يعد إضافة علمية متميزة للمكتبة العربية . كما أنه كتاب موسوعي يفتح الطريق أمام طلاب البحث العلمي لدراسة العديد من الموضوعات التي تناولها المؤلف ، بالإضافة إلى فائدته المنهجية التي سبقت الإشارة إليها . ولا تقتصر فائدته عند هذا الحد - المجال الأكاديمي - بل إنه ذو فائدة هامة لصناع القرار في البلاد وأصحاب رموس الأموال المهتمين بهذا النوع من الصناعة ، وخاصة لما تشهده مصر في خلال هذه الفترة من الاتجاه نحو الخصخصة .

النظرية السياسية النسوية

Feminist Political Theory

تأليف : Valerie - Bryson - فاليري بريسون.

الناشر : بالجراف - نيويورك (٢٠٠٣)، ٢٨١ صفحة

عرض : هاني خميس أحمد عبده (*)

لقد أهملت النظرية السياسية الغربية الاهتمام بالمرأة وقضاياها لفترة طويلة، وتذهب المؤلفة إلى أن هذا الكتاب يحاول أن يلقى الضوء على الحركة النسوية Feminism، إذ توضح إلى أنه تم استخدام هذا المصطلح خلال الثمانينات من القرن الثامن عشر ليشير إلى دعم ومساندة حقوق المرأة الاجتماعية والقانونية والاقتصادية والسياسية ومواجهة حالات القمع والسيطرة والخضوع واللامساواة، وسياسات التمييز التي تتعرض لها من جانب الرجل في المجتمع.

وقد قامت المؤلفة باستعراض عدد من القضايا والمداخل النظرية للحركات النسوية من خلال توضيح الارهاصات الأولى للفكر النسوي والحركات النسوية البريطانية، وأيضاً حركة التنوير والنسوية الليبرالية المبكرة، وتوضح أهم الافتراضات الأساسية للاشتراكيين المثاليين حول الحركة النسوية التي تمثلت فيما يلي:

- ١- إن الهدف من الحركات النسوية ليس مجرد الحقوق المتساوية بين الجنسين من خلال النسق القائم، ولكن من خلال التحول الراديكالي الذي يسمح بإزالة الملكية الخاصة أو تعديلها بما يحقق الاستقلال القانوني والاقتصادي للمرأة.
- ٢- إعادة النظر في التقسيم التقليدي للعمل بين الجنسين، فالأمر لا يتعلق بمكانة المرأة في الحياة الاقتصادية والإنتاجية وتفعيل دورها وحسب، وإنما يقترح أن يقوم الرجل بمشاركة المرأة في الأعمال المنزلية.
- ٣- إن الأسرة بوصفها تنظيمًا يعطي السلطة للرجل تعمدن معوقات فرص الاختيار

الحر للمرأة في مختلف مجالات الحياة اليومية.

٤- التعبير الحر عن المشاعر والحب، حيث يعد ذلك الأساس للمجتمع الحر الديمقراطي.

وقامت المؤلفة بمناقشة حقوق المرأة السياسية وحق المشاركة في التمثيل السياسي، وتم الرد على اتهام "ميل" في مقالته عن "الحكومة" (١٨٢٤) من جانب تومسون وميلر، حيث يزعم ميل "أنه ما دامت اهتمامات المرأة لا تتفصل عن زوجها أو والدها، فإنه ليس هناك حاجة للتمثيل السياسي المستقل للمرأة"، ويذهب تومسون وميلر إلى أن الاختلافات البيولوجية للمرأة لا يمكن أن تكون بمثابة معوق وظيفي لممارسة المرأة لحقوقها السياسية داخل المجتمع، فالمرأة مخلوق يتمتع بمهارات وكفاءة عقلية مماثلة للرجل.

واستعرضت المؤلفة الحركات النسوية في أواسط القرن التاسع عشر وتم التركيز على "ماري ستوريت" و"إليزابيث كادي ستانتون" في أمريكا و"جون ستوارت ميل" في بريطانيا، وفيما يتعلق بالمبادئ الأساسية للحركات النسوية في أمريكا، فيمكن تلخيصها على النحو التالي:

- ١- إن الله خلق الناس متساوين في الحقوق والواجبات.
- ٢- إن المرأة السوداء في أمريكا لم تشارك في حركات المناهضة للتمييز العنصري وحسب، بل كانت تمثل عنصراً أساسياً في تكوين وبناء هذه الحركات.
- ٣- إن المشكلة ليست في إنكار الاعتراف بالحقوق السياسية والقانونية للمرأة، بل في ممارسة العنف الجسدي ضد المرأة.
- ٤- إعادة النظر في تعليم البنات والأولاد لتغيير اتجاهات الذكور نحو الإناث من خلال العمل والتعليم سوياً، حيث يعد ذلك أساساً للمساواة في الحياة الزوجية بعد ذلك.

وفي بريطانيا تم الحديث عن حقوق المرأة والتأكيد على استفادة المجتمع من المهارات الخاصة بالرجل والمرأة على حد سواء، ومنح المرأة حقوق العمل

والتعليم والتصويت والمشاركة السياسية والتعايش السلمي مع الرجل في المجتمع. وناقشت المؤلفة الحركات النسوية بعد الحرب العالمية الثانية، إذ إنه بحلول عام ١٩٤٥ حققت المرأة في المجتمعات الغربية الديمقراطية درجة كبيرة من المساواة القانونية والسياسية مع الرجل، فلم يعد هناك استبعاد للمرأة من المشاركة السياسية والتعليم والعمل بالإضافة إلى الاستقلال النسبي للمرأة عند الزواج. ولقد كانت فرنسا في أواسط القرن العشرين مصدراً للحركة النسوية الجديدة، وكانت "سيمون دي بيويفوار" (١٩٠٨ - ١٩٨٦) من أبرز أنصار الحركة النسوية في فرنسا، حيث كانت تربطها صداقة بفيلسوف الوجودية "جان بول سارتر"، وقامت بتأليف "الجنس الثاني" The Second Sex وذهبت إلى أن المرأة تستطيع أن تحصل على الحرية مثل الرجل، وأن الحصول على الحرية الحقيقية لا يمكن أن يتحقق بدون الاشتراكية.

ويمكن القول إنه خلال السبعينيات من القرن العشرين أصبح هناك تقسيم للحركات النسوية المعاصرة إلى ليبرالية، وراديكالية، واشتراكية (ماركسية) وما بعد الحداثة، وقامت المؤلفة بتوضيح القضايا النظرية لكل مدخل من المداخل السابقة. وسوف نلقى الضوء بصورة موجزة على ذلك على النحو التالي:

١- النسوية الليبرالية Liberal Feminism:

ويسعى أنصار هذا الاتجاه إلى تحقيق مجتمع يقوم على مبادئ الحرية والمساواة واحترام حقوق الأفراد داخل المجتمع بالنسبة للرجل والمرأة معاً.

٢- النسوية الراديكالية Radical Feminism:

إن القوى الدافعة لتلك الحركات كانت رد فعل طبيعي لخبرات المرأة في الاشتراك في حركات الحقوق المدنية ومعاداة الحروب وحركات اليسار الجديد وحركات الطلاب في أمريكا الشمالية وأوروبا، ويؤمن أنصار النسوية الراديكالية أن السلطة الأبوية (التي كانت تزعم أن قدرة الملك على الناس، وقدرة الأب على الأسرة إنما يستمدان شرعيتهما من قداسة الرب والطبيعة) هي أساس هيمنة

الرجل على المرأة، وتم استعراض الانتقادات الموجهة إلى سيادة السلطة الأبوية على المرأة وما يسببه ذلك من هيمنة وقمع للمرأة، بالإضافة إلى نقد ممارسة المرأة للأعمال المنزلية والعنف من جانب الرجل ضدها.

٣- النسوية الاشتراكية Socialist Feminism:

بعد العشرينيات من القرن العشرين يمكن القول إن المجتمعات الشيوعية أسهمت بقدر ضئيل في تطوير الفكر النسوي، من خلال التأكيد على أن قضايا المرأة ومشاكلها نتاج المجتمع الرأسمالي، واستغلال المرأة في سوق العمل، واغتراب المرأة، وسوء أوضاع العمل في ظل النظام الرأسمالي. وفي النصف الثاني من القرن العشرين حدث تحول في هذا الاتجاه، حيث تم الابتعاد عن فكرة الحتمية الاقتصادية والصراع الطبقي نتيجة للتطورات في بناء المجتمع الرأسمالي والأساس التكنولوجي والبناء الطبقي، ونتيجة لما سبق حدث تحول في الاهتمامات داخل هذا الاتجاه، حيث أصبح الاهتمام بدور حول كيفية تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في ظل الأوضاع السائدة.

٤- نسوية ما بعد الحداثة Postmodernism Feminism:

تؤكد نسوية ما بعد الحداثة على التنوع والاختلاف وعلى محاولة حل المشاكل ومواجهة الصعاب التي كانت موجودة في الماضي، بالإضافة إلى التأكيد على المعنى الاجتماعي والممارسات الاجتماعية والقول بأن مشاكل المرأة نتاج للمجتمع والثقافة والأيدولوجية السائدة.

كما تناولت المؤلفة الحركات النسوية في كل من بريطانيا والولايات المتحدة والمانيا وروسيا وتأثير هذه الحركات بالاتجاه الماركسي من خلال القول بأن التحرر سوف يتحقق عن طريق نضال المرأة في الصراع الطبقي والوصول إلى العيش في المجتمع الاشتراكي الحر، بالإضافة إلى المناداة بحق المرأة في الانتخاب والتعليم وتقرير المصير وعدم تبعية المرأة للرجل سواء داخل المنزل أو خارجه. وينتهي هذا الكتاب إلى القول بأن الحركة النسوية اليوم في أزمة من خلال

القول بأنه بالرغم من حصول المرأة على الكثير من الحقوق والامتيازات إلا أن هناك الكثير بالنسبة للمرأة، إضافة إلى التفاوت بين دول العالم فيما يتعلق بحقوق المرأة وحصولها على تلك الحقوق، فما زال هناك الكثيرات يعشن في أوضاع معيشية متدهورة من حيث ارتفاع نسبة الفقر، وسوء أوضاع العمل والتعبية الاقتصادية الكاملة للرجل، وتذهب المؤلفة إلى القول بأن التصورات النظرية والخبرة العملية يشيران بصورة واضحة إلى أنه ليس هناك تفسير مبسط أو حل سريع لمشاكل المرأة، فنظرية الاتجاه الواحد One-Dimension Theory لا تساعد في فهم وتفسير أحوال المرأة، بالإضافة إلى صعوبة عزل الظاهرة وأسبابها بعضها عن بعض.

ومجمل القول إن هذا الكتاب يقدم رؤية عامة لنشأة الحركة النسوية وظهورها وكذلك الارهاصات الأولى خلال القرن الثامن عشر، وتوضيح أهم القضايا النظرية وأبرز الرواد مع توضيح المداخل النظرية المختلفة التي تسهم في فهم وتحليل الافتراضات والقضايا النظرية لكل مدخل. ويعد هذا الكتاب مرجعاً علمياً جيداً يفيد القارئ والمتخصص في هذا المجال ويتيح له فرصة التعرف بوضوح على الحركات النسوية في العالم ومراحل تطورها عبر قرنين من الزمان، للوقوف بصورة جلية على ما تم إنجازه من خلال هذا النضال الطويل للمرأة للحصول على حقوقها مثل الرجل. وإن كنت أرى أن الأديان السماوية لم تكن بغافلة عن حقوق المرأة، وأن ما حدث للمرأة من تدهور في بعض الأحيان إنما يرجع إلى ممارسات البشر وأفعالهم.

IV. Etudes et essais consacrés entièrement ou en partie à Frénaud

(par ordre chronologique)

1. Pingaud (Bernard), "*Entretien avec André Frénaud*" in *Courrier du centre international d'études poétiques*, no 156, 1990.
2. " *Pour Frénaud*", numéro spécial in *La Quinzaine littéraire*, 1993.
3. Schnyder (P.) "*Musicalité d'André Frénaud*", in *Critique*, 1993.
4. Seynes (Jean-Baptiste de), "*Rien ne se bâtit-sans cesse .*", in *Etudes*, 1994.
5. Little (Roger) " *Deux textes inconnus d'André Frénaud: contribution à une étude à faire sur Frénaud*", in *Revue de littérature comparée*, 1994.
6. Kéchichian (Patrick), " *Les rumeurs de l'inexprimable*", in *Le Monde*, 1995.
7. Noiret (Gérard) "*Frénaud et la Sorcière*", in *La Quinzaine littéraire*, 1995.
8. Munier (Roger), " *L'Etre et son poème*", in *Revue de métaphysique et de morale*, 1995
9. Chrohmalniceanu (Ovid), " *André Frénoud*", in *La Quinzaine littéraire*, 1997.

V. Ouvrages généraux

1. Collot (Michel), *La poésie moderne et la structure d'horizon*, PUF, 1993.
2. Broda (Martine), *L'Amour du nom, essai sur le lyrisme et sur la lyrique amoureuse*, José Corti, 1997.
3. Burgos (Jean), *Age d'or et Apocalypse*, Presses universitaires de Paris, Sorbonne, 1998.

Bibliographie

I. Corpus

Oeuvres d'André Frénaud:

- Les Rois Mages, Ed. Seghers, 1966
- L'Étape dans la clairière, Ed. Gallimard, 1966
- Il n'ya pas de paradis, " " " " " " 1967
- La Sainte Face, " " " " " " 1968
- Depuis toujours déjà, " " " " " " 1970
- La Sorcière de Rome, " " " " " " 1973
- Haeres, " " " " " " 1982
- Gloses à la Sorcière, " " " " " " 1995

N.B: La totalité des ouvrages d'André Frénaud se trouvent publiée aux éditions Gallimard.

II. Repères biographiques

Des éléments pour une biographie de Frénaud se trouvent dans:

- 1990 Europe, nos 734 – 735 (Daniel Leuwers: "*Repères chronologiques* ").
- 1993 André Frénaud. Galerie de la BPI. Dossier de presse préparé par Colette Timsit et Florence Verdeille.

III. Ouvrages critiques

(par ordre chronologique)

1. Drognet (Henri), André Frénaud, Ed. Gallimard, 1995.
2. Schnyder (Peter), André Frénaud: vers une plénitude non révélée, Ed. L'Harmattan, 1997.
3. Broome (Peter), André Frénaud, dans la crique: Du lieu du poème à l'univers, Ed. Le Temps qu'il fait, 1998.
4. Hutin (Geneviève), L'Ombre, la lumière, Ed. L'Harmattan, 1999.
5. Commère (Pascal), La grand'soif d'André Frénaud, Ed. Le Temps qu'il fait, 2001.
6. Bancquart (Marie – Claire), André Frénaud. La négation exigeante. Colloque de Cerisy (Collectif), Ed. Le temps qu'il fait, 2004.

quand se raye en hurlant le cristal de l'illumination".⁽¹⁾

Avec Frénaud, le risque, l'inimaginable ont été franchis. Et comme la réalité était pour lui un objet d'insatisfaction, son merveilleux se confondrait avec une évasion éperdue et frénétique.

A vrai dire, la poésie frénauldienne nous entraîne dans sa rumination ontologique tenaillante vers les sphères de l'imaginaire et de l'incroyable, de même elle a vertu de nous offrir l'expérience de l'énigmatique. Cependant, elle nous lègue quelque chose d'important, non seulement une vue sur nos propres gouffres, mais un esprit de dissidence qui renaît toujours de ses cendres afin de pouvoir assumer la tâche pénible: l'acceptation par l'homme de sa condition.

⁽¹⁾ La Sainte Face, op. cit. p. 43

Conclusion

Le questionnement qui caractérise la poétique frénauldienne met en évidence le simple fait que toutes les connaissances sont imparfaites. Défait de ses fausses certitudes, l'Homme a le devoir de s'admettre contradictoire et morcelé. Cependant ces questions ne sont pas là simplement pour révéler le processus de l'imperfection, mais plutôt pour montrer qu'il ya quand même une intelligence agissant sur le vide des absences, des énigmes, des incohérences.

De même, l'étoile des chevaliers errants dans *Les Rois Mages* luit toujours à l'horizon et la vie est un mouvement perpétuel. La marche des chevaliers à travers les montagnes est des plus dures. Rien ne permet de présager l'arrivée décisive. Cependant, l'important est de ne pas se laisser abattre et de poursuivre.

De la sorte, le propos terminal de *La Sorcière de Rome* ouvrirait plus nettement une direction, faisant entrevoir un ample champ à explorer. A travers le mythe de *La Sorcière*, je veux dire ses figurations mythiques et ses idéologies, le poète cherche à découvrir le sens de l'être au monde.

Frénaud apporte une contribution majeure au débat du réel et de l'imaginaire. Dans sa poésie, on passe du réel à l'onirique et vice versa. Le poète accorde une importance non négligeable à l'invisible, au souterrain, au caché. Ceci favorise le côté secret et mystérieux de la réalité.

La poésie frénauldienne est, en fait, le lieu d'un paradoxe. Une torsion est au coeur de cette poésie qui oscille entre les divers éléments. Pour elle, la matière est « poreuse », le temps élastique, l'espace un dynamisme à déchiffrer. Aussi propose-t-elle une intégration de la non-vie dans la vie. Un dépassement inclusif et le tour de magie est joué:

*" Mais il vous faut rester sous cette taie inlassable
Vous soulever encore, cendres, dans le grand fournier
où quelle haleine fait remuer votre cendre
pour risquer de devenir farine phosphorescente*

Les poèmes frénaldiens cernent toujours un mystère. Seul plane éventuellement un léger doute. Parfois les interrogations sont vouées à demeurer sans réponse:

*" La lumière qui sourd, de notre élan peut-être,
entamera-t-elle les nuées ? " (2)*

Certains constats semblent tuer des questions surgissantes:

*" Remords ou fuite ? Et que la roue dérape!
Cela suffit à m'arracher des larmes ! " (3)*

Associer la poésie frénaldienne au mouvement d'interrogation contemporain, tend à considérer la finalité de certains traits d'écriture dans *La Sorcière de Rome*. Tout incite à lire le poème comme une méditation sur le sort de l'homme contemporain quand ne demeurent plus vivantes que les interrogations, les déceptions et les inquiétudes.

La Sorcière de Rome est un exploit dans la tenue du mode interrogatif. Il combine, en quinze séquences, une soixantaine de groupes de questionnement, une vingtaine d'exclamations qui se différencient d'elles par un surcroît d'émotion, plus de cent cassures ou suspensions. L'écriture est constamment agitée par des significations contraires. Sans la moindre saturation, l'Histoire et l'être sont passés au crible, mis en cause:

*" Qui poursuit sa naissance ? Qui supporte les plaies ?
Qui o machiné natre loi ? Qui inventera l'innocence ? " (4)*

Le mouvement II de *La Sorcière de Rome* se termine ainsi:

" Que trouvions – nous marqué, que nous sachions lire ?

" Que se trouve-t-il marqué, que nous ne sachions dire " ? (5)

Loin d'affirmer la prééminence du sujet questionnant, la multiplicité des interrogations tend à le dissocier jusqu' à le rendre impersonnel.

(1) *La Sorcière de Rome*, p. 172

(2) *Il n'ya pas de paradis*, p. 81

(3) *La Sainte Face*, p. 113

(4) *La Sorcière de Rome*, p. 194

(5) *La Sorcière de Rome*, p. 118

Le monde est vide, il n'y a rien à vendre" (1)

Ce poème se déploie sur une chaîne d'anaphores; s'y ajoute un jeu raffiné d'assonnances qui fait naître chez le lecteur une stupéfiante surprise car les objets hétéroclites sont secrètement reliés entre eux.

Il n'y a pas de paradis fournit beaucoup d'exemples qui se réfèrent au vide, au dépouillement, à l'absence:

" Je me suis défait, inlassable.

*Dépouillé j'ai saisi pourquoi
Mes zéros, je les ai voulus*" (2)

" Cent mille ans de vagues, autant de feuillets inutiles " (3)

De temps à autre, les négatifs s'accumulent:

*" Nul mouvement, aucune forme
ne satisfera jamais notre impatience "* (4)

Dans *" La vie n'a pas main chaude "* le poète entame un dialogue entre *" Je "* et son alter ego. Cette alternance pousse le mouvement dialectique négatif à son point culminant:

" Dans l'écho de ton silence, ce n'est pas toi que tu entends.

Tout t'échappe et se tire. Ta voix se pétrifie " (5)

S'il fallait qualifier l'apport de Frénaud, je dirais qu'il définit un nouveau statut de la question. Les affrontements constants dans sa pensée, l'impossibilité de résoudre les antagonismes, finissent par constituer une forme de questionnement, quelle que soit la tournure stylistique employée. C'est la matière sémantique elle-même qui est interrogation. Cet aspect n'est pas exclusif. Frénaud se sert du point d'interrogation et de tous les acquis de la rhétorique pour donner du relief au discours, tout en ajoutant une touche éphémère de mystère.

Les interrogations assaillent le poète et paraissent parfois acculer son écriture à la suffocation:

*" Qui voulait usurper, mais qui l'abdiquera ?
Qui demandait pardon ? Qui pouvait l'accorder ? "* (1)

(1) La Sainte Face, *" Poèmes de dessous le plancher "*, *" Air du colporteur "*, p. 31

(2) Il n'y a pas de paradis, p. 120

(3) Ibid, p. 92

(4) Il n'y a pas de paradis, p. 28

(5) La Sainte Face, p. 113

Ainsi les diverses manifestations de la temporalité proposent une réorganisation du temps. Le temps n'est plus dès lors une expérience, mais une matière rebelle qu'il s'agit de vaincre:

*" Je tue le temps en taillant dans la houille.
Engorgé je me débarrasse ou j'essaie [...]
Je tue le temps. Si un faucon au poing j'allais,
Je saurais faire. " (1)*

Dans les vers suivants, la surprise de l'événement désoriente profondément le présent, fragmente le monde, conduit à douter de sa réalité même:

*" S'avance à pas lourds l'avenir aux faneux troubles.
- Il se prononce dans trop de cruauté.
- Il m'a trompé déjà. J'en distingue mal le visage.
- Je me force à l'espoir. Je suis seul. Je n'y vois pas " (2)*

Le Roi Mage retrouve l'animisme typique de la vision enfantine du monde. Lieux, choses, réalités diverses sont presque systématiquement précédés de ce " ô " qui ressemble à quelque oeil grand ouvert, lui – même émerveillé:

*" Ma vie morte, ô mon poids fertile " (3)
" O mémoires taries " (4)
" O chambre noire " (5)*

Cet emploi du vocatif et de l'adresse directe révèle une insistance poignante à renouveler le dialogue avec la création du présent et du passé. Que les apostrophes y abondent n'est donc pas surprenant.

" Air du colporteur " qui fait partie des " Poèmes de dessous le plancher " met à nu une des obsessions de Frénaud: le manque, l'absence se modèlent par l'évocation de ce qui n'est pas:

*" Pas d'échalotes, pas de lacets,
pas d'eau de saintes, pas d'almanach [...]
pas de choux rouges, pas de poison,
pas d'adultères ni fer ni mousse,
pas d'étoile de mer ni d'amour,
pas de nouvelles des nouveau-nés.*

(1) *Jl n'ya pas de paradis*, p. 20

(2) *Haeres*, p. 68

(3) *Les Rois Mages*, p. 160

(4) *Ibid.*, p. 129

(5) " " ", p. 83

au sortir du cycle des saisons". (1)

Ce qui compte, pour Frénaud, C'est une " *ascension (...) jusqu' à la source incertaine*" (2). Les poèmes de " *Chemins du vain espoir*" insérés dans le recueil *Il n'ya pas de paradis*, témoignent de cette montée sans reprendre haleine:

*" A travers mon coeur
et autres emblèmes
où il s'accomplit,
l'Esprit s'est levé" (3)*

Dans la poésie frénaldienne, la juxtaposition de styles et de temps crée des rapprochements imprévus comme autant d'invitations au voyage, comme ce visage d'animal qui " *crépète soudain à la façon d'une métaphore*" (4). La restructuration de l'espace onirique qui intègre de nombreuses données réelles est intimement liée à une perception du temps, qui, elle aussi, permet au merveilleux, à l'onirisme de s'allier au réalisme. De subites bouffées de merveilleux temporel apparaissent parfois quand le poète mentionne des durées étonnantes.

*"Il pleut des siècles je te cherche
dans les corridors du passé" (5)*

Et dans cet élargissement soudain de la perspective chronologique, l'imaginaire s'inscrit dans le thème de l'invers-ion du cours du temps, du retour magique aux sources, à la jeunesse du monde:

"O sangs qui remontez les fleuves des siècles". (6)

Dans *Les Rois Mages*, rêve et réel, ne cessent de se projeter, de se créer. Le temps domine tout. Et l'artisan qui profère sa maison en pierres sèches se métamorphose lui-même en rocher, dont il subit toutes les vicissitudes:

*" Dans le magma rocheux où s'effritaient nos corps,
J'étais pierraille et ronces, ma terre, ma tête o creuse". (7)*

(1) *Ibid*, p. 182

(2) " " " . p. 188

(3) *Il n'ya pas de paradis*, *Chemins du vain espoir*, " *A la grâce*", p. 122

(4) *Haeres*, p. 64

(5) *Il n'ya pas de paradis*., p. 130

(6) *Ibid*, p. 93

(7) *Les Rois Mages*, p. 68

qui s'enchevêtrent la totalité des figures déjà nommées⁽¹⁾.

De l'histoire de Rome et de ses mythologies, le poète s'empare pour en faire le lieu de la projection de ses fantasmes. Or la diversité des figures féminines qui apparaissent successivement dans le poème, symbolise, sur le plan ontologique, l'unité perdue et l'aspiration à l'accès privilégié du bonheur. En ce point, les lumières pourraient rejoindre les ténèbres.

Dans *Haeres*, le poète espère en la lumière et le monde se prépare à sa venue:

*" Et la lisière des peupliers pour donner figure
à la lumière qui va venir "*⁽²⁾

*" (.....) la lumière de partout saisit l'espace,
nous illumine "*⁽³⁾

La lumière apparaît soudain, elle surgit furtivement, éclaire un instant le paysage puis s'efface discrètement:

*" Les vergers brillent comme une promesse
plus claire sous les rochers qui s'effacent "*⁽⁴⁾

Fragile apparition qui ne subsiste qu'un moment: *" L'âpre montagne, modeste, s'illumine "*⁽⁵⁾ L'horizon, transfiguré parfois par la lumière, se peuple d'anges qui le sillonnent. Aussi l'ange n'apparaît-il que par instants, dans les formes changeantes des nuages:

*" Le sang d'un ange par les nuages,
qui m'attirait "*⁽⁶⁾

Et à mesure que le mouvement avance, se dessine l'image d'une promesse éblouissante et la nostalgie de l'éternité qui réside en l'homme:

*" Comme des hirondelles, ces deux anges (....)
se sont arrêtés là,
pour nous annoncer (...)
le retour du printemps perpétuel*

(1) *Gloses à la Sorcière*, op. cit. p. 75.

(2) *Haeres*, p. 91

(3) *Ibid.*, p. 40

(4) " " " p. 93

(5) " " " p. 94

(6) *Haeres*, p. 95

"De toi, de moi, d'où sortait la lumière ?"⁽¹⁾

Il fallait bien se connaître comme il fallait bien choisir "un autre visage pour constituer, de soi, la représentation finale"⁽²⁾. Et c'est là, à la frontière du réel et de l'irréel, que le poème acquiert une certaine confirmation et nous projette intensément ailleurs.

La poésie frénauldienne a toujours subi l'obsession du miroir, lieu de dialogue et de tension entre le réel et le virtuel, le possible et l'impossible. Dans *La Sainte Face* on rencontre les "bonshommes qui s'affairent sur le miroir"⁽³⁾. Jamais plus actifs qu'au moment du "dernier souffle de la dernière veillée"⁽⁴⁾. Et même si, après tant de regards échangés, le poète doit admettre en fin de compte que "mon seul témoin, c'est moi"⁽⁵⁾, il a besoin de l'Autre "J'ai besoin de me voir dans ce visage pour m'accomplir".⁽⁶⁾

tout est en jeu: jeu d'illumination et d'éclipse; équilibre délicat, entre le familier et l'étranger, le conciliable et l'inconciliable, tel que l'illustre "L'Enfant", où il est question de vie et de mort:

"si je l'approche, il cessera de m'éclairer [...]
Parfois pourtant il me regarde, il me sauve"⁽⁷⁾.

Les 747 vers de *La Sorcière de Rome* répartis en 15 mouvements forment le poème le plus long et le plus complexe de Frénaud.

Dans ce poème se produit de nombreuses personnifications féminines. La Mère est la Rédemptrice. Elle confie fantasmatiquement le pouvoir de sauver l'Homme. Pourtant, des enchaînements fantasmatiques analogues structurent tout le texte. En voici quelques – uns : "La nymphe du fleuve [...] la Vieille , personnage composite: c'est la Sorcière et c'est Rome la Mère toute puissante aussi, la Redoutable; puis la Vestale, la Sibylle, la Vierge Mère, Messaline ; enfin la Sorcière en personne, que l'on brûle, en

(1) " ", p. 71.

(2) Chrohmalniceanu (Ovid). op. cit. p. 103.

(3) *La Sainte Face*, p. 29.

(4) *La Sainte Face*. p. 28.

(5) *Haerz*, p. 292.

(6) *Il n'y a pas de paradis*, p.52.

(7) " ", "L'Enfant". p.41

question: "pourquoi naître et mourir". Le Roi Mage et ses compagnons connaissent l'amère et fatale solitude, la hantise de l'échec, aussi la dignité de l'homme écrasé mais non vaincu. Dans la commune misère, ils retrouvent la promesse d'une universelle fraternité. Voilà bien le pouvoir de cette poésie partie d'un échec fatal, elle s'élève à la libération de soi par soi. En dépit de l'échec de leurs entreprises, ces chevaliers avancent cependant en leur nom et au nom de tous les hommes, pour répondre à un signe ambigu et hasardeux, celui de *"L'aride soleil de l'Espérance"*. Et voici le Roi Mage qui avance

"au fracas des étopes croulantes de l'espérance"⁽¹⁾, car:

*"peut-être sur la dernière plage apercevrai-je un enfant radieux
et je m'envelopperai de ma lumière"⁽²⁾.*

Le rythme du vers implique de façon décisive son moi profond: le Roi ne cède nullement à la résignation. La conscience de l'inévitabilité de l'échec donne à sa voix rocailleuse, roulant des "r" constamment de nouvelles ressources pour proclamer la nécessité de reprendre l'expérience. D'où l'héroïsme de cette poésie comme l'a bien remarqué Ovid Chrohmalniceanu, poésie *"jamais démobilisée ou impassible"⁽³⁾*

De la même manière, on peut citer d'autres vers qui révèlent la même énergie inextinguible resurgissant de tous les désastres de l'existence, et à nouveau tendue vers l'absolu:

"Je sais que je poursuivrai l'entreprise dérisoire"⁽⁴⁾

"Tombe la foudre et le miracle explose,

Mo cave resplendit

Je suis ivre et je chante"⁽⁵⁾

"Salut, salut, mon possible arc – en – ciel "⁽⁶⁾.

La question qui résonne dans toute la poésie de Frénaud jaillit plus vibrante dans *Il n'y a pas de paradis "Qui parle?"⁽⁷⁾*

(1) *Les Rois Mages*, p. 191.

(2) *Ibid.*, p. 192.

(3) Chrohmalniceanu (Ovid), in *La Quinzaine littéraire*, 1997, "André Frénaud," p. 109.

(4) *Les Rois Mages*, p. 134.

(5) *Ibid.*, p. 112.

(6) *Il n'y a pas de paradis*, p. 71.

(7) *Ibid.* p.47.

la crête, le château disparaît⁽¹⁾. Autant d'habitations louches, inquiétantes s'accotent sinistrement aux contours d'édifices abandonnés et délabrés où il n'y a aucun accueil. "*Maison éteinte*", titre qui raconte toute une histoire, décrit une demeure autrefois ardente et pleine, mais enfermée maintenant dans un mutisme désespérant. Tout s'évanouit et le chevalier des Rois mages qui retourne dans la région de son enfance pour interroger les éléments épars d'un endroit autrefois cohérent ne trouve que cette confrontation désespérée:

*"le créneau n'y est plus, qu'on voyait par les fentes
La chute des colibris a dédoré les roches"* ⁽²⁾.

Pourtant l'itinéraire tragique que Frénaud raconte dans presque tous ses poèmes mythiques ne finit jamais à travers la désolation des errances. Aussi déclarait-il à Bernard Pingaud: "*A partir de la transformation de la détresse en un non - espoir assumé, une positivité était redevenue possible. A partir de ce rien justement. Positivité difficile, mais possible*" ⁽³⁾

Une lecture partielle de la poésie de Frénaud laisserait croire à l'impossibilité du bonheur. Dans tel ou tel poème du recueil *Depuis toujours déjà*, le désespoir s'aggrave, par exemple dans le poème "*Désastre*", le poète parvient à imposer l'omniprésence de la mort:

*"Le soleil frappant bas parmi le ceil veiné.
La promesse défunte.
Plus noir que la mort"* ⁽⁴⁾

Toutefois, le poète fait voir que l'absence totale de tout espoir, loin de favoriser le nihilisme, peut être un moyen de le vaincre. Une lueur fugitive peut certes s'esquisser à l'horizon. C'est pourquoi le Roi Mage, dans ses tout derniers instants, dit ceci:

*"Je connais mes blessures et j'attends d'autres peines
j'attends d'autres joies et je salue la vie"* ⁽⁵⁾

La poésie de Frénaud ne cesse de poser en filigrane cette

(1) *Les Rois Mages*, p.48.

(2) *Ibid*, p.48.

(3) Entretien de Bernard Pingaud avec le poète in *Courrier du centre international d'études poétiques*, n° 156, 1990 p.73.

(4) Frénaud, *Depuis toujours déjà*, « Désastre » Gallimard 1970. p. 99

(5) *Les Rois Mages*, p. 194

Dans "Où est mon pays", le poète insiste sur la lente destruction que le temps opère. Le coeur se révèle blessure face à la course conquérante et ravageuse de la mort. La destruction est inéluctable, le mal est incurable. Le grand souffle de la ruine parcourt les vers suivants:

*"Ah, qui saura retenir entre ses mains
les murs qui tombent, la fleur immuable,
les héritages démembrés, les puits taris?
Des familles éteintes, qui lira les noms
sur la mousse des tombes oubliées ?"*⁽¹⁾

Il ya dans la poésie de Frénaud, comme chez le Michaux de Mes propriétés des forces menaçantes qui risquent de bouleverser toute structure "Il ya des fêlures dans l'édifice que j'érige Il ya des éboulements dans la maison qui me soutient "⁽²⁾. Grouillements et gromellements séismiques risquent de faire sombrer les maisons. D'un poème à l'autre, d'un recueil au suivant, on rencontre structures qui s'effondrent, architectures croulantes. D'innombrables remuements dans les profondeurs empêchent le bâtiment de se tenir d'aplomb. Ainsi les cavaliers de la clairière n'arrivent jamais à bâtir:

*"Des postes de garde en quinconce
pour tenir en respect le remuement"*⁽³⁾.

Le poète, troublé par l'inéluctable attraction de la mort, laisse dire ceci:

" la peur aujourd'hui gémit en fleurs "⁽⁴⁾.

Les chevaliers errants des Rois Mages rôdent autour des terrains vagues et parmi des ruines. Tout s'imprime en noir "Jeunesse atteinte ainsi qu'un château noir".⁽⁵⁾ Les objets exhalent une odeur de mort et "causent sinistrement de leurs amours défunts"⁽⁶⁾.

A travers le pèlerinage interminable des chevaliers errants de Frénaud, on rencontre châteaux qui disparaissent "Au détour de

(1) " " " , "Où est mon pays?", p. 136

(2) La Sainte Face, p. 44.

(3) L'Etape dans la clairière, p. 12.

(4) Les Rois Mages, p 115

(5) Ibid, p. 37

(6) Il n' ya pas de paradis, p. 78

*" Ah, qui saura retenir entre ses mains
les murs qui tombent, la fleur immuable,
les héritages démembrés, les puits taris ?
Des familles éteintes, qui lira les noms
sur la mauve des tombes oubliées ? »⁽¹⁾*

Ainsi le temps n'est plus qu'une "grande fuite éperdue"⁽²⁾ et tous les cadres qui restaient se désagrègent:

*" J'entends gronder
Ce sont les pierres qui se détachent des années
C'est tout un pan de l'avenir qui se lézarde." ⁽³⁾*

C'est, en effet, avec un regard épouvanté que Frénaud fait surgir l'avenir dans sa poésie. Le temps se met en avance sur lui-même lorsque le poète se souvient de l'avenir, avenir qu'il redoute: "Le poids terreux de l'avenir"⁽⁴⁾. Il ne peut s'empêcher de penser à sa propre mort qu'il prévoit en songeant au passé, c'est-à-dire en revivant mentalement celle de ses parents:

*" Visages de moi - même
Il en est un au clair regard épouvanté
Qui tourne sans répit dans la clarté des chambres
Et se pose parfois sur un regard éteint"⁽⁵⁾.*

Avec l'inquiétude, la vision et le temps s'animent au rythme d'une ronde infernale. Et le conflit se fait constant dans la mesure où le poème établit avec le réel qu'il met en question une tension complexe "Je me suis reconnu et je reprends naissance"⁽⁶⁾.

Dans "Ménerbes", la pièce majestueuse du recueil Il n'ya pas de paradis, le plus souvent les trois temps se fondent: passé, présent, futur. Dans le déroulement du poème, le lecteur oublie la notion du temps, car le poète passe d'un plan à l'autre sans cesse. Il réussit, en effet, cette étrange équation à trois termes avec une facilité et une rapidité déconcertantes. Il s'ensuit une rêverie qui nourrit la mémoire "Plénitude venue des vieux temps ... O ravagée!"⁽⁷⁾

(1) " " " p. 34

(2) " " " p. 39

(3) " " " p. 62

(4) Il n' ya pas de paradis, "Où est mon pays" p. 134.

(5) *Ibid.*, p. 133.

(6) " " " p. 139

(7) " " " "Ménerbes". p. 150

le sont pas: bonne et brave fée en fin de compte, qui a tout l'air d'être la survivance d'une figure redoutable dont le pouvoir de récompenser et surtout de punir se serait affaire avec le temps".⁽¹⁾

Quelquefois, la Sorcière étend ses pouvoirs à la trouble lumière de la lune avec laquelle elle s'identifie partiellement: "*vers les lunes de mes deux yeux en noir*"⁽²⁾. Frénaud transpose même un autre élément de cette image mythique en faisant du corps de la Sorcière, par le biais du comparant, le doublet des torches: "*Et le blasphème de mon corps / Brandi vers Dieu comme une torche.*"⁽³⁾

Les métamorphoses que subit l'image de la Femme dans *La Sorcière de Rome*, a l'avantage de rendre compte de la visée existentielle du poète. Selon Georges Auclair la série de substitutions se poursuit ainsi: "*Celle qui donne la vie se prolonge dans la métamorphose de la tendresse en délire sexuel, lequel suscite aussitôt l'émergence de la grande Vestale condamnée au supplice pour avoir cnfreint son voeu de chasteté. Enterrée vive, elle ressuscite sous la forme de la Sibylle consultante, celle qui sait, qui prophétise et proteste contre ce qu'il ya d'inacceptable dans la condition humaine*".⁽⁴⁾

Le langage poétique de Frénaud dessine une grande figure du déclin; une nausée froide l'emporte:

*" Choque soir on range les cendres de la journée.
Chaque matin on remâche les cendres de la journée.
Le jour, la nuit, ton sablier à cendre"*.⁽⁵⁾

Le poème suggère une analogie entre le jour et la nuit, aussitôt élargie vers la vie et la mort:

*" Le temps, c'est l'allée fatale d'où vient ton ennemie,
l'étang natal où tu ne sauras pas avancer"*.⁽⁶⁾

La conscience de la fuite du temps révèle le manque obsessionnel, et la deperdition qui s'ensuit. Ici le poète insiste sur la lente destruction que le temps opère:

(1) Noiret (Gérard), Frénaud et la Sorcière, in *La Quinzaine littéraire*, 1995, p. 188

(2) *La Sorcière de Rome*, p. 122

(3) *Ibid.*, p. 98

(4) Noiret (Gérard), o.p. cit p. 172

(5) *La Sorcière de Rome*, p. 87

(6) *Ibid.*, p. 88

Les rats et les souris hantent la poésie de Frénaud avec étrangeté et inquiétude. Ils surgissent soudain et de manière inattendue. Le cortège fantasmatique des rats qui courent dans les cloaques cachés aussi sûrement qu'ils sortent par le cul du bois vermoulu de l'autel doré est évidemment des plus surprenants:

*"Le bois doré est vermoulu, les rats
sortiront de l'autel par le cul" (1)*

De même, les vaches et les veaux ne cessent d'imposer leur obsédante présence. L'auteur des *« Poèmes de dessous le plancher »* écrit:

*" Il ya des rats dans le pis de la vache, qui
crachent, quand je malaxe leur nez noirs,
une blancheur miraculée". (2)*

Etonnant poème où les rats aux nez noirs sont capables de créer le miracle d'une blancheur lactée, dans une dialectique éminemment complexe. Et c'est la *« vache bleue dans une ville »*, outrageusement colorée, défi vivant au réel, qui va *« les yeux fertilisant tout sur son passage »*. (3)

Le mythe du cheval est aussi le produit le plus complexe de l'imaginaire frénauldien. Dans *Haeres* le poème *« Vers l'infinité bleue »* montre clairement que, parmi les animaux bizarres et hétérogènes, il y en a un qui jouit d'un prestige et s'entoure d'une aura exceptionnel: *"Entre le chat, triple et un, et ce garçonnet chien tout dégingandé, se tenait au centre un merveilleux poulain, et il n'était pas douteux que ce fut lui le personnage principal" (4)*. Ainsi, le cheval traverse les *"eaux grasses du temps" (5)* et figure le mystère impénétrable de l'héritage des morts.

Dans *La Sorcière de Rome* le poète s'empare de la mythologie pour en faire le lieu de la projection de ses fantasmes. C'est d'une Mère mythique qu'il s'agit dans *La Sorcière*. Gérard Noiret, dans son commentaire, laisse entrevoir ce que la figure de femme qui hante le poète a d'ambigu, d'ambivalent: *" Elle apporte [.....] des friandises aux enfants sages et du charbon à ceux qui ne*

(1) *La Sainte Face*, p. 251

(2) *La Sainte Face*, p. 42

(3) *Haeres*, p. 135

(4) Frénaud, *Gloses à la Sorcière*, op. cit. p. 30

(5) *Il n ya pas de paradis*, p. 19

*"Ils hurlent à la mort, écoute! et leur cortège
s'enfuit, avec des pleurs, vers le néant ».*⁽¹⁾

Ici le processus d'animalisation pourrait être lu comme la transposition hyperbolisée de la cruauté et de la mort. On retrouve dans leur fuite « vers le néant » le signe de la mort. Ainsi la conscience imageante du poète intègre une figure emblématique puisée aux couches profondes de l'imagination pour aboutir à une représentation extrêmement épurée de la puissance de mort condensée en l'image d'un hurlement

L'inspiration frénauldienne, tirée vers les profondeurs, frôle la présence trouble des animaux. D'où le premier vers du poème « *Mauvais passé* »

"A l'orée des bêtes sombres".⁽²⁾

Ce poème prend place dans la partie terminale du recueil la Sainte Face où grouille et s'agite, toute une humanité monstrueuse et où l'on distingue images, et même fantasmes récurrents de l'oeuvre de Frénaud.

Dans la Sainte Face, les chevaliers passent devant d'innombrables façades qui bougent. C'est tour à tour « *un mur qu' éboule / l'ardeur de la salamandre* »⁽³⁾, « *les langues des serpents (qui) irriguaient ça et là parmi les pierres* »⁽⁴⁾, ou bien « *la bête monstrueuse qui naît sous les ruines* »⁽⁵⁾, et quoi de plus significatif que cette image architecturale de la bête insidieuse qui pénètre jusque dans l'abri intime pour s'insinuer entre deux corps:

*"De nos deux corps s'écoulait un profond serpent,
La bête s'élevait en colonne croulante
Jusque parmi la vermine splendide de ses seins."*⁽⁶⁾

De même dans « *Ménerbes* », on lit

*"Sous les voussures ornementées des trois rondes fenêtres,
Un scorpion rôde entre les lierres".*⁽⁷⁾

(1) Frénaud, *La Sainte Face*, Gallimard, 1968, p. 102

(2) *Ibid.* p. 148

(3) *La Sainte Face*. p.60

(4) *La Sainte Face*. p.58

(5) " " . p.56

(6) " " . p.85

(7) Il n'y a pas de paradis, « *Ménerbes* », op. cit. p. 97

dégrader. Ainsi la mort demeure l'expérience fondamentale dans Haeres:

*"J'ai nourri le poème avec la vie qui s'écroulait
dès l'origine ».*⁽¹⁾

Nombreux sont les poèmes de Haeres qui s'accrochent à l'idée de déperdition. Tout se passe comme si l'Absolu avait déserté le monde. Les maisons et les jardins se referment sur eux-mêmes et interdisent qu'on y pénètre. Le ciel est privé de lumière. Les hommes naissent, grandissent et meurent:

*" la mort
avec la terre est là, d'origine ».*⁽²⁾

De ses parents, on ne reçoit rien en héritage, sinon la vie et la mort:

*" L'héritage c'est l'ouverture du rempart,
et la mort chez moi, chez elle dans tous les coins ».*⁽³⁾

Cette vision tragique de l'homme dans le monde traverse les amples compositions épico-mythique de Frénaud comme **Les Rois Mages**, **L'Etape dans la clairière**, **La Sorcière de Rome**, etc., et commande l'émergence d'images dans lesquelles la mort est rêvée comme retour à la fusion originelle. Le motif de la folie en appellera un nouveau déploiement:

*" Je veux marcher vers la folie et ses soleils
ses blancs soleils de lune ou grand midi bizarres ».*⁽⁴⁾

Avec le mythe de la figure canine, il semble bien que l'onirisme frénaldien découvre la plus brûlante et à la fois la plus énigmatique de ses obsessions. Dans la riche galerie des figures animales relevées par Alain Suled,⁽⁵⁾ figure en premier celle du chien. On sait les liens établis par de nombreuses mythologies entre cet animal et les empires invisibles que régissent les divinités anciennes. Le poète articule ici des données primitives primordiales, empruntées au monde des archétypes et des mythes qui ont associé le chien à la mort, aux enfers, aux mondes du dessous:

⁽¹⁾ Haeres, op. cit. p. 73

⁽²⁾ Haeres, p. 38

⁽³⁾ Ibid., p. 53

⁽⁴⁾ L'Etape dans la clairière, p. 26

⁽⁵⁾ Suled (Alain), "L'ardoise noire de l'origine: André Frénaud", in Poésie, 1997

fondations aériennes fichées dans le terreau des rêves et des mythes. Et dans un poème qui s'intitule "*champ de la défaite*", le cheval s'élève ainsi dans le vers final:

*" Un cheval bai
qui était mort
s'envole ».*⁽¹⁾

Pour le poète de *L'Etape dans la clairière*, l'espace donne à respirer, il délivre, il ouvre sur la profondeur, suscite tous les essors, suggère au-delà de lui-même quelque chose d'encore plus ouvert: c'est tâche pénible pour les cavaliers de la clairière que de s'évader, pourtant il se produit sans cesse de nouvelles échappées:

*"C'est toujours épatant de partir
de s'évader dans un grand espace".*⁽²⁾

Parmi les poètes français du milieu du xx^e siècle, il ne s'en trouve pas beaucoup qui, comme Frénaud, se soient tournés avec autant d'insistance vers la dynamique originelle de la recreation. Le jeu de la mort et de la renaissance revient souvent comme emblème de la poésie frénaldienne. Structure et dissolution, nostalgie et déchéance, permanence et protuesses évanouies se tiennent en parfait équilibre. Là, dans un jeu de possession et de perte, visible et invisible, fragilité et fermeté s'enchevêtrent:

*« et la rose apparaît.
L'ouverture d'une rose,
même qui sait déjà n' être pas éternelle,
parmi la montée au château, invisible,
parmi l'embrasement d'une fleur unique
où nul ne sawas nous apercevoir
jamais plus, Rugena".*⁽³⁾

La poésie frénaldienne est constamment habitée par une immense inquiétude, une insatisfaction ontologique. Le sens de l'inachèvement, de la non-perfection coexiste tout naturellement avec cette inquiétude.

La rumeur de la mort ne cesse d'inquiéter le poète. A peine naît-on que l'on commence à mourir et la vie ne cesse de se

⁽¹⁾ Frénaud, *L'Etape dans la clairière*, op. cit. p. 78

⁽²⁾ *Ibid.*, p. 34

⁽³⁾ *Les Rois Mages*, o.p. cit. p. 24

*"Le temps, le lieu en bon accord ici
où le passé ne passe point".⁽¹⁾*

Mais avec une durée qui serait soustraite au temps, à ses vicissitudes, à l'Histoire:

" Déjà

le grondement où s'annulait le monde s'est tu ».⁽²⁾

Pour Frénaud l'onirisme soulage l'inconscient, il produit une décontraction, un repos de l'esprit. Il est signe de vitalité; il délivre du temps et ouvre l'espace. Le poème *"où est mon pays"* en est signe. Ce poème juxtapose des lieux divers vus à diverses époques ou même imaginés. Tout se mêle pour en composer un voyage infini et sans limites:

"C'est dans les lointains aux confins d'ici

C'est hier perdu sans avoir su luire

Ce n'est pas ailleurs, ce doit être ici".⁽³⁾

Il s'agit alors de se faire un refuge avec la réalité transfigurée pour renouer avec *" le passé accueillant "* comme avec un éternel présent:

" [...] je ne suis pas parti

Tout est là".⁽⁴⁾

Ainsi l'imaginaire est *" une réponse cherchée dans l'espace aux angoisses de l'homme devant la temporalité "*⁽⁵⁾, écrit très justement Jean Burgos: tel est l'effet d'un imaginaire créateur qui fait sauter les *" pièges rassurants des apparences paisibles "*.⁽⁶⁾

Comme Claudel comme Supervielle, comme ces rêveurs qui ne sont heureux que dans *" l'immense "* Frénaud est un poète de l'espace. Un espace supérieur situé au-delà de toutes les limites. Il s'agit donc bien avant tout d'une orientation spatiale chère à Frénaud: celle de l'espace ouvert.

L'espace ouvert est une image physiquement vécue de l'infini. De là son emprise sur le poète qui ne cesse pas de célébrer les

(1) *Ibid.*, p. 71

(2) Frénaud, *Il n'ya pas de paradis*, p. 52

(3) Frénaud, *Il n'ya pas de paradis*, p. 86

(4) " " ", p. 59

(5) Burgos (Jean), *Age d'or et Apocalypse*, Presses Universitaires de Paris, Sorbonne, 1998, p. 101

(6) *Ibid.*, p. 120

frénaldienne va de la vie quotidienne au mythe, des annales au rêve, à l'imaginaire, d'un seul mouvement. Cette poésie est en rapport avec un temps-non-temps, celui des morts et des légendes.

Il ya dans l'oeuvre de Frénaud une évidente nostalgie de l'originel, et cela ne devrait aucunement étonner. Se trouver sur le chemin du sens de l'être et de la présence, c'est forcément s'interroger sur le temps, la mort, la naissance, tout ce qui est en rapport avec l'individu, le cosmos.

Toutefois, pour nous en convaincre, voyons de plus près ce que cela peut bien signifier pour le poète. Les cavaliers de *L'Etape dans la clairière* comme ceux des Rois Mages sentent que leur halte n'est qu'un retour au temps de l'enfance et même de la naissance. Frénaud dans une glose écrit: *"Retrouvant l'eau et la naissance, la venue à l'existence à travers l'eau originelle, le voyageur retrouve le néant par lequel il a dû passer et qui est toujours là, comme il sera à la fin et à la source".*⁽¹⁾ Dou les derniers vers de *L'Etape dans la clairière* où le voyageur, regardant la clairière, s'exclame:

*"C'est ici où je voudrais m' évanouir
à l'instant où le monde est bon".*⁽²⁾

Dans *Haeres* paraît la nostalgie d'un temps immémorial où l'univers pourrait retourner à sa semence originelle:

*"Gloire et amour et l'oeuf unique
Tous embrasés, l'ar reconstitué".*⁽³⁾

Dans le recueil *Il n'ya pas de paradis* on peut repérer autant d'événements singuliers qui cheminent pour leur propre compte afin de constituer une vision cosmique et plantaire. Le temps lui-même perd ses prises; c'est un temps qui s'immobilise dans l'illimité, un temps qui a cessé de couler. D'où ces vers qui annoncent une déchirure:

*"Je veux quitter le temps qui ne m'a jamais aimé
Déposé là jusqu' à ce que l'on me prenne
Je suis fait pour disparaître hors de moi".*⁽⁴⁾

C'est pourtant avec la durée que le poète tente de s'identifier:

(1) Frénaud, *Gloses à la Sorcière*, op. cit., p. 62

(2) Frénaud (André), *L'Etape dans la clairière*, Gallimard, 1966, p. 219

(3) , *Haeres*, Gallimard, 1982, p. 36

(4) , *Il n'ya pas de paradis*, Gallimard, 1967, p. 54

célèbres personnages qui sont en marche pour saluer une naissance. Ces chevaliers errants se sont engagés à se frayer un chemin constamment réinventé. Et dans leur cheminement afin de réaliser un désir, un rêve, il ne peut être question de s'installer dans une durée sans bord:

*"L'homme ne sait pas répondre longtemps
à la bienveillance qu'il appelle".⁽¹⁾*

Dans ce recueil, viennent en fait s'introduire de nombreux poèmes qui montrent certes le parcours de Frénaud vers l'inquiétude questionneuse. Ces poèmes visent à éclairer l'expérience spirituelle qui commande la création poétique. Epris du monde sensible et soucieux de rester au plus près de l'évidence du réel, Frénaud demeure anxieux de la parole divine. Pourtant il recherche avec acharnement les traces de « *l'Erre caché qui refuse obstinément de se laisser apercevoir* ». ⁽²⁾

Les chevaliers poursuivent leur pèlerinage sans jamais trouver personne. Ils sont comme perdus: « *Chevaliers à la poursuite de la fuyante naissance* ». ⁽³⁾

Voyage sans fin et qui revient à son point de départ pour repartir aussitôt sans aucun espoir de parvenir au but. Pourtant, l'espoir demeure et suscite cet incessant désir de le chercher malgré tout. Et dans le dernier vers du poème « *Pour renaitre* » s'exprime fortement le caractère définitif et irrémédiable de ce voyage perpétuel:

"Mais je ne puis guérir d'un appel insensé".⁽⁴⁾

La conscience du temps demeure le foyer créateur des mythes, métaphores et images dont cette œuvre fourmille. Le mystère du temps est toujours présent, avec ses dimensions diverses et contradictoires.

Les Rois Mages est fortement enraciné dans un terroir très circonscrit, dans un milieu en apparence restreint: il s'agit d'une longue traversée dans un désert. Mais loin d'en être limité, le recueil y puise une intensité qui le rend parfaitement approprié à une tout autre terre, à un tout autre temps. [C'est que la poésie

⁽¹⁾ Frénaud, *Les Rois Mages*, Ed. Seghers, 1966, p. 48

⁽²⁾ *Ibid.*, p. 32.

⁽³⁾ ---, p. 35

⁽⁴⁾ ---, p. 96

son accomplissement même. Leur souci est alors d'éclairer ce qui demeure, au cœur du poème, incompréhensible. Telle est l'entreprise de Poe, par exemple, dans la *Genèse d'un poème*. Celle de Valéry commentant la genèse du *Cimetière marin*. Dans une certaine mesure, celle de Reverdy dans le *Livre de mon bord*. Celle encore de Ponge dans la *Fabrique du pré*, ou dans *Comment une figue de paroles et pourquoi*.

Qu'est-ce donc que composer un poème mythique ? Une première réponse consisterait à s'en remettre aux premières pages du commentaire de Frénaud sur les *Gloses à la Sorcière* : "*Un poème mythique, c'est un discours que l'on trame pour résoudre un conflit. Autrement dit, le poète mythique extériorise un débat en l'incarnant dans des figures mises à distance*".⁽¹⁾

Telle est la nécessité, par exemple, du personnage de la Sorcière, à la fois mère dévastatrice et victime expiatoire.

Frénaud nous prévient dans son commentaire qu'il cherche à découvrir le sens de l'être au monde. Le poète pressent un sentiment de perdition, de vertige, d'inquiétante étrangeté face à « *cet objet qui n'est pas étranger quoique étrange* ».⁽²⁾ C'est à ce frémissement de l'être, cette rumeur, ce grondement, qu'il éprouve dans sa parole.

En réalité, ce qui intéresse Frénaud c'est comment agrandir les acteurs de ses poèmes aux dimensions de héros mythiques. Ces héros participent, comme l'a bien remarqué Roger Munier « *d'une vision originelle grandiose et violente, agonique même dont le poète a charge de raconter l'histoire. Cette vision, Frénaud la nomme indistinctement tragique ou mythique* ». ⁽³⁾ Ainsi s'élabore dans *La Sorcière de Rome* comme dans beaucoup d'autres recueils, la notion de poème mythique.

Il me semble tout d'abord important de réfléchir sur le sens de certains des titres des recueils frénaldiens. Et l'un d'eux pourrait constituer un raccourci saisissant de la métaphysique qui semble sous-tendre toute cette oeuvre. Je prends à titre d'exemple le premier recueil du poète *Les Rois Mages* dont le titre désigne de

⁽¹⁾ *Gloses à la Sorcière*, op. cit. p. 122.

⁽²⁾ *Gloses à la Sorcière*, op. cit. p. 120.

⁽³⁾ Munier (Roger), "*L'Etre et son poème*", in *Revue de métaphysique et de morale*, 1995, p. 48

de poèmes, à quel esprit renvoie-t-on cette construction même, quelle connaissance délivre-t-elle comme totalité ? Toutes ces questions, la poésie d'André Frénaud nous aide à les formuler d'une manière singulière. C'est pourquoi je suivrai le poète dans une interrogation sur les voies ambiguës et fragiles que peut prendre l'Humanité. Je m'arrêterai sur les grands poèmes qui ont souvent, pour le poète, fonction d'expliquer et de commenter métaphoriquement le mystère fascinant de la création.

Tout dans l'oeuvre de Frénaud semble procéder du domaine de l'onirisme, être le produit spontané, jaillissant d'une émotion ou d'un laisser aller de l'imaginaire, ce qui conduit le lecteur à distinguer dans sa poésie une gratuité foncière, productrice à la fois de surprises, de fantasmes et de interrogations.

La poésie frénaldienne est fortement singulière et unique dans la mesure où l'interrogation porte toujours sur le pourquoi, le comment, et même sur le quoi ou le qui :

« Qui gémit qui conspire ? qui retient les torrents ? ».⁽¹⁾

« Qu' est - ce qui se passe par ma bouche ? ».⁽²⁾

Toutes ces questions circonstanciées relèvent en réalité d'une perspective ontologique sur la poésie.

On peut bien sûr admettre que de telles questions restent dénuées de sens tant qu'aucun lecteur n'est venu de l'extérieur les formuler explicitement. Or, chercher à découvrir le sens, énoncer l'essence intérieure, constitue d'évidence le travail du poète lui-même.

L'édification, entre 1963 et 1982, de son imposant monument poétique, *La Sorcière de Rome*, fut accompagnée et largement suivie de notes abondantes qui tentent d'éclairer le travail en cours. La publication des *Gloses à la Sorcière*⁽³⁾ cède évidemment au désir de l'élucidation. Le titre de "Gloses", d'ailleurs, dit bien le sens de cet effort : explication d'un texte obscur par des mots plus intelligibles.

On connaît, bien sûr, bon nombre de ses semblables jalonnant leur oeuvre de commentaires et de réflexions destinés à expliquer

⁽¹⁾ Frénaud, *La Sorcière de Rome*, op. cit. p. 64

⁽²⁾ *Ibid.*, p. 58

⁽³⁾ Frénaud, *Gloses à la Sorcière*, entretiens avec Bernard Pingaud, Gallimard, 1995

La poésie d'André Frénaud est extrêmement surprenante parce qu'elle commande les turbulences d'une écriture parfois déconcertante. Dans son oeuvre hardie, on le voit répéter le même type de création, user des mêmes accents, des mêmes tics de langage, exprimer les mêmes obsessions, les mêmes fantasmes. On peut voir chez lui une créativité féconde, ingénieuse, de procédés d'écriture parfois risqués, de fictions, d'épopées mythiques, un poète qui ne manque jamais de provoquer l'étonnement.

Ya-t-il rupture entre le mythe et la poésie ? A mon avis, non; l'une ne se conçoit pas sans l'autre. Le poète doit être toujours entraîné vers l'imaginaire, l'exceptionnel, le surprenant. A quoi va-t-on rêver ? quand on revêt d'imaginaire le tangible, on le charge de significations neuves et pourtant attendues. Les poètes modernes, même les plus libérés, éprouvent le besoin d'une délivrance et la nostalgie d'un autre monde moins impur et moins décevant. Ils substituent leur réalité à celle du monde et cherchent dans l'imaginaire l'image primitive qui compense l'imperfection du monde moderne. Beaucoup éprouvent l'étrange impression de quitter en effet le monde, de vivre hors de lui, au-dessus du temps et de l'espace.

Pour Frénaud, rien ne montre mieux ce qu'est devenue la poésie: non plus seulement quelque élan lyrique, quelque cri ou plainte, mais l'obstination à pénétrer l'impénétrable, à suggérer au moins ses dimensions, sa proximité. D'où l'attrait pour tout ce qui est surprenant et onirique.

Dans cet article, deux approches convergentes sont à respecter: d'abord la description statique d'un Néant tragiquement exalté, véritable obsession, qui hante l'oeuvre entière. On envisagera ensuite sous la forme d'une structure dynamique ce Néant, devenu image de totalité heureuse.

Quel genre de savoir nous transmet un poème frénaldien ? Ces mots, par exemple, qu'on lit au début de *La Sorcière de Rome*:

*"Des bêtes affamées sont dans les ruelles,
rongent les auges ténébreuses".⁽¹⁾*

Comment entendre ce qu'ils livrent ? et si, dépassant les limites étroites d'un fragment, on essaie d'envisager un ensemble construit

⁽¹⁾ Frénaud (André), *La Sorcière de Rome*, Gallimard, 1973, p. 26.

Dr. Aimen A. Maghrabi

- Kharama, N. (1987) Arab Students' problems with the English relative clause. *International Review of Applied Linguistics*, xxv, 3, 257-266.
- Lado, R. (1957). *Linguistic across cultures*. Ann Arbor: University of Michigan Press.
- Leonard, D., Gilsdorf, J. (1990). Language in Change: academics' and executives' perceptions of usage errors. *The Journal of Business Communication*, 27, 2, 137-158.
- Lutz, J. A. (1987). A study of professional and experienced writers revising and editing at the computer with pen and paper. *Research in the Teaching of English*, 21, 4, 398-421.
- Maghrabi, A. (1991). The Pro-Drop Parameter in Arabic-speaking Learners of English as a Second Language. Unpublished master thesis. Colorado State University, Colorado.
- Maghrabi, A. (1997). The Roles of psycholinguistic constraints and typological influence in the acquisition of pronominal copies in relativization by Arabic and English learners. Unpublished doctoral dissertation. Georgetown University, Washington, D.C.
- Maik, T. A. (1987). Word processing in the business writing classroom: Applications and reactions. *The Bulletin of the Association for Business Communication*, 50, 4, 4-6.
- McCallister, C., & Louth, R. (1988). The effect of word processing on the quality of basic writers' revisions. *Research in the teaching of English*, 22, 4, 417-427.
- McCuthen, D., Hull, G. A. & Smith, W. L. (1987). Editing strategies and error correction in basic writing. *Written Communication*, 4, 2, 139-154.
- Pearce, C. & R. Baker. (1991). A comparison of business communication quality between computer written and handwritten samples. *The Journal of Business Communication* 28, 2, 141-151.
- Rutherford, W. (1987). *Second Language Grammar: Learning and Teaching*. London: Longman.
- Santos, T. (1988). Professors' reactions to the academic writing of nonnative speaking students. *TESOL Quarterly*, 22, 69-90.
- Schachter, J. (1974). An error in error analysis. *Language Learning*, 24, 205-214.
- Schmidt, R. (1990). The role of consciousness in second language learning. *Applied Linguistics*, 11, 129-158.

References

- Burt, M. K. and C. Kiparsky. (1974). Global and local mistakes. In *New Frontiers in second language learning*, John H. Schumann and Nancy Stenson (Eds.), 71-80. Rowley, Massachusetts: Newbury House Publishers, Inc.
- Burt, M. K. (1975). Error analysis in the adult EFL classroom. *TESOL Quarterly*, 9, 1, pp.53-63.
- Burt, M., H. Dulay (eds.). (1975). On TESOL'75: New directions in second language learning, teaching, and bilingual education. Washington D.C.: TESOL.
- Collier, R. (1983). The word Processor and revision strategies. *College Composition and Communication*, 35, 149-155.
- Corder, S. P. (1974). Error analysis. In Allen, J. and S.P. Corder (eds.) *The Edinburgh course in applied linguistics*, V3. London: Oxford University Press.
- Corder, S. P. (1967). The significance of learner's errors. *International Review of Applied Linguistics*, 5,2, 161-170.
- Daiute, C.(1986). Physical and cognitive factors in revising: Insights from studies with computers. *Research in the Teaching of English*, 20, 2,141-159.
- Dorn, E.M.(1999). Case method instruction in the business-writing classroom. *Business Communication Quarterly*, V 62,N 1, pp. 41-63.
- Doughty, C.(1991). Second language instruction does make a difference: evidence from an empirical study on SL relativization. *Studies in Second Language Acquisition* 13:431-69.
- Fotos, S.(1993). Consciousness raising and noticing through focus on form: Grammar task performance versus formal instruction. *Applied Linguistics*, 14,4, 385-407.
- Gass, S. and Madden, C. (eds.) (1985). *Input in second language acquisition*. Newbury House, Rowley: Mass.
- Hooper, S.C.(1987) *Using word processors in high school and college writing instruction: A critical review of current literature*. Towson, MD: Calvert Hall College Prep High School.
- Howisher, G. (1987). The effects of word processing on the revision strategies of college freshmen, *Research in the Teaching of English*, 21,2, 145-159.
- Ioup, G., and A. Kruse.(1977). Interference versus structural complexity as a predictor of second language relative acquisition. In C.Henning (ed.) *Proceedings of the second language research forum*. Los Angeles: UCLA

APPENDIX A**Judgment Test****INSTRUCTIONS:**

Read each of the following sentences carefully. If the sentence is correct, put /. If the sentence is incorrect, put X. Each incorrect sentence contains only one error. Correct each incorrect sentence in terms of any of the following categories:

Lexical Errors: Word usage

Grammatical Errors: Grammar

1. She accepted the complement graciously.
2. The word processor was sold for half it's value.
3. The presentations of the student were excellent.
4. She refused to except the proposal for the project.
5. That was the principle reason for the decrease in profit.
6. Neither of the men paid their bill.
7. Please lay the supplies on the desk.
8. Not all firms list the recipients' full names on the memo.
9. There will be little effect on operations from the change in ownership of the firm.
10. The cite selected for our conference has the required equipment.
11. Bickey and Bates has paid their fees last order.
12. The employees are too busy with there reports.
13. Its too late to submit the budget request.
14. Whom is chairing the meeting?
15. Ann is the type of the person who we can depend upon.
16. If I ask for her advise, she may not help.
17. Mary and myself will take care of the details.
18. There are too reasons for refusing the offer.
19. Not only the actress but also the dancer has to practice their routine.
20. The chairman of the session--Mr. James Kent-- is director of personal at Raytheon Corporation

Many students overlook content for language, otherwise they could have caught some of these errors. Bonuses should be considered for error-free documents.

- Instructors should consider developing some techniques and strategies to minimize these similar errors in ESL/EFL classes or even in business communication classes in order to advance the writing skill of the graduates of business schools to match the requirement and expectations of effective business and managerial communications in the business industry.
- Small groups can be formed to edit sentences or paragraphs in order to develop their editing skill as explained in Bell et al's study (Bell, Stoddard, Perry, and Waters, 1994).

would learn them appropriately. In addition, the concept of noticing (Fotos, 1993; Schmidt, 1990) could be considered to enable students to consciously or unconsciously notice such problematic areas in their use of the L2.

The following are some practical recommendations that should be considered in order to help researchers, teachers, and textbook designers to minimize such problematic language areas.

- Students should be given extra exercises that focus on the selected categories to increase awareness and noticing, and consequently learning/acquisition. Customized structured classes should be offered to help those students who have problems with these issues. Students should be engaged in special sessions that deal with such problematic areas.
- Teachers shouldn't overlook or postpone treatment of such errors; otherwise this instills in students' inter-language and never learned/acquired appropriately and correctly.
- Textbooks' designers should highlight these categories in the curriculum for students to notice in order to facilitate learning. Special lessons should be designed in EFL/ESL textbook series to highlight these problematic areas for business students, and ESP students in general. Lessons on these similar mechanical and grammatical features should be injected in the syllabus, especially lexical usage.
- Although this study considers only native speakers of Arabic, a similar study that investigates these points by native speakers of different languages would give us a clear picture in the sense of considering this as a phenomenon that may require special attention. A bi-directional study would be a good idea to consider too.
- Students should be enforced to proofread their written products for language errors not only for content errors.

In general, the results indicate that native speakers of Arabic do allow the occurrence of ungrammatical forms as well as words. The results show that MIS group does better than MKT group in the judgment test as a whole. In particular, the MIS group does better than the MKT group in the form and lexical usage components.

Discussion and Pedagogical Suggestions

This study investigates the acceptability of some English language errors as perceived by some Saudi Arabian undergraduate students in a technical institution. The subjects were given a 20-item judgment test written in English in order to identify some syntactic and semantic errors.

The results of this study indicate that Arabic-speaking users of English need to pay more attention to such errors whether some consider them local or global. These students may have not received sufficient instruction in these language points. Instruction is needed in these areas to minimize any confusion or misunderstanding that might result from committing such errors in the production of English. In addition, looking at such errors as trivial by students (and possibly by teachers) has resulted in the allowance of such errors although the students are somewhat advanced students. If appropriate care were taken in the curriculum in terms of lesson planning or instruction, such errors would have been minimal.

Consequently, students should be instructed to notice these categories in language instruction, so that the chance of committing such errors is decreased. Such instruction could be explicit or implicit. The concepts of consciousness raising (Sharwood Smith, 1981; Rutherford, 1987) and/or input enhancement (Gass & Madden, 1985; VanPatten, 1989, 1990, 1993; VanPatten & Cadierno, 1993; Doughty, 1991) could be employed to enable instructors to highlight such errors in the curriculum. These pedagogical approaches involve highlighting language problematic areas so that students

grammatically incorrect in English in terms of word usage and form usage). The subjects were instructed to mark their judgment (i.e., / for correct and x for incorrect) on the same paper.

Second, the subjects were informed that in case a sentence was judged incorrect, they were instructed to correct the incorrect sentence. They were instructed to correct each sentence in terms of whatever applies of the two categories to grant the correctness of each sentence because they were told that there should be no more than one error in each sentence. That is, they had to look for one of the errors considered in this study in order to grant grammaticality to the incorrect sentence.

Analysis of Data & Findings

Once question sheets were collected, raw data was graded and coded into answer sheets as per subject's judgment (i.e., whether correct or incorrect). Since the subjects were required to judge the grammaticality of each sentence (i.e., either correct or incorrect), the method of scoring was used.

Table (5): Results of Groups General Performance

Group	N	X	SD
MIS	53	11.72	13.21
MKT	43	10.64	12.87

Table (6): Results of Groups Specific Performance (Per Category)

Group		N	X	SD
MIS	Semantic Errors	53	5.02	13.94
	Syntactic Errors	53	6.70	16.71
MKT	Semantic Errors	43	4.50	15.34
	Syntactic Errors	43	6.14	17.33

take two English composition courses and one technical writing course. This technical institution offers classes in engineering, computer, and management sciences in which English is the language of instruction for all courses.

The Elicitation Measure

The Instrument

A 20-item judgment test written in English was used to collect the data; 10 items focus on syntax and 10 items focus on semantics (See Appendix A). The test comprises 16 incorrect and 4 correct sentences. The incorrect sentences were divided into two major categories: 8 sentences contain syntactic errors (i.e., it's vs. its, was vs. were, has vs. have, who vs. whom) and 8 sentences contain semantic errors (i.e., complement vs. compliment, except vs. accept, principle vs. principal, lay vs. lie, effect vs. affect, cite vs. site, there vs. their, advise vs. advice, two vs. too, personal vs. personnel) (See Table 1 and Appendix A)

Table (3): Portions of Error Types Used

Judgment Status	Types of Errors	
	Semantic	Syntactic
	Word Usage	Form Usage
Correct Sentences	2	2
Incorrect Sentences	8	8

Table (4): Number of Correct and Incorrect Items Used

Grammaticality Status	Types of Errors	
	Semantic	Syntactic
	Word Usage	Form Usage
Correct Sentences	7, 9	3, 8
Incorrect Sentences	1, 4, 5, 10, 12, 16, 18, 20	2, 6, 11, 13, 14, 15, 17, 19

The Procedure

The subjects were required to do two tasks to answer the test. First, they were instructed to read each sentence, and then judge the grammaticality of each sentence (i.e., whether they think each sentence is either grammatically correct or

Based on the results of the above-mentioned studies, it is very essential to investigate this significant issue of research. A closer look at this area of research would enable curriculum designers and teachers to improve the pedagogical process and delivery as a whole. Ignoring it would prolong it or maybe transfer it to the fossilization phase. This study investigates this issue and forward pedagogical suggestions for those concerned in the pedagogy of language and communication.

Methodology

Arabic students of business schools could encounter specific problems in the learning of English linguistic structures. The types of errors selected in this study include syntactic and semantic areas. By syntactic errors, it is meant any errors that students allow in the use of grammatical structures or forms in English constructions. By semantic errors, it is meant any errors that students allow in the use of words or lexical usage in English constructions.

Subjects

96 male students voluntarily participated in the study. All subjects were taking a business communication course in a technical institution. The subjects represent two majors: 43 students are Marketing (MKT) major and 53 students are Management Information Systems (MIS) majors (See Table 1).

Table (1): Number of Subjects Per Major

MKT	MIS
43	53

The subjects who participated in the study had had instruction in English in public schools 4 classes per week from grade six to grade twelve. Once admitted to the University, those students enrolled in a one-year academic program taking 20 hours in English, 4 hours in math, 2 hours in mechanical engineering, and 2 hours in physical education per week. All classes were offered in English. Then, those students were promoted to freshman standing in which they

quotation marks, hyphens, numbers, and italics. They suggest that reliance on technology alone is not the answer because the computer software cannot catch some of these errors. Spelling checkers will not help in selecting the appropriate meaning (i.e., principal vs. principle, except vs. accept, etc.) Grammar checkers will not help in selecting the appropriate form (i.e., its vs. it's). This is exactly what will be examined in this paper. This confirms the suggestion regarding sharpening the editing and proofreading skills of any writer.

One study suggests the desirability of internationally teaching editing skills in conjunction with grammar instruction. (Stoddard and Bell, 1991). Another study shows that teaching grammar and editing improves the editing skills of student writers. It was found that the mean score on an editing dependent variable for students in a grammar/editing group was 29.9; and the mean score in a nongrammatical/nonediting group was 18.1-a highly significant difference (Stoddard, Bell, and Perry, 1993).

A study was conducted to examine two methods of teaching proofreading and editing skills (i.e., traditional and traditional plus a computer-assisted program) (Shanahan and Holmquist, 1994). The purpose of the study was to investigate the relationship between (a) instruction using traditional teacher-directed methods only and (b) instruction using a grammar style checker in teaching proofreading and editing skills to business communication students. The results show that there is no significant difference between the project scores of the experimental and control groups. Further research is needed in this area before generalizations can be confirmed.

Instruction in L2 writing is not sufficient to eliminate some syntactic and semantic errors such as the errors under investigation in this study. Therefore, special instruction in proofreading and/or editing is expected to help L2 learners to produce error-free language.

communication skills. The questionnaire employed a five-point Likert-type (i.e., strongly agree – strongly disagree) and a five-point semantic differential scale (i.e., important – not important). Demographic data like gender, major, year in school, and grade point average were also included. The results indicate that students attach a significant level of importance to communication skills, and to class assignments in improving such skills. The study shows the need for more communication instruction, especially for marketing majors.

Some might argue that students could use word processors or computer software to improve their writing since this is the era of technology and that students do not need to handwrite their documents. This line of research brings various research results. Such research has shown that the writing tool is not the variable that influences success in business writing (Pearce and Baker, 1991; Hooper, 1987; Howisher, 1987). Many researchers have found that using word processors for writing enhances communication (Maik, 1987; McCallister, 1988; McCuthen, Hull, and Smith, 1987). Whereas other researchers have found no difference between using word processing vs. handwriting (Lutz, 1987; Dainte, 1986), Collier (1983) found no difference in quality between both. A word of caution needs to be stated in the sense that some of these errors cannot be overcome by word processing software (i.e., that vs. who, its vs. it's, accept vs. except, their vs. there, etc.). Therefore, developing editing and proofreading skills are an important merit of any writer. Editing or proofreading, here, is defined as the ability to recognize and eliminate errors in word choices, punctuation, spelling, capitalization, and similar written deficiencies. In other words, a good and proficient writer will be able to recognize and identify his written errors and be able to eliminate them.

Whitterbung, Flatley, and Raabe (1987) examined the most commonly committed errors found in a large sample of writing exercises. They found that these errors include:

on content; when the wrong word is used, the meaning is very likely to be obscured.

Vann, Meyer, and Loreuz (1984) examine faculty response to written errors of students who are non-native speakers of English. 164 respondents ranked the relative gravity of 12 typical ESL written errors occurring in 24 sentences. The results indicate that most respondents did not judge all errors as equally grievous; rather, their judgments generate a hierarchy of errors. Among the twelve types of error that were selected to be investigated are: spelling, articles, comma splice, prepositions, pronoun agreement, subject-verb agreement, word choice, relative clauses, tense, it-deletion, and word order.

Editing and proofreading are found to be highly important skills that business communicators should pay attention to and consider when communicating in the workplace. Non-native speakers should develop these skills to communicate messages. Dorn (1999) interviews 25 participants who represent a cross-section of industry and work at a variety of levels within their organizations. Half of the participants are at senior and executive levels of their organizations, 42% of the participants identify themselves as mid-level employees, and the rest are entry-level employees. The participants rank explanation, summary, description, analysis, editing, and critical thinking as 'most important' on a three-point scale. This shows that editing is one of the highly important skills business communicators should pay attention to and consider when communicating in the workplace.

Hite, Bellizzi, and McKinly (1987) investigate marketing student attitudes toward communication skills, and how marketing classes (and assignments) are rated in terms of helping to improve communication skills. A total of 394 male and female undergraduate marketing students at a major western university responded to a questionnaire that include 35 items to determine their attitudes with regard to

evaluation (i.e., post-secondary business communication teachers and executive vice presidents) of 45 written usage elements through a 4-page questionnaire using a three-point scale. The findings offer educational insights in the sense of pointing out the possible errors that students might encounter when writing documents.

Williams, Scriven, and Wayne (1991) study the ranking of the top 75 misused similar words that 353 business communication students confuse most often. These include pairs like anxious/eager, all right/alright, principle/principal, bi-monthly/semi-monthly, etc. The results with regard to age, gender, year in college, major, and grade-point-average indicate that a significant difference was obtained for the age groupings analyzed (less than 25, 26-40, and 41 and over). No significant difference was found in the performance on the test for gender. A significant difference existed when the data were analyzed by year in college, by major field of study, and by GPA. This study provides communication teachers with a list of the 75 most frequently confused word groupings to be considered in teaching communication to business students, which is part of my study.

Santos (1988) investigates the rating of 178 professors of two 400-word compositions written by a Chinese student and a Korean student on a six 10-point scales based on content, development, and language. The results show that content received lower ratings than language. The language of the essays written by these two non-native speaker students was rated higher than the content. Also, professors found that the errors are highly comprehensible, generally non-irritating, but academically unacceptable. It was found that the lexical errors were rated as the most serious of language errors. The results suggest the need for greater emphasis on vocabulary improvement and lexical selection. The professors considered the errors in the essays linguistically unacceptable. It is precisely with the lexical error that language impinges directly

Review of Literature

Research in the field of SLA has shown that students commit different kinds of errors which enable us to understand the processes and factors involved in the learning/acquisition process (Corder, 1967, 1974; Burt, 1975; Burt and Dulay, 1975; Burt and Kiparsky, 1974; Dulay and Burt, 1974). Studies of Contrastive Analysis (CA) (Lado, 1957), Error Analysis (EA) (Corder, 1967), Creative Construction (Bailey, Madden, and Krashen, 1974), and language transfer phenomena (Selinker, 1969, 1972) play very important roles in the understanding of how languages are learned/acquired by speakers of various mother tongues.

One line of research in particular has shown that there are different types of errors that Arab students perceive and/or produce throughout their IL system (Schachter, 1974; Ioup and Kruse, 1977; Gass 1979; Thompson-Panos and Thomas-Ruzic, 1983; Kharama, 1987; and Maghrabi, 1991, 1997). Such errors could create difficulties for Arab learners of English in the process of language learning and acquisition. Researchers and instructors need to be aware of such errors in order to tackle them appropriately.

Business practitioners (i.e., students and employees) should possess fundamental writing skills in order to successfully communicate in the workplace. Writers who fail to check for grammar, mechanical and usage errors risk confusing their readers. They may lose credibility with their readers as well. Such errors may distract the reader, cause confusion or interruption, delay comprehension, cause misunderstandings, hinder communication, and reflect negatively on the writer's abilities. In addition, acceptance of these errors in L2 forms results in a weak image of the writer of any communication activity. Such errors should be looked at carefully and seriously, and all business practitioners should not consider them trivial.

The significance of errors in business communication is emphasized by many studies. Leonard and Gilsdorf (1990) examined two different educated reading audiences'

Introduction

Linguistic errors that students commit are very significant for researchers and teachers in the field of second language acquisition (SLA). Errors help researchers to understand the underlying processes and mechanisms of language learning/acquisition that learners have in their inter-language (IL). On the other hand, errors help teachers to see ways to tackle these difficulties in curriculum design and base improved lesson plans and instruction on the results. Both researchers and teachers need to work together to understand the multi factors involved in the production of errors, and consequently minimize these linguistic errors that learners exhibit when using the second language (L2).

This paper investigates Arab speakers'* judgment of some English constructions containing syntactic and semantic errors. The English language errors include errors that these students could produce or perceive as acceptable or correct in the L2 when they communicate in the workplace.

Rationale of the Study

Students of business majors, like any language learners, are expected to encounter linguistic problems in semantics, syntax, morphology, phonetics, and phonology when using another language in communication, especially native speakers of Arabic using English as a means of business communication.

The rationale of selecting the types of errors is based on the researcher's analysis of students' assignments (i.e., memos, letters, reports, and proposals) in a business communication course. The errors selected were found to be frequent errors in students' assignments.

* This paper was submitted to The 6th Pan-Pacific Association of Applied Linguistics(PAAL) Conference, Cheju National University, Cheju Island, Korea, July 30-August 1, 2001. This paper is a version of a long study.

Dr. Aimen A. Maghrabi



Faculty of Arts



University of Alexandria

Academic

Refereed

Bulletin of the Faculty of Arts

Issue No. 53

2004